

تَقْدِيرًا

الْمَلَكِ الْمُرْتَدِّ

إعداد
مُحِبَّةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ

المجلد الثاني



دار السيدية
للطباعة والنشر

مركز تخطيط القرآن الكريم
بالتبصرة البصرة

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

دار الصمعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السعودي، شارع السعودي العام - الرياض
ص.ب: ٤٩٦٧ / الرمز البريدي: ١١٤١٢ هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaic@hotmail.com

نَفْسِيَّةٌ
الْمَلِكِيَّةُ الْمُنَوَّرَةُ

تفسير
الملك من المنيورة

إعداد
مجموعة من العلماء

المجلد الثاني

دار الصبيحي
للنشر والتوزيع

مركز توعية القرآن الكريم
بالمدينة المنورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النزول: مكية.

فضل السورة:

تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

وَمِنْ فَضْلِهَا أَيْضاً: مَا رَوَاهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ

عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ». (أخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم ٨٠٩).

المقاصد:

- ١ - تقرير أصول العقيدة بأنواع من القصص الواعظة.
- ٢ - بيان قصة أهل الكهف، وما فيها من المعالم الإيمانية، والثبات على الدين.
- ٣ - بيان قصة موسى والخضر، وما فيها من آداب العلم.
- ٤ - الحذر من فتنة المال في قصة الرجلين: الغني صاحب الجنتين، والمسكين.
- ٥ - الترغيب في إقامة العدل بين الناس في قصة ذي القرنين.
- ٦ - عَرْضُ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ بَعْدَ أُسَالِيبِ.
- ٧ - بيان فضل العلم والعلماء، وفضل التواضع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۙ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۙ ﴿٢﴾ مَكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۙ ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۙ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۙ ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِندًا ۙ الْحَدِيثَ آسَفًا ۙ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۙ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُؤًا ۙ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير:

١-٤ - الثناء الكامل، والشكر لله المعبود بحق، الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ القرآن الذي من صفته أنه صحيح المباني، فصيح المعاني، لم ينحرف عن الصواب، فهو مستقيم واضح، لا تناقض فيه ولا اضطراب؛ لكي يُنذِرَ به الكفار من عذاب النار، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا وما فيها من النعيم، يقيمون في ذلك النعيم إلى الأبد، وَيُنذِرُ بِهِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا وَقَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا!

٥ - ليس لهم ولا لآبائهم بهذا الافتراء دليلٌ ثابت صحيح، فما أعظم الافتراء في هذه الكلمة الخبيثة التي خرجت من أفواه الكفار، والتي تكاد السماء والأرض تتزلزلان منها! ما يقولون إلا قولاً كاذباً.

٦ - لَا تُهْلِكُ نَفْسَكَ - أيها النبي - حُزْنًا عَلَىٰ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ دَعْوَتِكَ، وتكذيبهم بهذا القرآن.

٧-٨ - إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ جَمَالًا وَكَمَالًا لَهَا، ومنفعة لأهلها؛ لنختبرهم، وننظر: أَيُّهُمْ أَطْوَعُ لِلَّهِ، وأحسن عملاً لآخرته. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ زِينَةِ تَرَابًا لَا نَبَاتَ فِيهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وجوب الشكر والثناء لله تعالى على نعمه الكبرى.
- ٢ - عظمة القرآن الكريم بِنَظْمِهِ، وَأَحْكَامِهِ، ووضوحه، وأخباره.
- ٣ - النَّهْيُ عَنْ أذى النَّفْسِ نَدْمًا عَلَى شَيْءٍ لَا قُدْرَةَ لِلْمَرْءِ فِيهِ.
- ٤ - من جلاء الأحزان وذهاب الهموم: النظرُ والاعتبار في حقيقة الدنيا، ومصيرها.
- ٥ - الدعوة إلى إحسان العمل وإتقانه، وذلك بموافقته وجمعه لمراد الله من إخلاص ومتابعة.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٩- بل أظننت - أيها النبي - أن قصة أصحاب الغار في الجبل من أهل وادي الرقيم كانت عجيبة فحسب، بل كان ما في آياتنا أعجب!

١٠-١٢- يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ ﷺ بِقِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، حِينَ لَجَأَ الشُّبَّانُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْغَارِ؛ فَرَارًا بِدِينِهِمْ مِنَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ، فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا أَعْطِنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تُكْرِمُنَا بِهَا، وَأَصْلِحْ لَنَا أَمْرَنَا لِلْهُدَايَةِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ. فَالْقِينَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ الثَّقِيلَ مَدَّةً طَوِيلَةً فِي الْكَهْفِ، ثُمَّ أَيْقَظْنَاهُمْ مِنْ نَوْمِهِمْ؛ لِتَكُونَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ مَعْرِفَةً عَلِيمِنَا: مَنْ أَصَابَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ فِي تَقْدِيرِ مَكْرَاهِيهِمْ؟

١٣-١٤- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - خَبْرَهُمُ الْعَظِيمَ بِالصِّدْقِ. إِنَّهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّبَّانِ صَدَّقُوا بِرَبِّهِمْ، وَزِدْنَاهُمْ ثِبَاتًا عَلَى الْحَقِّ، وَقَوَّيْنَا قُلُوبَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالِاطْمِئْنَانِ، حِينَ قَامُوا مُخَالَفِينَ لِقَوْمِهِمُ الْكُفَّارَ، فَقَالُوا لَهُمْ: رَبَّنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ وَحْدَهُ، هُوَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، لَنْ نَشْرِكَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْآلِهَةِ. إِنْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ فَقَدْ تَجَاوَزْنَا، وَانْحَرَفْنَا بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ.

١٥- وَتَشَاوَرَ الْفِتْيَانُ فِي أَمْرِهِمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ، حَتَّى قَرَّرُوا الْعِزْلَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا، فَهَلَّا يَأْتُونَ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى صِدْقِ عِبَادَتِهِمْ! لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَعَمَّدَ الْكُذْبَ عَلَى اللَّهِ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ تَعَالَى.

١٦- مَا دَمْتُمْ قَدْ اعْتَزَلْتُمُ الْقَوْمَ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَوْثَانِ، فَالْجُؤُوا إِلَى الْكَهْفِ يَبْسُطُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُسَهِّلُ لَكُمْ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ طَعَامٍ وَمَتَاعٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الاستفادة من قصة أهل الكهف في الثبات على الحق.
- ٢ - جواز الهجرة من المكان الذي فيه اضطهاد في الدين.
- ٣ - تكريم الله تعالى عباده المتقين.
- ٤ - ينظر: صورة موقع الكهف، كما في الملحق.
- ٥ - إذا لقي الداعية أذى أو مضايقة في دعوته فليَصْبِرْ وليَحْتَسِبْ، ولا يُقاس على أهل الكهف إلا إذا ضاقت الأمور، ولم يكن أمامه مخرج إلا العزلة أو الهجرة.
- ٦ - حاجة الداعية إلى العلم النافع والبصيرة النافذة، والبديهة الحاضرة، والقراءة المتأنية للأحداث، ومعايشة الواقع، واستشراف المستقبل، والتخطيط الدقيق.
- ٧ - حاجة الدعاة إلى روح الألفة والتعاون والمدارسة، والحوار الهادف.

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَلَهُ. وَلِيَا مُرَشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِهِمْ آلًا قَالِ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ عَهْدًا أَنَّكُمْ لَيَسَّاءُونَ لَكُمْ يَوْمَ تَلْقَوْنَ أَزْوَاجَكُمْ يَوْمَ تَقُولُونَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَخْرَجْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكِرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلِيُثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير:

١٧ - وترى - أيها المخاطب - الشمس إذا طلعت تميل عن الغار يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا يؤذيهم حرُّ الشمس، ولا يُجْرْمُونَ من فوائدها، وهم في مُتَّسِعٍ من الغار؛ لَيْسَهُلَّ عَلَيْهِمْ تَنْفُسُ الْهَوَاءِ. ذلك المذكور من التدبير الرباني لعباده المؤمنين من أدلة قدرة الله العظيمة. مَنْ يُوقِّفَهُ اللهُ تعالى للإيمان فهو المهتدي حقاً، وَمَنْ يُضِلِّهِ بسوء عمله فلن تجد له مَنْ يهديه ويرشده.

١٨ - ولو رأيتهم - أيها الناظر - لظننتهم أيقاظاً، والواقع أنهم نيام، ونُقَلِّبُهُمْ من جانب إلى جانب من أجل التهوية، ولكيلا تتآكل الأجسام بالتصاقها المستمر في الأرض، في تلك المدة الطويلة، وكلبهم باسط

ذراعيه في فناء الغار من جهة الباب كأنه يحرسهم، لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لَفَرِغَتْ منهم هارباً، وملتت منهم خوفاً.

١٩- وكما ألقينا عليهم النومَ، وحَفِظْنَاهم، أيقظناهم من نومهم؛ ليتساءلوا فيما بينهم عن مدة مكثهم في الكهف، قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الكهف؟ فأجابوا: مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم. وقال بعضهم: ربيكم أعلم بمدّة مكثكم، وانظروا إلى حاجاتنا فأرسلوا أحدكم بنقودكم الفضية إلى المدينة فلينظر: أيُّ المأكَلِ أطيبٌ وأحْلُ طعاماً، فليأتكم بطعام منه تأكلونه، ولتلطّفُ في التعامل مع الناس حتى لا يشعر أحدٌ بامرنا.

٢٠- إِنَّ قَوْمَكُم إنَّ يَطْلُبُوكُم على أمركم يرموكم بالحجارة، فيقتلوكم، أو يرذؤكم إلى دينهم الباطل، وإن رذؤكم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً.

٢١- وكما بعثناهم من نومهم، أطلّعنا عليهم أهل ذلك الزمان؛ ليستدلّوا بذلك على الإيمان بالبعث، وأنَّ قيام القيامة حقٌّ لا شكَّ فيه. وبعد أن عرّفَ الناس قِصَّتَهُم وموتهم اختلفوا فيهم، قال بعض الناس: ابنوا على باب الكهف بناءً يسترهم، واتركوهم وشأتهم، الله أعلم بحالهم. وقال أصحاب القرار: لنبيّننَّ عليهم مكاناً للعبادة.

٢٢- سيقول القوم المختلفون في قِصَّتَهُم وعددهم عدة أقوال، فيقول بعضهم: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، وبعضهم يقول: هم خمسة سادسهم كلبهم. وهذان القولان تخمينٌ بالظنِّ من غير دليل ولا يقين. ويقول بعضهم: هم سبعة ثامنهم كلبهم. قل لهم أيُّها النبيُّ: ربي أعلم بعددهم الصحيح، ما يعلم عددهم إلا قليل من عباده، فلا تجادل فيهم أحداً إلا جدالاً محدوداً بقدر ما أوحى إليك، ولا تسأل عن قِصَّتَهُم أحداً من اليهود أو النصارى.

٢٣-٢٥- يخاطبُ اللهُ تعالى رسوله ﷺ لِيُبَلِّغَ أُمَّتَهُ النهي المؤكّد عن قول العبد في الأمور المستقبلية: إني فاعل ذلك، من دون أن يقرّنه بمشيئة الله تعالى؛ لأنَّ وجود كل شيء بمشيئة الله تعالى. واذكر ربك عند النسيان بقول: إن شاء الله. وكلما نسيت شيئاً فاذكر الله بالدعاء والتضرُّع إليه، وقل: لعلَّ اللهُ يُوفِّقني إلى ما هو أصلح لي في ديني ودنياي. ومكث الشُّبَّان نياماً في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية، وهي ثلاثمائة سنة شمسية.

٢٦- قل أيُّها النبيُّ: الله أعلم بمدّة لبثهم في الكهف - كما جاء صريحاً في الآية السابقة - له سبحانه علم غيب السموات السبع والأرضين السبع. إنَّه سبحانه لَبصير بهم، سميع لهم، فما أَبْصَرَ اللهُ لكلِّ موجود!

وما أسمع له لكل مسموع! هو الذي له الخلق والأمر لا مُعَقَّب لحكمه، وليس له وزير ولا شريك في حكمه وتشريعه سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - من الفوائد الطبية في قوله: ﴿وَنَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ضرورة تقليب المرضى على الفراش؛ حتى لا يؤذيهم الرقاد في جهة واحدة، فتأكل أجسادهم، وتعرض للتلف والتعفن.
- ٢ - بيان الرعاية الربانية لعباده الصالحين من أهل الكهف.
- ٣ - جواز اقتناء الكلب لأجل الحراسة، وهذا من الموافقات بين شرعنا وشرع مَنْ قبلنا من المذكورين.
- ٤ - بيان أهمية التلطف في التعامل مع غير المسلمين.
- ٥ - الحذر من التعرض للمخاطر التي تؤدي إلى الوقوع في ضغوط الكفر.
- ٦ - النهي عن اتخاذ المساجد على القبور والبناء عليها.
- ٧ - النهي عن الجدل في الأمور غير المهمة.
- ٨ - بيان القرآن الكريم لعدد أهل الكهف بقوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ لأنه لم يذكر أن ذلك رجم بالغيب.
- ٩ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضَعَفَ القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدلَّ على صحته؛ إذ لو كان باطلاً لَرَدَّه كما رَدَّه، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس مَنْ أطلعهم الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُعَارِفِيهِمْ إِلَّا مَرَّةً ظَهَرَ﴾». (مجموع الفتاوى ١٣/٣٦٨).
- ١٠ - وجوب الاستثناء بالمشيئة قبل العزم على الفعل؛ إذ لا يملك العبد القدرة على شيء إلا إذا أَرَادَهُ الله تعالى.
- ١١ - وجوب طلب الطعام الحلال.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
 وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
 زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ
 يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى
 الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

التفسير:

٢٧- واتل - أيها الرسول - الذي أوحاه إليك ربك من القرآن الحكيم؛ لتبليغه للناس، فإنه قرآن لا
 تُغَيِّرُ وَلَا تُبَدِّلُ كَلِمَاتُهُ لَصِدْقِهَا وَعَدْلُهَا، وفي تلاوته استعانة بالله ولجوء إليه، ولن تجد من دون الله ملجأً تَلجأ
 إليه.

٢٨- واصبر نفسك - أيها الرسول - بالجلوس مع أصحابك الذين يعبدون الله وحده، وَيَدْعُونَهُ
 صَبَاحًا وَمَسَاءً، يريدون بذلك وجهه سبحانه، واحرص عليهم وعلى لقاءهم، ولا تُصْرِفْ نَظْرَكَ عَنْهُمْ إِلَى
 غَيْرِهِمْ مِنْ زَعَمَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ تَقْصِدُ مَجَالِسَتِهِمْ، لِأَنَّ لَهُمْ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا، وَلَا تَطْعُ الْغَافِلِينَ
 عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ، الْمُتَّبِعِينَ لِعَوَايَةِ الشَّيْطَانِ، وَكَانَ أَمْرُهُمْ فِي غَايَةِ الضِّيَاعِ وَالْخُسْرَانِ.

٢٩- وقل لهم أيها النبي: إِنَّ مَا جِئْتُ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُصَدِّقَ بِهِ وَيَتَّبِعَهُ
 فَلْيَفْعَلْ، فَهُوَ خَيْرٌ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْحَدَ فَلْيَفْعَلْ. وَهَذَا الْفِعْلُ ظَاهِرُهُ الْأَمْرُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْوَعِيدُ وَالتَّخْوِيفُ.

إِنَّا هَيَّأْنَا لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ نَارًا شَدِيدَةً أَحَاطَ بِهِنَّ سُورُهَا، وَإِنْ يَطْلُبُوا الْغَيْثَ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ يُغَاثُوا بِمَاءٍ
 شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، كَالزَّيْتِ الْأَسْوَدِ يَشْوِي الْوُجُوهَ. بِئْسَ ذَلِكَ الشَّرَابُ الَّذِي يُغَاثُونَ بِهِ، وَسَاءَتْ جَهَنَّمُ مَنْزِلًا
 لَهُمْ. قَالَ الشَّيْخُ الشَّنْقِيطِيُّ: «ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِحَسَبِ الْوَضْعِ اللَّغْوِيِّ: التَّخْيِيرُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ،
 وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَيْسَ هُوَ التَّخْيِيرُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا التَّخْوِيفُ وَالتَّهْدِيدُ، وَالتَّهْدِيدُ بِمَثَلِ هَذِهِ
 الصِّيغَةِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّخْيِيرُ أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَالدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ
 مِنَ الْآيَةِ التَّهْدِيدِ وَالتَّخْوِيفِ أَنَّهُ اتَّبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا

يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَنْسَكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٠﴾ وهذا أصرح دليل على أن المراد التهديد والتخويف، إذ لو كان التخويف على بابه لما توعد فاعل أحد الطرفين المخير بينهما بهذا العذاب الأليم». ٣٠-٣١- إن المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة، إننا لا نُضِيع ثواب من أحسن عمله. أولئك أصحاب الدرجات العالية لهم جنات يقيمون فيها دائماً، تجري من تحت قصورهم الأنهار، يُزَيَّنون فيها بأساور الذهب، ويلبسون الثياب الخضراء من رقيق الحرير وجليظه، يجلسون على الأيِّرة، ويتكئون على الوسائد. نِعَم الثوابُ الجنةُ ونعيمها، وحسنت منزلاً ومستقراً لهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضل تلاوة القرآن، وتبليغ أحكامه ومواعظه.
- ٢- القرآن الكريم هو حقٌّ من عند الله تعالى.
- ٣- وجوب صبر المسلم على معايشة إخوانه المؤمنين.
- ٤- النهي عن طاعة الكفرة والطواغيت.
- ٥- ترهيب الظالمين من نيران جهنم.
- ٦- الترغيب في الجنة وما فيها من النعيم المقيم.
- ٧- ينبغي للداعية ألا يتأثر بزخارف الدنيا التي يتمتع بها الناس.

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾
 كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
 وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن
 تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾
 قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ
 اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ
 أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
 السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِيعَ مَآؤَهَا غُورًا فَلَن نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ
 فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ
 لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٢-٣٣- وبين - أيها الرسول - مثلاً في شأن الكفار المتجبرين الذين يستكبرون على الضعفاء المؤمنين بين رجلين: كافر ومؤمن، وللكافر حديقتان من أعناب، وأحطناهما بنخيل، وجعلنا بين الحديقتين زرعاً متنوعاً، وكل واحد من الحديقتين أنتجت ثماراً، ولم تُنْقِصْ من ثمرها شيئاً، وشققنا بينهما نهراً عذباً لسقيهما على نحو دائم.

٣٤ - وكان للمالك الحديقتين ثمر وأموال أخرى، فقال لصاحبه المؤمن وهو يتحدث معه بغرور: أنا أكثر منك مالاً، وأعزُّ أنصاراً وخداماً.

٣٥-٣٦ - ودخل المغرور حديقته وهو ظالم لنفسه بالكفر، وقال: ما أعتقد أن تتلف هذه الحديقة أبداً، وما أعتقد أن يوم القيامة كائن. وقسماً لئن رجعت إلى ربي لأجدنَّ عنده حتماً أفضل منها عاقبة.

٣٧-٣٨ - فأنكر عليه صاحبه المؤمن موبخاً له بقوله: أجدت الله تعالى الذي خلق أصلك من تراب، ثم من مني، ثم سواك إنساناً سواً؟ لكن أنا أعتقد أن الله ربي، ولا أشرك في عبادته أحداً.

٣٩-٤١ - وهلاً قلت حين دخولك الحديقة: هذا ما شاء الله لي، لا قوة لي على تحصيله إلا بالله. إن كنت تراني أنا أقل منك مالاً وأولاداً، فعسى ربي أن يعطيني أفضل من حديقتك، ويرسل عليها آفة تتلفها

أو صاعقة تحرقها، فتصبح جرداء لا نبات فيها، أو يصير ماؤها غائراً في الأرض، فلا تقدر على إخراجها للسقي.

٤٢-٤٣- وجاءت عقوبة المغرور بإتلاف جميع الثمار، فصار يضرب إحدى يديه على الأخرى؛ تَفَجَّعاً وحرزاً على ما بُدِّلَ فيها من أموال، وسقطت سقوفها وجدرانها وأشجارها فأصبحت خَرِبَةً، وصار يقول نادماً: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً. ولم تكن له جماعة يُنْقِذُونَهُ من هذه المصيبة غير الله، وما استطاع أن يدفع عن نفسه ذلك العذاب.

٤٤- هنالك في مقام الشدة العظيمة، تكون الولاية والنصرة لله الحق، هو سبحانه خير للمؤمن بالثواب الحسن، وخير عاقبة طيبة له.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تَحَرِّيْ ضرب الأمثال للناس، وِذْكَرُ القصص الحق؛ لتقريب فهم الأحكام.
- ٢- أثبتت التجارب الحديثة أَنَّ تَعَرُّضَ سطح التربة الزراعية للحرارة والرطوبة يؤثر في خواصها الطبيعية والكيميائية، كما يعرضها للتعرية، وقد وُجِدَ من الأفضل زراعة محاصيل تغطية تحمي التربة وجذور العنب من الجفاف والتعرض المباشر للضوء والحرارة، كما أَنَّ زراعة مصدّات للرياح من شأنه حماية التربة والنباتات من العواصف الصحراوية الشديدة التي تقتلع الأشجار. (مجلة الإعجاز العلمي: العدد (٣٦)، جمادى الأولى، ١٤٣١هـ).
- ٣- وجوب الإنكار بحكمة على مَنْ يمجّد نِعَمَ الله تعالى.
- ٤- من السُّنَّةِ الشريفة أن يقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، عند رؤية شيء عجيب وجميل.
- ٥- الكِبْرُ والمغرور يؤدِّيَانِ إلى العقوبة.
- ٦- جُحُودُ النَّعَمِ يذهبها.
- ٧- المؤمن إن كان فقيراً فهو غنيٌّ وعزيز بعزة الله تعالى واستعلاء الإيمان؛ لأنَّ قيمة المؤمن بليمانه لا بهاله.
- ٨- قد يُعَجَّلُ الله العقوبة للكافر في الدنيا.
- ٩- لا قدرة لأحدٍ على نصرٍ مَنْ حَذَلَهُ الله تعالى.
- ١٠- ينظر: صورة النخل المنقعر والخواوي، كما في الملحق.

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ حِشَّمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ۝

التفسير:

٤٥- واذكر - أيها النبي - للناس مَثَلُ الحياة الدنيا في بهجتها، ثم سرعة زوالها، بأنها كماء مطر نزل من السماء، فخرج به الزرع الكثيف المثمر، ثم بعد مدة قصيرة صار يابساً مُفْتَتاً تنسفه الرياح، فلا ترك له أثراً. وكان الله على كل شيء مقتدرًا.

٤٦- الأموال والأولاد زينة وبهجة في الحياة الدنيا، والأعمال الصالحة والأذكار الماثورة من التهليل والتسبيح والتحميد أفضل ثواباً، وخير أمل ينشده الإنسان عند الرحمن. قال عثمان ؓ: «الباقيات الصالحات هن: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

(أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٨٢ برقم ٥١٣، قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه ابن جرير (التفسير ١٥/ ٥١١-٥١٢ برقم ١٨٦٦٢. وصحح السيوطي إسناده في (الدر ٤/ ٣٥٣).

أخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذِكْرُ قولِ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض.

٤٧- ٤٨- وأنذر الناس - أيها الرسول - يوم تُزِيلُ الجبال عن أماكنها، وترى الأرض ظاهرة للعيان مجرّدة من المخلوقات التي كانت عليها، وجمّعنا الأولين والآخرين للحساب، فلم نترك منهم أحداً،

وَعَرَضُوا جَمِيعاً عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، مصفوفين لا يُحْجَبُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، ويقال للكفار: قسماً لقد جئتمونا خُفَاءً
عُرَاةً كَهَيْتِكُمْ حِينَ خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بل ظننتم أن لا بعث ولا جزاء.

٤٩- وَوَضِعَ فِي يَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ كِتَابَ أَعْمَالِهِ، فترى العصاة خائفين ممأً فيه من الجرائم
والذنوب، ويقولون: يا حسرتنا، ويا هلاكنا على ما قَرَّطْنَا، ما شأنُ هذا الكتاب لا يترك ذنباً صغيراً ولا
كبيراً إلا أحاط به؟ ووجدوا كلَّ ما عملوه في الدنيا مُثْبِتاً، ولا يظلم ربُّك أحداً، فلا يعاقبه بغير ذنب، ولا
يُنْقِصُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِ.

٥٠- واذكر- أيها النبي - حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له، فسجدوا كلُّهم إلا إبليس كان
مع الملائكة - وهو من جنس الجن - فعصى الله تعالى، فلم يسجد كِبِراً وحسداً، أفتَخِذُونَهُ - أيها الناس -
هو وذريته وأتباعه أنصاراً، تُطِيعُونَهُمْ وتتركون طاعتي وهم لكم أعداء؟ بِئْسَتْ عِبَادَةَ الشَّيْطَانِ بَدَلاً مِنْ
عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ.

٥١-٥٢- ما أَشْهَدْتُ إبليس وأتباعه خَلَقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، ولا أشهدت بعضهم
على خَلْقِ بَعْضٍ، فما كانوا شركاء لي في الخلق، بل تَقَرَّرْتُ بِخَلْقِ الْجَمِيعِ بغير مُعِينٍ، وما كنت مُتَّخِذُ الَّذِينَ
يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ أَعْوَاناً، واذكر حين يقول الله للمشركين يوم القيامة: ادْعُوا شُرَكَائِي؛ لِيَمْنَعُوكُمْ
مِنْ عَذَابِي، فدَعَوْهُمْ، فلم يُجِيبُوهُمْ بشيء، وقرَّنا بين المشركين وأهنتهم، وجعلنا بينهم مهلكاً.
٥٣- ورأى الكفار المجرمون النَّارَ رَأْيَ الْعَيْنِ، فأيقنوا أَنَّهُمْ دَاخِلُونَ فِيهَا، ولم يجدوا عنها مكاناً يهربون
إليه.

الفوائد والاستنباطات:

١- الماء النازل من السماء غيث لم يسلك طريقه في الأرض؛ ليكون ينبوعاً بعد ذلك، ودلَّ ذلك على
قلة هذا الماء، والفاء أفادت السرعة في الإنبات، ولم يهيج ولم يصفر، بل أصبح هشياً؛ لأنه لم يكتمل نموه
الطبيعي لقلة الماء، وكانت نسبة السيلكا فيه قليلة؛ لأنَّ هذا خليط من النباتات وليست زروعاً كما هو
الحال في النجيليات، وهذه تكون هشياً. وينظر: صور ميكروسكوب ضوئي لترسيبات السيلكا في
الملحق. وينظر: صورة الزرع بعد دماره، كما في الملحق.

٢- بيان زوال الدنيا وما فيها من مَلاذ.

٣- الأموال والأولاد زينة مؤقتة في الدنيا.

٤- من أعظم الأعمال ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير.

٥- في القيامة تعرض الأعمال كلها صغيرها وكبيرها.

- ٦ - الإنبياء عمّا يقوله أصحاب النار.
- ٧ - بيان عدل الله بين الخلائق يوم الحساب.
- ٨ - بيان عداوة إبليس لبني آدم، وأنه من الجن.
- ٩ - النهي عن اتباع نَزَغَاتِ الشيطان.
- ١٠ - نداء المشركين لشركائهم وأصنامهم، وعدم الاستجابة لهم.
- ١١ - قال الشيخ الشنقيطي: «أي: واذكُرْ يوم يقول الله جلّ وعلا للمشركين الذين كانوا يشركون معه الآلهة والأنداد من الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله توبيخاً لهم وتقريعاً: نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم شركاء معي، فالمفعولان محذوفان، أي: زعمتموهم شركاء لي كذباً وافتراءً، أي: ادعُوهم واستغيثوا بهم؛ لينصروكم ويمنعوكم من عذابي».
- ١٢ - قال الشيخ الشنقيطي: «ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة أنّ المجرمين يرون النار يوم القيامة، ويطنون أنّهم مواقعوها، أي: مخالطوها وواقعون فيها، والظنُّ في هذه الآية بمعنى اليقين، لأنّهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع وقد بيّنَ تعالى في غير هذا الموضع أنّهم موقنون بالواقع، كقوله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّمَا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٧]».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُوءَ الْآيَاتِ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا نُنذِرُوا هُزُورًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٥٤ - وقسمًا لقد بيّنا في هذا القرآن الأمثال والأحكام والمواعظ من كل الوجوه والأساليب، وكان الإنسان أكثر المخلوقات جدالًا بالباطل.

٥٥ - وما منع الكفار من الإيمان حين جاءهم الرسول ﷺ بالقرآن؛ ليؤمنوا ويطلبوا المغفرة من الله، إلا انتظارهم أن يأتيهم الهلاك كالأمم السابقة المكذبة، أو يصيبهم العذاب عيانًا.

٥٦ - وما نبعث الرسل إلا من أجل التبشير بالجنة، والإنذار من النار، ويُجادل المكذبون بأقوال باطلة؛ ليغلبوا الحق بالباطل! واتخذوا آياتي المنزلة والمشاهدة وما خوفوا به من العذاب سخرية.

٥٧ - لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله البيّنة، وتركها ونسي ما ارتكب من الجرائم، إننا جعلنا على قلوبهم أغطية؛ لتلا يفهموا القرآن، وجعلنا في آذانهم صممًا عن سماع الخير، وإن تدعهم إلى الإيمان فلن يهتدوا أبدًا.

٥٨ - يُخبر الله تعالى عن سعة رحمته، وكثرة مغفرته، ولو يعاقب المجرمين بما اقترفوا من الذنوب لفاجأهم بالعذاب في الدنيا، ولكن يُمهّلهم لعلهم يتوبون، ولهم وقت محدد للحساب والعقاب، لن يجدوا غيره حِصْنًا، ولا منجى يحميهم.

٥٩ - وتلك البلدان التي كانت عامرة بأهلها، كقوم هود وصالح ونوح، دمّرناهم حين ظلموا أنفسهم بالكفر، وجعلنا لدمارهم وقتًا محددًا.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في القرآن الكريم بيان لكل أمر عظيم، وخلق كريم.

٢- تقرير أن الإنسان كثير الجدل.

٣- واجب المرسلين هو التبشير والإنذار.

٤- أشد الناس ظلماً وجهلاً من ترك أحكام الله ومواعظه.

٥- في الآية (٥٧) إخبار مستقبلي عن حال من وُعِظَ بآيات ربه الواضحة، فانصرف عنها إلى باطله، ونسي ما قدّمته يده من الأفعال القبيحة فلم يرجع عنها، فإذا دُعِيَ إلى الإيمان فلن يستجيب، ولن يهتدي إليه أبداً، كيف لا وقد جعل الله على قلبه غطاء، فلم يفهم القرآن، ولم يدرك ما فيه من الخير، وجعل في أذنه ما يشبه الصَّمَم، فلم يسمعه، ولم ينتفع به؟

٦- إمهال الله تعالى الكفار، وعدم إهمالهم للحساب.

٧- مصير الظلم الهلاك.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ لَا أُنْبِرُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْنَهُ إِنَّا غَدَاؤُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُلَمِّنَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

سبب قصة موسى والخضر:

عن أبي بن كعب ؓ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتبَّ الله عليه إذ لم يردِّ العِلْمَ إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا ربِّ فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعلها في مكْتَل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمٌّ. فأخذ حوتاً فجعله في مكْتَل ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكْتَل فخرج منه، فسقط في البحر ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ وأمسك الله عن الحوت جرّية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره

بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَإِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قال: ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً. فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَآرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يَقْضَانِ آثَارَهُمَا حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجلٌ مُسَجَّى ثوباً، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأتى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني ممَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى. إني على علم من علم الله عَلَّمَنِيهِ لا تعلمه أنت، وأنت على عِلْمٍ من عِلْمِ الله عَلَّمَك اللهُ لا أعلمه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يَقْجَأْ إِلَّا والخضر قد قَلَعَ لَوْحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم، فخرقتها لتغرق أهلها، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ قال: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عُصْفُورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعِلْمُكَ من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة. فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٦) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال: وهذه أشدُّ من الأولى. ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٧) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأُ أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ قال: مائل، فقام الخضر، فأقامه بيده. فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يُطعمونا، ولم يُضَيِّفونا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا». (صحيح البخاري، سورة الكهف، برقم ٤٧٢٥. وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر ٤/ ١٨٤٧، برقم ٢٣٨٠).

التفسير:

٦٠- يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى بِقِصَّةِ مُوسَى وَالْحَضْرَى، حِينَ قَالَ مُوسَى ﷺ لِخَادِمِهِ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ: لَا أَزَالُ أَتَّبَعُ السَّيْرَ حَتَّى أَصِلَ إِلَى مَلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ، أَوْ أُسِيرَ زَمَانًا طَوِيلًا إِلَى أَنْ أَبْلُغَ ذَلِكَ الْمَكَانَ مِنْ أَجْلِ اللَّقَاءِ بِالْحَضْرَى الْعَبْدِ الصَّالِحِ؛ لِأَزْدَادَ عِلْمًا مِنْهُ، وَذَلِكَ حِينَمَا خَطَبَ مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: مَنْ أَعْلَمُ النَّاسَ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَزِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حَوْتًا فَتَجْعَلُهُ فِي وَعَاءٍ، فَحِينَمَا فَقَدْتِ الْحَوْتَ فَهُوَ الْمَكَانُ الْمَنْشُودُ.

٦١- فَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى وَفَتَاهُ مَلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ، نَسِيًا حَوْتَهُمَا - وَهَذِهِ عَلَامَةٌ عَلَى تَحَقُّقِ الْمَطْلُوبِ - ثُمَّ دَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الْحَوْتَ وَانْحَدَرَ إِلَى الْبَحْرِ، وَاسْتَقَرَّ بِحَجَرٍ مَحْدَدٍ مِنَ الْمَاءِ.

٦٢-٦٣- فَلَمَّا جَاوَزَا مَلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ قَالَ مُوسَى ﷺ لِيُوشَعَ: أَحْضِرْ لَنَا الْحَوْتَ لِلْغَدَاءِ، لَقَدْ وَاجَهْنَا فِي سَفَرِنَا هَذَا تَعَبًا. فَأَجَابَ يُوشَعَ: أَتَذَكَّرُ حِينَ لَجْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِنِّي نَسِيتُ أَنْ أَخْبِرَكَ عَنْ قِصَّةِ الْحَوْتَ؟ وَمَا أَنْسَانِي ذَلِكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ، فَإِنَّ الْحَوْتَ الْمُمْلَحَ دَبَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَانْحَدَرَ إِلَى الْبَحْرِ، وَكَانَ أَمْرُهُ عَجَبًا.

٦٤-٦٥- قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي كُنَّا نَبْحَثُ عَنْهُ. فَرَجَعَا يَتَّبِعَانِ آثَارَهُمَا تَتَّبِعًا حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَوَجَدَا هُنَاكَ الْحَضْرَى الْعَبْدَ الصَّالِحَ، أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا خَاصًّا عَظِيمًا.

٦٦-٧٠- وَبَعْدَ أَنْ سَلَّمَ مُوسَى عَلَى الْحَضْرَى وَتَعَارَفَا، قَالَ مُوسَى: هَلْ تَأْذَنُ لِي أَنْ أُرَافِقَكَ، عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ مَا يَرشُدُنِي إِلَى الصَّوَابِ؟ فَردَّ عَلَيْهِ الْحَضْرَى: إِنَّكَ لَنْ تَقْدِرَ أَبَدًا أَنْ تَصْبِرَ عَلَى مَا تَرَى مِنْ تَصَرُّفِي. وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى شَيْءٍ لَا خِبْرَةَ لَكَ بِحَقِيقَتِهِ؟ قَالَ مُوسَى ﷺ مُؤَكِّدًا: سَتَرَانِي بِمَشِيئَةِ اللهِ صَابِرًا مُطِيعًا فِيمَا تَأْمُرُ بِهِ. فَوَافَقَ الْحَضْرَى بِشَرطِ أَلَّا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ، حَتَّى يُبَيِّنَ حَقِيقَتَهُ وَسَبَبَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- اكتشف العلماء أن مجمع البحرين يقع بمنطقة رأس محمد بشرم الشيخ عند نقطة التقاء خليج العقبة وخليج السويس بجنوب سيناء. (<http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=1239>).
- ٢- من السنة المطهرة في السفر المرافقة.
- ٣- بيان فضل العلم وطلبه.
- ٤- مشروعية الرحلة في طلب العلم.

٥- الرجوع عن الخطأ فضيلة.

٦- حُسْنُ خُلُقِ موسى مع فتاه.

٧- وجوب التزام طالب العلم الأدب مع معلمه.

٨- مهما بلغ العالم من العلم فإن علمه محدود.

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾
 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا نَأْخُذُ بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾
 فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
 لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا
 ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ
 يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٧١-٧٢- فانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرّت سفينة، وعرف أصحابها الخضر، فحملوهما بدون أجرة، فلما ركبوا السفينة عمد الخضر إلى فأس، فقلع لوحاً من ألواح السفينة، فتعجب موسى وقال مُستنكراً: أَخَرَقْتَ السفينة؛ لتُغْرِقَ الرُّكَّابَ؟ والله لقد فعلت مُنكراً عظيماً. فردّ عليه الخضر معاتباً: ألم أقل لك: إنك لن تقدر أبداً أن تصبر على ما ترى من صنيعي؟.

٧٣- قال موسى مُعتذراً: ساجِئني على نسياني شَرَطَكَ، ولا تكلفني مشقّة، وعاملني برفق.

٧٤- فقيل الخضر العُدْر، فانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان، فمراً بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلاماً فقتله، قال موسى مُنكراً: أَقْتَلْتَ نفساً بريئة لم ترتكب جُرمًا؟ والله لقد فعلت مُنكراً عظيماً.

٧٥- قال الخضر عاتباً: ألم أقل لك إنك لن تقدر أبداً أن تصبر على ما ترى من نصرتي؟

٧٦- قال موسى مُعتذراً بأسف شديد: إن أنكرتُ عليك بعد هذه المرّة فلا ترافقني؛ لأنك قد بَلَغْتَ

الغاية التي تُعذّرُ بها في فراقني.

٧٧- فقيل الخضر العُدْر أيضاً، فانطلقا حتى وصلا إلى أهل بلدة، فطلبوا طعاماً، فرفض أهل البلدة

إطعامهما، فوجدا فيها حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط، فمسّحه الخضر بيده فاستقام! قال موسى: لو شئت لَطَلَبْتُ منهم أجراً على إصلاحه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وجوب إنكار المنكر بالحكمة.
- ٢ - استحباب التطوع بعمل الخير لله تعالى.
- ٣ - انتفاع الأبناء بصلاح الآباء.
- ٤ - وجوب التأدب والاعتذار للمعلم عند وقوع الخطأ والنسيان من طالب العلم.
- ٥ - تقرير حق الضيافة.
- ٦ - المتعلم تبع للعالم، ولو تفاوتت المراتب، وجواز أخذ الفاضل عن المفضل.
- ٧ - لا يفتجب المرء بعلمه، ولا يتعجل في إنكار ما لم يستحسنه، فلهذا ينطوي على حكمة لا يعرفها.
- ٨ - تعلم العلم عبادة وقربة، وهو ليس غاية في ذاته، بل الغرض الانتفاع به في أمور الدين والدنيا.
- ٩ - في تقديم الرحمة على العلم ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم.
- ١٠ - التماس العذر للآخرين، ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك.
- ١١ - ينبغي للدعاة والمصلحين أن ينطلقوا بدعوتهم إلى أعماق المجتمع؛ لدراسة الواقع، والتعامل معه، ومعايشة هموم الناس، وتفقد أحوالهم، وحل مشكلاتهم.

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنْبِتُكَ بِنَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا حَيْرًا مِنْهُ رُكُودًا وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

التفسير:

٧٨- قال الخضر: هذا وقت الفراق بيننا، سأخبرك خبراً عظيماً بتفسير أفعالي التي لم تقدر أن تصبر على ترك السؤال عنها.

٧٩- أما السفينة التي حرقتها فكانت لمساكين ضعفاء يشتغلون بها في البحر؛ لكسب الرزق، فقصدت بحرقها أن أعيبها؛ لئلا يغتصبها الملك الظالم.

٨٠-٨١- وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً، وكان أبوه وأمه مؤمنين، فحَثِينَا أَنْ يَحْمِلَهَا حُبَّهُ عَلَى أَنْ يَتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ، فَأَرَدْنَا بِقَتْلِهِ أَنْ يَرْزُقَهُمَا اللَّهُ وَلِدًا صَالِحًا خَيْرًا مِنْهُ دِينًا، وَبِرًّا بِهَآ. ٨٢- وأما الجدار الذي بَنَيْتُهُ دُونَ أَجْرٍ، فَكَانَ لِفَلَامِينَ يَتِيمِينَ فِي تِلْكَ الْبَلَدَةِ، قَدْ دُفِنَ تَحْتَهُ كَنْزٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَ أَبُوهُمَا رَجُلًا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ بِذَلِكَ أَنْ يَبْلُغَ الْفَلَامَانِ الرَّشْدَ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا مِنْ تَحْتِ الْجِدَارِ. وَمَا فَعَلْتُمْ جَمِيعَ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِي، وَإِنَّمَا بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. ذَلِكَ التَّفْسِيرُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَمْ تَقْدِرْ عَلَى تَرْكِ السُّؤَالِ عَنْهُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان حكمة الخضر التي حَصَّهَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا.
- ٢- تأهيل موسى عليه السلام على الصبر، فَإِنَّ دَعْوَةَ قَوْمِهِ تَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الْخَلْقِ.
- ٣- معرفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هذه القصة بوحى القرآن.
- ٤- مكانة المرء الصالح عند الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَسْتَلُونَا عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَاتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَرْبٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ بِمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

التفسير:

٨٣- ويسألك - أيها الرسول - هؤلاء المشركون عن خبر ذي القرنين الحاكم القائد الصالح، قل لهم: سأتلو عليكم مما عَلَّمَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَخْبَارِهِ؛ لَتَعْتَبِرُوا بِذِكْرِهِ.

سأل رجلٌ علي بن أبي طالب عليه السلام عن ذي القرنين: كيف بَلَغَ المشرق والمغرب؟ قال: سبحان الله، سُحِّرَ له السحاب، ومُدَّتْ له الأسباب، وبُيِّسَتْ له النور. فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل، وسكت علي.

(المختارة ٢/٣٢ برقم ٤٠٩، وصححه المحقق. التفسير الصحيح ٤/١٦٦).

٨٤-٨٦- إِنَّا - بما لنا من العظمة والقدرة - مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ لِلْوَصُولِ إِلَى مَسَالِكِهَا، وَالظُّهُورِ عَلَى مَلُوكِهَا، وَأَعْطَيْنَاهُ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْوَصُولِ إِلَى مَطْلُوبِهِ، فَأَخَذَ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ، وَسَارَ جِهَةً

المغرب، حتى وصل المغرب فوجد الشمس تغرب في عين ماء حارّة - حَسَبَ رؤية العين المحدودة -
ووجد هناك قوماً كُفَّاراً، أمرنا ذا القرنين: إِمَّا أَنْ تَقْتُلَهُمْ، أَوْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَسَنِ.

٨٧-٨٨- قال ذو القرنين مستجيباً لله: أَمَّا مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ فَسَوْفَ نَقْتُلُهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ
إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً شَدِيداً لَمْ يَعْهَدْ مِثْلَهُ، وَأَمَّا مَنْ صَدَّقَ بِاللَّهِ، وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ، فَلَهُ الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ، وَنُسَّهَلُ
عَلَيْهِ فِي التَّكَالِيفِ مَعَ الْمَعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدُّنْيَا.

٨٩-٩٠- ثم رجع ذو القرنين إلى المشرق مُتَّبِعاً الْأَسْبَابَ الَّتِي مَكَّنَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى مَطْلَعِ
الشمس وجدها تُشْرِقُ عَلَى قَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يَسْتَرُهُمْ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ.

٩١- أَمُرُّ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَكَرْنَاهُ لَكُمْ، وَقَدْ أَحْطْنَا عِلْمًا بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَظِيمَةِ وَالْخَطَوَاتِ
الكريمة.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كما أنَّ قصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، كل منها هي في
جنسها أحسن من غيرها، فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص
أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة». (مجموع الفتاوى ١٧/٢٢).

٢- تقرير ثبوت رسالة النبي ﷺ إذ أجاب السائلين عن سؤالهم.

٣- ذو القرنين هو الرجل المؤمن من آل فرعون، وهو ابن فرعون مصر، وقد اكتسب علمه وخبرته
في هندسة البناء من هامان، وذلك حسب دراسة الأستاذ حمدي بن حمزة الصريصري في كتابه (فك أسرار
ذو القرنين (أخنتون) ص ١٩٨، ٢٠٦، ٢١٢).

٤- يقع مغرب الشمس في جزر المالديف. (المصدر السابق، ص ٢٩٠).

٥- موقع مطلع الشمس هو جمهورية كيريباتي، قال الأستاذ حمدي بن حمزة الصريصري: بناء على ما
توفّر لديّ من معلومات وحقائق وشواهد وأدلة فإنّه في إمكاننا القول وبنسبة عالية من الثقة بأنّ مطلع
الشمس هو ذلك المكان الواقع في المحيط الهادي على خطّ الاستواء، الذي يعرف اليوم بمنطقة أو جمهورية
كيريباتي، والمناطق والجزر القريبة منها، والواقعة على نفس الخط... فالشمس تطلع على منطقة كيريباتي
حوالي الساعة ٦,٣٠ صباحاً في كلّ يوم من أيّام السنة، وتغرب عنها في الساعة ٦,٣٠ في كلّ يوم من أيّام
السنة على مدى الحياة، وذلك كما تبين لي خلال رحلتي لهذه المنطقة. (المصدر السابق، ص ٢٩٠، ٢٩٧).

٦- اختار الله تعالى الملك الصالح ذا القرنين للقيام بالدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿ ثُمَّ أَنْبَعَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا
يَبْنَا الْقَرْيَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا
مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ
قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا
لَهُ نَقَبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ
يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَيُفِخُ فِي الصُّورِ فَمَجَمَعْتُهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ
فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

التفسير:

٩٢-٩٤- ثم تَوَجَّه نحو مكان السد قبل بنائه، مُتَّبِعاً الأسباب التي مَكَّنَهُ اللهُ إياها، حتى وصل إلى ما بين جبليْنِ شامخين حاجزين لما وراءهما، وجد قوماً لا يقربون أن يفهموا كلام ذي القرنين وأتباعه، وطلبوا العون من ذي القرنين، فقالوا: إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ - هما قبيلتان عظيمتان من البشر - مفسدون في الأرض بالقتل والنهب، فهل نجعل لك أجره من أموالنا، على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعنا منهم؟
٩٥-٩٧- فوافق ذو القرنين على ذلك، وقال: ما أكرمني الله به من السُّلْكِ والتمكين خير مما تعطونني، فأعينوني بما عندكم من طاقة أجعل بينكم وبينهم سَدًّا منيعاً. ثم طلب إليهم أن يُعْطُوهُ قطعاً من حديد، وأن يجعلوها في ذلك المكان، حتى إذا ردم ما بين الجبلين، وساواهما في العلو، أمرهم أن يُؤَجِّجُوا النار فيه حتى صار الحديد كتلة واحدة من شِدَّةِ حرارته، وسَدًّا ما بين الجبلين، ثم طلب قطعاً من النحاس فصهرها، ثم صَبَّهَا فوق الحديد المَحْمِيَّ، فالتصق ببعضه ببعض، وصار السدُّ جبلاً مُحْكَمًا أملس، فلم تتمكن قبيلتا يأجوج ومأجوج أن تصعد فوق السدِّ لارتفاعه وملاسته، ولم تتمكَّنْ قطعاً من نَقْبِهِ من شِدَّةِ صلابته، وضخامة سمكه.

٩٨- وبعد الانتهاء من بنائه ذَكَرَ فَضَّلَ اللهُ عليه: هذا الذي أنجزته رحمة من فضل ربي، فإذا جاء وَعْدُ ربي بخروج يأجوج ومأجوج، وقرب قيام الساعة جعله مستويًا بالأرض، وكان وَعْدُهُ سبحانه في ذلك كائنًا أكيداً.

٩٩- وحين خروج يأجوج ومأجوج نترك الناس في اضطراب كاضطراب البحر الهائج؛ لكثرتهم وتزاحمهم، وبطش يأجوج ومأجوج فيهم، فينتشر الفساد والهلاك، وَيَعُمُّ الأَرْضَ حينذاك، وينفخ المَلَكُ في القَرْنِ من أجل البعث، فيستجيب الخلق، ويتجمعون للحساب.

١٠٠-١٠١- وعَرَضْنَا نار جهنم للمكذِّبين بالله ورسوله، وأظهرناها لهم إظهاراً جليّاً، لأنَّهم هم الذين كانت أعينهم في الدنيا عُمياً عن دلائل قدرة الله، وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله لظلمة قلوبهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- استخدام ذي القرنين الوسائل المتاحة؛ للنهوض بعمله.
- ٢- التعاون والعمل الجماعي يساعد في إنجاز المهام الكبرى.
- ٣- أشارت الآيات إلى حقائق منها :
 - أ- ضرورة عمل نظام وقائي؛ لحماية المعدن المنصهر من عوامل الجو مثل الصدأ، وزيادة تفاعله مع المعدن المصهور من مادة البنية الأساسية.
 - ب- ضرورة التحكم في معدلات التبريد والتخلص من الجيوب الهوائية والعيوب الداخلية في الوصلة الملحومة، وكذلك ضرورة تقليل آثار التحول الفلزّي عند درجات الحرارة الحرجة.
 - ج- تشير التقنيات الحديثة إلى استخدام الصلب المغطى بطبقة من القطر؛ نظراً لمناعة هذا المعدن ضد عوامل الكسر، والانهار المفاجئ من ناحية، ولشدة متانته الكبيرة من ناحية أخرى.
- ٤- السدُّ الذي بناه ذو القرنين إنقاذ للعباد من قوم يأجوج ومأجوج إلى الموعد الذي ضربه لخروجهم قبل قيام الساعة، وسوف يفسدون في الأرض. وينظر: صورة سد ذي القرنين، كما في الملحق.
- ٥- في حَبْسِ ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم دليلٌ على اتخاذ السجون، وحَبْسِ أهل الفساد فيها؛ لمعاقبتهم، ومنع شرِّهم وتقويم سلوكهم، ودفع الشرِّ بأيسر ما يندفع به.
- ٦- ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم؛ لإصلاح البلاد والنهوض بها.
- ٧- في الآية (٩٨) إخبار مستقبليٌّ عن البناء الذي بناه ذو القرنين حاجزاً أن سيخرق بفساد قوم يأجوج ومأجوج.
- ٨- حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد، لا بدَّ أن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له، ويُشيدُ بعُدِّله، ويحتمي بسلطانه.
- ٩- نشر روح الحضارة والرقى في كافة بقاع الأرض؛ ليعمَّ الخيرُ الجميع.
- ١٠- ينظر: خريطة بلاد يأجوج ومأجوج، كما في الملحق.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَتَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

التفسير:

١٠٢- يُنكر الله تعالى على الكافرين ويؤبِّخهم ويخوِّفهم: أَفَحَسِبَ الْكُفَّارُ أَنْ يَتَّخِذُوا بَعْضَ عِبَادِي آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي، وَأَنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابِي؟ إِنَّمَا هِيَ آتَانَا نَارَ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ مَنْزِلًا.

١٠٣-١٠٦- قل - أيها الرسول - مُحذِّراً للناس: هل نُخَبِّرُهُمْ خَبْرًا عَظِيمًا بِأَخْسَرِ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ؟ هُمُ الَّذِينَ بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ بِأَقْوَامِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ، فَبَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيَمَةٌ وَلَا مَنْزِلَةٌ. ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي وَعِيدِهِمْ جَزَاؤَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِهِ وَرُسُلَهُ سَخْرِيَّةً.

١٠٧-١٠٨- إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَقْرَبُوا اللَّهَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَطَاعُوهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لَهُمْ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ الْجَنَّةِ وَأَفْضَلُهَا مَقَامًا، مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَطْلُبُونَ عَنْهَا تَحَوُّلًا إِلَىٰ غَيْرِهَا.

وانظر سورة آل عمران الآية (١٦٣) وفيها حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «... فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة أو أعلى الجنة».

١٠٩- يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَىٰ سَعَةَ عِلْمِهِ، قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: لَوْ كَانَتْ بَحَارُ الدُّنْيَا حَبْرًا لِلْأَقْلَامِ الَّتِي يَكْتُبُ بِهَا كَلَامَ اللَّهِ لَأَنْتَهَىٰ مَاءُ الْبَحَارِ عَلَىٰ كَثْرَتِهِ، وَكَلَامَ اللَّهِ لَا يَنْتَهِي، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمَاءِ وَزِدْنَاهُ بِهِ حَتَّىٰ يَكْثُرَ، فَإِنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يَنْتَهِي؛ لَسَعَةِ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ.

١١٠- قل - أيها النبي - هؤلاء المشركين: إِنَّمَا أَنَا إِنْسَانٌ مِثْلَكُمْ، أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِالْوَحْيِ، وَأَمْرِي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ وَيَخَافُ عِقَابَهُ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا فِي الدُّنْيَا، وَلَا يُشْرِكْ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التحذير من اتِّخاذ العباد شركاء لله تعالى.
- ٢ - أخسر النَّاسُ أعمالاً الذين ضَلُّوا عن الإسلام، وظنُّوا أنَّهم على الحق.
- ٣ - جعل الله تعالى العقاب الشديد لِمَنْ يستهزئ بآيات الله تعالى ورسوله.
- ٤ - بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمقام العظيم في الفردوس.
- ٥ - كلمات الله تعالى ليس لها حدود ولا نهاية، وكذا علمه تعالى.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

المقاصد:

- ١ - بيان مكانة الأنبياء، وسمو أخلاقهم، وتعظيمهم لربهم، وقوة رجائهم.
- ٢ - بيان مكانة مريم، وفضائلها وكرامتها عند الله.
- ٣ - تقرير بعض معجزات الأنبياء من خلال قصصهم.
- ٤ - الردُّ على الغلوِّ في عيسى عليه السلام.
- ٥ - تقرير العقيدة الإسلامية، ونقض دعائم الشرك، ودحض شبه الكافرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَهَيْعِصَ ١ ﴾ ذَكَرْ رَحِمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءً خَفِيًّا ٣ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ ﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِن أٰلِ يَعْقُوبَ ٦ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ ﴿ سَمِيًّا ٧ ﴾ ﴿

التفسير:

- ١ - تَقَدَّمَ فِي مَطَلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطَعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.
- ٢ - هَذَا الَّذِي نَتْلُوهُ عَلَيْكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - قِصَّةُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا عليه السلام، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
- ٣ - حِينَ دَعَا رَبَّهُ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ لَا يَكَادُ يُسْمَعُ.
- ٤ - قَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي كَبِيرٌ سِنِّي، وَضَعُفَ جِدًّا الْعَظْمُ مِنِّي، وَانْتَشَرَ الشَّيْبُ فِي رَأْسِي، وَلَمْ أَكُنْ مُحْرَمًا خَائِبًا مِنْ إِجَابَتِكَ.

٥- وإِنِّي خِفْتُ الْأَقْرَابَ يَرْتُونَنِي بَعْدَ مَوْتِي، فَيُضَيِّعُونَ الدِّينَ، وَكَانَتْ زَوْجَتِي عَاقِرًا لَا تَلِدُ، فَارزُقْنِي من فضلك ولداً صالحاً. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يعني بهذا الوليُّ الولد خاصة دون غيره من الأولياء، بدليل قوله تعالى في القصة نفسها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] الآية، وأشار إلى أنه الولد أيضاً بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ. رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فقوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: واحداً بلا ولد، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة عن زكريا: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أي: من بعدي إذا ميتاً أن يُغَيَّرُوا فِي الدِّينِ».

٦- يرثني في العلم والدين، ويرث من آل يعقوب عليه السلام الملك والنبوة، واجعله مريضاً عندك وعند الناس.

٧- فاستجاب الله له دعاءه، ونادته الملائكة: يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه (يحيى) عليه السلام، لم نُسَمَّ أحداً قبله بهذا الاسم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- التحدي بالقرآن الكريم بذكر الحروف المقطعة.
- ٢- بيان فضل الدعاء الخفي.
- ٣- قال ابن عاشور: «جاء نَظْمُ هذا الكلام على طريقة بديعة من الإيجاز والعدول عن الأسلوب المتعارف في الإخبار، وأصل الكلام: ذكر عبدنا زكرياء إذ نادى ربه فقال: رب إلخ... فرحمة ربك، فكان في تقديم الخبر بأن الله رَجَمَهُ اهتمامٌ بهذه المنقبة له، والإنشاء بأن الله يرحم من التجأ إليه». (التحرير والتنوير: ٨/١٦)
- ٤- من فضائل النبي يحيى عليه السلام سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى بِاسْمِ مُبْتَكِرٍ، لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾
 قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩ ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ
 لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ ﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ
 فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴿ يَبْخِحِينَ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَايْتِنَهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ ﴿
 وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَرِزْقًا ۝١٣ ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٤ ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٥ ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
 وُلِدٍ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ ﴾

التفسير:

٨- قال زكريا عليه السلام: فرحاً متعجباً: يا ربّ كيف يكون لي غلام والواقع أنّ امرأتى لا تلد، وأنا قد بلغت الشيخوخة، وغاية الكبر في السن؟.

٩- قال الملك المبشّر عن الله تعالى: مثل ذلك الخلق غير المعتاد أخلقه من والدين هريمين كبيرين، وخلقه سهل عليّ، وقد خلقتك أنت من قبل يحيى، ولم تك شيئاً كائناً.

١٠- قال زكريا عليه السلام: يا ربّ اجعل لي علامة أستأنس بها على تحقيق البشارة. قال: علامتك عجزك عن كلام الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، وأنت صحيح من غير مرض.

١١- فخرج زكريا عليه السلام على قومه من المصلّى الذي يُصَلّي فيه، فأشار إليهم بيده: أن سبّحوا الله صباحاً ومساءً.

١٢-١٤- وتحققت البشارة، إذ وُلد يحيى، ولما بلغ سنّه مبلغ الخطاب أمره الله تعالى: يا يحيى خذ التوراة بجدّ واجتهاد، وأعطيناها الحكمة منذ الصّغر، وآتيناه رحمةً وهيبةً ورزقاً واستقامةً من عندنا، وكان مُطيعاً لله في أوامره، مُجتنباً نواهيه، وكان كثير البرّ والإحسان بوالديه، ولم يكن مُتكبراً ولا عاصياً لربه.

١٥- وسلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام، وأمان له من كل شرّ، من حين مولده ويوم موته، إلى يوم مبعثه. قال ابن عاشور: «هذه الأحوال الثلاثة المذكورة هنا أحوال ابتداء أطوار: طور الورود على الدنيا، وطور الارتحال عنها، وطور الورود على الآخرة. وهذا كناية على أنّه بمحلّ العناية الإلهية في هذه الأحوال». (التحرير والتنوير: ١٦/١٩).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - رحمة الله تعالى باستجابته للدعاء، فجَعَلَ المرأة تَلِدُ بعد أن كانت لا تُنْجِبُ.
- ٢ - وجوب أخذ أحكام الله تعالى بجد وعزم.
- ٣ - بيان بعض الصفات الحميدة للنبيِّ يَحْيَى عليه السلام.
- ٤ - حَفِظُ الله تعالى لنبيِّه يَحْيَى عليه السلام في كل أطواره من الولادة إلى البعثة.
- ٥ - الحثُّ على الجِدِّ والاجتهادِ والعزمِ والمضامِ في طلب العلم وفي العمل به، وفي دعوة الناس إليه.
- ٦ - إرشاد الآباء والأمهات أن يُحْسِنُوا تربية أولادهم منذ نُعومة أظفارهم.
- ٧ - على الداعية والمربيِّ أن يتحلى بصفات الحنان والطُّهر والتقى.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِءِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرِيءَ إِلَيْكَ يَجِدُ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا خَمِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

١٦- واذكر - أيها الرسول - في القرآن قصة مريم عليها السلام حين انفردت عن أهلها، وعن الناس، وذهبت إلى مكان نحو الشرق منهم.

١٧- وجعلت بينها وبين قومها سترًا يسترها عنهم، فأرسلنا إليها الملك جبريل عليه السلام، فتمثل لها بصورة بشر تام الخلق.

١٨- ٢٠- وقالت مريم وهي خائفة: إني ألتجئ إلى الله منك أن تؤذيني، إن كنت تخاف الله وتطيعه. قال جبريل مطمئنًا لها: ما أنا إلا ملكٌ مُرْسَلٌ من عند الله إليك، ليرزقك غلاماً طاهراً من الذنوب، قالت متعجبة: من أين وكيف يكون لي غلام ألد، ولم يمسنني إنسان بنكاح، ولست واقعةً بفاحشة؟
٢١- قال جبريل: هكذا الأمر كما قلت، ومجيء الغلام منك بهذه الحالة سهل على الله تعالى، وليكون مجيئه دلالةً للناس على عظمة قدرة الله تعالى، ورحمةً منك لولم آمن به، وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك.

٢٢- ٢٣- فحملت مريم بالغلام بعد أن نفخ جبريل في جيب قميصها، فانفردت به إلى مكان بعيد عن الأهل والناس، فألجأها ألم الطلق إلى ساق نخلة لتستند إليه عند الولادة، وعرفت أنها ستبلى بهذا المولود، فتمنت الموت قبل قصة الولادة، وأن لو كانت غير معروفة ولا يُدري من هي؟

٢٤- ٢٥- فنادها جبريل من مكان منخفض عنها، مخففاً كربها ومبشراً ومعلماً لها: يا مريم لا تحزني قد جعل الله تحتك جدول ماء يجري أمامك، وحركي جذع النخلة تسقط عليك من أعلاها رطباً طرياً ناضجاً، لتأكلي وتشربي وتستقر عينك بالنوم، وتهدأ نفسك من القلق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان فضل مريم عليها السلام.
- ٢ - أهمية الخلوّة للعابد والداعية والمربيّ والمصلح، فهي رياضة للنفس، وسُمُوُّ بالروح، وصفاء للقلب، وزيادة قُرْبٍ من المولى ﷺ.
- ٣ - عفاف مريم وورعها وحجابها، وتقواها لله ﷻ، واجتهادها في العبادة، وحسن أدبها وبلاغتها وسرعة بديتها، وقوة يقينها.
- ٤ - تكريم الله تعالى لمريم بأنها حملت بعيسى من غير أب.
- ٥ - وجوب الأخذ بالأسباب في طلب الرزق.
- ٦ - بيان توافر النخل آنذاك في فلسطين في مدينة بيت لحم.
- ٧ - أهمية الرُّطْبِ في فوائده للحامل، ولاسيما في الراحة النفسية.

﴿ فَكَلِمَاتٍ وَأَشْرَىٰ وَعَرِيًّا عَيْنًا فِيمَا تَرَىٰ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

- ٢٦ - لتأكلي من الرُّطْبِ المفيد، وتشربي من الماء العذب، وتطيب نفسك وتستقرّ بهذا المولود، فإن سألك أحد الناس عن شأن المولود فأجبي: إنني نذرتُ لله تعالى الصمت، فلن أكلّم أحداً من الناس.
- ٢٧-٢٨ - فأنت مريم قومه تحمل ابنها عيسى، فلما رأوها تعجبوا وأنكروا، وقالوا لها: لقد جئتِ شيئاً عظيماً منكراً. يا أخت الرجل الصالح هارون ما كان أبوك رجلاً فاجراً، وما كانت أمك واقعة بفاحشة.

- ٢٩ - فلم تُجِبهم، وأشارت إلى عيسى؛ ليكلّموه، فأنكروا عليها أيضاً، فقالوا: كيف نتحدّث مع طفل لا يزال في المهدي؟

٣٠-٣٣- فنطق عيسى بإذن الله تعالى قائلاً: إِنِّي عبد الله، أكرمني الله تعالى بالنبوة، فأنزل عليّ الإنجيل، وجعلني نبياً، وجعلني كثير النفع للعباد حيثما كنت، وأمرني بالمحافظة على الصلاة، وأداء الزكاة طول حياتي، وجعلني كثير البرّ والإحسان بوالدي، ولم يجعلني مُتَكَبِّراً ولا عاصياً لربي، وسلام الله عليّ من كلّ شرّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، وفي يوم خروجي حياً من قبري.
الفوائد والاستنباطات:

- ١- قال ابن عاشور: «النون في قوله ﴿تَرَيْنَ﴾ نون التوكيد الشديدة اتصلت بالفعل الذي صار آخره ياء بسبب حذف نون الرفع لأجل حرف الشرط، فحُرِّكَتِ الياء بحركة مجانسة لها، كما هو الشأن مع نون التوكيد الشديدة». (التحرير والتنوير: ٣١/١٦).
- ٢- تقرير معجزة عيسى عليه السلام وهو في بداية ولادته، وأنه خُلِقَ من غير أب.
- ٣- بيان بعض فضائل عيسى عليه السلام.
- ٤- حَفِظَ اللهُ تعالى عيسى عليه السلام في جميع أحواله منذ ولادته إلى بعثه.
- ٥- بيان عبودية عيسى عليه السلام.
- ٦- قال ابن عاشور: «كلام عيسى هذا ممّا أهملته أناجيل النصارى؛ لأنهم طَوَّأوا خبر وصولها إلى أهلها بعد وَضْعِهَا، وهو طَيٌّ يُتَعَجَّبُ منه. وَيَدُلُّ على أَنَّهَا كُتِبَتْ في أحوال مريية غير مضبوطة، فَأَطَّلَعَ اللهُ تعالى عليه نبيّه ﷺ». (التحرير والتنوير: ٣٣/١٦).
- ٧- تبرئة مريم عليها السلام من تُهْمِ الناس واليهود.
- ٨- وجوب التثبُّت في القول؛ لمعرفة الحقيقة.
- ٩- وجوب الصلاة والزكاة في دين النصارى.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتَّرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣٤- ذلك خبر النبي عيسى بن مريم عليه السلام العالي الرتبة في عبوديته لله الواحد، وفي أقواله النبوية الحكيمة، وهو قول الحق الذي شكَّ فيه اليهود والنصارى.

٣٥- يُنَزِّهُ اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ مِمَّا قَالَ الْمُشْرِكُونَ بِأَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ وَلَدًا، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ عَظِيمٌ فِي التَّوْحِيدِ. تَقَدَّسَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا وَحَكَمَ بِهِ قَالَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ كَمَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ.

٣٦- وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى لِقَوْمِهِ وَهُوَ فِي الْمَهْدِ، الْعِبُودِيَّةَ لِلَّهِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ جَمِيعًا، فَأَخْلَصُوا لَهُ وَحْدَهُ الْعِبَادَةَ. هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ.

٣٧-٣٨- فَاخْتَلَفَتِ الْفِرْقُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِ عِيسَى: مَا بَيْنَ الْغُلُوِّ، إِلَى ادِّعَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَمَا بَيْنَ الْأَتِّهَامِ بِالسَّحَرِ. فَالْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بِمُشَاهَدَةِ أَهْوَالِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَا أَشَدَّ سَمْعَهُمْ، وَمَا أَقْوَى بَصَرَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الَّذِي يُقَدِّمُونَ فِيهِ عَلَى اللَّهِ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ! لَكِنِ الظَّالِمُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي ذَهَابٍ بَعِيدٍ عَنِ الْحَقِّ.

٣٩- وَأَنْذِرِ الْعِبَادَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالنَّدَامَةَ، حِينَ يُقْضَى أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي جَهَنَّمَ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ عَنِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، إِذْ لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ.

٤٠- إِنَّا - بِمَا لَنَا مِنَ الْعِظْمَةِ - نَحْنُ الْوَارِثُونَ لِلْأَرْضِ كُلِّهَا وَمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْبَشَرِ بِمَوْتِهِمْ جَمِيعًا، وَإِلَيْنَا مُصِيرُهُمْ لِلْحِسَابِ. قَالَ الشَّيْخُ الشَّنْقِيطِيُّ: «مَعْنَى قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، أَنَّهُ يُمِيتُ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ السَّاكِنِينَ بِالْأَرْضِ، وَيَبْقَى هُوَ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَبَعَثْنَا وَجْهَهُ

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُؤْتِيهِ نَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ [الحجر: ٢٣] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ».

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الإشارة ب ﴿ ذَلِك ﴾ لتمييز المذكور أكمل تمييز تعريضاً بالرد على اليهود والنصارى جميعاً، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفع النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ.
- ٢ - الإخبار عن اختلاف النصارى بشأن عيسى عليه السلام.
- ٣ - الرّد على الذين افتروا على الله تعالى بنسبة الولد إليه.
- ٤ - عظمة قدرة الله تعالى.

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ٥٠ ﴿﴾

التفسير:

- ٤١ - واذكر - أيها الرسول - في هذا القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وحواره معهم حول توحيد العبودية. إن إبراهيم عليه السلام كان بليغ الصدق في أقواله وأفعاله، ونبياً ذا منزلة عالية.
- ٤٢ - واذكر حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر مستعظفاً بنسب الأبوة، مُستميلاً له نحو الإيوان: يا أبي لم تعبد الأصنام التي لا تسمع دعائك، ولا تبصر عبادتك، ولا تجلب لك نفعاً، أو تدفع عنك ضرراً؟
- ٤٣ - وكرّر الدعوة بالاستعفاف: يا أبي إنني قد جاءني بطريق الوحي الإلهي من العلم العظيم ما لم يأتك، فطاوغي أُرشدك إلى الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة.
- ٤٤ - ٤٥ - يا أبي، لا تطع أمر الشيطان، وترك رحمة الرحمن. إن الشيطان عاصٍ للرحمن، مستكبرٌ على عبادته، يا أبي إنني أخاف عليك بعبادة الأصنام أن يصيبك عذابٌ من الرحمن، فتكون تابعاً للشيطان في دخول النار.

٤٦ - فَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُوهُ آزَرَ بِقِسْوَةِ مُهَدَّدًا وَمُنْكَرًا عَلَى ابْنِهِ: أَتَارَكَ يَا إِبْرَاهِيمَ عِبَادَةَ آلِهَتِي؟ ثُمَّ أَكَّدَ وَهَدَّدَ بِالْقَتْلِ وَالطَّرْدِ: لَيْتَن لَمْ تَنْتَه عَمَّا تَقُولُ وَتَعْتَقِدُ لِأَقْتُلَنَّكَ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ، وَازْهَبْ عَنِّي لَا أُرِيدُ رُؤْيَاكَ زَمَانًا طَوِيلًا.

٤٧-٤٨ - فَأَجَابَهُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِرَفَقٍ وَلُطْفٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَلَا يَبَالُكَ أَذَىٰ مِنِّي، وَسَأَطْلُبُ لَكَ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّي، إِنَّهُ كَانَ لَطِيفًا بِرِعَايَتِهِ التَّامَةِ لِي، وَأَهْجَرَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، وَأَدْعُو رَبِّي وَأَعْبُدْهُ مُخْلِصًا رَاجِيًا أَلَّا يَجْعَلَنِي مُعَذَّبًا. وَلَمَّا أَصْرَّ أَبُوهُ عَلَى الْكُفْرِ تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَبِيهِ، كَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارًا لِبُرْهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

٤٩-٥٠ - فَلَمَّا تَرَكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام قَوْمَهُ الْكُفَّارَ وَرُؤْيَا أَوْثَانِهِمْ، رَزَقْنَاهُ ذُرِّيَّةً مُّؤْمِنَةً، ابْنًا اسْمُهُ إِسْحَاقُ عليه السلام، وَحَفِيدًا اسْمُهُ يَعْقُوبُ عليه السلام، وَجَعَلْنَاهُمَا نَبِيَّيْنِ، وَأَكْرَمْنَاهُمَا جَمِيعًا مِنْ رَحْمَتِنَا بِخَيْرَاتٍ كَرِيمَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالدُّنْيَا، وَجَعَلْنَاهُمْ ذِكْرًا حَسَنًا، وَثَنَاءً جَمِيلًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما لقي من مشركي قومه؛ لمشابهة حاله بحال إبراهيم عليه السلام.
- ٢ - الإشارة إلى الأسلوب اللطيف في دعوة الأقربين.
- ٣ - التنفير من الشرك؛ لأنَّه عبادة للشيطان.
- ٤ - جواب إبراهيم: سأستغفر لك ربي، يدل على ثباته على التوحيد، وفي الوقت نفسه يُدكِّرُ أباه بأنَّه سيبقى ناصحاً له، وفيه ترغيب أيضاً.
- ٥ - الإشارة إلى هجران أهل الكفر والشرك بعد دعوتهم بإقامة الحجَّة عليهم.
- ٦ - التأييد الرباني لأوليائه الموحِّدين.
- ٧ - قال ابن عاشور: «إظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار، إذ لم يقل: إنَّه كان للرحمن عَصِيًّا، لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان؛ لأنَّ في ذِكْرِ صرِيحِ اسْمِهِ تَنْبِيهاً إِلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ، وَلِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مَوْعِظَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا». (التحرير والتنوير: ٤٧/١٦).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

التفسير:

٥١- واذكر - أيها الرسول - في القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام، فقد اصطفاه الله واختاره، وكان رسولا من الله تعالى لعباده، ونبيا يخبرهم عن شريعة الله تعالى.

٥٢-٥٣- وناديناه موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كان موسى متوجهاً إلى مصر، وقربناه بتشريفه وتكليمه لنا بغير واسطة، ووهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون عليه السلام فجعلناه نبيا يعينه.

٥٤-٥٥- واذكر - أيها النبي - في هذا القرآن الحكيم خبر إسماعيل عليه السلام. إنه كان صادق الوعد لا يعد بوعد إلا وفى به، وقد أكرمه الله تعالى بأن جمع له الرسالة والنبوة. ومن صفاته الحميدة أنه كان يحث أهله على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، وقد نال رضا الله تعالى، فبلغ درجة عالية.

٥٦-٥٧- واذكر يا محمد في القرآن العظيم إدريس عليه السلام، إنه كان بليغ الصدق في أقواله وأفعاله، ونبيا ذا منزلة عالية، فقد رفع الله قدره بشرف النبوة، ودرجته في السماء الرابعة حينما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء عروجه إلى السماء.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما لقي من مشركي قومه؛ لمشابهة حالهم بحال قوم موسى عليه السلام.
- ٢- إثبات صفة الكلام لله تعالى من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل.
- ٣- بيان شرف الصدق في الوعد.
- ٤- أهمية أمر الأهل بالصلاة والزكاة؛ لأثرهما العظيم في تربيتهم على الصلاح والتقوى.
- ٥- ينظر: الملحق لبيان الترتيب الزمني للأنبياء المذكورين.
- ٦- ينظر: صورة جانب الطور الأيمن، كما في الملحق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَةَ بِلَ وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتُنِبْنَا إِذَا نُنَادَى عَلَيْهِمْ عَيْنُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَاشِيًا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ. مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

التفسير:

٥٨ - أولئك أصحاب الرتب العالية، والنسب الشريف، الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة من نسل آدم، ومن ذرية نوح والمؤمنين الذين ركبوا معه السفينة، ومن ذرية إبراهيم كإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن ذرية يعقوب كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وممن هديناهم للإيمان، واصطفيناهم للرسالة والنبوة، إذا سمعوا كلام الله خروا سُجَّدًا، وبكوا خوفاً من خشية الله.

٥٩-٦٢ - ثم جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قوم أشقياء تركوا إقامة الصلوات، وسلكوا طريق الشهوات، فسوف يلقون شرّاً في نار جهنم، إلا من تاب وأناب إلى الله وأصلح عمله، فأولئك أصحاب الهمة العالية يُدخلهم الله الجنة، ولا يُنْقِضُهُمْ من أعمالهم الصالحة مثقال ذرة. هي جنّات إقامة دائمة، التي وعد بها الرحمن عباده الصالحين قبل أن يروها. إنَّ وعده سبحانه بالجنة آتٍ لا يُخلف، لا يسمعون في هذه الجنة كلاماً باطلاً، وإنما يسمعون تسليم الملائكة عليهم، وهم ما يشتهون في الجنة من أنواع الخيرات على الدوام صباحاً ومساءً.

٦٣ - تلك الجنة العظيمة الشأن التي وصّفتنا بعض أحوالها نُورِثُهَا لعبادنا المتّقين.

٦٤ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ. مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾. (صحيح البخاري - كتاب التفسير، الآية)، برقم (٤٧٣).

التفسير:

وقل يا جبريل لمحمد ﷺ: وما تنزل نحن الملائكة من السماء إلى الأرض إلا بإذن ربك، له سبحانه جميع الأمور في الزمان والمكان، في الدنيا والآخرة، وما بين أيدينا مما يستقبل من أمر الآخرة، وما خلفنا مما مضى من الدنيا، وما كان ربك ناسياً شيئاً من الأشياء.

٦٥- هو الله رب السموات السبع والأرضين السبع، وما بينهما من مخلوقات، فأخلص له العبادة وحده، واصبر صبراً عظيماً بغاية جهدك من أجل عبادته وحده سبحانه، هل تعلم له مماثلاً ومثابهاً؟ ليس لله مثيل، ولا نظير ﷻ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- قال ابن عاشور: «هذه الآية من مواضع سجود القرآن المروية عن النبي ﷺ اقتداء بأولئك الأنبياء في السجود عند تلاوة القرآن، فهم سجدوا كثيراً عند تلاوة آيات الله التي أنزلت عليهم، ونحن نسجد اقتداء بهم عند تلاوة الآيات التي أنزلت إلينا». (التحرير والتنوير: ٥٨/١٦).
- ٢- بيان فضل السجود الذي يصحبه البكاء والخوف من الله تعالى.
- ٣- الإشارة إلى خطر تضييع الصلاة، بتأخيرها أو تركها، أو التقصير فيها.
- ٤- الترغيب في التوبة، وبيان ما أعدّه الله تعالى للتائبين.
- ٥- وجوب توحيد العبودية.
- ٦- بيان أحوال الملائكة أنّها لا تتصرف إلا بإذن الله تعالى.
- ٧- لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلَهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥] إبطال عقيدة الإشراك به، ناسب الانتقال إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو نفى الشركين وقوع البعث بعد الموت، حتى يتم انتقاض أصلي الكفر.

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْدَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۖ ﴿٦٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ۖ ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۖ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِذْ آوَىٰ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ ﴿٧٣﴾ وَكُرِّهُوا أَهْلَكَمَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ۖ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٦-٦٧- يُتَكَبَّرُ الْإِنْسَانُ الْمَكْذِبُ بِالْبَعْثِ فِيَقُولُ: إِذَا مِثُّ وَقِيْتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ مِنَ الْقَبْرِ حَيًّا؟ أَوْلَا يَتَذَكَّرُ هَذَا الْمَكْذِبُ بِالْبَعْثِ أَوْلَ خَلْقِهِ مِنْ عَدَمٍ؟

٦٨- قَسَمًا بِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، لَنَجْمَعَنَّ الْكُفَّارَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الشَّيَاطِينِ، ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ يَحِيطُونَ بِهَا وَهُمْ قَعُودٌ عَلَى رُكْبِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتِمَّ الْكُفْرُ الْوَاقِفُ مِنْ شِدَّةِ اضْطِرَابِهِمْ وَهَلْعِهِمْ.

٦٩-٧٠- ثُمَّ لَنَأْخُذَنَّ بِشِدَّةٍ وَعَنْفٍ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ضَالَّةٍ أَكْبَرَ مَجْرِمِيهَا الْمُتَمَرِّدِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ؛ لِيَبْدَأَ بِهِمُ الْعَذَابَ، ثُمَّ وَاللَّهِ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ بِدُخُولِ جَهَنَّمَ، وَتَذَوُّقِ شِدَّةِ حَرِّهَا.

٧١-٧٢- وَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ - أَيُّهَا الْعِبَادُ - إِلَّا وَسَيَّرِدُ عَلَى النَّارِ، فَلِلْمُؤْمِنِينَ يَمْرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى جَهَنَّمَ مَرُورًا سَرْعَتُهُ مُتَفَاوِتَةٌ حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَسَيَّرِدُونَ عَلَيْهَا لِلْبَقَاءِ فِيهَا أَبَدًا، ثُمَّ نُنَجِّي الْمُتَّقِينَ نَجَاةً عَظِيمَةً، وَنَتْرِكُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ قَاعِدِينَ عَلَى رُكْبِهِمْ مِنْ هَوْلِ الْمَشْهَدِ.

عَنْ أُمِّ مَيْمُونَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ. الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا». قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ! فَانْتَهَرَهَا. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِذْ آوَىٰ وَارِدُهَا﴾

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

(صحيح مسلم ٤/١٩٤٢ برقم ٢٤٩٦ - كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة).

٧٣-٧٤- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَى الْعِبَادِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْوَاضِحَةِ الْمَعَانِي، قَالَ الْكُفْرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمُفَاخَرَةٍ وَمُكَابَرَةٍ: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْزَلًا، وَأَحْسَنُ مَجْلِسًا، وَأَكْثَرُ أَنْصَارًا؟ وَقَدْ أَهْلَكْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِهَوْلَاءِ الْمُكَابِرِينَ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ مَالًا وَأَثْنًا، وَأَجَلْ هَيْئَةً وَمَنْظَرًا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الفاء في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ تفریع على جملة ﴿أَوْلَايَدُكُرَّا لِنَسُنُّ أَنَا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ﴾ [مريم: ٦٧]، باعتبار ما تضمنته من التهديد. وواو القسم لتحقيق الوعيد. والقسم بالربِّ مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو النبي ﷺ إدماج لتشريف قدره.
- ٢ - تقرير عقيدة البعث بعد الموت.
- ٣ - ثبوت العذاب للمكذبين للبعث، وأنَّ رَوَّادِ هُوَ لَاءِ المكذبين أشدَّ عذاباً من غيرهم.
- ٤ - سعة الرزق في الدنيا ليس دليلاً على رضا الله تعالى، بل هو استدراج واختبار.
- ٥ - عن أبي سعيد الخدري ؓ، في ذِكْرِ حديث رؤية الربِّ في الآخرة، وفيه قوله ﷺ: «... ثم يؤتى بالجرس فيجعل بين ظهري جهنم»، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مَدْحَضَةٌ مَرَّلَةٌ عليه خطاطيف وكلايب وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقِيْفَاء تكون بنجد يُقال لها: السَّعدان، المؤمن عليها كالطرف والبرق والريح وكأجاويد الخيل والرَّكاب، فناجٍ مسلم، وناجٍ مخدوش، ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً، فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق».
- (صحيح البخاري ١٣/٤٣١ برقم ٧٤٣٩ - كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿رُجُومٌ يُرْمَوْنَ نَارِةً﴾). وعُقِيْفَاء: مَلَوِيَّة.
- ٦ - في الآية (٧٣) إخبار مستقبليٍّ عن موقف الكفَّار، إذا سمعوا تلاوة القرآن فإنَّهم ينزعجون، ويتفاخرون بما أنعم الله تعالى عليهم في الدنيا.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الضَّالِّحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُمَ آزًا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَخَشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴿

التفسير:

٧٥- قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين المغرورين: مَنْ كان منَّا ومنكم في الضلالة جائراً عن طريق الحق، فإنَّ الله يُمهله ويُملي له في ضلاله، إلى أن يأتيهم أمر الله: إمَّا عذاب عاجل في الدنيا، وإمَّا قيام الساعة، فسيعلمون مَنْ هو شرُّ مكاناً، وأضعف قوة.

٧٦- ويزيد الله تعالى المهتدين نوراً؛ للثبات على طريق الإيمان والأعمال الصالحة. والأذكار التي تُنير القلوب خيراً عند الله تعالى في الآخرة ثواباً وخيراً عاقبة من كلِّ ما يتباهى به أهل الأرض.

٧٧-٨٠- سبب النزول:

عن خَبَاب قال: جث العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ. فقلت: لا، حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: إنَّ لي هناك مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾.

(صحيح البخاري ٨/٢٨٣- كتاب التفسير، سورة مريم، باب (الآية) برقم ٤٧٣٢. صحيح مسلم ٤/٢١٥٣- كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح.... برقم ٢٧٩٥).

التفسير:

أفلا تعجب من دَجَلِ هذا الكافر المِضْلال (العاص بن وائل السهمي) الذي جمع بين كفره بآيات الله وافتراءه العجيب أنَّه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، فويخه الله تعالى وزجره: أَطَّلَعَ عَلَى علم الغيب الذي تَقَرَّدَ بِهِ عَلَامُ الْغُيُوبِ، فرأى ماله وأولاده؟! أم أعطاه الله عهداً بذلك؟ كلاً لم يقع شيء من ذلك، وسيُحفظ

قوله، وسيحاسبُ على افترائه، فيزداد عذابه زيادة كبيرة، ونرثه ما يُخلفه من المال والولد بعد إهلاكه، وبأيتنا يوم القيامة وحيداً.

قال الشيخ الشنقيطي: «أظهر الأقوال عندي في معنى العهد في قوله تعالى: في هذه الآية الكريمة ﴿أمر أَنتَخذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أن المعنى: أم أعطاه الله عهداً أنه سيفعل له ذلك، بدليل قوله تعالى: في نظيره في سورة البقرة: ﴿قُلْ أَنتَخذِمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخَلِّفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠]».

٨١-٨٢- يخبر الله تعالى عن كفر المشركين برّبهم أنّهم اتخذوا من دونه آلهة؛ لتنصّرهم وترفع شأنهم، ثم زجرهم سبحانه: ليس الأمر كما توهّموا، فإنّ الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم، ويكونون لهم أعداء يوم القيامة.

٨٣-٨٤- ألم تعلم - أيها الرسول - أنّنا سلّطنا الشياطين على الكافرين تُغريهم وتُغويهم إغواءً إلى المعصية؟ فلا تتعجّل في طلب هلاكهم، فإنّه لم يبق لهم سوى أيامٍ تُحصيها إحصاءً دقيقاً.

٨٥- يوم القيامة نجمع الذين خافوا عقاب الله فأطاعوا أمره، واجتنبوا تمهته، إلى الرحمن وفوداً مكرّمين راكبين. عن أبي هريرة ؓ، عن النبيّ ﷺ قال: «يُحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتُحشّرُ بَقِيَّتَهُم النارُ تُقِيلُ معهم حيث قالوا: وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسوا».

(صحيح البخاري ٣٧٧/١١ برقم ٦٥٢٢- كتاب الرقاق، باب الحشر. وصحيح مسلم ٤/٢١٩٥ برقم ٢٨٦١- كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر.. وعنده: (راغبين راهبين) بدون واو بينهما).

٨٦-٨٧- ونسوق المعتدين الذين ارتكبوا كبائر الجرائم إلى نار جهنّم مُشاةً على وجوههم عطاشاً، لا يجدون من يشفع لهم، لكن من أقرّ بالوحدانية لله ولرسوله بالرسالة، وعَمِلَ بذلك، فإنّه قد وعده الله تعالى بالشفاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١- ينظر حديث الإمام أحمد، عن عثمان المتقدم عند الآية (٤٦) من سورة الكهف، وفيه تفسير الباقيات الصالحات. (التفسير الصحيح ٤/١٩٦).

٢- جملة ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ جوابٌ لكلامه على طريقة الأسلوب الحكيم بحمّل كلامه على ظاهر عبارته من الوعد بقضاء الدّين من المال الذي سيجده حين يبعث، فالاستفهام في قوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكارى وتعجيبى.

٣- خطورة ادّعاء علم الغيب، وسوء عاقبته.

- ٤ - الشياطين هي السبب في مسارعة الفاسقين إلى المحرمات والكبائر.
- ٥ - تكريم المتقين عند الحشر إذ يحشرون ركوباً.
- ٦ - تقرير استحقاق الشفاعة للموحدين.
- ٧ - إنباء عن أمر مستقبلي ببراءة المعبودات من المشركين.
- ٨ - قال الشيخ الشنقيطي: «قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تستعجل وقوع العذاب بهم، فإن الله حَدَّدَ له أجلاً معيناً معدوداً. فإذا انتهى ذلك الأجل جاءهم العذاب، فقوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: نَعُدُّ الأعوام والشهور والأيام التي دون وقت هلاكهم، فإذا جاء الوقت المحدد لذلك أهلكناهم».
- ٩ - في الآية (٧٦) إخبار مستقبلي عن زيادة الله لعباده الذين اهتدوا لدينه، هدى على هداهم بما يتجدد لهم من الإيثار بفرائض الله.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾

التفسير:

- ٨٨-٩٢- وتجراً كفر أهل الكتاب والمشركين فقالوا: اتخذ الرحمن ولداً. والله قد أتيتم بقول منكر عظيم، تكاد السموات السبع يتشققن ويضطربن من هول هذا القول، وتتصدع وتزلزل الأرضون السبع، وتندك وتتساقط الجبال سقوطاً شديداً؛ استعظاماً للمُنكر الكِبَار في نسبتهم الولد إلى الله ﷻ، وما ينبغي للرحمن ولا يليق بجلاله وعظمته أن يتخذ ولداً سبحانه.
- ٩٣-٩٥- ما من مخلوق في السموات السبع والأرض إلا سيأتي ربه يوم القيامة عبداً متقاداً لله خاضعاً له، والله قد أحاط علمه بهم، وأحصى عددهم قبل خلقهم، وأحصى أعمالهم. وكلُّ هذه الخلائق يأتي كل واحد منهم يوم القيامة بلا مالٍ ولا أولادٍ ولا أعوان.

٩٦- إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَقْرَأُوا اللَّهَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَعَمِلُوا بِمَا يُرْضِيهِ سُبْحَانَهُ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ مَحَبَّةً عَظِيمَةً فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ.

٩٧- فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا أَلْفَاظَ هَذَا الْقُرْآنِ وَمَعَانِيَهُ بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ؛ لِتُبَشِّرَ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ، وَيَرْجُونَ رِضَاهُ بِالْجَنَّةِ، وَتَنْذِرَ بِهِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ لَا يَسْتَقِيمُونَ، وَجَادِلُوا فِي الْبَاطِلِ بِشِدَّةٍ.

٩٨- ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ السُّورَةَ بِذِكْرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي حَقَّ عَلَيْهَا الْهَلَاكُ؛ لِلتَّخْوِيفِ وَالْإِعْتِبَارِ بِمَصِيرِ الْكُفَّارِ وَالْفَجَّارِ. وَقَدْ أَهْلَكْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ، مَا تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا، وَمَا تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تعظيم جريمة الافتراء على الله تعالى بنسبة الولد إليه، سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً. وينبغي تعظيم الله تعالى بالتسبيح على هذه الفرقة، وكذا صنع النبي ﷺ، كما ثبت عن حذيفة ؓ في المقدمة.
- ٢- اقتران الإيمان بالعمل الصالح سبب لنيل درجة محبة الله تعالى.
- ٣- من رحمة الله تعالى بالمؤمنين تيسيره سبحانه أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفَهْمَ أَحْكَامِهِ وَمَوَاعِظِهِ.
- ٤- فِي الْآيَةِ (٩٦) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ، وَبَشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَأَتَّبَعُوا رُسُلَهُ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَفَّقَ شَرْعَهُ، بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ لَهُمْ مَحَبَّةً وَمُودَةً فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ.

النزول: مكية.

فضل السورة: تَقَدَّم ذِكْرُهُ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

المقاصد:

- ١ - تسلية النبي الأمين ﷺ، وتخفيف أمر القرآن الكريم عليه.
- ٢ - بيان عظمة القرآن الكريم، وسمو مقاصده، وشمول هدايته.
- ٣ - بَسَطُ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ، وَتَأْيِيدُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ.
- ٤ - بَسَطُ قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْمَحَافِظَةِ عَلَى السِّرِّ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سِتِّيرٌ يَجِبُ السِّرُّ.
- ٥ - تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ
الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَمَا تَحْتِ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى ﴿٨﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢-٣ - إِنَّا لَمْ نُنْزِلْ عَلَيْكَ - أيها الرسول - هذا القرآن العظيم لترهق نفسك وبدنك، ولكن أنزلناه موعظةً وعبرةً لِمَنْ يَخْشَى عقاب الله. قال الشيخ الشنقيطي: «أظهر الأقوال - في قوله: ﴿نَذْكِرَةً﴾ - أنه مفعول لأجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي: إلا لأجل التذكرة لِمَنْ يَخْشَى الله، ويخاف عذابه، والتذكرة الموعظة التي تلبس لها القلوب، فتمثل أمر الله وتجتنب نهيهِ، وخصَّ بالتذكرة مَنْ يَخْشَى دون غيرهم؛ لأنَّهم هم المتفكرون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُنْزِرُ مِنْ أَتْبَعِ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].»

٤ - ٥ - قد نزل عليك هذا القرآن من الله العظيم، الذي أبدع خلق الأرضين السبع، والسموات السبع العالية، هو الرحمن بجميع خلقه استوى على العرش الذي هو أعلى وأعظم المخلوقات، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

٦ - له سبحانه ملكوت السموات السبع، وما في الأرضين السبع وما بينهما، وما تحت الأرض من طبقات وكنوز.

٧ - إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، فسواءً جَهَّرْتَ بِالْقَوْلِ - أيها الرسول - أو أَسْرَرْتَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُ.

٨ - الله الذي له جميع معاني العبودية لا يستحق العبودية إلا هو، له وحده الأسماء الكاملة في الحسن. الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التحذير بالقرآن الكريم بذكر الحروف المقطعة.
- ٢ - الردُّ على مُنْكَرِي نزول القرآن الكريم على النبي الأمين ﷺ.

- ٣- الإشارة إلى الإيمان بأسماء الله الحسنى .
- ٤- تقرير توحيد العبودية .
- ٥- إثبات العرش لله، واستواؤه تعالى عليه كما يليق به .
- ٦- يقول الخبراء: إن حياة الإنسان والكائنات الحية الأرضية تتوقف على ما تحت الثرى، فتحت الثرى الملايين من البكتيريا التي تقوم بإتمام دورات الحياة المرتبطة بالتربة، وملايين الفطريات المفتتة للصخور والمحللة للبقايا الحيوانية والنباتية، وملايين الاكتينوميستات المخصبة للتربة والمنظمة لمحتواها الميكروبي، وعشرات الطحالب المخصبة للتربة، والفيروسات المنظمة لأعداد الكائنات الحية الأخرى في التربة، ونرى الحيوانات الأولية، والديدان النيماتودية المقلبة والمهوية للتربة، ونرى الحبوب والبذور والسيقان الأرضية والجذور الدرنية وغير ذلك من سكان الأرض الحية والقاحلة والغدقة والجافة. ولو غابت هذه الكائنات من تحت الثرى توقفت دورات النتروجين، والكربون، والفوسفور، والكبريت وماتت الأرض وتَصَحَّرَتْ وماتت النباتات، واختفت الحياة تماماً من على الأرض، فلا حياة بدون ما تحت الثرى. (موقع موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، ورابط البحث: <http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=71>).
- ٧- عَلِمُ اللهُ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ الْفَسِيحِ .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ فَلَمَّا أَنهَا تُودَى بِمُوسَى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ۖ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ وَأَنَا أَخْتَرُكَ ۖ فَاسْتَمِعَ لِمَا يُوحَى ۖ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۖ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ۖ فَلَا يُصَدِّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ۖ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى ۖ قَالَ أَفَبِمَا يَمْسُؤُنَ أَفْأَعْتَبَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۖ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۖ ﴾

التفسير:

٩-١٢- وهل أتاك - أيها النبي - الخبر العظيم، خبر موسى عليه السلام حين رأى ناراً، وقد أخطأ الطريق إلى مصر في صحراء سيناء، فقال لامراته مُسْتَبْشِرًا: انتظروا، إنني أبصرتُ ناراً، لعلِّي آتيكم بشعلة من النار تستدفنون بها، أو أجد عندها هادياً يدلُّنا على الطريق إلى مصر. فلَمَّا أتى موسى عليه السلام تلك النار ناداه الله

تعالى من جهة جبل الطور وهو على يمين موسى، متوجّهاً إلى مصر: يا موسى إني أنا ربك فاخْلَعْ نعليك، إنَّكَ الآن بالوادي المبارك «طوى».

١٣-١٤- وأنا اخترتك يا موسى لرسالتي إلى قومك، فاستمع لما أوحى إليك؛ لتبْلُغهُ قومك، إنني أنا الله لا معبودَ بحقِّ إلا أنا، فأخْلِصِ العبادة لي، وداوِمِ على إقامة الصلاة من أجل أن تواظبَ على ذِكْرِي.
١٥-١٦- إنَّ الساعة قادمة آتية، لا يعلم موعدها أحدٌ من العالمين، أكاد أخفيها من نفسي؛ لكي تُجْزَى كل نفس بما عَمِلَتْ في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ، فلا يَصْرِفَنَّك يا موسى عن الإيمان بالساعة مَنْ لا يُصَدِّقُ بوقوعها، واتَّبِعْ هوى نَفْسِهِ في إنكارها، فتهلك.

١٧-٢١- وما هذه التي تحملها في يدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى بإسهاب لمزيد من الحوار مع ربِّه: هي عصاي أَعْتَمِدُ عليها في المشي، وأهزُّ بها ورق الشجر؛ لترعى غنمي ما يتساقط منه، ولي فيها مصالِحٌ أخرى. فأمره سبحانه بأن يلقي عصاه من يده، فألقاها ففوجئ بأنها حيَّةٌ تمشي بسرعة. قال الله تعالى يُطْمِئِنُّهُ: حُذِّ الحَيَّةَ، ولا تَخَفْ منها، سنُعِيدُها إلى حالتها الأولى وهي العصا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان قصة موسى في عدة مراحل من الولادة إلى الرسالة.
- ٢- إثبات صفة الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله.
- ٣- تعليم الله تعالى لموسى ﷺ معالم الإيمان.
- ٤- تقرير المعجزة الأولى لموسى ﷺ وهي العصا، وبيان بعض فوائدها.

﴿ وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٤﴾ لِزَيْدِكَ مِنْ ءَابِتِنَا الْكَبْرَىٰ ﴿٢٣﴾
 أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِن لِسَانِي
 ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾
 كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
 مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ
 الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِيُضَمَّعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَسْتَشِي
 أُخْتَكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ. فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتَ نَفْسًا
 فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا فَلَيْتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَعْنَاكَ
 لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ۝

التفسير:

٢٢-٢٤- واضمُّم يدك إلى جنبك تحت العَضد ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء مضيئة من غير مرض؛ لتكون لك علامة أخرى تدلُّ على صدقك. وهذه المعجزات تمهيد لرسالة موسى ﷺ إلى فرعون، فقد أمره الله تعالى بدعوة فرعون. اذهب بما معك من المعجزات رسولا إلى الطاغية فرعون. إنه تجاوز الحد في التكبر والتجبر حتى ادعى الألوهية، فادعه إلى توحيد الله.

٢٥-٣٦- فاستجاب موسى ﷺ مستعينا بالله تعالى، متضرعا إليه: يا رب وسع لي صدري، وسهل لي ما أمرني به من تبليغ الرسالة، وأطلق لساني بالفصاحة؛ ليفهم الناس كلامي، واجعل لي موعينا من أهلي، وهو هارون أخي، تقويني به، وأشركه في النبوة وتبليغ الرسالة، كي ننزهك بالتسبيح كثيرا، ونذكرك ذكرا كثيرا. إنك كنت - وما زلت - بصيرا بأحوالنا. فاستجاب الله تعالى له: قد أعطيتك كل ما سألته يا موسى.

٣٧-٣٩- وحقا لقد مننا عليك يا موسى قبل هذه النعمة بنعم أخرى منذ ولادتك، حين ألهمنا أمك للعناية بك أن ضعي ابنك موسى في وعاء يستوعبه، ثم ألقي هذا الوعاء في نهر النيل، فسوف يلقيه النهر على الساحل، فيأخذه فرعون عدو الله وعدو موسى، وألقيت عليك يا موسى محبة مني في قلوب الناس، ولتتربي على نظري ورعائتي.

٤٠-٤١- حين تمشي أختك تتبّع أخبارك، فقد عرفت أن زوجة فرعون تحتاج إلى مرضعة لموسى، فجاءت أخته فقالت لهم: هل أدلكم على مرضعة تتكفل بإرضاعه وتربيته؟ فرجعناك إلى أمك كي يتهج

فؤادها، وتُسَرَّ عينها، ولا تحزن على فراقك، وقد مَنَّنا عليك في شبابك بمصر، إذ قَتَلْتَ القبطيَّ خطأً، حين استغاث بك الإسرائيلي، فأَمَّاكَ من الخوف، ونَجَّيناك من غَمِّ القتل، واختبرناك فوجدناك مُستقيماً، فحَلَّضناك من محنةٍ إثر محنة، وبسبب ذلك لبثت عشر سنين في مدين مع نبيِّ الله شعيب عليه السلام، ثمَّ جئت إلى جبل الطور في وقت قَدَرناه لإرسالك، وأَجْرَيْتُ عليك نِعْمي، وحُسِّنَ تربيتي لك، واخترتك لرسالتي والبلاغ عني.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تأييد الله تعالى موسى عليه السلام بالمعجزات من أجل دعوة فرعون والناس إلى التوحيد.
- ٢ - أهمية الدعاء في حياة الداعية.
- ٣ - الإشارة إلى أثر التعاون في الدعوة إلى الله تعالى.
- ٤ - أهمية دعوة الطغاة بالحكمة.
- ٥ - الرعاية الربانية لموسى منذ إلقائه في النهر. وفي هذا دَرْسٌ للدعاة الذين يرقبون عناية الله.
- ٦ - في الآية (٣٧): تأكيد الخبر بلام القسم ﴿قَدْ﴾ لتحقيق الخبر؛ لأنَّ موسى عليه السلام قد عَلِمَ ذلك، فتحقيق الخير له تحقيق لازمه المراد منه، وهو أنَّ عناية الله به دائمة لا تنقطع عنه؛ زيادةً في تطمين خاطره بعد قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيْتَ سُؤْلَكَ﴾.
- ٧ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تمجيء من هاهنا»، وأوماً بيده نحو المشرق مِنْ حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنَّما قَتَلَ موسى الذي قَتَلَ مِنْ آل فرعون خطأً، فقال الله ﷻ له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾. (صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب الفتنة في المشرق من حيث طلع قرناً الشيطان، ٣/٢٢٢٩، برقم ٢٢٣٠).
- ٨ - قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ لم يُبَيَّنْ هنا جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة سبب قَتْلِهِ لهذه النفس، ولا مِمَّنْ هي، ولم يُبَيَّنْ السبب الذي نَجَّاه به من ذلك الغم، ولا الفتون الذي فتته، ولكنه بيَّنَّ في سورة القصص خبر القتل. [انظر الآيات: ١٥-١٦].»
- ٩ - ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ، قَوْلَا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾

التفسير:

٤٢-٤٤- ولما استجاب الله ﷻ دعاء موسى بأن يكون معه هارون مُعِينًا له، أمرهما سبحانه بأن يتوجَّها إلى فرعون بما معهم من الآيات، والمعجزات الدالة على وحدانية الله تعالى وصدقهما، وألا يَضَعُفا عن مواظبة الذكر لله تعالى وتبليغ الرسالة، وأن يقولوا له قولاً لطيفاً، لعله يتعظ ويخشى الله تعالى.

٤٥-٤٦- واستجابا لهذه المهمة المشرفة، ولكنها تَهَيَّبًا من جَبْرُوت فرعون وبطشه، فقالا: يا رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُبَادِرَنَا بِالْعُقُوبَةِ، أَوْ يَتَمَرَّدَ عَلَيْنَا وَعَلَى رِسَالَتِنَا، فطمأنهما الله ﷻ، ووعدهما بالعون بقوله: لا تخافا من بطش فرعون، إني معكما أحفظكما وأرعاكما، وأسمع قولكما، وأرى جميع أحوالكما.

٤٧-٤٨- فاذهبا إليه، وقولا له: إِنَّا رَسُولَانِ مِّنْ عِنْدِ رَبِّكَ، فَأُطْلِقْ سَرَاحَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا تُعَذِّبْهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْإِهَانَةِ، قَدْ جِئْنَاكَ مِّنْ رَبِّكَ بِمِعْجَزَةٍ تَشْهَدُ لَنَا بِصِدْقِ النُّبُوَّةِ، وَهِيَ الْعَصَا وَالْبِدْءُ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى مَنْ صَدَّقَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْهَلَكَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ.

٤٩-٥١- قال فرعون بفرور: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟ فأجابه موسى بثقة وفي غاية البيان والإيجاز: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خَلْقَهُ اللَّاتِقَ بِهِ، ثُمَّ هَدَى كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ لَهُ. قَالَ فِرْعَوْنُ مُتَشَبِّهًا بِضَلَالِ السَّابِقِينَ: فَمَا حَالُ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي سَبَقَتْ بِالْكَفْرِ؟

وقال ابن عاشور: «أجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جزياً على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية بحيث ينتظم من مجموعهما قياس، فإن فرعون من جملة الأشياء، فهو داخل في عموم

﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾». (التحرير والتنوير ١٦/١٢٩).

٥٢-٥٣- فأجاب موسى جواباً لافتاً إلى توحيد الربوبية: عَلِمْتُ تِلْكَ الْأُمَمَ عِنْدَ رَبِّي وَحْدَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. إِنَّ رَبِّي لَا يَخْطِئُ وَلَا يَنْسَى، هُوَ الَّذِي بَسَطَ لَكُمْ الْأَرْضَ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا طُرُقًا تَسْلُكُونَهَا، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ الْمَطَرَ النَّافِعَ، فَأَخْرَجَ سَبْحَانَهُ بِذَلِكَ الْمَطَرِ أَصْنَافًا مِنَ النَّبَاتِ مُتَّوَعَةً فِي فَوَائِدِهَا، زَاهِيَةً فِي جَمَالِهَا.

الفوائد والاستنباطات:

١- من مهمات الدعوة لين الخطاب، وتحريك الألباب. قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَقَوْلًا لَهُ، قَوْلًا لِنَبِيِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أمر الله جلَّ وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يقولوا لفرعون حال تبليغ رسالة الله إليه ﴿قَوْلًا لِنَبِيِّنَا﴾ أي كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً ليس فيه ما يُغضبُه ويُتقَرُّه، وقد بيَّن جلَّ وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكَّ ﴿١٨﴾ وَآهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٧-١٩]. وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورفقته كما ترى».

٢- الخوف من العدو هو من طبع البشر، فلا مؤاخذه عليه.

٣- أهمية الحوار، والإجابة عن اللبس والشك.

٤- بيان نعم الله تعالى على عباده.

٥- لم يقل فرعون: فَمَنْ رَبِّي؟ بل قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ﴾ إعرافاً بالربوبية ولو بحكاية قولها؛ لئلا يقع ذلك في سَمْعِ أتباعه وقومه، فيحسبوا أنه متردِّدٌ في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له رباً.

﴿ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ ۚ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ۚ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَانزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٤-٥٥-٥٥ - كلوا - أيها الناس - من هذه الثمرات وارعوا بهائمكم لتسرح في الكلا. إن في ذلك الفضل العظيم لدلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله وقدرته العظيمة. من تراب الأرض خلقنا آدم وذريته، وإليها تعودون بعد مماتكم، ومنها نُخْرِجُكُمْ أحياء مرةً أخرى للبعث والحساب.

٥٦-٥٧-٥٦ - وعظمتنا وجلالنا قد أرينا فرعون رأي العين كل آياتنا ومُعجزاتنا التي جاء بها موسى عليه السلام، فكذب بها جميعاً، وأبى أن يستجيب لموسى، بل أنكر عليه، واتهمه بالسحر، فقال: أجئتنا لتُخْرِجَنَا من أرض مصر بسِحْرِكَ، وتكون مُلكاً لك؟

٥٨-٥٩-٥٨ - ثم أكد فرعون تهديده مُتعاظماً متحدّياً: فلنأتينك بسحر مثل سحرك، فاجعل بيننا وبينك موعداً مُحدّداً في الزمان والمكان لا نتخلف عنه نحن ولا أنت، فاختر موسى يوماً جامعاً للناس؛ لثريهم الحق، فقال: موعدنا يوم العيد الذي تجتمعون وتزئنون فيه، وأن يجتمع الناس بعد شروق الشمس وارتفاعها؛ لتتضح الرؤية.

٦٠ - فأعرض فرعون عن موسى غاضباً، ووجه الدعوة إلى السحرة؛ لإحكام المؤامرة، ثم أتى بهم في الموعد المحدد.

٦١-٦٢-٦١ - فلما اجتمع بهم موسى ذكّرههم بالله ووعظهم، وخوّفهم بالهلاك، ونهاهم عن السحر والكذب على الله تعالى، الذي يُؤدّي إلى العقوبة باستتصاهم، والخسارة في الدنيا والآخرة.

٦٣-٦٤-٦٣ - فدعروا من هذا الوعظ والزجر، فتفاوضوا سراً، ولكن بطش فرعون وإغراءه لهم جعلهم يُردّدون إشاعة فرعون، فقالوا: إن هذان - موسى وهارون - لساحران يريدان إخراجكم من أرض مصر للاستيلاء عليها بسحرهما، ويريدان أن يغلبا طريقته المثلّى في السحر، أيها السادة السحرة المهرة، فأخيموا

مكركم، ونَسَقُوا خَطَّتَكُمْ، ثُمَّ رَبَّبُوا تَجَمَّعَكُمْ بِأحكام صَفَّكُمْ؛ ليكون مشهذكم أهيب، فتبهرؤوا الأبصار، وقد فاز اليوم من غلب خصومه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ مشروعية الدفن سواء كان شقاً أو لخدأ؛ لأن كليهما إعادة في الأرض.
- ٢ - الكِبْرُ والغرور يُؤدِّيَان إلى التكذيب والتشكيك.
- ٣ - حرب الإشاعة يستخدمها الأعداء ضد الدعاة.
- ٤ - عناية موسى بالدعوة إلى الله تعالى، فكما دعا فرعون فإنه دعا السحرة، ونَصَحَهُمْ بترك السحر، وأنذرهم بنيران جهنم والخسارة في الدنيا.
- ٥ - اهتمام الناس بالسحر يدل على تمكُّن الشيطان من إغوائهم.
- ٦ - تحريم السحر بكل أنواعه في كل الشرائع.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِآهَلْتُمْ وَعَصِيْتُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾

التفسير:

٦٥ - قال السحرة لموسى باعتزاز: اختر ما تشاء: إمَّا أن تبدأ فتُلقي عصاك، أو نُلقِي نحن ما معنا قبلك.

٦٦-٦٧ - أجابهم موسى: ألقوا أنتم ما معكم أولاً، فآلقوا جباهم وعصيتهم، فإذا بموسى يتخيَّل من قوَّة سحرهم أنَّها تمشي بسرعة، فأحسَّ بشيء من الخوف.

٦٨-٦٩ - فأوحى الله تعالى برعايته إلى موسى مُطمئناً ومُبشراً: لا تخف من هذا السحر. إنَّك أنت الغالب على هؤلاء السحرة، وألَّقِ عصاك التي في يدك اليمنى تبتلع جباهم وعصيتهم كلَّها. إنَّ الذي افتعلوه هو مَكْرٌ ساحرٍ، ولا يفوز الساحر بسحره مهما خدع؛ كيف وقد خسر الدنيا والآخرة؟

٧٠- فلَمَّا رَأَى السَّحْرَةَ هَذِهِ الْمَعْجِزَةَ عَرَفُوا الْحَقَّ، فَخَرُّوا سُجَّدًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَعْلَنُوا عَلَى الْمَلَأِ إِيْمَانَهُمْ، قَالُوا: صَدَّقْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، رَبَّ هَارُونَ وَمُوسَى.

٧١- لَقَدْ هَزَّ هَذَا الْإِعْلَانُ الْبَلَاطَ الْفِرْعَوْنِيَّ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ الْمِضْلَالَ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَهَدَّدَهُمْ، فَقَالَ: أَصَدَّقْتُمْ بِمُوسَى قَبْلَ أَنْ أُوَافِقَ عَلَى ذَلِكَ؟ ثُمَّ لَفَّقَ الْأَكَاذِيبَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مُوسَى بِأَنَّ هَذَا تَدْبِيرٌ سَابِقٌ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السَّحْرَ. ثُمَّ أَعْلَنَ بَطْشَهُ لِإِخَافَتِهِمْ: لَأَقَطِّعَنَّ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ - بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُمْنَى وَالرَّجْلِ الْيُسْرَى أَوْ الْعَكْسِ -، ثُمَّ لَأُعَلِّقَنَّكُمْ جَمِيعًا فِي جُذُوعِ أَشْجَارِ النَّخْلِ وَأَيْدِيَكُمْ مَمْدُودَةً، وَلَتَعْلَمُنَّ - أَيُّهَا السَّحْرَةُ - مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا عَذَابًا وَأَدْوَمَ، أَنَا أَمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تأييد الله تعالى دعوة الحق التي سطع بها موسى عليه السلام.
- ٢ - مشروعية السجود في الشرائع.
- ٣ - اصطناع الطُّغَاةِ أَعْدَارًا وَاهِيَةً؛ لِتَسْوِيقِ قَسَلِهِمْ.
- ٤ - إصرار فرعون على الجدل الباطل ليخدع قومه وجنوده.

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٣) إِنَّمَا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مِنْ بَيَاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَٰنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِيٰ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْمَعْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَٰى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴿

التفسير:

٧٣-٧٢- فردَّ عليه السحرة التائبون بعزَّةٍ ونصيحةٍ كريمة، كما في الآيات الخمس الآتية: قسماً بالذي خَلَقْنَا، لَنْ نُفَضِّلَكَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَالْإِيمَانِ الَّذِي جَاءَنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ يَدِ مُوسَىٰ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَٰلِكَ هَلَاكُنَا، فَافْعَلْ مَا تَرِيدُ، إِنَّمَا يَنْفَعُ أَمْرَكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةُ. إِنَّمَا صَدَّقْنَا بِاللَّهِ؛ لِيَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَجُرِيمَةَ السِّحْرِ الَّتِي عَمَلْنَاهَا. وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ يَا فِرْعَوْنَ ثَوَابًا لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَأَبْقَىٰ عَذَابًا لِمَنْ عَصَاهُ.

٧٤-٧٦- ثُمَّ عَلَّلَ هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ قَرَارَهُمُ الْمُبَارَكِ قَائِلِينَ: إِنَّهُ مَنْ يَلْقَ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَاصٍ بَارِتِكَابِ الْجَرَائِمِ، وَمُوتَهُ عَلَى الْكُفْرِ، فَإِنَّ عِقَابَهُ نَارُ جَهَنَّمَ، يُعَذَّبُ بِهَا لَا يَمُوتُ فِيهَا، فَيَسْتَرِيحُ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَحْيَا حَيَاةَ طَيِّبَةٍ. وَمَنْ يَلْقَ اللَّهَ مُؤْمِنًا بِهِ، وَعَمِلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، فَلَهُ الْمَنَازِلُ الْعَالِيَةُ فِي جَنَّاتٍ إِقَامَةٌ دَائِمَةٌ، تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارِهَا مَا كَثُرْنَ فِيهَا أَبَدًا. وَذَٰلِكَ الْمَقَامُ الْعَظِيمُ جَزَاءُ مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ وَالشَّرِكِ.

٧٧- قسماً لقد أوحينا إلى موسى أن يرحل ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر إلى صحراء سيناء، ثم بيت المقدس، فاضرب البحر بعصاك؛ ليكون لهم طريقاً يابساً يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، وَلَا تَخَفُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ أَنْ يَلْحَقُوكُمْ فَيُذِرِكُوكُمْ، وَلَا تَخْشَى الْغُرُقَ فِي الْبَحْرِ.

٧٨-٧٩- وَلَمَّا فَعَلَ ذَٰلِكَ مُوسَىٰ لِحَقِّهِمْ فِرْعَوْنَ بِنَفْسِهِ وَجُنُودِهِ فَوْرًا لِيَقْتُلَهُمْ، وَلَكِنَّ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ غَمَرَتْهُمْ، فَابْتَلَعَتْهُمْ جَمِيعًا بِجَحَافِلِهِمْ وَعَدَدِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ، وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَا هَدَاهُمْ إِلَى الْخَيْرِ.

٨٠-٨٢- وبعد هذه الملحمة المختصرة خاطب الله تعالى الطائفة المنتصرة: يا ذرية يعقوب قد أنقذناكم من جبروت هذا العدو، ووعدنا رسولكم موسى لتكليمه بالرسالة جانب جبل الطور في صحراء سيناء في الناحية اليمنى لموسى، وهو مُتَّجِهٌ من مدين في الشام إلى مصر، ونزلنا عليكم في صحراء سيناء النعم الكريمة: الطعام الحلو، والطيء الشهي. كُلُوا مِمَّا لَدُنَّ مِنَ الطَّعَامِ الْحَلَالِ الَّذِي رَزَقْنَاكُمْ إِيَّاهُ، وَلَا تَعْصُوا أَمْرِي، وَتَتَعَدَّوْا عَلَى الْحَرَمَاتِ، فَيَنْزِلْ بِكُمْ غَضَبِي وَسَخَطِي، وَمَنْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَلَكَ. وَإِنِّي لَذُو مَغْفِرَةٍ عَظِيمَةٍ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ وَصَدَّقَ بِاللَّهِ، وَعَمِلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، ثُمَّ اسْتَقَامَ، وَوَأْطَاعَ عَلَى ذَلِكَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - رسوخ الإيمان يرتقي بالمؤمن، ويتحدى به الطواغيت.
- ٢ - ينظر: سورة البقرة الآية (٥٧)، وفيها بيان ﴿الْمَنَ وَالسَّلَوَى﴾.
- ٣ - ينظر: خريطة صحراء سيناء، وفيها جبل الطور، ومكان عَرَقِ فرعون في الملحق.
- ٤ - افتتاح الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَحْيَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بلام القسم وحرف التحقيق لأهمية القصة، وما تَضَمَّتْهُ من دروس وعبر.
- ٥ - تحقيق الله سبحانه وعده بالنَّصْرِ، ولو كان بعد حين.

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ٨٣ قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَيَّ أَنْزِلِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾
 قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا مِنْ أَسْفَاً قَالَ
 يَنْقُومُ آلَمُ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ
 فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ
 مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ
 مِنْ قَبْلُ يَنْقُومُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ
 عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْتَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ
 أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ
 تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً
 مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي
 الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا
 لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴿

التفسير:

٨٣-٨٤ - يعاتب الله تعالى موسى ﷺ حينما سبق قومه إلى الموعد بجانب جبل الطور: ما السبب الذي دفعك إلى العجلة، وسبق قومك إلى جبل الطور؟ فأجاب موسى: هم لاحقون بي عن قريب. وسبب عجلي إليك؛ لترضى عني في الوفاء بالموعد المحدد.

٨٥ - قال الله تعالى لموسى ﷺ: إننا اخترنا قومك بالسامري المضلل الذي أغراهم بعبادة العجل الذهبي.

٨٦ - فرجع موسى من جبل الطور شديد الغضب والحزن، وخاطبهم مستعطفًا بعلاقة النسب، مؤبِّخًا عاتبًا: يا قوم ألم يعدكم الله تعالى بإنزال التوراة التي فيها الهداية؟ أطلال عليكم الزمن، فنسيتم العهد؟ أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم غضبٌ وسخطٌ من ربكم، فأخلفتم وعدي معكم على الالتزام بالهداية؟

٨٧- فأجابوا معتردين: ما أَخْلَفْنَا وَعَدَّكَ باختيارنا، ولكن كُنَّا مكرهين، فإنَّا مُخْلِئْنَا أَنفُسَنَا مِنْ حَيْثُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بِمِصْرَ إِذْ اسْتَعْرَانَاهَا مِنْهُمْ، فَطَرَحْنَاهَا لِلتَّخْلِصِ مِنَ الْإِثْمِ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَ مُوسَى لِلْحُكْمِ فِيهَا، وَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ مَا كَانَ مَعَهُ لِإِغْوَائِهِمْ.

٨٨- فَصَاغَ السَّامِرِيُّ الْمِضْلَالَ مِنْ تِلْكَ الْحَيْثُ عِجْلًا لَا رُوحَ فِيهِ، وَإِنَّمَا جَعَلَ لَهُ فَتْحَةً مِنْ مُؤَخَّرَتِهِ وَمَقْدَمَتِهِ لِدُخُولِ الْهَوَاءِ، فَيُخْرِجُ صَوْتًا كَصَوَاتِ الْبَقْرِ، فَفَتِنَ بَعْضَهُمْ بِهِ، وَقَالُوا كَمَا أَغْوَاهُمُ السَّامِرِيُّ: هَذَا الْعِجْلُ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى الَّذِي نَسِيَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ لَكُمْ!

٨٩- يُؤَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُفْتُونِينَ، وَيُنْكَرُ عَلَيْهِمْ: أَفَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعِجْلَ لَا يَزِيدُهُمْ جَوَابًا، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ ضَرًّا، أَوْ يَجْلِبَ لَهُمْ نَفْعًا، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًُا؟

٩٠- وَاللَّهُ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ الْكَثِيمُ: مِنْ قَبْلِ عَوْدَةِ مُوسَى إِلَيْهِمْ مِنْ جَبَلِ الطُّورِ مُخَذَّرًا لَهُمْ، مُسْتَعِظْفًا بِبَدَأِ النَّسَبِ: يَا قَوْمِ إِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ فِي دِينِكُمْ بِهَذَا الْعِجْلِ؛ لِيُظْهِرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ مِنَ الْكَافِرِ. وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَحْدَهُ لَا غَيْرَ، فَاتَّبِعُونِي فِي الْعِبَادَةِ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي فِي الْحَقِّ.

٩١- لَكِنَّ الْمَعْجِبِينَ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ خَذَلُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَقَالُوا: سَنَسْتَمِرُّ مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى مِنْ جَبَلِ الطُّورِ!

٩٢-٩٣- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى الْكَثِيمُ فَوَجَّى بِعِبَادِ الْعِجْلِ، فَغَضِبَ بِشِدَّةٍ، وَأَمْسَكَ بِلِحْيَةِ أَخِيهِ هَارُونَ عَاتِبًا عَلَيْهِ وَمُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ مِنْ رَدِّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ انْحَرَفُوا عَنْ دِينِهِمْ، أَلَا تَتَّبَعُنِي فِيمَا عَاهَدْتُ إِلَيْكَ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْصِيَّ أَمْرِي؟

٩٤- فَأَجَابَهُ مُعْتَذِرًا وَمُسْتَعِظْفًا بِبَدَأِ النَّسَبِ: يَا بَنَ أُمِّي لَا تُؤْمِسُكَ بِلِحْيَتِي، وَلَا بِشَعْرِ رَأْسِي، غَضَبًا عَلَيَّ، فَإِنِّي لَمْ أَعْصِ أَمْرَكَ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ أَرُدَّ هَؤُلَاءِ، فَيَقَعُ قِتَالٌ بَيْنَهُمْ، فَتَلُومُنِي عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ تَنْتَظِرْ حُكْمِي فِيهِمْ.

٩٥-٩٦- ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى السَّامِرِيِّ الْمِضْلَالِ؛ لِيَزَجِرَهُ وَيُرَدِّعَهُ قَائِلًا: فَمَا شَأْنُكَ الْخَطِيرِ وَصَنِيعِكَ الشَّرِيرِ؟ قَالَ السَّامِرِيُّ مُعْتَرِفًا بِجَرِيمَتِهِ النِّكَرَاءِ: بَصُرْتُ مَا لَمْ يَبْصُرُوهُ، فَقَبِضْتُ شَيْئًا مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ، فَطَرَحْتُهَا مَعَ الْحَيْثُ لِصَنْعِ الْعِجْلِ. وَمِثْلَ ذَلِكَ التَّزْيِينِ زَيَّنْتُ لِي نَفْسِي هَذَا الْأَمْرَ. وَقَدْ يَكْذِبُ السَّامِرِيُّ فِي رُؤْيَا الرَّسُولِ جَبْرِيْلُ؛ لِأَنَّهُ ضَالٌّ وَمُضِلٌّ وَغَيْرُ ثِقَّةٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ تَابَ، بَلْ إِنَّ مَصِيرَهُ عَذَابٌ فِي الدَّارَيْنِ كَمَا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

٩٧- فَأَقْصَى مُوسَى الْكَثِيمُ السَّامِرِيَّ، وَزَجَرَهُ قَائِلًا: فَاهْزَبْ فَإِنَّ جَزَاءَكَ عَقُوبَةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ يَنْبَذَكَ النَّاسُ، وَيَتْرَكُوكَ وَحَدَّكَ، وَتَقُولُ: لَا أَمْسُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَمَسُّنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لِلْعَذَابِ

في الآخرة لن يُخْلِفَهُ اللهُ تَعَالَى، وانظر إلى معبودك الذي واطَّبتَ على عبادته، والله لَنُحَرِّقَنَّه بالنار، ثم لَنَذْرُؤَنَّه رماداً وَذَّرَاتٍ في البحر، ولا يبقى من أثره شيء.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ذمُّ العَجَلَةِ، وذمُّ إخلاف الوعد.
- ٢ - بيان خطورة نَزَغَاتِ الشيطان، وأثرها في انحراف الناس.
- ٣ - حوار موسى للسامريِّ وقومه؛ لبيان خطر ما وقعوا فيه.
- ٤ - التحقق من نسبة الجريمة إلى المتهم، وعزله إذا ثبتت الجريمة.
- ٥ - وجوب إتلاف الأشياء والأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى.
- ٦ - وجوب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء استجاب المخاطبون أم لم يستجيبوا.
- ٧ - حَزْمُ موسى مع السامريِّ وَعَبْدَةِ العجل.
- ٨ - قال ابن عاشور: «قوله: ﴿فَأَبْتُكَ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ فهو إخبار بما عاقبه الله به في الدنيا والآخرة، فجعل حظَّه في حياته أن يقول: لا مِسَاسَ، أي: سلبه الله الأنس الذي في طَبْعِ الإنسان، فعوضه به هَوَسًا ووسواسًا وتَوَحُّشًا، فأصبح متباعدًا عن مخالطة الناس.» (التحرير والتنوير: ١٦/١٧٥).

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

٩٨ - ثم قال موسى لقومه: إنَّما إلهكم هو الله الذي لا معبود بحق إلا هو، وَسِعَ كل شيء من الأشياء علمًا.

٩٩-١٠١ - مثلما قصصنا عليك - أيها النبي - قصة موسى وفرعون، نَقُصُّ عليك من الأخبار العظيمة للأمم السابقة، وقد أنزلنا عليك من عندنا قرآنًا، وهو ذكرى لِمَنْ يَتَذَكَّرُ. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، ولم يُصَدِّقْ به فإنه يحمل يوم القيامة إثمًا كبيرًا، خالدين في الجزاء لهذا الإثم بنار جهنم. وبس ذلك الذنب الكبير الذي سَيُعَذَّبُونَ من أجله.

١٠٢-١٠٣- يوم يُنْفَخُ الْمَلَكُ في القرن الصبيحة الثانية للبعث، ونجمع الذين ارتكبوا كبائر الجرائم في ذلك اليوم العصيب، وهم زرق قد تغير لون أجسامهم من الرعب وهول ما رأوا، يتسارون بينهم من شدة الهلع قائلين: ما لبثتم في الحياة الدنيا إلا عشرة أيام.

١٠٤- نحن أعلم بما يقولون فيما بينهم حين يقول أعلمهم: ما لبثتم إلا يوماً واحداً.

الفوائد والاستنباطات:

١- الرّدُّ على عبدة العجل بتوحيد الله تعالى المعبود بحق؛ لسعة علمه بكل شيء، وتدبيره لذلك.

٢- تنكير ﴿ذِكْرًا﴾ للتعظيم، أي: آتيناك كتاباً عظيماً. وقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ توكيد لمعنى ﴿ءَايَاتِكَ﴾ وتنويه بشأن القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله، فخص بها خير عباده.

٣- بيان عاقبة مصير الكفار الذين تركوا أحكام القرآن العظيم.

٤- بيان صفات الكفار عند المحشر.

﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۗ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۗ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۗ عِلْمًا ۗ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۗ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۗ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۗ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۗ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۗ﴾

التفسير:

١٠٥-١٠٧- ويسألونك - أيها النبي - عن حال الجبال يوم القيامة، فقل لهم: إن ربِّي يُفْتِّشُها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتذرؤها، فيتركها أرضاً مستوية لا نبات فيها ولا بناء، لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.

١٠٨-١١٠- وفي يوم القيامة يتبع الناس صوت داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر سراعاً لا يتخلف منهم أحد. وسكنت أصوات الخلائق هيباً للرحمن سبحانه، فلا تسمع إلا صوتاً خفياً، أو وقع الأقدام في مشيها نحو المحشر. في ذلك اليوم لا تنفع الشفاعة أحداً إلا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له،

ورضي لأجله شفاعة الشافع، يعلم الله أحوال الخلائق، فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا والآخرة، ولا يحيط خلقه به علماً سبحانه.

١١١-١١٢- وَخَضَعَتْ وَجوه المخلوقات للحي الذي لا يموت، القائم على تدبير عباده، وقد خسر مَنْ أشرك بالله سبحانه. وَمَنْ يعمل الأعمال الصالحة وهو مُصَدِّقُ رَبِّهِ، فلا يخاف بأن يعاقب من غير ذنب، ولا يخاف نقصاً من حسناته.

١١٣- ومثل إنزال ما ذُكِرَ من القصص أنزلنا هذا القرآن بلغة عربية فصيحة، وبَيَّنَّا فيه عدة أساليب في الوعيد تخويفاً؛ كي يتقوا الكفر والمعاصي، أو يُحدث لهم هذا القرآن موعظة يعتبرون بها.

١١٤- فتنزه الله، وتقدّس الملك الحق الذي يتصرف في خلقه كيف يشاء، وتصرفه حق، وفعله حق وكلامه حق، ولا تتعجل بقراءة القرآن حين يُقرئك جبريل القرآن، بل استمع إليه حتى يفرغ من تلاوته، وادعوا الله: يا ربّ زدني علماً إلى ما علّمتني.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ، من شدة حرصه على حفظ القرآن؛ فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي، فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن الله يُيسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه الله في غير هذا الموضع كقوله في القيامة: ﴿لَا تُحْرِكْ يَدَيْهِ إِسْرَافًا لِيَسْرَعَ إِلَيْكَ وَتَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].»

الفوائد والاستنباطات:

- ١- مهابة الموقف مع أهوال القيامة وفزعاتها، إلا أن الموقف مهيب، فالصمت هو الذي يجيم على الخلائق.
- ٢- تقرير الشفاعة للمؤمنين.
- ٣- بشرى للمؤمنين الصالحين بالاطمئنان والعدل.
- ٤- وجوب التأني في قراءة القرآن؛ لتدبره وفهمه، والعمل بأحكامه.
- ٥- وجوب الدعاء لزيادة العلم لما فيه من الهداية والسعادة.
- ٦- عطف جملة ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ يشير إلى أن المنهي عنه استعجال مخصوص وأنّ الباعث على الاستعجال محمود. وفيه تلميح مع النبي ﷺ؛ إذ أتبع تهيئه عن التعجل الذي يرغب بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم.

﴿ وَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰهَ اٰدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبْلِيسَ اَبٰى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يٰٓاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ﴿١١٧﴾ اِنَّ لَكَ اَلًا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرٰى ﴿١١٨﴾ وَاَنْتَ لَا تَظْمُوْا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ اِلَيْهِ الشَّيْطٰنُ قَالَ يٰٓاٰدَمُ هَلْ اَدْرٰكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلٰى ﴿١٢٠﴾ فَاَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفٰنِ عَلَيِّمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصٰى اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوٰى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اٰهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يٰٓاٰنِيْتَكُمْ مِّنِّيْ هُدٰى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقٰى ﴿١٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١١٥ - قسماً لقد وصينا آدم عليه السلام ألا يأكل من الشجرة، فأغواه الشيطان ونسي وصيتنا، ولم نجد له صبراً على ذلك.

١١٦ - واذكر - أيها الرسول - تكريم الله لآدم حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريماً له، فأطاعوا الله وسجدوا كلهم إلا إبليس، امتنع عن السجود.

١١٧-١١٩ - وحذرنا آدم فقلنا له: إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء، فلا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة، فتشقى في طلب الرزق. إن لك أن تأكل فلا تجوع، وأن تلبس فلا تعرى، وإن لك ألا تعطش في هذه الجنة، ولا يصيبك حر الشمس.

١٢٠-١٢١ - فلما رأى الشيطان ذلك التكريم قام يوسوس لآدم، فقال: هل أرشدك إلى شجرة من أكل منها صار من الخالدين ولم يمُت، ونال الملك الدائم؟ وألح على ذلك، وأقسم لهما إنه ناصح أمين، فخدعهما، فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فظهرت لهما عوراتهما، فساءهما ذلك، فأخذا يلصقان بعض أوراق شجر الجنة لسر العورة. وخالف آدم بذلك أمر ربه، فأخطأ طريق الخلد في الجنة.

١٢٢-١٢٣ - ثم تلقى آدم من ربه تعليم التوبة، فتاب عليه، فاصطفاه وهداه إلى الحق، وحذره وزوجه من إبليس مرة أخرى، فقال لهما: أنزلا من الجنة إلى الأرض جميعاً مع إبليس، يتعادى بعضكم مع بعض. فإن جاءكم مني الكتب والرسل لهدايتكم، فمن اتبع هداي بطاعتي فلا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة بالعقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان شدة عداوة الشيطان في تزوين المعاصي لآدم عليه السلام وذريته.

٢ - تقرير مكانة آدم ﷺ بسجود الملائكة له.

٣ - إذا وقعت الوسوسة وجبت الاستعاذة بالله تعالى من وساوس شياطين الإنس والجن.

٤ - من أعظم نتائج وساوس الشيطان التعرّي في اللباس أمام الناس، وكشف العورات، كما في قوله

تعالى: ﴿يَنْبِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدِيثًا وَيَلْبَسُ النَّفْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٦١﴾ يَنْبِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءً يَتِيمًا إِنَّكُمْ بِرَبِّكُمْ هُمْ وَوَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تُرَوُّهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٥-٢٧].

٥ - قبول الله تعالى توبة آدم وحواء عليهما السلام.

٦ - هبوط آدم وحواء هو بداية تحقيق الاستخلاف في الأرض.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٦٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٦٥﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَعَلَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٦٦﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٦٧﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٦٨﴾﴾

التفسير:

١٢٤-١٢٥ - وَمَنْ تَرَكَ هَدْيَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَعِيشَةً نَكِدَةً قَاسِيَةً، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، وَنَحْشُرُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى لَا يَرَى، وَيَسْأَلُ: يَا رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى، وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

١٢٦-١٢٧ - فَيُرَدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَنْتَ حِينَ بُلِّغْتَ بِالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ، وَالْمَعْجَزَاتِ

الْمَشَاهِدَةِ، فَتَرَكْتَهَا، إِذْ جَعَلْتَ نَفْسَكَ أَعْمَى الْبَصْرِ وَالْبَصِيرَةَ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُتْرَكُ بِالْعَمَى وَالْعَذَابِ فِي

النَّارِ. وَمِثْلَ هَذَا الْجِزَاءِ تُعَاقَبُ مَنْ انشغل بالانغماس في الشهوات، وكذب بآيات ربه. ولعذاب الآخرة

أقسى، وأدوم.

١٢٨-١٢٩ - يُنكَرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْكُفَّارِ مُؤَبَّخًا لَهُمْ: أَفَلَمْ يَتَّبِعْ لِكُفَّارِ مَكَّةَ وَأَمْثَلِهِمْ كَثْرَةً مَنْ أَهْلَكْنَا

مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمَكْذُوبَةِ لِرَسَلِهَا، وَهُمْ يَمْشُونَ فِي دِيَارِهِمْ، وَيَرَوْنَ دِمَارَهُمْ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ الدَّمَارِ الْعَظِيمِ

لَعِبْرًا وَعَظْمَةً لِأَهْلِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ. وَلَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ سَابِقًا بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَوَقْتُ مُحَدَّدٍ عِنْدَهُ،

لَفَاجَأَهُمُ الْهَلَاكُ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الإعراض عن أحكام الله تعالى يُورث الضَّعْفَ والقلق في الحياة الدنيا، ويورث العمى في الآخرة.
- ٢ - وجوب الاعتاز بهلاك الأمم السابقة.
- ٣ - من رحمة الله تعالى ألا يُعَجِّل العذاب بالعصاة من خلقه.
- ٤ - قال ابن عاشور في الآية (١٢٤): «وقد ظهر من نظم الآية أن فيها ثلاثة احتياكات، وأن تقدير الأول: ونحشره يوم القيامة أعمى وننساه، أي: نُقصيه من رحمتنا. وتقدير الثاني والثالث: قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وعميت عنها، فكذلك اليوم تُنسى وتُحشَّر أعمى». (التحرير والتنوير: ٢٠١/١٦).

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْتَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۝١٣٥﴾

التفسير:

١٣٠-١٣١ - يُرشد الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وأُمَّته بتوجيهات حكيمة، ويُشَرِّيات كريمة في الآيات الثلاث التالية: فاصبر على افتراءات المشركين، وواظب على التسبيح المقرون بحمده سبحانه في صلاة الفجر والعصر والعشاء وصلاة الظهر والمغرب؛ لتنال ما يرضيك عند الله تعالى، ولا تُدِمِ النظر متعجباً بما في أيدي الناس من زينة الدنيا وأموالها، فإنَّ في هذا العطاء ابتلاء. وِرْزُقُ رَبِّكَ في الآخرة خيرٌ من ذلك وأدوم.

١٣٢ - وَأْمُرْ أَهْلَ بَيْتِكَ بِالصَّلَاةِ، واصبر وداوم عليها، لا نُكَلِّفُكَ أَنْ تَرْزُقَ نَفْسَكَ وَأَهْلَكَ، نحن نرزقكم جميعاً، والعاقبة المحمودة في الآخرة، وهي الجنة لأهل التقوى.

١٣٣ - وقال المشركون: هَلَّا يَأْتِينَا مُحَمَّدٌ بِمُعْجَزَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِ؟ وَيُرِدُّ اللَّهُ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ وَمُؤَيَّبًا لَهُمْ: أو لم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى، المُصَدِّقُ لما في الكتب السابقة من الحق؟

وقد بيّن الله تعالى أنّ الصحف الأولى هي صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، كما في خاتمة سورة الأعلى، وقد فصل الله ﷻ فيها بعض ما في صحف إبراهيم وموسى.

١٣٤-١٣٥ - ولو أننا دَمَرْنَا هؤلاء الكفَّار من قبل نزول القرآن وبعثة النبي محمد ﷺ لقالوا: يا ربِّنا هَلَّا أرسلت إلينا رسولاً كي نؤمنَ به، ونعملَ بآياتك وما فيها من الأحكام، من قبل أن نذَلَّ ونفتضح بعذاب الدنيا، من الأسر والقتل وغيره من العقاب. قل أيُّها النبي لهم: كلُّ منَّا ومنكم ينتظر المصير، ولمن يكون النصر وحسن العاقبة؟ فستعلمون من هم أصحاب الطريق المستقيم، ومن اهتدى إلى الحق؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وجوب الصبر على الدعوة، والاستعانة بالتسبيح صباحاً ومساءً.
- ٢ - لا يجوز تمثي ما عند الناس من خيرات؛ لأنَّه متاع زائل.
- ٣ - قال ابن عاشور: «ومدُّ العينين مستعمل في إطالة النظر للتعجب لا للإعجاب. شَبَّه ذلك بمدُّ اليد لتناول شيءٍ مشتهي». (التحرير والتنوير: ٢٠٦/١٦).
- ٤ - وجوبُ أمرِ الأهل والأولاد بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها وأركانها.
- ٥ - في الآية (١٣٤) دليل على أنّ الإيمان بوحداية خالق الخلق يقتضيه العقل، لولا حُجُب الضلالات والهوى، وأنَّ مجيء الرسل لإيقاظ العقول والفطر.
- ٦ - بيان رحمة الله بعباده في إرساله المرسلين مبشرين ومنذرين.

النزول: مكة.

فضل السورة: تقدّم ذكره في فضل سورة الإسراء.

المقاصد:

- ١ - تقرير العقيدة الإسلامية بالتوحيد والرسالة والبعث والحساب والقيامة وأهوالها.
- ٢ - بيان جهاد الأنبياء، وصبرهم ونصرهم.
- ٣ - أدلة الظواهر الكونية على الوحدانية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمِ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا بِآيَاتِهِ كَمَا أَرْسَلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَّا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

- ١ - قُرْبَ وقت حساب الناس على أعمالهم؛ لنيل العقاب والثواب، وهم غافلون عن أهواله وأحواله، منشغلون بملأ الدنيا.
- ٢ - ما يأتي الكفار شيء من القرآن من الله تعالى متجددٌ نزلُهُ، إلا استمعوه وهم يسخرون به.
- ٣ - غافلة قلوبهم عمّا جاءهم به النبي ﷺ، وبالغوا في إسرار عداوتهم وافترائهم بقولهم: ما محمدٌ إلا بشر مثلكم لا مزية له عنكم، فكيف يكون نبياً؟ وإنّ ما جاء به من القرآن سحرٌ، فكيف تتبعونه وأنتم تعرفون أنّه سحر؟!.
- ٤ - ولما بلغ النبي ﷺ هذا الافتراء ردّ عليهم مُهدداً لهم: ربّي يعلم كلّ قول قيل في السموات وفي الأرض، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم.

٥-٦- بل قال الدجالون المشركون فيما جاء به النبي ﷺ أقوالاً مضطربة، فقال بعضهم: أخلاطُ أحلامٍ لا حقيقة لها. وقال آخرون قولاً آخر: بل محمد اختلق القرآن من نفسه ولا صحّة له، وقال بعضهم قولاً آخر مخالفاً لما سبق: بل هو شاعر، فإن كان صادقاً فليأتنا بمعجزةٍ مُشاهدةٍ كما أُرسِلَ الرسلُ السابقون كموسى وصالح وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ما صدّق أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم المعجزات قبل مشركي مكة، بل كذبوا فأهلكهم الله، أفيصدّق هؤلاء بالآيات لو رآوها؟
الفوائد والاستنباطات:

- ١- افتتاح الكلام بقوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أسلوبٌ بديعٌ في الافتتاح؛ لما فيه من غرابة الأسلوب، وإدخال الرّوع على المنذرين.
- ٢- ذمُّ الغافلين عن العمل لليوم الآخر، ولاسيّما عند اقتراب يوم القيامة.
- ٣- حرب الإشاعة ضد أهل الحق تمتد جذورها منذ الجاهلية.
- ٤- مصير الأمم المكذبة الدمار.
- ٥- قال ابن عاشور في الآية (٥): «دخلت لام الأمر على فعل الغائب لمعنى إبلاغ الأمر إليه، أي: فقولوا له: ائتنا بآية، والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يَأْتِنَا﴾ أي: حالة كون هذا البشر حين يأتي يشبه رسالته رسالة الأولين، والمشبه ذات، والمشبه به معنى الرسالة». (التحرير والتنوير: ١٧/١٤).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا آلَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا نُوْتِلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٧-٨- ما أرسلنا قبلك - أيها الرسول - إلا رسلاً من البشر لا ملائكة، فاسألوا - أيها المكذَّبون - أهل العلم بالقرآن والتوراة والإنجيل، إن كنتم لا تعلمون ذلك، وما جعلنا الأنبياء خلقاً مغايراً للبشر، كالملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولم يكونوا مُخَلَّدِينَ في الدنيا لا يموتون.

٩- ثمَّ أَنْجَرْنَا الوعد للمرسلين وأتباعهم بالنصر والنجاة، وأهْلَكْنَا المسرفين على أنفسهم بالكفر.

١٠- والله لقد أنزلنا إليكم - أيها العباد - هذا القرآن العظيم، فيه شَرْفُكُمْ وفخركم إن عملتم بما فيه،

أفلا تعقلون أتباع الحق؟

١١- وأهْلَكْنَا كثيراً من أهل البلدان الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم؛ بسبب كُفْرِهِمْ بآيات الله، وأنشأنا

بعدهم أُمَّةً أُخْرَى.

١٢-١٣- فلَمَّا رَأَى الظالمون عذابنا، وَتَبَيَّنُوا نزوله إذا هم يهربون، فيقال لهم: لا تهربوا، وعودوا إلى

النَّعْمِ والشهوات التي كنتم مُتَغَمِّسِينَ بها في الدنيا، وإلى مساكنكم الفخمة؛ كي تسألوا عما جرى لكم من الأهوال. وهذا من باب التهكم بهم.

١٤-١٥- فصاحوا مُتَفَجِّعِينَ: يا دمارنا، إِنَّا كُنَّا ظالمين لأنفسنا. فما زالوا يُرَدِّدُونَ هذا التفجُّع حتى

أهْلَكْنَاهُمْ بالعذاب، وَجَعَلْنَاهُمْ فُتَاتًا كالزَّرْعِ المحصود، لا حَرَاك ولا حياة فيهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تقرير بشرية النبي الأمين ورسالته ﷺ.

٢- القرآن الكريم مصدر العزة والكرامة، إذا عُجِلَ به.

٣- بيان فضل أهل العلم.

٤- بيان مصير الأمم المكذَّبة بالحق.

- ٥ - قال ابن عاشور: «الإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نَّشَأْ﴾ احتباك، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا، ونُنجِي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم لأن يؤمنوا، لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة». (التحرير والتنوير: ١٧/١٧). والمراد بالاحتباك هنا: الاختصار.
- ٦ - قال ابن عاشور: «حرف ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرَيْبٍ﴾ لبيان الجنس، وهي تدخل على ما فيه معنى التمييز، وهي هنا تمييز لإبهام ﴿كَمْ﴾». (التحرير والتنوير: ١٧/١٩).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

- ١٦-١٧ - وما خلقنا السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما عبثاً، ولا لعباً، وإنما في هذا الخلق عبرة ومنافع للعباد، لو أردنا أن نتخذ لهواً على سبيل الفرض والتقدير المحال لاتخذناه من عندنا إن كنا فاعلين، فالسموات والأرض بمرأى منكم دائماً، ولا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللغو.
- ١٨ - يخبر الله تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغ الباطل فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه، فإذا هو فان تالف، ولكم الويل - أيها الكفار - مما تكذبون.
- ١٩-٢٠ - والله مملك من في السموات السبع والأرضين السبع، ومن عنده من الملائكة لا يستنكفون عن عبادته سبحانه، ولا يملون منها، يلهجون بالتسبيح والذكر والتنزيه ليلاً ونهاراً دون انقطاع وتوقف.
- ٢١-٢٢ - يُنكِرُ اللهُ تعالى على المشركين الذين يعبدون أصناماً لا تقدر على إحياء الموتى، لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله تعالى لفسد نظام الكون كله لاختلاف التدبير، تنزه الله وتقدس، رب العرش العظيم عما يفترى هؤلاء المشركون.

٢٣- ومن عظمته سبحانه أنه لا يُسأل عمّا يفعل، لأنه مالك كل شيء، وأمّا العباد فيُسألون، لأنّهم ملك لله تعالى.

٢٤- يُكْرَّرُ اللهُ تعالى الإنكار على المشركين؛ استعظاماً لجريمة لشرك، ومبالغة في توبيخهم: هل اتَّخَذُوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم؟ قل أيّها النبيّ لهم: اتنوني بالحجة والدليل على ما تدعون، فليس في هذا القرآن الذي معي والكتب السابقة دليل على افتراءكم، بل أكثرهم لا يعلمون حقّ الله تعالى في توحيدهِ، فهم مُعْرِضُونَ عن الحقّ وأهله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير توحيد الربوبية بخلق السماء والأرض.
- ٢- كلُّ مَنْ في السموات والأرض يعبد الله تعالى وحده.
- ٣- أمْنُ الكون وحركته شاهدٌ على وحدانية الله تعالى الذي خلق هذا الكون.
- ٤- إقامة الحجة على المشركين بالحوار والدليل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٥- وما بعثنا قبلك - أيها الرسول - من رسول إلا أوحينا إليه أنه لا معبود بحق إلا الله، فأخلصوا العبادة له وحده.

٢٦-٢٧- يخبر الله تعالى عن سفاهة المشركين الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله! سبحانه وتعالى عن قولهم الكُبار، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم مُكْرَمُونَ عنده في منازل عالية؛ لأنّهم في غاية الطاعة، لا يقولون قولاً حتى يقول الله تعالى؛ لكمال أديهم، وهم بأمره ممثلون مطيعون.

٢٨-٢٩- يعلم الله أحوال الملائكة وما عملوا، وما هم عاملون في المستقبل، ولا يشفعون يوم القيامة إلا لِمَنْ رضي الله عنهم من المؤمنين، وهم من خوف الله حذرون خائفون. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ فَذَلِكَ البعيد عن رحمة الله، عقوبته نار جهنم. مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي مَنْ ظلم، وتعدّى الحقوق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وحدة دعوة الرسل إلى توحيد العبودية لله تعالى.
- ٢ - قال ابن عاشور: «عطف قصة من أقوالهم الباطلة على قصة أخرى، فلما فرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتقل إلى بيان باطل آخر، وهو اعتقادهم أن الله اتخذ ولدًا». (التحرير والتنوير ١٧/٣٧).
- ٣ - تقرير الشفاعة للمؤمنين.

﴿ أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ أَنَّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنٰهُمَا ۚ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ اَفَلَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْاَرْضِ رَوٰسِيًّۙ اَنْ تَمِيْدَ بِهِمْ ۚ وَجَعَلْنَا فِيْهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّعَلَّاهُمْ يَهْتَدُوْنَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمٰءَ سَقْفًا مَّحْفُوْظًا ۗ وَهُمْ عَنْ اٰيٰتِنَا مُعْرِضُوْنَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْاَيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشْرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۗ اَفَاِیْنٍ مِّتَ فِهِمْ الْخُلْدُوْنَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذٰلِقَةٌ لِّلْمَوْتِ ۗ وَتَبْلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنًا ۗ وَاِلَيْنَا تُرْجَعُوْنَ ﴿٣٥﴾ وَاِذَا رَاَکَ الَّذِيْنَ کَفَرُوْا اِنْ يَنْخٰذِوْنٰکَ اِلَّا هٰزُوا ۗ اَهٰذَا الَّذِيْ يَدَّکُرُ ۗ اَلِهٰتِکُمْ وَهُمْ بِذِکْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ کٰفِرُوْنَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ۗ سَاوْرِیْکُمْ اٰیٰتِیْ ۗ فَلَا تَسْتَعْجِلُوْا بِیْ ۗ وَیَقُوْلُوْنَ مَتٰی هٰذَا الْوَعْدُ اِنْ کُنْتُمْ صٰدِقِیْنَ ﴿٣٨﴾ لَوْ یَعْلَمُ الَّذِيْنَ کَفَرُوْا حِیْنَ لَا یَکْفُرُوْنَ عَنْ وُجُوْهِهِمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ یُنصَرُوْنَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَاْتِیْهِمْ بَغْتَةً فَبِغْتِهِمْ فَلا یَسْتَطِیْعُوْنَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ یَنْظُرُوْنَ ﴿٤٠﴾ ۝

التفسير:

- ٣٠ - يُؤَيِّخُ اللهُ تَعَالَى الْكُفَّارَ الَّذِينَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالآيَاتِ الْكُونِيَّةِ : أَوَّلُ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا شَيْئًا وَاحِدًا مُلْتَصِقَتَيْنِ، فَفَصَّلْنَا بَيْنَهُمَا. وَجَعَلْنَا الْمَاءَ أَصْلَ كُلِّ الْحَيَاءِ وَسَبَبًا لِلْحَيَاةِ، أَفَلَا يُصَدِّقُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمَشَاهِدَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ؟
- ٣١-٣٢ - وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جِبَالًا شَاخِجَةً لِتَثْبِتِهَا، وَجَعَلْنَا فِيهَا طَرِيقًا وَاسِعَةً؛ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي سَبِيلِهِمْ لِمَصْلَحَتِهِمْ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا سَقْفًا لِلْأَرْضِ مَحْفُوظًا مِنَ السَّقُوطِ، وَاخْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ. وَالْكَفَّارَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُرْتَبِيَّةِ لِأَيُّالُونَ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا.

٣٣- والله سبحانه هو الذي خلق الليل والنهار وآتيهما الشمس والقمر، كلٌّ منهما يجري في مدار خاص به، وكذلك كلُّ الكواكب التي يُظَلِّلُها الليل بظلامه، والكواكب التي تدور في فلك الشمس كلها تدور بحركة متناسقة.

٣٤-٣٥- وما جَعَلْنَا لأحد من البشر قبلك - أيها الرسول - البقاء الدائم من غير موت، فهل إذا مِتَّ سَيُخَلِّدُونَ بعدك في هذه الحياة؟ والجواب: كلُّ نفسٍ ستموت في الدنيا، ولا يدوم إلا الحي القيوم، ونختبركم بالمصائب والنعم؛ لنرى صبركم وشكركم، وإلينا تعودون للحساب.

٣٦- وإذا رَأَى الكَفَّارُ - أيها النبي - ما يتخذونك إلا مثاراً للسخرية، وَيُنكِرُونَ عليك بقولهم: أهذا الذي يعيب آهتكم؟ والحال أَنَّهُمْ مُكذِّبُونَ إذا ذُكِرَ الله الرحمن.

٣٧- خُلِقَ الإنسان عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء، وقد استعجل كفَّار مكَّة العذاب، فأنذره الله بأنَّه سيرهم العقوبة، فلا يتعجلوا الأمر قبل أوانه.

٣٨- وَمِنْ عَجَلَتِهِمْ قَوْلُهُمْ: متى وَتُّ نَزول العِقَاب إن كنتم صادقين في قولكم، أيها المؤمنون؟

٣٩- لو عرف هؤلاء الكَفَّارُ أهوال العذاب حين لا يقدرُونَ أن يمنعوا عن وجوههم النَّارَ ولا عن ظهورهم، ولا ناصر لهم من ذلك العذاب المحيط بهم.

٤٠- بل تأتيهم ساعة العذاب فجأة فتدهشهم، فلا يقدرُونَ على صَرْفِها عنهم، ولا يُمَهِّلُونَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإشارة إلى نظرية الانفجار الكبير في بدء الكون.
- ٢- الإشارة إلى حقيقة خلق المخلوقات من ماء.
- ٣- في الآية (٣٠) بيانُ أَنَّ الأشياءَ كُلَّها تُخَلَقُ من الماء في الماضي والمستقبل.
- ٤- الإشارة إلى حقيقة فائدة الجبال في استقرار الأرض. وينظر: صورة الجبال ورسوها في الأرض، كما في الملحق.

٥- الإشارة إلى حقيقة حفظ الأرض بالسقف المرفوع في السماء.

٦- قال العالم الفلكي د. داود سلمان السعدي: «يوجد توازن معقد بين كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلينا، وبين التسخين الحاصل في غلاف الأرض الجوي وسطحها، وبين إعادة إشعاع الطاقة الحرارية إلى الفضاء مرة ثانية. إن هذا التوازن يحفظ الأرض دافئة بالحدود المناسبة وبالقدر المحسوب منه تعالى لديمومة الحياة عليها.. ولولا هذا السقف المحفوظ من الغلاف الجوي لاحتَرَقَتْ جميعُ الأشياءِ شيئاً نهاراً ولتَجَمَّدَتْ من البرد ليلاً». (أسرار الكون في القرآن، ص ١١٧).

- ٧- الإشارة إلى حركة الشمس والقمر وجميع الكواكب والمجرات.
- ٨- في الآية (٣٣) إخبار مستقبلي عن استمرار نظام جريان الشمس والقمر، كلٌّ منهما في مداره لا يجيد عنه حتى قيام الساعة.
- ٩- من حقائق الكون الثابتة أن للأرض عدة حركات منتظمة، منها دورتها حول محورها أمام الشمس والتي يتبادل بواسطتها الليل والنهار، وجريها في مدارها حول الشمس بمحور مائل فيتبادل كل من الفصول والأعوام، وحركتها مع الشمس حول مركز للمجرة، ومع المجرة حول مراكز أكبر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله. (آيات الإعجاز العلمي : الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، الصفحات ٢٥٩-٢٧٦).
- ١٠- بيان حقيقة الموت، وأن جميع البشر تشملهم هذه الحقيقة. وفي ذلك إشارة إلى التزهّد بأمر الدنيا، والإشارة إلى مسألة الخلود في الآخرة.
- ١١- الاختبار يكون بالخير والشر، وليس بالشر فقط.
- ١٢- في الآية (٣٥) إخبار مستقبلي بأنّ كلّ نفس ذائقة الموت لا محالة، مهما عُمّرت في الدنيا، وما وجودها في الحياة إلا ابتلاء بالتكاليف أمراً ونهياً. وفيها إخبار مستقبلي آخر بأنّ الأحوال تتقلّب خيراً وشرّاً، وهي مُستمرّة على هذه الحال حتى قيام الساعة.

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يَنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴿

التفسير:

٤١ - يُقْسِمُ اللهُ تَعَالَى مُؤَكِّدًا أَنَّ الْمَكْذِبِينَ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ قَدْ سَخِرُوا بِالْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِكَ، فَتَزَلُ فِيهِمُ الْعِقَابُ بِسَبَبِ اسْتَهْزَائِهِمْ.

٤٢ - قُلْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ مَنْ يَحْفَظُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ أَمْرِ الرَّحْمَنِ إِذَا فَجَأَكُمْ؟ بَلْ هُمْ عَنِ الْقُرْآنِ وَمَوَاعِظِ الرَّحْمَنِ غَافِلُونَ.

٤٣ - هَلْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْعَذَابِ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِنَا؟ فَإِنَّ تِلْكَ الْآلِهَةَ عَاجِزَةٌ لَا تَقْدِرُ عَلَى نَصْرِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا تَجِدُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ.

٤٤ - بَلْ اسْتَدْرَجْنَا الْكُفَّارَ، وَمَتَّعْنَاهُمْ وَآبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي النِّعْمَةِ، فَاعْتَرَبُوا بِهَا. أَفَلَا يَنْظُرُونَ أَنَّنَا نَأْتِي الْأَرْضَ، فَتَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بِمَا يَفْتَحُهُ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ مِنْ الْبُلْدَانِ بِهَا، أَوْ بِالْمَوْجَاتِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تَفْرُقُ مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةً مِنَ الْأَرْضِ؟ ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَوَبَّخَهُمْ: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ؟

٤٥ - قُلْ أَيُّهَا النَّبِيُّ لَهُمْ: إِنَّمَا أُحَدِّثُكُمْ، وَأُخَوِّفُكُمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمَا آتَانِي اللهُ مِنَ الْوَحْيِ الْحَكِيمِ، وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ حُتِّمَ عَلَى سَمْعِهِمْ لَا يَسْمَعُونَ الْبَلَاغَ بِالْإِنذَارِ.

٤٦ - وَاللَّهُ لَوْ مَسَّتْهُمْ إِصَابَةٌ خَفِيفَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ لَاعْتَرَفُوا بِجُرَائِمِهِمْ، وَلَرَدَّدُوا مُتَفَجِّعِينَ: يَا هَلَاكُنَا إِنَّنَا كُنَّا ظَالِمِينَ أَنْفُسَنَا بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ.

٤٧- يجبر الله تعالى عن عدله في حساب الخلق يوم القيامة، حين يضع الميزان العادل الذي توزن به الأعمال، فلا تُظلم نفس مؤمنة أو كافرة شيئاً من أعمالهم، وإن كان العمل الذي عمَلته بوزن ذرة صغيرة من خير أو شر، فإنها تحسب لها. وكفى برّبك مُحصياً لأعمال العباد.

٤٨-٤٩- قسماً لقد آتينا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام التوراة التي يُفرّق فيها بين الحق والباطل، وفيها الهداية والموعظة للمتّقين الذين يخشون الله في خلواتهم وإن لم يروه، وهم من أهوال يوم القيامة خائفون.

٥٠- وهذا القرآن العظيم الشأن فيه ذِكْرٌ لِمَنْ تَدَكَّرَ، وخير كبير أنزلناه على محمد ﷺ، فكيف تُنكرونها إنزاله من الله تعالى؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- انتقام الله تعالى من المستهزئين برسول الله صلى الله عليهم وسلم عامة، ورسول الله ﷺ كما وعد الله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].
- ٢- ذمّ الله تعالى الكفار، ووصفهم بالصُّمّ؛ لأنهم لم يستفيدوا من هذه النعمة لمعرفة الحق.
- ٣- بيان دقة عدل الله تعالى.
- ٤- الإشارة إلى تحريف التوراة المعاصرة؛ لمخالفتها ما وصف الله تعالى به التوراة الحقيقية.
- ٥- افتتاح القصة بلام القسم المفيدة للتأكيد؛ لتنزيل المشركين في جهل بعضهم بذلك، وذهول بعضهم عنه، وتناسي بعضهم إياه منزلةً مَنْ يُنكر تلك القصة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَلُّوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

- ٥١-٥٢- والله لقد آتينا إبراهيم عليه السلام الهداية وهو صغير السن، وكُنَّا بأحواله عالين حين قال لأبيه آزر وقومه مُنْكَرًا عليهم: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟
- ٥٣- فأجابوه بقولهم: وجدنا آباءنا وأجدادنا من قبلُ عابدين لها، فافتدينا بهم.
- ٥٤- فأقسم إبراهيم عليه السلام لهم مُؤَكِّدًا: إنهم وآباءهم بعبادتها في ضلال كبير عن طريق الحق.
- ٥٥- فَرَدُّوا عليه مُنْكَرِينَ: ما تقوله جِدُّ أم هَزَلٌ من أقوال اللاعنين؟
- ٥٦-٥٧- فأجابهم إبراهيم عليه السلام بجزم: بل رَبُّكُمْ المعبود وحده، المستحق للعبادة، هو رَبُّ السموات السبع والأرضين السبع الذي خَلَقَهُنَّ، وأنا شاهد بهذه البراهين على وحدانية الله تعالى، وأقسم بالله مُؤَكِّدًا إِنَّهُ لَيَكِيدُ بآلِهَتِهِمْ كِيدًا؛ لتدميرها بعد ذهابهم عنها.
- ٥٨- وجاء إبراهيم إلى الأصنام بعد انصراف قومه عنها فَحَطَّمَهَا، وجعلها فُتَاتًا، إلا الصنم الكبير فلم يُكْسِرْهُ؛ لعلهم يرجعون إليه، فيسألونه عن كسر الأصنام.
- ٥٩- وَرَجَعَ القوم إلى أصنامهم ففُوجِئُوا بالأصنام المحطَّمة، فتساءلوا بينهم: مَنْ فَعَلَ هذا بآلهتنا؟ إِنَّهُ من المعتدين الذين يستحقون العقوبة.
- ٦٠- قال بعضهم: سمعنا فتى يذكر آلهتنا بسوء، يقال له: إبراهيم.
- ٦١-٦٢- فقال زعماء الشرك: أخضروا إبراهيم بمرأى من الناس؛ حتى يشاهدوه ليعتبروا، فأخضروه وسألوه: هل أنت الذي حَطَّمْتَ الآلهة يا إبراهيم؟

٦٣- فأجابهم مقيماً عليهم الحجة: بل حطّمها الصنم الكبير، فاسألوهم لماذا فعل بهم ذلك، إن كانوا

قادرين على النطق!؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب إنكار المنكر حسب القدرة.
- ٢- بيان فضل الحوار لإقامة الحجة والدعوة إلى الحق.
- ٣- أهمية قوة التوكل على الله تعالى.
- ٤- جواز التورية؛ لبيان حقيقة الأصنام، وأنها غير قادرة على شيء.
- ٥- تقرير التوحيد بالمناقشات العقلية والأدلة الحسية.

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِ الْهَتَكُم إِن كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

التفسير:

٦٤-٦٥- فأخذوا يُفكِّرون ويتشاورون فيما بينهم قائلين: إنكم أنتم الظالمون؛ لأنكم وضعتم العبادة في غير موضعها، ثم أخذتهم العِزَّة بالإثم، فانقلبوا عن الحق، ورجعوا إلى باطلهم، فقالوا له: لقد عَلِمْتُمَا يا إبراهيم أنهم جميعاً لا ينطقون، فكيف تطلب منا أن نسألكم؟

٦٦-٦٧- فردّ عليهم مُنكراً عليهم، ومُحتقراً لهم ولأصنامهم: أفتعبدون من غير الله ما لا ينفعكم شيئاً، ولا يضرُّكم إن تركتم عبادته؟ فُبْحاً لكم وللأصنام التي تعبدونها من غير الله، أفلا تعقلون أتباع الحق؟

﴿ أَفِي ﴾ اسمٌ فعلٍ دالٌّ على الضجر، وهو منقولٌ من صورة تنفّس المتضجر لضيق نفسه من الغضب، وتنوين ﴿ أَفِي ﴾ يسمى تنوين التنكير والمراد به التعظيم، أي: ضجراً قوياً لكم. واللام في ﴿ لَكُمْ ﴾ لبيان المتأفف بسببه، أي: أفٌ لأجلكم وللأصنام التي تعبدونها من دون الله.

٦٨-٦٩- ولما فشلوا في حوارهم قرّروا إحراقه، فأمر أرباب القرار: أحرقوا إبراهيم حرقاً شديداً، انتقاماً لأهنتكم، ونصرة لها إن كنتم ناصريها حقاً، ولكن رعاية الله ﷻ فوق أوامر الطواغيت، فقال تعالى: ﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، فانقلبت النار برداً دون أن تُضَرَّه، وخرج إبراهيم ﷺ سالماً بإذن الله تعالى.

٧٠-٧٢- وأرادوا بإبراهيم الموت بالتَّحْرِيقِ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحْسَرَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْقَذْنَا إِبْرَاهِيمَ وَلُوطًا، إذ هاجرا إلى أرض بيت المقدس التي باركنا فيها للناس بكثرة الخيرات، وطيب الثمرات، وَرَزَقْنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَلِدًا، ويعقوب حفيداً، زيادةً على ما دعا إبراهيم، وكلُّهم من الأنبياء وأهل الصلاح والطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- جواز توبيخ عبدة الأصنام، بحسب مقام الداعية.
- ٢- رعاية الله تعالى لأولياته.
- ٣- بيان معجزة خاصة بإبراهيم ﷺ في إنقاذه من النار.
- ٤- إكرام الله تعالى إبراهيم بالذرية الصالحة التي حَظِيَّتْ بالنبوة.
- ٥- الإشارة إلى بركات بيت المقدس.
- ٦- الإشارة إلى فضل الهجرة؛ لإقامة شعائر الله تعالى.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا إِذِ انبأَهُ أَنِ ابْنُكِ جَدَّتْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

التفسير:

٧٣- وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة للناس، يُرْشِدُونَهُمْ إِلَى الدِّينِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وأوحينا إليهم أن يعملوا بشرائع الدين، وإقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة، وكانوا لنا مخلصين في العبادة.

٧٤-٧٥- وأعطينا لوطاً النبوة والعلم بأحكام الدين، وأنقذناه من أهل البلدة الذين كانوا يعملون الخبائث والفواحش. إنهم كانوا أشراً خارجين عن طاعة الله، وشملناه برحمتنا الواسعة؛ لأنه كان من الصالحين، المطيعين لله تعالى.

٧٦- واذكر - أيها النبي - نوحاً عليه السلام حين دعا ربّه بإهلاك الظالمين من قومه، فأجبنا دعاءه، وأنقذناه وأهله المؤمنين به في السفينة من الغم الشديد.

٧٧- ونصّرنا نوحاً بنجاته من كيد الكافرين الأشرار، وبإغراقهم في الطوفان جميعاً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الإشارة إلى فضل الدعوة، والدعاة حملة الهداية.
- ٢ - الإشارة والإشادة بفضل فعل الخيرات.
- ٣ - التهديد والوعيد من الوقوع في الخبائث.
- ٤ - رعاية الله تعالى لأنبيائه صلى الله عليهم وسلم، والنكاية بالمكذّبين بهم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

التفسير:

٧٨-٧٩- واذكر أيضاً داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام إذ يحكما ن لخصمين اقتحمت غنم أحدهما زرع الآخر ليلاً، فأتلفت الزروع، وكُنَّا مُطَّلِعِينَ عَلَى حُكْمِهِمَا، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ. وكُلًّا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ أَعْطَيْنَا نَبُوَّةً وَعِلْمًا نَافِعًا فِي أُمُورِ الدِّينِ، وَذَلَّلْنَا الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تُسَبِّحُ مَعَ دَاوُدَ، وَكُنَّا قَادِرِينَ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ وَأَمْثَالِهِ، وَعَلَّمْنَا دَاوُدَ صِنَاعَةَ الدَّرُوعِ بِجَعْلِ الْحَدِيدِ لَيْتًا لَهُ؛ لِتَحْوِيلِكُمْ فِي الْحَرْبِ مِنْ سِلَاحِ عَدُوِّكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - شَاكِرُونَ نَعْمَتِي؟

٨١- وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ شَدِيدَةً سَرِيعَةً الْهَبُوبِ، تَسِيرُ بِأَمْرِهِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالثَّمَرَاتِ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَالِمِينَ.

٨٢- وَسَخَّرْنَا لَهُ بَعْضَ الشَّيَاطِينِ يَفْغوصُونَ فِي الْبَحْرِ، فَيَسْتَخْرِجُونَ لَهُ اللَّوْلُؤَ، وَيَعْمَلُونَ لَهُ أَعْمَالَ أُخْرَى كَالْبِنَاءِ وَالصَّنَاعَةِ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ مِنْ أَنْ يَفْعَلُوا غَيْرَ مَا يَرِيدُ سُلَيْمَانَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضل القضاء بين الناس، وقد قام به الأنبياء.
- ٢- بيان فضل الرجوع إلى الحكم الصحيح.
- ٣- الإشارة إلى التصنيع من الحديد إذا انصهر.
- ٤- بيان المعجزات التي خصّها الله تعالى داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.
- ٥- الإشارة إلى فضل بيت المقدس، وما فيه من البركات.
- ٦- قال ابن عاشور: «هذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد أو لم يَتَّهَدِ إِلَى الْمَعَارِضِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في معرض الثناء عليهما». (التحرير والتنوير: ٨٧/١٧).

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَنَمِ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَى، وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا، وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَزَحْمًا فَانْفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاءَ آيَةٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

التفسير:

٨٣-٨٤- يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ وَأُمَّتَهُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ تَضَرَّعُوا إِلَى اللهِ، فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُمْ، وَمِنْهُمْ نَبِيُّ اللهِ وَعَبْدُهُ أَيُّوبُ، حِينَ دَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ فِي جَسَدِي وَفَقَدَانِ أَهْلِي، وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الراحمين، فارحمني برحمتك الواسعة. فاستجينا له دعاءه، فرَفَعْنَا عنه الضَّرَّ، وأَعْطَيْنَاهُ مثل أهله عدداً وزيادة بضعف عددهم، رحمةً من عندنا، وموعظةً عظيمةً للعابدين لله؛ ليصبروا على البلاء.

٨٥-٨٦- وأذْكَرُ إسماعيل وإدريس وذا الكفل، كلُّهم من الصابرين على الابتلاء، وشَمِلْنَاهم برحمتنا؛ لأنَّهم من الأخيار الصالحين.

٨٧-٨٨- وأذْكَرُ قِصَّةَ صاحب الحوت يونس بن مَتَّى عليه السلام حين أرسله الله إلى قومه في قرية (نينوى) من مدينة (الموصل) شمال بغداد، فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوَعَّدَهم بالعذاب، وتركهم مغاضباً لهم بالهجرة عنهم، ومغاضباً لرَبِّه لعدم صبره، فقد آمنوا بعد أن هجرهم، وظنَّ أن لن نعاقبه على ذلك. ولما هجر قومه ركب سفينة، وكان عدد رُكَّابها زائداً، فخافوا أن يغرقوا، فاقترحوا أن يقتنعوا بإلقاء أحدهم، فوَقَعَت القُرعة على يونس، ثم ألقى بنفسه، فابتلعه الحوت، فنادى في ظلمات بطن الحوت وظلمات البحر مُعْتَرِفاً بتعجُّلِهِ، تائباً إلى الله مُوحِّداً له: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فاستجبتنا له دعاءه، وأنقذناه من ذلك العَمِّ الشديد. ومثلما أنقذناه من كَرْبِهِ نُنقِذُ الْمُؤْمِنِينَ من كربهم، إذا دَعَا اللهُ تعالى مخلصين.

٨٩-٩٠- وأذْكَرُ قِصَّةَ زكريا عليه السلام حين دعا رَبَّهُ قائلاً: يا رَبِّ لا تتركني وحيداً بلا ولد يرثني، وأنت خير الباقين. فأجبتنا له دعاءه، ورزقناه ولداً اسمه يحيى عليه السلام، وأصلحنا له زوجته، بعد أن كانت عاقراً لا تصلح للحمل. إنَّهم كانوا يُكْثِرُونَ من فعل الخيرات، ويَدْعُونَنا رغبةً في رحمتنا، ورهبةً من عذابنا، وكانوا لنا خائفين خوفاً عظيماً.

٩١- وأذْكَرُ قِصَّةَ الصُّدِّيقَةِ مريم بنت عمران التي حَفِظَتْ فَرْجَهَا من الحرام، فأرسلنا لها جبريل، فنفخ في فتحة قميصها، فحَمَلَتْ عيسى، وجَعَلْنَاها وابنتها علامةً على قدرة الله تعالى للإنس والجن.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإشارة إلى عظمة رحمة الله تعالى بأنه أرحم الراحمين.
- ٢- بيان علاج الابتلاء بالدعاء، لجميع العباد وحتى الأنبياء.
- ٣- بيان فضل الصبر على الابتلاء.
- ٤- بالدعاء والاستقامة تُقضى الحاجات، وتتحقق الرغبات.
- ٥- الترغيب في الدعاء، فلا يجوز اليأس من رحمة الله تعالى الواسعة.
- ٦- الإشارة إلى قدرة الله تعالى في نجاة المؤمنين من المحن والفتن.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ
 كُلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا
 لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَى قَرَبِيِّهِمْ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ
 يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ
 أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا
 وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٩٢- إِنَّ هَذِهِ مِلَّتِكُمُ الَّتِي جَاءَ بِهَا هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلُونَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ أَيُّهَا الْعِبَادُ، وَأَنَا إِلَهُكُمْ لَا رَبَّ سِوَايَ، فَأَخْلِصُوا لِي الْعِبَادَةَ.

٩٣- وَلَكِنَّ الْعِبَادَ اخْتَلَفُوا، وَتَفَرَّقُوا إِلَى فِرَقٍ كَثِيرَةٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَعَصَى، وَكُلُّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْجَزَاءِ.

٩٤- فَمَنْ يَعْمَلُ شَيْئًا مِنَ الطَّاعَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَضِيعُ شَيْءٌ مِنْ ثَوَابِهِ، وَإِنَّا لَسَعْيِهِ حَافِظُونَ، مُثَبِّتُونَ فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ.

٩٥-٩٧- قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَهْلَ كُلِّ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكُوا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا مَرَّةً ثَانِيَةً، إِلَى قَرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ، حِينَ يُفْتَحُ سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ - وَهُمَا قَبِيلَتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ هَمَجِ الْبَشَرِ - وَهُمْ مِنْ كُلِّ مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ يَنْحَدِرُونَ سَرْعًا، وَاقْتَرَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا حَالَةَ الْكُفَّارِ هِيَ: مُفْتَحَةٌ أَبْصَارَهُمْ لَا تَتَحَرَّكُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَقُولُونَ مُتَفَجِّعِينَ: يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ عَنِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا بِتَكْذِيبِ الرِّسْلِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ. فَيُخْرَجُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فَيَعْمُونَ الْأَرْضَ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَدَائِنِهِمْ وَحَصُونِهِمْ، وَيَضْمُونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، حَتَّى إِتَمَّ لَيْمِرُونَ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَهُ، حَتَّى مَا يَدْرُونَ فِيهِ شَيْئًا، فَيَمُرُّ آخِرُهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ، فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: لَقَدْ كَانَ بِهَذَا الْمَكَانِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُظْهِرُونَ عَلَى الْأَرْضِ، فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ، قَدْ فَرَّغْنَا مِنْهُمْ، وَلِنَنَازِلَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ، حَتَّى إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَهْزُ حَرْبَتَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ مَخْضَبَةً بِالدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ دَوَابَّ كَنَغْفِ

الجراد، فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضاً، فيُصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً، فيقولون: مَنْ رجلٌ يشري نفسه، وينظر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجلٌ قد وَطَّنَ نفسه على أن يقتلوه، فيجدُّهم موتى، فيناديهم: أَلَا أَبْشِرُوا، فقد هلكَ عَدُوُّكُمْ فيخرج الناس، ويُخْلُون سبيل مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عليها، كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط».

(أخرجه ابن ماجه في السنن - الفتن، باب فتنه الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج ١٣٦٣/٢ برقم ٤٠٧٩، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة ٣١١/٢، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح ابن ماجه ٣٨٨/٢). ذكره ابن كثير ٣٦٧/٥). النّف: واحده: نَفْة، نوع من الدود. وتشكر: تَسْمَن.

٩٨-١٠٠- إنكم - أيها المشركون - وما كنتم تعبدون من الأصنام وقود نار جهنم، أنتم فيها داخلون. لو كان هؤلاء المعبودون آلهة كما تدعون ما دخلوا نار جهنم، وكلكم في النار ماكنون إلى الأبد، وهؤلاء الكفار زفير من شدة العذاب والحزن، وهم في النار لا يسمعون شيئاً يؤنسهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - دعوة الأنبياء واحدة، موحدة بإخلاص العبادة لله تعالى.
- ٢ - قال ابن عاشور: «لَمَّا ضُمِّنَ ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ معنى (تَوَزَّعُوا) عُدِّي إلى (أمرهم) فنصبه، والأصل: تَقَطَّعُوا في دينهم وتَوَزَّعوه. وزيادة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لإفادة إنهم تعاونوا وتظاهروا على تَقَطُّع أمرهم».
- (التحرير والتنوير: ١٧/١٠٤).
- ٣ - تأكيد وجوب توحيد العبودية.
- ٤ - الإشارة إلى ذم التفرق والتشردم.
- ٥ - تقرير البعث والحساب.
- ٦ - الترغيب في الأعمال الصالحة مهما قلَّت.
- ٧ - الإشارة إلى تأخر خروج قوم يأجوج ومأجوج، وفيه الرد على مَنْ يقول إنهم خرجوا.
- ٨ - في الآية (٩٦) إخبار مستقبلي عن إحدى علامات الساعة، وهي فَتْحُ سَدِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وانطلاقهم من مرتفعات الأرض، وانتشارهم في جَنَابَاتِهَا مسرعين.
- ٩ - الإشارة إلى وقود النار من اللحوم البشرية، والمصنوعات الحجرية.
- ١٠ - الإشارة إلى بقاء الكفار أحياء في النار بزفيرهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

١٠١- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ ﴾ فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله، فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها قال: فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ عيسى وعزير والملائكة. (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرک ٢ / ٣٨٤-٣٨٥- كتاب التفسير).

التفسير:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْمَوْعِدَةَ الْبَالِغَةَ فِي الْحَسَنِ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، وَهُمْ عَنِ نَارِ جَهَنَّمَ مُبْعَدُونَ.

١٠٣- لا يسمعون صوت النار المتوقّدة ولهبها، وهم في الجنّة مقيمون أبداً، وهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذُّ الأعين، لا تحزنهم أهوال يوم القيامة، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنّة قائلين مبشرين: هذا يومكم الذي وعدتم به في الدنيا؛ لنيل الثواب.

الفرع الأكبر هو عند النفخ في الصور كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النمل: ٨٧]، وانظر تفسيرها هناك. (التفسير الصحيح ٤ / ٢٥٧).

١٠٤- يخبر الله تعالى عن عظيم قدرته في هذا الكون وفي البعث: يوم القيامة نطوي السماء مثل طيّ الورقة على الكتاب، ونعيد الخلق إلى الحساب، كما بدأنا أول خلقهم من العدم في الدنيا، كذلك نُعيدهم يوم القيامة، إِنَّا كُنَّا قَادِرِينَ عَلَىٰ فِعْلِ ذَلِكَ وَأَمْثَالِهِ.

١٠٥- والله لقد كتبنا في الكتاب والزبور الذي أنزلناه على داود عليه السلام بعد ما كتب في اللوح المحفوظ، أو من بعد ما كتب في التوراة أَنَّ أَرْضَ الْجَنَّةِ يَرِثُهَا عِبَادُ اللَّهِ الْمُطِيعُونَ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ. وهذا في الآخرة، أما في الدنيا فيبشروهم بنصر الإسلام في الأرض.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بشرى للمؤمنين بنجاتهم من نيران جهنم، ثم أمنهم من الحزن والحسرة في أهوال يوم القيامة.
- ٢ - الإشارة إلى أن السموات في بدء الخلق كانت مطويات، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وكما في التشبيه ببدء الخلق. وهذا التشبيه يستنبط منه معرفة مصير الكون يوم القيامة من معرفة بدء الخلق، فقد تقدّم ذكر ذلك في تفسير سورة التوبة الآية (٣٦)، وتقدّم في تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة أنّ السموات والأرض كانتا ملتصقتين، ثم فصلهما الله تعالى، وذلك في بداية الخلق، ويستنبط أنّ السموات كانت مطويات، وستعود كما خلقت في البداية.
- ٣ - البشرى بنصر المؤمنين وانتشار الإسلام في الأرض كلها، كما بشر بذلك النبي الأمين ﷺ في قوله: «إنّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمّتي سيلغ ملكها ما زوى لي منها». (صحيح مسلم - كتاب الفتن - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض). ومعنى زوى أي: جمع.
- ٤ - في الآية (١٠٥) إخبار مستقبليّ وبشارة لأمة محمد ﷺ بأنّ الله ﷻ قد كتب في الكتب المنزلة من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ: أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰبِدِيْنَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِن أَدْرِيٓ أَقْرِبُ أَمْ بَعِيْدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِن أَدْرِيٓ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لِّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ جِيْنٍ ﴿١١١﴾ قُل رَّبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعٰنُ عَلٰى مَا تَصِفُوْنَ ﴿١١٢﴾﴾

التفسير:

١٠٦ - يُثْنِي اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ؛ لِأَنَّهُ فِيهِ مِنَ الْكِفَايَةِ النَّامَةِ فِي الْمَوْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ لِقَوْمٍ مُّتَدَلِّلِينَ لِلَّهِ، خَاضِعِينَ لَهُ.

١٠٧-١٠٩ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ - أَيَا الرَّسُولِ - بِهَذَا الدِّينِ إِلَّا رَحْمَةً مَّهْدَاةً إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. قُلْ لِلْعِبَادِ: إِنِّي أُوْحَى إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ إِلَهُكُمْ الْمُسْتَحَقَّ لِلْعِبَادَةِ إِلَهُ وَاحِدٌ، فَاسْلِمُوا لَهُ، وَانْقَادُوا لَطَاعَتِهِ، فَإِن أَعْرَضُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فَقُلْ لَهُمْ: أَعَلَمْتُمْ بِالْحَقِّ جَمِيعًا، وَلَا أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْقِيَامَةِ؟

١١٠-١١٢- إنَّ الله سبحانه يعلم ما تجهرون من الأقوال، ويعلم ما تُخفون في صدوركم، وستحاسبون على ذلك، وما أعلم لعلَّ تأخير العقاب اختبار لكم: أتؤمنون أم تُصِرُّون على الكفر؟ واستمتاع في الحياة الدنيا إلى انتهاء الأجل، قل: ياربِّ افضِلْ بيني وبينهم بالقضاء العدل، وربُّنا هو الرحمنُ بعباده، وأطلبُ العون منه على ما تصِفُونه من الكذب والشرك والسخرية.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضل القرآن العظيم وما فيه من المواعظ التي يستفيد منها المخلصون في عبادة الله تعالى.
- ٢- الإشارة إلى فضل نبي الرحمة ﷺ، وأنَّ ما جاء به فيه الخير الكبير والنفع الكثير للبشرية جميعاً.
- ٣- قال ابن عاشور في الآية (١٠٧): «صِيغَتْ بأبلغِ نَظْمٍ؛ إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه. فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفاً بدون حرف العطف الذي عَطِفتْ به، ذكر فيه الرسول، ومُرْسَلَه، والمرسل إليه، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر». (التحرير والتنوير: ١٧/١٢١).
- ٤- في الآية (١٠٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ رسالة محمد ﷺ هي رحمة لجميع الناس على مختلف العصور والدهور إلى أن تقوم الساعة.
- ٥- تقرير الرسالة وتوحيد العبودية والربوبية.
- ٦- وجوب الاستعانة بالله تعالى؛ للفرقان بين الحق والباطل.
- ٧- قال ابن عاشور: «التعريف في ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لا استغراق كلِّ ما يَصْدُقُ عليه اسم العالم. والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم». (التحرير والتنوير: ١٧/١٢٢).

النزول: مدنية إلا الآيات: (٥٢) و (٥٣) و (٥٤).

المقاصد:

- ١ - بيان جملة من أحكام الحج والقتال.
- ٢ - التخويف من أهوال يوم القيامة.
- ٣ - الدعوة إلى أخذ العبرة من دمار الأمم المكذبة.
- ٤ - تقرير توحيد الربوبية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

التفسير:

- ١ - يخاطب الله تعالى البشرية آمراً بتقواه في طاعة أوامره، واجتناب نواهيه، ومُخْبِراً بما يستقبلون يوم القيامة من زلزال الأرض الفريد، فَإِنَّ هَوْلَهُ رَهيبٌ، واضطرابه شديد.
- ٢ - يوم تشاهدون مشاهد قيام الساعة مِنْ تَصَدُّعِ الْجِبَالِ، وَتَفْجُرِ الْبِحَارِ، وَتَشَقُّقِ السَّمَاءِ. في هذا اليوم تَغْفُلُ الْأُمُّ الْمَرْضِعَةُ عَنْ رَضِيعِهَا، وَتُسْقِطُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا، وترى العباد في ذُهُولٍ من هذا الهول الذي بدت معالمه، كَأَنَّهُمْ سُكَارَىٰ مِنَ الْخَمْرِ، وليسوا بسكارى حقيقة، ولكن مشهد العذاب الذي ينتظر العصاة شديد. عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله ﻻ يا آدم! فيقول: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تُخْرِجَ من ذريتك بَعَثًا إِلَى النَّارِ. قال: يا رب وما بَعَثُ النَّارِ؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمئة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حَمْلَهَا، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد». فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فقال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمئة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد. ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن

تكونوا رُبْع أهل الجنة» فكَبَّرْنَا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة» فكَبَّرْنَا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكَبَّرْنَا. (صحيح البخاري ٢٩٥/٨، برقم ٤٧٤١ - كتاب التفسير - سورة الحج، باب ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾).

٣- وبعض الضالِّين مَنْ يخاصم في قدرة الله تعالى وصفاته من غير علم، بل بالأباطيل، ويطيع كل شيطان متمرّد من الإنس أو الجن. قال الشيخ الشنقيطي: «ما ذكره جَلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة من أن بعض الجهَّال كالكفَّار يُجادل في الله بغير علم، أي: يخاصم فيه بغير مستند من علم، بيَّنه في غير هذا الموضع، كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ، لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ مُّبِينٌ، وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨-٩] الآية.»

٤- حُكْمُ اللَّهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ يُغْوِيهِ، وَيَسُوقُهُ إِلَىٰ عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ الْمَوْقَدَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإنباء بهول يوم القيامة بمشاهد مؤثرة ومحيرة.
- ٢- تحريم الحوار بغير علم ولا دليل.
- ٣- ترك اتباع الحق يؤدي إلى اتباع الباطل.
- ٤- قال ابن عاشور: «زيادة كلمة (كل) للدلالة على أن هذا الذهول يعتري كل مرضع، وليس هو لبعض المرضع باحتمال ضعف في ذاكرتها. ثم تقتضي هذه الكناية كنية عن تعميم هذا الهول لكل الناس؛ لأنَّ خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع.. وهذا من بدیع الكناية عن شدة ذلك الهول؛ لأنَّ استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية. وهذا النوع من الكناية يسمى الإنباء». (التحرير والتنوير: ١٧/١٣٩).

٥- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يدل على أن الهدى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير، يستعمل أيضاً في الدلالة على الشر، لأنه قال: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾. ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾ [القصص: ٤١] الآية، لأنَّ الإمام هو مَنْ يُقْتَدَىٰ به في هديه وإرشاده.»

٦- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنه سبحانه ذكر ثلاثة أصناف: صنّف يجادل في الله بغير علم، ويتَّبِع كل شيطان مريد، مكتوب عليه إضلال مَنْ تَوَلَّاهُ، وهذه حال الْمُتَّبِعِ لِمَنْ يضلّه. وصنّف يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ، وهذه حال المتبوع المستكبر الضالَّ عن سبيل الله. ثم ذكر حال مَنْ يعبد الله على حَرْفٍ، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عَبَدَ اللَّهَ،

وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتدَّ عن دينه، فهذه حال مَنْ كان مريضاً في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء». (درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢٦٣).

﴿ يَكَايُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي وَيُمْرُقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

التفسير:

٥- يخاطب الله تعالى جميع العباد بالأدلة المشاهدة: إن شككتكم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم، فانظروا في أصل خلقكم؛ ليزول الشك عنكم، فقد خلقنا آدم من تراب، ثم جعلنا نسله من المنى، يقذفه الرجل في رحم المرأة، ثم يتطور بقدرة الله تعالى إلى دم أحمر جامد، ثم يتطور إلى قطعة من اللحم تشبه المضغ التي فيها آثار ضغط الأسنان عليها، وتكون تامّة الخلق، وأحياناً تكون غير تامّة، لتوضّح لكم عظيم قدرتنا. ونُبي في الأرحام الجنين التام الخلق إلى وقت ولادته، ثم نُخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وحواشه، ثم يتدرّج حتى تكتمل قوتكم وحواشكم، ومنكم من يموت في شبابه، ومنكم من يُعمّر حتى يصل إلى الشيخوخة والهَرَم من أجل ألا يعلم هذا الهَرَم شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك. وأمر آخر يدل على حقيقة البعث: الأرض اليابسة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها المطر دبّت فيها الحياة وتحرّكت، وأنبتت من كل صنف ما يسر الناظر ببهائه ورواقه.

٦-٧- ذلك الاستدلال العظيم يبرهن على أربع حقائق: بأن الله هو الربّ المعبود بحق، وبأنه سبحانه القادر على إحياء الموتى، وأنه على كل شيء من الأشياء قدير لا يُعجزه شيء، وأن قيام الساعة حق لا شك فيها، وأن الله يحيي الأموات، ويبعثهم من القبور أحياء إلى موقف الحساب.

٨-٩- يُحذّر الله من أهل الضلال مُكرّراً ذكّرهم؛ لتأكيد خطورة أمرهم، وشناعة فعلهم، فهم يخاصمون بغير علم صحيح، ولا كتاب يعتمد على الحجة والبرهان، بل بجهالة واستكبار، من أجل أن يصدّوا العباد عن دين الله، فلهم عذاب في الدنيا بالذلة والهوان، وفي الآخرة بالنار المحرقة.

١٠- ذلك العذاب العظيم بسبب ارتكاب جرائم الكفر والفساد، وأنّ الله عادل لا يُعذّب أحداً بغير ذنب وإنذار.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ثبت للخبراء أن نزول المطر على التربة أو اختلاط الماء بالتربة من أيّ مصدر آخر يترتب عليه عدة أمور:
 - أ- تحولها إلى محلول الترب.
 - ب- حبيبات التربة ذات الشحنات السالبة المتشابهة تكون في حالة تنافر مستمر، وهو ما يجعلها في حالة اهتزاز وحركة دائمة.
 - ج- الماء يحيط بالحبيبات ويغلقها فتزداد، أي: تربو كما أخبر القرآن الكريم. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ١٠٥).

ومن الحقائق العلمية: أنّ الماء إذا نزل على تربة الأرض أدى إلى إثارتها كهربياً، ممّا يجعلها تهتز وتنفس ويزداد حجمها، فتربو وتزداد؛ وذلك لأنّ تربة الأرض تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي يؤدي تميؤها إلى اهتزاز مكونات التربة، وزيادة حجمها وارتفاعها إلى أعلى حتى ترقّ رِقَّةً شديدة فتنشق مفسحة طريقاً سهلاً آمناً لسويقة (ريشة) النبتة الطريّة الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة.

(آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٥١-٣٦٤).
- ٢- تقرير البعث بالأدلة الحسية والعقلية.
- ٣- بيان مراحل خلق الإنسان الواردة في الآيات دليل ساطع على إعجاز القرآن.
- ٤- دَمُّ الجدل من غير برهان ولا علم.
- ٥- دَمُّ التكبر والتعالم والتقليد الأعمى للضالّين.
- ٦- ينظر: نموذج من القبور، كما في الملحق.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ۗ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ۗ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۗ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ۗ مَا يَغِيطُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَتَّبِعُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذَّوَابُ ۗ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ۝

التفسير:

١١-١٣ - وبعض الناس من هو ضعيف الإيمان فيعبد الله على تردد؛ لأن الإيمان لم يستقر في قلبه، فإن رزق بالخير والصحة أقام على دينه، وإن أصابه مكروه وبلاء ارتد عن دينه، وانتكس بالكفر، وأضاع دنياه وآخرته. ذلك الانتكاس بالكفر هو الخسران الواضح الذي لا مثيل له، يعبد الأصنام من غير الله، وهي لا تنصره إن ترك عبادتها، ولا تنفعه إن عبدها. ذلك الكفر الصريح هو الانحراف البعيد عن الحق، يعبد من ضرره المحقق أقرب من نفعه الوهمي. بس الناصر، وبس القريب.

١٤ - يُبَشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بأنه يدخلهم جنات تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها. إن الله يفعل ما يريد من إكرام المؤمنين بفضله، وعذاب الكافرين بعدله.

١٥ - مَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَنْصُرَ نَبِيَهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا بِإِظْهَارِ دِينِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِإِعْلَاءِ دَرَجَتِهِ، فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ يَغِيظُهُ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَمُدَّ حَبْلًا فِي سَقْفِ، ثُمَّ لِيَخْتَنِقَ بِهِ شَنْقًا، فَلْيَنْظُرْ: هَلْ يَشْفِي ذَلِكَ مَا يَجِدُ فِي صَدْرِهِ؟ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ نَبِيِّهِ، فَقَدْ وَعَدَ بِذَلِكَ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ سَبْحَانَهُ.

عن أريدة التميمي قال: قلت لابن عباس: رأيت قوله: ﴿ مَن كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ۗ مَا يَغِيطُ ﴾ قال: «مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا، فَلْيَرْبِطْ حَبْلًا فِي سَقْفِ، ثُمَّ لِيَخْتَنِقَ بِهِ حَتَّى يَمُوتَ». (أخرجه الترمذي في التفسير ١٧/١٢٦-١٢٧، وأخرجه

الحاكم في (المستدرک ۲/ ۳۸۶) من طريق سفیان، عن أبي إسحاق به مختصراً، ولفظه: (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ عَمْدًا) وصححه ووافقه الذهبي، وعلّقه البخاري في صحيحه مختصراً بصيغة الجزم، فقال: وقال ابن عباس: ﴿يَسْبَبُ﴾ بحبل إلى سقف البيت).

١٦- ومثّل ذلك الإنزال المبين بالآيات المرثية أنزلنا القرآن الكريم وما فيه من الآيات المفصلة، والحجج الواضحة، وأن الله تعالى يهدي بها مَنْ يريد هدايته.

١٧- إنّ المؤمنين واليهود والذين خرجوا عن اليهودية، والنصرانية والنصارى، وعبدة النيران، وعبدة الأوثان. إنّ الله يفصل بينهم جميعاً يوم القيامة، فيُدخِلُ المؤمنين الجنة بفضلِهِ، ويُدخِلُ الكافرين النار بعَدْلِهِ، فتنتهي الخصومة المذكورة في الآية الآتية بعد الآية التالية. إنّ الله شاهد على أعمال خَلَقَهُ أحاط بها علماً.

١٨- ألم تعلم أنّ الله تعالى يسجد ويخضع له مَنْ في السموات السبع والأرضين السبع، والشمس والقمر والنجوم والجبال، وكثير من العباد المؤمنين طوعاً، وكثير من العباد الكافرين كرهاً؟ وأيُّ عبد أهانه الله تعالى فما له من مُكْرِمٍ يُكْرِمُهُ، ولا دافع يدفع عنه الهوان. إنّ الله يفعل ما يشاء في خَلَقِهِ وَفَقَّ حكمته.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإشارة إلى الابتلاء وعلاجه بالصبر والثبات.
- ٢- الاستغناء عن الاستعانة بالله خسارة في الدارين.
- ٣- وجوب حسن الظن بالله الرحمن الرحيم.
- ٤- تقرير عبودية المخلوقات كلها لله تعالى بسجودها.
- ٥- الإشارة إلى وجوب الخضوع والتذلل لله تعالى لما فيه من حياة العزة والكرامة؛ لأنّ الذي يُخْلِصُ العبادة لله تعالى فهو في حصن حصين، وعِزٌّ مكين، وقرار أمين.
- ٦- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: «كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، وتنجت خيله قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تلدْ امرأته، ولم تُنتج خيله، قال: هذا دين سوء». (صحيح البخاري ۸/ ۲۹۶- كتاب التفسير- سورة الحج - باب (الآية)، برقم ۴۷۴۲).
- ٧- في الآية (١٨) إخبار مستقبليّ بأنّ مَنْ كَتَبَ اللهُ عليه الإهانة فليس باستطاعة أحد - كائناً مَنْ كان - أن يكرمه، فالله ﷻ يفعل ما يشاء وفق حكمته.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْمَعِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِنَ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

١٩-٢٢- سبب النزول:

عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يُقسم فيها قسماً: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعُتْبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر.. (صحيح البخاري ٢٩٧/٨-٢٩٨- كتاب التفسير، سورة الحج، باب (الآية) برقم ٤٧٤٣. وصحيح مسلم ٤/٢٣٢٣ بنحوه- كتاب التفسير- باب في قوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾). قال ابن عاشور: «الأظهر أن أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أن أولئك نفر الستة هم أبرز مثال وأشهر، فردَّ في هذا العموم، فعبر بالنزول، وهو يريد أنهم ممن يُقصد من معنى الآية».

(التحرير والتنوير: ١٧/١٦٦).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: عليٌّ وحمزة وعُبيدة، وشيبة ابن ربيعة، وعُتْبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. (صحيح البخاري ٢٩٧/٨-٢٩٨- كتاب التفسير، سورة الحج، باب (الآية) برقم ٤٧٤٤. وصحيح مسلم ٤/٢٣٢٣ بنحوه - كتاب التفسير - باب في قوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾).

التفسير:

هذان فريقان متنازعان، وهما المؤمنون والكافرون تنازعوا، إذ يدَّعي كلُّ فريق أنه على حق، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان، وسيفصل بينهم النزاع، فالكفار فصلت لهم ثياب من نار على مَقاس أجسادهم، يُصَبُّ على رؤوسهم الماء المغلي بنار جهنم، يُذيب ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ويُسقط الجلود، وأعدَّ لهم مطاريق من حديد يُضْرَبُونَ بها، كلما حاولوا الهروب من هول النار أُعيدوا فيها وُوبُّخوا، إذ يقال لهم: ذُوقوا عذاب نار جهنم.

٢٣- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْعَمَالَ الصَّالِحَةَ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشجارِها، يُزَيَّنُونَ فِيها بِحُجِيِّ فِي غاية الجمال، بأساور من الذهب واللؤلؤ، ولباسهم المعتاد في الجنة هو الحرير الطبيعي رجالاً ونساءً.

٢٤- وَأَمَّا كَلَامُهُمْ فِي الْجَنَّةِ فَقَدْ أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّهْلِيلَ وَالكَلَامَ الْحَسَنَ الَّذِي يَخْلُو مِنَ اللَّغْوِ وَالكُذْبِ، وَهَدَاهُمْ سَبْحانَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ.

٢٥- إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَمْنَعُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَنَسَكاً وَمُتَعَبِّداً لِلنَّاسِ جَمِيعاً، يَسْتَوِي فِيهِ الْمُقِيمُ الْحَاضِرُ، وَالَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ خَارِجِ الْبَلَدِ. وَمَنْ يَعْزَمْ فِيهِ بِفِعْلِ سَوْءٍ، أَوْ يَهْتَمُّ بِسَوْءٍ مُتَعَمِّداً ظَلَمَ الْآخِرِينَ، سِوَا مَنْ كَانَ يَقِيمُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَوْ خَارِجَهُ، نُذِقَهُ عِقَاباً مِنَ الْعَذَابِ الْمَوْجِعِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان مصير أهل الحق ومصير أهل الباطل في الآخرة.
- ٢- بيان حرمة المسجد الحرام.
- ٣- التهديد والوعيد لمن أراد الإساءة إلى المسجد الحرام وأهله، ولو بمجرد النية.
- ٤- المسلمون سواسية في المسجد الحرام، فالكل له حقُّ العبادة، سواءً كان من أهل البلد، أو من القادمين.

٥- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظَلَمِ نُذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ قال: لو أن رجلاً همَّ فيه بالحاد وهو بعَدَنَ آيَتِنِ، لأذاقه الله عذاباً أليماً.
(أخرجه الحاكم وصححه الذهبي في المستدرک ٢/٣٨٨- كتاب التفسير، وصححه أحمد شاكر في حاشية المسند برقم ٤٠٧١).

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا
نَفْسَهُمْ وَلِيُوَفُّوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ
فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ
فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٨ - واذكر - أيها النبي - إذ هيأنا لإبراهيم عليه السلام مكان البيت الحرام، وأنزلناه بجواره للقيام
ببناء الكعبة على التوحيد، ونهيناه عن الشرك، وأمرناه أن يطهر البيت من الأوثان والأقدار، للذين
يطوفون حول الكعبة، والمقيمين للعبادة، والمصلين فيه. وبعد أن قام إبراهيم عليه السلام بذلك الشرف أمره الله
تعالى أن ينادي الناس، ويبلغهم بوجوب الحج إلى بيت الله الحرام، ثم بشره بالاستجابة إلى نداءه، وجمي
الناس من كل مكان بعيد وقريب، مشاة على أقدامهم، وركبانا على الجمال المهيأة للسفر الطويل، وغيرها
من المراكب المعدة للحج؛ ليحظوا بمنافع دينية ودنيوية، وليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا والضحايا في
أيام النحر، شكراً لله على نعمائه، وعلى ما أعطاهم من الإبل والبقر والغنم والمعز، وأباح لهم الأكل من
لحوم الأضاحي، وأمر بإطعام البائس الذي أصابته شدة وفاقة، والفقير المحتاج.

٢٩ - ثم بعد الذبح أمرهم أن يزيلوا من أجسامهم ما علق بها في أثناء الإحرام، وذلك بالحلل
والتقصير وقص الشارب والأظافر، وليوفوا ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله، وليطوفوا حول
الكعبة طواف الإفاضة سبعة أشواط.

٣٠ - ذلك الأمر العظيم الذي يبين شعائر الله تعالى، ومن يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين فهو
خير له ثواباً في الآخرة، وأحللنا لكم الأكل من الإبل والبقر والغنم والمعز وغيرها من النعم، إلا ما استثنى
في القرآن الكريم، كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله. واجتنبوا بغاية الجهد عبادة الأوثان، فإنها خبيثة
نجسة نجاسة معنوية، واجتنبوا أيضاً قول الباطل من الكذب وشهادة الزور.

٣١- وكونوا مستقيمين مطيعين لله غير مشركين به أحداً، ومن يشرك فمثلُه مثلُ مَنْ سقط من السماء، فتأكله الطير وتمزقه، أو تعصف به الريح إلى مكان بعيد من الأمان. وهذا التشبيه يبيِّن خطورة البعد عن الإيمان بالله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضل المسجد الحرام وشرف إبراهيم عليه السلام.
- ٢- أول مَنْ بَلَغَ بوجوب الحج إبراهيم عليه السلام.
- ٣- جواز التجارة في الحج.
- ٤- ضرورة التنويه بالحكمة من الحج، وما فيه من منافع مادية وروحية للنفس وللمجتمع وللشعوب المسلمة، والعمل على استئثار هذا الموسم في توثيق عُرا المودة، وأواصر الصلة، وتبادل المنافع بين المسلمين.
- ٥- بيان فضل تعظيم حرمة الله تعالى، ومنها المسجد الحرام.
- ٦- تأكيد تحريم عبادة الأصنام، والكذب، وشهادة الزور.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْتَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَالصَّانِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْبِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِيت جُنُوبَهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوعُ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

- ٣٢- ذلك هو الأمر العظيم من الشرع الحكيم الذي أمر به الرحمن الرحيم. ومن يُعَظِّمُ أمور الدين، ومنها شعائر الحج فإنها من أفعال المتقين.
- ٣٣- ولكم في هذه الضحايا والهدايا منافع من النسل واللبن والركوب، إلى وقت نحرها في مكة المكرمة، أو في منى.

٣٤-٣٥- ولكلِّ مِلَّةٍ شَرَعْنَا لها مكاناً للعبادة وللذبيح؛ ليذكروا اسم الله وحده، ويشكروه على ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم والمعز. فإلهكم - أيها العباد - إله واحد هو الله سبحانه، فأخلصوا له العبادة وأطيعوه. وبشّر الخاشعين القانتين لله، الذين إذا ذُكِرَ اللهُ خَشَعَتْ قلوبهم، والصابرين على البلاء، والمحافظين على أداء الصلاة، وممّا أعطيناهم ينفقون في سبيل الله.

٣٦- والتضحية بالإبل البدينة لله تعالى جعلناها من معالم الشريعة التي أمر بها الله لعباده. لكم فيها نفع في الدنيا والآخرة، فقولوا عند ذبْحِها: بسم الله، حال كونها واقفة صُفَّتْ ثلاثٌ من قوائمها، وقِيَدَتِ الرابعة، فإذا سقطت على الأرض، وأزْهَقَتْ رُوحَها فقد حَلَّ أَكْلُها، فكلوا منها إن شئتم، وأطعموا الفقير الذي لم يسأل تَعَفُّفاً، والسائل لحاجته. مثل ذلك التسخير جعلناها منقاداً لكم؛ لكي تشكروا الله على نِعَمه.

٣٧- ليس المقصودُ من الهدايا التظاهر بذبْحِها، وإنّما المقصود الإخلاص له سبحانه، فلن يصل إلى الله لحومها وإراقة دماؤها، ولكن يَبْلُغُهُ التَّقوى منكم، بطاعة أوامره واجتناب نواهيه. مثل ذلك التسخير جعلها لكم منقاداً؛ لَتُعَظِّمُوا الله، وتشكروه على ما هداكم من الحق. وبشّر المحسنين بأقوالهم وأفعالهم أنّ لهم الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الترغيب في وجوب تعظيم أحكام الدين.
- ٢- جواز الاستفادة من الأضاحي بركوبها وشرب لبنها، حتى يحين ذبْحُها في مكة المكرمة، أو في منى.
- ٣- في الآية (٣٤) إخبار مستقبلي، وبشارة للمتواضعين الخاضعين لرَبِّهم، بأنّ لهم خيرَي الدنيا والآخرة.
- ٤- وجوب التسمية عند الذبيح.
- ٥- بيان وحدة التشريع في ذبْحِ القرابين لله تعالى في الشرائع كلها.
- ٦- وجوب شكر الله تعالى على نعمه.
- ٧- في الآية (٣٧) إخبار مستقبلي وبشارة للمحسنين بعبادة الله وحده، والمحسنين إلى خَلْقِهِ بكلِّ خير وفلاح.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) أذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِمَا كَانَتَا وَكَلَّ اللَّهُ النَّاسَ طَمَاحًا وَلَكِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ غَنِيًّا ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَحَقُّوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۗ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٤﴾

التفسير:

٣٨- يُبَشِّرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ، وَيُدْفِعُ عَنْهُمْ كَيْدَ أَعْدَائِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ لِلْأَمَانَةِ، جُحُودًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

٣٩- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، لِيَهْلِكَنَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ. (أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي السَّنَنِ ٥/٣٢٥- كِتَابُ التَّفْسِيرِ، بَابُ سُورَةِ الْحَجِّ بِرَقْمِ ٣١٧١. وَصَحَّحَهُ الْإِبْرَاهِيمِيُّ فِي صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، وَصَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ بِرَقْمِ ١٨٦٥، وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ٢/٦٦ - كِتَابُ الْجِهَادِ).

التفسير:

أَذِنَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقِتَالِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقَاتِلُهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا بِمَنَعِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ، وَفَتَنَتِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، فَلَهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَسْتَرِدُّوا حَقُوقَهُمْ. إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ قَادِرٌ عَلَىٰ نَصْرِ عِبَادِهِ.

٤٠- وَمِنْ صِفَةِ ظَلْمِهِمْ أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ سَبَبٍ مُوجِبٍ لِلْإِخْرَاجِ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ. وَلَوْلَا مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنْ دَفْعِ الظُّلْمِ بِالْجِهَادِ لَانْتَشَرَ الْفُسَادُ بِهَدْمِ أَمَاكِنِ الْعِبَادَةِ، مِنْ مَعَابِدِ الرِّهْبَانِ، وَكِنَائِسِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَمَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُصَلُّونَ فِيهَا، وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهَا كَثِيرًا. وَقَسِيماً لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرْ دِينَهُ وَرَسُولَهُ. إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَلَىٰ مَا يَرِيدُ، عَزِيزٌ فِي مَلَكُوتِهِ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ مِغَالِبَتِهِ.

٤١- الَّذِينَ وَعَدْنَاَهُمْ بِالنَّصْرِ، إِنْ جَعَلْنَا لَهُمْ سُلْطَانًا فِي الْأَرْضِ عِبَدُوا اللَّهَ، وَحَافِظُوا عَلَىٰ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ، وَدَعَوْا إِلَى الْخَيْرِ وَنَهَوْا عَنِ الشَّرِّ. وَاللَّهُ تَعَالَى مُرْجِعُ الْأُمُورِ.

٤٢-٤٤- وإن يُكذِّبُكَ الْكَفَّارُ - أيها الرسول - فقد سبقهم في تكذيب رسلهم قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ولوط، وأصحاب مدين الذين كذبوا شعيباً، وكذب فرعون وقومه موسى، فأمهلتُ الكافرين، وأخزتُ عنهم العذاب، ثمَّ أهلكتهم، فكيف كانت آثار إنكاري عليهم؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- قال الشيخ الشنقيطي: «بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ يَدْفَعُ السُّوءَ عَنِ عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ إِيْمَانًا حَقًّا، وَيَكْفِيهِمْ شَرَّ أَهْلِ السُّوءِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] الآية، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]».
- ٢- بيان مكانة المؤمن عند الله تعالى في الرعاية والنصر والتأييد.
- ٣- الإذن بالقتال، لرفع الظلم، وحماية الدين والمسلمين.
- ٤- مهمة الأمة إقامة حكم الله تعالى في الأرض على قدر استطاعتها.
- ٥- وجوب احترام أماكن العبادة.
- ٦- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٧- تسلية النبي الأمين ﷺ في بيان موقف المكذبين بالأنبياء، وإمهالهم فهلاكهم.
- ٨- ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِقًا
 وَقَصِيرًا مَّشِيدًا ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا
 لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ
 وَعْدَهُ. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا
 وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٥ - كثير من البلدان التي عصت ربها، فأصابها بأسنا، فدمرناها بسبب كفر أهلها، وتكذيب رسلهم،
 فهي مهتمة، سادت فيها الوحشة، وأصبحت خالية من البشر، حتى غدت آبارها مطوية لا يُستقى منها،
 وقصورها شاخخة، لكنّها خاوية لا يُنتفع منها.

٤٦ - أفلم يسافر الكفار ليشاهدوا مصارع الهالكين، فيعتبروا بما حلّ بهم من الدمار، ويسمعوا أخبار
 النكال بالكفار؟ فإنّ العمى ليس عمى الأبصار، ولكنّ العمى المهلك هو عمى البصيرة عن إدراك الحقّ
 والاعتبار.

٤٧ - ويطلب الكفار منك - أيها النبي - أن يُعجّل الله لهم بالعذاب استهزاءً، وهو واقع بهم بموعد
 قدره الله تعالى في الدنيا، أو في الآخرة، أو في كليهما. وإنّ مقدار يوم من أيام الآخرة عند الله كآلف سنة ممّا
 تُعدّون من سني الدنيا، فوقع العذاب ليس عنده ببعيد.

٤٨ - وكثير من أهل البلدان الذين ظلموا أمهلتهم، ثمّ فاجأهم بالهلاك، وإليه سبحانه مرجعهم؛
 لينالوا عقابهم في الآخرة.

٤٩-٥١ - قل أيها الرسول: يا أيها العباد، ما أنا إلا مُنذِرٌ لكم، أنذركم إنذاراً واضحاً لا التباس فيه،
 فالْمُؤْمِنُونَ العاملون بالأعمال الصالحة لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم وجنة نعيم، والَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتنا،
 وبذلوا جهودهم في إثارة الفتن ومحاربة القرآن والكيد لأهله. أولئك هم البعداء عن رحمة الله الملازمون
 النار، وهم وقودها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الإشارة إلى آثار إهلاك الأمم الظالمة، وذلك للموعظة والعبرة.

- ٢- الدعوة إلى السير والنظر في ملكوت الله.
- ٣- عمى القلب أشد من عمى البصر.
- ٤- طول زمن أيام الآخرة.
- ٥- يوم مقداره خمسون ألف سنة يعادل (١٨) مليون يوماً.
- ٦- تؤكد الآية (٤٧) النظرية النسبية التي اكتشفها (آينشتاين) والتي تقول: إنَّ السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء، الضوء سرعته تقريبية، يقطع في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيل.
(<http://nabulsi.com/blue/ar/artp.php?art=1451>)
- ٧- عدل الله تعالى في عباده.
- ٨- تشنيع الظلم، فهو من أسباب هلاك الأمم.
- ٩- ينظر: صورة النخل المنقعر والخواوي، كما في الملحق.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير:

- ٥٢- وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - من رسول ولا نبي إذا قرأ ما أمر الله تعالى به، وحرص على الإصلاح، ألقى الشيطان عند ذلك الوسوس والشبهات في قلوب بعض الناس؛ ليصددهم عن اتباع ما جاء به الرسول أو النبي، فيبطل الله تعالى كيد الشيطان، فلا يؤثر في قلوب المؤمنين، فثبت الله تعالى آياته، ويرسخ أحكامها في قلوبهم. والله عليم بالأحوال، حكيم بالأقوال والأفعال.
- ٥٣- ليجعل الله تعالى تلك الوسوس والشبهات فتنة للمنافقين والكافرين؛ ليزدادوا غواية وجناية. وإن هؤلاء الظالمين لأنفسهم في بُعد كبير عن الهداية، وعداوة شديدة للمؤمنين.
- ٥٤- وليعلم أرباب العلم أن القرآن الحكيم هو الحق الذي نزل من عند الله الكريم، فيصدقوا به، فتطمئن قلوبهم، وتخشع جوارحهم. وإن الله هو الهادي للمؤمنين إلى دين الإسلام.
- ٥٥- ولا يزال الكفار في شك من القرآن؛ بسبب ما يلقي الشيطان من الوسوس حتى قيام الساعة فجأة، أو حتى يأتيهم عذاب يوم شديد الهول لم ير مثله في شدة أهواله، إذ يستأصل الكبير والصغير.
- ٥٦-٥٧- الملكوت يوم القيامة والتصرف المطلق لله وحده، وهو الذي يحكم بين المؤمنين والكافرين، فالؤمنون العاملون بها أمر الله في جنات النعيم، والكفار المكذبون بآيات الله هم البعداء عن رحمة الله في عذاب مقيم في الجحيم.

٥٨-٥٩- والذين هاجروا ابتغاء مرضاة الله، ثم قتلوا في سبيل الله، أو ماتوا بغير قتال، قسماً ليرزقنهم الله الجنة بحسنها ونعيمها، وإن الله بكرمه، هو خير من أعطى، فإنه يرزق بغير حساب. ثم يؤكد ذلك بقوله: والله ليُدخلنهم مقاماً يرضونه في الجنة. وإن الله لعليمٌ بأحوال عباده، لا يعاجلهم بالعقوبة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- التحذير من وساوس الشيطان وعداوته.
- ٢- تأثير وساوس الشيطان في الكفار والمنافقين الذين غمَرَ الشكُّ قلوبهم.
- ٣- الإشارة إلى التغلب على وساوس الشيطان بالدعاء، والاستعانة بالله تعالى.
- ٤- بيان فضل الهجرة في سبيل الله تعالى.
- ٥- بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين في الدارين.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّهُ يَكْفُرُ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

التفسير:

٦٠-٦١- ذلك هو الوعد الكريم، ومن جازى الجاني بمثل جنايته ثم اعتدي عليه، قسماً لينصُرَه اللهُ تعالى. إنَّ الله عَفُوٌّ عن ذنوب عباده التائبين، غفور لهم لا يعاقبهم عليها. ذلك النصر الذي وعد به سبحانه لأنه قادر على ذلك، بل هو قادر على أعظم من ذلك من الآيات الكونية التي لا تفارق البشرية، ومنها قدرته سبحانه على إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، بأن ينقص من الليل، فيزيد في النهار، وعلى العكس من ذلك. والله سميع للأقوال، بصير بالأحوال.

- ٦٢ - ذلك الاتصاف بتعام القدرة والعظمة لله تعالى لأنه هو الإله الحق، وأن ما يعبده المشركون من دونه هو الباطل، وأن الله العليُّ على خَلْقِهِ، الكبير العظيم الذي لا شيء أكبر منه سبحانه.
- ٦٣ - ٦٤ - ألم تعلم - يا عبد الله - أن الله أنزل من السحاب المطر، فتصبح الأرض ذات بساط أخضر، تُنبت أنواع النبات؟ إنَّ الله لطيف بعباده، خبيرٌ بهم، له ما في السموات السبع، وما في الأرضين السبع. وإنَّ الله هو الغني حقاً عن كلِّ شيء، المحمود في كل حال.
- ٦٥ - ألم تعلم - أيها الإنسان - أن الله دَلَّلَ لكم ما في الأرض من الدوابِّ والنبات، ودلَّلَ لكم السفن تجري في البحر بأمر الله تعالى، وهو الذي يُنْسِكُ السماءَ ويَحْفَظُهَا؛ لكيلا تقع على الأرض إلا إذا شاء سبحانه؟ إنَّ الله ذورأفة عظيمة ورحمة واسعة بجميع النَّاسِ.
- ٦٦ - وهو سبحانه الذي أحياكم في إيجادكم من العدم، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثمَّ يحييكم في الآخرة عند البعث. إنَّ الإنسانَ لَجَحُودٌ لِنِعْمِ الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الإشارة إلى إيجاد القوة المماثلة لدى المعتدين لردِّعهم، والدُّود عن المسلمين.
- ٢ - مشروعية عقوبة الظالم.
- ٣ - عظمة الله في ملكه وخلقهِ ونعمه عليهم تُبْرِهِنُ أَنَّهُ هو الذي يجب أن يُعْبَدَ وحده، ويُعَظَّم.
- ٤ - تقرير إثبات البعث.
- ٥ - ينظر: صورة ولوج الليل والنهار وتكويرهما، كما في الملحق.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ
هُدَىٰ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّتُكُم بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا
اللَّهُ الذَّلِيلَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

التفسير:

٦٧-٦٩- لكل أمة من الأمم وَصَعْنَا لها شريعة وعبادة، هم عاملون بها، فلا يصح أن ينازعك أحد من المشركين في أمر الدين، وادعُ إلى إخلاص العبادة لله وحده. إنك - أيها النبي - لعلي دين قويم موصل إلى جنات النعيم، وإن خاصمك المشركون بالباطل فقل لهم مُعْرِضاً عنهم، مُهَدِّداً لهم: الله أعلم بأعمالكم، وهو سبحانه يقضي بينكم وبين المؤمنين يوم القيامة فيما اختلفتم فيه في أمر الدين.

٧٠- ألم تعلم - يا عبد الله - أن الله تعالى يعلم كل ما في السموات السبع والأرضين السبع؟ إن ذلك العلم مسطور في اللوح المحفوظ، وهو أمر سهل على الله تعالى.

٧١-٧٢- ويعبد المشركون أصناماً من دون الله، لا حُجَّة لهم فيها، ولا برهان من الله تعالى، وما ليس عندهم به علم، وليس هؤلاء الظالمين لأنفسهم من ناصر ينصرهم. وإذا تُلِيَتْ عليهم آيات القرآن الواضحة ترى في وجوه الكفار الكراهية، يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن من شدة غيظهم. قل لهم أيها الرسول: هل أخبركم خبراً بشراً من ذلك الأمر العظيم؟ نار جهنم وعدّها الله للكافرين المكذّبين بآياته. وبئس المصير هي النار.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- لكل أمة شريعة، وكل الشرائع تلتقي في توحيد العبودية، ومرجعها لله تعالى.
- ٢- مشروعية ترك الحوار إذا لم يكن مجدياً.
- ٣- الإشارة إلى ضيق نفوس الكفار من تلاوة القرآن الكريم.
- ٤- جدال الكفار ومراؤهم لا ينبغي أن يَصْرِفَ الداعية عن دعوته.
- ٥- طريق الحق واضح بيّن، وإن نازع فيه الجاحدون.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَجَمَعُوا لَهُ ۗ إِنَّكَ الْذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِن يَسْتَأْذِنُوا لَن لَّا يَسْتَفِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ ۗ قَلِيلَةٌ أَيُّكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧٣- يضرب الله تعالى مثلاً للعباد، ولبيان قُبْحِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وبيان ضعف عقول مَنْ عُبِدَهَا، ويأمر الله تعالى بسماع هذا المثل: إِنَّ هَذِهِ الْأَوْثَانُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن تَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ ذُبَابَةٍ عَلَى ضَعْفِهَا وَصَغَرِهَا، وَإِن اجْتَمَعَتِ الْمَعْبُودَاتُ كُلُّهَا عَلَى ذَلِكَ. وَإِن اخْتِطَفَ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّمْ يَسْتَطِيعُوا اسْتِرْجَاعَهُ، رَغْمَ ضَعْفِهِ وَحِقَارَتِهِ. ضَعْفَ الطَّالِبِ وَهُوَ الْعَابِدُ الَّذِي يَطْلُبُ الْخَيْرَ مِنَ الْوَثْنِ، وَضَعْفَ الْمَطْلُوبِ، وَهُوَ الْوَثْنُ الْمَعْبُودُ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا حَقِيرٌ وَضَعِيفٌ، فَكَيْفَ تَتَخَذُونَ هَذِهِ الْأَوْثَانَ آلِهَةً؟

٧٤- مَا عَظَّمَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ. إِنَّ اللَّهَ كَامِلُ الْقُوَّةِ، كَامِلُ الْعِزَّةِ فِي مَلَكُوتِهِ.

٧٥- اللَّهُ تَعَالَى يَخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا؛ لِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْبَشَرِ، وَيَخْتَارُ رُسُلًا مِنَ الْبَشَرِ لِتَبْلِيغِ شَرَائِعِ الدِّينِ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِلْأَقْوَالِ، بَصِيرٌ بِالْأَحْوَالِ.

٧٦- وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ بِكُلِّ أَحْوَالِ رُسُلِهِ، مَا قَدَّمُوا وَمَا أَخَّرُوا مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ تُرَدُّ أُمُورُ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا.

٧٧- يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَحْكَامٍ وَتَوْجِيهَاتٍ كَرِيمَةٍ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ: ارْكَعُوا لِلَّهِ فِي صَلَاتِكُمْ، وَاسْجُدُوا لَهُ وَحْدَهُ فِيهَا، وَاخْضَعُوا لَهُ بِطَاعَتِهِ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَاتِ الَّتِي أَمَرَكُمْ بِهَا؛ لِكَيْ تَفُوزُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٧٨- وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ حَقَّ الْجِهَادِ، بِاسْتِفْرَاحِ الْوَسْعِ وَالطَّاقَةِ فِي كُلِّ الْمِيَادِينِ، مِنْ دَعْوَةِ الْخَلْقِ، وَجِهَادِ النَّفْسِ، وَالتَّبَعَةِ الْجَادَّةِ، هُوَ سُبْحَانَهُ اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ وَنَصْرَةَ شَرَعِهِ، مَا

جعل عليكم فيما شرعه من ضيق وشدة، فالزموا ملة أبيكم إبراهيم السمحة السهلة، هو إبراهيم الذي سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن، وفي هذا القرآن - كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [سورة البقرة: ١٢٨] - ليشهد عليكم رسول الله محمد ﷺ بتبليغه الرسالة لكم، وتشهدوا أنتم على الأمم الأخرى أن رسلهم قد بلغتهم، فأقيموا الصلاة بأوقاتها، وأعطوا الزكاة للمستحقين، وثقوا بالله، وتوكلوا عليه في أموركم، هو ناصركم ومثولي أموركم، فينعم الناصر، وينعم النصير للمؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الردُّ على المشركين بأن آهتهم لا تملك القدرة على خَلْقِ أصغرِ مخلوقٍ، وهو الذباب، بل إنَّها عاجزة أن تُرَدَّ ما يسلبه الذباب منها، فكلاهما ضعيف.
- ٢ - الإشارة إلى التحدي في خَلْقِ حشرة صغيرة.
- ٣ - الردُّ على مَنْ أنكر أن يكون الرسول من البشر.
- ٤ - الفلاح بالاستجابة لأوامر الله تعالى.
- ٥ - وجوب تعظيم الله تعالى، والاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام.
- ٦ - وجوب الجهاد بجميع أنواعه؛ لإعلاء كلمة الله تعالى.
- ٧ - الإشارة إلى التيسير في الدين، كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٨ - قال ابن عاشور في الآية (٧٨): «هذا الإنشاء يتضمن تحقيق حُسنِ ولاية الله تعالى، وحُسنِ نصره. وبذلك الاعتبار حُسنَ تفريعه على الأمر بالاعتصام به. وهذا من براعة الختام، كما هو بيِّنٌ لذوي الأفهام». (التحرير والتنوير: ١٧ / ٢٥٤).

النزول: مكة.

المقاصد:

١- تقرير التوحيد، وإقامة البراهين على وحدانية الله تعالى.

٢- بيان أهم صفات المؤمنين.

٣- تقرير البعث والحساب بالأدلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

١-٤- يُبَشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنين بوعدِهِ أَنَّ هُمْ الْفِرْدَوْسَ بِالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى فِي الْجَنَّةِ، لِلَّذِينَ أَقْرَأُوا اللهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلرَسُولِهِ بِالرَّسَالَةِ، وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِفُونَ مَتَذَلِّلُونَ اللهُ، وَهَمُّ عَنْ كُلِّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ مُنْصَرِفُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحَافِظُونَ عَلَىٰ أَدَاءِ الزَّكَاةِ لِلْمُسْتَحِقِّينَ لَهَا.

٥-٧- وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ مُحَافِظُونَ مِنَ الْحَرَامِ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَوا مِنَ الْإِمَاءِ، فَإِنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي الْاسْتِمْتَاعِ بِهِنَّ، فَمَنْ تَمَتَّعَ بِغَيْرِ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ فَأُولَٰئِكَ الْبَاعِدُونَ عَنِ الْحَقِّ، هُمُ الْمُتَعَدُّونَ حُدُودَ اللهِ تَعَالَى.

٨-١١- وَالَّذِينَ هُمْ يَرِثُونَ الْأَمَانَاتَ وَيُوفُونَ بِالْعَهْدِ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُؤَاطِبُونَ فِي أَوْقَاتِهَا وَتَمَامِ أَرْكَانِهَا. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ هُمُ الْوَارِثُونَ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ يَرِثُونَ أَفْضَلَ مَنَازِلِهَا، وَهُمُ الْمُقِيمُونَ فِيهَا عَلَى الدَّوَامِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾﴾».

(سنن ابن ماجه ١٤٥٣/٢ - كتاب الزهد، باب صفة الجنة برقم ٤٣٤١. قال البوصيري: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين (مصباح الزجاجاة ٣/٣٢٧) وأخرجه الطبري من طريق أبي معاوية به (التفسير ١٨/٥-٦)، وصحح إسناده ابن حجر (الفتح ١١/٤٤٢)، وصحح إسناده الألباني (السلسلة الصحيحة ٥/٣٤٨ برقم ٢٢٧٩).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنة وأعلى الجنة». (صحيح البخاري كتاب: الجهاد، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله برقم ٢٧٩٠).

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تأكيد الخبر بـ ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لإفادة التحقيق.
- ٢- بيان صفات المؤمنين التي فيها فلاحهم.
- ٣- وجوب الخشوع في الصلاة وأهميته.
- ٤- قضاء الشهوة إنما يكون بالحلال، وتحريم تجاوز حدود ذلك.
- ٥- وجوب أداء الأمانة.
- ٦- بيان أهمية الصلاة، فيها بدأ ذكر صفات المؤمنين وبها ختم.
- ٧- الإتيان باسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ عند ذكر كل صفة للإشارة إلى أن كل واحدة منها موجبة للفلاح.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْوَعظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَدْنَيْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١٢-١٣- يُفَضِّلُ اللهُ تَعَالَى أَطْوَارَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَمَقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ الَّتِي سَخَّرَهَا لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالنَّبَاتِ؛ لِبَيَانِ عِظَمَةِ قُدْرَتِهِ وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ، كَمَا فِي الْآيَاتِ الْإِحْدَى عَشْرَةَ التَّالِيَةِ: قَسَمًا لَقَدْ خَلَقْنَا آدَمَ مِنْ شَيْءٍ مُسْتَلٍّ مِنَ الطِّينِ، ثُمَّ خَلَقْنَا نَسْلَ آدَمَ مِنْ مَنِيِّ يَاقُوتِ الرَّجُلِ فِي رَجْمِ زَوْجَتِهِ؛ لِيَسْتَقَرَّ الْمَنِي فِي هَذَا الرَّحْمِ الْحَصِينِ، وَيَحْصِلَ فِيهِ التَّلْقِيحُ وَالْإِخْصَابُ.

١٤- ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ قِطْعَةً دَمٍ جَامِدَةً لَيِّنَةً، شَبِيهَةً بِاللَّقْمَةِ الَّتِي تُنْمَخُ بَيْنَ الْأَسْنَانِ، ثُمَّ صَيَّرْنَا قِطْعَةَ اللَّحْمِ اللَّيِّنَةِ عِظْمًا، ثُمَّ كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، بِأَنْبَاتِ اللَّحْمِ حَوْلَ كُلِّ عِظْمٍ بِمَا يَنْاسِبُهُ، ثُمَّ صَيَّرْنَا جَنِينًا خَلْقًا آخَرَ، بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ بَعْدَ مِضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي رَجْمِ أُمِّهِ، فَعَظُمَتْ خَيْرَاتُ اللَّهِ وَتَقَدَّسَتْ قُدْرَتُهُ وَكَرِيمُ عَنَايَتِهِ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.

١٥-١٦- ثُمَّ إِنَّكُمْ - أَيُّهَا الْبَشَرُ - بَعْدَ الْوِلَادَةِ وَالْحَيَاةِ الَّتِي كَتَبَ أَجَلَهَا سُبْحَانَهُ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَانْقِضَاءِ زَمَنِ الدُّنْيَا تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً مِنْ قُبُورِكُمْ لِلْحِسَابِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ جَمِيلُ الْحَبَّالِ: «لَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَرَاهِلَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ سِوَاءَ بِالنِّسْبَةِ لِخَلْقِهِ الْأَوَّلِ مِمَثْلًا بِسَيِّدِنَا آدَمَ عليه السلام أَوْ خَلْقِ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَوْجَزَ فِي قِسْمٍ مِنْهَا وَفَصَلَ فِي الْقِسْمِ الْآخَرِ فِي أَسْلُوبٍ بَلِيغٍ غَايَةَ فِي الْإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ. وَبِجَمْعِ هَذِهِ الْآيَاتِ تَتَضَحُّ الْمَرَاهِلُ؛ حَيْثُ جَاءَتْ الْأَبْحَاثُ الْعِلْمِيَّةُ فِي أَصْلِ الْإِنْسَانِ وَمَرَاهِلِ خَلْقِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُتَطَابِقَةً مَعَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَنَذَكَرَ أَوْلَى أَوْلِيَّاتِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ (عِلْمُ أَصْلِ الْإِنْسَانِ)، وَثَانِيًا إِلَى مَرَاهِلِ نُمُوهِ فِي رَحْمِ أُمِّهِ (عِلْمُ الْجَنِينِ)، وَإِلَيْكُمْ مَرَاهِلُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ (سَيِّدِنَا آدَمَ عليه السلام):

أ- الماء: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

ب- التراب: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ نَنْشُرُوكُمْ ﴾ [الروم: ٢٠].

ج- الطين: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢].

د- الطين اللازب: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١].

هـ- الصلصال الحمأ المسنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

و- الصلصال كالفخار: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

ففي الآية الأولى يشير القرآن إلى خلق الإنسان من الماء، ويشير في الثانية إلى التراب، ثم في الثالثة إلى سلالة من طين (الطين هو مزيج من الماء والتراب)، وفي الرابعة إلى الطين اللازب (أي اللزج وهو مزيج التراب والماء حديثاً)، وفي الخامسة من صلصال من حمأ مسنون (وهو الطين اليابس المتعفن المتغير الذي مضت عليه سنون عدة) والسادسة من صلصال كالفخار (وهو الطين المحروق المتحجر).

وبين العلم الحديث عناصر الإنسان في تركيبته نحو (٢٢) عنصراً تتوزع على الشكل التالي:

أ- الأوكسجين والهيدروجين على شكل الماء وبنسبة ٦٥-٧٠٪ من وزن الجسم.

ب- الكربون والأوكسجين والهيدروجين التي تشكل أساس المركبات العضوية مثل السكريات والدهنيات والبروتينات والمهرمونات والفيتامينات وغيرها.

ج- العناصر الجافة والتي يمكن تقسيمها إلى:

• سبعة عناصر أساسية والتي تشكل ٦٠-٨٠٪ منها وهي (الكلور والكبريت والفوسفور والكالسيوم والمغنيسيوم والصوديوم والبوتاسيوم)

• سبعة عناصر أخرى بنسبة أقل وهي (الحديد والنحاس واليود والمنغنيز والكوبلت والتوتياء والموليبيديوم).

• ستة عناصر بشكل زهيد وهي (الفلور والالمنيوم والبورينيوم والسلينيوم والكادميوم والكروم).

وجميع هذه العناصر موجودة في تراب الأرض، كذلك فإن تركيب الحمض النووي DNA (الذي هو أساس تكوين الإنسان)، والموجود في نواة كل خلية من جسم الإنسان على شكل سلاسل تسمى الكروموسومات (الصبغيات) وتكون ما يسمى بالإنسان المصغر (الإنسان الجيني)!

ويتكون الحمض النووي DNA من سلسلة من وحدات كيميائية تسمى بالنيكلوتيدات، ويتكون كل

نيوكلوتيد من ثلاثة مكونات رئيسية:

أ- جزيء سكر خماسي (رايبوز).

ب- فوسفات.

ت- قاعدة نيتروجينية. (بيورينات وبيرمدينات).

وهذه الكيماويات موجودة في الطبيعة، ويمكن استخراج مكوناتها الأساسية من الطين.

فالتراب والماء يحتوي على العديد من المعادن والمكونات التي نجدتها في الحمض النووي للإنسان.

٢- رعاية الله تعالى التامة للإنسان من أول لحظات تكوُّنه حتى نهاية خلقه.

٣- الدلالة على أن القرآن من عند الله، فما ذكر فيه من دقائق خلق الإنسان لم يكتشفها البشر إلا بعد نزول القرآن بعدة قرون.

٤- قال ابن عاشور: «من إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العَلَقَة، فإنه وَضِعُ بَدِيْعٍ لهذا الاسم؛ إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم؛ بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم». (التحرير والتنوير: ٢٠/١٨).

٥- نقل الدكتور محمد جميل الحبال عن (كيث مور Keith Moore) رئيس قسم علم الأجنة في جامعة تورنتو في كندا، الذي ألف كتاباً يعتبر من أهم المراجع الطبية في هذا الاختصاص بعنوان (علم الأجنة السريري وتخليق الإنسان) إذ قال: «إنني أشهد بإعجاز الله في خلق الجنين الذي ذكره الله في القرآن الكريم في كل طور من أطواره، والتي لم تكتشف إلا في الجزء الأخير في القرن العشرين، وأؤكد أن كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه في علم الأجنة». تنقسم مراحل خلق الجنين إلى قسمين رئيسيين هما:

مرحلة (التخليق) وتستغرق ٧-٨ أسابيع (المرحلة الجنينية).

ومرحلة (النشأة) وتستغرق عدة أشهر (المرحلة الحميلية).

وتنقسم مرحلة التخليق كما جاء ذكرها في القرآن الكريم إلى المراحل التالية:

أ- مرحلة النطفة: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهي من التلقيح إلى الانغراس في بطانة الرحم وتستغرق نحو (٧) أيام (الأسبوع الأول) حيث بعد التقاء نطفة الرجل (الحيوان المنوي) مع نطفة المرأة (البويضة) وتتكون البويضة المخصبة (الزايكوت) وأطلق عليها القرآن الكريم (النطفة الأمشاج) أي خليط من ماء الرجل وماء المرأة وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقوله ﷺ عندما سأله اليهودي من أي شيء يخلق الإنسان فأجابه: (من كل يخلق، من نطفة الرجل ونطفة المرأة) رواه الإمام أحمد في مسنده. وهذا بحد ذاته إعجاز علمي وسبق قرآني ونبوي. حيث كان الاعتقاد حتى القرن الثامن عشر بأن الجنين موجود بصورة مصغرة وكاملة في البويضة أو في الحيوان المنوي للرجل!! وتتم عملية التلقيح عادة في قناة الرحم (قناة فالوب) حيث تزحف الزايكوت متدحرجة وتقع في بطانة الرحم وتنغرس، ويكون الانغراس عادة

القسم العلوي الخلفي من بطانته ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو وصف دقيق جداً ومعجز لهذا المكان ذكره القرآن الكريم

ب- مرحلة العلقه: في قوله تعالى: ﴿ تَرْخَلْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ بعد استقرار النطفة في جدار الرحم بفترة يدخل الجنين في مرحلة العلقه لتعلقه به وتغذيته من دمائه، ويشبه الجنين في هذه المرحلة شكلاً بدودة (العلق) وهي دودة تعيش في المياه الأسنة وتمتص الدم إذا شربتها الدابة حيث تتعلق بحلقها وتتغذى على الدم الممتص منها. وهذا تشبيه قرآني دقيق لهذه المرحلة التي يتراوح عمر الجنين فيها ما بين بداية الأسبوع الأول وحتى نهاية الأسبوع الثالث.

ج- مرحلة المضغة: في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ حيث إن الجنين في هذه المرحلة يشبه المضغة إذ بعد يومين أو ثلاثة أيام من المرحلة السابقة (العلقه) تظهر فيه انتفاخات وتجاويف غير منتظمة وتشكل بدايات الكتل البدنية وبراعم أعضائه الداخلية. ولا يمكن أن يوصف الشكل الخارجي إلا بالمضغة التي تعني اللقمة المضوغة وعليها آثار الأسنان. ويبلغ طول الجنين في هذه المرحلة ما بين (٣-٥ سم) وذلك في الأسبوع الرابع من عمره وتنتهي هذه المرحلة قبيل نهاية الأسبوع السادس حيث تبدأ المرحلة التالية وهي مرحلة العظام.

د- مرحلة العظام: في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا ﴾ أي: إنَّ العظام تخلق بعد هذه المرحلة فتختفي الانتفاخات وتتحول إلى أعضاء جسمية كالأطراف العليا والسفلى والعمود الفقري وغيرها حيث يتخلق هيكله العظمي الفضروفي بداية الأسبوع السابع.

هـ- مرحلة الإكساء باللحم: في قوله تعالى: ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ﴾ حيث إن كلمة اللحم معناها العضلات التي تبدأ مباشرة بعد المرحلة السابقة في إكسائها للعظام وفي ذلك إعجاز قرآني آخر في أن خلق العظام يكون قبل خلق العضلات كما قرره علم الأجنة.

وبعد إكساء العظام باللحم تنتهي مرحلة التخليق وذلك في نهاية الأسبوع السابع من تلقيح البويضة وطوله (١١ سم) وقد اكتمل الجنين خلقه، وتكوَّنت وخُلِقَت جميع أعضائه.

مرحلة النشأة: وهي مرحلة النمو (المرحلة الحميلية) وتستغرق عدة أشهر، وإن ما يحدث بعد اليوم الثاني والأربعين من عمر الجنين هو تصوير وتعديل ونمو مطرد وسريع وتنسيق لأجهزة الجسم بصورة أكمل فيتغير الخلق خلقاً بعد خلق بتنسيق خالق مصور قدير، وهذا هو دور النشأة الذي يأتي بعد دور إكساء العظام باللحم (العضلات) التي يُعدُّ الحد الفاصل بين المرحلة الجنينية والحميلية! يقول تعالى: ﴿ تَرَوْا أَنشَانَهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾. وتستغرق هذه المرحلة عدة أشهر من نهاية الأسبوع

الثامن حيث ينمو الجنين (الحميل) ببطء إلى الأسبوع الثاني عشر ثم ينمو بسرعة كبيرة حتى نهاية الحمل وحصول الولادة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلَّذَّالِكِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١٧- والله لقد خلقنا فوقكم - أيها العباد - سبع سموات بعضها فوق بعض، ولكل سماء طريق وباب يؤدي إلى السماء التي فوقها، كما ورد في حديث الإسراء والمعراج المتفق عليه. وما كنا غافلين عن حفظ الخلق.

١٨- وأنزلنا من السحاب مطراً بقدر حاجة الخلائق، فأودعناه في سطح الأرض في الأنهار والجداول، وتحت الأرض كالعيون. وإننا على ذهاب هذا الماء لقادرون، فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم.

١٩- فأخرجنا لكم بهذا الماء حدائق ذات أشجار من نخيل وأعناب، وأصنافٍ من الفواكه الكثيرة التي منها تأكلون، وتتذوقون.

٢٠- وأخرجنا لكم بهذا الماء شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل «طور سيناء»، يُعصر منها الزيت ليدهن به، ويُنتفع به إداماً للأكليين، فهي شجرة مباركة كما صحَّ عن النبي ﷺ «كلوا الزيت، وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة». (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٣٩٧) وأخرجه الضياء (المختارة ١/ ١٧٢ برقم ٨٣٩٨) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة برقم ٣٧٩).

٢١- وإن لكم - أيها العباد - في الأنعام من الإبل والبقر والغنم والمعز لموعظة تعتبرون بها؛ لمعرفة القدرة الإلهية والرحمة الربانية، نسقيكم ممَّا في بطونها لبناً طيباً، ولكم فيها منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها من الأثاث والفرش، ومنافع من لحومها للأكل الطيب الحلال.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ينظر: مخطط رحلة الإسراء والمعراج في الملحق.
- ٢- بيان آية كونية عظيمة، يُستنبط منها معرفة المداخل والمخارج في السموات السبع.

- ٣- الإشارة إلى نعمة المياه الجوفية المخزونة.
- ٤- الإشارة إلى فوائد الأنعام التي مُجِّعَ فيها الشراب والطعام والأثاث.
- ٥- في الآية (١٧) إخبار مستقبلي عن إحاطة الله تعالى بخلقه، وما يعملون في الدنيا.
- ٦- عظيم نِعَمِ الله على الإنسان، فمن ماء ينزل من السماء إلى نبات ينمو في الأرض.
- ٧- الإشارة إلى نِعَمِ زيت الزيتون. قال الدكتور محمد جميل الحَبَّال: « عقد في روما مؤتمر عالمي لأول مرة في تأريخ الطب تحت شعار (زيت الزيتون وغذاء البحر المتوسط) بتاريخ ٢١-٤-١٩٩٧م ضم أشهر الأطباء الذين استعرضوا أحدث الأبحاث العلمية في فوائد زيت الزيتون خاصة في بلدان حوض البحر المتوسط، وأكدوا في توصياتهم ما يلي:
- أ- إنَّ زيت الزيتون يسهم في الوقاية من أمراض الشرايين القلبية والدماغية وارتفاع ضغط الدم وداء السكر والبدانة وكذلك من الإصابة ببعض السرطانات وذلك من خلال غناه بالأحماض الدهنية غير المشبعة والوحيدة (Monoployunsaturated Fatty Acids) ومضادات الأكسدة (Antioxidants). وهذه المركبات تعمل على التقليل من الدهون غير الحميدة كالكولستيرول الضار (LDL) وزيادة الدهون الحميدة كالكولستيرول النافع (HDL) وبالتالي تمنع حدوث تصلب الشرايين (Atherosclerosis).
- ب- يوفر وقاية جيدة من تصلب الشرايين للأسباب المذكورة أعلاه.
- ج- إن زيت الزيتون مادة مغذية ذات تأثير ملين (مضاد للإمساك) ويمكن استعماله كذلك كحقنة شرجية لمعالجة الإمساك الناتج عن الكتل البرازية أو انفتال الأمعاء. وكذلك يقي من الإصابة بتقرحات المعدة والاثني عشر عن طريق حمايته للغشاء المخاطي لهما، ويقضي على الجرثومة المسببة لهذه التقرحات (هايلوباكتريا بايلوري) (H.pylori) والتي لها علاقة أيضاً بالإصابة بسرطان المعدة.
- د- يزيد من نشاط وظائف الكبد ويساعد على قدرته في إزالة السُّمِّية (Detoxification) ويمنع تشحم خلاياه لذلك ينفع في علاج الكبد الدهني (Fatty Liver). ويعتبر زيت الزيتون مفرغاً ومنشطاً لصفراء الكبد الذي يخزن في كيس المرارة، وينفع المصابين بالرمال الصفراوية المرارية، ويمنع تكوينها وكذلك يفيد في إفراغ الرمال البولية ويمنع تكوينها أيضاً بنفس الطريقة.
- هـ- يحافظ على الخلية العادية ويمنعها من التحول إلى سرطانية! فقد أُكِّدَت العديد من الدراسات أنَّه يقي من سرطان الجلد والقولون والمعدة والرحم والمبيض وكذلك سرطان الثدي حيث وجد أن

النساء اللواتي يتناولونه يومياً تقل عندهن الإصابة بسرطان الثدي بنسبة ٤٥٪ مقارنة باللواتي لا يتناولنه بانتظام!

و- يُعدّ علاجاً مناسباً لالتهاب المفاصل الروماتزمي والعظمي والالتواءات والتورمات الجلدية والتشنجات العضلية عن طريق استعماله كدهان موضعي كما يستخدم من قبل الرياضيين لتلين العضلات والمفاصل.

ز- يحافظ على ليونة الجلد ويمنع سقوط الشعر، وهو علاج فعّال لقشرة الرأس، ويقتل القمل فيه إذا وضع على فروة الرأس عدّة ساعات وله تأثير عجيب في البشرة وصحة الجلد بشكل عام.

٨- قال ابن عاشور: «التعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كوّنَتْ بها تلك الشجرة في أول تكوينها، حتى كأن السامع يبصرها خارجة بالنبات في طور سيناء». (التحرير والتنوير: ٣١/١٨).

٩- في الآية (٢١) إخبار مستقبلي في الاعتبار بالأنعام، وما فيها من الرزق والمنافع.

١٠- ينظر: صورة جبل الطور، كما في الملحق.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَجَّئَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

٢٢- وعلى الإبل تركبون في البرّ، وعلى السفن تركبون أنتم ومتاعكم في البحر.

٢٣- قسماً لقد بعثنا نوحاً عليه السلام إلى قومه يدعُوهم إلى عبادة الله تعالى، فناداهم متقرباً إليهم بالنسب:

يا قوم اعبدوا الله وحده دون سواه، لا معبود لكم غيره سبحانه، أفلا تخافون عذابه؟

٢٤- فقال الجهلة من أشراف قومه تكبراً: ليس نوح إلا بشراً ماثلاً لكم، يريد أن تكون له السيادة والنبوة. ولو شاء الله إرسال رسول هداية البشر لأرسل ملائكة، ما سمعنا بهذا الذي دعا إليه نوح من التوحيد في الأمم الماضية.

٢٥- وما نوح إلا رجل مجنون، فانتظروا حتى يُفَيِّقَ من جنونه أو يموت.

٢٦- فتضرع نوح عليه السلام إلى ربه يطلب العون والنصر على قومه المكذبين له.

٢٧- فاستجاب الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام وأمره: أن اصنع السفينة بحفظنا ومَرَأَى مِنَّا، وتعليمنا لك.

حتى إذا جاء أمرنا بإهلاكهم، وفارت عيون الماء من وجه الأرض ومن التنور الذي يُجْبِزُ فيه - وهو إشارة لنزول العذاب - قلنا: احمل في السفينة من كل أنواع الحيوانات ذكراً وأنثى، واحمل فيها أهل بيتك، إلا من حكم الله بإهلاكه، ولا تشفع في الذين كفروا؛ إنهم هالكون بالفرق.

٢٨-٢٩- فإذا ركبت واستقررت أنت ومن معك على السفينة، فقل: الحمد لله الذي أنقذنا من القوم

الكافرين، وقل: يا رب أنزلي منزلاً من الأرض مباركاً، وأنت خير من أنزل عباده المنازل المباركة، وقد

استجاب الله تعالى له كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ

سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ مِثْلَهُمْ ثُمَّ لِيَوْمِ عَدَابِ آلِ إِمْرٍ﴾ [هود: ٤٨].

٣٠- إن في ذلك الأمر العظيم في شأن نوح الكريم وقومه اللئام، لعبراً ومواعظ للعباد، وإننا كنا حقاً

مختبرين عبادنا بالآيات التي جاء بها المرسلون.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «لما كان السماع المنفي ليس سماعاً بأذانهم لكلام في زمن آباءهم، بل المراد ما بلغ

إلينا وقوع مثل هذا في زمن آباءنا، عُذِّي فعل ﴿سَمِعْنَا﴾ في الآية (٢٤) بالباء؛ لتضمينه معنى الاتصال».

(التحرير والتنوير: ٣٦/١٨).

٢- دعوة أول الرسل نوح - كدعوة آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم - دعوة إلى توحيد الله.

٣- زعم قوم نوح أن نوحاً لا يصلح للرسالة لأنه بشر، كما ادعى ذلك العرب في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

٤- على الدعاة إلى الله أتباع الأنبياء أن يتحجبوا إلى قومهم حال دعوتهم إلى الله، كما فعل نوح عليه السلام.

٥- يلجأ المكذَّبون للرسول عليهم السلام إلى اتهامهم بتهمة متعددة، تهرباً من مواجهتهم، ومحاولة

لصرف الناس عن أتباعهم.

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنِ اطَّعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَتَّيَاتٍ هَتَّيَاتٍ لِّمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً فَبُعَدًا لِلْقُورِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴿

التفسير:

٣١-٣٢- ثم أوجدنا عاداً قوم هود من بعد إهلاك قوم نوح، فأرسلنا فيهم رسولا من جنسهم، وهو هود عليه السلام، أن اعبدوا الله وحده دون سواه، لا معبود لكم غيره سبحانه، أفلا تخافون عذابه؟!

٣٣-٣٤- وقال الجهلة من أشراف قومه الكفار المكذبين بالبعث المترفين: ليس هود إلا بشراً مماثلاً لكم يأكل الطعام كما تأكلون، ويشرب كما تشربون. وقسماً إن اتبعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون بتركيكم أهلكم.

٣٥-٣٨- ثم أنكروا البعث بعدة أساليب في الآيات الأربع التالية: أيعيدكم هود أنكم تبعثون من قبوركم بعد أن تموتوا وتصيروا تراباً وعظاماً مفتتة؟ بعداً بعداً لما توعدون من البعث من القبور. لا حياة نُقِرُّ بها إلا الحياة الدنيا التي نعيشها، يموت بعضنا، ويولد بعضنا، ولسنا نحن بمبعوثين بعد الموت، ما هو إلا رجل اختلق على الله كذباً، ولن نُصدِّقه أبداً.

٣٩-٤٢- فتضرع هود عليه السلام إلى ربه يطلب العون والنصر على قومه، فاستجاب الله تعالى له مؤكداً ومبشراً: قسماً سيصيرون نادمين على كفرهم بعد زمن قليل، ففاجأتهم صيحة العذاب الشديدة التي زلزلتهم، فدمرناهم، وجعلناهم كغثاء السيل الذي يطفو على الماء، فبعداً من الرحمة، ودماراً للقوم المعتدين على المرسلين، ثم أنشأنا من بعد هؤلاء أمماً آخرين، كقوم لوط وشعيب وغيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «عُدِّي فِعْلٌ ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ (في) دون (إلى)؛ لإفادة أن الرسول كان منهم، ونشأ فيهم؛ لأنَّ القرن لما لم يُعَيَّنْ باسم حتى يعرف أن رسوله منهم أو وارداً إليهم، مثل لوط لأهل (سدوم)،

- ويونس لأهل (نينوى)، وموسى للقبظ. وكان التنبيه على أن رسولهم منهم مقصوداً؛ إتماماً للمماثلة بين حالهم وحال الذين أرسل إليهم محمد ﷺ. (التحرير والتنوير: ٤١/١٨).
- ٢- دعوة الأنبياء واحدة، وهي توحيد الله تعالى وإفراجه بالعبادة.
- ٣- موقف الملأ من دعوات الأنبياء متشابه في القبح والتكذيب.
- ٤- الترف والانغماس في شهوات الدنيا مفسدان للفطرة، ومُبْعَدَانِ عَنِ الْحَقِّ.
- ٥- استجابة الله تعالى دعاء المظلومين من عباده، ولاسيما إن كانوا صالحين.

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَاكُلًا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

- ٤٣- لكل أمة ظالمية زمنها الذي قرره الله تعالى لدمارها، لا تتقدم عنه، ولا تتأخر.
- ٤٤- ثم أرسلنا رسولنا إلى أممهم متتابعين، كلنا دعا رسول قومه كذبوه، فأهلكناهم متتابعين، وجعلناهم أخباراً تُروى، ويُتَعَطَّ بها، فَبُعْدًا عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ، ودماراً لقوم لا يُصَدِّقُونَ بدعوة رسلهم.
- ٤٥-٤٦- ثم أرسلنا موسى وهارون بآياتنا التسع، وحيجة واضحة إلى فرعون وأعدائه المترفين، فاستكبروا عن التصديق بموسى وهارون، وكانوا قوماً جبارين يبطشون بالعباد.
- ٤٧-٤٨- فأنكر فرعون وأزلامه: أَنْصَدِّقُ بِرَجُلَيْنِ مِثْلِنَا، وقومها من بني إسرائيل لنا مطيعون طاعة العبيد؟! فَكَذَّبُوا مُوسَى وَهَارُونَ، فكانوا بسبب ذلك من المُهْلَكِينَ بالفرق في البحر.
- ٤٩- قسماً لقد أعطينا موسى التوراة هدايةً إلى بني إسرائيل.
- ٥٠- وَجَعَلْنَا قِصَّةَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ مَعْجِزَةً عَظِيمَةً، وَأَسْكَنَّاها بِمَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ أَرْضِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فيها أسباب الاستقرار من جريان المياه، وألوان الثمار.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - كثرة الرسل على مدار التاريخ، فما من أمة إلا خلا فيها نذير.
- ٢ - تشابه حال الرسل مع أقوامهم، فكل يبلغ دعوة الله، فيكون التكذيب والعذاب.
- ٣ - هلاك كل أمة أجل محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يعلم وقته إلا الله تعالى.
- ٤ - الكبر والغرور من صفات الإنسان المذمومة التي تؤذي به إلى الكفر.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرَاتِينَ رَبَّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكْفُرْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطَلِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير:

٥١-٥٢-٥٣ - وقلنا: يا أيها الرسل، كلوا من أنواع الطعام الحلال الطيب، واشكروا الله بالأعمال الصالحة، إنني بكل ما تعملون من خير عليم، وإن هذه ملة الإسلام ملتكم واحدة يا معشر الأنبياء، وأنا ربكم، فاتقوني بطاعة أمري.

٥٤-٥٣ - فتفرقت الأمم في أمر دينهم فرقا عديدة، فترك - أيها الرسول - هؤلاء المشركين في ضلالهم حتى يأتي زمن العذاب أو الموت.

٥٥-٥٦ - أيعتقد هؤلاء المشركون أن ما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والأبناء هو زيادة في الخير؟ بل هو استدراج لهم؛ لتراكم ذنوبهم، فيتضاعف عذابهم، ولكنهم لا يحسبون بذلك.

٥٧-٥٨ - يُثني الله تعالى على المؤمنين الذين يسارعون في فعل الخير، ويبيّن أوصافهم: إن الذين هم من خشية ربهم جادون في طلب مرضاته، والذين هم بآيات ربهم المنزلة في القرآن والآيات الكونية المشاهدة يُصدّقون.

٥٩-٦٢ - والذين هم مُخلصون العبادة لله وحده، لا يشركون به غيره، والذين يعطون زكاة أموالهم، ويقيمون الصلاة وهم يخافون ألا تقبل منهم، إذا بُعثوا يوم القيامة إلى الله للحساب. أولئك أصحاب

الدرجات العالية، يبادرون في الأعمال الصالحة، وهم يَسْبِقُونَ غيرهم إلى تلك الأعمال التي في مقدورهم، لأننا لا نُكَلِّفُ نفساً إلا بمقدار طاقتها، وعندنا صحائف أعمال العباد يَظْهَرُ فيها الحق المطابق لما قَدَّموه من خير أو شرٍّ، وهم لا يُظَلِّمون بتَقْصِيرِ ثوابٍ، أو بعقاب دون أسباب.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا، يا بنت أبي بكر (أو: يا بنت الصديق) ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو يخاف ألا يتقبل منه». (أخرجه ابن ماجه في السنن ٢/١٤٠٤ - كتاب الزهد - باب التوقي على العمل برقم ٤١٩٨، والترمذي (الجامع الصحيح - التفسير - سورة المؤمنون برقم ٣١٧٥). وأخرجه أحمد (المسند ٦/١٥٩). والحاكم (المستدرک ٢/٣٩٣ - ٣٩٤). وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/٤٠٩).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الرُّسُلُ جميعاً وأتباعهم على طريقتهم يُؤَلِّفُونَ أُمَّةً واحدةً يعبدون الله وحده.
- ٢ - وجوب تحريم الحلال في المطعم والمشرب وسائر الأمور.
- ٣ - سَعَةُ الرِّزْقِ، وكثرة المال، ليست دليلاً على محبة الله ورضاه، إنَّها هي استدراج وابتلاء.
- ٤ - لا يُكَلِّفُ اللهُ العبادَ فوق ما يطيقون.
- ٥ - شُمُولُ عِلْمِ اللهِ تعالى لكلِّ صغير وكبير في هذا الكون، ومنها أعمال العباد، فهي مُدَوَّنة ومحفوظة.
- ٦ - في الآيتين (٥٥-٥٦) إخبار مستقبليٍّ عن خطأ مايعتقده الكفار من أنَّ ما يُمَدُّهم اللهُ به من أموال وأولاد في الدنيا هو تعجيل خير لهم يستحقُّونه، وأنَّ الصحيح في سبب تعجيل الخير لهم إنَّها هو فتنة لهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَقٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ فَكَانَتْ ءَايَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

التفسير:

٦٣-٦٥ - يُهَدِّدُ اللهُ الْكُفَّارَ بِسَبِّ سَوْءِ أَعْمَالِهِمْ: إن قلوب الكفار في غفلة وعمى عن هذا القرآن العظيم، ولهم أعمال سيئة - إضافة إلى ما هم عليه من الكفر - هم عاملون بها، سيُعدَّبون عليها. حتى إذا أخذنا المترفين منهم بعذاب الآخرة إذا هم يصيحون للاستغاثة من أهوال النار، فيقال لهم: لا تستغيثوا؛ لأنكم من عذابنا لا تُنقذون، ولا أحد يقدر على أن يُخلِّصكم منه. وَضُمِّنَ ﴿تُنصَرُونَ﴾ معنى النجاة فعُدِّي الفعل بـ(من)، أي: لا تنجون من عذابنا.

٦٦-٦٧ - لا عذر لكم؛ قد كانت آيات القرآن تُقرأ عليكم لتؤمنوا بها، فكنتم تَرْتَدُّون على أذباركم من سماعها، مستكبرين على المؤمنين بأنكم أهل بيت الله الحرام وخُدامه، وتسامرون بينكم ليلاً بساقط القول في الطعن بالقرآن العظيم.

٦٨-٧٠ - يُنَكِّرُ اللهُ تَعَالَى أفعال هؤلاء المشركين مُؤَبِّخاً لهم بعدة أساليب: أفلم يتدبَّروا هذا القرآن؛ ليعرفوا ما فيه فيصدِّقوا به؟ أم جاءهم ما لا عهد به لآبائهم الأقدمين، من الرسول والقرآن؟ أم لم يعرفوا صفات رسولهم فهم له منكرون؟ أم يقولون: إنَّ مُحَمَّدًا مجنون؟ والحقيقة ليس الأمر كما زعموا، بل جاءهم مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ الذي أوحاه الله تعالى إليه، وأكثرهم لهذا الحق كارهون؛ لِأَنَّهُ يُخَالِفُ شَهَوَاتِهِمْ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - شمول علم الله تعالى لكلِّ صغير وكبير في هذا الكون، ومنها أعمال العباد فهي مدوَّنة ومحفوظة.
- ٢ - كراهة التنعم الزائد، والترقُّه في أمور الدنيا.
- ٣ - كراهة قضاء وقت الليل بحديث اللهو والتسلية والفحش من القول، بدل الانتفاع من الوقت وقضائه في طاعة الله.

﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُودِ فِي طَغْيِنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٧١- ولو جرت سنة الله تعالى على مسابرة ما يقترحه الكفار، لفسدت السموات السبع والأرض ومن فيهن، ولكن أعطيناهم القرآن العظيم الذي فيه مجدهم وعزهم، فهم عنه معرضون مهملون له.
٧٢-٧٤- أم تسألهم أجراً على أداء رسالتك، فبخلوا فلم يؤمنوا؟ فعطاء الله الكريم خير لك أيها الرسول. وهو سبحانه أفضل من أعطى، وأكرم من رزق، وإنك - أيها الرسول - لتدعو قومك إلى دين الإسلام، وإن الذين لا يصدقون بيوم القيامة عن الطريق المستقيم لمنحرفون.
٧٥- ولو رحمنا هؤلاء المشركين، ورَفَعْنَا عنهم ما أصابهم من المصائب، لتبادوا تمادياً عظيماً في ضلالهم وهم يتخبطون فيه.

٧٦-٧٧- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء أبو سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أتشدك الله والرحم، فقد أكلنا العليز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴾. (أخرجه ابن حبان في الإحسان ٣/٢٤٧ برقم ٩٦٧، وأخرجه الحاكم في (المستدرک ٢/٣٩٤ - كتاب التفسير). وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر (الفتح ٦/٥١٠).

التفسير:

وقسماً لقد عذبناهم بالجوع والقتل يوم بدر، فما خضعوا لله ربهم وما دعوه سبحانه، حتى إذا جاءتهم أهوال عذاب الآخرة إذا هم متحيرون، يائسون من كل خير.
الفوائد والاستنباطات:

- ١- خطر اتباع الهوى، وأنه يُفْضِي إلى الهلاك والخسران.
- ٢- على الداعي أن يترفع عما في أيدي الناس، ويزهد فيه.
- ٣- العناد والمكابرة، ورفض الحق، والإصرار على الباطل، من صفات الكافرين.

٤- في الآيتين (٧٤-٧٥) إخبار مستقبلي عن حال مَنْ لا يُصَدِّق بالبعث والحساب بأنه سينحرف عن الحق. وفيها إخبار مستقبلي آخر عن تمادي الكفار في الجحود، إذا كشف الله تعالى عنهم الابتلاء.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٨-٨٠- والله سبحانه هو الذي خلق لكم السمع لتسمعوا، والأبصار لتشاهدوا الآيات الكونية، والعقول لتفقهوا بها، ولكنَّ شكركم لله قليل تجاه هذه النعم العظيمة، وهو الذي خلقكم، وبثَّكم في الأرض بطريق النسل، ثمَّ إليه سبحانه تُجْمَعُونَ بعد موتكم للحساب، وهو وحده المتصرِّف في الحياة والموت، وله سبحانه تعاقب الليل والنهار، أفلا تعقلون أتباع الحق؟

٨١-٨٣- إنهم لا يعقلون أتباع الحق، بل قالوا مثل ما قال مُنكرو البعث السابقون لهم، إذ قالوا: إذا متنا وصِرنا تراباً وعظاماً بالية نحيا تارة أخرى؟! قسماً ما زلنا نُوعَدُ نحن وآباؤنا من قبلُ بأنَّ البعث كائن، ما هذا إلا أكاذيب الأقدمين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب شكر الله تعالى على نعمه، ومنها: السَّمْع، والبصر، والفؤاد.
- ٢- كثرة الأدلَّة على عظمة الله وقدرته، ومنها: الإحياء والإماتة، واختلاف الليل والنهار.
- ٣- دَمُّ المسارعة إلى إلقاء التُّهمة على الآخرين فيما لا يستوعبه الإنسان.

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾
 قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾
 قُلْ مَنْ يَدِينُهُ، مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ
 لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ
 مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمٌ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير:

٨٤-٨٥- قل لهم أيها الرسول: لِمَنْ مُلْكُ هذه الأرض وَمَنْ فِيهَا؟ إن كان لديكم عِلْمٌ فأخبروني،
 سيُجيبون معترفين: أيها الله. قل لهم: أفلا تعتبرون؟

٨٦-٨٩- قل لهم: مَنْ خالق السموات السبع، ورب العرش الذي هو أعظم المخلوقات؟ سيقولون
 مُقَرَّرِينَ: إنه الله. قل لهم: أفلا تخافون عذابه إذا عبدتم غيره؟ مَنْ بيده مُلْكُ كل شيء؟ وهو سبحانه يحمي
 مَنْ استجار به، ولا يقدر أحد أن يحمي مَنْ أراد الله عذابه، إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك، سيقولون
 معترفين: إنَّ الله المالك لكل شيء، المجير سبحانه مِنْ استجار به. قل لهم: فأين ذهبت عقولكم، إذ عبدتم
 مَنْ عَلِمْتُمْ عجزهم، وأنهم لا ملك لهم؟

٩٠-٩٢- ليس الأمر كما يزعمون من إنكار البعث، والقول على الله بغير علم، بل أتيناهم بالحق
 المتضمَّن للصدق في الأخبار. وإنَّهم لكاذبون في إنكارهم البعث وفي شركهم، ما اتَّخَذَ الله ولداً مطلقاً
 لا من الملائكة ولا من البشر، وليس معه مَنْ يشاركه في العبودية، ولو كان معه آلهة لانفرد كل إله بما خلق،
 وغلب القويُّ الضعيفَ. تَنَزَّهَ الله وَتَقَدَّسَ عَمَّا يكذبون، هو وحده عالم بكل ما غاب عن خلقه وما
 يشاهدونه، فتعاضم الله وَتَنَزَّهَ عن الشريك والولد.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات طريقة في الترقى والتدرج، فابتدئ بالسؤال عن مالك الأرض وَمَنْ فِيهَا؛ لأنَّها أقرب
 العوالم لإدراك المخاطبين، ثم ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السموات والعرش، ثم ارتقى إلى ما هو أعمُّ
 وأشمل، وهو تَصَرُّفه المطلق في الأشياء كلها.

٢- توحيد الربوبية يلزم بتوحيد الألوهية، فالخالق الرزاق هو المستحق للعبادة.

٣- استخدام أسلوب السؤال للخصم؛ لإلزامه الحجَّة من خلال إجابته.

٤ - جواز توبيخ المتغافل والمتجاهل عن الحق بما يردعه ويزجره.

٥ - استقرار نظام الكون دليل على أن له إلهاً واحداً، فلو كان فيه أكثر من إله لفسد الكون.

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُنَلِّئُ عَلَيْنَا فَنَقِمْ بِهَا نَكَدِيؤُكُ ﴿٢٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

٩٣-٩٥- قل أيها الرسول: يا رب إن أردت أن تُرِيدني قبل موتي ما تُعِدُّهم من العذاب في الدنيا، ربِّ فلا تُهْلِكْني مع القوم المشركين. وإنَّا لقادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به.

٩٦- استمِرَّ في دعوتك، وقابل إساءة الكفار بالصفح والعفو، نحن أعلم بما يصِفُونك به.

٩٧-٩٨- وقل: يا ربِّ أعتصم بقوَّتكَ من وساوس الشياطين وإغوائهم، وأستجير بك أن يكونوا

معى في أي عمل من الأعمال.

٩٩-١٠١- سيستمرُّ المشركون على ضلالهم، حتى إذا رأى أحدهم علامات الموت قد أدركته نِدْمٌ ودعا الله أن يُرْجِعَهُ إلى الحياة الدنيا؛ لكي يعمل عملاً صالحاً. ثم يأتيه الجواب بالزَّجْرِ: كلاً لا يكون شيء من ذلك، فإنَّ هذه الكلمة التي فيها الندم المتأخِّر لا تنفع، وبينهم حاجز مانع من العودة إلى الدنيا، ويبقى إلى يوم البعث، ثمَّ الحساب. فإذا نفخ المَلَكُ المُكَلَّفُ بالقرن الذي يُنفخ فيه النفخة الثانية لقيام الساعة فلا تَنفَعُهُمُ قَرَابَةُ النَّسَبِ، ولا يسأل بعضهم بعضاً لانشغاله بهموم نفسه.

١٠٢-١٠٤ - فَمَنْ رَجَعَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، هُمُ الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ. وَمَنْ زَادَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَيَّعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالضَّلَالِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، مَا كَثُرَتْ فِيهَا أَبَدًا، تَحْرَقُ النَّارُ وَجُوهَهُمْ، وَهَمَّ فِيهَا عَابِسُونَ مُشَوَّهٌ وَجُوهًا.

قال الشيخ الشنقيطي: «ما ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أَنَّ الْكُفَّارَ تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ، أَي: تَحْرَقُهَا إِحْرَاقًا شَدِيدًا، جَاءَ مُوَضَّحًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الاحزاب: ٦٦] الآية، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].»

١٠٥ - وَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا وَإِنْكَارًا عَلَيْهِمْ: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَكُنْتُمْ بِهَا لَا تُصَدِّقُونَ؟

١٠٦-١٠٧ - قَالُوا وَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مُعْتَرِفُونَ: يَا رَبَّنَا كَثُرَتْ مَعَاصِينَا بِسَبَبِ أَهْوَانِنَا، وَكُنَّا فِي ذَلِكَ ضَالِّينَ عَنِ الْهُدَى، يَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ إِلَى الدُّنْيَا، فَإِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْكُفْرِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ لَأَنْفُسِنَا.
الفوائد والاستنباطات:

١ - العَدُوُّ الشَّيْطَانِيُّ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ الْإِحْسَانُ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ إِلَّا الْإِحْتِمَاءُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ.
٢ - مِنْ سِمَاتِ التَّرْبِيَةِ الْقُرْآنِيَةِ الْعِنَايَةُ بِهَدَايَةِ الْمُؤْمِنِ عِبْرَ مَرَاكِلِهِ كُلِّهَا وَالْإِهْتِمَامُ بِصِحَّةِ مَسْلُكِهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، وَمِنْ دَلَالَاتِ الْإِسْتِعَاذَةِ التَّرْبُويَّةِ حِمَايَةَ الْمُؤْمِنِ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ مَحْتَاجٌ إِلَى الْإِعْتِمَادِ بِالرَّبِّ سُبْحَانَهُ، الْحَافِظِ لَهُ مِنْ إِغْوَاءَاتِ الشَّيْطَانِ وَتَرْغَاتِهِ فِي الْبِدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ، فَهُوَ مَحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِإِعْيَاضِهِ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْعَمَلِ، وَمَحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِإِعْيَاضِهِ فِي أَثْنَاءِ قِيَامِهِ بِهِ، وَمَحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِإِعْيَاضِهِ عَلَيْهِ وَيَحْتَمُّ لَهُ بِهِ.

٣ - تَمَنَّى الْإِنْسَانُ الْعُودَةَ إِلَى الدُّنْيَا عِنْدَ الْمَوْتِ؛ لِتِدَارِكِ مَا فَاتَهُ.
٤ - فِي الْآيَتَيْنِ (٩٩-١٠٠) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ حَالِ الْمُشْرِكِ الَّذِي ظَلَّ عَلَى شِرْكِهِ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ، وَشَاهَدَ مَا أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: رَبِّ رُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا لَعَلِّي أَسْتَدْرِكُ مَا صَيَّعْتُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ.

٥ - اعْتِرَافُ أَهْلِ النَّارِ بِتَقْصِيرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا.

﴿ قَالَ أَخْسَتْوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ لَكُمْ لَيْسَتُمْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا
لَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ ءِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

التفسير:

١٠٨ - فجاءهم الجواب حافلاً بالزجر والتحقير: اسكتوا أذلاء مُهانين، ولا مخاطبوني أبداً.

١٠٩ - ١١١ - إنه كان جماعة من عبادي المؤمنين يقولون: يا ربنا صدقنا بك وبرسلك، فاغفر لنا ذنوبنا، وارحمنا فلا تعدبنا، وأنت أرحم الراحمين. فكنتم تَسْخَرُونَ منهم دائماً حتى أنساكم الانشغال بالسخرية عن طاعتي وعبادتي، وكنتم منهم تضحكون استهزاءً. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا عَلَىٰ أَذَاكُم أَحْسَنَ الْجَزَاءِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ. قال الشيخ الشنقيطي: «قد تقرر في الأصول في مسلك الإيلاء والتنبيه، أن (إن) المكسورة المشددة من حروف التعليل كقولك: عاقبته إنه مسيء، أي: لأجل إساءته. وقوله في هذه الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ الآيتين، يدل فيه لفظ «إن» المكسورة المشددة على أن من الأسباب التي أدخلتهم النار هو استهزاؤهم، وسخريتهم من هذا الفريق المؤمن الذي يقول: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فالكفار يَسْخَرُونَ من ضعفاء المؤمنين في الدنيا، حتى يُنْسِيَهُمْ ذلك ذِكرَ الله، والإيمان به فيدخلون بذلك النار».

١١٢ - ١١٤ - يخاطبهم الله تعالى على وجه اللوم: كم مكثتم في الحياة الدنيا؟ فأجابوا بذهول: مكثنا يوماً أو أقل، فاسأل الذين يَحْسِبُونَ الأيام، قال: ما لبثتم في الأرض إلا زمناً قليلاً، لو كنتم تعلمون ذلك لَعَرَفْتُمْ حَقَارَةَ الدُّنْيَا.

١١٥ - ١١٦ - أفظنتم - أيها العباد - أننا خَلَقْنَاكُمْ سُدًى وباطلاً بلا ثواب ولا عقاب، وأنه لا رجوع لكم إلينا للحساب؟ ليس الأمر كما ظننتم، فتنزه الله المَلِكُ الحق عن أن يخلق الخَلْقَ سُدًى وهَملاً، لا رَبَّ سِوَاهُ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ.

١١٧- وَمَنْ يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا حُجَّةَ لَهُ بِذَلِكَ - إِذْ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ - فَإِنَّا عِقَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّهُ لَا يَفُوزُ الْجَاهِدُونَ.

١١٨- وَقُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، فَإِنَّ رَحْمَتَكَ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.
الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «في حذف متعلق ﴿اغْفِرْ وَأَرْحَمَ﴾ تفويض الأمر إلى الله في تعيين المغفور لهم والمرحومين، والمراد مَنْ كانوا من المؤمنين ويجوز أن يكون المعنى: اغفر لي وارحمني، بقريئة المقام. وأمره بأن يدعو بذلك يتضمن وعداً بالإجابة. وهذا الكلام مُؤذِنٌ بانتهاء السورة، فهو من براءة المقطع».
(التحرير والتنوير: ١١١/١٨).

٢- حرمة السخرية من المسلم، والاستهزاء به.

٣- لا حُجَّةَ للمشرك على شركه؛ ولذا فهو مستحقٌّ للعذاب.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - بيان الآداب الاجتماعية السامية لدى المسلمين.
- ٢ - كمال التدابير الوقائية من الوقوع في الفاحشة.
- ٣ - براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
- ٤ - تعظيم نبينا رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عِدَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

سبب النزول:

نزلت الآيات العشرة الأولى من هذه السورة في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مما قيل فيها من القول الكبار الذي افتراه رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

(ينظر: صحيح البخاري، التفسير، برقم ٤٧٥٠. وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، برقم ٢٧٧٠).

التفسير:

- ١ - هذه سورة عظيمة الشأن أنزلناها - بما لنا من العظمة - على رسولنا محمد ﷺ، وأوجبنا أحكامها، وأنزلنا فيها آيات واضحة في حدودها ومواعظها وأحكامها؛ لتعظوا بها، وتستنيروا بنورها.
- ٢ - الزاني والزانية غير المحصنين، فاضربوا كل واحد منهما مئة جلدة بالسوط، وعزبوه عاماً - كما ثبت في السنة المشرفة - عقوبة على هذه الجريمة. ولا تحمّلوا الرافة بهما على تعطيل هذا الحكم الرباني، إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، وليحضر العقوبة طائفة من المؤمنين - واحد فأكثر - زجراً واعتباراً.

عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: اقض بيننا بكتاب الله، وقال الآخر - وهو أفقههما-: أجل يا رسول الله، فأقض بيننا بكتاب الله، وأذن لي أن أتكلم. قال: تكلم، قال: إن ابني كان عسيفاً على هذا - قال مالك: والعسيف الأجير- زنى بامرأته. فأخبروني أن علي ابني الرجم، فافتديت منه بمئتي شاة وجارية لي، ثم إنني سألت أهل العلم فأخبروني أن ما علي ابني جلدٌ مئة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: أما غنمك وجاريتك فردٌ عليك، وجلد ابنه مئة وغرَّبه عاماً، وأمر أنيساً الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها. فاعترفت فرجمها». (صحيح البخاري ١١/٥٣٢ - كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم ٦٦٣٣، ٦٦٣٤. وصحيح مسلم ٣/١٣٢٤-١٣٢٥ برقم ١٦٩٧، ١٦٩٨).

٣- سبب النزول:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأةً بغيً بمكة يُقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجانب الحائط، فلما انتهت إلي عرفتُها، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً هلمَّ فيت عندنا الليلة، قال: قلت: يا عناق حرّم الله الزنى، قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فطلَّ بولهم على رأسي، وأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه كبَّله، فجعلت أحمله ويُعنيني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها». (أخرجه الترمذي في السنن ٥/٣٢٨-٣٢٩ - كتاب التفسير - باب سورة النور - برقم ٣١٧٧). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم ٣٥٣٨. وأخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١٦٦/٢). والخندمة جبل بمكة المكرمة قريب المسجد الحرام).

التفسير:

يُنقَرُ اللهُ سبحانه من خطر الزنى الذي يُدَسُّ عِرْضُ صاحبه، ويُلَوِّثُ جسده، فأخبر أن الزاني لا يمتهاون في نكاحه من النساء إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة لا تعترف بحرمة الزنى، والزانية لا

ينكحها إلا زان، أما العفيف فلا يتقدم إليها، أو ينكحها مشرك لا يعترف بحرمة الزنى. وحُرِّمَ ذلك النكاح على المؤمنين، ما لم يُتَّبِ الزاني والزانية. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». (أخرجه أبو داود، السنن، النكاح باب قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ برقم ٢٠٥٢. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم ١٨٠٧).

٤-٥- والذين يَقْدِفُونَ بِالزَّانِي النُّفُوسَ الْعَافِيَةَ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، ثُمَّ لَمْ يُثْبِتُوا جَرِيمَةَ الزَّانِي بِأَرْبَعَةِ شُهُودٍ عَدُولٍ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً بِالسَّوْطِ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا مَا لَمْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأُولَئِكَ الْبَعِيدُونَ عَنِ الْحَقِّ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ الْقَذْفِ، وَنَدَمُوا وَرَجَعُوا عَنِ التَّهْمَةِ، وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ وَمَا أَفْسَدُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لَذُنُوبِهِمْ، رَحِيمٌ بِهِمْ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان حَدِّ الزانية والزاني الْبِكْرَيْنِ الْحَرِّينِ، وهو مئة جلدة وتغريب عام.
- ٢- بيان حَدِّ الزانية والزاني المحصنين الرجم.
- ٣- تطبيق الحد الشرعي على مستحقيه بما يَرُدُّعه ويزجره دونما تنازل بدعوى الرأفة والرحمة؛ فالله تعالى هو العليم بما يُصْلِحُ عباده.
- ٤- حَدُّ مَنْ ثَبِتَ عَلَيْهِ الْقَذْفُ أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً.
- ٥- التوبة من القذف لا ترفع الجلد، وترفع رَدَّ الشَّهَادَةِ وَالْوَصْفَ بِالْفِسْقِ عَنِ الْقَاضِفِ.
- ٦- تحريم القذف، وهو رمي الإنسان أو سَبُّهُ بما ليس فيه؛ كَمَنْ يَقْذِفُ امْرَأَةً عَفِيفَةً، أَوْ رَجُلًا عَفِيفًا بِالزَّانِي.
- ٧- حماية المرأة من القذف والدفاع عنها بعقوبة القاذف.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

٦-٧- سبب النزول:

عن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا ليلة الجمعة في المسجد. إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم بجلدهم، أو قتل قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ. والله لأسألنَّ عنه رسول الله

ﷺ. فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ فسأله. فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلمم جلدتموه، أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ. فقال: «اللهم! افتح» وجعل يدعو. فنزلت آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ وَلَا يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ هذه الآيات. فابتلي به ذلك الرجل من بين الناس. فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ فتلأعنا. فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فذهبت لتلعن. فقال لها رسول الله ﷺ: «مه» فأبت فلعنت. فلما أدبرا قال: «لعلها أن تحيي به أسود جعداً»، فجاءت به أسود جعداً. (صحيح مسلم ١١٣٣/٢ برقم ١٤٩٥ - كتاب اللعان).

التفسير:

والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بتهمة الزنى، وليس لهم شهود على التهمة إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم لرفع حد القذف عنه أن يحلف بالله أمام القاضي أربع مرات من الأيمان، إنه لمن الصادقين فيما رمى به زوجته من الزنى، ثم يشهد في الشهادة الخامسة أن لعنة الله تحل عليه إن كان من الكاذبين.

٨-٩- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك». فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة أو حد في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يُبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت؟ فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها مُوجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الإليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء»، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن». (صحيح البخاري ٨/٣٠٣-٣٠٤ برقم ٤٧٤٧ - كتاب التفسير، سورة النور الآية نفسها، ومعنى: سابغ: عظيم، ومعنى خدلج: ممتلئ).

التفسير:

وبهذه الشهادات الخمس تستوجب الزوجة عقوبة الزنى وهي: الرجم حتى الموت. ولكن يدفع عنها هذه العقوبة أن تحلف أربع مرات بالله: إن الزوج من الكاذبين فيما رماها به من الزنى، والشهادة الخامسة أن غضب الله يحل عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به من الزنى، ثم يُفَرَّقَ بينهما إلى الأبد.

١٠ - ولولا فَضْلُ اللَّهِ عليكم ورحمته أيها المؤمنون بهذه الأحكام، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ لِمَنْ تَابَ من عباده، حكيم في شرعه، لعاجلكم بالعقوبة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير مشروعية اللعان وكيفيته، وأنه السبيل الأمثل لِمَنْ رَمَى زوجته بالزنى.
- ٢ - إيجاد البديل عن الشهود الأربعة بالشهادات الأربع، إذ من الصعوبة النفسية والواقعية على الزوج أن يأتي بأربعة شهداء يشهدون على زنى زوجته.
- ٣ - قال الشيخ ابن عثيمين: «إِنَّ البَدَلَ يجعل له حكم المبدل منه، فَلَمَّا كانت البيّنة على الزّنى أربعة شهود، وكان الزّوج إذا قذف زوجته بالزّنى يعتبر شاهداً، والتعدد الشخصي في حَقِّه ممتنع، جعل التعدّد في نفس الشهادة، ويكون هذا تقريراً للقاعدة المشهورة والمعروفة: (أَنَّ البَدَلَ له حكم المبدل منه)، فَلَمَّا كانت شهادة الزّوج على زوجته بالزّنى بمنزلة شهادة رجل، صار تكرارها بمنزلة تكرار الرجال وتعدّد الشهود». (تفسير القرآن الكريم ٥/٢٤٧).
- ٤ - إفراد الشهادة الخامسة بالذكر؛ لأهميّتها وحسمها الأمر، ولذا فَإِنَّ القاضي يُشَدّد على الزوج أو الزوجة قبلها، وَيَذَكِّرُهُمَا بأنّها موجبة لِلْعَنَةِ على الزوج إن كان كاذباً، وموجبة لغضب الله على الزوجة إن كانت كاذبة.
- ٥ - تعظيم هذا الأمر، بحيث لا يُكْتَفَى فيه بالشهادة المجرّدة، بل لأبَدٍ من شهادة مقرونة بيمين، فيقول: أشهد بالله.
- ٦ - ثبوتُ الحَدِّ على المرأة بِلِئانِ الزّوج، إلا إذا أَنْكَرَتْ ولاعَنْتْ، يُؤخَذ من قوله: ﴿وَيَذَرُوعَتَهَا الْعَذَابَ﴾، والعذاب هو الحَدُّ.
- ٧ - يؤدي اللّعان إلى التّفريق الأبدي بين الزوجين، إذ لا يُتَوَقَّع رجوع أحدهما إلى الآخر بعد هذا الموقف الدقيق، ولا يُنْسَبُ ولد الملاعنة إلى الزوج.
- ٨ - لا تُجيز الشريعة لِمَنْ وَجَدَ زوجته تزني قَتَلَهَا، بل يُرْفَع الأمرُ إلى القضاء، فإن اعترفت قَتَلَتْ، وإلا لُوَعِنَ بينهما.
- ٩ - احترام قرار المرأة ومراعاة رأيها، حتى لو كانت خاطئة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

التفسير:

١١ - يُبْرئُ اللهُ تعالى أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من التهمة بالفاحشة التي اختلقها رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، ويُطْمِئِنُّ قلوب آل أبي بكر: إنَّ الذين جاؤوا بأقبح الكذب الكُبَّار جماعة من المسلمين، وبعضهم يُظهِرُ الإسلام. لا تظنُّوا هذه التهمة يا آل أبي بكر شراً لكم، بل هي خير لكم؛ لما فيه من الشرف العظيم ببراءة أمَّ المؤمنين عائشة، وفضح الفاسقين، وموعظة للمؤمنين. لكلِّ مَنْ تكلَّم بالإفك جزاءٌ فعليه من الذنب. والذي بدأ به واصطنعه رأس النفاق عبد الله بن أبي، له عذاب شديد الألم في الآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ قالت: عبد الله بن سلول.

(صحيح البخاري ٣٠٦/٨ برقم ٤٧٤٩ - كتاب التفسير، سورة النور. وعبد الله هذا هو ابن أبي بن سلول).

١٢ - يعتب الله على المؤمنين الذين لم يُنكروا هذا المنكر الكبير: هَلَّا حين سمعتم هذا الإفك ظننتم خيراً بأمَّ المؤمنين رضي الله عنها، ورَدَعْتُمُ القائلين به أَنَّهُ كَذِبٌ واضح.

١٣ - هَلَّا جاء الخائضون بهذا الإفك بأربعة شهود على افتراءهم، فإذا لم يفعلوا فأولئك البعيدون عن الغيرة، هم الكاذبون الذين يستحقون حدَّ القذف.

١٤-١٦ - يُعبأب الله المؤمنين الذين خاضوا في حديث الإفك، فيقول: ولولا فَضَّلَ اللهُ عليكم بيان الأحكام، ورحمته لكم في الدنيا، وعدم تعجيل العقوبة، وفي الآخرة بالمغفرة لِمَنْ تاب، لَنَزَلَ بكم عذاب عظيم؛ بسبب ذلك الخوض حين تَلَقَّوْهُمُ خبر الإفك، وتُرَدَّدون فيما بينكم بأفواهكم ما ليس له حقيقة، وتحسبون ذنباً صغيراً، وهو عند الله من أخطر الجرائم. هَلَّا حين سمعتموه أنكرتم، وصَرَختم بتحريمه، وَتَعَجَّبْتُمْ من إفشائه، بِذِكْرِ التنزيه لله وتعظيمه؛ بسبب الكذب الكُبَّار على زوجة رسوله ﷺ.

١٧-١٨- يُحذِّرُكُمْ اللَّهُ، وَيُخَوِّفُكُمْ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِ هَذِهِ الْجُرِيمَةِ الْكَبْرَى أَبَدًا، إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ. وَيُوضِّحُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِ الْحِكْمَةِ ذَاتِ الْأَدَابِ الْكَرِيمَةِ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ، حَكِيمٌ بِأَحْكَامِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سموات.
- ٢- بيان شرور المنافقين وخطرهم على الأمة.
- ٣- بيان القرآن الحكم الشرعي في مثل هذه الواقعة، وكيف ينبغي للمسلمين أن يتصرّفوا تجاهها.
- ٤- وجوب إقامة الدليل على الدعوى، والتروي قبل نقل الأخبار.
- ٥- التحذير من خطر الإشاعة وتأثيرها الكبير في المجتمعات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُوفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٩ - لما حذر الله المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا به من الإفك، أعقب تحذيرهم بالوعيد على ما عسى أن يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين، فالذين يسعون لانتشار الزنى، وترويع الإشاعات في ذلك بين المؤمنين، لهم عقوبة حد القذف في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عذاب النار. والله وحده يعلم الحقائق والخفايا، وأنتم لا تعلمون ذلك.

٢٠ - ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته بكم، وأن الله ذو رافة عظيمة، وذو رحمة واسعة، لتعجل العقوبة لكل من خاض في الإفك، ولكل من سكت عنهم.

٢١ - يخاطب الله المؤمنين محذراً لهم من اتباع مسالك الشيطان، ومعصية الرحمن. ومن يسلك طرق الشيطان فإنه يأمر بالخبائث والجرائم والمعاصي. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ما طهر من دنس الخبائث أحداً، ولكن الله تعالى يطهر من يشاء بفضله. والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم.

٢٢ - سبب النزول:

ورد في حديث الإفك قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة؛ لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ

وَأَلْمَهَجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.
(متفق عليه كما تقدم في أول تفسير السورة).

التفسير:

يَحْتُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَيَنْهَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ أَنْ يَحْلِفُوا بِاللَّهِ عَلَى تَرْكِ صَلَاةِ أَقَارِبِهِمُ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ رِضَا اللَّهِ؛ بِسَبَبِ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ الْإِسَاءَةُ شَدِيدَةً. ثُمَّ أَمَرَ بِالْعَفْوِ عَنِ الذَّنْبِ وَإِزَالَةِ أَثَرِهِ فِي النَّفْسِ، حَتَّى لَا يَبْقَى الْغِلُّ فِيهَا، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ لَذُنُوبِ الْتَائِبِينَ، رَحِيمٌ بِهِمْ.

٢٣-٢٥- إِنَّ الَّذِينَ يَقْذِفُونَ بِالزَّنَى الْمُؤْمِنَاتِ الطَّاهِرَاتِ الْقُلُوبِ عَنِ الْمَعَاصِي، طُرِدُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، بِإِقَامَةِ حَدِّ الْقَذْفِ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ الْأَلَمِ. وَذَلِكَ الْعَذَابُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَ تَشْهَدُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَلْسُنُ وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِكُلِّ مَا ارْتَكَبَ مِنَ الْجَرَائِمِ. وَفِي هَذَا الْيَوْمِ يَجَازِيهِمُ اللَّهُ عَلَى أَعْمَالِهِمُ بِالْعَدْلِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الَّذِي لَا يَظْلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾. المراد بالدين هنا الجزاء، ويدل على ذلك قوله: ﴿يُؤْفِكُ﴾؛ لِأَنَّ التَّوْفِيَةَ تَدُلُّ عَلَى الْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُجْزِيهِ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَمَّا تُوَفَّتْ جُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٢٦- الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء. والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. أولئك هم البعيدون عن كل شيء خبيث، الأبرياء ممَّا يقوله أصحاب الإفك. لهم من ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق وافر في الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- عَظِيمُ جُزْمٍ مَنْ يُشِيعُ الْفَاحِشَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يُحِبُّ ذَلِكَ.
- ٢- فِي الْآيَةِ (١٩) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ شِيْعَ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ، بِأَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَقُوبَةَ الْقَذْفِ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْبَلَايَا الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، إِنْ لَمْ يَتُوبُوا.
- ٣- التَّرْغِيبُ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَمَّنْ أَسَاءَ إِذَا تَابَ.
- ٤- فِي الْآيَةِ (٢١) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ حَالِ مَنْ يَسْلُكُ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُهُ بِالْمُنْكَرِ. وَفِيهَا إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ يُطَهِّرُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ.

- ٥ - في الآية (٢٣) إخبار مستقبلي عن عاقبة الذين يقذفون العفيفات المؤمنات الغافلات اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن بأنهم مطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة.
- ٦ - تشنيع جريمة قذف المحصنات، وفي مقدّمة ذلك تحريم التعرّض لأُمّ المؤمنين عائشة زوج رسول الله ﷺ التي نزلت فيها الآيات، وكذا سائر زوجاته أمهات المؤمنين.
- ٧ - فضّل أبي بكر الصديق ﷺ وابنته الصّديقة أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعظيم منزلتهما عند الله.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

٢٧- يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى آداب الاستئذان في دخول البيوت، ويُفصّل أحكام النظر في الآيات الخمس الآتية: لا تدخلوا مساكن غير مساكنكم حتى تستأذنوا بالدخول على أهلها، وتسلّموا عليهم بقولكم: السلام عليكم، أأَدْخُلُ؟ ذلكم الأدب الرشيد خير لكم من الدخول فجأة من غير استئذان؛ لكي تتعظوا وتعملوا بهذا الأدب الكريم.

٢٨- فإن لم تجدوا في بيوت الآخرين أحداً يسمح لكم بالدخول فلا تدخلوها، حتى يُسمح لكم بدخولها. فإن لم يُسمح لكم بالدخول، وطلب إليكم الرجوع فارجعوا، والرجوع أطهر وأكرم. والله بكل ما تعملون عليم، لا يخفى عليه شيء.

٢٩- أمّا إذا كانت البيوت عامّة ليست مخصّصة لسكنى أحد، كالرباطات والاستراحات العامّة، ولكم فيها مصالح، فلا إثم عليكم من دخولها. والله يعلم ما تُظهِرون وما تُخْفون في صدوركم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب الاستئذان على كلّ من أراد دخول بيت مسكون، سوى بيته.
- ٢- ينبغي على كلّ أحد أن لا يمتعض أو يتأثر حين يُعتذر منه عن استقباله في دخول بيت من يطرق بابه؛ فللناس أحوال خاصة، وللبيوت أسرارها.

٣- سقوط الاستئذان عند إرادة دخول الأماكن العامة؛ كالمحلات التجارية، والمدارس، والجامعات، والفنادق، ونحوها.

٤- بيان حرمة النظر إلى العورات.

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾
 ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّالِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلِيَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

التفسير:

٣٠- يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يُبلِّغ المؤمنين بأمر عظيم يتساهل فيه كثير من الناس، ألا وهو كَفُّ النظر عمَّا لا يَحِلُّ النظر إليه، وأن يصونوا فروجهم باجتناب المحرَّمات. ذلك الأمر العظيم أظهر لهم حسياً ومعنوياً. إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ مِنَ الْغَضِّ وَالْحَفْظِ.

٣١- وَقُلْ أَيضاً لِلْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَكْفُضْنَ النَّظَرَ عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَا يُظْهِرْنَ زِينَتَهُنَّ لِلرِّجَالِ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَهِيَ الثِّيَابُ الظَّاهِرَةُ، وَتُؤَلِّقِينَ بِأَعْطِيَةِ رُؤُوسِهِنَّ عَلَى وُجُوهِهِنَّ وَفَتْحَاتِ ثِيَابِهِنَّ الْعَلِيَا، وَلَا يُظْهِرْنَ زِينَتَهُنَّ الْبَاطِنَةَ إِلَّا لِأَزْوَاجِهِنَّ. أَمَّا الزَّيْنَةُ الظَّاهِرَةُ كَالْكُحْلِ وَالْقِلَادَةِ وَالْأَقْرَاطِ وَالْأَسَاوِرِ فَهِيَ ضَوَابِطُ حُدُودِ الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ الَّتِي تَبَاحُ رُؤْيُهَا فِي الْبَيْتِ لِأَبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ أَزْوَاجِهِنَّ

أو أبنائهنَّ - ويدخل في ذلك أولاد الأبناء وأولاد البنات مهما نزلوا - أو أبناء أزواجهنَّ، أو إخوانهنَّ أو أبناء إخوانهنَّ، أو أبناء أخواتهنَّ، أو النساء المسلمات التابعات لهنَّ بالخدمة، أو ما مَلَكَنَّ من العبيد، أو الذين يتبعون غيرهم من الرجال وليس لهم غرض بأموال عورات النساء. وأمَّا زينة الخللخال في القَدَم فلا يُظهِرُهَا، بل لا يضربنَّ بأرجلهنَّ عند مشيهنَّ؛ لِيُسْمِعَنَّ صوت الخللخال الذي تخفي تحت الملابس. وتوبوا إلى الله جميعاً - أيها المؤمنون - من مخالفة هذه الأحكام العظيمة؛ لكي تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: والزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخضاب الكف والخاتم، فهذه تظهر في بيتها لِمَنْ دَخَلَ من الناس عليها. هـ. هكذا تمام كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن كثيراً من العلماء ينقلون عنه الشقَّ الأول، فما نُسِبَ إلى ابن عباس بأنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجه والكفان، ليس مطلقاً، وإنَّما هو مُقَيَّدٌ في بيتها لِمَنْ دخل من الناس عليها. وممَّا يؤكِّد هذا تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيدِهِنَّ ذَلِكَ آذَقَهُ أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُوَدِّعُنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَاقِرًا رَجِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]. (التفسير الصحيح ٤/ ٣٣٤). أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُرُوجِهِنَّ عَلَى خُبُورِهِنَّ﴾ أَخَذَنَ أُرْزُهْنَ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. (صحيح البخاري ٨/ ٣٤٧ برقم ٤٧٥٩ - كتاب التفسير - سورة النور، باب الآية).

٣٢- أُزِدَّتْ أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يُعِينُ عليه، ويُعِفُّ المؤمنين والمؤمنات، وَيَغُضُّ من أبصارهم. فأمر الله تعالى المؤمنين من الأولياء والأسياء أن يُزَوِّجُوا مَنْ لَمْ يَتَزَوَّجْ من المؤمنين الصالحين القادرين على المهر والنفقة، سواءً كانوا رجالاً ونساءً، أحراراً وعبيداً، ويجب إعانتهم على ذلك. إن يكن الراغب في الزواج فقيراً فلا يمنعكم ذلك من إنكاحه، فإنَّ الله يرزقه ويُغْنِيه من فضله الكبير. والله كثير الخير على خَلْقِهِ، عَلِيمٌ بمصالحهم.

٣٣- لَمَّا ذُكِرَ وعد الله مَنْ يزوج من العبيد الفقراء بالعتق، وكان من وسائل غناه أن يذهب ليكتسب بعمله، أمر الله السادة بإجابة مَنْ يَتَغَيُّ الكتابه من عبيدهم تحقيقاً لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة وتوسيع المخرج من الرِّقِّ، فليجتهد بالصيام لطلبِ العَقَّةِ عن المحرَّمات مَنْ لا يتمكَّن من تكاليف الزواج. والذين يريدون أن يتحرَّروا من الرِّقِّ، عليهم مكاتبه أسيادهم بأن يدفعوا لهم المال على أقساط، فيجب الاستجابة لهم إن عرفتم منهم الأمانة والرشد، وأعينوهم بالمال على دفع تلك الأقساط. ولا تُجْبِرُوا جواريتكم على الزنى إن أردن العَقَّةَ - أمَّا إذا لم تُردِ العَقَّةَ فيجب على سيدها منعهما - فلا يجوز هذا الإكراه

لأجل الحصول على المال وتكثير العيال. وَمَنْ يُبْرِهَنَّ عَلَى الزنى فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ لَهَنَّ، رحيمٌ بهَنَّ، وذنبُ الجريمة على مَنْ أكرههَنَّ.

قال ابن عاشور: «إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول».

(التحرير والتنوير: ١٨ / ١٨١).

عن جابر ؓ قال: كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية له: اذهبي فأبعينا شيئاً. فأنزل الله ﷻ:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتِكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ ؓ﴾

هَنَّ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (صحيح مسلم ٤ / ٢٣٢٠ - كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتِكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ﴾).

٣٤- قسماً لقد أنزلنا إليك آيات واضحات الأحكام، وَصَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ بِمَنْ سَبَقَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ

الماضية، كما أنزلنا إليك موعظة تُرَفِّقُ قُلُوبَ الْمُتَّقِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- إِنَّ غَضَّ الْبَصْرِ مِنْ أَهْمِ الْأَسْبَابِ فِي حِفْظِ الْفُرُوجِ.
- ٢- وَجُوبُ غَضِّ الْبَصْرِ، وَحِفْظِ الْفُرْجِ، يَسْتَوِي فِيهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ.
- ٣- قال مكي بن أبي طالب: «ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع، وسماها أبو بكر بن العربي آية الضمائر». (التحرير والتنوير: ١٨ / ١٧١).
- ٤- وَجُوبُ سِتْرِ الْمَرْأَةِ زَيْتِهَا عَمَّنْ لَا يَحِلُّ لَهُ النَّظَرُ إِلَيْهَا.
- ٥- وَجُوبُ وَضْعِ الْمَرْأَةِ خِمَارَها عَلَى جَبِيهَا؛ لِتَسْتَرِ فَتَحَاتِ صَدْرِها وَعَنْقِها.
- ٦- سَتْرُ الْمَرْأَةِ لِحْسَدِها عَلَى النَّحْوِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ حَضَارَةً وَمَدَنِيَّةً، وَبَعْدَ عَنِّهُ هَوَى وَتَأْخُرُ.
- ٧- بَيَانُ الْمُحَارِمِ الَّذِينَ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ تُبَدِّيَ زَيْتِها عِنْدَهُمْ بِلَا حَرَجٍ.
- ٨- عَلَى الْمَرْأَةِ اجْتِنَابُ أَيِّ حَرَكَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ تُوَدِّي إِلَى لَفْتِ الرِّجَالِ إِلَيْها.
- ٩- وَجُوبُ الْاسْتِعْفَافِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الزَّوْجِ؛ حَتَّى يُيَسِّرَ اللهُ الْأَمْرَ.
- ١٠- لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْفَقْرُ عَائِقاً عَنِ الزَّوْجِ، فَاللهُ تَعَالَى يُعِينُ الْفَقِيرَ الْبَاحِثَ عَنِ الْعَفَافِ بِالزَّوْجِ.
- ١١- قال ابن عاشور: «دخول الفاء في ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ لتضمين الموصول معنى الشرطية، كأنه قيل: إن ابتغى الكتاب ما ملكت أيانكم فكاتبوهم، تأكيداً لترتب الخبر على تحقق مضمون صلة الموصول». (التحرير والتنوير: ١٨ / ١٧٥).

١٢- تقرير مكاتبه المملوك للحصول على حريته، إذا كان له مال يستطيع منه تمويل مكاتبته، مع

وجوب إعانته.

١٣- فظاعة إكراه الآخرين على فعل ما لا يرغبون فيه، ولا سيما إذا كان الأمر المكروه عليه هو الزنى.

١٤- المكروه على فعل شيء لا يلحقه إثم.

﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ مِنَ الْبَنَاتِ وَالصَّالِحِينَ مِنْكُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٧﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣٥- الله هادي أهل السموات والأرض، مثل هادي الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين كمثل كوة فيها مصباح قد اجتمع ضوءه فيها، وهذا المصباح في داخل زجاجة شبيهة بكوكب يشع كالدر. ويوقد هذا المصباح باستمرار من زيت نقى يخرج من شجرة زيتون مباركة ليست شرقية، فلا تحظى بالشمس في آخر النهار، وليست غربية، فتحرّم من الشمس في أول النهار، فزيتها أجود نوع، يكاد من صفائه وبريقه يضيء بنفسه من غير نار، فإذا مسّته النار سطع شعاع نوره، فهو نورٌ على نور؛ إذ اجتمعت عدّة أسباب في ذلك النور الساطع، فهو مثل هادي الإيمان والقرآن اجتمع في قلب المؤمن، يهدي الله تعالى إلى هذا النور من يشاء من عباده. ويبيّن الله الأمثال للعباد؛ ليعتبروا. والله بكلّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

٣٦- هذا النور سطع شعاعه في مساجد، أمر الله أن تُعظّم بيناتها وصيانتها وعمارتها بالمصلّين، فيذكر فيها اسم الله تعالى بالأذان وقراءة القرآن، والأذكار التي تملأ الميزان من التسبيح والتحميد صباحاً ومساءً.

٣٧- ٣٨- يُشني الله تعالى على العباد والرجال الذين يعمرون المساجد بالأذكار والصلوات، لا تشغلهم أرباح التجارة، ولا صفقات البيوع عن ذكر الله سراً وجهراً، ولا تمنعهم من المحافظة على أداء الصلاة بأوقاتها، وإعطاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تضطرب فيه القلوب، بين رجاء الرحمة

وخوف النقمة، وتضطرب الأبصار من رؤية الأهوال، تترقب مصيرها، من أجل أن يعطيهم الله أحسن الثواب على عملهم الصالح، ويزيدهم من نعمه. والله تعالى يُعطي مَنْ يشاء من عباده عطاءً واسعاً بغير حساب.

٣٩- لما جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨] أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قُرْبَاتٍ عند الله تعالى، وما هي بمُغْنِيَةٍ عنهم شيئاً على عادة القرآن في إرداف البشارة بالندارة، فأعمال الكفار شبه سراب - وهو ما يُرى من لمعان الشمس وقت الظهيرة في الأرض المنبسطة - يَظُنُّه العطشان ماءً، حتى إذا جاء موضعه لم يجده ماءً، فالكافر يظنُّ أنَّ عمله الخيري ينفعه، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليه لم يجد له شيئاً. والله سريع الحساب لعباده.

٤٠- أو أنَّ أعمالهم شبه ظلمات متراكمة في بحر عميق، يعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض، وفوق الموج العالي سحب كثيفة تحجب النظر، حتى إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، فكذلك الكافر يتخَبَّط في الضلال والمعاصي، ومَنْ لم يهده الله للإيمان فما له من هادٍ يهديه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ينظر: بعض بركات شجرة الزيتون من خلال التقارير الطبية عن فوائد زيت الزيتون المذكورة في تفسير سورة المؤمنون الآية (٢٠).
- ٢- في الآية (٣٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الهداية بيد الله ﷻ وحده، يهدي ويوفِّق لأتباع القرآن مَنْ يشاء. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ عليم بكلِّ شيء، لا يخفى عليه شيء، فهو عليم بما كان، وبما سيكون، وبما هو عليه كائن.
- ٣- استحسانُ ضَرْبِ الأمثال؛ لتقريب المعاني.
- ٤- وجوب تعظيم بيوت الله تشييداً وبناءً وعمارةً بذكر الله.
- ٥- المؤمن الحق لا يُلْهِيه عن الصَّلَاةِ وَذِكْرِ اللَّهِ أَيُّ أَمْرٍ مَّهْمًا عَظْمًا.
- ٦- عِظْمُ يوم القيامة وأهواله الشديدة.
- ٧- في الآية (٣٨) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأقاموا الصَّلَاةَ وآتوا الزَّكَاةَ لمستحقيها، بأنَّ الله ﷻ سيعطيهم ثواب أحسن أعمالهم، وسيزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله وحده هو الرزَّاق، يرزق مَنْ يشاء بغير حساب.
- ٨- لا ثواب للكافر على عمَلِهِ الصالح؛ لأنَّه لا يرجو به وجه الله تعالى، ولا يستندُ إلى الإيمان به.

٩ - ظاهرة السراب لها صفات منها: أن السراب يحدث في كل الأماكن التي تكون فيها الأرض منبسطة ومستوية، ومنها أنه لا يحدث إلا بوجود الهواء المتحرك (تيارات الحمل) فتظهر طبقات الهواء متموجة مثل الماء، ومنها أنه كلما اقتربنا من السراب ابتعد عنا، وهنا يكمن سر الإعجاز في الآية القرآنية. (مجلة الإعجاز العلمي: ص ٢٩، العدد (٣٦)، جمادى الأولى، ١٤٣١هـ).

١٠ - اكتشف العلم التجريبي وجود ظلمات في البحار العميقة، ووجود أمواج داخلية فيها مخالفة للأمواج السطحية، وأن هذه الظلمات متراكبة بعضها فوق بعض حيث تزداد بالتدرج مع زيادة العمق حتى تنعدم الرؤية تماماً. ولقد ذكر القرآن الكريم معلومات دقيقة عن وجود ظلمات في البحار العميقة، وأشار إلى سبب تكوينها، ووصفها بأن بعضها فوق بعض، كما أخبر بأن هذا الموج الداخلي يغطي البحر العميق، الأمر الذي لم يعرف إلا بعد صناعة الغواصات بعد الثلاثينيات من القرن العشرين، كما أخبر القرآن عن دور الموج السطحي، والموج الداخلي في تكوين ظلمات في البحار العميقة. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ٢٢٧-٢٢٨).

وقيعان البحار العميقة والمحيطات تغرق في ظلام دامس؛ وذلك لأن أعماقها تتراوح بين مئات الأمتار ١١٠٣٤ متراً، بمتوسط يقدر بنحو (٣٧٩٥) متراً، وأشعة الشمس لا يمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبداً. (آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن للدكتور زغلول النجار، ص ٩٧-١١٢).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُمْ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُمْ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ يَشَاءُ إِنَّ مِنْ فَضْلِهِ لَعَلِيمٌ﴾
 ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ الرَّزَّازُ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

التفسير:

٤١ - أَعْقَبَ تَمْثِيلَ ضَلَالِ أَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَكَيْفَ حَرَمَهُمُ اللَّهُ الْهُدَى، بِطَلْبِ النَّظَرِ وَالْإِعْتِبَارِ، كَيْفَ هَدَى اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى تَنْزِيهِهِ اللَّهُ الْمُقْتَضِي الْإِيمَانَ بِهِ وَحْدَهُ، فَجَاءَ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَلَمْ تَعْلَمْ عَلِيمًا يَقِينًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَبِّحُ لَهُ عَلَى الدَّوَامِ كُلَّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالطَّيْرُ بِأَسْطَاتِ أَجْنَحَتِهَا فِي السَّمَاءِ تُسَبِّحُ لِلَّهِ؟ كُلُّ مَخْلُوقٍ قَدْ عَرَفَ كَيْفَ يُصَلِّي، وَكَيْفَ يُسَبِّحُ؟ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَفْعَالِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ.

٤٢ - وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٤٣ - أَعْقَبَ الدَّلَالَاتِ عَلَى إِعْطَاءِ الْهُدَى فِي قَوَانِينِ الْإِلْهَامِ فِي الْعَجَائِبِ، بِالذَّلَالَةِ عَلَى خَلْقِ الْخِصَائِصِ فِي الْجَمَادِ، بَعِيثِ تَسِيرِ عَلَى السَّيْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهَا سِيرًا لَا يَتَغَيَّرُ، فَهِيَ بِذَلِكَ أَهْدَى مِنْ فَرِيقِ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ لَهُمْ عُقُولٌ وَحَوَاسُّ لَا يَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَجَاءَ الْخَطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَعْقِلُ: أَلَمْ تَشَاهِدْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسُوقُ السَّحَابَ حَيْثُ يَأْمُرُ، ثُمَّ يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ كَثِيفًا مَتْرَاكِمًا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، فَتَرَى الْمَطَرَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ السُّحُبِ الْكَثِيفَةِ؟ - وَذَلِكَ بَعْدَ عَمَلِيَةِ التَّلْقِيحِ الَّتِي تَتِمُّ عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيَاحِ - وَيُنزِلُ مِنَ السَّحَبِ الَّتِي تُشَبِّهُ الْجِبَالَ فِي ضَخَامَتِهَا وَشَكْلِهَا بَرْدًا مِنَ الثَّلَجِ، فَيُصِيبُ بِهَذَا الْبَرْدِ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْعِبَادِ بِخِيَرِهِ وَشَرِّهِ، وَيَمْنَعُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، يَكَادُ ضَوْءُ بَرَقِ السَّحَابِ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ مِنْ شِدَّةِ إِضَاءَتِهِ.

٤٤ - مِنْ عَظِيمِ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ أَنَّهُ يُقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِتَعَاقُبِهِمَا، وَاخْتِلَافِهِمَا بِالطُّوْلِ وَالْقَصْرِ، وَالظُّلْمَةِ وَالنُّورِ، وَالْبَرْدِ وَالْحَرِّ. إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّقْلِيْبِ الْعَظِيمِ لِدَلَالَةَ كَبِيرَةٍ يَتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ بِهَا كُلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ.

٤٥ - وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ خَلَقَ كُلَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيْوَانٍ مِنْ مَاءٍ: فَمِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مَنْ يَمْشِي زَحْفًا عَلَى بَطْنِهِ كَالزُّوَاحِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ كَالْإِنْسَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ

كالأنعام. والله تعالى يخلق ما يشاء من هذه المخلوقات وغيرها. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ذُو قَدْرَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ.

٤٦ - قسماً لقد أنزلنا علامات واضحات دالات على طريق الحق، والله يرشد مَنْ يَشَاءُ بتوفيقه إلى دين الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الاستفهام في بداية الآيتين (٤١، ٤٣) للتعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول، ومع ذلك قد حُرِّمُوا الهدى.
 - ٢ - بيان الطريقة التي يَتَكَوَّنُ منها السَّحَابُ، وَيَتَنَزَّلُ منها المطر.
 - ٣ - كُلُّ دَوَابِّ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَاءٍ.
 - ٤ - ينظر: صورة البرد الذي يصيب الله تعالى به، كما في الملحق.
 - ٥ - عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالبرق وبيان شدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾. (ينظر: سنن الله الكونية: الدكتور محمد أحمد الغمراوي، ص ٥٣).
 - ٦ - يشكل الماء العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الأحياء، فيكون ما بين ٧١٪ من جسم الإنسان البالغ، و٩٣٪ من جسم الجنين ذي الأشهر المعدودة، ويكون أكثر من ٨٠٪ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٩٠٪ من تركيب أجساد العديد من النباتات والحيوانات.
- وفي البناء المعقد لأجساد الكائنات الحية من الماء شهادة لله تعالى بالقدرة المبدعة في الخلق، وشهادة بقدرته عَلَى عَلَى إِفْنَاءِ خَلْقِهِ وَعَلَى إِعَادَةِ بَعْثِهِ. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٣٢٤-٣٤٢).

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٤٧- يُحَدِّثُ اللهُ تَعَالَى مِنْ جَرَائِمِ الْمُنَافِقِينَ، وَيُنْثِي عَلَى مَكَارِمِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُزَعِمُ الْمُنَافِقُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ أَنَّهُمْ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ، وَأَطَاعُوا أَوْامِرَهُمَا، ثُمَّ يُعْرِضُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ عَنْ قَبُولِ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْعَهْدِ الْعَظِيمِ. وَمَا أَوْلَئِكَ الْبَعِيدُونَ عَنِ الْحَقِّ بِمُؤْمِنِينَ حَقًّا.

٤٨-٥٠- وَإِذَا دُعُوا إِلَى اتِّبَاعِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِيُفْصَلَ بَيْنَهُمُ الْخِصُومَاتِ، إِذَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ تَسْتَكْفِرُ، وَتُعْرِضُ عَنْ حُضُورِ الْحُكْمِ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ يَكُنِ الْحُكْمُ فِي صَالِحِهِمْ يَحْضُرُوا مُطِيعِينَ. ثُمَّ جَاءَ الْإِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخُ مُتَتَابِعًا؛ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ. أَفَى قُلُوبِهِمْ نِفَاقٌ، أَمْ شَكُّوا فِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ جَائِرًا؟ الْجَوَابُ: لَا، بَلْ أَوْلَئِكَ الْبَعِيدُونَ عَنِ الْحَقِّ، هُمُ الْجَائِرُونَ الْمُعْتَدُونَ.

٥١-٥٢- إِنَّمَا كَانَ الْقَوْلُ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اتِّبَاعِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِيُفْصَلَ فِي النِّزَاعِ بَيْنَهُمْ، أَنْ يُرْتَابُوا بِذَلِكَ الْحُكْمِ الْحَكِيمِ، وَيُضَدِّعُوا بِقَوْلِهِمْ: سَمِعْنَا مَا تَقُولُ، وَأَطَعْنَا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، وَأَوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ فِي الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَيَخْشَى اللَّهَ فِي أَحْكَامِهِ، وَيَتَّقِي عَذَابَهُ، فَأَوْلَئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، هُمُ الْفَائِزُونَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ الْكَرِيمِ.

٥٣- وَحَلَفَ الْمُنَافِقُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى بِالْحَاحِ شَدِيدٍ، وَبَدَّلُوا جَهْدًا لَزِيذَةً التَّأْكِيدِ: لَنْ أُمرَهُمْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَخْرُجَنَّ مَعَكَ. فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ لِيُفْضَحَهُمْ وَيُؤَبِّخَهُمْ. قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ

لهم: لا تحلفوا، فإنَّ أمركم مكشوف؛ لأنَّ طاعتكم طاعة معروفة لا تتعدَّى اللسان. إنَّ الله خير بما تُدبِّرون.

٥٤- يُبيِّن الله تعالى فضل الطاعة، فيأمر رسوله ﷺ أن يقول للعباد: أطيعوا الله بالعمل في أحكامه، وأطيعوا الرسول بالتمسُّك بهديِهِ. فإنَّ أعرضوا فما على النبي ﷺ إلا ما كُلف به من تبليغ الرسالة، وعليكم ما أمرتُم به من الطاعة، وإنَّ تُطيعوا الرسول تهتدوا إلى الحق. وما على الرسول إلا التبليغ الواضح لرسالة ربِّهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- التنديد بالمنافقين؛ لإعراضهم عن التحاكم إلى الله ورسوله.
- ٢- التحذير من خداع المنافقين، وتحريم التخلُّق بصفاتهم.
- ٣- وجوب المسارعة إلى طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.
- ٤- الشرع كلُّهُ - الذي هو دين الإسلام - مستقيم ليس فيه اعوجاج.
- ٥- بيان صفة انقياد المؤمنين، أنَّهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله؛ ليحكمَ بينهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ما يتلكَّون، ولا يتردَّدون.
- ٦- فائدة الطاعة والخشية والتقوى، الفوز بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار.
- ٧- المنافقون يُروِّجون كذبهم بالأيمان المغلَّظة، دون مُبالاة، ولا خوف من العقاب.

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَدَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذْنَ بِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

٥٥ - سبب النزول:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رَمَتُهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ كَانُوا لَا يَبِيتُونَ إِلَّا بِالسَّلَاحِ، وَلَا يَصْبِحُونَ إِلَّا فِيهِ، فَقَالُوا: تَرَوْنَ أَنَا نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمَنِينَ مَطْمَئِنِينَ، لَا نَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، فَنَزَلَتْ: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ إِلَى ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ يَعْنِي بِالنِّعْمَةِ ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . (أخرجه الحاكم (المستدرک ٤٠١/٢) - كتاب التفسیر، وصححه ووافقه الذهبي)، وأخرجه الضیاء المقدسی فی المختارة ٣/٣٥٣ - ٣٥٤ برقم (١١٤٥، ١١٤٦). قال محققه فیها: إسناده حسن. وقال الهیثمی: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨/٨٣).

التفسير:

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالنَّصْرِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، إِذْ وَعَدَهُمْ وَعَدًّا مُّوَكَّدًا بِأَنْ يَجْعَلَهُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ، مُتَّصِرِّفِينَ فِيهَا تَصَرَّفَ الْمُلُوكُ فِي مَمَالِكِهِمْ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَأَنْ يُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ، وَيُبَدِّلَهُمْ أَمْنًا وَاطْمَئِنَانًا مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، إِذَا

أخلصوا العبادة لله وحده لا يشركون به شيئاً. وَمَنْ جَحَدَ شُكْرَ هذه النعم فأولئك البعيدون عن الحق، الخارجون عن طاعة الله تعالى.

٥٦- وأقيموا - أيها المؤمنون - الصلاة بأركانها وأوقاتها، وأدوا الزكاة إلى مستحقيها، وأطيعوا الرسول ﷺ بالتمسك بهديِهِ؛ لكي تَحْظُوا برحمته الواسعة.

٥٧- لا تحسبنَ - أيها الرسول - أَنَّ الكفَّار يُعْجِزُونَ الله تعالى فلا يقدر على عقابهم، بل هو قادر على تدميرهم، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس مصيرهم النار.

٥٨- يُعَلِّمُ اللهُ تعالى المؤمنين الآداب الكريمة، والأحكام الحكيمة، في الاستئذان داخل البيت، من أجل المحافظة على سِتْرِ العورات، فيأمرهم أمراً مَوْكِّداً أن يستأذن العبيدُ والإماءُ والأطفال الذين لم يَبْلُغُوا سِنَّ الاحتلام عند الدخول عليهم، في ثلاثة أوقات: وقت النوم قبل صلاة الفجر، ووقت الظهر حين يخلعون ثيابهم للقلولة، وبعد صلاة العشاء وقت النوم والاستعداد له. وهذه الأوقات الثلاثة يُجتمَل فيها ظهور العورات، أمَّا فيما سواها فليس عليكم ولا عليهم إثم في الدخول بغير استئذان؛ لأنَّهم خَدَمُكُمْ يَتَرَدَّدُونَ عليكم كثيراً، وبعضكم يطوف على بعض. مثل ذلك البيان المتقدم يُبَيِّنُ اللهُ لكم الأحكام الشرعية؛ للتأدب بها. والله عليم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم في تدبير مصالحكم.

٥٩- وإذا بلغ الأطفال الأحرار منكم سِنَّ البلوغ فعَلِّمُوهم أدب الاستئذان؛ لكي يستأذِنوا إذا أرادوا الدخول في كلِّ الأوقات، كما وَجَبَ على الذين بَلَّغُوا من قبلهم. مثل ذلك البيان يُبَيِّنُ اللهُ تعالى لكم آياته التشريعية. والله عليم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم في تدبير مصالحكم.

٦٠- والمعجزات من النساء اللواتي قَعَدْنَ عن طلب الزواج، فلا يطمعن في الزواج كِبرِ سِنِّهنَّ، فليس عليهنَّ إثمٌ أن يتَحَفَّنَ بإلقاء الثياب الظاهرة كالجلباب والرِّداء الذي يكون فوق الثياب، بشرط ألا يُظْهَرْنَ الزينة الخفية كالخلخال. والتستُّرُ بارتداء الحجاب والرِّداء، كما تلبسه الشابات من النساء خيرَ لهنَّ وأطهر. والله سميع للأقوال، عليم بالأعمال.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٥٥) إخبار مستقبلي، وبشارة من الله بالنصر للذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، إذا استقاموا على طاعته، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها، وأن يجعل الإسلام ديناً عزيزاً مكيناً، وأن يُبَدِّلَ حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته.

٢- تَحَقُّقُ وَعْدِ اللهِ تعالى للمؤمنين بالتمكين في الأرض.

٣- الإيمان والعمل الصالح سبب لاستمرار الأمن.

- ٤ - الوعيد الشديد لِمَنْ كَفَرَ نِعَمَ اللَّهِ تعالى عليه، ولم يَقُمْ بِوَجِبِ شُكْرِهَا.
- ٥ - تمام قدرة الله ﷻ، وأنَّ الكافرين مهما بلغوا من القدرة فليسوا بمعجزين لله.
- ٦ - توجيه الخطاب للمؤمنين، والحكم لغيرهم يدلُّ على أنَّهم مسؤولون عنهم.
- ٧ - عدم دخول الأطفال غير المميّزين والخدم على أهلهم، قبل صلاة الفجر، ووقت الظهر، وبعد صلاة العشاء؛ لكون هذه الأوقات أوقات عورة. والمراد بالصغير: الذي يميّز؛ لأنَّ قوله: ﴿لَيْسَتَّ بِذُنُوبِكُمْ﴾ دليل على أنَّه مميّز، يؤمر بالاستئذان فيستأذن.
- ٨ - وجوب استئذان الصغار والماليك في ثلاثة أوقات فقط.
- ٩ - قال الشيخ ابن عثيمين: «تحريم النَّظَرِ إلى العورة، سواء كان الناظر صغيراً أو كبيراً. وأمّا تماون بعض النَّاسِ في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطر؛ لأنَّه لا بدُّ أن يرتسم في ذهنه هذا المنظر، ثمَّ ربَّما يذكره في يوم من الأيام». (تفسير القرآن الكريم ٥/٣٩٦).
- ١٠ - قال الشيخ ابن عثيمين: «التبرُّج بالزينة حرامٌّ على المعانز؛ لقوله: ﴿عَيْرَ مَتَّبِعَاتٍ فِي زِينَتِكُمْ﴾، فهذا الشرط إذا تَخَلَّفَ صار عليهنَّ جناح بذلك». (تفسير القرآن الكريم ٥/٤٠٣).

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتِظَهُنَّ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

٦١ - سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يرغبون في النفي مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم، ويقولون: قد أحللتنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، وكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾. (التفسير - سورة النور/ ٦١ - برقم ٨٩٤. وأخرجه الطبري (التفسير ١٨/ ١٢٩) بمثله، وعزاه الهيثمي للبخاري، وقال: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٨٣-٨٤) وحسن إسناده محقق ابن أبي حاتم، وصححه الحافظ ابن حجر (مختصر زوائد البزار ٢/ ١١٨).

التفسير:

لا إثم على أصحاب الأعذار - كالأعمى والأعرج والمريض - أن يأكلوا مع الأصحاء؛ لأنَّ هؤلاء كانوا يتحرَّجون؛ لثلا يتضايق منهم الأصحاء، وكذلك لا إثم على المؤمنين إذا أكلوا من بيوتهم التي فيها أزواجهم وأولادهم. ولا إثم عليكم - أيها المؤمنون - أن تأكلوا من بيوت أولادكم، أو من بيوت آبائكم، أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت الأعمام والعَمَّات والأخوال والخالات، أو البيوت التي لكم التصرف فيها بإذن أصحابها كالوكيل والخادم، أو بيوت الأصدقاء الذين عَلِمْتُمْ رضاهم. ولا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرِّقين. فإذا دخلتم أحد هذه البيوت المذكورة فسَلِّمُوا على أهلها - إن كانت مسكونة - بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن كانت غير مسكونة فالتحية هي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وهذه التحية التي أمر الله بها كثيرة الخير، تطيب بها نفس السامع لها. مثل ذلك البيان الواضح يُبَيِّنُ الله تعالى لكم آيات الأحكام؛ لتفهموها وتعملوا بها، فتستنبروا بهديها.

٦٢- إنَّما المؤمنون الصادقون حقًّا هم الذين أقرَّوا الله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وإذا كانوا مع النبي ﷺ على أمر جامع للمشاورة في مصلحة الأمة لم ينصرف أحد منهم حتى يَطْلُبَ الإِذْنَ من النبي ﷺ. إنَّ الذين يطلبون منك الإِذْنَ أولئك هم المؤمنون حقًّا؛ لأنَّهم أطاعوا حكم الله. فإذا طلب أحدكم الإِذْنَ منك لبعض شؤونهم وحاجتهم فاسمَحْ بالانصراف لِمَنْ أَرَدْتَ منهم، واطلب لهم المغفرة من الله؛ لما في الاستئذان من تقديم المصلحة الخاصَّة على المصلحة العامَّة. إنَّ الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

٦٣- يُرْشِدُ الله تعالى المؤمنين لأدب الخطاب مع النبي ﷺ وتوقيره، فينهاهم عند ندائهم للرسول ﷺ أن يقولوا له: يا محمَّد، كما يقول ذلك بعضهم لبعض، بل يجب توقيره واحترامه بندا: يا رسول الله، يا نبيَّ الله، بتأدب وتواضع، وكذلك الخروج من مجلسه، فإنَّ من الأدب وجوب الاستئذان. إنَّ الله لا يَخْفَى عليه خروج المنافقين من مجلس رسول الله ﷺ خفية دون إذنه، بل يعرفهم. ثمَّ حَذَّرَ الله تحذيراً مؤكِّداً من مخالفة أحكامه سبحانه؛ لأنَّ المخالفة تؤدِّي إلى العقوبة بنزول المصائب والمِحْنِ في الدنيا، أو يصيبهم عذاب النار الموجه في الآخرة.

٦٤- تَنبَّهُوا - أيها العباد - أنَّ الله ملك ما في السموات السبع والأرضين السبع، قد أحاط علمه سبحانه بجميع ما أنتم عليه من الإيمان والكفر وغيرهما، ويوم معاد العباد إليه، فيخبرهم إخباراً شاملاً عن أعمالهم الكاملة. والله بكلِّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان رحمة الله ﷻ في نفي الحرج عن المذكورين.
- ٢ - قال الشيخ ابن عثيمين: «الأحكام تدور مع عِلَلِهَا، فإذا وُجِدَتِ الْعِلَّةُ لِلْحَكْمِ ثَبَّتَتْ، وإذا انْتَفَتْ انتفى الحكم؛ لأنَّ نَفْيَ الحرج عن هؤلاء لهذه الْعِلَّةِ التي فيهم، فإذا برئ المريض، واستقام مشي الأعرج، ورَدَّ اللهُ البصر على الأعمى، انتفى الحكم في حقهم». (تفسير القرآن الكريم ٤١٠/٥).
- ٣ - جواز الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين، سواء بإذن أو بغير إذن، إلا إذا عَلِمْنَا عدم رضاهم، فإذا علمنا أنهم لا يرضون فلا يجوز الأكل من بيوتهم.
- ٤ - مشروعية السَّلام عند الدُّخول إلى البيوت.
- ٥ - فضيلة السَّلام؛ لكون الله تعالى وصفه بأنه: ﴿مُحَيِّئَةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَةً طَيِّبَةً﴾.
- ٦ - لا يجوز الانصراف عن عمل جامع إلا بالاستئذان من المسؤول، وللمسؤول أن يأذن لِمَنْ يستأذنه، أو لا يأذن.
- ٧ - يجب على وليِّ الأمر التيسير على مَنْ تحت يديه، ولكنَّ الاستئذان بدون عذر لا يُغفر.
- ٨ - وجوب احترام النبي ﷺ وتعظيمه، وأنَّه لا يجوز للإنسان أن يُناديه، كما ينادي غيره من النَّاس؛ لما له من التعظيم والتوقير.
- ٩ - بيان شيء من صفات المنافقين وهي: الجُبْنُ، والاستهانةُ بالنبي ﷺ ومجلسه، واختلاقُ الأعذار للاستئذان.
- ١٠ - قال الشيخ ابن عثيمين: «ينبغي تأكيد الأمور الهامة، والتنبيه عليها، وأن تُصَدَّرَ الأمور الهامة بما يؤكِّد وينبِّه عليها؛ لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فَإِنَّ عَلِمْنَا بِذَلِكَ، وقرارنا واعتقادنا له، هذا أمر مهمٌّ، ولهذا أُكِّدَ بـ ﴿أَلَا﴾ و﴿إِنَّ﴾». (تفسير القرآن الكريم ٤٢٢/٥).

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير عقيدة البعث.
- ٢ - الرد على شبهات المشركين حول القرآن الكريم والرسول ﷺ.
- ٣ - بيان مصير الأمم المكذبة لرسولهم عليهم الصلاة والسلام.
- ٤ - بيان صفة عباد الرحمن.
- ٥ - إعجاز القرآن في الآيات الكونية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
إِلَهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا
حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا
ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوْلِيَاءِ أَكْتَبَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ
أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ
يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ
كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾
أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

التفسير:

١-٢- تمجّد وتقدّس قدّر الله تعالى، وتكاثّر خيره، الذي نزل القرآن فارقاً بين الحقّ والباطل على عبده
محمد ﷺ؛ لأجل أن يكون رسولاً للإنس والجنّ، يُنذّرهم من عذاب الجحيم، ويُبشّرهم بجنّات النعيم،
الذي له ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، وليس له ولد، وليس معه شريك في ملكوته، وخلق
سبحانه كلّ شيء من الأشياء، فسوّى كلّ ما خلق، وهبّاه لما يصلح له، فلا خلل فيه، ولا تفاوت.

٣- يُؤَبِّخُ اللهُ تَعَالَى الكُفَّارَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ غَيْرِ اللهِ أَوْلِيَانًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا جَلْبَ مَنْفَعَةٍ لَهَا، وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى إِمَانَةِ أَحَدٍ وَلَا إِحْيَاءَهُ، وَلَا بَعْثِهِ مِنْ قَبْرِهِ فِي الْآخِرَةِ.

٤- ٥- وَطَعَنَ الكُفَّارَ فِي الْقُرْآنِ وَالنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: مَا هَذَا الْقُرْآنَ إِلَّا كَذِبٌ اخْتَلَقَهُ مُحَمَّدٌ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَدْ ارْتَكَبُوا ظُلْمًا فَظِيحًا، وَافْتَرَوْا زُورًا شَنِيعًا، إِذْ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ: إِنَّهُ خُرَافَاتُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ أَمْرٌ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْ تُكْتَبَ لَهُ، فَهِيَ تُقْرَأُ عَلَيْهِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؛ لِيَحْفَظَهَا.

٦- فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ. إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا لَذُنُوبِ عِبَادِهِ التَّائِبِينَ، رَحِيمًا بِهِمْ.

٧- ٨- وَأَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ رِسَالَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ كَمَا نَأْكُلُ، وَيَتَرَدَّدُ إِلَى الْأَسْوَاقِ لَطَلْبِ الْمَعِيشَةِ؟ فَهَلَّا أَرْسَلَ اللهُ مَعَهُ مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُ مُنْذِرًا مِنْ عَذَابِ اللهِ، أَوْ يَأْتِيهِ كَنْزٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يَكُونُ لَهُ بَسْتَانٌ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهِ. وَقَالَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ: مَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ بِالسَّحْرِ.

٩- انظر - أيها الرسول - كيف افتروا عليك بالأمثال المختلفة المتضاربة، فضللوا عن طريق الحق، فلا يجدون طريقاً للوصول إلى حُجَّةٍ صحيحة؟
الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «الافتتاح بـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ افتتاح بديع؛ لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب؛ لأنَّ غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة أو مقترنة بحرف غير منفصل، مثل قول طرفة: لخولة أطلالٌ بَبْرَقَةٍ تَهْمَدِ». (التحرير والتنوير: ١٨/٧)

- ٢- مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ الْفُرْقَانُ؛ لِأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.
- ٣- الْأَلِهَةُ الْمَعْبُودَةُ بِالْبَاطِلِ لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ.
- ٤- الْكَافِرُونَ يُجَارِبُونَ الْحَقَّ. وَمِنْ وَسَائِلِهِمْ فِي ذَلِكَ إِثَارَةُ الشُّبُهَاتِ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَوْلَ الْقُرْآنِ.
- ٥- يُبْطِلُ اللهُ مَزَاعِمَ الْكُفَّارِ وَشُبُهَاتِهِمْ، وَيُعَلِّمُنَا الْحُجَّةَ الَّتِي تُقِيمُهَا عَلَيْهِمْ.
- ٦- الرَّسُولُ بَشَرٌ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَنَامُ وَيَتَزَوَّجُ، وَاخْتَصَّ اللهُ بِالْوَحْيِ.
- ٧- تَكْذِيبَ الْكُفَّارِ لِلرَّسُولِ ﷺ أَوْ قَعْمَهُمْ فِي الضَّلَالِ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْهُدَى.
- ٨- الْكُفَّارَ مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، وَاقْتِرَاحَاتُهُمْ تَدُلُّ عَلَى سَخَافَةِ عَقُولِهِمْ.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝١٠﴾
 ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا
 تَغِيظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا
 وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ كَانَتْ لَهُمْ
 جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۖ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ۝١٦ وَيَوْمَ
 يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ۖ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ
 ۝١٧ قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُنْبِئُنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ
 نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝١٨ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
 نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا
 إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۖ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۖ
 وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾

التفسير:

- ١٠ - تَمَجَّدَ وَتَقَدَّسَ قَدْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكَاثَرَ خَيْرُهُ الَّذِي لَوْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِمَّا اقْتَرَحُوهُ: جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا فَارِهَةً.
- ١١ - وَمَا كَذَّبُواكَ لِأَنَّكَ بَشَرٌ، بَلْ كَذَّبُوا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ، وَهَيَّاْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِهِ نَارًا شَدِيدَةً اللَّهَبِ تُوقَدُ عَلَيْهِمْ.
- ١٢ - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى سَعِيرَ نَارِ جَهَنَّمَ. إِنَّهَا إِذَا كَانَتْ بِمَرَأَى النَّاطِرِينَ الْمُكذِّبِينَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا صَوْتًا فِي غَلِيَانِهَا كَصَوْتِ الْمُتَغَيِّظِ فِي تَحْرِقِهِ، وَزَفِيرًا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْغَضَبِ.
- ١٣-١٤ - وَإِذَا طَرِحُوا فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مِنَ النَّارِ مُقَيَّدِينَ بِالْأَغْلَالِ نَادَوْا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مُلِحِّينَ بِالِدَعَاءِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْهَلَاكِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ بِالْهَلَاكِ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلْ ادْعُوا مَرَّاتٍ وَمَرَاتٍ، فَلَنْ يَنْفَعَكُمْ دَعَاؤُكُمْ.

١٥-١٦ - قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ - عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالتَّقْرِيعِ -: أَذَلِكَ الْأَمْرُ الْخَطِيرُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الدَّائِمَةُ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، كَانَتْ لَهُمْ فِي وَعْدِ اللَّهِ جَزَاءً كَرِيمًا

ومرجعاً طيباً؟ لهم فيها ما يتمنون من النعم على الدوام، كان دخول هؤلاء لها وعداً حقاً من ربك يطلبه المتقون. والله لا يخلف الميعاد.

١٧- ويوم القيامة يحشر الله تعالى المشركين وأهتهم المعبودة من دونه، كالمسيح وعزير وغيرهما، فيقول الله للمعبودين: أأنتم أضللتم هؤلاء المشركين، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم؟

١٨- أجاب المعبودون مسبحين ومُعظمين الله تعالى: ما يحق لنا ولا لأحد من الخلق أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، ولكن متعتهم في الحياة الدنيا بنعمك الكريمة، فانشغلوا بها وبمَلذَّاتها، حتى تركوا ذكرك وشكرك، وكانوا قوماً هالكين.

١٩- ثم خاطب الله المشركين بأن هؤلاء المعبودين تبرؤوا من فعلكم، وكذبوكم في قولكم: إنهم آلهة، فما تقدرون دفعاً للعذاب عنكم، ولا عوناً لأنفسكم من هذا العقاب. ومن يشرك بالله فقد ظلم نفسه، واستحق إدخاله نار جهنم الشديدة الألم.

٢٠- وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول - أحداً من الرسل إلا كانوا من البشر، يأكلون الطعام كما تأكل، ويرددون في الأسواق؛ لكسب العيش، وجعلنا بعضكم لبعض ابتلاءً، فابتلينا الفقير بالغني، والغني بالفقير؛ لنختبر صبركم: أتشكرون أم تكفرون؟ وكان ربك بصيراً بالشاكرين والكافرين.

الفوائد والاستنباطات:

١- ابتدئت السورة بتعظيم الله لذاته وثنائه على نفسه الكريمة أن أنزل الفرقان على رسوله ﷺ، وأعقب ذلك بما تلقى به المشركون هذه المزية من الجحود والإنكار الناشئ عن تمسكهم بما اتخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهية، ثم طعنوا في القرآن والذي جاء به بما هو كفران للنعمة ومن جاء بها.

٢- تكذيب الكفار بيوم القيامة يقودهم إلى مزيد من الكفر والفساد.

٣- يدخل الله المؤمنين الجنة برحمته، جزاء لهم على حسن طاعتهم في الدنيا.

٤- كل من اعتمد على غير الله فهو خاسر، ومن عبد غير الله فهو هالك.

٥- الانشغال بالمتاع والشهوات يؤدي إلى ترك الحق، والتقصير بالواجبات.

٦- جعل الله التفاوت والاختلاف بين الناس فتنة واختباراً لهم.

٧- في الآية (٢٠) إخبار مستقبلي عن الحكمة في جعل الله بعض الناس لبعض ابتلاءً واختباراً؛ لبيان

الصابرين منهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنۢ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِّلَ الْمَلٰٓئِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلٰٓئِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْإِنسٰنِ خَدُوْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾

التفسير:

- ٢١- وقال الذين لا ينتظرون لقاء الله يوم القيامة ولا يوقنون به: هَلَّا نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد، أو نرى الله رأياً العين. قسماً لقد استكبروا في أنفسهم على دعوة النبي ﷺ وتجرأوا تجرأ كبيراً.
- ٢٢- يوم يرون الملائكة عند الموت، ويوم القيامة لن يكون للمجرمين بشارة تسرهم، بل تُبلِّغهم الملائكة بحرمة دخولهم الجنة.
- ٢٣- وقدّمنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها برّاً، فجعلناها باطلاً لا تنفعهم، كالغبار المنتشر في الجو.
- ٢٤- أهل الجنة يوم القيامة أفضل منزلاً فيها، وأحسن مأوى للراحة والقيولة.
- ٢٥- ويوم القيامة تشقق السماء تشققاً عظيماً، وتظهر السحب من خلال شقوقها، وتنزل الملائكة بحشود تلو حشود.

- ٢٦-٢٩- الملك الثابت كله يوم القيامة لله وحده، وكان ذلك اليوم على الكفار شاقاً ثقيلاً بأهواله، وطول زمنه. وفيه يعض كل ظالم على يديه نداماً وتحسراً قائلاً: يا ليتني اتبعت الرسول على الهدى، يا حسرتي ويا هلاكى، ليتني لم اتخذ فلاناً الكافر صاحباً. قسماً لقد أبعدني عن القرآن بعد مجيء من هداني إليه، وكان الشيطان من الإنس والجنّ شديد الخذلان للإنسان فلا ينصره بل يُسلمه إلى العقاب ويتبرأ منه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- عناد الكفار واستكبارهم قادهم إلى العتو والظلم والفساد.
- ٢- أعمال الكفار التي ظاهرها البرّ والإحسان ضائعة لا تنفعهم، ولا تُقبل منهم؛ بسبب كفرهم.
- ٣- على المسلم أن يُحسّن اختيار رفيقه، وألا يُصادق سيئاً؛ لئلا يُضله.
- ٤- المسلم يُخدّر الشيطان، ولا يستجيب لوساوسه لأنه خذول لا يدفع عنه عذاباً ولا يُرجى منه نصرة.

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرًّا مَّكَانًا وَأَصْلًا سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٠-٣١ - وقال رسول الله محمد ﷺ يئس شكواه إلى الله تعالى: يا رب إن قومي كذبوا هذا القرآن وتركوه. وكما جعلنا لك - أيها الرسول - عدوًّا من الكفار جعلنا لكل نبي قبلك عدوًّا من الكفار. وكفى ربك هاديًّا إلى الحق، وناصرًا لك على أعدائك.

٣٢ - وقال الكفار المعاندون: هلاً أنزل الله القرآن على محمد دفعة واحدة. فردَّ الله تعالى عليهم: كذلك أنزلناه مفرقًا؛ لنقوي به قلبك، ونيسر لك حفظه وقرآنه وبيانه بتمهل وثبت.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ، ويترتله ترتيلاً. (أخرجه الحاكم (المستدرک ٢/ ٢٢٣ - كتاب التفسير، وصححه ووافقه الذهبي) وصححه نحوه الحافظ ابن حجر كما تقدم في سورة الإسراء الآية (١٠٦)).

٣٣-٣٤ - ولا يأتوك المشركون - أيها الرسول - بحجة أو شبهة لإبطال دعوتك إلا أتيناك بالجواب الحكيم الثابت الذي لا شيء أثبت منه، وأحسن بياناً وتوضيحاً له. وهؤلاء الكفار في وقت الحشر يمشون على وجوههم إلى نار جهنم. أولئك البعداء عن رحمة الله شرُّ العباد منزلةً، وأبعدهم عن اتباع الحق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يجرس المسلم على عدم هجر القرآن، فيكثر من تلاوته وتدبره، ويعمل به.
- ٢ - من عناد الكفار كثرة اعتراضهم على القرآن.
- ٣ - الحجّة القرآنية قوية بالغة تبطل شبهة الباطل وتدحضها.

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطْرًا السَّوِيءَ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنِ الْهَيْتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الْهَيْهَةَ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَن أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٥-٣٦- قسماً لقد أعطينا موسى عليه السلام التوراة، وجعلنا معه أخاه هارون عليه السلام مُعيناً، فأمرناهما أن يذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بآياتنا التسع وغيرها، فأهلكناهم إهلاكاً شديداً.
٣٧- وقوم نوح عليه السلام لما كذبوا الرسل بتكذيب نبيهم أغرقناهم بالطوفان، وجعلنا خبرهم موعظة للعباد، وأعدنا للكافرين عذاباً موجعاً.

٣٨-٣٩- ودمرنا قوم عاد بريح عاتية، وقوم ثمود بالصيحة، وأصحاب الرِّسِّ وأمثاً كثيرة بين هؤلاء الأمم. وكلُّ هؤلاء قد بيَّنَّا لهم الحقَّ بالحُججِ الواضحة فكذبوا، فدمرناهم تدميراً شديداً.
٤٠- وقسماً لقد مرَّت قريش في أثناء تجارتهم على بلدة سدوم التي أهلك الله أهلها من قوم لوط بحجارة من سجيل، فجعل عاليها سافلها، كما جاء صريحاً في سورة الحجر (الآية ٧٤)، فمجباً من عنادهم، أفلم يكونوا يرون ما حلَّ بها فيعتبروا؟ بل كانوا كفرَةً مُتكررين البعث.

٤١-٤٢- وإذا رآك المشركون - أيها الرسول - سحروا منك قائلين باستصغار: هل هذا الذي بعثه الله رسولاً إلينا؟! إنَّه كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا بقوَّة حُجَّتِهِ، وعظمة معجزاته، لولا ثباتنا على تلك العبادة. وسوف يعلمون علم اليقين حين يُشاهدون العذاب مَنْ هو أبعد طريقاً عن الحق، هم أم المؤمنون؟
٤٣- انظر - أيها النبي - وتَعَجَّبْ مِنَ الَّذِي أَطَاعَ هَوَاهُ كطاعة الله ﷻ، أفأنت تكون حفيظاً عليه من

اتباع الهوى؟

٤٤ - هل تحسب أن أكثر الكفار يسمعون ما ينفعهم، أو يعقلون أتباع الحق؟ ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل، بل هم أضلُّ من البهائم طريقاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - كلُّ مُتَكَبِّرٍ معاند يستهزئُ بصاحبِ الحقِّ، ويُوَجِّهُ له الاتِّهَامات.

٢ - لم يُهَيِّلِك اللهُ قوماً من الكافرين إلا بعد إقامةِ الحجةِ عليهم.

٣ - يَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ لبيانِ الحقِّ والباطلِ، وتفقيهِ النَّاسِ بهما.

٤ - مُشَاهِدَةُ آثارِ المَعْذِبِينَ مُحَقِّقُ العبرة والعظة.

٥ - كفران الآخرة يؤدي إلى قسوة القلبِ وَعَدَمِ الاتِّعَاطِ.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالِيَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا أَكْفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٤٥-٤٦ - ألم تنظر إلى بديع صنع الله تعالى كيف بسط الظلَّ في النهار؟ ولو أراد الله لعله ثابتاً دائماً لا يزول، ثمَّ جَعَلْنَا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل، وكلِّمَا ارتفعت الشمس تَقَلَّصَ الظل شيئاً فشيئاً.

٤٧-٤٩ - والله سبحانه هو الذي جعل لكم الليل كاللباس يَسْتُرُكُمْ بظلامه، وجعل النوم راحة لأبدانكم، وجعل النهار وقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم. وهو سبحانه الذي أرسل لكم الرياح مُبَشِّرَةً بنزول المطر، رحمةً منه سبحانه، وأنزلنا من السحاب ماءً طاهراً مُطَهِّراً؛ لِنُحْيِيَ بِهِ أرضاً ميتة لا زرع فيها، وليشرب منه الحيوان والإنسان.

٥٠ - وقسماً لقد وَرَّعْنَا الأمطار بين الناس؛ ليعتبروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه سبحانه قادر على

إحياء الموتى، وليشكروه على نِعَمِهِ، فأبى أكثر الناس إلا جُحُودَ النِّعَمِ.

٥١-٥٢- ولو أردنا لأرسلنا إلى كلِّ بلدة نبيّاً يُنذرهم، ولكن أرسلناك - أيها الرسول - إلى الناس جميعاً بهذا القرآن العظيم، فلا تُطعِ الكفَّار في أيِّ أمر يخالف رسالتك، وجاهدْهم بالقرآن الكريم جهاداً بالغاً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تأمّل حركة الظلّ اللطيفة يُقوِّي الإيمان بالله تعالى ويزيدُه.
- ٢- أوضحت نتائج الدراسات: وجود علاقة عكسية بين زاوية ارتفاع الشمس وطول الظل (مد الظل) في كل مناطق العالم بلا استثناء وعلى مدار الساعة واليوم والسنة، ووجه الإعجاز يتجلى في ذكر هذه العلاقة الثابتة. وأثبت العلماء أن طول الظل يختلف تبعاً لزاوية سقوط الشمس، فإذا كانت الشمس عمودية على رأس الشخص فإن الظل يلبس الجسم، ولا يظهر له ظل، ويمكن رؤية ذلك بوضوح عند خط الاستواء في ٢١ مارس و٢٢ سبتمبر، إذ تكون الشمس عمودية على رأس الشخص، فلا يظهر له ظل، ويكون ذلك وقت الظهيرة، أما إذا كان الشخص على أي خط عرض آخر فإن ظل الظهيرة يكون له قيمة، وهذا يعني أن الظل الساكن حقيقة علمية أشار إليها القرآن. (الإعجاز العلمي في إثبات حركة الظلال، بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ١٣، ٣٤).
- ٣- بيان عَظَمَةِ الله تعالى في مخلوقاته المرئية.
- ٤- المؤمن يشكر الله على نعمة النوم، ونعمة الاستيقاظ والسعي، فهو شاكرٌ ليلاً ونهاراً.
- ٥- القرآن كتابُ جهاد، والمؤمنُ يجاهد به الكفار تنفيذاً لأمرِ الله بما فيه من الحجج والبراهين والبيّنات.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمْلِحُ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَمَّجُورًا ﴿٥٣﴾
 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
 يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَمِيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ
 وَسَيِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا
 الرَّحْمَنُ أَنْتَ سَجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
 وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

التفسير:

٥٣- وهو سبحانه أجرى البحرين مُلتَقَيْنِ، أحدهما شديد العذوبة، والآخر شديد الملوحة، وجعلنا بينهما حاجزاً يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، كلُّ له مساره، ويكون الماء العذب فوق الماء المالح.

٥٤- وهو سبحانه خَلَقَ من الماء آدمَ بِخَلْطِ من الطين، وخلق نسله من مَنِي الرجل وماء المرأة، فجعل هذا النسل ذا نسب: أبوة وبنوة وأخوة، ومصاهرة بقرابة الزوج. وكان ربُّك ذا قدرة عظيمة على خَلْق ما يشاء من الخلق.

٥٥- ويعبد الكفار من غير الله سبحانه الأوثان التي لا تنفعهم إذا عبدوها، ولا تضرُّهم إذا تركوها، وكان الكافر مُعِينًا للشيطان على معصية الرحمن.

٥٦-٥٧- وما أرسلناك - أيها الرسول - إلا مُبَشِّرًا للمؤمنين بالجنة، ومُنذِرًا للكافرين بالنار، وقل للكفار: ما أطلبُ منكم أجراً على تبليغ الرسالة، لكن من أراد أن يهتدي ويسلك طريق الحق فليفعل.

٥٨-٥٩- واعتمد في أمرك على الله الحي الذي له جميع معاني الحياة الكاملة والذي لا يموت، ونزَّهه عن كل نقص، وقُدَّسه حامداً نِعَمَه. وكفى بالله خبيراً بجميع ذنوب عباده، الذي أنشأ السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما في ستة أيام، ثم ارتفع سبحانه على العرش الذي هو أعظم المخلوقات ارتفاعاً يليق بجلاله وعظمته، هو الرحمن بعباده. واستعلم عمَّن هو خبير عالم بكلِّ شيء. فهو الذي يعلم صفاته اللاتقة به. ولا أحد أعلم من البشر من رسوله محمد ﷺ.

٦٠- وإذا قيل للكفار: اعبدوا الرحمن، واخضعوا له بالسجود، ردُّوا مُنكِرِينَ: وما الرحمن؟ هل نسجد طاعةً لأمرك؟ وزادهم ذلك بُعداً ونفوراً كنفور الحمير من الأسد.

٦١-٦٢ - تَمَجَّدَ وَتَقَدَّسَ قَدْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكَاثَّرَ خَيْرُهُ، الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا الْكَوَاكِبَ الْعَظِيمَةَ بِمَدَارَاتِهَا، وَمِنْهَا جَعَلَ الشَّمْسُ سَرَاجاً مُضِيئاً، وَالْقَمَرُ مُنِيراً، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مُتَعَاقِبِينَ، يَخْلَفُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَبِرَ بَهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ، وَلِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تَنْفَكُ عَنِ الْبَشَرِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعدئذ أن البحار الملحة متنوعة. كما أقاموا محطات الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضوا وقتاً طويلاً في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، والتي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام. تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبع حركة الكتل المائية المتنوعة. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ٢٤٤-٢٤٥). واكتشفت بعثة ألمانية جاءت لتدرس مياه باب المندب عام ١٩٦٢ أن هناك حاجزاً من المياه تختلف خصائصه عن خصائص البحر الأحمر وخصائص المحيط الهندي. وفي عام ١٩٨٢ جاءت بعثة علمية أمريكية إلى جامعة الملك عبد العزيز في السعودية، فذكرت أن هذا الحاجز قد صُوِّرَ من سفن الفضاء الأمريكية، وظهر أنه يتحرك بالمد والجزر والرياح، أي: إنه (يُمرَج)، وعمقه في البحر يقارب ألف متر تقريباً. وكذلك تم تصوير البرزخ الفاصل بين مياه النهر ومياه البحر الذي يصب فيه. (أسرار الكون في القرآن، ٣١٢).

٢ - كُلُّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فَهُوَ خَاسِرٌ.

٣ - عَزَّةُ الْمُؤْمِنِ فِي سَجُودِهِ لِلَّهِ وَإِحْسَانِ عِبَادَتِهِ لَهُ، فَيَسَارِعُ إِلَى ذَلِكَ بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

٤ - يَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُ مِنْ تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ، فَيَقِي ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

٥ - توصل علماء الفلك الحديث إلى التفرقة بين النجم والكوكب بعد اكتشاف المناظير وإجراء الدراسات الفوتومترية الضوئية والطيفية على النجوم والكواكب خلال القرون القليلة الماضية. فالنجم: ما هو إلا جسم سماوي متلألئ يشع الطاقة ذاتياً. بينما الكوكب: جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس وينطبق هذا على التوابع الطبيعية للكواكب (الأقمار). فالشمس تُعدُّ مفاعلاً نووياً عملاقاً يسبح في الفضاء بسرعة كبيرة وله ضوء وطاقة وحرارة ذات أشكال شتى ومتغيرة في كمها وكيفها. وهي ليست قرصاً مضيئاً ثابتاً. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ١٧٥).

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾
 وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ
 إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
 يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
 الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ
 حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾
 وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
 لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
 أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا
 نَجِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ
 فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٣-٦٤- يبيّن الله تعالى صفات عباده الصالحين، ويمدحهم كما في الآيات الأربع عشرة الآتية: فمن صفاتهم أنهم يمشون على الأرض بسكينة وتواضع، وإذا أساء لهم الفسقة خاطبهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم؛ لما فيه من الحلم، والذين يقومون بالليل بالصلاة ساجدين قائمين لله تعالى.

٦٥-٦٧- والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب نار جهنم، الذي سيُعذب فيه الكفار عذاباً دائماً. إنَّ جنهم يشس المكان والإقامة. والذين إذا أنفقوا من أموالهم لشراء الطعام والشراب واللباس لم يبدروا ولم يبخلوا، وكان إنفاقهم وسطاً.

٦٨-٧٠- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن. ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة! فنزل: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾، ونزل: ﴿ قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، ١/١١٣، برقم ١٩٣).

قال ابن أبيزى: سُئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ حتى بلغ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ فسألته فقال: لما نزلت قال أهل مكة: فقد عدلنا بالله، وقتلنا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، وأتينا الفواحش. فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. (صحيح البخاري ٨/٣٥٣، برقم ٤٧٦٥ - كتاب التفسير - سورة الفرقان، الآية)

التفسير:

والذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون عَمْدًا النفس التي حَرَّمَ الله قَتْلَهَا إلا بحق - ويكون قتل النفس بالحق بسبب الرِّدَّة بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، وقتل النفس بغير نفس - ولا يرتكبون جريمة الزنى. وَمَنْ يقع في هذه الجريمة يلقى يوم القيامة عقاباً شديداً مُضاعفاً يبقى فيه دائماً ذليلاً، إلا مَنْ تاب عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقلع عنها، وندم على ما مضى، وعزم ألا يعود، وعمل الأعمال الصالحة، فأولئك عَدَّتْ منزلتهم، ويمحو الله عنهم سيئاتهم، ويُثَبِّت مكانها حسنات. وكان الله غفوراً لِمَنْ تاب من عباده، رحيماً بهم. عن زيد بن ثابت رضي الله عنه في قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] قال: نزلت هذه الآية بعد التي في تبارك الفرقان بشمانية أشهر رضي الله عنه وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ رضي الله عنه. (أخرجه النسائي في السنن ٧/٨٧، برقم ٦٩٥ - كتاب تحريم الدم. باب تعظيم الدم. والطبري (التفسير ٥/٢٢٠)، والطبراني (المعجم الكبير ٥/١٣٦) من طرق عن محمد بن عمرو به، وعند جميعهم: (بسة أشهر)، بدل (الثمانية). وقد أخرج النسائي رواية (السة أشهر) أيضاً. لكن وقع في سندها: محمد بن عمرو عن أبي الزناد، بإسقاط (موسى بن عقبة). قال الألباني في الروايتين: حسن صحيح. ولفظ (بسة أشهر) أصح. (صحيح سنن النسائي، برقم ٣٧٤٢).

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلمُ آخر أهل الجنة دخولا الجنة. وآخر أهل النار خروجاً منها. رجل يؤتى به يوم القيامة. فيقال: اعْرِضُوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه. فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا، وكذا، وعَمِلْتَ يومَ كذا وكذا، وكذا، وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيع أن يُنكر. وهو مُشْفِقٌ من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه، فيقال له: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فيقول: ربِّ، قد عَمِلْتُ أشياء لا أراها هاهنا» فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذُه. (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/١٧٧، برقم ١٩٠).

٧١- وَمَنْ تاب عن المعاصي وعمل صالحاً تصديقاً لتوبته، فإنه يتوب توبة مقبولة عند الله، ويرجع إلى

الله رجوعاً عظيماً.

٧٢- والذين لا يشهدون الشهادة الكاذبة، وإذا مرُّوا بمجالس أهل الباطل من غير قَصْدٍ تَرَفَّعُوا عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَشَارِكُوهُمْ، بَلْ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ.

٧٣- والذين إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ الْقُرْآنِ أَقْبَلُوا عَلَيْهَا سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ مُتَدَبِّرِينَ، وَلَمْ يُعْرِضُوا عَنْهَا.

٧٤-٧٦- والذين يدعون الله: يَا رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا مَا تَقَرَّرَ بِهِ أَعْيُنُنَا، وَاجْعَلْنَا قُدُوةً فِي الْخَيْرِ يَتَّقِدِي بَنَاءَ الْمُتَّقِينَ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، يُثَابُونَ أَعْلَىٰ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ؛ بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَتَجَنُّبِ الْمَعْصِيَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ فِيهَا التَّحِيَّةَ وَالتَّسْلِيمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الدَّوَامِ، مَا كَثُرَ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْكَرِيمَةِ، فَمَا أَحْسَنَهَا مَنْزِلَةً، وَأَطْيَبَهَا إِقَامَةً!!.

٧٧- قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: مَا يُبَالِي رَبِّي، وَلَا يَكْتُرُثُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ، فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبِكُمْ لَزَامًا لَكُمْ، فَيَقْتَضِي عِقَابَكُمْ وَهَلَاكَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عِقَابًا مُلَازِمًا لَكُمْ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- من ثمرات التوبة الصادقة تغيير مسار الحياة، والإكثار من العمل الصالح.
- ٢- أظهرت هذه الآيات النموذج الخَيْرَ للبشرية، وهم عبادُ الرحمن؛ كي يجاهد العبد نفسه ليكونَ منهم.
- ٣- شهادة الزور من أكبر الكبائر، لا يفعلها المؤمن.
- ٤- المؤمن يُكْرِمُ نفسه، فلا يحضُرُ مجالس الباطل، ولا يشارك فيها، ويتعدَّى عن أصحابها.
- ٥- المؤمن يتفاعل مع آيات القرآن وَيَعِيهَا وَيَتَدَبَّرُهَا، وتزیده إيماناً وطاعة وتقوى.
- ٦- تكون قرة العين بالأزواج والذرية في صلاحهم واستقامتهم.
- ٧- في الآية (٧١) إخبار مستقبلي عن قبول الله ﷻ توبة مَنْ تاب عَمَّا ارْتَكَبَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا، وَأَنَّهُ يُكَفِّرُ ذُنُوبَهُ؛ لِأَنَّهُ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ رَجُوعًا صَاحِحًا.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير التوحيد والبعث.
- ٢ - تسلية النبي ﷺ في مواجهة معوقات دعوته.
- ٣ - بيان أحوال الجنة والنار.
- ٤ - تقرير الرسالة، ووحى القرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَرَ ١ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩ ﴿﴾

التفسير:

- ١ - تقدّم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطّعة، وأنّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.
- ٢ - هذه الآيات العالية المقام، البالغة التمام، آيات القرآن الحافل بالبيان.
- ٣-٤ - لعلك - أيها الرسول - مهلك نفسك لعدم إيمان الكفار، لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، فتصير أعناقهم ذليلة منقادة.
- ٥-٦ - وما يأتيهم الرسول ﷺ بذكر من القرآن الذي ينزل حسب الحوادث؛ ليذكّرهم به، إلا أعرضوا عن استماعه، فقد كفروا به قطعاً، فسيأتيهم أخبار الأمر العظيم الذي كانوا يسخرون منه.
- ٧-٩ - أولم ينظروا إلى عجائب الأرض التي أنبتنا فيها من كل أصناف النبات الكثيرة النافعة الجميلة؟ إنّ في ذلك الإنبات الكريم لدلالة واضحة على عظمة قدرة الله تعالى. إنّ أكثر الناس ليسوا مُصدّقين بالله. وإنّ ربك هو العزيز في ملكوته، الرحيم بمخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - القرآن كتابٌ مُبِينٌ مُعْجِزٌ، ومواعظه مُتَجَدِّدَةٌ متكررةٌ.
 - ٢ - سُنةُ الله تعالى في الناس أَلَّا يُجْبَرُوا، ولا يُكْرَهُوا على الإيمان.
 - ٣ - القرآن يلفت أنظارنا إلى الآيات والعبر التي حولنا، في الأرض والآفاق؛ لتزيدَ صلَّتْنا بالله.
 - ٤ - تتكاثر النباتات من خلال الزواج والتلقيح بين الذكر والأنثى حتى يتم التكاثر بينهما.
- (http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=617)

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بِأَخِيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّ عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٠-١١ - يُدَكِّرُ الله تعالى بقصة موسى عليه السلام وفرعون، حين خاطب الله تعالى موسى من جانب جبل الطور أن اذهب إلى القوم الكافرين، قوم فرعون، ألا يخافون عقاب الله على كفرهم؟

١٢-١٤ - قال موسى: يا ربِّ إنني أخاف أن يكذبوا رسالتي، فيضيقُ صدري حُزناً من تكذيبهم، ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة، فأرسل إلى هارون؛ ليعينني على تبليغ الرسالة، وفرعون وقومه على دعوى ذنب؛ لأنِّي قتلت منهم رجلاً قبيطاً، فأخاف أن يقتلوني به كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣].

١٥-١٧ - قال الله تعالى: كلا إنهم لا يقدرُونَ على قتلِكَ. ثمَّ أمره وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون بالمعجزات، وذلك بعد أن استجاب له ليكون هارون معيناً له. ثمَّ وعدهما سبحانه بأنَّه معهما بالعون والنصرة، فقولا له: إن كلَّ واحدٍ منَّا رسول إليكم من رب العالمين، أن أطلق سراح بني إسرائيل؛ ليذهبوا معنا إلى بيت المقدس.

- ١٨-١٩- فقال فرعون لموسى مُنْكَرًا وَمُتَنَّنًا عَلَيْهِ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِي قُصُورِنَا صَغِيرًا، وَأَقَمْتَنَا عِنْدَنَا عِدَدًا مِنَ السِّنِينَ، وَقَتَلْتَ الرَّجُلَ الْقِبْطِيَّ، وَأَنْتَ مِنَ الْجَاهِدِينَ لِنِعْمِنَا؟
- ٢٠-٢١- فاعترف موسى بذلك الخطأ وبجهله، وذكر أنه بسبب ذلك هرب إلى أرض مَدْيَنَ خوفاً على نفسه من القتل. وفي تلك الرحلة أعطاه الله تعالى الحكمة والتوراة، وجعله من الأنبياء المرسلين.
- ٢٢- ثُمَّ أَنْكَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ قَائِلًا: وَكَيْفَ تَمُنُّ عَلَيَّ بِإِحْسَانِكَ إِلَيَّ وَقَدْ اسْتَعْبَدْتَنِي وَأَذَلَّكَ قَوْمِي بَنِي إِسْرَائِيلَ؟!

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الحذر مطلوب، والاحتياط واجب، عند القيام بالأعمال الكبيرة، بشرط ألا يقعد بصاحبه عن أداء الواجب.
- ٢- على الداعية أن يكون شجاعاً جريئاً في مواجهة أصحاب الباطل، فلا يخاف منهم، ولا يجبن أمامهم.
- ٣- الله مع جنوده وأوليائه من الرسل والدعاة بالتأييد والحفظ والتثبيت، وهذا يدفعهم إلى أداء واجب التبليغ بهمة أكبر.
- ٤- يتحدى موسى عليه السلام فرعون وملاه بقوة الإيمان والتوكل على الرحمن.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾
 قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِمَنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْكَ بِشْيءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾
 فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾

التفسير:

- ٢٣-٢٤- فبدأ فرعون الحوار مع موسى بسؤاله عن حقيقة رب العالمين، وذلك بعد أن قال موسى له: إني رسول من رب العالمين. فأجاب موسى: هو خالق السموات السبع والأرضين السبع، وما بينهما من المخلوقات، إن كنتم مصدقين بالله تعالى.
- ٢٥- قال فرعون لأعدائه المقربين سخرية ومكراً: أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى مَا قَالَه مُوسَى؟!
- ٢٦- قال موسى باعتزاز: الله خالقكم وخالق آباءكم الذين كانوا قبلكم.

- ٢٧- ثم أعلن فرعون حرب الإشاعة والاستهزاء: إِنَّ رَسُولَكُمْ موسى الذي أرسل إليكم لمجنون.
- ٢٨- فَرَدَّ عَلَيْهِ موسى مُنَاطِرًا: إِنَّ الرَّبَّ هُوَ رَبُّ الْمَشْرِقِ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَيَجْعَلُهَا تَغْرِبُ عِنْدَ الْمَغْرِبِ، وَهُوَ خَالِقُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ.
- ٢٩- فَلَمَّا أَخْفَقَ فرعون لجأ إلى أسلوب البطش والتهديد، إذ أقسم: لئن اتخذت يا موسى معبوداً غيري لأخسبَنَّكَ قَطْعاً مع المسجونين.
- ٣٠- فَرَدَّ عَلَيْهِ موسى بعرض المعجزات، فقال: أتسجنني ولو جئتك ببرهان صحيح يدل على صدقي؟
- ٣١- فأجاب فرعون متحدّياً: فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما تقول.
- ٣٢-٣٣- وبسبب هذا التحديّ جاء موسى بمعجزتين، فألقى عصاه من يده فإذا بها تتحوّل إلى حية ظاهرة بحركتها، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء يسطع نورها، فتبهر الناظرين.
- الفوائد والاستنباطات:
- ١- على صاحب الحق أن يُجسِّنَ مخاطبة الآخرين ومحاورتهم، وإقامة الأدلة عليهم.
 - ٢- يقوم أصحاب الباطل عادةً بالسخرية من أصحاب الحق، والتهكُّم بهم، واتِّهامهم في عقولهم وأفكارهم.
 - ٣- عندما ينهزم الطُّغاة في مجال الفكر والجدال، يلجؤون إلى سلاح التهديد والوعيد.
 - ٤- أصحاب الحق لا يخافون من الطُّغاة، ولا يُؤثِّرُ فيهم تهديد أو وعيد؛ لأنَّهم يُوقنون أنَّ الله معهم.

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَبْعُثُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لِنَأْتِيكَ بِكُنُوزٍ مِّنَ السَّمَاءِ نَزَّلْنَاهَا بِإِذْنِ رَبِّكَ إِذَا لَأِئْمَنَ الْمُقِرَّبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَأِئْمَنَ الْمُقِرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٤-٣٥- ولما فشل فرعون في هذه الجولة خاطب حاشيته مُتَّهَمًا موسى باحترافه السحر، وأنه يريد أن يخرجهم ومَن معهم من الأقباط من أرض مصر بهذا السحر العظيم، ثم طلب منهم المشورة.
٣٦-٣٧- فاقترحوا أن يُجَبَّسَ موسى وهارون، أو يُؤَخَّرَ أمرها، وأن يُرْسَلَ في مدن مصر الرسل ليجمعوا السحرة المهرة.

٣٨-٣٩- فجمَعَ فرعونُ السحرة صُحى يوم عيد الزينة، لحضور كثرة الناس الذين حَثَّهم على حضور هذا الاجتماع.

٤٠- وأمل هؤلاء الحضور أن تكون الغلبة للسحرة المهرة؛ لكي يتبعوا دينهم.

٤١-٤٢- فلما حضر السحرة مجلس فرعون قالوا له: هل لنا من الأجر الجزيل إن هَرَمْنَا موسى بسِحْرِنَا؟ فوافق فرعون مُشَجَّعاً لهم: نعم لكم ذلك وزيادة، بأن أجعلكم من المقربين إليَّ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- يَتَّهَمُ الطُّغَاةُ أصحابَ الحقِّ بأنهم على الباطل ليخدعوا شعوبهم بحرب الإشاعة.
- ٢- صاحب الحق يحرص على إيصال دعوته إلى أكبر عدد ممكن؛ ليقيم عليهم الحُجَّةَ.
- ٣- عندما تكون المواجهة بين الحق والباطل، يُحْشِدُ أصحاب الباطل كُلَّ ما عندهم، ويدخل صاحب الحق التحدي متوكلاً على الله.

﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَنطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير:

٤٣- قال لهم موسى: ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر، وذلك بعد أن خيَّره السحرة بين البدء والتأخر في الإلقاء.

٤٤- ألقى السحرة حجابهم وعصيتهم، وحلَّفوا بعزَّة فرعون مؤكداً إننا لنحن الغالبون، وسحروا أعين الناس وأفزعوهم بالتهاول.

٤٥- ثم ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلتهم سريعاً ما اختلقوه من الكذب والخداع.

٤٦-٤٨- فأمن السحرة بموسى، وخَرُّوا لله ساجدين، وكفروا بعزَّة فرعون أجمعين، وأعلنوا على النَّاس الإيِّمان قائلين: آمناً برَبِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون، فليس فرعونُ برَبِّ.

٤٩- وهذا الإعلان زلزل البلاط الفرعوني، فصاح فرعون بهم مُنكراً عليهم ومُؤيِّخاً لهم: صَدَقْتُمْ بموسى قبل أن تستأذنوني؟ ثم لجأ إلى الكذب والتهديد فقال: إنَّ موسى هو رئيسكم الذي عَلَّمَكُم هذا السحر! فلسوف تعلمون عقابي: لَأَقْطَعَنَّ من كل واحد منكم يديه ورجليه من خِلافٍ - بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس -، ثم لَأُعَلِّقَنَّكُم في جذوع أشجار النخل وأيديكم ممدودة؛ لتصيروا على هيئة الصليب، ولن يفلت أحد منكم من عقابي.

٥٠-٥١- فردَّ عليه السحرة التائبون بثقة وعزَّة الإيِّمان: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقابك، إننا إلى خالقنا راجعون بالموت. إننا نرجو من الله أن يغفر لنا ذنوبنا وجرائمنا، بأن كُنَّا أول دفعة من المؤمنين من قوم فرعون.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- لا يصمد الباطل أمام الحق في المواجهة، لأنَّ الحق يذمُّغُه ويُزهِّقُه.
- ٢- يحرص الطغاة على تليق التُّهم للدعاة، وإلصاقها بهم، وتعذيبهم، وقتلهم للقضاء على دعوتهم.
- ٣- بيان ثمرة الإيِّمان في استعلاء المؤمنين على السحرة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

التفسير:

٥٢- وأوحينا إلى موسى أن يرحل ببني إسرائيل ليلاً من مصر إلى صحراء سيناء؛ لأن فرعون وجنوده متبعوكم.

٥٣-٥٦- فأرسل فرعون أتباعه في البلاد المصرية لجمع الحشود من الجنود؛ ليدركوا موسى والمؤمنين معه. وقال فرعون محرضاً جنوده: إن هؤلاء أتباع موسى لطائفة قليلة، وإنتهم لفاعلون ما يغيظنا، إذ خرجوا من غير إذن، وإننا جميعاً مستعدون بحذرٍ وحزمٍ لقتلهم.

٥٧-٥٩- فأخرجنا فرعون وقومه من أرض مصر، وما فيها من البساتين النضرة والعيون العذبة والكنوز الثمينة والمنازل العظيمة. ومثل ما أخرجناهم من مصر إلى البحر الأحمر، جعلنا هذه الديار إرثاً لبني إسرائيل.

٦٠-٦٢- ولما خرج موسى والمؤمنون معه لحق بهم فرعون وحشود جنده نحو الشرق إلى البحر الأحمر، وقت شروق الشمس.

فلما تقارب الفريقان، ورأى كل واحدٍ منهما الآخر، خاف أصحاب موسى فقالوا: إن فرعون ومن معه يلحقون بنا، فرد عليهم موسى زاجراً ومطمئناً: كلاً لن يُدرِكوكم، إن ربِّي معي سيرشدني إلى طريق النجاة بالحفظ والنصر.

٦٣-٦٦- فأمرنا موسى عن طريق الوحي أن يضرب بعصاك البحر، فضربه فانشقَّ البحر، فكان كل جزء من الأجزاء المنفصلة عن البحر كالجبل الضخم، وقرَّبنا فرعون وجنوده ليدخلوا المكان اليابس الذي فيه موسى ومن معه، وأنجينا موسى وقومه أجمعين من الغرق بعبورهم البحر بسلام، ثم أغرقنا فرعون وجنوده برجوع البحر كما كان قبل انشقاقه.

٦٧-٦٨ - إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ مِنَ الْإِغْرَاقِ وَالنَّجَاةِ لَعِبْرَةٌ مُؤَثَّرَةٌ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ الَّذِينَ سَمِعُوا بِهِ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ!! وَإِنَّ رَبَّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - لَهُو الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْمَكْذِبِينَ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الطغاة الظالمون يتكبرون ويتنفسون، ويستهيون بأصحاب الحق ويحتقروهم.
- ٢ - الله مع جنوده وعباده الصالحين بالحفظ والرعاية والتوفيق، لا يخذلهم، ولا يُسلمهم إلى إعدائهم.
- ٣ - التوكل على الله تعالى من مبادئ القائد المؤمن.
- ٤ - المؤمن يعتبر ويتعظ بما يرى، أو يسمع من الآيات والأحداث، أمَّا الكافر فإنه يختوم على قلبه، لا يعتبر ولا يتأثر.

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير:

- ٦٩-٧١ - واقرأ - أيها الرسول - على الناس خبر إبراهيم عليه السلام حين قال لأبيه وقومه: أي شيء هذا الذي تعبدونه؟ فأجابوه بافتخار: نعبد أصناماً، فنقيم على عبادتها دائماً.
- ٧٢-٧٣ - ثم سأهم إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم، أو يستجيبون لكم إذ تدعونهم؟ أو يُقدِّمون لكم نفعاً، أو يضرُّونكم إن تركتم عبادتهم؟
- ٧٤ - لم يجيبوا عن ذلك، وإنما ذكروا أنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك، وهم يُقلِّدون آباءهم.

٧٥-٨٢- فَرَدَّ عَلَيْهِمْ مَوْبِخًا لَهُمْ: أَفَرَأَيْتُمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ؟ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ أَعْدَاءُ لِي لَا أَعْبُدُهُمْ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي، فَهُوَ يُرْشِدُنِي إِلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُنِي الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَإِذَا أَصَابَنِي مَرَضٌ فَهُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي يَعَافِينِي مِنْهُ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي عِنْدَ انْتِهَاءِ الْأَجْلِ، ثُمَّ يُحْيِينِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي أَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ لِي ذَنْبِي يَوْمَ الْحِسَابِ.

٨٣- وبعد هذا الإعلان أخذ يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء، كما في الآيات السبع التالية: يَا رَبِّ أَهْلَمْنِي الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ، وَأَلْحِقْنِي بِزُمرَةِ الصَّالِحِينَ.

٨٤-٨٩- واجعل لي ذكراً حسناً في الأجيال الذين يأتون بعدي، واجعلني من الذين يستحقون ميراث نعيم الجنة، واغفر لأبي آزر، إنَّه كان من المشركين، ولا تُدَلِّني يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، الَّذِي لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَلِكُ الْأَمْوَالِ، وَلَا كَثْرَةُ الْبَنِينَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مِنَ الشَّرْكِ وَالْكَبَائِرِ، وَلَكِنَّ دَعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ بِالْمَغْفِرَةِ لَمْ يَسْتَجِبْ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ أَصْرَّ عَلَى الْكُفْرِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَعَدْتَنِي إِلَّا تُخْزِنِي يَوْمَ يَبْعَثُونَ. فَيَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ».

(صحيح البخاري ٨/ ٣٥٧- كتاب التفسير - سورة الشعراء، باب (الآية)، برقم ٤٧٦٩).

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب تقديم الدعوة إلى أقرب الناس، والإنكار عليهم مخالفتهم، والبراءة منهم إن أصروا على كفرهم ومخالفتهم.
- ٢- خطورة تقليد الآباء وأتباعهم على ما هم فيه من باطل، وأخطر ما يكون هذا في العقيدة.
- ٣- المؤمن يخاف من أهوال يوم القيامة، ولذلك يطلب إلى الله السَّترَ فيه.

﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْقِنِ ٩٠ ﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ٩٣ فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ١٠٢ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٣ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠٥ ﴾

التفسير:

٩٠- وأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلَّذِينَ أَطَاعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ، واجتنبوا نواهيهِ.

٩٠-٩٥- وَبُرِّزَتِ النَّارُ لِلْكَفَّارِ، وَقِيلَ لَهُمْ تَوْبِيخًا: أَيْنَ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ بِإِنْقَادِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ يَنْتَصِرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْبِرَاءَةِ مِنْكُمْ وَمِنْ عِبَادَتِكُمْ لَهُمْ؟ فَأُلْقِي فِي النَّارِ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الْكَفَّارِ وَقَادَتِهِمُ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى الشَّرِكِ، وَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ جَمِيعًا.

٩٦-١٠٢- وَقَالَ الْكَفَّارُ لِقَادَتِهِمْ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ مَعَهُمْ: قَسَمًا بِاللَّهِ إِنَّنَا كُنَّا فِي انْحِرَافٍ بَعِيدٍ عَنِ الْحَقِّ حِينَ نُسَاوِيكُمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَضَلَّنَا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى إِلَّا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَنَا سَبِيلَ الضَّلَالِ، فَمَا لَنَا مِنْ أَحَدٍ يَشْفَعُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا صَدِيقٍ يَشْفِقُ عَلَيْنَا، فَتَمَنَّى أَنْ نَرْجِعَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَتَّى نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ.

١٠٣-١٠٤- إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ فِي مَصِيرِ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ مِنَ النَّارِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحِسَابِ. وَمَا كَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ بِمُصَدِّقِينَ بِهِ سَبْحَانَهُ. وَإِنَّ رَبَّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - هُوَ الْعَزِيزُ فِي مَلَكُوتِهِ، الرَّحِيمُ بِمَخْلُوقَاتِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَذَكَّرَ دَائِمًا أَحْدَاثَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيَسْتَقِيمَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.
- ٢- يَعْتَرِفُ الْكَفَّارُ فِي الْآخِرَةِ بِخَطِيئَتِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، بَيْنَمَا كَانُوا يَرْفُضُونَ الْاعْتِرَافَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا.
- ٣- يَتَمَنَّى الْكَفَّارُ الْعُودَةَ إِلَى الدُّنْيَا؛ لِيُؤْمِنُوا، وَذَلِكَ لِشُعُورِهِمْ بِالْحَسْرَةِ وَالْخَسَارَةِ فِي الْآخِرَةِ.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَانْقُوتُوا
 اللَّهُ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾
 قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو
 تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْجَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا وَجَّحِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلَاكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٠٥-١١١- كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ جَمِيعَ رِسَالِ اللَّهِ تَعَالَى؛ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لِنُوحٍ، حِينَ قَالَ لَهُمْ نُوحٌ أَخُوهُمْ
 الْإِتِّخَافُونَ عِقَابَ اللَّهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، أَمِينٌ فِي نَصْحِي لَكُمْ، فَخَافُوا عَذَابَ اللَّهِ،
 وَأَطِيعُوا أَمْرِي، وَلَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ إِلَيْكُمْ، وَمَا أَطْلُبُ ثَوَابِي إِلَّا مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،
 فَخَافُوا عِقَابَ اللَّهِ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي. فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِتَكْبُرٍ: هَلْ نُصَدِّقُكَ يَا نُوحُ وَنَتَّبِعُكَ، وَاتَّبَاعَكَ هُمْ سَفَلَةُ
 النَّاسِ، مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالضَّعْفَاءِ؟

١١٢-١١٥- فَرَدَّ عَلَيْهِمْ نُوحٌ: وَمَا عَلِمِي بِجَرَافِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ وَسِرَائِرِهِمُ الْقَلْبِيَّةِ؟ مَا حِسَابُهُمْ عَلَى
 سِرَائِرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي، لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَلَسْتُ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ بِي مِنْ مَجْلِسِي، مَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مِنَ
 اللَّهِ لِإِنذَارِ الْعِبَادِ بِالْحِجَّةِ الْوَاضِحَةِ.

١١٦- فَهَدَّاهُ قَوْمَهُ، وَأَقْسَمُوا لَهُ: لَنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ دَعْوَتِكَ لِنَقْتَلَنَّكَ رَمِيًّا بِالْحِجَارَةِ.

١١٧-١٢٠- فَتَضَرَّعَ نُوحٌ إِلَى رَبِّهِ بِالْدَعَاءِ: يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِي، فَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ
 حُكْمًا تَنْصُرُ فِيهِ الْحَقَّ، وَتُدَمِّرُ الْبَاطِلَ، وَأَنْقِذْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّا تُعَاقِبُ بِهِ الْكَافِرِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
 وَأَنْقَذْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ الْخَافِلَةِ بِالْمَتَاعِ وَالْحَيَوَانَاتِ، ثُمَّ أَهْلَكْنَا الْكُفَّارَ بِالْفِرْقِ.

١٢١-١٢٢- إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ مِنَ الْإِغْرَاقِ وَالنَّجَاةِ لِعِبْرَةٍ مُؤَثَّرَةٍ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ الَّذِينَ سَمِعُوا
 بِهِ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَإِنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ لَهُو الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْمَكْذِبِينَ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - مقاييس أهل الباطل جاهليةٌ خادعةٌ، لذلك يحتقرون المؤمنين.
- ٢ - عندما ينهزم أصحاب الباطل أمام حُجَّةِ أصحاب الحق، يلجؤون إلى سلاح التهديد والتعذيب.
- ٣ - المؤمن يلجأ إلى رَبِّه عندما تضيق به السُّبُلُ، فيطلب منه الفَرَجَ والنصر.
- ٤ - نتيجة الصراع بين الحق والباطل انتصار الحق، ونجاة جنوده، وهزيمة الباطل.

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَنَا أَوْ عَظَّمْتَ أَمْرًا لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

التفسير:

١٢٣-١٢٧ - كَذَّبَتْ قَبِيلَةَ عَادَ رَسُولَهُمْ هُودًا - وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَقَدْ كَذَّبَ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ - حِينَ قَالَ لَهُمْ هُودٌ أَخُوهُمْ فِي النَّسَبِ: أَلَا تَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ فِي عِبَادَتِكُمْ لغيره؟ إِنَّنِي لَكُمْ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، أَمِينٌ فِي نَصْحِي لَكُمْ، فَخَافُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي، وَلَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَىٰ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ إِلَيْكُمْ، وَمَا أَطْلُبُ ثَوَابِي إِلَّا مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

١٢٨-١٣١ - ثُمَّ قَالَ هُودٌ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ مَوْضِعٍ مَّرْتَفِعٍ مِنَ الطَّرِيقِ بِنَاءً شَاخِحًا؛ لِأَجْلِ اللَّهِو وَالْعَبَثِ؟ وَتُعَمَّرُونَ قِصُورًا فَخْمَةً مُحْصَنَةً، كَأَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ فِيهَا وَلَا تَمُوتُونَ، وَإِذَا اعْتَدَيْتُمْ عَلَىٰ أَحَدٍ ضَرَبْتُمْ وَبَطِشْتُمْ كَصَنِيعِ الْجَبَابِرَةِ فِي بَطِشِهِمْ، فَخَافُوا عِقَابَ اللَّهِ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي.

١٣٢-١٣٦ - وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي رَزَقَكُمْ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَرَزَقَكُمْ الْمَوَاشِيَ وَالْأَوْلَادَ وَالْجَنَاتِ النَّضْرَةَ وَالْعُيُونَ الْعَذْبَةَ. إِنَّنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ - إِنْ لَمْ تَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعَمِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ - عَذَابَ يَوْمٍ شَدِيدٍ فِي أَسْمَائِهِ، فَأَجَابُوهُ بِسُخْرِيَّةٍ: يَسْتَوِي عِنْدَنَا تَذْكَيرُكَ لَنَا وَعَدْمُهُ، فَلَا نَبَالِي بِمَا تَقُولُ!

١٣٧-١٣٨ - وقالوا أيضاً: ما هذا الذي نحن عليه إلا دين الآباء السابقين، ولسنا نحن بمُعذِّبين بعد موتنا.

١٣٩-١٤٠ - فكذبوا هوداً، فدمرناهم بريح عاتية. إنَّ ذلك الدمار لَعِبْرَةٌ مُؤَثَّرَةٌ، وما كان أكثر الذين سمعوا به مصدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك - أيها الرسول - هو العزيز في انتقامه من المكذِّبين، الرحيم بالمؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - على الداعية أن يستخدم مختلف الأساليب المناسبة في الدعوة بالحسنى، من ترغيبٍ وترهيبٍ ومُحِبِّبٍ.
- ٢ - التَّجَبُّرُ والاستبداد والتعامل مع الآخرين بالبطش والقسوة، يقود إلى هلاك صاحبه.
- ٣ - الطُّغْيَانُ والتجبرُ يُعْمِيَانِ عن الحق، والله يَقْصِمُ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ، وَيُهْلِكُهُ.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَنْكُرُونَ فِي مَا هَنَاهَا ءَامِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْوِينَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَٰضِمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْجُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا قَرِيرِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِئْ بِإِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴿١٥٨﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

التفسير:

١٤١-١٤٥ - كَذَّبَتْ قَبِيلَةَ ثَمُودَ نَبِيَّهُمْ صَالِحاً - وفي ذلك تكذيب لجميع المرسلين - حين قال لهم نبيُّهم صالح وأخوهم في النسب: ألا تخافون عقاب الله في عبادتكم غيره؟ إنني لكم رسول من الله، أمين في تبليغ الرسالة إليكم، فخافوا عذاب الله، وأطيعوني في أمري، وما أطلب منكم جزاءً على تبليغ الدعوة إليكم، وما أطلب ثوابي إلا من الله ربِّ العالمين.

١٤٦-١٥٢- أمْحَسِبُونَ أَن يَتْرَكُكُمْ رَبُّكُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا آمِنِينَ مِنَ الْعِقَابِ وَالْمَوْتِ؟ فِي جَنَاتِ نَضْرَةٍ، وَعَيْونَ عَذْبَةٍ، وَزُرُوعٍ مَثْمَرَةٍ، وَأَشْجَارٍ نَخْلٍ رَطْبِهَا يَبَاعُ نَاضِجًا، وَتَبْتُونَ فِي الْجِبَالِ بِيوتًا مَاهِرِينَ بِنَحْتِهَا بِطَيْرِينَ بِفَخَامَتِهَا، فَخَافُوا عَذَابَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرِي، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُضِلِّينَ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِنَشْرِ الْمَعَاصِي، وَلَا يَأْبَهُونَ بِإِصْلَاحِهَا.

١٥٣-١٥٤- فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِغُرُورٍ وَمَكْرٍ: مَا أَنْتَ إِلَّا مِنَ الَّذِينَ سُجِرُوا سِحْرًا بِالْغَا يُذْهِبُ الْعُقُولَ، مَا أَنْتَ إِلَّا رَجُلٌ مِثْلُنَا، فَأَتَيْنَا بِمُعْجَزَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِكَ.

١٥٥-١٥٦- قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ الطيب: هَذِهِ نَاقَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ لَكُمْ، لَهَا نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ لَا تَشْرَبُونَ فِيهِ الْمَاءَ، وَإِنَّمَا تَشْرَبُونَ مِنْ لَبْنِهَا، وَلَكُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ لَا تَشْرَبُ النَّاقَةُ فِيهِ، وَلَا تُصِيبُهَا بِأَيِّ شَيْءٍ يُوْذِيهَا، فَيُعَاقِبُكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ يَوْمَ عَظِيمٍ.

عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ - هُوَ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ رضي الله عنه - قَالَ: قَالَتْ ثُمُودٌ لَصَالِحٍ: ائْتِنَا ﴿بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ: أَخْرَجُوا، فَخَرَجُوا إِلَى هَضْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا هِيَ تَمَخَّضُ كَمَا تَمَخَّضُ الْحَامِلُ، ثُمَّ إِنَّمَا انْفَرَجَتْ فَخَرَجَتِ النَّاقَةُ مِنْ وَسْطِهَا، فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. (أخرجه البستاني في تفسيره، ينظر: التفسير الصحيح ٤/ ٤٠١).

١٥٧-١٥٩- فَتَحَرَّ أَشْقَاهُمْ النَّاقَةَ، فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ عَلَى جَرِيمَتِهِمْ، فَدَمَّرَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا بِالصَّيْحَةِ الَّتِي زَلَزَلَتْ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِمْ. إِنَّ فِي ذَلِكَ الْعِقَابَ الْعَظِيمَ لِدَلَالَةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي عَقُوبَةِ الْمُجْرِمِينَ الْمَكْذِبِينَ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ الَّذِينَ سَمِعُوا بِهِ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَإِنَّ رَبَّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - هُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي انتِقَامِهِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يُنْظَرُ: أَطْلَالَ ثُمُودٍ فِي مَدَائِنِ صَالِحٍ، كَمَا فِي الْمَلْحَقِ.
- ٢ - لَا تَدُومُ نِعْمُ اللَّهِ عَلَى أُمَّةٍ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ وَمَسْكَنِ، إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَشُكْرِهِ.
- ٣ - عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ تُطِيعَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ، وَلَا تُطِيعَ الْمُسْرِفِينَ الْمَفْسِدِينَ.
- ٤ - تَمَيُّزُ مُعْجَزَةِ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحِ الطيب وَمَا فِيهَا مِنَ الرِّزْقِ، وَيَقَابِلُهَا تَمَيُّزُ الْعَقُوبَةِ.
- ٥ - وَحِدَةُ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى التَّوْحِيدِ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْقَبُوا
 اللَّهُ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْتَأْذِنُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمَّا تَنْتَه يَلُوطُ
 لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ
 وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
 الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

التفسير:

١٦٠-١٦٤- كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ رَسُولَهُمْ لُوطًا، فَكَانُوا بِذَلِكَ مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، حِينَ قَالَ لَهُمْ
 أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَخَافُونَ عِقَابَ اللَّهِ بِعِبَادَتِكُمْ غَيْرِهِ، وَجَرِيْمَتِكُمْ الْخَبِيْثَةِ؟ إِنَّنِي لَكُمْ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، أَمِينٌ فِي
 تَبْلِيْغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْكُمْ، فَخَافُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَأَطِيعُونِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَى تَبْلِيْغِ الدَّعْوَةِ
 إِلَيْكُمْ، وَمَا أَطْلُبُ ثَوَابِي إِلَّا مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

١٦٥-١٦٦- ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ جَرِيْمَتَهُمُ الْقَبِيْحَةَ: أَتَغْفِسُونَ الذُّكْرَانَ فِي أَدْبَارِهِمْ، وَتَشْتَدُّونَ بِهَذِهِ الْجَرِيْمَةِ
 الشَّنِيْعَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْخَلْقِ، وَتَتْرَكُونَ مَا أَبَاحَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنَ الْاسْتِمْتَاعِ بِالْإِنَاثِ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مَجْرَمُونَ.

١٦٧- وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَقْسَمُوا لَنْ لَمْ يَتْرَكَ تَهْتَبَهُ عَنْ إِجْرَامِهِمْ لَنْظَرُ دَنَّهُ مِنَ الْبَلَدِ.

١٦٨-١٧٣- فَرَدَّ عَلَيْهِمْ مُسْتَحَقْرًا لِجَرِيْمَتِهِمْ: إِنَّنِي مِنَ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ إِجْرَامَكُمْ الشَّنِيْعَ بِشِدَّةٍ،
 يَا رَبِّ أَنْقِذْنِي أَنَا وَأَهْلِي مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بِسَبَبِ عَمَلِهِمْ الْخَفِيْر، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَأَنْقَذْنَاهُ هُوَ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْهَالِكِينَ، ثُمَّ أَهْلَكْنَا الْآخَرِينَ أَشَدَّ الْهَلَاكِ بِالْخَسْفِ، وَأَمْطَرْنَاهُمْ بِحِجَارَةٍ كَثِيْفَةٍ
 مِنَ السَّيِّئِ. فَبَسَّ هَذَا الْمَطَرُ، مَطَرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَوَّفَهُمْ نَبِيُّهُمْ، فَكَذَّبُوهُ.

١٧٤-١٧٥- إِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ الْفَرِيْدِ الْعَجِيْبِ لَدَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى عِظْمَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِقَابِهِ
 الْمَجْرَمِينَ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ الَّذِينَ سَمِعُوا بِهِ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَرِسُوْلِهِ. وَإِنَّ رَبَّكَ - أَيُّهَا الرِّسُوْلُ - هُوَ الْعَزِيْزُ
 الْقَهَّارُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْمَجْرَمِينَ، الرَّحِيْمُ بِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - على الداعية أن يُنكِرَ على قومه معاصيهم وانحرافاتهم، ويُعَلِّمَ براءته من أفعالهم.
- ٢ - المنحرفون الشاذون لا يقبلون بوجود أصحاب العفة والطهر بينهم، فيحاربونهم ويهددونهم.
- ٣ - ارتكاب الفواحش والمعاصي يقود إلى عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما فعل الله بقوم لوط.
- ٤ - انتشار فاحشة اللواط يجلب الدمار والأمراض الخطيرة.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنْقَوْنَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

التفسير:

١٧٦-١٨٠ - كَذَّبَ أَصْحَابُ الْبُقْعَةِ ذَاتِ الشَّجَرِ الْكَثِيفِ الْمَلْتَفِ - قرب مدينة مَدْيَنَ التي تقع شرق صحراء سيناء - المرسلين بسبب تكذيبهم شعيباً حين قال لهم: ألا تخافون الله في عبادة غيره؟ إني لكم رسول من الله، ناصح لكم في تبليغ الرسالة إليكم، فخافوا عذاب الله وأطيعوني في أمري، وما أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم، إنما أطلب الثواب من الله رب العالمين.

١٨١-١٨٣ - أَمُّوا حَقَّ الْكَيْلِ، ولا تكونوا من المنقِصين في المكيال، وأمُّوا حَقَّ الْمِيزَانِ بِالْعَدْلِ السَّوِيِّ، ولا تُنْقِصُوا النَّاسَ حَقُّوْقَهُمْ، ولا تَسْعُوا فِي الْأَرْضِ بِفِعْلِ الْمَعَاصِي وَالْخَبَائِثِ؛ لَتَنْشُرُوا الْفَسَادَ فِيهَا.

١٨٤ - وخافوا الله بامثال أمره واجتناب نهيه، الذي خَلَقَكُمْ وخلق الأمم السابقة.

١٨٥-١٨٧ - فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِسَفَاهَةٍ وَمَكْرٍ: ما أنت إلا من الذين سُجِرُوا سِحْرًا بِالْغَايِ يُذْهِبُ الْعُقُولَ، ما أنت إلا رجل مثلنا، وإنا نعتقد أنك كاذب، فإن كنت صادقاً في دعواك فأسقط علينا عذاباً بقطع من السماء.

١٨٨ - قال شعيب مُهَدِّدًا لَهُمْ: رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْكَفْرِ.

١٨٩- فأصْرُوا على تكذيبه، فأخذهم عذاب يوم الظلة، إذ أصابهم حرٌّ، فاستظلُّوا تحت سحاب، فلَمَّا اجتمعوا جاءهم هيب رهيب من النار، فأحرقهم جميعاً في ذلك اليوم الذي كان شديد العذاب.
١٩٠-١٩١- إنَّ في ذلك العقاب العظيم لدلالة واضحة على عظمة قدرة الله في عقوبة المجرمين المكذِّبين، وما كان أكثرُ الذين سمعوا به مصدِّقين بالله ورسوله. وإنَّ ربَّك -أيها الرسول- هو العزيز في انتقامه من المجرمين، الرحيم بعباده المؤمنين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الجرائم الاقتصادية، وأكلُ حقوق الآخرين، سبُّه عدمُ تقوى الله.
- ٢- الإفساد في الأرض يقود إلى تخريب الاقتصاد، وتدمير الأموال.
- ٣- الاستهزاء بأصحاب الحق وتكذيبهم وإيذاؤهم سببٌ لتبيل غضب الله وعقابه.
- ٤- على الداعية محاربة المنكرات المتعلقة بالمال والاقتصاد، والنهي عن ظلم الآخرين.

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٨٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٨٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوْلِيْنَ ﴿١٨٦﴾ أَوْ لَرِيكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٨٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٨٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٩١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿١٩٣﴾ أَوَيْعْدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٩٤﴾ أَفَرَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٩٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿١٩٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩٩﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٠٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٠١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

التفسير:

١٩٢-١٩٦- وإنَّ هذا القرآن لمنزَّل حقاً من ربِّ العالمين، نزل به جبريل على قلبك - أيها الرسول - لتسمعه وتحفظه، وتندر بآياته المكذِّبين من النار، نزل باللغة العربية الفصيحة الواضحة. وإنَّ هذا القرآن مُبشِّرٌ به في كتب الأنبياء السابقين.

١٩٧- أولم يكن للكفار علامة على صحَّة القرآن ونبوة محمد ﷺ، وهي أن يعلم ذلك علماء اليهود

والنصارى؟

١٩٨-١٩٩- ولو نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَكَلَّمِ الْعَرَبِيَّةَ، فَقَرَأَهُ عَلَى كَفَّارِ الْعَرَبِ قِرَاءَةً عَرَبِيَّةً فَصِيحَةً صَحِيحَةً لَمْ يُصَدِّقُوا بِهِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ فِي تِلَاوَتِهِ.

٢٠٠-٢٠٤- كَذَلِكَ أَذْخَلْنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ تَرَكُ الْإِيمَانَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ حَتَّى يَشَاهِدُوا الْعَذَابَ الْمَوْجِعَ، فَيُصِيبُهُمُ الْعِقَابُ فَجْأَةً، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمَجِيئِهِ، فَيَطْلُبُونَ إِمْهَالَهُمْ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ لِيُؤْمِنُوا، وَلَكِنْ لَا إِمْهَالَ لَهُمْ، بَلْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُؤَيَّبًا لَهُمْ: كَيْفَ كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ؟

٢٠٥-٢٠٧- أَخْبَرَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ طَوِيلَةً ثُمَّ جَاءَهُمُ الْعِقَابُ الْمَوْعُودُ، مَاذَا يَنْفَعُهُمْ حِينَئِذٍ مَا مَضَى. مِنْ طَوْلِ أَعْمَارِهِمْ وَطِيبِ مَعَاشِهِمْ؟ لَمْ يَنْفَعُهُمْ لِدَفْعِ الْعِقَابِ.

٢٠٨-٢٠٩- وَمَا دَمَّرْنَا مِنْ بَلَدَةٍ إِلَّا بَعْدَ الْإِنْذَارِ بِالْمُرْسَلِينَ، وَتِلْكَ مَوْعِظَةٌ لِلْعِبَادِ. وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ فِي تَعْذِيهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وَيَنْظُرُ مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِهَا.

٢١٠-٢١٢- وَمَا تَنْزَلَتْ بِهَذَا الْقُرْآنِ الشَّيَاطِينُ، بَلْ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيْلُ، وَمَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَنْزَلَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الشَّيَاطِينُ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ مُنْعَبُونَ وَحُجُبُونَ مِنْ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- عَلُوُّ شَرَفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، إِذْ نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَتَكَلَّمَ بِهَا الرَّحْمَنُ.
- ٢- عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يُجَيِّدَ تَقْدِيمَ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَإِبْطَالِ شُبُهَاتِ الْكُفَّارِ حَوْلَهُ.
- ٣- كُفْرُ الْكَافِرِينَ قَائِمٌ عَلَى الْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَهَذَا لَا يَنْفَعُ مَعَهُ أَيُّ دَلِيلٍ.
- ٤- اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى الْأَلَّا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِنْذَارِهِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.
- ٥- فِي الْآيَاتِ (٢٠٥-٢٠٧) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ بِأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ وَاقِعٌ عَاجِلًا أَمْ آجِلًا بِمَنْ مَتَّعَهُمُ اللَّهُ بِالْحَيَاةِ بِتَأْخِيرِ آجَالِهِمْ.

٦- فِي الْآيَةِ (٢٠٨) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُهْلِكُ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَنْتُمْ كَمِ
عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كَذِبًا ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ
يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوَنُ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

التفسير:

٢١٣-٢١٦- يُرشد الله تعالى رسوله ﷺ بتوجيهات عظيمة وأحكام كريمة؛ لتبليغ العباد بذلك: فلا
تعبد مع الله معبوداً آخر، فيعذبك الله بنار جهنم. وهذا الخطاب للأمة، لأن النبي ﷺ معصوم من ذلك،
وأنذر عشيرتك الأقربين فالأقربين من عذاب النار، وتواضع لأصحابك المصدقين بك، فإن عصوك ولم
يطيعوك فقل لهم: إنني بريء مما تشركون بالله تعالى، وقد قام رسول الله ﷺ بهذا الأمر، كما وردَ عن أبي
هريرة ؓ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال: «يا معشر قريش - أو
كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله
شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمه رسول الله ﷺ، لا أغني عنك
من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً». (صحيح البخاري
٨/ ٣٦٠ - كتاب التفسير - سورة الشعراء برقم ٤٧٧١، وصحيح مسلم - الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ برقم ٢٠٧).

٢١٧-٢٢٠- واعتمد في كل أمورك على الله، العزيز في نعمته من أعدائه، الرحيم بعباده، الذي يراك
حين تقوم وحدك إلى التهجُّد، وحين تصلي الفروض إماماً بالمصلين. إنه هو السميع للأقوال، العليم
بالأحوال.

٢٢١-٢٢٣- هل أخبركم -أيها العباد- على مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ؟ إِنَّهَا تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ كَذَّابٍ شَرِيرٍ،
يَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ - قبل أن يُجْجَبُوا بِرَجْمِ الشُّهْبِ -، وَيُلْقُونَ ذَلِكَ لِلْكَهَنَةِ، وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْكَهَنَةِ
كَاذِبُونَ.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سألت ناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال: «ليس بشيء». قالوا: يا رسول الله، إنهم يُحَدِّثُونَنَا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق»

يخطفها الجني فيُقْرِئُهَا فِي أذُنِ وَلِيِّهِ، فيخلطون معها مئة كذبة». (صحيح البخاري ٢١٦/١٠ برقم ٥٧٦٢ - كتاب الطب، باب الكهانة. وصحيح مسلم ٤/ ١٧٥٠ برقم ٢٢٢٨/١٢٢-١٢٣).

٢٢٤-٢٢٧- يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الشُّعْرَاءَ صَنَفَانِ مِنْ حَيْثُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، فَالشُّعْرَاءُ الْفَسِقَةُ يَتَّبِعُهُمُ الضَّالُّونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ أَوْدِيَةِ الْقَوْلِ مِنَ الْمَدْحِ الْمَذْمُومِ، وَالْهَجَاءِ الْمَكْلُومِ، وَالْمَجُونِ الْمَسْمُومِ، يَسِيرُونَ سِيرَ الْهَائِمِ، حَائِرِينَ، وَعَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ جَائِرِينَ، وَأَنَّ أَكْثَرَ أَقْوَالِهِمْ كَذِبٌ، إِذْ يَنْسُبُونَ لَأَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يَعْمَلُوا؟ ثُمَّ اسْتَنْتَى سَبْحَانَهُ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْهُمْ: إِلَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ، وَأَكْثَرُوا فِي شِعْرِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَالنَّهْيِ عَلَيْهِ، وَدَافَعُوا عَنْ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَانْتَصَرُوا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي انْتِصَافِ الْمَظْلُومِ مِنْهُمْ. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا أَيَّ مَصِيرٍ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ؟!

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب تبليغ الدعوة إلى الأقرب فالأقرب.
- ٢- وجوب التواضع ولين الجانب، وحسن الخلق، مع الأتباع والأصحاب والإخوان.
- ٣- الكذب والافتراء سبيلٌ لإغواء الشياطين، واستحوادهم على مَنْ يقومون بذلك.
- ٤- مَدْحُ الشُّعْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمُلتَزِمِينَ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ الْحَقَّ.
- ٥- فِي الْآيَاتِ (٢٢٤-٢٢٦) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنْ حَالِ الشُّعْرَاءِ الْفَاسِقِينَ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ مِنْ أَنَّ شِعْرَهُمْ يَقُومُ عَلَى الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ، وَيَجَارِيهِمُ الضَّالُّونَ الزَائِغُونَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ.
- ٦- فِي الْآيَةِ (٢٢٧) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنْ سُوءِ مَصِيرِ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَظَلَمَ غَيْرَهُ بَغْمَطٍ حَقِّهِ، أَوْ اعْتَدَى عَلَيْهِ، أَوْ اتَّهَمَهُ بِالْبَاطِلِ.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - تقرير التوحيد، والرسالة، والبعث.
- ٢ - بيان عظمة القرآن الكريم ومقاصده.
- ٣ - تفصيل قصة ملك داود عليه الصلاة والسلام ونبوته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

- ١ - ﴿طَسَّ﴾ تَقَدَّمَ في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن. هذه الآيات البعيدة المرام، البديعة النظام، آيات القرآن والكتاب الحافل بالبيان.
- ٢-٣- ونلك آيات تهدي إلى صراط مستقيم، وتُبشِّرُ بجنَّات النعيم للذين أقرُّوا الله بالوحدانية ورسوله بالرسالة. ومن صفاتهم أنَّهم يُؤدُّون الصلاة في أوقاتها وبشروطها، ويُعطون الزكاة لمستحقِّيها، وهم يُصدِّقون بالآخرة تصديقاً جازماً.
- ٤-٥- إنَّ الذين يُكذِّبون بالآخرة زَيَّنَّا لهم أعمالهم السيئة حتى رَأَوْها حسنة، فهم في ضلالهم يتخبَّطون. أولئك البعداء عن رحمة الله لهم أشدُّ العذاب في الدنيا، وهم في الآخرة أشدُّ الناس خسارةً.
- ٦- وإنَّك - أيها الرسول - أشرف الخلق تَتَلَقَّى القرآن من عند الله الحكيم في تدبيره، العليم بخلقه ورسله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الإشارة إلى الإعجاز البياني للقرآن بذكر الحروف المقطعة، والتحدّي بذلك.
- ٢ - ليس الإيمان مجرد تصديق بالقول، بل لابد أن تنتج عنه الأعمال الصالحة، كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.
- ٣ - إنكار الآخرة سبب الإسراف في الملتذات والشهوات، والوقوع في الطغيان والفساد.
- ٤ - تقرير الرسالة النبوية الخالدة.
- ٥ - تمييز معجزة القرآن الكريم عن بقية الكتب السماوية بتلقّي النبي ﷺ من جبريل عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخْبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۗ ﴾ (٧)
 فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبَّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يُعَقِّبُ يَمْوَسِيٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى
 الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
 مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْرٍ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا
 سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴿

التفسير:

٧- واذكر - أيها الرسول - حين قال موسى عليه السلام لأهله - وهو في صحراء سيناء قد أخطأ الطريق من مدين إلى مصر - إنني أبصرت نارا، ساتيكم بخبر يدُلُّنا على الطريق، أو آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها من البرد.

٨-٩- فلما أتى موسى عليه السلام النار ناداه الله تعالى، وبشّره أن هذا المكان الذي فيه النار وما حوله من النور مقدّس مبارك، ومن بركته: أن جعله الله موضعاً لتكليم موسى وندائه وإرساله، وتنزيهاً لله ربّ الخلاق عمّا لا يليق به. يا موسى إنّه أنا المعبود بحق، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ قال: كان ذلك النار نوره ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي: بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ، وَمَنْ حَوْلَ النَّارِ. (مجموع الفتاوى ٥/٤٦١).

١٠-١٢- وَأَلْقِ عَصَاكَ مِنْ يَدِكَ، فَلَمَّا أَلْقَاهَا وَرَأَاهَا تَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ كَحَرَكَةِ الْجِنِّ، فزِعَ وَقَرَّ هَارِبًا مِنَ الْمَشْهَدِ الْعَجِيبِ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا. فظمأنه الله سبحانه، وآتسه بندائه باسمه مرّة أخرى: يا موسى لا تخف

من هذا المشهد، إني لا يخاف عندي المرسلون، فهم في أمن، إلا من ظلم من سائر العباد ثم تاب من ظلمه، فبدل عمله السيئ إلى عمل صالح، فإني غفور له، رحيم به، وأدخل يدك في جيب قميصك تخرج بيضاء مشرقة من غير مرض أصابها، في جملة تسع معجزات وهي: العصا واليد ونقص الثمرات والظوفان ورفع الرجز والجراد والقمل والضفادع والدم، إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله.

١٣ - فلما جاءت فرعون وقومه هذه المعجزات التسع وغيرها - وهم قد رأوها رأي العين - اتهموا موسى بالسحر، وزعموا أن هذه الآيات سحر صريح.

١٤ - وكذبوا بهذه الآيات الواضحة مع أن قلوبهم متيقنة بأنها حق من عند الله تعالى عدواناً وتكبراً على المؤمنين، فانظر - أيها الرسول - كيف كان مصير المجرمين؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - خوف الإنسان من الخطر أمر طبيعي لا يلام عليه.
- ٢ - يُقيمُ الله الحجَّةَ على الكافرين، فيؤيِّدُ رُسُلَهُ بأكثر من آية بيِّنة، ومعجزة واضحة.
- ٣ - الكفار يعرفون الحق بقلوبهم، وتوقن به نفوسهم، ومع ذلك يُنكرونها بالستهم، ويجارِبونه عناداً وعُلُوّاً واستكباراً.
- ٤ - على العقلاء أن يعتبروا بما جرى للمكذِّبين السابقين؛ لئلا يُصيِّبهم ما أصابهم.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
 وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۗ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ
 ﴿١٦﴾ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ
 نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَ
 ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
 تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - قسمًا لقد أعطينا داود عليه السلام وسليمان عليه السلام علمًا واسعًا من علوم الدنيا والآخرة، وقالوا: الحمد لله الذي فضَّلنا بهذا العلم والملك على كثير من عباده المصدِّقين بالله.

١٦-١٧ - وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ السَّلْطَنَةَ أَبَاهُ دَاوُدَ السَّلْطَنَةَ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْمَلِكِ، وَبَشَّرَ سُلَيْمَانَ السَّلْطَنَةَ الْعِبَادَ بِقَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا كَلَامَ الطَّيْرِ، وَأَعْطَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَحْتِاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا. إِنَّ هَذَا الْعَطَاءَ الْكَرِيمَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الْوَاضِحُ، وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ السَّلْطَنَةَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ بِأَصْنَافِهِ، كُلِّ جِنْسٍ بِجِيُوشِهِ مُنْتَظِمِينَ.

١٨-١٩ - فَسَارَ مَوْكِبَ سُلَيْمَانَ السَّلْطَنَةَ وَجُنُودَهُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ وَادِيَ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ انْتَبِهُوا، ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ؛ لِكَيْلَا يَسْحَقَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِذَلِكَ. فَتَبَسَّمَ سُلَيْمَانُ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِ النَّمْلَةِ، وَفَهَّمَهَا أَنَّ سُلَيْمَانَ السَّلْطَنَةَ وَجُنُودَهُ لَا يُؤْذُونَ أَحَداً وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَحَرَصَهُمْ عَلَى مَصْلَحَةِ النَّمْلِ، وَقَالَ مُتَضَرِّعاً لِرَبِّهِ سَبْحَانَهُ: يَا رَبِّ أَلْهِمْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ مِنَ النَّعْمِ الْكَثِيرَةِ، وَوَقَّفَنِي أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا تَرْضَاهُ مِنِّي، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَأَمْنَحْنِي الْجَنَّةَ مَعَ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - كان سليمان بن داود نبياً من أنبياء بني إسرائيل، لا ساحراً كما يزعم اليهود.
 - ٢ - أفضل ما يمينُ الله به على عبده بعد الإيمان هو العلم، وبه يُفَضَّلُ على عباده الآخرين.
 - ٣ - المؤمن يعترف بالله بنعمه عليه، ويشكركه عليها، ويسأله المزيد منها.
 - ٤ - التنظيم والترتيب في الأمور الإدارية مطلوب، كما كان جيش سليمان السَّلْطَنَةَ.
 - ٥ - الاهتمام بالآخرين، ونصحتهم، وتقديم الخير لهم مرغوب فيه، حتى في عالم الطيور والحيوانات، كما حصل مع النملة.
 - ٦ - أثبت العلماء أن النمل من أكثر الحشرات تنظيماً، إذ تتنوع فيه المسؤوليات والوظائف والأعمال، ولديه وسائل للتواصل عن بُعد، وذلك من خلال إفراز مواد خاصة تنتشر رائحتها في كل اتجاه، وتميزها بقية النملات وتفهمها. وأن النملة لها قدرة هائلة على التخاطب بأكثر من لغة واحدة، فلكل مستعمرة من مستعمرات النمل لغتها الخاصة بها التي يتحدث ويتفاهم بها بعض أفرادها مع بعض.
 - ومن الحقائق العلمية المؤكدة أن النملات المؤنثة هي التي تتولى الدفاع عن المستعمرة وحمايتها من أي خطر مفاجئ، وذلك بإصدار إشارات لبقية أفراد المستعمرة ليتنبهوا للخطر القادم.
- (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٦٧-٧٢).

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذِبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ عَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنُنظِّرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكَتَابِي هَذَا فَأَلْفَهْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير:

٢٠-٢٢- وبحث سليمان عليه السلام عن جنده من الطيور فقال: لم لا أرى الهدهد؟ بل كان من الغائبين، فلما تبين أنه غائب أقسم ليعذبه عذاباً شديداً، أو ليدبحه، أو لياتيه بحجة واضحة تُفصِّحُ عن عُذْرِهِ، فبقي الهدهد غائباً زمناً سيراً، وقال لسليمان عليه السلام: اطلعتُ على ما لم تطلع عليه، وجئتك من مدينة سبأ - وهي قبيلة مشهورة في اليمن - بخبر عظيم موثوق مهم.

٢٣-٢٤- إني رأيت في أهل سبأ امرأة تحكمهم، وأعطيت من كل أسباب الدنيا التي يحتاج إليها الملوك، ولها سرير عظيم القدر، رأيتها وقومها يعبدون الشمس من دون الله سبحانه، وحسن لهم الشيطان عبادة الشمس وغيرها من الأعمال القبيحة، فصرفهم عن الإيمان بالله تعالى، فهم لا يهتدون إلى طريق الحق.

٢٥-٢٦- زين لهم الشيطان ذلك؛ لئلا يسجدوا للذي يخرج المخبوء في السموات والأرض، ويعلم ما تُسِرُّون وما تُظهِرُون، الله سبحانه الذي لا معبود بحق غيره، وهو ربُّ العرش الذي هو أعظم المخلوقات.

٢٧-٢٨- قال سليمان عليه السلام للهدهد سنثبت من الخبر، أصدقت في ذلك أم كنت من الكاذبين؟ وكتب كتاباً، ثم أمر الهدهد أن يذهب به؛ ليعثه إلى ملكة سبأ، ثم ينصرف عنهم؛ لينظر ماذا يردون من الجواب؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- على القائد أن يتفقد جنوده، وعلى الراعي أن يتفقد رعيته؛ ليقف على حاجاتهم، ويرى انضباطهم.
- ٢- العدل في التحقيق والحكم واجب، ويكون بسامع كلام المتهم، وقبول عذره إن كان مقبولاً.
- ٣- مهما أوتي الإنسان من علم يبقى علمه قليلاً، وقد يكون الأدنى منه يعلم ما لا يعلمه هو.
- ٤- وجوب غيرة المسلم على دينه، وإنكاره على أهل الباطل.

٥- على المسؤول التريث والتأني في الحكم على ما يسمع من كلام، ويقرأ من تقارير الآخرين، فلا يُسرِع بقبول ذلك، أو رَدّه من دون تَثَبُّت.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
 أَلَا تَعْلَمُوْنَ عَلَىٰ وَأَتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُوْنَ
 ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا
 قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوْا أَعْيُنَ أَهْلِهَا أَدْلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ
 يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩-٣١- ولما تسلّمت ملكة سبأ الخطاب المهيب جمعت كبار القوم، وخاطبتهم باحترام للمشورة والتقوي: يا أيها الأشراف إنني أتاني كتاب عظيم مُرسَل من سليمان، بدأه بشأن عظيم: بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تتكبروا عليّ، وأقبلوا إليّ خاضعين لدين الله.

٣٢- ثم كررت الخطاب بالتوقير للمشورة، معترفة بعدم اتخاذ القرار إلا بعد نظر الكبار.

٣٣- فأجابوها بالتلميح للمواجهة العسكرية: نحن أصحاب قوّة في الرجال والسلاح والمال، وأرباب عزم وحسم في القتال، والقرار موكول إليك، فانظري في الأمر الذي تأمريننا به.

٣٤-٣٥- وهذه الإجابة طمأننتها من طرف قومها، لكنها متخوّفة من هيبه رسالة سليمان ~~الملك~~ وما فيها من الحسم والجزم، فحدّرت من المواجهة، وحاولت إرضاء الطرفين فقالت: إن الملوك إذا استولوا على بلدة بالجيوش خربوها، وأهانوا أشرافها. ومثل ذلك يفعلون إذا انتصروا علينا، وإنّي سأبعث إلى سليمان بهدية عظيمة، ومنتظرة: بم يرجع الرسل من قبول الهدية، أو رَدّها؟

الفوائد والاستنباطات:

١- يجب أن تكون الدعوة إلى الله بالحسنى، كما ظهر ذلك من كتاب سليمان ~~الملك~~ لملكه سبأ.

٢- الحاكم الصالح يقوم باستشارة كبار رجال دولته، وفي هذا الخَيْر للدولة.

٣- من أدب المستشارين تقديم آرائهم بأحسن صورة، وتفويض الحاكم باتخاذ القرار.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَيْبَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾
 أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا تَأْيُتُهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي
 بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايَتِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ
 أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايَتِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ
 هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
 قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ
 كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾
 قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ
 رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿

التفسير:

٣٦-٣٨- فلما جاء رسل الملكة بالهدية إلى سليمان عليه السلام، أنكر عليهم مؤيخاً لها ومن معها: أعطوني مالاً؟ فما أعطاني الله من العلم والنبوة والملك أفضل مما أعطاكم من المال، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تهدي إليكم، ارجع إليهم أيها الرسول المكلف، قسماً لنأيتيهم بجنود متميزة لا طاقة لهم بمجابهتها، ولنخرجهم من أرضهم أذلاء وهم مهانون. وطلب سليمان عليه السلام من كبار معاونيه من الإنس والجن: أيكم يأتيني بعرش ملكة سبأ قبل أن يأتي القوم خاضعين؟
 ٣٩- قال مارد قوي من الجن: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإني لقوي على حمله، أمين على ما فيه.

٤٠- قال أحد العلماء بالكتاب الإلهي: أنا آتيك بعرشها قبل أن يرجع إليك بصرك إذا طرقت بأجفانك، فدعا الله سبحانه، فأتى بالعرش. فلما رأى سليمان عليه السلام العرش حاضراً لديه قال: هذا الأمر من فضل الله؛ ليختبرني: أشكر الله على نعمه أم أجحد؟ ومن شكر الله على نعمه فإن ثواب شكره لنفسه، ومن جحد النعمة ولم يشكرها فإن ربِّي غني عن الشكر، كريم بعموم خيره للعباد.

٤١-٤٣- فأراد سليمان عليه السلام أن يدعواها إلى الإسلام فقال: غيروا بعض معالم عرشها لنرى: هل تهتدي إلى معرفته؟ فيكون سبباً لهدايتها إلى دين الإسلام، لما في إحضار العرش من المعجزة العجيبة التي تدل على صدق سليمان، فأجابت منبهة معترفة بهذه المعجزة: كأنه هو بذاته - لأنها أدركت فيه بعض التغيير- فعلم سليمان رُجحان عقلها، فقال متحدثاً بنعمة الله، موضحاً لها عظمة العلم إذا كان من عند

الله، وقدرة الله تعالى في تأييد أنبيائه: وأوتينا العلم بقدرة الله من قبل علم ملكة (سبأ)، وكُنَّا مُنْقَادِينَ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى. وَمَنَعَهَا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عِبَادَتُهَا الشَّمْسَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، فَهِيَ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ.

٤٤ - وَلَمَّا رَأَى سَلِيمَانٌ مِنْهَا ذِكَاءَهَا وَدَقَّةَ جَوَابِهَا زَادَهَا مَشْهُدًا آخَرَ؛ لِئُرِيَهَا عِظَمَةَ الْمَلِكِ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلِيُكْرِمَهَا وَيُنزِلَهَا مَقَامًا يَلِيقُ بِهَا لِدَعْوَتِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لِتَأْثِيرِهَا فِي قَوْمِهَا، فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهَا إِلَى الْقَصْرِ الْعَجِيبِ ذِي الْأَرْضِ الزَّجَاجِيَةِ الْمَائِيَةِ! فَدَخَلَتْ وَرَأَتْ صَحْنَهُ مِنَ الزَّجَاجِ الصَّافِي وَتَحْتَهُ الْمَاءَ النَّقِيَّ، فَحَسِبَتْ أَنَّهُ مَاءٌ ذُو أَمْوَاجٍ مَتَحَرِّكَةٌ مِنْ غَيْرِ زَجَاجٍ، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا لِئَلَّا تَبْتَلَّ ثِيَابَهَا، فَقَالَ لَهَا سَلِيمَانٌ: إِنَّهُ صَحْنٌ أَمْلَسَ مِنْ زَجَاجٍ يُغَطِّي الْمَاءَ. فَعَلِمَتْ نِيَّةَ سَلِيمَانَ الصَّادِقَةَ فِي هِدَايَتِهَا وَقَوْمِهَا، فَأَعْلَنْتَ إِسْلَامَهَا قَائِلَةً: يَا رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بِعِبَادَةِ غَيْرِكَ، وَأَسْلَمْتُ خَاضِعَةً لَكَ؛ مُتَابِعَةً لِسَلِيمَانَ فِي انْقِيَادِهِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الداعية ليس جامع مال، ولا طالب دنيا، ولا يقبل الهدية إذا كانت ثمناً لسكوته عن الحق.
- ٢ - التقدم العلمي والصناعي والتقني معروف مُنذُ الْقَدَمِ، يَدُلُّنَا عَلَيْهِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مَلَكَةُ سَبَأَ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلِيمَانُ.

- ٣ - إِذَا ذَكَرَ الْمُؤْمِنُ بَعْضَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فَلْيَكُنْ ذَلِكَ مِنْ بَابِ شُكْرِ اللَّهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.
- ٤ - عِظَمَةُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَيْسِيرِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ شَبْهُ مُسْتَحِيلَةٍ، فَسَبْحَانَ اللَّهِ الْقَادِرِ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيزَنَا بِكَ وَيَمُنُّ مَعَكَ قَالَ طَبَقْنَاكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِئْسَ مَا يُوْثِقُهُمْ خَاوِيَةٌ يَمَاظِلْمُوا فِي ذَلِكَ لَأَيَّةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٥-٤٦- وقسماً لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً عليه السلام ليبلغهم، ويقول لهم: اعبدوا الله وحده. وفجأة ينقسم القوم إلى فريقين: مؤمنين وكافرين، فخطب صالح عليه السلام الكفار مستعظفاً ببناء النسب: يا قوم لماذا تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ هَلَّا تطلبون من الله تعالى المغفرة؛ لكي تنالوا رحمة الله تعالى.

٤٧- فرَدُّوا عليه بسفاهة: تشاء منا بك يا صالح وبمَن معك، فأجابهم بأدب: ما أصابكم من خير أو شرٍّ فهو مُقَدَّرٌ عليكم من الله تعالى، بل الحقيقة أنكم تُخْتَبَرُونَ بالابتلاء.

٤٨-٥٠- وكان في مدينة صالح - وهي جِجر ثمود - تسعة رجال أشرار مجرمين يسعون في الأرض فساداً، ولا يباليون بشيء من الإصلاح، وتأمروا على أن يتعاهدوا عهداً مؤكداً بالقسم بالله تعالى أن تأتي صالحاً وأهل بيته المؤمنين بغتة في الليل فنقتلهم جميعاً، ثم إذا جاء وليُّ الدم من قرابته يطالبنا قلنا له: ما حَضَرْنَا مكان القتل، ولا ندري مَنِ القاتل؟ وإننا لصادقون قي قولنا. وهكذا دَبَّرُوا هذه المكيدة، فعاقبهم الله بالدمار، وهم لا يشعرون أنه سبحانه جَعَلَ تدميرهم في تدميرهم.

٥١-٥٣- انظر - أيها الرسول - كيف كان عاقبة كيدهم؟ إِنَّا أَهْلَكْنَا الرهط التسعة المجرمين وقومهم الكافرين أجمعين، فهذه مساكنهم البعيدة عن الأمن والإيمان خالية من البشر بسبب كفرهم. إِنَّ فِي ذَلِكَ الْعِقَابَ لَدَلَالَةً وَّاضِحَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أَتْبَاعَ الْحَقِّ، وَأَنْقَذْنَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُمَثِّلُونَ أَمْرَ اللَّهِ، وَيَجْتَنِبُونَ نَهْيَهُ.

٥٤-٥٥- ولقد أرسلنا لوطاً ~~الظالم~~ إلى قومه حين قال لهم مُنْكَرًا عليهم: أتفعلون الجريمة البشعة المتناهية في القبح والفحش، وأنتم تعلمون أنه إجرام فاضح؟ ثمَّ وَيَبِّخُهُمْ تَارَةً أُخْرَى: أنكم لتَغْتَشُونَ الرجال في أدبارهم من أجل الشهوة الشيطانية، وتتركون ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، بل أنتم تجهلون خطورة هذه الجريمة في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ينظر: أطلال قوم صالح، كما في الملحق.
- ٢- رعاية الله تعالى الأنبياء من بطش الأعداء.
- ٣- من أقيح صور الانحراف والشذوذ ارتكاب الفواحش عَلَنًا.
- ٤- ينظر: صورة النخل المنقعر والحاوي، كما في الملحق.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٥٦- لكنهم أصروا على جريمتهم الشنيعة، وردّوا على نبيهم لوط بتهمك واستهزاء، فقالوا: أخرجوا لوطاً وأهل بيته من بلدكم. إنّ هؤلاء يترفّعون عن مشاركتكم فيما تفعلونه، ولا يُقرّون صنيعكم، فلا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم.

٥٧- وعندما قرّنا عقابهم - لما لنا من العظمة والقدرة - أنجينا رسولنا لوطاً وأهل بيته من العذاب الذي سيحلُّ بقومِهِ، لكن امرأته كتبنا عليها أن تكون من الباقين في العذاب مع المهالكين؛ لأنّها كانت رذءاً لهم، تذلّم على ضيوف لوط؛ لياتوا إليهم، ويطمعوا فيهم.

٥٨- ولما لنا من العظمة والقدرة، أمطرنا على هؤلاء المفسدين من السماء مطر سوء، فيه حجارة من طين مهلكة، فساء مطر هؤلاء الذين أنذرهم لوط، فقامت عليهم الحجة؛ لأنهم كذبوا رسولهم، وهمّوا بإخراجه، فاستحقوا العذاب. والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: فساء مطر المنذرين مطرهم.

٥٩- أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يحمّد الله على ما تضمّنته قصص الأنبياء من العذاب الذي حلَّ بأقوامهم المكذّبين، وعلى ما أفاده سوؤ تلك القصص من الإيذاء إلى الوعد بالنصر على أعدائه. كما أمره أن يتبع الحمد بالسّلام على عباده الذين اختارهم؛ لينهضوا بالرسالة. وفي هذا وفاء وتقدير لمنزلة ما تحمّسّموه في سبيل الدعوة. ثم أمره أن يردّ على المشركين مُنكراً عليهم: الله الذي ذكّرت أفعاله وصفاته الدّالة على عظيم قدرته خير، أم هذه الأصنام التي تُشركونها مع الله في العبادة؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- يضيق المفسدون في الأرض ذرعاً بمن يُعارض نزواتهم.
- ٢- الرضا بفعل الآخرين للمنكر، وإعانتهم على تعاطيه، سبب لاستحقاق العذاب.
- ٣- قد يُعجل الله عقوبته للمفسدين في الأرض، وقد يؤخّرها إلى يوم الدين.
- ٤- في قصص القرآن دروس للدعاة بأن نصر الله قريب.
- ٥- لم ينفع امرأة لوط أنّها امرأة نبيّ، فلا يُنجي من العذاب الصلة بال صالحين.

٦ - قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾: «يَسْأَلُ اللهُ أَنْ يُكْرِمَ عِبَادَهُ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ، وَحُسْنِ الذِّكْرِ؛ إِذْ قَصَارَىٰ مَا يَسْتَطِيعُهُ الْحَاضِرُ مِنْ جِزَاءِ الْغَائِبِ عَلَىٰ حُسْنِ صَنْيعِهِ، أَنْ يَبْتَهَلَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَنْفِخَهُ بِالْكَرَامَةِ». (التحرير والتنوير: ٨ / ٨).

٧ - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جاءت لفظة ﴿خَيْرٌ﴾ بصيغة التفضيل؛ مجازةً لمعتقدتهم أَنَّ أَصْنَامَهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ، فَكَانَ لَهُمْ حِظٌّ مِنَ الْخَيْرِ، وَعَبَّرَ بِ﴿خَيْرٌ﴾ لِإِيْهَامِ أَنَّ الْمَقَامَ لِإِظْهَارِ رَجْحَانِ إِهْمِيَةِ اللَّهِ؛ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطَأِ مَعَ التَّهْكُمِ بِهِمْ، إِذْ آثَرُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ؛ وَذَلِكَ لِتَنْفِثِ بَصَائِرِهِمْ إِلَى الْحَقِّ. (انظر: البسيط للواحدي ١٧ / ٢٧٢).

٨ - اللهُ أَنْ يَتَمَدَّحَ بِنَفْسِهِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَهْلٌ لَهُ، وَهَذَا لَيْسَ لغيره.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي فَضْلٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي فَضْلٍ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ
بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي فَضْلٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير:

٦٠ - واسأل قومك أيها الرسول: أعبادة ما تعبدون من الأوثان خير، أم عبادة الله الذي خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء مطراً نافعاً، تقوم به شؤونكم في الحياة، وأنبت الله بسببه حدائق وبساتين ذات منظر حسن، تقرُّ به عيون الناظرين؟ ليس في قدرتكم أن تُنبتوا شجرها، لولا أن الله خلق لكم الأسباب والمسببات، فأزال ما يمنع هذا الإنبات، فهل ثمة خالق مع الله يُعينه على ذلك؟ بل إن هؤلاء المشركين قوم يميلون عن طريق الحق، فيجعلون غير الله نظيراً له في العبادة، وهو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير.

٦١ - اسألهم أيها الرسول: أعبادة غير الله خير، أم الذي مهَّد الأرض للإقامة عليها، وجعلها ثابتة مستقرة - كما تبدو في الظاهر - فلا تميد، مع أنها تسبحُ في الهواء متحركة؟ وجعل بينها أنهاراً أجراها بحسب مصالح العباد، كما أنشأ لهذه الأرض جبالاً ثوابت شامخة، تُرسي الأرض وتثبتها، وجعل بين المياه العذبة والمياه المملحة مانعاً يمنعها من الاختلاط؛ لأنَّ بديع حكمة الله قضت ببقاء كلِّ منهما وفق صفته التي قدرها. أئمة إله مع الله شارك الله في إبداع هذا الخلق، فأشركتموه في عبادتكم إياه. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يُدركون عجائب قدرة الله، فيُشركون معه غيره في عبادته، وهم لا يعلمون ما عليهم من الشقاء؛ بسبب إشراكهم بالله، ولا يُدركون ما لهم من السعادة في إفرادهم له.

٦٢ - بل اسألهم يا محمد: أعبادة ما تشركون مع الله خير، أم عبادة الله، فهو الذي يجيب المحتاج إذا سأل؛ ليكشف كربته، ويُزيل ما يعتريه من مكروه. وهو الذي يجعلكم - أيها الناس - تعمرون الأرض، وتجتنون منافعها، وما ادَّخرته من كنوز، ويجعل كلَّ حيٍّ خلفاً عن سلفه، وكلَّ أمة خلفاً عن أمة عاشت

قبلها. ليس هناك إله آخر يمنحكم هذه النعم، ويُقدِّر لكم التصرف فيها. ما أقلُّ تذكركم - أيها المشركون - في الاستدلال والاعتبار الموصِّل للتصديق والإيمان!!.

٦٣ - بل أسألهم - يا رسول الله - عمَّن يُرشدُهم إلى سلوك الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر إذا ضلُّوا، فخلق لهم النجوم، وهياً لها نظاماً؛ لتهدِّي السائرين، ووضَّع في الناس المدارك التي تُعرِّفهم متابعة المسير الصحيح. وأسألهم عمَّن يُرسلُ الرياح مُبشِّراتٍ بين يدي السحاب الذي يسوق مطراً يُغيث العباد القنطين، ويُحيي الأرض المجذبة. فهل ثمة إله مع الله يصنع ذلك؟ تنزَّه الله المتفرِّد عن أن يكون له شريك.

٦٤ - بل أسألهم أيها الرسول: مَنْ الذي يُنشئُ الخلق ابتداءً من غير مثالٍ سبق، ثم يُعيد هذا الخلق بعد فَنائه كهيئته قبل أن يُفنيه. وَمَنْ الذي يُنزلُ لكم المطر الذي فيه رزقكم من السماء، وَمَنْ الذي يُنبئُ لكم أنواع الزروع والثمار في الأرض؟ أئمة إله مع الله يفعل ذلك؟

قل لهم أيها الرسول: هاتوا حُجَّتكم إن كنتم تزعمون أنكم صادقون في اتخاذكم شركاء لله في العبادة، وأنَّ أحداً يفعل هذه النعم المتقدمة سوى الله.

٦٥ - قل لهم أيها الرسول: إنَّ الغيب لا يعلمه أحد في السموات ولا في الأرض إلا الله؛ فقد استأثر بدقائقه، ولا علم لهم متى يُبعثون؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - نون الجمع في ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى الحضور. ومن لطائفه هنا: التنصيص على أنَّ المقصود إسناد الإنبات إليه؛ لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء؛ لأنَّ التذكير بالنبات الحقيقي الذي خلق الأسباب أليقُ بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمته.

٢ - في قوله: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ إشارة إلى استمتاع الفطرة بالمنظر الجميل.

٣ - استخدم القرآن الكريم طائفةً كبيرة من الاستدلالات العقلية التي تحملُ قدرًا من المقدمات، والنتائج القاطعة.

٤ - ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.

٥ - في الآية (٦٢) إخبار مستقبليٌّ في استجابة الله تعالى المنكوبين، إذا أخلصوا الدعاء له. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وبشارة لعباد الله المؤمنين أنَّ الله ﷻ سيجعلهم خلفاء لمن سبقوهم من الكفار في الأرض.

٦ - في الآية (٦٣) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله يرسل الرياح مُبشِّراتٍ بما يرحم به عباده من غيث يُحيي

مَوَاتِ الأَرْضِ.

٧- عن عائشة رضي الله عنها ومن زعم أنه - الرسول ﷺ - مُخْبِرٌ بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: ولقد رآه نزلة أخرى. ١/١٥٩، برقم ١٧٧).

﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءِذَا بَآؤُنَا أَنبَاءَ الْمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَّءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا سَطِيرٌ الْأُولِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

التفسير:

٦٦- بل كان هؤلاء القوم في جهل من وقوع الآخرة، وغاب علمهم عما تشتمل عليه من أهوال. حتى إذا عاينوها يوم القيامة، ورأوا كل ما وعدوا به، تكامل لديهم علم ما كانوا يجهلون، أو يُنكرونه في دار الدنيا. بل كانوا من قبل في شكٍ مريب، بل عميت أبصارهم وبصائرهم في الدنيا، فلا يُدرِكون شيئاً من دلائل الآخرة.

٦٧- شرع الكافرون المنكرون للبعث يُردّدون ما يعتقدونه: أنحن إذا متنا، ومات آباؤنا الأولون، وبليت الأجساد فصارت تراباً، أتبعث أحياء كهيتتنا التي كنا عليها قبل الموت، فنخرج من قبورنا؟ ذلك رجع بعيد.

٦٨- ويؤكد هؤلاء الجاحدون مزاعمهم بأن وعد البعث والنشأة الآخرة، كل أولئك أوهاهم غابرة مُلققة ومزاعم قيلت لنا، ولآبائنا من قبلنا، ولم يقع منها ما يدُلُّ على صدق مضمونها.

٦٩- قل - أيها الرسول - هؤلاء الجاحدين: تأملوا في أحوال الأمم السابقة التي كذبت الرسل الذين قدّموا النصح لهم، وانظروا ما حلَّ بهؤلاء المكذبين لرسولهم. لقد مرّتهم الله كل ممزق، وكان ما لهم إلى هلاك وبوار.

٧٠- ويربط الله سبحانه على قلب نبيه، ويُلقِي في رُوعه رباطة الجأش، من خلال ما يعانیه في سبيل دعوته، فلا تذهب نفسك حسراتٍ على هؤلاء المكذبين من قومك، فإنما عليك البلاغ، ولا تكن في حرجٍ يضيق عنه صدرك؛ بسبب ما يكيدونه لك من مكرٍ وافتراء، فإن الله ناصرٌ عليهم.

٧١- وَمَنْظِي الآيات بالحديث عَمَّا يَسْتَعِدُّهُ هَوْلَاءُ الْجَاهِدُونَ، مِنْ أَسَالِيبٍ تَتَضَمَّنُ السَّخْرِيَّةَ وَالتَّهْكَامَ، فَهَمْ يَسْتَبْعِدُونَ مَا يَعِدُّهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَيَطْلُبُونَ تَعْيِينَ وَقْتِ هَذَا الْوَعِيدِ الْمُرْتَقِبِ، إِنْ كَانَ عَلَى يَقِينٍ بِوُقُوعِهِ.

٧٢- قُلْ لِمَ أَيُّهَا الرَّسُولُ: أَرْجُو أَنْ يَكُونَ وَعِيدُ اللَّهِ الَّذِي تُوعِدُونَ بِهِ، وَتَسْتَعْجِلُونَ إِحْاطَتَهُ بِكُمْ، قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ، وَدَنَا مِنْكُمْ. وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الْمَصِيرِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ فِي مَوْقِعَةِ بَدْرٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- التعبير بالظرفية في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ للدلالة على إحاطة الشك بهم، ووقوعهم فيه، كما أَنَّ التعبير بالجملة الاسمية ﴿هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ للدلالة على ثبات الخبر ودوامه.
- ٢- أحاط الله بكل شيء علماً في السموات والأرض.
- ٣- لله على الناس فضلٌ عظيم، ولكنَّ طبيعة أكثرهم الجحود بهذا الفضل.
- ٤- لَا يَعْقِلُ دَعْوَةَ اللَّهِ مَنْ أَصَمَّهُ اللَّهُ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ.
- ٥- قال ابن عاشور في الآية (٦٦): «﴿عَمُونَ﴾: جمع عم، وهو فعل من العمى مثال مبالغته للدلالة على شدة العمى، وهو تشبيه عدم العلم بالعمى، وعدم العلم بالأعمى، فشبه ضلالهم عن البعث بالعمى في عدم الاهتداء إلى المطلوب، على تشبيه المعقول بالمحسوس». (التحرير والتنوير: ٢٣/٨).
- ٦- كل حكم يُصَدَّرُ بـ «قل» دليل على الاهتمام به؛ لأنَّ الله تعالى جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه. (انظر: تفسير الشيخ ابن عثيمين ٦/١٩٦).
- ٧- إذا بذل الداعية ما يجب عليه فقد يخالفه الناس. وهذه المخالفة ينبغي ألا تُعَيِّقَهُ عَنْ مِتَابَعَةِ سِيرِهِ.
- ٨- فِي الْآيَةِ (٧٢) ﴿رَدِفَ﴾ ضَمَّنَ مَعْنَى فَعَلٍ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ أَيُّ: اقْتَرَبَ لَكُمْ. (انظر: الدر المصون ٨/٦٣٩).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۗ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

التفسير:

٧٣- إذا كان ربُّك - يا رسول الله - قد كتب على قومك تأخير عقوبته، وتنفيذ وعيده؛ بسبب إعراضهم وتكذيبهم لك، فإنَّ ذلك من فضله. وكلَّ وقت تتأخر فيه نعمة الله إنما يكونون في فسحة. إنَّ نِعَمَ الله متعددة تستوجب منهم أن يشكروه، ولكنَّ أكثرهم جاحدون فَضَّلْنَا عليهم.

٧٤- وإنَّ ربك- أيها الرسول - لعليم بكلِّ ما تخفي صدورهم، وما يُظهرونه من الأقوال والأفعال. فإنَّ أضممر هؤلاء المكذِّبون شيئاً فإنَّه سبحانه مُطَّلِعٌ على سرائرهم وعلايتهم، وهو يعلم ما يكيدونه تجاه المؤمنين.

٧٥- والله سبحانه عالم بكل ما غاب عن العباد في السماء والأرض، فلا يعزُّب عن علمه شيء، وقد أودع تفصيل ذلك في أمِّ الكتاب لديه، فكيف يستعجل هؤلاء شيئاً من العذاب قبل أجله المضروب له؟
٧٦- إنَّ هذا الكتاب المنزَّل عليك- أيها الرسول - وحيٌّ من الله، يُبيِّن لبيني إسرائيل البيان الحق الذي أرادوا إخفاءه، وخبَطُوا في تحريفه، ويُرُدُّهم إلى الصواب في أكثر ما اختلفت فيه فرُفُّهم.

٧٧- إنَّ هذا القرآن استوعب مقاصد متعددة، فهو هدى للمؤمنين به، وهو كذلك رحمة مُهداة لِمَن اتَّبَعُوا نوره، فنالوا الفوز في الدنيا والآخرة، وحَصَّ المؤمنون بالذِّكْر؛ لأنَّهم المنتفعون به.

٧٨- أيها الرسول، إنَّ ربك يومَ يفصل بين الخلائق، ويقضي بين الفرق التي اختلفت في عقائدها، يحكم بقوله الحق، ويُجازي المحسن الذي انتهج سواء الصراط، ويعاقب المسيء الذي ضلَّ فيه، وهو العزيز في انتقامه، العليم بأحوال عباده.

٧٩- فإذا كان ربُّك - يا رسول الله - هو الذي يقضي، فعليك أن تعتمد عليه في جميع أمورك، وتُفَوِّضَ أمرَكَ إليه؛ فإنَّك قد أدَّيت الرسالة، وبلَّغت الأمانة، وتمكَّنت من الحق الواضح.

٨٠- لقد أعرض المشركون عن دعوتك؛ لأنهم لم ينتفعوا بما منحهم الله من قدرات، فهم موتى لم يفتحوا عقولهم وقلوبهم لآيات القرآن العزيز، وهم صُمُّ قد صَكُوا أَسْمَاعَهُمْ عن الاهتداء بها. وَتَوَلَّيْتَهُمْ مُدْبِرِينَ أَبْعَدُ فِي انْتِفَاء حَاسَّةِ السَّمْعِ عَنْهُمْ.

٨١- ولن تستطيع - يا رسول الله - أن تَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ الْعُمِّيَّ الَّذِينَ عَمِيَتْ أَبْصَارُهُمْ وَبَصَائِرُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ. وَإِذَا كَانَ السَّامِعُ يَتَرَقَّبُ مَعْرِفَةَ مَنْ هُمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُعَيِّنَهُمْ، فَهَمُ الْمُسْتَجِيبُونَ لِلدَّعْوَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- في القرآن الكريم بيانٌ شافٍ يَرُدُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الصَّوَابِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.
٢- لم يَقْصَّ اللهُ جَمِيعَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ لِأَنَّ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا فَائِدَةَ مِنْ ذِكْرِهِ، فَيَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْمَهْمِّ اللَّازِمِ.

٣- قال أبو حيان: «أمر الله تعالى رسوله بالتوكل عليه، وأخبره أنه على الحق الواضح الذي لا شك فيه، وهو كالتعليل للتوكل. وفيه دليلٌ على أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ يَحْقُّ لَهُ أَنْ يَثِقَ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْصُرُهُ وَلَا يَخْذَلُهُ.» (البحر المحيط ٧/٩٦).

٤- قال ابن عاشور: «شُبِّهُوا بِالْمُوتَى فِي انْتِفَاءِ إِدْرَاكِ الْمَعَانِي الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِهِ الْعُقْلَاءُ، وَبِالْصُّمِّ فِي انْتِفَاءِ إِدْرَاكِ بِلَاغَةِ الْكَلَامِ، وَشُبِّهُوا ثَلَاثًا بِالْعُمِّيِّ فِي انْتِفَاءِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ طَرِيقِ الْهُدَى وَطَرِيقِ الضَّلَالِ.» (التحرير والتنوير: ٨ / ٣٦).

٥- جاء التعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ لِيَشْمَلَ رَكْبَ الْإِيمَانِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فِي حِينِ أَنْ خَتَمَ الْآيَةَ ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ جَاءَ عَلَى نَسْقِ الْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ؛ لِيَفِيدَ الدَّوَامَ وَالثَّبَاتَ، فَهَمُ إِذَا آمَنُوا غَدَا الْإِسْلَامَ رَاسِخًا فِيهِمْ.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾
 وَيَوْمَ نَخَشُّرُ مِنْ كُلِّ آئِمَّةٍ قَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي
 وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

التفسير:

٨٢- وإذا حلَّ بهم وعيَّدنا أظهَرنا لهم علامة كبرى من علامات الساعة، وهي الدابة التي تُكَلِّمهم أنَّ
 الناس دأبوا على الإعراض والشك في آيات الله.

٨٣- واذكر- يا محمد- الحشر الذي يُخَصُّ زمرة من الطغاة، وهم أئمة الضلال ورؤساؤهم، يَمُنُّ كان
 يُبَاهر بإعراضه وهَجْرِهِ لشرع الله، فيَمْتَلون بين يدي ربهم في الرَّعيل الأول يَمُنُّ يُعَانون أهوال العذاب،
 فيَتَلَقون مُقَدِّماتها وهو الخزي والزجر فيُذْفَعون، ويُرَدُّ أولهم على آخرهم، في موقف مهين.

٨٤- ويقدم هؤلاء الطغاة المكذِّبون أقوامهم؛ ليوافقوا السؤال العسير في اليوم العصيب: ما شأنكم
 بآيات الله التي ذكَّرتكم بها لبيان قدرته، وإثبات وحدانيته، وأنتم لم تُعوها، فكذَّبتم وأعرضتم، أم ما الذي
 كنتم تعملونه في حياتكم المديدة؟

٨٥- وهامي أهوال العذاب تُلاحقهم في هذا الموقف الرهيب، ساعة حَقَّت عليهم كلمة العذاب؛
 بسبب ما اقترفوه من الشُّرك بخالقهم، وما تبع ذلك من تكذيب رسله، وقد وفَّاهم ما يستحقونه، لم
 يكونوا قادرين على أن يُنكروا أو يعتذروا، فوجَّهوا مُبْلِسين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- يُخْرِجُ اللهُ بين يدي الساعة آيات خارقة للعادة تباغت أهل الباطل.
- ٢- أئمة الضلال يَقْدُمون قومهم يوم الحساب، وهذا يشير إلى عِظَم الإمامة في الشُّوء، كما هي في الخير.
- ٣- قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ظاهره أنَّ الكفار لا ينطقون يوم القيامة،
 مع أنَّه بيَّنَّ آياتٍ أُخْرُ من كتاب الله أنَّهم ينطقون يوم القيامة ويعتذرون. ومن الجواب عن هذا أنَّ القيامة
 مواطن، ففي بعضها ينطقون، وفي بعضها لا ينطقون، وأنَّ نُطْقَهُم الميثب لهم خاصٌّ بما لا فائدة لهم فيه».
 (أضواء البيان: ٤٨٨/٦).
- ٤- الجهل بالحق من أسباب التكذيب به، وفي الآيات دَمٌّ للتعجُّل في الحكم على الشيء دون الإحاطة به.

﴿الْمُرُورِ﴾ أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَذَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبِّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتَلَوْا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴿

التفسير:

٨٦- تخاطب الآيات الكريمة عقول المكذبين وأفئدتهم؛ لئلا يستولي عليها ما ألقوه من المشاهد التي تتكرر أمام أعينهم كل يوم، فأصبحوا لا يفكرون في مُبدعها ومُجرِّها بحُسنٍ دقيق. فما أجدَرهم أن يَزَعُوا عن شركهم أمام آية اختلاف الليل والنهار!! وفيها جعلَ اللهُ الليلَ مظلمًا؛ ليتحقَّق للناس السكون والهدوء، وجعلَ النهار مضيئًا، وذلك أدعى للانتشار والحركة الدؤوب. أليست هذه الآية المتكررة ونظائرها الماثلة في الكون مدعاةً للإيمان بالله وقدرته، وجليل نعمائه؟

٨٧- واذكر - يا رسول الله - كذلك يوم يُنْفَخُ الْمَلَكُ الْمُكَفَّفُ بِالْقَرْنِ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، فَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَرْتَعِدُونَ وَجِلِينَ مِنْ هَوْلٍ مَا سَمِعُوا وَرَأَوْا، إِلَّا مَنْ أكرمه اللهُ، ومنحه الأمان من هذا الاضطراب المائل في الكون، كالشهداء والأنبياء والملائكة. وكل الخلائق يَفُذُونَ إلى رَبِّهِمْ صَاغِرِينَ ذَلِيلِينَ.

٨٨- وترى - أيها الرسول - عقب نفخة الصور شوامخ الجبال، فتظنُّها ثابتة راسية ساكنة، مع أنها تسير سيراً حثيثاً، فتزول عن أماكنها، وهي تشبه في هذه الظاهرة السحاب إذ تدفعه الرياح، فيسرع وقد تخلخلت أجزاؤه. فَمَنْ الذي أبدع هذا النظام الكونيَّ العجيب؟ إِنَّه اللهُ سبحانه الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ تقديراً، وهو عليمٌ بما تفعلونه، وسوف يجازيكم عليه.

٨٩- ٩٠- ها هم الخلائق يَفُذُونَ إلى رَبِّهِمْ. وفي هذا الموقف العصيب لا ينفع أحداً إلا ما قَدَّمه من عمل في حياته الدنيا، فمنهم السعداء، ومنهم الأشقياء، فَمَنْ جاء إلى رَبِّهِ بكلمة التوحيد مخلصاً قانتاً سَعِيداً بما أعدَّ له من الثواب العظيم، الذي يتضاعف عشرة أمثال ما قَدَّمه من العمل الصالح، ولا يجزئهم الفزع الأكبر؛ لأنَّهم آمنون من مشاهدته وأهواله. وأمَّا الأشقياء فهم في مشاهد مخزية من الذل والمهانة، إذ يُقْلَبُ

ظاهرٌ وجوههم إلى الأرض؛ لأنَّ الوجوه هي أول ما يُقَدَّفُ بها أسفل سافلين إلى دَرَكَاتِ الجحيم؛ فقد كانت من قبل حريصة على اتباع الهوى، فَيُوبَخُونَ: إنَّكم لا تَلْقَوْنَ جزاءً إلا حصاد جرائمكم المتقدمة.

٩١- قل أيها الرسول: أمرني ربي أن أخصّه بالعبادة وحده، ولا أشرك به شيئاً، وهو ربُّ مكة الذي قضى أن تكون حَرَمًا آمناً، فلا يُسْفَكُ فيها دم، ولا يُصَاد فيها صيد، ولا يُعضد فيها شجر. وفي هذا التحريم كمالٌ للمُحَرَّم، فلا يَدْخُلُ في هذه البلدة ما يخالف صلاحها، أو يَضُرُّ بالحالين فيها. وإذا كان سبحانه هو ربُّ هذه البلدة، فإنَّ له كلَّ شيء. وهو احتراس؛ فلا يقتصر مُلْكُهُ عليها، فهو ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وقد أمر الله رسوله أن يبقى من المُوَحِّدين له، المخلصين المنقادين لأمره.

٩٢- كما أمرني ربي أن أتلو القرآن على الناس، فأبَلِّغهم بما فيه، مُنْذِراً ومبشِّراً. فَمَنْ اهتدى بنور الله فإنَّ نَفْعَ ذلك يعود إليه بظمأئينة النفس، وسلوك الصراط المستقيم. ومن آثر هواه، وكذَّب برُسله، فقل له أيها الرسول: إنما أنا لَبِئَةٌ من بناء محكم من الرسل لإنذار الناس، ولا أملك أن أهدي أحداً.

٩٣- وقل أيها الرسول: الثناء العظيم على الله بآلائه العديدة التي أنعمها علينا في الدنيا والآخرة، وسوف تَرَوْنَ آياته في الدنيا، فتعرفون دلالتها على ما بَلَّغْتُمْ به، وتَعْرِفُونَ قدرته على إحكامها، ويتبيَّن لكم الحقُّ عند معاينة الموت، ولكن لن يُقْبَلَ منكم الإيذان والإذعان. إنَّ رَبَّكَ شهيد عليكم، وليس بغافلٍ عن عمل المكذِّبين.

الفوائد والاستنباطات:

١- استثنى الله طائفة من خَلْقِهِ، فأَمَنَهُم من الفزع الأكبر.

٢- أتقن الله ﷻ كلَّ شيء خَلَقَهُ، فَقَدَّرَهُ أحسن تقدير.

٣- قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مفعول مطلق عامله فعل مضمَر من لفظه، فهو مصدر مؤكَّد لمضمون الجملة

التي تليها. (انظر: البحر المحيط ٧/١٠٠).

٤- يتعدَّد عذاب أهل النار، فمنه ما هو بدنيٌّ، ومنه ما هو نفسيٌّ، إذ يُوبَخُونَ ويُقَرَّرُونَ.

٥- في الآية (٩١) جاء الاسم الموصول ﴿الَّذِي﴾ جارياً على «الله»، ولم يَجْرِ على البلدة، فلم يقل «التي

حرمها الله»، وذلك لما يتضمَّن ذلك من التذكير بالثَّغْمَةِ عليهم، ومن التعريض بصلاحهم، فقد عبدوا أصناماً لم تُكْسِبِ البلدة فضلاً ومزية. (التحرير والتنوير: ٥٦/٨).

٦- في الآية (٩٣) إخبار مستقبليٌّ عن براهين ودلالات سيُريها الله عباده في أنفسهم وفي السماء

والأرض، فيعرفونها معرفة تُدْهِمُ على الحقِّ. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر وهو أنَّ الله ﷻ لا يَنْقُلُ عَمَّا يعمل عباده سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - بيان إعجاز القرآن الكريم.
- ٢ - التفصيل في نشأة موسى عليه السلام، وزوال ملك فرعون.
- ٣ - بيان سنة الله في بعثة الرسل، ومصير الأمم المكذبة لرسولها.
- ٤ - أدلة وحدانية الله تعالى، وقدرته.
- ٥ - تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وتشبيته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّرَ ١ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِيحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

التفسير:

- ١ - ﴿ طَسَّرَ ﴾ سبق الكلام على دلالات هذه الحروف أول سورة البقرة، وأنها من إعجاز القرآن.
- ٢ - ذلك القرآن الذي أوحيناه إليك - يا رسول الله - ذو شأن عظيم يتضمن آيات بينات واضحات، فيها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة لمن تدبره، وعمل به.
- ٣ - ثمة خبر له أهميته، نقرؤه عليك يا محمد، يتصل بما جرى بين موسى والطاغية فرعون من أحداث، وهو خبر صدق ويقين، جدير بأن يعتقده ذوو الفهم السليم من المؤمنين؛ ليزدادوا إيماناً وعلماً، ويتثبت فؤادهم.
- ٤ - شرعت الآيات تبين الإجمال المتقدم حول الخبر الحق، وبدأت بتأكيد ما اقترفه فرعون الذي أراد لنفسه العظمة والتجبر، وجعل أهل بلده فرقةً متناحرة، تُعادي كل فرقةٍ منها الفرقة الأخرى، وقد أغرى

بينها العداوة والبغضاء؛ لِيَأْمَنَ تَأْلِبَهُمْ عَلَيْهِ، ومضى يحتقر بني إسرائيل، وُيَسَخَّرُهُمْ لِمَنْفَعَتِهِ، وَيَبْتَرِزُهُمْ لِهَوَاهِ، وعزم على ذَبْحِ مواليد بني إسرائيل من الذكور؛ حتى لا يكون فيهم خطر عليه، كما كان يستبقي الإناث للخدمة والامتهان. إِنَّ هَذَا الطاغية من الذين أفسدوا في الأرض.

٥- ونحن - لما لنا من العظمة والقدرة - نريد أن نُنْعِمَ على الذين أحاطهم فرعون في أرض مصر بظُلْمِهِ واستعلائته، فكان يُذيقهم من أشكال الخزي والهوان، كما نريد أن نَتَفَضَّلَ عليهم، فنُخْرِجَهُمْ من أسْرِ العبودية والذلِّ؛ لِيَكُونَ لَهُمْ كِيَانٌ وَقُوَّةٌ، فيصيروا أسوة يُقْتَدَى بِهِمْ في الهدى والخير. وقد بلغوا ذلك في أزمئة متلاحقة، إذ أورثهم الله مُلْكَ مصر، وَمَنَحَهُمُ النّفوذ الواسع.

٦- واشتمل وَعَدْنَا على تثبيت سلطتهم، وتهيئة الأسباب التي تُرسي مُلْكَهُمْ على أرض مصر. أما الطاغية فرعون ووزيره هامان والجيش الذي يأتمر بأمرهما، فسوف يَرَوْنَ بأعينهم مُثول الخطر القادم من المُنْقِذِ الذي كانوا يخافون منه على يَدَيِ المولود، الذي هَيَّأَ اللهُ لَهُ تحقيق ما تَكْفَلُ بِهِ سُبْحَانَهُ، على الرغم من أَنَّ هَذَا المولود نشأ وتربى في كَنَفِ قصور فرعون. أليس الله غالباً على أمره، ومُحَقَّقاً لإرادته؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - القصص القرآني وسيلة مهمة من وسائل الدعوة إلى الله.
- ٢ - العُلُوُّ الحقُّ لله وحده سبحانه، وَعُلُوُّ فرعون لم يُغْنِ عَنْهُ شَيْئاً فِي دَفْعِ عَاقِبَةِ السُّوءِ.
- ٣ - تمكين الإنسان في الأرض من نعمة الله عليه؛ لأنَّ هَذَا من جملة ما أنعم الله به على بني إسرائيل أَنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الأَرْضِ.
- ٤ - مهما بلغت الأمة من الضعف فإنَّهَا إِذَا حَقَّقَتِ العبودية لله تعالى فهي مؤهلة للريادة والسيادة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَدَرًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأَخْتَيْهِ قُصِيَّةٍ فَبَصُرْتُ بِهِ عَنِ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَانَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

٧- وُلِدَ الْفَتَى الَّذِي سَيَكُونُ سَبِيًّا لِتَحْقِيقِ مَا يَرِيدُهُ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَخَافَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ مِنْ اعْتِدَاءِ زِبَانِيَةِ فِرْعَوْنَ، وَحَارَتْ فِي أَمْرِهَا، فَأَلْهَمَهَا اللَّهُ مَا أَوْقَعَ فِي فُؤَادِهَا يَقِينًا تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ، فَمَضَتْ تُرْضِعُهُ لِتَقْوَىٰ بُنِيَّتِهِ، وَتُخْفِيهِ عَنِ الْعْيُونِ، فَإِذَا أَحَسَّتْ بِالْخَطَرِ يَدَاهُمَ وَلَيْدَهَا فَمِنْ وَحْيِ اللَّهِ لَهَا أَنْ تُجَهِّزَ لَهُ وَعَاءً، وَتُوَدِّعَهُ نَهْرَ النَّيْلِ، وَأَلَّا تَخَافَ عَلَيْهِ الْهَلَاكَ، وَلَا تَحْزَنَ عَلَىٰ فِرَاقِهِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَتَكَفَّلُ بِحِفْظِهِ وَرَدَّهُ إِلَيْهَا، وَسَوْفَ يَجْعَلُهُ مِنْ رَسْلِ اللَّهِ.

٨- وَانْتَشَلَ أَعْوَانُ فِرْعَوْنَ هَذَا الْوَعَاءَ الَّذِي يَطْفُو عَلَىٰ سَطْحِ الْمَاءِ رَافَةً بِهِ؛ لِيَكُونَ فِي نَجَاتِهِ مَا يُحَقِّقُ قَدَرَ اللَّهِ، فَسَوْفَ يَغْدُو هَذَا الْوَلِيدُ سَبِيًّا فِي زَوَالِ دَوْلَةِ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّهُ سَيَكُونُ عَدُوًّا لِكَبِيرِهَا، مُخَالَفًا لِدِينِهِ، وَمَصْدَرِ هَمٍّ وَتَكْدِيدٍ لَهُ. إِنَّ فِرْعَوْنَ وَوَزِيرَهُ هَامَانَ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمَا كَانُوا يَسْتَحَقُّونَ الْمَصِيرَ السَّيِّئَ عِقَابًا لَهُمْ عَلَىٰ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الشَّرِكِ وَالْآثَامِ، وَظَلَمَهُمْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

٩- كَحَمَلِ الْأَعْوَانِ الْوَلِيدِ، وَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ وَامْرَأَتِهِ، وَكَانَ أَمْثَالَهُ مِنْ ذَكَورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَعَرَّضُونَ لِلْقَتْلِ، كَمَا قَرَّرَ فِرْعَوْنَ. فَرَفَّتْ لَهُ آسِيَا، وَأَلْقَى اللَّهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا، وَمَضَتْ تُعَلِّلُ طَلَبَهَا، وَهُوَ صَرَفُ زَوْجِهَا عَنْ قَتْلِهِ، وَكَانَ لَهَا مَنْزِلَةٌ لَدَيْهِ، فَعَبَّرَتْ عَنْ أَمَلِهَا أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ سُرُورٍ لَهَا وَلَهُ، فَتَقَرَّرَ الْعَيْنُ بِهِ، وَيَمِيلُ الْقَلْبُ إِلَيْهِ. وَهَذَا الْوَلِيدُ إِذَا تَرَبَّى فِي كَنَفِنَا رَجَوْنَا نَفْعَهُ، وَيَكُونُ لَنَا بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ. وَقَدْ غَابَ عَنِ عِلْمِ هَؤُلَاءِ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ أَنَّ زَوَالِ دَوْلَتِهِمْ وَطَغْيَانِهِمْ سَوْفَ يَكُونُ عَلَىٰ يَدَيْ هَذَا الْوَلِيدِ.

١٠ - وباتت أم موسى في همّ جثم على قلبها، فهي خائفة على مصيره بعد وقوعه في البلاط الفرعوني، وفرغ قلبها من كل شيء غير ذكر ابنها الذي ملك عليها كيائها، وقد قاربت أن تفضح أمرها، وتكشف عن مكنونها لولا قدر الله، فقد وثق قلبها، فعصمها من إظهار خبره، فاطمان فؤادها لتحرز منزلة المصدقين بوعد الله.

١١ - وهُرِعَتْ أم موسى لأختها، وطلبت منها أن تتبّع آثاره والعلامات الدالة عليه، وتنظر في خبره، وأين يلقيه اليم، فانتهى بصرها إليه، وحدقت به من مكان بعيد، ولم يشعر أحد أن أخته ترقبه عن كذب. ١٢ - هاهو المولود في كنف بيت فرعون بعد أن كتب الله له الأمان من الطاغية الأكبر، فتبزغ مفضلة رضاعته، فالرضيع لا يقبل ندي امرأة، ومكّن الله منزلته في فؤاد القوم، فلا بُدّ من بحث جادّ على من تلقمه نديها. وينتهي البحث إلى أخته، فتشير إليهم - وهي الحذرة من كشف الحبيء - بمعرفتها لأهل بيت يتعهدون بحفظه وإرضاعه، وذلك في سجايهم راسخ، فلا يقصرون في نفعه.

١٣ - ويتحقق وعد الله الذي لا يتخلف، فها هو الرضيع بين يدي أمه، فيها في حضنها، ويغمرها سرور بالغ، ويغيب أي ضرب من ضروب القلق وانشغال الخاطر، وليكون لها ولأولي الألباب درس وعبرة بأن الله بالغ أمره، ولا رادّ لقضائه. بيد أن جلّ المخالفين له - سبحانه - لا يعلمون قدره، ولا يحفظون منزلته.

١٤ - ويشتدّ غود موسى عليه السلام، ويبلغ كمال قوته، وسلامة بُنيته، ويتربّى على عين الله، فيمنحه الحكمة والعلم والسلوك القويم. ومثل هذا الجزاء الذي جازينا به موسى وأمه التي صدقت بوعد الله، نجزي المحسنين المصطفين الذين استجابوا لربهم سبحانه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قوله تعالى: ﴿كَيْ نَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ «مأخوذ من القَرّ، وهو البرد، وذلك أن العين إذا قرّح صاحبها كان دمعها قارّاً، أي: بارداً، وإذا حزن كان حارّاً». (الدر المنون ٧/ ٥٩٠).

٢ - التكليف بالرسالة يستلزم صحة الجسم واستواءه والحكمة والعلم. قال مجاهد: «آتاه الله الفقه والعقل والعلم قبل النبوة». (التفسير البسيط ١٧/ ٣٥١).

٣ - ما قدره الله كائن لا محالة، وهو الذي يُهيئ الأسباب لتحقيق ما يريد.

٤ - الإنسان مهما بلغ في العتوّ والاستكبار فإنه لا يعلم المستقبل، وفرعون وقومه لم يعلموا أن هذا الطفل سيكون عدوّاً لهم وحزناً.

٥ - المرء مفتقر إلى الله في كل أحواله، ولاسيما عند نزول الحوادث.

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْسُوهُ أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١٥- ودخل موسى - قبل النبوة - مدينة من مدن فرعون مُسْتَخْفِياً، بعد أن أوجس من قومه خيفة، وكان الوقت وقت راحة للقوم، والطريق يكاد يخلو من حركتهم، فصادف رجلين يتخاصمان، الأول من قومه بني إسرائيل، والثاني من قوم فرعون القبط، وكان بين الجماعتين معاداة. واشتدت الخصومة بين الرجلين، ممَّا دفع الإسرائيلي أن يطلب من موسى أن يُعيّنه على القبطي، فما كان من موسى إلا أن ضَرَبَهُ بِجُمُوعِ أَصَابِعِ يَدِهِ، فأصاب مقاتل القبطي خطأ، ولم يُرِدْ قَتْلَهُ. فلما رأى موسى ما انتهى إليه الأمر، قال: هذا التصرف الذي قمتُ به مِنْ نَزْعِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَسَتِهِ، وهو عدوُّ لبي آدم واضح العداوة، مُضِلٌّ لهم عن الصراط المستقيم.

١٦- ندم موسى أيما ندم على قتل الخطأ الذي بدر منه، ومضى يدعو ربه بأنَّه قد ظلم نفسه؛ لأنَّه انساق مع غضب جامح. وقد غفر الله له زَلَّتْهُ؛ لأنَّ الله يغفر ذنوب عباده، واسع الرحمة بهم.

١٧- ومضى موسى في دعائه: اللهم بسبب ما أسدلت عليَّ من الآثام من العلم والحكمة والبصيرة، فتميزت لدي الحقائق، فلن أكون نصيراً مُظَاهِراً للظلمة من أهل الجور، وسوف أكون منتصراً للحق وأهله.

١٨- غادر موسى المكان الذي شهد مَقْتَلِ الْقِبْطِيِّ - والخبر لم ينتشر بعد - وكان خائفاً من المطالبة بدمه، مترقباً ما يقال في شأنه، مُتَحَفِّزاً للهروب والاختفاء، ومضى يَحْتُّ خطاه، وإذا به يُصَادَفُ صاحبه الإسرائيلي الذي أعانه بالأمس، وهو يتشاجر مع قبطيٍّ ثانٍ، فطلَّبَ إليه أن يكون معه. فقال له موسى: إنك لِضَلَالٍ سَيِّئٍ التقدير، واضح الخصومة.

- ١٩ - عزم موسى على أن يضربَ القبطيَّ، الذي هو على مِلَّةٍ مُخَالِفٍ ما عليه موسى والإسرائيلي، ويبدو أنَّه رَجَّحَ ظُلْمَ القبطيِّ وَجَوْرَه، فقال له القبطيُّ موبِّخاً: يا موسى أَتَوَدُّ أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ، وأنتِ بذلك تَضُرُّ بِالْآخِرِينَ، وتعود لجريمتك الأولى التي فَعَلْتَهَا، ولا تريد الإصلاح بين الخصمَيْنِ؟
- ٢٠ - وفي هذه الأثناء أقبل مسرعاً رجلٌ إسرائيلي إلى ساحة التَّزَاع من أطراف المدينة يعرف موسى، وهو ناصحٌ له، وَبَلَغَهُ أَنَّ أَمْرَهُ بات مكشوفاً في دولة فرعون، والقوم يتشاورون في قَتْلِهِ، ثُمَّ أشار إليه أن يخرج من هذه المدينة على جناح السرعة، وهو مُشْفِقٌ عليه، ناصح له.
- ٢١ - أخذ موسى برأي الناصح، وغادر مدينة فرعون فارّاً بنفسه، وهو في فزع شديد؛ لئلا يدركه القوم، ولم يُعَيِّنْ موسى جهةً يسلكها، ودعا الله أن يُسَدِّدَ خطاه، وأن ينقذه من فرعون وقومه الظالمين الذين أرادوا قَتْلَهُ قِصَاصاً عن قتلٍ خطأ.
- الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في قوله: ﴿فَاسْتَعْتَنَهُ﴾ جواز الاستغاثة بالمخلوق، لكنه مشروط بما يُفيد فيه، أمَّا ما لا يُفيد فيه فلا يجوز. (انظر: تفسير الشيخ ابن عثيمين ٦/١٧٩).
- ٢ - قَتْلُ موسى للرجل كان خطأ؛ فَإِنَّهُ لم يطعنه بألة، وإنما ضربه بكفِّه، وما جرت العادة بالموت من هذا الضرب. والذي استغاث بموسى كان مؤمناً، فخرج من هذا أَنَّ وَكَرَّ موسى للكافر لأجل بَغْيِهِ وعدوانه، لا لغير ذلك. (انظر: تنزيه الأنبياء للبُنْتِي ص٩٩).
- ٣ - المؤمن يلجأ إلى ربه في الشدائد، وفي كل أحواله.
- ٤ - الخوف من بطش الآخرين من فطرة الإنسان، ويستلزم الحذر والتصرُّف المناسب.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِيجْزِيكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتَعِجْرُهُ ابْنُ أَخِي مِنْ أَقْوَامٍ الْغَائِبِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجْحِجٍّ فَإِنْ أتممتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلُكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٢- أهدى الله موسى أن يتوجه إلى بلاد مدين، وهي بلاد لا يشملها سلطان فرعون، وكان حريصاً على دوام صلته بالله، وهو يأمل أن يرشده ربه إلى الطريق الآمن.

٢٣- ويصل موسى إلى بلاد مدين، ويناسب الغريب عادة أن يقصد مورد الماء، حيث المكان الذي يجتمع فيه الناس. لحظ موسى الجماعة الواردين على الماء للسقيا وهم يتزاحمون، وأمعن النظر في أطراف الموقع، فلحظ امرأتين تجلسان أنعامهما عن ورود الماء.

تحركت في نفس موسى يقظة الفطرة، ودفعته مروءته أن يقترب منها ليسألها عن شأنها. فكان جواب المرأتين أنهما كرهتا السقيا وقت زحام الرعاء، ولن تتقدما حتى يفرغ أولئك. وأضافتا بأن لهما أبا شيخاً كبيراً لا يقوى على ورود الماء.

٢٤- اقتحم موسى مورد السقيا على الرغم من الإعياء الذي هو عليه من السفر، فسقى للمرأتين. وبعد أن فرغ تأقت نفسه إلى أن يستروح ظل الشجيرات المتوزعة في المكان، وتوجه إلى ربه واستحضر في خاطره الآلاء التي أسداها إليه، وأقر بافتقاره إلى ضروب العون، ولعل ما يلائم ما هو فيه من غربة وجوع أن يأنس بماوى يحضنه.

٢٥- سُرعان ما عادت الفتاتان إلى أبيهما شعيب، وقصتا عليه صنع موسى معهن، وكلف شعيب إحدى ابنتيه أن تستدعيه إلى المنزل، فأقبلت إليه في مكان السقيا مفعمة بحياء جم يسرلها، قائلة: إن أبي يطلب حضورك إليه، ويود أن يكافئك على معروفك الذي أسلفته. استجاب موسى لمبادرة شعيب التي

هي قِرَى محض، وانطلق إلى بيته بصحبة الفتاة. والتقى الرجلان، ومضى موسى يحكي لمضيفه ما في بلاد فرعون من جَوْر، وكيف سارت الأحداث بعد الخصومة مع القبطيِّ القتل، وكيف أهدروا دم موسى؟ فقال له شُعَيْب: أَصْبَحْتَ في مَأْمِنٍ من عدوِّك؛ فلن تنالك يد الظالمين.

٢٦- وعرضت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجر موسى، وَعَلَّلت ما تراه بأن صفات العامل المستأجر تتوافر فيه، فهو يمتلك قوة البنية في جسمه، وأداء الأمانة إلى صاحبها.

٢٧- استجاب الشيخ لابنته، وفَاتَحَ ضيفه بِالْعَرْضِ، وَعَبَّرَ عن رغبته في تزويجه إحدى الابنتين، وشرعا بعد ذلك في صياغة العقد، فطلب شعيب أن يكون المهر منفعة إجارة موسى - بناء على قواعد في شرعه - مدة ثماني سنين، فإن عَزَمَ موسى أن يضيف إليها سنتين فهذا من نفسه، وقال له شعيب: ما أريد أن يكون في العَقْد عُسْرٌ عليك، وإنما أودُّ أن أنشد معك حسن السلوك، ولين الجانب. وذلك شأن أهل الصلاح.

٢٨- وافق موسى على عَرْضِ شعيب، وما تَضَمَّنَه العَقْد، وترك لنفسه الخِيَرَةَ في أيِّ المَدَّتَيْنِ الوارديتين. فإذا أمضى إحداهما فليس في ذلك اعتداء منه على الحقِّ، والله هو الرقيب الشاهد على ما اتفقا عليه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- مشروعية المهر في الشرائع السابقة، وهذا يدلُّ على مجيء الشرائع كلها بحفظ حَقِّ المرأة.
- ٢- حياء الأنثى في مواجهة الرجل أمر فطري إيماني.
- ٣- كل قائم على عمل ينبغي أن يُراعَى فيه القوة والأمانة، لأنَّ في القوة القدرة على التنفيذ، وفي الأمانة الإتمام والإكمال.
- ٤- الوفاء بالعهود من الشِّيم التي تحرص عليها النفوس العالية.
- ٥- جواز خطبة الزوج للابنة، فقد تُتاح لوليِّ البنت بركة خيرٍ عميم لهذه البنت بهذه الخطبة.
- ٦- قال الزمخشري: «في قوله ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: فإن قلت: تَصَوَّرَ العدوان إنما هو في أحد الأجلين، الذي هو الأقصر، وهو المطالبة بتتمة العشر، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً؟ قلت: معناه كما أني إن طُولِبْتُ بالزيادة على العشر كان عدواناً، فكذلك إن طُولِبْتُ بالزيادة على الثماني. أراد بذلك تقرير أمر الخيار، وأنَّ الأجلين على السواء. وأما التَّمَّة فَمَوْكُولَةٌ إلى رأيي». (الكشاف ٣/١٧٣).

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُحَ إِيَّيَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُحُ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ بِدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوبُكَ بَرَهْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدِ انْتَهَيْتُ نَفْسِي فَآخِفْ أَنْ يَقْتُلُونِي ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- أتمَّ موسى أكمل المديتين اللتين اتفق عليهما مع شعيب، وهي عشر سنوات، وصحَّ عزمه على السفر إلى مصر بصحبة زوجته، ومضى يَغْدُ السير، وقد أبصر في طريقه ناراً من جانب الطور، وطلب إلى أهله أن يترثوا قليلاً؛ ليستطلع هذه النار، فقد يقتبس منها نَبَأٌ يُوجِّهُهُ إلى طريقه، أو جمره مشتعلة يأمل في دفيئها.

٣٠- تَقَدَّمَ موسى نحو النار التي كان قد أبصرها، فناداه ربُّه من طرف الوادي الأيمن في الأرض التي تتميز بالبركة والنماء من شجرة معينة: يا موسى أَقْبِلْ إِلَيَّ غير خائف، إني أنا الله رب العالمين، وجميع الخلائق مُسَخَّرَةٌ لي.

٣١- يا موسى، أَلْقِ هذه العصا التي بيدك. فاستجاب موسى لَطَلَبِ ربه، فانقلبت العصا إلى حية تتحرك، ولما رآها تُسْرِعُ في حركتها مع عِظَمِ جسمها انتابه الفرع، فتولَّى عنها هارباً، ولم يلتفت إليها من خوفه. وتابع ربُّه خطابَه قائلاً له: أَقْبِلْ يا موسى، وانزع عنك هذا الخوف؛ لأنك في أمان من كلِّ مكروه.

٣٢- يا موسى، أَدْخِلْ يدك في فتحة قميصك الْمُفْضِيَةِ إلى صدرك، ثم أخرجها تجدها بيضاء من غير أن يكون قد انتابها أيُّ سوء من مرض أو غيره. ثمَّ يطلب إليه أن يَكْفَ عن التخوُّف من أمر الرسالة ومعجزاتها، وأن يضبط نفسه ويتجلد.

ويقول له ربه: يا موسى لقد أَرَيْتُكَ حُجَّتَيْنِ قاطعتين أمام مَنْ تَمَكَّنَ الكفرُ في نفوسهم، وهم فرعون ومن تبعه. إنَّ هؤلاء كانوا خارجين عن سواء الصراط.

٣٣-٣٤- لم يُظهِر موسى تَنَصُّلاً من النهوض بأعباء الدعوة التي كلفه بها رَبُّهُ، بَيِّنَد أنه أراد أن يأخذ بالأسباب التي تُعِينه على ذلك، ويتجاوز المعوقات التي قد تعترضه، فقد أخبر رَبَّهُ العليمَ به أَنَّهُ غادر مملكة فرعون خوفاً من سطوته، وبطش أعوانه؛ لأنَّهُ قتل نفساً منهم، وقد شاع الخبر في أرجاء البلاد، فإذا رآوه انتقموا منه بالقتل قِصاصاً على قتلِ خطأ. كما طلب موسى إلى رَبِّهِ أن يؤيِّده بأخيه هارون قائلاً: إِنَّهُ أَقْدَرُ مِنِّي على صياغة البرهان الساطع، وأطمع أن يكون لي عوناً في الإبانة عن أدلتنا؛ ليصل خطابنا إلى فرعون ومَلَكِهِ مشفوعاً بما يجعله صادقاً، لأنني أخشى أن يُسرعوا إلى تكذيبي.

٣٥- استجاب الله دعاء موسى، وتكفَّل له بأن يُقَوِّيه بأخيه هارون، وتَفَضَّل عليه بأنه سيرافق ذلك حُجَجٌ بَيِّنَةٌ يكون لها أثر في قلوب مَنْ يستمع إليهما، فلا يتعرَّضون لهما بسوء، ثمَّ بَشَّرَهما بأنَّ قافلة المؤمنين المؤلفة من موسى وهارون ومَنْ يتبعهما هي الغالبة الراجحة؛ بسبب ما لديها من آيات بينات.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- من مستلزمات الرسالة المعجزات التي تؤكِّد صِدْقَ الرسول، وهي عادةٌ تُناسِبُ حال المدعوِّين.
- ٢- على الداعية أن يأخذ بالأسباب التي تُعِينه على النهوض بعِبءِ دعوته.
- ٣- في قوله: ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال الزمخشري: «استعارة من فعلِ الطائر؛ لأنَّهُ إذا خُوِّفَ نَشَرَ جناحيه وأرخاهما، وإلا فجناحاه مضمومان إليه، أي: إذا أصابك الرَّهْبُ عند رؤية الحية فاضمُّمُ إليك جناحك». (الكشاف ٣/١٧٥).
- ٤- قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظمَ مِنَّةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام؛ فإنَّهُ شَفَعَ فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعونَ ومَلَكِهِ؛ ولهذا قال تعالى في حقِّ موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]. (انظر: تفسير ابن كثير ٣/٥١٢). وسأل موسى رَبَّهُ أن يؤيِّده بأخيه؛ لأنَّ الاثنين إذا اجتمعا على الخبر كانت النفسُ إلى تصديقهما أَسْكَنَ منها إلى تصديق خبر الواحد. (انظر: تفسير الطبري ١٨/٢٤٩).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنًا عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَحَنُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَحَنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٦- شرع موسى وأخوه هارون في دعوة مجلس فرعون مؤيدين بالمعجزات التي تؤكد صدقهما؛ لأنَّ النفس تميل إلى ما يدعم الدعوى بدليل خارق للعادة، بيد أنَّ فرعون وأتباعه وقفوا من المعجزات موقف المرتاب قائلين: ما ذاك إلا ضربٌ من السحر الذي تمَّ تليفه بإحكام، وأما مضمون الخطاب فهو شيء يطرق أسمعنا أول مرة، ولم يتلقَّ أبأؤنا السابقون طرفاً منه.

٣٧- فأجابهم موسى بأنَّ ربي أعلمُ بمن ينطق الحقُّ على لسانه، ويقف بثباتٍ على سواء الصراط، وهو أعلمُ بمن له المصير الحسن في الدار الآخرة. وفي ذلك تعريضٌ بضعف حجَّتهم، وبسوء عاقبتهم. وحقاً إنَّه لا فلاح لأولئك الذين ظلموا أنفسهم، فأجهضوا تطلُّعها للمعرفة الصائبة، وظلموا الآخرين بإهدار حقوقهم.

٣٨- أراد فرعون أن يُرسِّخ كونه إلهاً في أذهان أتباعه، فهو قد أحاط بكل شيء علماً، وفق معتقده الباطل، ولو كان ثمة إله غيره لعلمه، وكان موسى قد تحدَّث في المجلس عن ربه بأنَّه ربُّ السموات، فظهر فرعون في مظهر طالب الحق المنصف، فأراد أن يصل إلى ارتفاع سامق في السماء، واثقاً من غياب جراءة أتباعه على بيان الحق. فطلب إلى وزيره هامان إيقاد الأفران لتجفيف الطين المتخذ أجراً صالحاً لبناء قصرٍ عالٍ مُشرفٍ على السماء، قائلاً: لعلِّي أصعد عليه، فأرى هذا الإله، وإنِّي أحسب موسى ممن شأنهم الكذب والادِّعاء.

٣٩- وَتَعَظَّمَ فِرْعَوْنَ وَأَعْوَانَهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَمَضُوا فِي جَبْرُوتِهِمْ وَطَغْيَانِهِمْ، بِعِيدِينَ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَلَمْ يَضَعُوا فِي حُسْبَانِهِمْ عَوْدَتَهُمْ إِلَيْنَا فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ.

٤٠- انقضى الأجل الذي قَدَّرناه لهم، ومضوا في غيِّهم، وعاثوا في الأرض الفساد. حتى إذا أتاهم بَأْسُنَا اسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى الْبَحْرِ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ فِيهِ. فَانظُرْ- أَيُّهَا الرَّسُولُ - كَيْفَ تَكُونُ نَهَايَةُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَجُورُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ؟

٤١- لَقَدْ عَرَفَ اللَّهُ ضَلَالَهُمْ، وَمَا انطَوَّتْ عَلَيْهِ نَفُوسُهُمْ مِنْ شَرِّ، فَهَيَّا لَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ قُدُورَةً لِاتِّبَاعِهِمْ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الرَّشْدِ، وَقَدْ مَضُوا يُزَيِّنُونَ لَهُمْ أَعْمَالًا مَأَلَّ أَصْحَابُهَا إِلَى النَّارِ، وَلَنْ يَجِدُوا مَنْ يُعِينُهُمْ؛ لِيُدْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابُهَا.

٤٢- وَقَضَى اللَّهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ فِرْعَوْنَ وَأَتْبَاعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَلِمًا وَرَدَّتْ سِيرَتُهُمْ. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَذْمُومِينَ ذَمًّا يُلَازِمُهُمْ فِي ذَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- من سمات الطغاة: الجبروت والاستعلاء، وتلفيق الباطل على مَنْ يُعَارِضُهُمْ، وَأَعْدَاءُ الرَّسْلِ يُلَقَّبُونَ الرَّسْلَ بِالْقَابِ السُّوءِ وَالْعَيْبِ.
- ٢- هذا الطاغوت الأكبر، وجبروته الأعظم، يصير بين يدي الله كالخصي تُنْبَذُ فِي هَوَانٍ، عِنْدَمَا يَجِيحُ أَوْانٌ سَقُوطُهُ.

٣- فِي الْآيَةِ (٤٠) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ اعتبار بسوء عاقبتهم لاستكبارهم. وهذا موضع العبرة من سَوَقِ هَذِهِ الْقِصَّةِ؛ لِيَعْتَبِرَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ، فَيُقَيِّسُوا حَالَ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِحَالَ دَعْوَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُقَيِّسُوا حَالَهُمْ بِحَالَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَيُوقِنُوا بِأَنَّ مَا أَصَابَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ سَيُصِيبُهُمْ لَا مَحَالَةَ. (انظر: التحرير والتنوير ١٢٦/٨).

٤- فِي الْآيَةِ (٤٢) قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ على الاتساع في (أل) الموصولة، أو يتعلق بمحذوف يفسره ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَقُبِحُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ يَعْطَفُ عَلَى مَوْضِعِ ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أَي: وَأَتْبَعْنَاهُمْ لَعْنَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (انظر: الدر المصون ٦٧٩/٨)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَاحِبِ الرَّسَالِ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ
 ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
 آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ
 لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يَٰمَا
 قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا يَٰمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
 مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفِيرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتُوا بِي كِتَابٍ مِّن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا
 أَنِّيَعُوهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ
 مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٣ - جَرَتْ سُنُنُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَنْ يُرْسِلَ رَسُولًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ إِلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
 وَثَمُودَ، حَتَّىٰ إِذَا كَذَّبَتْ هَذِهِ الْأُمَمُ رُسُلَهَا جَاءَهَا نِقْمَةُ اللَّهِ بِهَلَاكِهَا، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ مُوسَىٰ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ،
 وَأَنْزَلَ مَعَهُ التَّوْرَةَ مُتَضَمِّنَةً مَا يُبَصِّرُهُمْ طَرِيقَ الْهُدَىٰ، وَمَا يُعِينُهُمْ عَلَىٰ بَلُوغِ رَحْمَةِ اللَّهِ، لَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
 يَتَذَكَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَيَشْكُرُوهُ.

٤٤ - أَيُّهَا الرَّسُولُ، لَقَدْ تَلَوْنَا عَلَيْكَ أَخْبَارَ نَبِيِّنَا مُوسَىٰ، وَلَمْ تَكُن حَاضِرًا بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ مِنْ
 شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ، يَوْمَ الزَّمْنَا مُوسَىٰ عَهْدَنَا، وَكَلَّفْنَا أَعْيَابَ الرِّسَالَةِ، وَلَمْ تَكُن - أَيُّهَا الرَّسُولُ - مِنْ
 الَّذِينَ شَاهَدُوا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَقْفَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَلَسْتَ أَنْتَ وَقَوْمُكَ بِأَهْلٍ مَعْرِفَةً بِأَخْبَارِ الرِّسْلِ وَالْأُمَمِ
 السَّابِقَةِ. وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَىٰ تَفْصِيلِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ الْغَيْبِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمُشَاهَدَتِهَا عِيَانًا تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا
 بَوْحِي مِنَ اللَّهِ.

٤٥ - وَلَقَدْ خَلَقْنَا أُمَّمًا بَيْنَ زَمَانِ مُوسَىٰ وَزَمَانِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ، فَطَالَتْ عَلَى النَّاسِ الْمَهْلَةُ، وَتَمَادَىٰ عَلَيْهِمْ
 الْأَمَدُ، وَتَنَاسَتِ الْخَلَائِقُ مَا فِي الشَّرَائِعِ، فَتَرَكُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَلَمْ يَقُوا بِهِ. وَمَا كُنْتَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - مَقِيماً لَدَىٰ
 أَهْلِ مَدْيَنَ؛ لِتُحَدِّثَ قَوْمَكَ بِمَا جَرَىٰ مَعَهُ مُوسَىٰ، وَلَكِنَّا كُنَّا قَدْ أَرْسَلْنَاكَ بَوْحِينَا، فَعَلَّمْنَاكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
 أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ.

٤٦ - ولم تكن - أيها الرسول - بجانب الطور - في الجهة الغربية منه - إذ نادينا موسى لميقاتنا، وأنزلنا ألواح التوراة عليه، ولم تشهد شيئاً من تلك الأحداث فتعلمها، ولكننا أرسلناك رحمة وهدى من ربك؛ لتندّر أمّ القرى ومن حولها، إذ لم يأت أهلها من يُنذِرهم قبل مبعثك، فكان ضلالهم فاشياً. لعل أولئك يتذكّرون ما جتّهم به من الخير، فيمتثلوه.

٤٧ - أيها الرسول، ولولا إصابتهم بمصيبة بسبب ما اعتقدوه من الشرك وآثاره، يعقبا قولهم: ربنا هَلَّا أرسلت إلينا رسولاً، ففسير وفق هدى آياتك، ونكون من المؤمنين بها، لما أرسلناك إليهم، ولكننا أرسلناك إليهم لنقطع معذرتهم، فلو عذّبناهم لقالوا: لم يُرسل الله إلينا رسولاً، ويظنون أنّ ذلك عُذْرٌ لهم، ولا عذر لهم فقد أكملنا الحجة بإرسالك يا محمد إليهم.

٤٨ - فلما أرسلنا نبينا محمداً ﷺ إلى مشركي مكة بالحق المبين، قالوا تعتأ: هَلَّا أعطاه الله مثل ما أعطى موسى من المعجزات المشاهدة والكتاب الذي نزل جملة واحدة. وقد لفقوا المعاذير عندما جاءهم رسولنا بالهدى. فأجابهم الله: لقد كَفَر مشركو مكة بآيات موسى، كما كفروا بآيات محمد، وقالوا افتراءً عليهما: إنّ موسى ومحمداً تعاونا على الإتيان بالسحر، ونحن بكلّ منهما كافرون.

٤٩ - فإذا كانت هذه أحكامهم في كتب الله ورسله، فقل لهم يا رسول الله: هَلَّا أتيتم بكتاب من عند الله يشتمل على حقائق الهداية على نحو يُفوق ما أنزل عليهما، فإذا حصل هذا منكم فسوف أسير حسب توجيهه إن صدقتم في دعواكم.

٥٠ - فإن صكّوا أذانهم، وعميت أبصارهم عمّا دعوتهم إليه، وأظهروا عجزهم عن ذلك، فكن على يقين أنّ هؤلاء القوم لا يتبعون إلا هوى نفوسهم، ويغضّون أبصارهم عن نور التوراة والقرآن. ولا أحد أفضل ممن اقتنع بأن يكون بعيداً عن هدى ربه العليم. إنّ الله لا يُوفّق للحق من خالف أمر الله، ورَسَخَ ظُلْمُهُ وضلاله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إلف الشهوات، ودوام متابعة الضلال، يجعلان الكثيرين ينسون معالم الحق، والوفاء بها.

٢ - يُسرّع أهل الضلال بتبذ الدعاء إلى الهدى بكلّ اتهام ثقيل.

٣ - قال العلم الحديث عن الأهرامات:

أ- إن الأهرامات بُنيّت من طين وحرارة، فقد تم مزج الطين الكلسي المعالج حرارياً بالموقد مع الملح، وتم تبخير الماء منه مما شكل مزيجاً طينياً هذا المزيج تم تحلّه بقوالب خشبية، وصبّه في المكان المخصص على جدار الهرم.

ب- استخدم الفراعنة في بناء الأهرامات عدداً هائلاً من الحجارة بحدود ٢ - ٨, ٢ مليون حجر.

(http://www.kaheel7.com/ar/index.php?option=com_content&view=article&id=189:2010-08-15-

15-30-22&catid=47:2010-02-02-22-57-13&Itemid=74)

٤- من الإعجاز العيبي للقرآن الكريم إخباره عن الأمم السابقة، بتفصيل دقيق لا تتخلف حقائقه.

٥- قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: «أي: فاعلم أن ما ركبوه من الكفر لا

حُجَّة لهم فيه، وإنما آثروا فيه الهوى، وقد علموا أن الذي أتيت به الحق». (معاني القرآن ٤/١٤٨).

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَايَنْتَهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ؕ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَكِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَّا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير:

٥١- إننا أنزلنا القرآن، وتابعتنا موصولاً بعضه ببعض، فلم ينزل جملة واحدة، ووصلت معانيه بأصناف من الترغيب والترهيب والقصص والأحكام، فصار قولاً معجزاً. ولعل هؤلاء يتدبرون معانيه؛ فيكون هذا سبباً لهدايتهم به.

٥٢- وإذا سألت سائل: هل آمن أحد بهذا القرآن قبل نزوله عليك؟ قلنا: إن طائفة من الذين آمنوا بما نزل عليهم من كتب الله من اليهود والنصارى لم يحترقوا ما ورد في هذه الكتب، فصدقوا بالقرآن ومن نزل عليه.

٥٣- وإذا استمع أولئك المؤمنون لهذا القرآن، قالوا: صدقنا به؛ لأنه مشتمل على حقائق الهداية التي أوحى بها ربنا، ونحن كنا قبل أن ينزل على محمد ﷺ مُصدِّقين به؛ لأن الدين عند الله الإسلام.

٥٤- إن أولئك المهتدين لجديرون بخير عميم سوف يغمرهم؛ ثواباً على إيمانهم وتصديقهم، وسوف يكون ثوابهم مضاعفاً مرتين؛ لأنهم آمنوا بكتابهم السابق الذي نزل على نبيهم، ثم آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، كما أنهم يُثابون على ما أبدوه من الصبر على ما أصابهم من الابتلاء، وكانوا يدفعون الفعلة السيئة بالخصلة الحسنة، وحرصوا على الإنفاق في سبيل الله مما رزقهم.

٥٥ - ومن أوصاف هذا الفريق المؤمن أنهم إذا سمعوا الباطل من القول صدقوا عنه، ولم يرعوه بالهم، وهم يُرَدُّون أمام أهله: لنا منهج رباني في حياتنا يخالف منهجكم، فلا نشغل أساعنا بما لا يفيدنا، ولا نجاريكم في السفه، ونقول لكم: أمنة لكم منا وسلامة، ولا نطلب صحبة الجاهلين، أو جدالهم ومسابقتهم.
الفوائد والاستنباطات:

- ١ - قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في الآية (٥١) مأخوذ من وَصَلَ الجبال بعضها ببعض، ومنه قوله: فُؤَلُ لَبْنِي مَرَوَانَ مَا بَأَلَ ذِمَّتِي بِحَبْلٍ ضَعِيفٍ لَا تَزَالُ تَوْصَلُ والمعنى: توصيل المعاني في القرآن إليهم. (انظر: البحر المحيط ٧/ ١٢٥).
- ٢ - في ذِكْرِ الْأَجْرَيْنِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ إِثْبَاتٌ عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ، فَالثَّوَابُ عَلَى قَدْرِ الْعَمَلِ.
- ٣ - مَنْ طَبِعَ الْإِنْسَانَ أَنْ تَزَلَ قَدَمُهُ، وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَسَنَاتِ تَذُرُّ السَّيِّئَاتِ.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) وَقَالُوا إِنَّا نَنْبِئُكَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلْنَاكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِن مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾
٥٦ - سبب النزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعنمه عند الموت: «قُلْ: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله» فأبى، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية. وأخرجه من طريق أخرى تنتهي إلى يزيد بن كيسان، وفيه قال: «لولا أن تُعَيَّرني قريش، يقولون: إننا حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله الآية». (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ما لم يشرع في النزاع، وهو الغرغرة، برقم ٢٥ - ٥٥ / ١).

التفسير:

أقبل الله سبحانه على خطاب رسوله بما يُسَلِّي نفسه، ويُزِيل كَمَدَه، بأن أعلمه أن يُفَوِّض أمر الهداية إلى الله، فإنك يا محمد لا تهدي إلى الإسلام هداية توفيق من أحببت اهتداءه، وإننا عليك البلاغ فحسب، ولكن الله يهدي ويُوفِّق من يشاء لدينه، وله الحكمة البالغة، وهو أعلم بمن سيدخل في صفوف المهتدين، ويصلح للهداية، فيهديه على حسب ما تهيأت له فطرته من صحيح النظر، وقبول الخير.

٥٧- أَلِفَ مشركو مكة الكفرَ والتخبطَ العَقْدِيَّ، فَقَدَّمُوا بعضَ المعاذيرِ الواهية التي تمنعهم من قبول الإسلام، وقالوا: إن نؤمن بك يا محمد ونتبرأ من آلهتنا، فَإِنَّ قبائلَ العربِ مِنْ حولنا تقوم بَسَلِينَا وَتَهْنِينَا وَأَسْرِينَا، ولا طاقة لنا بهم. وَرَدَّ اللهُ عليهم مزاعمهم بأنَّه أتاح لهم حَرَمًا ذا أمنٍ في بلد آمن، يأمن فيه مَنْ سكنه من القتل والأسر، وهو الذي يجلب إليهم الثمرات على اختلافِ طَعْمِهَا ونوعها من كل بلد، فيسوقها إليهم رزقاً من لدنه، والله الذي منحهم الأمان والرزق فيها خلا قادر على أن يُؤمِّنهم ويرزقهم إن أسلموا. فما عليهم إلا أن يُبْطِلُوا تَشْبِثَهُمْ بالكفر، وَيَتَدَكَّرُوا نِعَمَ رَبِّهِمْ عليهم، وليست حُرْمَتُهُمْ مزية أسداها إليهم قبائل العرب، ولكنَّ أكثرهم لا عِلْمَ لهم، فيحسبون أن الإسلام مُفْضٍ للاعتداء عليهم.

٥٨- إِنَّ هذه المزاعم الباطلة التي يُرَوِّجُهَا مشركو مكة تقتضي تَعَرُّضَهُمْ لنقمة ربِّ العالمين، وهذا شأن الأمم التي كفرت بأنعم الله وَطَعَّتْ، ولم تعترف بما يُسدى إليها من الخير فأهلكها الله، وهذه مساكنهم الخاوية تُتَبِّئُ عنهم، إذ لم يتركوا فيها خَلْفًا لهم، بل انقضوا عن بكره أبيهم، ولم يَعُدْ يعمرها عامر، وأصبحت عِبْرَةً، فلا يرى فيها إلا مَنْ يمرُّ بها، أو يعتبر بهلاك أهلها، فلا يُطِيلُ المقام فيها، ولا يرث غيرنا ما خَلَّفُوهُ، وهذا دليل غضب الله على أهلها.

٥٩- ومن سُئِنَ اللهُ أَنَّهُ ما كان ليَقْضِيَّهَ بالهلاك على أهل القرى الواقعة حول مكة قبل أن يبعث في القرية العظيمة - وكانت مكة أعظم بلاد العرب - رسولا من لَدُنْهُ، يتلو عليهم آياته، ويدعوهم إلى الحق المبين. وما كان ربك مُهْلِكًا أهل القرى إلا وقد أعلنوا الإصرار على الكفر والشرك، ألا تراهم مستحقين لنقمة الله؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- على الرسل البلاغ، والهداية إلى الحق توفيق من الله.
- ٢- دَأَبُ المشركون على استخدام حرب الإشاعة للتخذيل.
- ٣- قال ابن عادل: «قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولا تنافي، فإن الذي أثبتته وأضافه إليه الدعوة، والذي نفاه عنه هداية التوفيق وشرح الصدور، وهو نور يُقَدِّفُ في القلب». (اللباب ١٥/ ٢٨٠).
- ٤- بيان إعجاز القرآن الكريم بما في الحرم المكي من البركات والثمرات السابقة واللاحقة.
- ٥- من أسباب هلاك الأمم الظلم.

﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيبِهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٠- إنَّ كُلَّ مَا أُعْطِينَاكُمْ - أيها الناس - من نِعَمٍ تشعرون بها، وتَوَدُّون على الدوام اكتسابها، هي من المتاع الذي سُخِّرَ لَكُمْ في الحياة الدنيا، أو من الزينة التي تترزنون بها، ولكن اعلّموا أنَّ ما عند الله من نعيم الآخرة الدائم خير لكم، وأبقى دواماً، فلا تَحْسَبُوا أنَّ ما أنتم فيه من الأمن والرزق والعافية هو الغاية المنشودة، فتعدوا عن تحصيل النعيم الدائم. ألم تَسْتَدِلُّوا بما مَنَحَكُمُ اللهُ من عقولٍ على ما ينفعكم، وتتنبها لما فيه الخير الحقيقي لكم؟

٦١- لا يستوي مَنْ تَلَقَّى مِنَّا وعداً محققاً بالجزاء يوم القيامة، فحَرَّصَ على أن تكون حياته وفق ما أردناه من صالح العمل، وَمَنْ غَرَّه هذا النعيم الزائل الذي رضي به في الحياة الدنيا، وسوف يصير إلينا يوم القيامة، ويأتينا فرداً. هل يستوي الفريقان فيما أُعِدَّ لهما؟

٦٢- واذكروا - أيها الناس - يوم يُنادي الربُّ سبحانه المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم قائلاً: أين هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لي؟ أَحْضَرُوهم لينصروكم، ويشفعوا لكم.

٦٣- أجاب الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب من الرؤساء وأئمة الكفر، وَمَنْ زَيَّنَّا لِلْعَامَّةِ الفساد: رَبَّنَا هؤلاء الذين دَعَوْنَاهُمْ إلى الضلالة، فَضَلُّوا كما ضَلَلْنَا قلوبهم، إننا نعلن براءتنا إليك من عبادتهم إيانا، ولا أحد قادر على نُصْرَتِنَا. لقد انصرف هؤلاء الأتباع إلى أهوائهم، ونحن نُقِرُّ لك بالعبودية. ومضوا يتنصّلون من عامة الضالّين، ويظنون أنَّ هذا الإقرار يُخَفِّفُ عنهم العذاب، أو يَدْفَعُ التَّبِعَةَ عنهم.

٦٤ - ويقال للمشركين في نداء عام يوم القيامة: ادْعُوا الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله؛ ليدفعوا عنكم العذاب. ومضى هؤلاء البائسون يستغيثون، ولكن لا أحد يُجيبهم، أو ينفعهم بشيء، وشاهدوا أهوال العذاب الذي ينتظرهم بأثم أعينهم؛ ليكونوا على يقين أنّ شركاءهم لن يُغثوا عنهم شيئاً. ولو أنهم كانوا يهتدون للحقّ في حياتهم الدنيا لما عاينوا ذلك العذاب.

٦٥ - وهذا نداءً ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لجموع المشركين على صعيد يوم القيامة، يُناديهم الربُّ سبحانه على رؤوس الأشهاد: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم حين دَعَوَكُمْ إلى توحيد الله، وإبطال الشركاء؟

٦٦ - فغابَتْ عنهم الحُججُ، وخَفِيََ الجواب، ولم يتبيّنوا الأشياء في هذا الوقت العصيب، ولا يسأل بعضهم بعضاً عمّا يمكن أن ينفعهم، وذلك من شدّة البهت الذي غمر أولئك العصاة، فَوَجَّهُوا ساكتين.

٦٧ - وإذا كان غير المؤمنين قد خَسِرُوا في هذه المواقف، فإنّ هناك فريقاً أقلعوا عن عقائد الشرك، ومَضَوْا في طريق الإيمان، وما يرشد إليه من عمل صالح، فترجو أن يرقى أولئك إلى درجات الفوز والفلاح.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - مهما بلغت الدنيا من نِعَمٍ وزينة فإنّها تافهة لما أعدّه الله تعالى في الآخرة للمؤمنين.
- ٢ - البطر في العيش مَظِنَّةٌ لهلاك المجتمعات.
- ٣ - يتبرأ أهل الضلال بعضهم من بعض يوم القيامة.
- ٤ - تَغِيبُ الحُججُ يوم القيامة عن غير المؤمنين، ولو كانوا عالمين، فتنتطمس عليهم، ولا يجدون جواباً يُنقذهم.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

التفسير:

٦٨- إِنَّ رَبَّكَ - يا محمد - يخلق ما يشاء مِنْ خَلْقِهِ مِنَ الْبَشَرِ، كما يصطفي من بين هؤلاء مَنْ يريدُه للنهوض بالدعوة إليه، فالله وحده - لا أنتم - يختار مَنْ يرسله إليكم، وقد قضى أَنَّهُ ليس لأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ الخَلْقُ والتقدير والاختيار، وهو مُنَزَّه عن كل نقص، فسبحان الله تعالى، وتَنَزَّه عن شُرُكِهِمْ ومعتقدهم.

٦٩- إِنَّ رَبَّكَ - يا محمد - يعلم ما تُخْفِيهِ نَفُوسُ خَلْقِهِ، وما يُعْلِنُونَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ. فَمَنْ يَرْتَقِي إِلَى مَنْزِلَتِهِ مِنْ مَعْبُودَاتِكُمْ؟

٧٠- وهو الله المتفردُ بالحكم، ولا معبودَ بحقٍ إلا هو، وله الشناء الجميل في الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وله القضاء بين خَلْقِهِ، وإليه المرجعُ للجزاء بعد موتكم.

٧١- قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: أَخْبِرُونِي إِنْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يَهْطَ عَلَيْكُمْ اللَّيْلُ بِظِلَامِهِ الْحَالِكِ عَلَى نَحْوِ دَائِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيُّ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ قَادِرٌ أَنْ يَمْنَحَكُمْ ضِيَاءً كَاشِفًا لَكُمْ. أَفَلَا تَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، فَتُقَرُّوا بِدِيْعِ صُنْعِهِ؟

٧٢- قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: أَخْبِرُونِي إِنْ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ يُسْفِرَ ضَوْءَ النَّهَارِ عَلَى نَحْوِ دَائِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيُّ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ قَادِرٌ أَنْ يَمْنَحَكُمْ لَيْلًا حَالِكًا تَشْعُرُونَ فِيهِ بِالرَّاحَةِ وَالْقَرَارِ. أَفَلَا تَرَوْنَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَتُقَرُّوا بِدِيْعِ صُنْعِهِ؟

٧٣- يَمْتَنُّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ بِوَسْعِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ، إِذْ سَخَّرَ لَهُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ لِيَتَنَفَعُوا بِهِمَا مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّعاقِبِ الْمُنتَظِمِ الَّذِي قَدَّرَهُ عَلَى حَرَكَتَيْهَا بِحُسْبَانٍ، فَيُقَيِّدُ النَّاسَ مِنْ ظِلَامِ اللَّيْلِ بِشُدْدَانِ الرَّاحَةِ وَالْقَرَارِ، ثُمَّ يَفِيدُونَ مِنْ ضِيَاءِ النَّهَارِ بِسَعِيهِمْ فِي أَسْبَابِ مَعِيشَتِهِمْ، أَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ جَلِيلِ الْأَلَاءِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ شُكْرَهُ وَإِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ؟

٧٤- وهذا نداء آخر في مقام التوبيخ والتقريع، فينادي الرب ﷻ أولئك الذين اجترؤوا على الشرك ومظاهره: أين الذين زعمتموهم شركائي، فهاتوا من شتم منهم؛ ليدفعوا عنكم المصير الذي ينتظركم؟

٧٥- وفي هذا اليوم العصيب نُخْرِج من مجموع كل أمة من الأمم المتلاحقة شهيداً منهم - وهو نبيهم - يَشْهَدُ على ما جرى في الحياة الدنيا مِنْ تكذيبهم لرسولهم. ثم يتوجّه الرب سبحانه إلى هؤلاء العصاة من المشركين، ويطلب منهم الحجّة التي جعلتهم ينساقون مع أهوائهم، فيجعلون مع الله إلهاً آخر، بيد أنهم وَجَّهُوا وَبُهْتُوا، فلا يملكون رَدّاً، وأيقنوا أنّ الحق المبين مستحق لله تعالى، وغاب عن مقامهم هذا ما كانوا يُلْفَقُونَهُ من أباطيل، فلا حُجَّةَ يستندون إليها، ولا أولياء يشفعون لهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ما أَلْفَهُ النَّاسُ، وتَعَوَّدُوا مشاهدته من سنن الله الكونية، قد يجعل حسّ الكثيرين تجاه نعيمه ومظاهر قدرته حسّاً بليداً، فلا يتأملون في صياغتها بحسبان دقيق.
- ٢- يلفت القرآن الكريم النظر للتأمل في آيات الله المبثوثة في الكون.
- ٣- في الآية (٧٢) قال الواحدي: «الإتيان من دلائل إثبات صانع واحد، وذلك أنه كان يجوز في العقل دوام كون الظلّمة، وكذلك الضياء، فلما تعاقبا دلاً على صانع يُكَوِّر أحدهما على الآخر، ولما كان تعاقبهما على حساب معلوم في الزيادة والنقصان، لا يختلفان في عام منذ خُلِقَا، دلّ ذلك على توحيد الصانع، إذ لو كان معه إلهٌ لأشبهه أن يريد أحدهما بقاء الليل حين يريد الآخر انقضاءه، وكذلك ضياء النهار، فيختلفان حينئذ في حسابهما». (التفسير البسيط ١٧/٤٤٣).

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَءَايَاتُنَا مِنْ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِكْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقِّنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَقْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ جَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

التفسير:

٧٦- كانت قريش تعتد بشروة المال، وهي عندهم معيار العظمة والسؤدد، ويضرب الله الأمثال للمشركين بنظرائهم من الأمم السالفة، فهذا قارون كان قريباً لموسى، وجمع ثروة عظيمة، وأظهر البطر والبذخ، ولم يشكر النعمة. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَيُّتُنَا﴾ بيان لمن أعطاه الثروة، فليس له أن يطغى، وقد كان يجبس أمواله في خزائن تحتاج إلى آلات فتح متعددة، يُثقل حملها جماعة أولي عزم وشدة. ويجري بين قارون وفئة مؤمنة من قومه حوار، فينصحونه ألا يُفِرط في الزهو والبطر. إن الله لا يجب من كان شأنه الإقبال على هذا الفرح المذموم.

٧٧- يا قارون، اطلبِ النعيم الدائم في الآخرة، وذلك بتلئس سبل الإنفاق على وجوه البر، فنعَم المأل مالاً يحمل صاحبه على البذل في سبيل الله؛ لأنَّ المأل مال الله وهو واهبه لمن يشاء، ولا نلومك على أن تنال حظك من نعيم الدنيا وفق ما أباح الله لك. يا قارون إن شكران الله على ما أسداه إليك يجعلك تُحسِنُ بما تنفقه في الصدقات والمبرات. وهذا الأمر بالإحسان يقتضي النهي عن قُصد الفساد في الأرض التي تعيش عليها، وتذكَّر أن الله لا يجب من عبده النزوع نحو البطر والأشر، وسوف يجاسِبُ كلَّ فردٍ على ما قَدَّم.

٧٨- أجاب قارون عن نصيحة صحبه المؤمنين، ومضى في غيِّه وصلِّفه، يوُدُّ أن يُسكتهم، ويقطع عليهم موعظتهم قائلاً: ما كَسَبْتُ هذا المال إلا على علمٍ راسخٍ مني بقواعد نِائه، ومعرفة متمكِّنة بمسالكتها. يا قارون فاتك النظر في أحوال الأمم السالفة، وما جرى عليها حين طغى وبغى مَنْ كان أكثر منك نفوذاً وجمعاً للكنوز، واستحواداً لخزائنها، فكان أن شَمِلَهُم غضب الله، فأهلكهم على سوء صنيعهم، وليس ثمة حاجة إلى السؤال عن ذنوب العصاة وآثامهم، فإنَّ الله يعلمها، ولن يَفَلِّتوا من عقابه.

٧٩- ويضرب قارون صَفْحاً عن توجيه قومه ونصيحتهم، فيخرج بزهو وصلِّفٍ وتعالٍ، متباهياً بمراكبه ومتاعه وخدمه. وهذا المشهد جعل ضعفاء اليقين الذين تُصرفهم زخارف الدنيا عمَّا يُحْفُهُم من سوء العواقب، فيتلهَّفون عليها، ويتشوقون لكسبها، ويحكمون على قارون بأنه أوتي نصيباً فسيحاً من النعيم.

٨٠- بَيَّنَّ أنَّ فريقاً آخر مَنَّ الله البصيرة، وتقدير الأمور بموازينها الصحيحة، أثر الآجلة على العاجلة، ولم يَغْرَهُ وَمِيْضُ الثراء الموقت بأجل محدود. وَيَعْجَبُ هذا الفريقُ المؤمنُ مَن تَعَلَّقَتْ نفسه بالزينة، واغبتبت بتلبيسها، قائلاً: إِنَّ ما أعدَّه الله للمؤمنين العاملين للصلاحات من أجرٍ عميمٍ خيرٌ، وأحسنُ أملاً، ولا يَلْقَى ثمرة ذلك إلا الصابرون؛ لأنَّ الصبرَ وسيلةً مثلى لنيل المعالي.

٨١- وعقب ساعة خروج قارون وهو في زهوه وزينته، عَجَّلَ الله عقابه في الدنيا، فخسف به وبداره الأرض، وانقلب بعض ظاهرها إلى باطنها، وكان قارون يستقوي بطائفةٍ شايعةً، ولكنه في هذا الموقف لم يكن معه أيُّ نصيرٍ منهم، ولم يَنْلَهُ أيُّ فلاح بعد أن حلَّ به قضاء الله ونقمتُهُ.

٨٢- وصاحَبَ خَسَفَ الباغي ندامةً ورجوع إلى التفويض لحكمة الله فيما يختاره، من قِبَلِ الذين اشرأبت أعناقهم لنعيمه وثرثائه، فصاروا يُرَدِّدون: لا ينقضي العَجَبُ من هذا المشهد، وسوء العاقبة، وتَصَرَّفِ الله تعالى في خَلْقِهِ، وهو سبحانه يُقَدِّرُ الرزق لعباده، فييسطه لِمَنْ يشاء، ويُضَيِّقه على مَنْ يشاء، وكلُّهم عبيده فحقَّهم الرضا بما يقضيه مولاهم لهم. ولولا أن تَفَضَّلَ الله علينا، فحفظنا من بَطَرِ وزهوه يصيبنا من ثراءٍ مُوقَّتٍ بأجلٍ، لَكُنَّا مِمَّنْ شملهم الله بسوء العاقبة. لقد أسفر الصبح لذي عينين، فالكافرون الطغاة ليس لهم فلاحٌ ومَنْجَى في الدنيا والآخرة.

٨٣- تلك الدار التي لا دارَ بعدها ذات النعيم الدائم، تستشرف وفود أهل المراتب العالية إليها من الذين لا يتكبرون في الحقِّ، ولا يَبْغون، وينشدون الصلاح، والعاقبة المحمودة التي جعلها الله لِمَنْ اتقاه، وأعدَّ العُدَّةَ للقائه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يعتقد المتكبر الذي أفسده ثراؤه أَنَّ التَّعَمَّ التي بيده هي من نتاج إبداعه، ولا ينسبها إلى مُسئديها الحقيقي.
- ٢ - يتبلى الله بإعطاء المال، فكما أن الفقر والحرمان ابتلاء، فكذلك الثراء ابتلاء.
- ٣ - زخرفة الدنيا تُغرُّ كثيراً من الناس، فيُعطلون عقولهم عن معرفة خطرها.
- ٤ - المؤمنون المهتدون يشكرون الله على حِفْظِهِ إياهم من الشطط، والانتزاق نحو المتاع الزائل.
- ٥ - وَعَدُّ الله لرسوله بإعادته إلى مكة من غيب المستقبل، وقد تَحَقَّق.
- ٦ - قضى الله بالموت على كلِّ الخلائق.
- ٧ - قال ابن العربي في الآية (٧٧): «وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تَنسَ الحلال، فهو نصيبك من الدنيا». (أحكام القرآن ٣/١٤٨).
- ٨ - إن الله إذا حكم بالعقوبة على عاصٍ فليس له ناصر، ولو عَظُمَت قُوَّتُهُ، وكَثُرَ جنده.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

التفسير:

٨٤ - إِنَّهُ سبحانه مالك يوم الدين، يُصَرِّف منازل خَلْقِهِ فيه كما يشاء، وفق صحائفهم، فَمَنْ يعمل مثقال ذرة من الخير يضاعف له من الحسنات، وَمَنْ يعمل مثقال ذرة من الشر يُلْقَىٰ جزاءً وفاقاً، لا حَيْفَ فيه ولا جَوْر؛ لِأَنَّ حسابَهُ موكول إلى الملك العادل.

٨٥ - أيها الرسول، إِنَّ الله ﷻ هو الذي أنزل عليك القرآن العظيم، وأوجب عليك تبليغه، ودعاك إلى التمسك به، وَلَسَوْفَ يُرْجِعُكَ رَبُّكَ إلى موطنك الأول وهو مكة، بعد غيابٍ عنه ومفارقة له. قل - أيها الرسول - لقومك المشركين الذين أعرضوا عن دعوة الحق: ربي يعلم مَنْ اتَّبَعَ الحقَّ والهدى، واستقام

سيره، ومن هو في ضلالٍ بيِّنٍ عن حَجَّةِ الصواب، وسوف يَظْهَرُ من لَدُنْ عودتك إلى موطنك أَنَّ الله نَصْرَكَ، وَخَدَّلَ أعداءك.

٨٦- وما كنت - أيها الرسول - ترتقب أن تُرْسِلَكَ إلى العباد، وتُنزِّلَ الكتاب عليك، وكان ذلك بِمَحْضِ رحمة ربك. وفيما اختارك اللهُ مِنْ تَحْمُّلِ لأعباء الرسالة دليل على أَنَّ الله لن يخذلك، وقد أعدَّ لك نصراً مبيناً. وهذا الوعدُ من ربِّك يجعلك - أيها الرسول - تهجر مصانعة الكافرين، وعونهم على ضلالهم. ويقتضي هذا تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين.

٨٧- أيها الرسول، لا يَصْرِفَنَّكْ أذى هؤلاء المشركين وكيدهم عن المضيِّ في البلاغ، وتلاوة آيات القرآن، والعمل بها بعد إذ أنزلها اللهُ إليك، واذعُ الناس إلى الله، وإلى توحيدِهِ، والعمل بفرائضه، واجتنابِ نواهيهِ، ولا تكونَنَّ قريباً من دعاوى الشرك ومظاهره في شيء. وإذا حُوْطِبَ الرسول ﷺ في هذا فغيره من المؤمنين أولى بهذا الخطاب.

٨٨- أيها الرسول، لا معبود بحقِّ إلا اللهُ، فلا يجوزُ لك ولا لغيرك أن تتخذ معه معبوداً آخر. وقد قضى اللهُ بهلاك كلِّ الأشياء، بما في ذلك كلُّ ما عُبدَ من دون الله.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٨٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ كلَّ شيء هالك إلا وجه الله الكريم، فله الحكم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر وهو البعث من القبور للحساب والجزاء.

٢- تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ يفيد الحصر، والمحصور هو الحُكْمُ الأكمل، وإلى الله يعود كلُّ الخلائق للجزاء العادل.

٣- الرسول ﷺ ما كان ينشد الرسالة، ولم تخطر على فكره، بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾، ولو كان يتعلم مِنْ بَشَرٍ لَتَطَّلَعَ إلى هذا القرآن.

٤- القرآن رحمة للخلق في الدنيا بصلاح أمورهم ومعاشهم، وفي الآخرة برؤيتهم الحساب العدل، وجنة النعيم.

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - تحذري المشركين بالإتيان بمثل سورة منه.

٢ - وعد الله بنصر المؤمنين.

٣ - مجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن.

٤ - الاستدلال على البعث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴿﴾

التفسير:

١ - تقدم تفسير الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة، وأنها من إعجاز القرآن.

٢ - الله سبحانه يتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، فهل ظنَّ الناس أن يُتركوا وشأنهم، ويسلموا حين يقولون: نحن مؤمنون، فلا يتعرَّضون لاختبارِ صدقِ قولهم، ولا يُبتَلون في أموالم وأنفسهم. لا، ليس الأمر كذلك، فلا بُدَّ أن يُختبرهم ربهم حتى يتبين مدى صدقهم والتزامهم. وحكم الآية باقي في هذه الأمة.

٣ - إنَّ الفتونَ بسبب الانضواء في ركب الإيمان جرى على سُنَّةِ الله فيما سَلَفَ من الأمم، فلا يجوز استعظام الفتنة والذهول عن سُنَنِ الله. وأسند الفتون إلى الله؛ فهو خالق أسبابه، وهو قادر على صرفه، فمن لم يعبأ بالفتنة، وبقي على أتباع الهدى، فقد تبين رسوخ إيمانه، ومن تزلزل إيمانه خوف الفتنة فقد تبين غير ذلك. وقسماً ليعلمَنَّ اللهُ علماً ظاهراً للخلق - وقد كان في علم الله أنه سيكون - صدق الصادقين، وكذب الكاذبين.

- ٤ - مَضَّتِ الآياتُ السابقة على تثبيتِ المؤمنين في مواجهةِ الفِتَنِ الثَّقَالِ، ويعقبها وعيدُ المشركين بأنَّ ما يعملونه من فُتُونِ المسلمين معلومٌ لدينا، ولن نُفْلِتَهُمْ، أيظنُّ أولئك أنَّ يُعْجِزُونَا، فلا تَقْدِرَ عليهم؟ أيعتقدون أنَّهم شَفَّوْا غِيظَهُمْ من أوليائنا فغلبونا؟ بشس القضاء قضاؤهم.
- ٥ - مَنْ كان يَأْمُلُ في لقاءِ الله، ويرتَقِبُ البعثَ، وأعدَّ العِدَّةَ لذلك من يقينٍ وعملٍ صالحٍ، فإنَّ الوقتَ الذي قَدَّرَهُ اللهُ في عِلْمِهِ للحسابِ آتٍ لا محالة. إِنَّ اللهُ يَسْمَعُ كُلَّ قَوْلٍ، وَيَعْلَمُ بِكُلِّ فَعْلٍ.
- ٦ - وَمَنْ صَبَرَ على ضروبِ الأذى، وثبت على دينِ الله، وسعى في إعلاءِ كلمةِ الله، فإنَّها يُقَدِّمُ الخَيْرَ الجزيلَ لنفسه، ويرفع اللهُ قَدْرَهُ في الآخرة، وليس ثَمَّةَ نَفْعٍ ينتهي إلى الله؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن أعمالِ الخلقِ أجمعين.
- ٧ - وَعَدَّ وبشارةٍ من الله يُخَصُّ بهما الذين آمنوا بالله ورسوله، وأتبعوا الإيمانَ بعملٍ صالحٍ. قسماً لَتَنْجَاوِرَنَّ عن خطيئاتهم التي بَدَّرَتْ منهم، وَلَنْجِزِيَنَّهُمْ جزاءً أحسنَ أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٢) إخبارٌ مستقبليٌّ بأنَّ الله سيبتلي ويختبر المؤمنين.
- ٢ - من سُنَّ اللهُ ابتلاءَ المؤمنين؛ ليعلمَ صِدْقَهُمْ. وهذا الاختبار ليس خاصاً بهذه الأمة.
- ٣ - قال ابن عطية: «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب، وفي هذه الجماعة، فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حُكْمُها بقية الدهر». (المحرر الوجيز ١٢/١٩٩).
- ٤ - ليس في مُكَنِّةِ الذين يجترحون السيئات أن يُفْلِتُوا من عذابِ الله.
- ٥ - اللهُ ﷻ غنيٌّ عن خَلْقِهِ، وَمَنْ حمل نفسه على طاعةِ الله أفاد نفسه.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّن خَطِيئَتِهِمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

٨- سبب النزول:

أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، قال: «نزلت في سعد بن أبي وقاص، لما هاجر قالت أمه: والله لا يُظِلُّني بيت حتى يرجع، فأنزل الله أن يُحْسِنَ إليهما، ولا يطيعهما في الشرك». (جامع البيان ١٨/٣٦٣، والتفسير الصحيح ٤/٦٥).

التفسير:

وصية من الله للإنسان بوالديه أن يبرَّهما، ويعاملهما معاملة حسنة تليق بما بذلاه في تنشئته ورعايته، وفاءً بحقَّهما، وإكراماً لهما. وقد يحدث من خلال البرِّ بها أن يُلِحَّ عليك، ويبدل الجهد في سبيل تحمُّلك على الإشراف بالله، فلا تمتثل لهما، ولكن لا تعاملهما بالإساءة لأجل إشراكهما بالله؛ لأنَّ عقابهما مَفُوض إلى الله، فأخبرهم بما كَسَبُوا في حياتهم الدنيا، ثم أجازيهم على ذلك.

٩- إنَّ الذين آمنوا بالله ورسوله، وسلخوا سبيل الأعمال الموافقة لهديهما، قسماً لَنُدْخِلَنَّهُمْ - بما لدينا من العظمة - في عداد أهل الصلاح الكاملين.

١٠- هذا حال فريق من الذين أسلموا بمكة، ولكنهم لم يصبروا على الأذى والفتنة، فرجعوا إلى الشرك، وأضافوا إلى ذلك أنهم كتموا ذلك عن المسلمين، فهؤلاء استنزههم الشيطان، فجمعوا بين صفتي الكفر والنفاق. إنَّ هؤلاء تَعَرَّضُوا للأذى لأجل إيمانهم، ولكنهم أصابهم الجزع، وسَوَّوا بين عذاب الناس وعذاب الآخرة. إنهم بذلك يعتقدون أَنَّهُمْ يَتَوَقَّونَ الفتنة. ويكشف الله ﷻ حقيقة هؤلاء في تماديهم في النفاق، فإذا لمسوا نصراً من ربك للدعوة لَيَقُولُنَّ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، ظناً منهم رَواج نفاقهم، وبهذا يتبيَّن كَذِبُهُمْ، وأنَّ الله مُطَّلِعٌ على ضمائرهم. أليس الله بأَعْلَمَ بما يُكِنُّه الناس في خفاياهم، ولا تخفى عليه خافية؟

١١ - حُصَّ فريقان مَن اشتمل عليهما عموم قوله: ﴿الْعَلَمِينَ﴾ المتقدم، اهتماماً بهما؛ لأنَّ العلم بما في الصدور يترتب عليه الجزاء المكافئ. وقسماً لِيَعْلَمَنَّ اللهُ عِلْماً ظاهراً للناس حقيقة الذين آمنوا، وحقيقة الذين نافقوا.

١٢ - يمضي المشركون في محاولاتهم المتكررة لدفع فريق من المسلمين إلى الردَّة مَن لم يقدرُوا على فتنتهم، وهم الآن يُثيرون مغالطات تُنبئ عن جهلٍ وُغُرور، إذ زَعَمَت فِتْنَةٌ منهم أنهم إذا بُعِثُوا يوم القيامة فسوف يكونون سادة إذا حُمِلُوا حَمَلُوا، أي: إنَّ لدينا قدرة على حَمْلِ التَّبِعَةِ عن الآخرين، وسوف نحمل عنكم آثام خطاياكم إذا أتبعتم هَدْيَنَا. وقد حكى الله عنهم بلام الأمر ﴿وَلَنَحْمِلَنَّ﴾ لإفادة ما تَضَمَّنَتْهُ دعوتهم؛ لأنَّ صيغة أمرهم أَنفَسَهُمْ بالحَمْلِ أكَّد من الخبر عن أَنفُسِهِمْ. وهذا القول من هؤلاء لا يكون بحالٍ، فما هم بحاملين أيَّ شيء من الآثام، وإنَّ كَذِبَهُمْ محقق.

١٣ - فإذا كان هؤلاء كاذبين في دعواهم فإنَّهم غيرُ ناجين من حَمْلِ تَبِعَاتِ لأقوام آخرين، وهم الذين انساقوا معهم عندما سَوَّلُوا لهم الشُّرك بالله. إنَّ هؤلاء الكَذِبَةَ الذين يتوهَّمون في أَنفُسِهِمْ القدرة على حَمْلِ الآثام عن فريق المؤمنين لحاملون أثقال الشقاء والعناء يوم القيامة، إنَّها ذنوب الذين أضلُّوهم، بالإضافة إلى ما حَمَلُوهُ جَزَاءً شُرِكِهِمْ. إنَّهم مؤاخذون بجميع ما اختلقوه من الافتراء الناجم عن تضليل أتباعهم، ومحاولة تضليل المسلمين بدعواهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - لا طاعة لمخلوقٍ - أيأ كان - في معصية الخالق.
- ٢ - في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ عن ضعف فئة من الناس يؤمنون بالله، فإذا آذاهم المشركون جَزِعُوا من عذابهم وأذاهم، كما يَجْزَعُونَ من عذاب الله، ولا يصبرون على الأذى منهم، فيرتدُّون عن الإيمان بالله.
- ٣ - يتحمَّل قادة الدعوات الباطلة آثام أَنفُسِهِمْ، وآثام مَن أضلُّوهم، دون أن ينقص شيء من آثام تابعيهم.
- ٤ - يَجْرِصُ أهل الدعوات الباطلة على إغواء المؤمنين، وهم يستعملون أساليب من الدعاية الباطلة؛ لتزيين ما دَعَا إليه.

٥ - عن أبي هريرة ؓ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجر مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومَنْ دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً». (صحيح مسلم، كتاب العلم، باب: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أو سَيِّئَةً، وَمَنْ دَعَا إِلَى هَدًى أو ضَلَالَةٍ برقم ٢٦٧٤، ٤ / ٢٠٦٠).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

١٤ - يأتي الحديث عن أول رسول لأهل الأرض، وعن مدة طويلة قضاها بين يدي قومه - ألف سنة إلا خمسين عاماً - للدلالة على مدى مصابرتة على أذى قومه. وقد طوى السياق الحكم على قومه بالتكذيب والضلال، وأبرز خاتمهم، وهي هلاكهم بالفرق بسبب ظلمهم لأنفسهم. وفي هذا إيحاء للمعرضين عن دعوة محمد ﷺ بما ينتظرهم نتيجة تعنتهم.

١٥ - فإذا كان ما تقدم مصير المكذبين فإن الناجين هم نوح والذين آمنوا معه، وأمّا السفينة فقد بقيت مدة طويلة على مشهد من الناس؛ علامة على وقوع الطوفان عذاباً من الله للمكذبين، وهي كذلك حجة للمؤمنين.

١٦ - كما أننا أرسلنا إبراهيم، إذ مضى يسعى في هداية قومه قائلاً لهم: أخلصوا العبادة لله وحده، واتقوا عقابه. وهذا النهج الذي أنصحكم به خير لكم من الشقاء الذي تعيشون فيه، إن كنتم تعلمون ما تميزون به ما ينفعكم.

١٧ - أنتم - أيها القوم - تهجرون عبادة الله، وتعكفون على عبادة أحجار تحتونها بأيديكم على هيئة صور لا إدراك لها، وتختلقون لها أخباراً ومناقب موهومة مكذوبة. إن هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تمنحكم أيّ ضربٍ من ضروب الرزق، وينبغي أن تلتمسوا من الله الرزق الذي فيه قوامكم، وأن تخلصوه بالعبادة الخالصة والشكر الجزيل على آلائه، وهو الذي إليه معادكم؛ ليجازي عباده على أعمالهم.

١٨ - هذا خطاب من الله سبحانه لمشركي قريش وغيرهم من المكذبين، واقع في أثناء مقالة إبراهيم لقومه وجوابهم له: إن يكن منكم تكذيب وإعراض عن دعوة نبينا محمد ﷺ فيما دعاكم إليه من إخلاص

العبادة لله وحده، فَإِنَّ لَكُمْ سَلْفًا فِي أَجْيَالٍ مِّنْ قَبْلِكُمْ، فأصابهم سَخَطُ اللَّهِ لما اجترأوه من السيئات، ولا تُكَلِّفُ رَسُولُنَا إِلَّا تَبْلِيغَ الرِّسَالَةِ تَبْلِيغًا وَاضِحًا.

١٩- أولم يعلم هؤلاء المكذَّبون للبعث مظاهر قدرة الله في خلقه، فهو الذي يُنْشِئُ خَلْقَهُ من العدم، ثم يُعيدهم بقدرته من بعد فنائهم خَلْقًا سَوِيًّا كما كانوا. إِنَّ ذَلِكَ هَيِّئْ يَسِيرٌ عَلَى اللَّهِ، فلا يتعذَّر عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- لا عِبْرَةَ بِالْعَدَدِ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً فِي صَدَقِ الدَّعَوَاتِ، فقد يبذل الداعيةُ جهداً كبيراً في دعوته، ولا يلقى ثمرةً مِمَّنْ يدعُوهم.

٢- قال ابن عادل في الآية (١٤): «رُوِّعِيَتْ هُنَا نَكْتَةٌ لَطِيْفَةٌ، وَهُوَ أَنَّ غَايِرَ بَيْنَ تَمْيِيزِي الْعَدَدِ، فَقَالَ فِي الْأَوَّلِ: ﴿سَنَةٍ﴾، وَفِي الثَّانِي: ﴿عَامًا﴾ لِنَلَّا بِثِقَلِ اللَّفْظِ - أَي: فِي التَّكْرَارِ - ثُمَّ إِنَّهُ حَخَّصَ لَفْظَ الْعَامِ بِالْخَمْسِينَ إِذْ بَانَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ لَمَّا اسْتَرَاخَ مِنْهُمْ بَقِيَ فِي زَمَنِ حَسَنِ، فَالْعَرَبُ تُعَبِّرُ عَنِ الْخِصْبِ بِالْعَامِ، وَعَنِ الْجَذْبِ بِالسَّنَةِ» (الباب ١٥/٣٢٥).

٣- نَصُرُ اللَّهَ لِلدَّعَوَاتِ لَيْسَ مَرهُونًا بِكَثْرَةِ أَعْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ، فقد يتحقق النصر وإن قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ.

٤- فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أَنَّ أَهْمِيَةَ الصَّلَاةِ بِاللَّهِ لَا يَفْقَهُ آثَارَهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَعَانِتِ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثِنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ففأمن لله، لوطٌ وقال إني مهاجرٌ إلى ربيِّ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَوَأْتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

٢٠- أيها الرسول، قل لِمَن يُنكِرُ بَعَثَ الْخَلَائِقِ، ووقوفهم بين يدي خالقهم: تأملوا في هذه الأرض قريبا وبعيها، وازجِعُوا البصرَ كَرَّتِينَ في تكوينها؛ لتَفْطِنُوا إلى أَنَّ الَّذِي أوجدها - بعد أن لم تكن - قادر على إعادتها، وإنشائها النشأة التالية الآخرة، فالذي لم يُعجزه الإبداء لا تُعجزه الإعادة، وهو قادر على البعث وعلى كل ما يريد.

٢١- إِنَّهُ سبحانه يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ؛ بسبب ما اجترحوا من سيئات، ويرحم مَن يَشَاءُ مَن آمن وعمل صالحاً، وإليه سوف يرجع الناس يوم المعاد.

٢٢- إِنَّ اللَّهَ قادر على الإحاطة بالعصاة، فليسوا بِمُفْلَتِينَ من عقابه، وليس لهم مَوْتَلٌ يمنعهم منه، سواء في فسيح الأرض أو في أجواء السماء. ولَمَّا آيسهم من الانفلات بأنفسهم في أي مكان، أعقب ذلك بتأييسهم مِن سَعْيِ غيرهم؛ ليشفع لهم في دَفْعِ غضبِ الله عليهم، فليس لهم من دونه أحدٌ يلي أمورهم، أو يظهر بحامي عنهم.

٢٣- يتوَعَّد سبحانه أولئك الجاحدين بآيات الله والمنكرين لبعث الخلائق بين يدي ربهم. إِنَّهُمْ استَحَقُّوا اليأس من رحمته ومغفرته، كما استَحَقُّوا عذابه الموجه.

٢٤- يعود سياق الآيات إلى نبيِّ الله إبراهيم بعد هذا التنبيه على بعض الحقائق، فقومه أصيبوا بصدمة بعد موقفه منهم، وعزموا على إتلافه، وكانوا بين مُرَجِّحٍ للقتل ومُرَجِّحٍ للإحراق، ولكن الله أنجاه ممَّا أَعَدُّوه له من سعيٍ أبطله الله. إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِنجَاءِ آيَاتٍ متعددة على قدرة الله الباهرة، وتصديق وعده،

وكرامة رسوله، وتسخير مخلوقاته له. بَيِّنْدُ أَنْ هَذِهِ الْآيَاتُ يُصَدِّقُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيُعْرِضُ عَنْهَا مَنْ لَمْ يَخَالِطِ الْإِيمَانَ قُلُوبِهِمْ.

٢٥- ويتابع إبراهيم عليه السلام حديثه مع قومه قائلاً لهم: أنتم بعكوفكم على هذه الأوثان، وصرفكم العبادة لها، إنما تتخذونها في الحياة الدنيا سبيلاً للتواؤد بينكم، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها وخدمتها، وتحشون من غياب المودة فيما بينكم إن هجرتموها. فما عاقبة هذا النهج الجائر والمتعة العابرة يوم القيامة؟ إن هؤلاء القوم الغافلين سوف يُعادي بعضهم بعضاً بالكفران والجحود، ويتبرأ السابق من اللاحق، ويتواجهون بالشتائم واللعن، ولكن هذا لن ينفعهم؛ لأن سعي النار ينتظرهم، وليس ثمة من يدفع عنهم هذا الخزي والجزاء.

٢٦- وَيُصَدِّقُ لُوطٌ بِرِسَالَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَيَتَّبِعُهُ. وَجُمْلَةٌ ﴿فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ﴾ معترضة في ثنايا الإخبار عن قصة إبراهيم. ثم يعلن إبراهيم مفارقة الديار والأهل مهاجراً إلى ربّه العزيز الذي لا يُغالب، الحكيم في تدبيره وصنعه.

٢٧- وَأَكْرَمْنَا إِبْرَاهِيمَ بَوْلِدٍ صَالِحٍ هُوَ إِسْحَاقُ، وَبَحْفِيدٍ هُوَ يَعْقُوبُ، وَقَدَّرْنَا فِي ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْبِيَاءَ وَمَعَهُمُ الْكُتُبُ، فَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْقُرْآنُ كُتُبٌ هُدًى، نَزَلَتْ عَلَى أَنْبِيَاءٍ مِنْ ذُرِّيَةِ الطَّاهِرَةِ. وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ ثَوَابِينَ. ثَوَابِ الدُّنْيَا - بِخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ، وَوَفْرَةِ النَّسْلِ، وَحَسَنِ السَّمْعَةِ - وَثَوَابِ الْآخِرَةِ، فَسَوْفَ يَكُونُ فِيهَا مِنْ أَكْبَرِ أَهْلِ الصَّلَاحِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- صَغْفُ الْبَشَرِ أَمَامَ قُدْرَةِ الْخَالِقِ، مَهْمَا بَلَّغُوا مِنَ الْإِمْكَانَاتِ وَالْقُوَّةِ.
- ٢- مِنْ شَأْنِ الطَّغَاةِ مَقَاوِمَةُ الدَّعَاةِ، وَإِيذَاؤُهُمْ بِشَتَى ضُرُوبِ الْأَذَى، وَالصَّبْرُ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.
- ٣- قَدْ يَحْصُلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَاطِلِ مَوَدَّةٌ يَحْمُونَ مِنْ خِلَالِهَا بِاطْلَهُمْ، وَيَتَحَرَّكُونَ فِي ظِلِّهَا؛ لِلانْتِصَارِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ.
- ٤- قَدْ يُعَجَّلُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ بَعْضَ جَزَائِهِ فِي الدُّنْيَا.
- ٥- الْهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ عَمَلٌ صَالِحٌ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ يَدْعُ فِيهَا مَا أَلْفَهُ.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتُونَ الفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٨) أَيُنَّكُمْ لَأنتُونَ الرِّجَالِ وَتَقَطِّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأنتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْتَمُّ بِهِمْ دَرْعًا وَقَالُوا لَا نَخَفُ وَلَا نَحْزَنُ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿

التفسير:

٢٨- واذكر- أيها الرسول - عبدنا الصالح لوطاً، إذ شَنَّعَ على قومه هذا العمل القبيح الذي دأبوا على ارتكابه، وبلغوا الغاية فيه، وهذه الفاحشة ابتدعوها، إذ ليس لهم فيها سابقة في العالمين.

٢٩- ويؤكد لوط إنكاره على قومه تَعَدَّدَ جرائمهم، فهم يأتون الرجال في أدبارهم، ويتصدَّون للمارِّين بالطرقات، فيختارون مَنْ يَسْلُبُونَ أموالهم، أو يُكْرِهُونهم على ارتكاب الفاحشة، وأضافوا إلى ذلك أنهم صَيَّرُوا متداهم الذي يجتمعون فيه تَجْمَعاً لتزيين الفاحشة، ومُعيِناً على شيعوها. ولكن القوم لم ينفع فيهم التوجيه والتنديد، والتذكير بنقمة الله. فأجابوه وهم يسخرون: أين عذاب الله الذي تُوعِدُنَا به؟ إن كنت صادقاً في دعواك فأتنا به.

٣٠- وطلب لوط من رَبِّهِ أَنْ ينصره عليهم؛ لِئَرِيَهُمْ صِدْقَ مَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ. وَوَصَفَ قَوْمَهُ بِالْمُفْسِدِينَ، وفي ذلك تمهيد للإجابة بالنصر؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ الْمُفْسِدِينَ.

٣١- مَضَتْ الملائكة نحو إبراهيم الخليل تَبَشَّرَهُ بخير سارٍ من الله أَنَّهُ سيرزقه إسحاق، ومن وراء إسحاق ولده يعقوب. ثم قالت له: إِنَّا عازمون بأمر الله على إهلاك أهل قرية لوط (سدوم). ثم عَلَّلُوا ذلك ليستانس إبراهيم، وهو يعلم أَنَّ عقاب الله لا يكون إلا على ذنبٍ يقتضيه المذنب، فقد ظَلَمَ القومُ أَنفُسَهُمْ بالكفر والفواحش، وظلموا الناس بترويعهم، وحقَّ عليهم على ما يكرهون.

٣٢- وخاف إبراهيم أن يشمل العقاب لوطاً، فأجابته الملائكة بأنهم أعلم بأحوال مَنْ في القرية، واستحقاق لوط النجاة؛ لأنهم بأمر الله يعملون، وقد عَلِمَت الملائكة بإذن ربهم ألاَّ ينجو إلا لوط وأهله ما عدا امرأته، فستكون في الباقي من المَهْلِكِينَ.

٣٣- وَتَحَلَّى ملائكة العذاب بقرية لوط، وَمَضُوا نحو لوط، فساء قُدُومُهُم، إذ حَسِبَ أَنَّهُم ضيوف من البشر، وقد يُصِيبُهُم من قومه أذىً وسوءٌ كما عَوَّدوه. فقالوا له: لا تَخَفْ علينا منهم، فلن يصلوا إلينا، ثُمَّ أَخبروه بما عزموا عليه، وَقَدَّمُوا تَأْمِينَهُ قبل إعلامه بعذاب قومه، ثم تَأْمِينَ أهله إلا امرأته، فهي في الباقي من المَهْلِكِينَ.

٣٤- ويتابع الملائكة حديثهم عن إنزالهم عذاباً مؤلماً من السماء يصيب قوم لوط، وذلك بسبب معاصيهم، وخروجهم عن سواء الصراط.

٣٥- ولقد أَبَقَيْنَا من القرية آثاراً دالة على أحوالها تُنبئُ عن ثمرة المعاصي؛ ليفيدَ منها ذوو العقول السليمة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- السلوك الجنسي الشاذ عُرْضَةٌ لِنِقْمَةِ الله العاجلة، وعاقبة المعاصي وخيمة.
- ٢- لا يغفل الداعية عن مواجهة المفاصد الأخلاقية في مجتمعه بالنصيحة والتوجيه. قال ابن عطية: «وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد ﷺ فالتناهي واجب». (المحرر الوجيز ١٢ / ٢١٧).
- ٣- من حكمة الله أن يُبْقِيَ في ديار القوم الذين أصابهم عقاب الله آثاراً؛ لتكون موضعَ عِبْرَةٍ وَتَذَكِيرَةٍ.
- ٤- الاتصال بالصالح لا يستلزم من أن يكون المتصل صالحاً. صحيح أن الاتصال بالصالح من أسباب الصلاح، لكنه ليس بلازم، بدليل هلاك امرأة لوط.

﴿ وَإِلَىٰ مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَرَزَقِكُمْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُوبٌ وَفِرْعَوْنُ وَهَمَانُ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٦- وأرسلنا إلى بلاد مدين أخاهم - وهو شعيب - ليكون رسولا ناصحا لهم، ومضى يدعوهم إلى عبادة الله الواحد، وإلى ترقب يوم البعث، والوقوف بين يدي الله، وتبهم للابتعاد عن ضروب الفساد، والولوج في مسارها.

٣٧- بيد أن قوم شعيب عارضوا دعوته، وأصروا على تكذيبه، فأصابهم زلزال مدثر، فأصبحوا في مساكنهم صرعى هالكين.

٣٨- وتسرّد الآيات المزيد من الأقوام المكذبة، فتبين مصيرهم، فهاهم أقوام عاد وثمود، ومن اطلع على مساكنهم ظهر له الخراب الذي عمهم، وخلت هذه المساكن منهم. ولم يلقوا هذا المصير إلا بعد أن بلغ الشيطان مقاصده في تزيين ما اجترؤوا عليه من سيئات، فلم ينتفعوا بعقولهم وبصائرهم، ونشأ فيهم ضلال متأصل جعلهم يزؤون، ويُعجبون بما يعتقدون.

٣٩- وكما ضرب الله الأمثال بالأمم التي عصت ربها، كذلك صرّب المثل ببعض الأفراد من العتاة السابقين؛ ليكون ذلك بمنزلة إنذارٍ لقريش وغيرها، فقد أهلك الله قارون وفرعون وهامان، ولم ينتفعوا بما تَضَمَّنَتْه رسالة موسى من الهدى، فكفروا واستعلوا في الأرض وتعاضموا فيها، ولكنهم ما كانوا ليُفْلِتُوا من قبضة الله ونقمتِهِ، بل كُنَّا قادرين على الإحاطة بهم.

٤٠- شرع في تفصيل صنوف الانتقام من الأقوام والأفراد الذين سلف ذكُرهم، وقرر أن العذاب أصاب كلاً منهم على معصية اجترحتها، من هؤلاء قوم أرسل عليهم ريحاً عاتية ترميهم بحجارة مهلكة، وهم قوم لوط، كما في التفسير الصحيح (٤ / ٧١)، وعند ابن كثير أنهم قوم عاد. (التفسير ٣ / ٥٤٣). وأما الذين أهلكوا بالصيحة فهم قوم ثمود، إذ أُخِذَتْ أصواتهم وحركاتهم، ومن أصابه خسف الأرض هو

قارون الذي تاه بنفسه بطراً ومَرَحاً. والذين أغرقهم هم فرعون ومن معه بعد أن استكبروا في الأرض. ومعاذَ الله أن يكون ربنا قد ظلم أحداً مثقال ذرة، وإنما هؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم، فتسببوا في عذابها، وجُرُّوا العقاب إليها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ينظر: خريطة موقع قوم مَدْيَنَ، كما في الملحق.
- ٢ - تتعدَّدُ أساليبُ عقابِ الله للظالمين والمفسدين في الأرض.
- ٣ - قال الشيخ ابن عثيمين: «ما الضابطُ لتزيين الشيطان؟ إذا كان العمل خلاف الشرع فهو من تزيين الشيطان». (التفسير ٥١٤/٦).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٤١ - هذا مثلٌ لحال مَنْ يتخذ الأوثان أولياء من دون الله يَرْجُونَ نَفْعَهُمْ، فحالمهم كحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً، فتحسب أنها تعتصم به ممن يعتدي عليها، فإذا هو لا يصمد، ويتمزق أمام أضعف مواجهة، فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدَّوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في كونه لا يغني شيئاً. ومن المشهور أنَّ أضعف البيوت بيتها، واقتضى ذلك أنَّ مَنْ يعتقد في غير الله موثلاً له بعيداً عن الرشد. ولو كانوا يعلمون أنَّ أولياءهم لا ينفعونهم في شيء ما اتخذوهم أولياء.

٤٢ - أعقب نَفْيَهُ السَّابِقَ لِعِلْمِ الْمُشْرِكِينَ إِعْلَامَهُمْ بِعِلْمِ اللَّهِ لِدِقَاتِ أَحْوَالِ الْأَصْنَامِ عَلَى اخْتِلَافِ مَعْتَقِدِ مَنْ يَعْبُدُهَا. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ شَيْئاً ذَا قَدْرٍ، فيصلح أن يسمى شيئاً. والله هو العزيز في انتقامه ممن جَحَدَ به، الحكيم في صنعه.

٤٣ - ينمى الرب سبحانه على هؤلاء المشركين أنهم ليسوا جديرين بفَقْهُمُ المعاني التي قُرِبَتْ إليهم بطريقة الأمثال، ويَمْتَنُّ بها على الذين كَمَلَتْ عقولُهم، وقد عَلِمَ البلغاء أنَّ لكل مقام مقالاً.

٤٤ - يخاطب الله سبحانه المؤمنين، فهو الذي خلق السموات والأرض بالحق على نحو مُتَقَنٍ، وكل شيء فيها بحسبان، وهما علامة وبرهان ساطع على وحدانيته وقدرته، وينبغي أن يتفكروا في عظمة خَلْقِهَا.

٤٥ - يخاطب الله سبحانه الرسول ﷺ بقوله: اتل القرآن الذي أوحى إليك على الناس، واعمل به، وأقيم الصلاة بحدودها، وهي ركن عظيم، وفيها فوائد لِمَنْ يُؤَدِّبُهَا، فهي تنهى عن تَجَاوُزِ الحُدِّ الشرعي وهي تشمل على ما يُذَكَّرُ بالله، كما تُذَكَّرُ بلزوم التباعد عن سخطه. والصلوات مُوزَّعة على أوقات الليل والنهار؛ ليتجدد التذكير بها. وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ لأنَّها من ذِكْرِ الله، وذِكْرُ الله أمر كبير، والله يعلم ما أنتم عليه من العمل، وسوف يُحاسبكم عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيت العنكبوت هو الضعيف وليس خيطه، وهذه دقة علمية تشهد بإعجاز هذا القرآن؛ لأنَّ بيت العنكبوت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد؛ وذلك لأن الأنتى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذكِّرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده؛ لأنَّها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وعندما يفقس البيض تخرج صغار العناكب لتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلها معاً، فيقتل الأخ أخاه وأخته، ويكرر مَنْ ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٤٠-١٤٤).

٢ - تَضَمَّنَ بيان القرآن أساليب متعددة من القول؛ للتنبيه على مقاصده، ويضرب الله الأمثال للناس؛ لينتفعوا بها، ويُثِرُوا عقولهم من خلالها.

٣ - في الآية (٤١) إخبار مستقبليٍّ عن عجز آلهة المشركين من أن ينفعوا أو يضروا معبوديهم بشيء. وفيها إخبار مستقبليٍّ آخر، وهو أن هؤلاء المشركين لا يعلمون أن أولياءهم الذين يدعؤونهم من دون الله لا يستطيعون نفعهم ولا ضرهم.

٤ - خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق؛ ليدلَّ على سلطانه، ويُثبَّت شرائعه.

٥ - للصلاة شأن عظيم في استقامة حياة مَنْ يُقيمها بحدودها الشرعية.

٦ - قال ابن عطية: «المُصَلِّيُّ إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات صَلَحَتْ لذلك نفسه وتَدَلَّلَتْ، وخامرها ارتقاب الله تعالى، فاطرد ذلك في أقواله وأفعاله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر. ومَنْ كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تَدَكُّر، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان».

(المحرر الوجيز ١٢ / ٢٢٥).

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي
 أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْإِنهَاءَ وَالْهَيْكَمَ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكُتُبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَتُولَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
 الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ
 ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤٦ - يُرشد الله تعالى المؤمنين، ويُعلّمهم الحكمة في التعامل مع اليهود والنصارى، فينهى عن جدالهم
 إلا بالطريقة المثلى، والموعظة الحسنة؛ للوصول إلى الحق، إلا الذين ظلموا منهم بإعلان الحرب على المسلمين،
 فيعاملون بالغلظة والشدة. ثم بيّن الله تعالى للمؤمنين ماذا يقولون في الحوار معهم: قولوا صدّقنا بالقرآن
 الذي أنزل إلينا، وصدّقنا بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم، ومعبودنا ومعبودكم واحد، ونحن له
 خاضعون بالطاعة له.

٤٧ - ومثّل ذلك الإنزال للتوراة وغيرها أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن، فاليهود والنصارى
 الذين اتبعوا الحق يُصدّقون بالقرآن، وكذلك هؤلاء من العرب الذين دَعَوْتَهُم يصدّقون به. وما يُكذّب
 بالقرآن والمعجزات إلا الذين أصرّوا على الكفر.

٤٨-٤٩ - وما كنت - أيها الرسول - تقرأ كتاباً، ولم تكتب شيئاً بيدك قبل نزول القرآن عليك، ولو
 كنت تقرأ وتكتب لَشَكَّ في ذلك الكفّار المتهاذون في الباطل. وليس الأمر كما حسب هؤلاء الكفار، بل هو
 قرآن فيه آيات واضحة الدلالة على الحق، محفوظة في صدور أهل العلم من المؤمنين، وما يُكذّب بهذه
 الآيات والمعجزات إلا الذين أصرّوا على الكفر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب اتباع الأحسن في المجادلة. وهذا يُؤخذ من الحصر في الآية الكريمة، فلا تجادلوهم إلا
 بالتي هي أحسن، والنهي يقتضي التحريم، فإذا حرّمت المجادلة إلا بالأحسن فمعناه وجبت المجادلة بالتي
 هي أحسن.

٢ - ينبغي للمرء أن يعرف ما عند خصمه؛ ليجادله به. و ما في القرآن كافٍ للردّ عليهم.

٣ - يجب في المجادلة اتباع ما يكون أشدّ إقناعاً، ومبطلاً لحجّة الخصم، من قوله: ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٤ - الظالم في المحاجّة لا يجادل بالتي هي أحسن؛ لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

- ٥ - إثبات أن التوراة والإنجيل والقرآن كلام الله.
- ٦ - من قرئش من آمن بالقرآن، لقوله: ﴿وَمِن هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، فيكونون حُجَّةً على الذين لم يؤمنوا.
- ٧ - رسول الله ﷺ لا يقرأ ولا يكتب قبل أن يُنزل عليه القرآن.
- ٨ - قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -: «إن أسلوب القرآن كما يُبطلُ الشبهة معنى يُبطلها لفظاً، يعني باللفظ والمعنى؛ لأن ﴿بَل﴾ للإضراب الإبطالي، وليس الانتقالي».
- (تفسير القرآن الكريم ٦/٥٦١).
- ٩ - الجَحْدُ بالآيات ظلم، والإقرار بها عدل.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْنِسْنَهُمْ بَعَثَهُمْ وَهُمُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

- ٥٠ - وقال هؤلاء الكفار بسفاهة: هَلَّا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعْجَزَاتٍ وَحُجَجٌ مِنْ رَبِّهِ! قل لهم: إِنَّمَا أَمْرُ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتِ عِنْدَ اللَّهِ، لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا غَيْرُهُ، إِنْ شَاءَ أَنْزَلَهَا، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهَا، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مِنَ اللَّهِ أُبَيِّنُ لَكُمْ طَرِيقَ الْهُدَايَةِ، وَأَحْذَرُكُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ.
- ٥١ - يُنكَرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مُؤَبَّخًا لَهُمْ: أَوْلَمْ يَكْفِ الْمَشْرِكِينَ أَنَّنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ يُقْرَأُ، فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ؟ إِنْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْمَعْجَزَ لِنِعْمَةٍ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ ثَابِتِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى.
- ٥٢ - قُلْ - يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ - هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ: كَفَى أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ شَاهِدًا عَلَى صَدَقِي أَوْ رَسُولِهِ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِيهِمَا، وَالَّذِينَ صَدَّقُوا بِالشَّرِكِ وَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَكَذَّبُوا بِاللَّهِ تَعَالَى. أَوْلَيْتُكَ الْبَعْدَاءَ عَنِ الْحَقِّ هُمُ الْخَاسِرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ آثَرُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ.

٥٣-٥٥- يطلب منك زعماء الشرك - أيها الرسول - أن يُنزل الله عليهم العذاب تكذيباً لك ومكراً بك، ولولا أن الله قدّر لعذابهم وقتاً محدوداً لنزل بهم العذاب حين طلبوه، وقسماً سيأتيهم فجأة وهم لا يشعرون بوقت مجيئه، يطلبون منك إيقاع العذاب بهم في الدنيا. و محلّ العذاب في نار جهنم يوم القيامة محيط بهم، من فوق رؤوسهم، ومن تحت أقدامهم، ويقول الله تعالى لهم توبيخاً: ذُوقوا جزاء ما كنتم ترتكبون من الجرائم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - المتعنت مكابر، فإنهم قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ مع أن الآيات قد جاءتهم.
- ٢ - الإشارة إلى شرف هذا القرآن؛ فقد كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة.
- ٣ - فضيلة الإيمان؛ إذ تتم به الرحمة والذكرى في القرآن.
- ٤ - الحوادث مقدرة عند الله تعالى في علمه، لقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾.
- ٥ - شهادة الله ﷻ تكون بالقول والفعل: أمّا بالقول فإن الله تعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وأمّا بالفعل فإنّ تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ في الأرض، ونصره إياه، وخذلان أعدائه، أكبر شهادة على أنه صاحب الحق.
- ٦ - تعذيب الكفار جسمي ونفسي: الجسمي ما يذوقونه من أنواع العذاب، والنفسي هو التوبيخ الذي يُوجّه إليهم.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٣﴾

التفسير:

٥٦-٥٩- يُخَاطَبُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ خَطَابَ تَشْرِيفٍ: يَا عِبَادِي إِنْ كُنْتُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى إِقَامَةِ شَعَائِرِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي بِلَدِكُمْ، فَهَاجِرُوا إِلَى بِلَدٍ أُخْرَى؛ لِتُقِيمُوا الدِّينَ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْمَوْتَ لَا بَدَّ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ، ثُمَّ تَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّكُمْ؛ لِيَجَازِيَكُمْ عَلَى إِيمَانِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ الصَّالِحَةِ فِي الْجَنَّةِ، بِإِزْنِ الْكَمِّ بِالْغُرَفِ الْعَالِيَةِ بَيْنَ الْبَسَاتِينِ النَّصْرَةِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، مَا كَثُرْنَ فِيهَا أَبَدًا. وَنِعْمَ هَذَا الْمَقَامُ الرَّفِيعُ جَزَاءُ الْعَامِلِينَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِينَ مِنْ صِفَتِهِمُ الصَّبْرُ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْعِبَادَةِ، وَعَلَى مَا يَصِيْبُهُمْ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يِعْتَمِدُونَ. عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أُعِدَّتْهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى وَالنَّاسَ نِيَامًا». (أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، الْمُسْنَدُ ٣٤٣/٥، وَابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ (الإحسان ٢/٢٦٢ برقم ٥٠٩) قَالَ مَحْقُقُ الْإِحْسَانِ: إِسْنَادُهُ قَوِي. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (الْمُسْتَدْرَكُ ١/٣٢١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ. وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ).

٦٠- وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَا تَسْتَطِيعُ جَمْعَ رِزْقِهَا، وَتَحْصِيلَهُ، وَخَمْلَهُ، إِلَّا بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الرِّزْقِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا، وَيُبَسِّرُهُ عَلَيْهَا، فَيَرْزُقُ كُلَّ مَخْلُوقٍ مَا يَصْلِحُهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ السَّمِيعُ لِلْأَقْوَالِ، الْعَلِيمُ بِالْأَفْعَالِ وَالْأَحْوَالِ.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو جِمَاصًا وَتَرْوِحُ بِطَانًا». (أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ، السُّنَنِ ٥٧٣/٤ برقم ٢٣٤٤ - كِتَابُ الزُّهْدِ، بَابُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (الْمُسْنَدُ ١/٣٠). وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ (الْمُسْتَدْرَكُ ٤/٣١٨) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، السُّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ بِرَقْمِ (٣١٠).

٦١ - قسماً إن سألت - أيها الرسول - المشركين: مَنْ أبدعَ خَلَقَ السموات والأرض، ودلّل الشمس والقمر يجريان لما فيه النفع للمخلوقات؟ ليقولنَّ: خَلَقَهُنَّ اللهُ وحده، فإذا أقرُّوا بتوحيد الربوبية، فكيف يُضرفون عن عبادته سبحانه وحده؟

٦٢ - يُطمئنُّ اللهُ تعالى العباد أنَّ الأرزاق بيده سبحانه، فيوسِّعُ الرزقَ لِمَنْ يشاء من عباده، ويضيقُ على مَنْ يشاء، وفي الحالتين ابتلاء. إنَّ اللهُ تعالى بكلِّ شيءٍ من الأشياء عليم.

٦٣ - يُقسم اللهُ تعالى مؤكِّداً أنَّ الكفار يُقرُّون بتوحيد الربوبية، فإن سألتهم مَنْ نَزَلَ من السحاب ماءً فأنبت به الأرض بالنبات من بعد جدِّها؟ ليقولنَّ: اللهُ وحده، قل: الحمد لله على ظهور الحجَّة والاعتراف بالحقِّ على ألسنتهم، بل أكثرهم لا يعقلون أتباع الحق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - شرف الإيمان؛ إذ جعل اللهُ تعالى هؤلاء المؤمنين عباداً له، وإضافتهم إلى الله بالعبودية تشريف لهم.
- ٢ - وجوب محاسبة الإنسان نفسه؛ لأنَّ اللهُ تعالى تَوَعَّدَ بأنَّهم يرجعون إليه.
- ٣ - مَنْ ترك شيئاً لله عَوَّضَهُ اللهُ خيراً منه، فهؤلاء تركوا بلادهم التي ضَيَّقَ عليهم فيها، فعَوَّضَهُم اللهُ بلاداً لا يجدون فيها هذا الضيق، بل يجدونها ذات سعة.
- ٤ - فضيلة الصبر؛ إذ أثنى اللهُ على الصَّابرين الذين صبروا.
- ٥ - كفاية اللهُ ﷻ؛ لأنَّه لا يُتَوَكَّلُ إلا على مَنْ هو كافٍ، فمَنْ ليس بكافٍ فهو غير أهلٍ لأنَّ يُتَوَكَّلَ عليه.
- ٦ - إقامة الحجَّة على الخصم حتى يُذعنَ ويُقرَّ.
- ٧ - سَفَهُ المشركين بالله في عبادتهم؛ إذ يُقرُّون بربوبيته، ثمَّ يُنكرونها ألوهيته، وكان من العقل أنَّ مَنْ أقرَّ بالربوبية أقرَّ بالالوهية.
- ٨ - في الآية (٦٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ اللهُ ﷻ هو الرزاق في الماضي والحاضر والمستقبل.

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّسْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُنْخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؕ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٤- يُخبر الله تعالى عن حقارة الدنيا وزوالها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها هو ولعب بما فيها من اللذات والشهوات. وإنَّ حياة الدَّار الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة، لو كانوا يعلمون ذلك لما استحبُّوا الدنيا على الآخرة.

٦٥-٦٦- ومن صفات الكفار أنهم يجحدون النعم، فإذا ركبوا السفن في البحر، واعتراهم خطر الغرق، لجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء الخالص له دون غيره، فلما أنقذهم من الغرق، وزال عنهم الخطر، إذا هم فجأة يعودون إلى شركهم بالله! من أجل أن يجحدوا النعم التي رزقهم الله إياها، وليتمتعوا بالحياة الدنيا بباقي أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

٦٧- أولم يعلم كفار قريش أننا جعلنا مكة لهم حراماً آمناً على النفس والمال، والناس من حولهم خارج الحرم يُنْخَطَفُونَ بالقتل والسبي والنهب؟ بعد هذه النعم العظيمة هل يؤمنون بالأصنام والأوثان، ويجحدون بنعم الرحمن؟

٦٨- ولا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، فزعم أن له شريكاً، أو كذب بالقرآن الحكيم والرسول الكريم حين جاءه. ألم يعلموا أن نار جهنم مصير هؤلاء المكذِّبين؟ والاستفهام تقرير لإقامتهم في نار جهنم.

٦٩- والذين جاهدوا في حقنا من أجل نشر الإسلام، قسماً سنهدِّبهم إلى طرق الخير، ورضوان الله في الدنيا والآخرة، وإنَّ الله تعالى لمع الذين أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم بالنصر والعون.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - اعتراف المشركين ضمناً بأن آلهتهم لا تنفعهم، ولو كانوا يعتقدون نفعها لدَعَوْها في هذه الحال.
- ٢ - سَفَهُ مَنْ يجعل النَّعْمَ سبباً للأشر والبطر، فإنَّ هذا فيه من مشابهة المشركين ما هو ظاهر؛ لأنَّ الواجب على مَنْ أنعم الله عليه نعمة أن يزداد عبادةً لله ﷻ؛ والعبادة من الشكر.
- ٣ - الدنيا لَعِبٌ وهُوٌّ للكفار واللاعبين، لكنَّها ابتلاءٌ وعَمَلٌ وجِدٌّ عند المؤمنين.
- ٤ - الحياة الحقيقية الدائمة هي في الآخرة، لأنَّها لا انتهاء لها، خلاف الحياة الدنيا الفانية.
- ٥ - الشعور بالأمن نعمة عظيمة من الله، لا بُدَّ أن يقابلها المؤمن بحمد الله وشكره.
- ٦ - أشدُّ أنواع الظلم قبحاً الافتراء على الله، أو التكذيب بالحق، أو تكذيب الرسول.
- ٧ - المجاهدون صادقون محسنون، يُكْرِمُهُمُ اللهُ بالتوفيق لسبيل الخير، وطُرُق الفلاح.
- ٨ - في الآية (٦٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله سيهدي إلى سبيل الخير، ويثبتُ على الصُّراط المستقيم المؤمنين الذين جاهدوا أعداء الله، وصبروا على الفتن والأذى في سبيل الله. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر بالبشارة لِمَنْ أحسن مِنْ خَلَقِ اللهُ بتأييد الله ﷻ بالنصرة.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - إقامة البراهين على وحدانية الخالق وعظمته.

٢ - تقرير بعثة الرسل صلوات الله عليهم.

٣ - تسلية النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آذَنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي يَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴿﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ

القرآن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آذَنِي الْأَرْضِ ﴿﴾ قَالَ: غَلَبَتْ وَغُلِبَتْ، كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُجَبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارَسَ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا أَهْلُ أَوْثَانَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجَبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومَ عَلَى فَارَسٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرُوهُ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ. فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا، فَجَعَلَ أَجَلَ خَمْسِ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: أَلَا جَعَلْتَهُ إِلَى دُونَ، قَالَ: أُرَاهُ الْعَشْرَ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَالْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ، قَالَ: ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ. قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴿﴾ قَالَ سَفِيَانُ: «سَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ». (أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، السَّنَنُ ٥/٣٤٣-٣٤٥ - كِتَابُ التَّفْسِيرِ، بَابُ سُورَةِ الرُّومِ بِرَقْمِ ٣١٩٣. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي (صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ بِرَقْمِ ٢٥٥١)، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ فِي (المستدرک ٢/٤١٠)، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ).

٢-٥ - غَلَبَتْ دَوْلَةُ الْفَرَسِ الْوَثْنِيَّةُ دَوْلَةَ الرُّومِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي أَدْنَى أَرْضِ الْعَرَبِ فِي مَدِينَةِ (أَذْرَعَات) وَ(بُصْرَى) فِي بِلَادِ الشَّامِ، مَطْلَعِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَسَوْفَ تَغْلِبُ دَوْلَةُ الرُّومِ دَوْلَةَ الْفَرَسِ بَعْدَ هَزِيمَةِ الرُّومِ فِي مَدَّةٍ مَا بَيْنَ ثَلَاثِ إِلَى تِسْعِ سِنَوَاتٍ. اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ انْتِصَارِ الرُّومِ وَبَعْدَهُ. وَيَوْمَ يَنْتَصِرُ الرُّومَ عَلَى الْفَرَسِ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِلرُّومِ عَلَى الْفَرَسِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ.

٦-٧ - وَقَدْ تَحَقَّقَ نَصْرُ الرُّومِ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ، فَهُوَ وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ الْعِبَادِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، يَعْلَمُونَ أُمُورَ الدُّنْيَا وَمَعَايِشَهُمْ، وَعِلْمُهُمْ مَنْحَصَرُ فِي الدُّنْيَا، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا ظَاهِرَهَا، أَمَّا التَّفَكُّرُ فِي حَقِيقَتِهَا وَعَظْمَةِ خَلْقِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ فَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ لَا يُفَكِّرُونَ فِيهَا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لأنَّ الإخبار عن الغيب لا يكون إلا بوحي.
- ٢ - قررت حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، فقد أخبرت أن الروم خسروا المعركة مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض. وكلمة «أدنى» عند العرب تأتي بمعنيين أقرب وأخفض، فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ أنَّها تنخفض عن مستوى سطح البحر بـ ١٣١٢ قدم (حوالي ٤٠٠ متر) وهي أخفض نقطة سجَّلتها الأقمار الاصطناعية على اليابسة، كما ذكرت ذلك الموسوعة البريطانية، والحقيقة التاريخية تشهد أن المعركة وقعت في أكثر مناطق العالم انخفاضاً في حوض البحر الميت. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبدالعزيز المصلح: ص١٩٧-١٩٨). وينظر: من آثار الروم وصورة منخفض البحر الميت، كما في الملحق.
- ٣ - كُلُّ الْأَشْيَاءِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ﴾، قَالَ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ إِذْنُ فَكُونُهُمْ غُلِبُوا إِنَّمَا هُوَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَانْتِصَارُهُمْ كَذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ، فَكُلُّ الْأُمُورِ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ.

- ٤ - جواز فرح المؤمنين بانتصار بعض الكفار على بعض، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام.
- ٥ - مَدْحُ الْمُقْبِلِينَ عَلَى الْآخِرَةِ وَالْحَرِيصِينَ عَلَيْهَا، وَإِنْ فَاتَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا.
- ٦ - من دلائل صدق القرآن إخباره عن أنباء الغيب التي تتحدث عن الأنبياء المستقبلية.
- ٧ - وجوب ثقة المسلمين بتحقيق وَعْدِ اللَّهِ، وَجَزْمُهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا حَصَلَ مِنَ الصِّدِّيقِ فِي تَحْدِيثِهِ لِلْمَشْرُوكِينَ.
- ٨ - الكفار يهتمون بتحصيل العلم الدنيوي المادي، ويففلون عن العلم الديني النافع.

٩- المسلمون مُطالبون بإعداد القوَّة الحربية، وتحصيل العلوم التي يستعمرون بها الأرض، فالعلم الدنيوي ليس قُصراً على الكفار.

١٠- في الآية (٥) إخبار مستقبلي بأنَّ النصر والخِذلان بيد الله ﷻ، فهو سبحانه وتعالى ينصر مَنْ يشاء، ويخذل مَنْ يشاء.

١١- في الآية (٦) إخبار مستقبلي بأنَّ الله إذا وعد المؤمنين وعداً فإنه لا يتخلف.

﴿ أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٨- يُوبِّخُ اللهُ تعالى المكذِّبين برسله وبلقائه: أولم يجتهد هؤلاء الكفَّار في إعمال الفكر في خلق الله أنفسهم، وما فيها من الآيات، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئاً، وأنه ما خلق السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما إلا بالعدل وإقامة الحقِّ، ووقتٍ محدّدٍ لفناء الدنيا؟ وإنَّ كثيراً من العباد بالبعث ولقاء الله تعالى لمكذِّبون.

٩- أولم يسيروا في الأرض سَيْرَ تَأَمُّلٍ واعتبار؟ فيشاهدوا مصارع الأمم المكذِّبة السابقة كقوم صالح وهود، كانوا أشدَّ قوَّةً من أهل مكة، وأعظم أجساماً، فقد نحتوا الجبال لبناء القصور الفارمة، وحرثوا الأرض، وحولوها إلى مروج خضراء، فعَمَرُوا دنياهم أكثر ممَّا عَمَرَ أهل مكة، وجاءتهم رُسُلهم بالحُجج القاهرة والمعجزات الباهرة، فكذبوهم فدمَّروهم الله تعالى، وما كان الله ليُدَمِّرهم بغير ذنب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي. وهذا السير يشمل الأبدان، وتَتَّبِعُ قصص الأمم الهالكة بسبب كفرهم.

١٠ - ثمَّ كانت عاقبة أولئك المجرمين أسوأ العواقب وأشدَّها؛ لتكذيبهم بآيات الله سبحانه التي أنزلها على رسله، وكانوا بها يَسْحَرُونَ.

١١-١٣ - يُخَبِّرُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ هُوَ سَبْحَانَهُ وَحْدَهُ يَبْدَأُ بِخَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَى إِعَادَتِهَا مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ مَوْتِهَا، ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُ جَمِيعُ الْخَلْقِ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي هَذَا الْيَوْمِ يَكْتَتِبُ الْكُفَّارَ، فَقَدْ يَسُّوْا مِنَ النِّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَمْلِكُونَ حُجَّةً يَنْطَقُونَ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا شَفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ لِلْخَلَاصِ مِنَ الْعَذَابِ، وَكَانُوا حِينْتِذْ كَافِرِينَ بِآلِهَتِهِمُ الَّتِي لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَدْفِعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ.

١٤-١٥ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَفْتَرِقُ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْكُفَّارِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمُ الْجَنَّةُ، يُكْرَمُونَ فِيهَا، وَهُمْ فِي سُرُورٍ دَائِمٍ.

١٦ - وَأَمَّا الْكُفَّارُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسَلِهِ وَبِالْبَعْثِ، فَأُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ عَنِ رَحْمَةِ اللهِ فِي الْعَذَابِ مُقِيمُونَ، لَا يَغِيبُونَ عَنْهُ أَبَدًا.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَوْبِيخٌ مَنَ أَعْرَضَ عَنِ التَّفَكِيرِ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، فَالاستفهام هنا للتوبيخ، وَبِتَفَرُّعٍ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: الْحُثُّ عَلَى التَّفَكُّرِ.

٢ - عَجِيبٌ صُنِعَ اللهُ فِي الْإِنْسَانِ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وَيَعْرِفُ ذَلِكَ أَهْلُ الْعُلُومِ وَالطَّبِّ.

٣ - كِمَالُ الْحِكْمَةِ لَلَّهِ تَعَالَى؛ فَقَدْ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مَقْدَرًا مَنظَمًا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وَالْمَقْدَارُ: يَشْمَلُ مَقْدَارَ الْكَمِّيَّةِ، وَالْكَيفِيَّةِ، وَالزَّمْنِيَّةِ، وَالْمَكَانِيَّةِ.

٤ - تَفَكَّرُ الْإِنْسَانُ فِي آيَاتِ اللهِ، فِي نَفْسِهِ وَفِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ حَوْلِهِ يَزِيدُ إِيمَانَهُ بِاللَّهِ.

٥ - الِاسْتِدْلَالُ بِالْمَبْدَأِ عَلَى الْمَعَادِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٦ - لَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ اللهِ.

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا
 وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ
 تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
 خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَسْبَابَ وَالْوَيْكَرَ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨ - فيا أيها العباد، سُبِّحُوا الله تعالى، ونزّهوه عمّا لا يليق به، واحمدوه على إنعامه في وقت المغرب والعشاء وفي الفجر والعصر والظهر، وله الثناء كله في السموات السبع والأرضين السبع.

١٩ - يذكر الله تعالى الدلائل على عَظَمَتِهِ في خَلْقِهِ، وكمال قدرته في تدبير شؤونهم في الآيات التسع الآتية: الله وحده يُخْرِجُ الشَّيْءَ الْحَيَّ مِنَ الشَّيْءِ الْمَيِّتِ الذي لا حياة فيه، كإخراج النبات الأخضر من البذر اليابس، وإخراج البذر اليابس من النبات الأخضر، ويُحْيِي الأرض بإخراج النبات بعد جفافها. ومثل إخراج النبات من الأرض تُخْرَجُونَ من القبور.

٢٠ - ومن دلائل وحدانيته أَنْ خَلَقَ أَصْلَكُمْ آدَمَ من تراب، تكاثرتم بعد ذلك بالتوالد، فإذا أنتم بشر كثيرون منتشرون في الأرض.

٢١ - ومن تلك الدلائل أَنْ خَلَقَ لَكُمْ - أيها الرجال - زوجات من جنسكم؛ لتألفوهنَّ وتسكنوا إليهنَّ، وجعل بينكم وبينهنَّ مَحَبَّةً وشفقة. إِنَّ في ذلك التدبير الحكيم لَعَلَّامَاتٍ دَالَّةٌ على وحدانية الله وقدرته العظيمة لقوم يتفكّرون في قدرة الله، وعظمته سبحانه.

٢٢ - ومن الأدلّة على عظمة قدرته خَلَقَ السَّمَوَاتِ السبع بغير عَمَدٍ، وخلق الأرضين السبع بطبقاتها وما فيها من الخيرات، واختلاف اللغات التي تتفاهمون بها، واختلاف ألوانكم التي تتعارفون بها. إِنَّ في ذلك الأمر العظيم من الخلق والتنوع لدلائل ينتفع بها أهل العلم للتدبّر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قدرة الله على خلق الأحياء من المواد الأولية التي أوجدها مع بدء خلقه للكون، وهي موادٌ ميتة لا روح فيها ولا حياة، وبعد انتزاع الروح من الكائن الحي يعود جسده إلى تلك المواد الأولية التي بدأ خلقه منها. ويُعدُّ خلق الخلية الحية من عناصر الأرض الميتة أعظمَ صور إخراج الحي من الميت، وكذلك إعادة بعثها في يوم القيامة. (<http://www.islamicmedicine.org/zaghloul/79.htm>).

٢ - في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ فيه ردٌّ على نظرية النشوء والارتقاء، التي ابتدعها دارون بقوله: إن الكائنات متطورة.

٣ - التفكير تفتح به أبواب كثيرة، يعرف الإنسان بها من أحكام الله وحكمته ما لا يحصل له لو لم يفكر؛ لأنه حصَّ الآيات بالقوم الذين يتفكرون، فدَلَّ هذا على أنه يحصل بالتفكر من الاطلاع على أحكام الله وحُكْمِهِ ما لا يحصل بالغفلة.

٤ - من حكمة الله فَرَضَ الصلوات الخمس، وجعلها مُقَسَّمةً على مختلف ساعات اليوم.

٥ - على المؤمن أن يُكثِرَ مِنْ ذِكْرِ الله وحده وتسيبته، وأن يشمل ذلك ساعات يومه، مقتدياً في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يذكر الله على كل أحواله.

٦ - آيات الله الدالة على وحدانيته مبثوثة في الكون، فكلُّ ما في الكون آيات تُدَلُّ على وحدانية مُبْدِعِهَا.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنِينٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

التفسير:

٢٣ - ومن آيات الله تؤمكم في ظلمة الليل، ووقت الظهيرة؛ راحةً لأبدانكم، وجعل لكم النهار لتطلبوا الرزق من فضل الله تعالى. إنَّ في ذلك التدبير الربانيَّ لعلاماتٍ دالةً على وحدانيته سبحانه لقوم يسمعون الآيات والمواعظ، فيتتفعون بها.

٢٤- ومن آياته أن يُرِيكُمْ - سبحانه - لمعان البرق، فتخافوا من مخاطره، وتطمعوا ببركاته، ويُنَزِّلُ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا تَحْيَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ جَفَافِهَا. إِنَّ فِي ذَلِكَ الْفَضْلَ الْكَرِيمَ لَعَلَّامَاتٍ مَشَاهِدَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عِظْمَةَ الرَّازِقِ سُبْحَانَهُ.

٢٥- ومن آياته قيام السماء بغير عَمَدٍ، واستقرار الأرض، وثبوتها، فلم تسقط السماء على الأرض، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ سُبْحَانَهُ دَعْوَةَ مِنَ الْأَرْضِ بِالْبَيْعِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ.

٢٦- والله سبحانه وحده كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، كُلُّهُمْ مُنْقَادُونَ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ.

٢٧- والله سبحانه هو الذي يبدأ الخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ، ثُمَّ يعيده حَيًّا بعد الموت؛ للحساب، وإعادته أهون عليه من بدئه، وكُلٌّ عَلَى اللَّهِ هَيِّنٌ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٦) دلالة على خضوع الكائنات لربِّها ﷻ.

٢- استعمال قياس الأولى، وهو الاستدلال على الشيء الذي يكون أولى من المقيس عليه، يؤخذ هذا من قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ إعادته، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ فَهُوَ عَلَى الْإِعَادَةِ أَقْدَرُ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

٣- سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، وَالنَّهَارَ لِلْعَمَلِ وَالسَّعْيِ، وَلَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُنظِّمَ حَيَاتَهُ وَفَقَّهَا.

٤- لَا يَلْتَفِتُ لآيَاتِ اللَّهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَفَكَّرُونَ وَيَعْلَمُونَ.

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
 بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾
 فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٨- بَيَّنَّ اللهُ لَكُمْ مَثَلًا - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ - مِنْ أَنْفُسِكُمْ، هَلْ أَحَدٌ مِنْ عِبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمُ الْأَرْقَاءَ يَشَارِكُكُمْ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ مَالٍ، تَخَافُونَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ الْأَرْقَاءَ أَنْ يَقَاسِمُوكُمْ أَمْوَالَكُمْ كَمَا تَخَافُونَ الشُّرَكَاءَ الْأَحْرَارَ فِي الْقِسْمَةِ؟ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ مَسَاوَاةَ عِبِيدِكُمْ لَكُمْ فِي الْمَالِ؟ مِثْلَ ذَلِكَ الْبَيَانِ تُبَيِّنُ الْآيَاتِ، وَتُوضِّحُ الْأَدْلَةَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ اتَّبَاعِ الْحَقِّ.

٢٩- لَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ فِي إِشْرَاكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، بَلْ ذَلِكَ بِمَجْرَدِ هَوَى النَّفْسِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا بَرَهَانٍ، فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ؛ بِسَبَبِ تَمَادِيهِ فِي الْكُفْرِ، وَلَيْسَ لَهُمْ مَنْ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

٣٠- يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى النَّبِيَّ ﷺ وَأُمَّتَهُ بِأَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى دِينِهِ، وَخَصَّ اللهُ إِقَامَةَ الْوَجْهِ؛ لِأَنَّ إِقْبَالَ الْوَجْهِ تَبَعٌ لِإِقْبَالِ الْقَلْبِ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَى الْأَمْرِينِ سَعْيُ الْبَدَنِ. وَاتَّبَعُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ عَلَيْهِ مِنْذُ وِلَادَتِهِمْ، فَلَا تَغْيِيرَ لِمَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْعِبَادَ، بَلِ الثَّبَاتُ عَلَى ذَلِكَ الدِّينِ ذِي الشَّانِ الْعَظِيمِ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْعِبَادِ لَا يَعْلَمُونَ عَظَمَةَ هَذَا الدِّينِ الْحَقِّ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يُولدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحْسِنون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿فَطَرَتَ اللهُ اللهُ اللهُ﴾ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهُ اللهُ اللهُ». (أخرجه الشيخان، صحيح البخاري ٣٧٢/٨ برقم ٤٧٧٥ - كتاب التفسير - سورة الروم، باب ﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهُ اللهُ﴾، وصحيح مسلم ٢٠٤٧/٤ - كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...).

٣١-٣٢- وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ لِلدِّينِ رَاجِعِينَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَخَافُوا اللهُ بِطَاعَتِهِ، وَأَدَاءَ الصَّلَاةِ بِأَرْكَانِهَا، وَشُرُوطِهَا وَأَوْقَاتِهَا، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَةِ اللهِ غَيْرِهِ، مِنَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي دِينِهِمْ وَبَدَّلُوهُ،

فأصبحوا فرقا. كلُّ فرقة بما لديهم من العلوم المخالفة للشرع فرحون، إذ يحكمون لأنفسهم بأنهم على الحق، وأنَّ غيرهم على الباطل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - روعة بلاغة القرآن في ضرب الأمثال.

٢ - اجتمع في هذا الدين المبني على الإخلاص الشُّرْعُ والفطرة: الشُّرْعُ لآلِه أمر به، والفطرة لأنَّ النَّاسَ خُلِقُوا وَجُيِلُوا عليها.

٣ - التنبيه على أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتفرَّقوا في دينهم، وأنَّ التفرُّق في الدين مشابهة للمشركين.

٤ - صرَبَ الله الأمثال في القرآن؛ لتوضيح الحقائق والمعاني.

٥ - الكُفَّار مُتَفَرِّقُونَ، وكلُّ فرقة تدَّعي أنَّها على الحق.

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَاتِّبَاعُ الْقُرْنَيْنِ حَقٌّ. وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

التفسير:

٣٣-٣٤ - وإذا أصاب العبادَ شدَّةٌ وبلاءٌ أخلصوا لرَبِّهم التوحيد، واستغاثوا به تائبين إليه؛ ليرفع عنهم البلاء. فإذا استجاب لهم برحمته، فإذا طائفة منهم يشركون برَبِّهم فجأة؛ لتكون عاقبة أمرهم الجحود برحمة الله، ثمَّ تَوَعَّدَهُمْ سبحانه بقوله: فتمتَّعوا أيها الكفار، فسوف تعلمون مصير جحودكم في نار جهنم.

٣٥ - يُنكر الله على هؤلاء الجاحدين قائلاً: هل أنزلنا عليهم حُجَّةً واضحة على شركهم، أو كتاباً ينطق بصحة شركهم؟!

٣٦-٣٧ - وإذا أنعمنا على العباد بالخيرات فرحوا بها، وإن أصابهم بلاء بسبب ارتكابهم المعاصي إذا هم يئسُّون من الرحمة فجأة، أولم يعلموا أنَّ الله يُوسِّع الرزق لِمَنْ يَشَاءُ من عباده، ويُضَيِّقُه على مَنْ يَشَاءُ؟ إنَّ في ذلك التدبير الحكيم لدلالاتٍ على وحدانيته سبحانه لقوم يُصدِّقون بالله ورسوله.

٣٨- فَأَغِطِ - أيها المؤمن - قريبك حَقَّهُ من صلة الرحم والبرِّ به، والفقيرَ والمحتاج المنقطع عن بلده وماله، من الزكاة والصدقة. ذلك العطاء خير للذين يريدون بعملهم رضوان الله. وأولئك أصحاب الدرجات الرفيعة هم الفائزون في الدنيا بحياة طيبة، وفي الآخرة بجَنَّةٍ عالية.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- السيئة لا تضاف إلى الله؛ لأنه قال: ﴿وَلَنْ نُصَبِّهَهُمْ﴾، ولم يقل: (وما أصبناهم).
- ٢- في الآية (٣٦) إخبار مستقبليّ يتحدّث عن طبيعة أكثر النَّاسِ في الرخاء والشدَّة، فإذا أذاقهم الله نعمة منه من صحَّة وعافية ورخاء فرحوا بذلك فَرَحَ بَطَرٍ وَأَشْرٍ، لا فرح شكر، وإن أصابهم منه بمرض وفقر وخوف وضيق بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، فإنَّهم يَنْتَسُونَ من زوال ذلك.
- ٣- سعة الرزق وتضييق الرزق كلُّه بيد الله ﷻ، وتقرير ما يحدث لقوم من بَسْطِ الرزق، وتضييقه على آخرين؛ لقوله: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الاستفهام للتقرير.
- ٤- التنبية على أهمية الإخلاص، وأنَّه كلِّما كان العمل أخلص لله كان أكثر خيراً للفاعل.
- ٥- الفلاح يكون بأمرين: الإخلاص، وفِعْلِ المأمور به، وهذا يُؤْخَذ من قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهؤلاء المشار إليهم أتوا بالفعل والإخلاص.
- ٦- الكُفَّار متناقضون في موافقهم، فهُم في الضَّرَاء يتضرعون إلى الله، وفي السَّرَاء مُشْرِكُونَ به غَيْرَهُ.
- ٧- المؤمن مع الله دائماً، يعبُدُه في السَّرَاء، وَيُخْلِصُ له في الضَّرَاء، يَعْرِفُهُ في الرخاء لِيَعْرِفَهُ الله في الشدَّة.
- ٨- المؤمن راضٍ بقَدْرِ الله، فَيَشْكُرُه عند السَّرَاء، وبَسْطِ الرزق، ويصبرُ وَيَحْمَدُ الله عند الضَّرَاء، وتضييق الرزق.
- ٩- في الآية (٣٧) إخبار مستقبليّ بأنَّ الله يُوسِّع الرزق لِمَنْ يشاء امتحاناً، هل يشكر أو يكفر؟ ويضيقه على مَنْ يشاء اختباراً، هل يصبر أو يجزع؟
- ١٠- على الْمُتَصَدِّقِ أن يتصدَّق على أقاربه وأرحامه المحتاجين قبل غيرهم؛ لِيَكُونَ له بذلك أجر الصدقة وصِلَةِ الرَّحِمِ.

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّالْيَرَبُّوٓا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِي۟وٓا۟ عِن۟دَ اللّٰهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكٰوٰتٍ تُرِي۟دُو۟نَ وَجَهَ اللّٰهِ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن رِّزْقِكُمْ ثُمَّ يَمِي۟تُكُمۡ ثُمَّ يُحْيِيكُمۡ هٰذِهِ مِّنۡ شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِنۡ ذٰلِكُم مِّنۡ شَيْءٍ سُبۡحٰنَهُۥ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ اَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمۡ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُو۟ا لَعَلَّهُمۡ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ سِيرُوا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُو۟ا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِي۟نَ مِنۡ قَبۡلِ كَانَ اَكۡثَرُهُمۡ مُّشْرِكِي۟نَ ﴿٤٢﴾ فَاَقۡمِ وَجْهَكَ لِلدِّي۟نِ الْقَيِّمِ مِنۡ قَبۡلِ اَنۡ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَا۟ مَرَدَّ لَهٗٗٓ مِّنَ اللّٰهِ يَوْمَئِذٍ يَصۡدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنۡ عَمِلَ صٰلِحًا فَلَا۟ نَفۡسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ الَّذِي۟نَ ءَامَنُو۟ا وَعَمِلُو۟ا الصّٰلِحٰتِ مِنۡ فَضۡلِهِۦٓ اِنَّهٗٓ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِي۟نَ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٣٩- وَمَنْ أَعْطَى عَطِيَّةً أَوْ هَدِيَّةً يَرِيدُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ أَكْثَرَ مِمَّا أَهْدَى لَهُمْ، فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَمَا أُعْطَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ وَصَدَقَةٍ لِلْمُسْتَحِقِّينَ طَلِبًا لِّثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ هُمُ الَّذِينَ يَضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ.

٤٠- يُخْبِرُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِ الْعِبَادِ، وَرِزْقِهِمْ وَإِمَاتَتِهِمْ، وَبَعْتِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الشُّرَكَاءِ الَّتِي يَدْعُوهَا الْمُشْرِكُونَ مَنْ يَشَارِكُ اللَّهَ تَعَالَى فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ بِمَنْ أَنْفَرَدَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ مَنْ لَيْسَ لَهُ تَصَرُّفٌ فِيهَا؟ تَنَزَّهَ اللَّهُ، وَتَقَدَّسَ عَنْ شُرَكَاهُمْ.

٤١- ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي وَالضَّلَالَةُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَنَزَلَتِ الْعُقُوبَاتُ بِأَنْوَاعِهَا كَالْقَحْطِ وَالغَرَقِ وَغَيْرِهَا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا النَّاسُ؛ لِيُصِيبَهُمْ بِعُقُوبَةٍ بَعْضُ أَعْمَالِهِمْ كَمَا يَتَوَبُّوْنَ إِلَى اللَّهِ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ بَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بُعِثَ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَنَجَّوْا مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَعَمَّتِ الْخَيْرَاتُ.

٤٢- قُل - أَيُّهَا الرَّسُولُ - لِلْمُكذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ: سِيرُوا فِي الْبِلَادِ، فَانظُرُوا مَصِيرَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي دَمَّرْنَا هُمْ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

٤٣- يَا مَرْءَ اللَّهِ تَعَالَى النَّبِيُّ ﷺ وَأُمَّتُهُ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ الْإِسْلَامِ، قَبْلَ مَجِيئِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ لِرُدِّهِ، فَلَا رَادَّ لَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَفَرَّقُ الْعِبَادُ إِلَى الْحِسَابِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي جَهَنَّمَ.

٤٤- ٤٥- مَنْ كَذَّبَ اللَّهَ وَرَسَلَهُ فَعَلَيْهِ إِثْمُ كُفْرِهِ، وَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا وَأَطَاعَ اللَّهَ فَثَوَابُ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ؛ إِذْ يَهَيِّئُونَ مَنْزِلَتَهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ثَوَابًا عَظِيمًا مِنْ فَضْلِهِ. إِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْجَاهِلِينَ بِنِعْمِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٣٩) إخبار مستقبليّ بأنّ مَنْ أعطى قرضاً من المال بقصد الربا، وطلب زيادة على ذلك القرض، ليزيد وينمو فإنّ الله يمحقه ويبطله. وفيها إخبار مستقبليّ آخر بأنّ مَنْ أعطى زكاة وصدقة للمستحقين ابتغاء مرضاة الله وطلباً لثوابه، فإنّ الله سيقبله، ويضاعفه له أضعافاً كثيرة.
- ٢ - تكون مضاعفة الأعمال بحسب الإخلاص؛ لقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، فقد رَتَّبَ اللهُ تعالى الإضعاف على إرادة وجه الله.
- ٣ - في الآية (٤٠) إخبار مستقبليّ عن الموت، أنّ كلّ نفس لها أجل محدود.
- ٤ - قُوَّةُ الإقناع في أسلوب القرآن؛ لأنّ مِثْلَ هذا التحديّ في قوله: ﴿هَذِهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَقَعْلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا أقوى ما يكون في الإقناع، فكلُّ منهم سيكون جوابه: لا، إذن لماذا تعبدونها مع الله؟.
- ٥ - في الآية (٤١) إخبار مستقبليّ بأنّ سبب ظهور الفساد في البرِّ والبحر، كالجذبِ وكثرة الأمراض إنّها هو المعاصي التي يقترفها البشر. وفيها إخبار مستقبليّ آخر بأنّ اللهُ ﷻ يصيب النَّاسَ بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها في الدُّنيا؛ كي يتوبوا إليه، ويرجعوا عن المعاصي، فتصلح أحوالهم.
- ٦ - قال العلماء: شملت الآية الفساد الذي يحدث للبيئة الطبيعية (ماء - هواء - تربة)، أو ما يُسمَّى بالتلوث الطبيعي، فضلاً عن التلوث الأخلاقي المتمثل في السلوك السيِّء نحو البيئة، وإن قمة الإعجاز في الآية أنها عرضت المشكلة وآثارها في الإنسان، وفي البر والبحر، وكيف يتحمل الإنسان المسؤولية كاملة عما اقترفه من سلوك شائن وجور بحق بيئته ممَّا جعلها غير معطاء وغير صالحة لإعالة ساكنيها من البشر، ومن يشاركهم الحياة فيها من باقي الكائنات؟ (ظهر الفساد في البر والبحر : الكتاب الخامس للمؤتمر الدولي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٦١).
- ٧ - الناس لا يعاقبون إلا بما كسبوه؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ آيْدِي النَّاسِ﴾، فيتفرَّع على ذلك أنّ مَنْ أراد أن تُرفع عنه العقوبة فليُتَّبِعْ إلى الله؛ لأنّ التَّوبَةَ من أسباب رَفْعِ العقوبة، وكَسْبِِ التَّوبَةَ.
- ٨ - أسباب هلاك الأمم السَّابِقَةِ كان بسبب إشراك أكثرهم؛ لقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.
- ٩ - لا تُقْبَلُ النِّفْقَةُ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَّا إِذَا ابْتَغَى بِهَا وَجْهَ اللهِ، وأخرجها خالصة لله.
- ١٠ - تلويث البيئة وإفسادها يدخلُ فيها حرّمه الله تعالى.
- ١١ - على المؤمن أن يتعرّف على الأصناف الذين يُحِبُّهُمُ اللهُ؛ لِيَتَّصِفَ بِصِفَاتِهِمْ، ويتعرّف على الذين لا يُحِبُّهُمُ اللهُ؛ لِيَتَّعَدَّ عَنْهُمْ، وَيُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنْ صِفَاتِهِمْ.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ نُجَاءٌ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ، مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ، لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٤٦ - ومن دلائل قدرته على وحدانيته إرسال الرياح مبشّرات، ومُجَلِّيات للمطر، ثمّ الخيرات والثمرات، وليذيقكم من رحمته بإنزال المطر الذي يُخرج النبات، ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بأمر الله تعالى، ولتطلبوا الأرزاق بالتجارة وغيرها، ولكي تشكروا الله بالقول والعمل.

٤٧ - وقسماً لقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - رُسُلًا إلى قومهم يهدونهم إلى الحق، فجاءوهم بالمعجزات العظيمة، فكفر بها أكثرهم، فدمّرهم الله تعالى عقوبةً على تكذيبهم، وكان حقاً ثابتاً أو جَبَنَاهُ عَلَيْنَا تَفْضُلاً مَنَّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

٤٨-٤٩ - يُبَشِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْبَشَرِيَّةَ كَيْفَ يُنْزِلُ الْغَيْثَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ بِإِرْسَالِهِ الرِّيحَ الَّتِي تُحَرِّكُ السَّحَابَ، الْحَافِلَةَ بِالْمَاءِ وَتُسَوِّقُهُ أَمَامَهَا، فَيَجْمَعُهُ فِي أَعَالِي الْجَوِّ، وَيَجْعَلُهُ قِطْعاً مُتَفَرِّقَةً أَوْ مُتَّصِلَةً، فَتَشَاهِدُ الْمَطْرَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ السَّحَابِ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَفْرَحُونَ، وَإِنْ كَانُوا قَبْلَ نَزُولِ الْغَيْثِ لَفِي يَأْسٍ وَقَنُوطٍ.

٥٠ - فانظر - أيها العبد - إلى آثار الغيث من الثمرات والخيرات، كيف أنّ الله يجعل الأرض خضراء بعد أن كانت جرداء؟ إنّ ذلك الله العظيم الشأن الذي قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ هَذِهِ الْأَرْضِ، لِمُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ قَدِيرٌ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٤٦) إخبار مستقبليّ عن أسباب إرسال الله ﷻ للرياح، وذلك لنزول المطر، وجريان السفن في البحر؛ ليشكروا الله على ذلك.

٢ - في الآية (٤٧) إخبار مستقبليّ وبشارةً لعباد الله المؤمنين المتبعين لرسولهم، بالنّصر على المكذّبين برسولهم.

- ٣- ظهور الآيات للإنسان سبب لشكر نعمة الله عليه، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ٤- المؤمن يُكثِرُ من حمدِ الله وشُكْرِه، اعترافاً منه بفضله وإنعامه، ونعمَ الله لا تُحصى.
- ٥- تحذير المخالفين له جَلَّ وعلا؛ لقوله: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾.
- ٦- أوجب الله على نفسه نَصْرَ المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا النَّصْرُ لأبَدٍ أن يكون؛ لأنَّه أتى بصيغة التعظيم، وما حصل من الانتصارات الخاطفة للكفار فهو استدراج من الله ﷻ، حتى يتمَّ النَّصْرُ للمؤمنين في النَّهاية. ثمَّ إنَّه لا يدوم هذا النَّصْرُ أبداً، فالعاقبة لأبَدٍ أن تكون للمؤمنين.
- ٧- فضيلة الإيمان، وأنَّه سبب للنَّصر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٨- حكمة الله ﷻ في نزول المطر من أعلى؛ لأنَّه إذا نزل من أعلى عَمَّ النَّازِلَ والمرتفع، خلاف ما لو كان يجري في الأرض، فلو كان يجري في الأرض فإنَّه يُغْرِقُ النَّازِلَ قبل أن يصل إلى العالي.
- ٩- الاستدلال بالمحسوس المنظور على المحسوس المنتظر. المحسوس المنظور ما يُحْصَلُ من حياة الأرض، والمحسوس المنتظر ما يحصل من إحياء الموتى.
- ١٠- الكافر لا يصبر على البلاء، ولا يَنْبُتُ عند المحنة، وهو كَقُورٍ جَحُودٌ لنعمة الله، خلاف المؤمن الشاكر عند الرخاء، الصابر عند البلاء.
- ١١- في الآية (٥٠) إخبار مستقبلي عن أثر المطر في إحياء الأرض بعد موتها، فإنَّه يُنبِثُها ويُعْشِبُها، وأنَّ الله ﷻ على كلِّ شيء قدير لا يُعجزه شيء، لا في السابق، ولا في الحاضر، ولا في اللاحق.

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ
الْصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِسُؤَا
عَيْرِ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

التفسير:

- ٥١- وقسماً لئن أرسلنا ريحاً عاصفة مفسدة لزروعهم، فأروها مُصْفَرَّةً يابسة من شدة الريح، لَظَلُّوا من بعده مُصْرِّين على جحود نعمة الله تعالى.

٥٢-٥٣- فإنك - أيها الرسول - لا تُسمع موتى القلوب سماعَ تدبّر، ولا تُسمع الصمَّ دَعْوَتَكَ إلى الحق إذا انصرفوا معرضين عن السماع والتفهّم، وما أنت بهادي عمي القلوب من ضلالتهم، وما تُسمع سماع انتفاع إلا مَنْ يُصدّق بآياتنا المنزلة ومعجزاتنا المشاهدة، فهم منقادون لأمرنا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي ﷺ على قلب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول». فدكر لعائشة فقالت: إننا قال النبي ﷺ: «إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق». ثم قرأت: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ حتى قرأت الآية. (صحيح البخاري ٣٥١ برقم ٣٩٨٠، ٣٩٨١ - كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل).

٥٤- الله سبحانه هو الذي خلقكم - أيها البشر - من نطفة، ثم جعل من بعد ضعف الطفولة قوّة الشباب، ثم جعل من بعد قوّة الشباب ضعف الكبر وشيْبَ الهرم، يخلق الله ما يشاء من الضعف والقوة، وهو العليم بعباده، القادر على ما يشاء.

٥٥- يُنبي الله تعالى عن حالة المجرمين يوم القيامة بأنهم يخلفون إنهم ما مكثوا في الدنيا غير مدّة زمنية قليلة جداً. مثل ذلك الحلف الكاذب كانوا يكذبون في الدنيا في حلفهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- في الآية (٥١) إخبار مستقبليّ عن إصرار الكفار على كفرهم حين يُرسلُ الله عليهم ريح العذاب.
- ٢- الكفار يُعطّلون حواسّهم بعدّم تدبّرهم واعتبارهم بها، فكأنّها غير موجودة.
- ٣- الداعية لا يبيّن من إعراض المدعوّين عنه، لأنّه لم يقصّر في دعوتهم.
- ٤- الدُّنيا قصيرة بالقياس إلى الآخرة، بل هي أقل من الفيمتو وهو جزء صغير جداً من الثانية الزمنية

ثانية؛ لأنّ زمن الآخرة ما لا نهاية له .

$$\frac{1}{1,000,000,000,000,000}$$

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّا كُنَّمُ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٦- فیردُ عليهم المؤمنون العلماء: والله لقد لبثتم فيما كتبت في اللوح المحفوظ إلى يوم بعثكم من القبور، فهذا يوم البعث الذي كنتم تكذبون به، ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه حق واقع.
٥٧- فيوم القيامة لا ينفع الظالمين أنفسهم عُذْرُهُمْ فيما أجرموا، ولا يقال لهم: أُرْضُوا ربكم بتوبة.
٥٨- وقسماً لقد بيننا للعباد في هذا القرآن الحق، ووضَّحناه لهم من كل مثل؛ ليتبينوا الحق، ويتبعوه، وقسماً إن جئت أيها الرسول للكفار بآية تدلُّ على صدقك ليقولنَّ: ما أنتم إلا كاذبون فيما تدعون.
٥٩- مثل ذلك الطبع على قلوب الكفار يطبع الله على قلوب الذين حرّموا أنفسهم من العلم النافع، فهم لا يعلمون أتباع الحق.

٦٠- فاصبر - أيها الرسول - على ما أمرت به، وعلى دعوتهم وأذاهم. إنَّ وعد الله بنصرك عليهم حق ثابت، ولا يحملنك على الخيفة والقلق ما يفعله الكفار الذين لا يصدقون الرسل.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- في الآية (٥٨) إخبار مستقبلي بأنَّ سبب بيان الله للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل هو إقامة الحجَّة عليهم، وإثبات وحدانيَّة الله جلَّ وعلا.
- ٢- في الآية (٥٩) إخبار مستقبلي عن طبع الله تعالى على قلوب الذين لم يستفيدوا من مواضع القرآن الكريم.
- ٣- الكفار جاهلون لا يعلمون، ولذلك يُكذِّبون بالحق، ويُنكرون الآخرة.
- ٤- ذكر الله أمثالا مُتعدِّدة في القرآن، ولا يعقلها ويعيها إلا المؤمنون العالمون.
- ٥- لا يفقد المؤمن يقينه بتحقيق وعد الله، ولا يثقته بنصر الله، مهما طالت الطريق، واشتدَّ الأذى، وازداد استخفاف الأعداء وبطشهم.

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - بيان حقيقة الحكمة وفضلها.

٢ - بيان الدلائل الباهرة على وحدانية الخالق، وعظمته.

٣ - بيان أصول الآداب العالية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿ ٢ ﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿ ٣ ﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿ ٤ ﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ٥ ﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿ ٦ ﴾ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَمْ تُسْمِعْهَا كَانَ فِي أذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿ ٧ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢-٤ - هذه الآيات ذات المقام العظيم آيات القرآن الحكيم بأحكامه ومواعظه، هداية للعباد إلى طريق الرشاد، ورحمة للذين يُحْسِنُونَ بالأقوال والأعمال، الذين يحافظون على أداء الصلاة بأوقاتها وشروطها ويُعْطُونَ الزكاة للمستحقين، وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً دائماً بتصدق اليوم الآخر.

٥ - أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نورٍ من ربِّهم يُرشدُهم إلى الحق، وأولئك أصحاب المنازل العالية، هم الفائزون في الدنيا بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بالجنة.

٦ - ومن العباد مَنْ يَسْتَحِبُّ ويختار ما يُلهي القلوب عن طاعة الله، ممَّا نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ؛ لِيُضِلَّ عن طريق الهداية إلى طريق الغواية جهلاً بالإثم، ويتخذ دين الله سخرية. أولئك البعداء عن الحق لهم عذاب مُذِلٌّ في نار جهنم.

أخرج الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، عن جابر وغيره، في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: هو الغناء والاستماع له. (وذكره ابن كثير عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وسميد بن جبير وجماد ومكحول).
 ٧- هذا المقبل على لهو الحديث إذا تتلى عليه آيات القرآن أعرض عنها كبراً، فلا يأبه بمواعظها، ولا يعبأ بأحكامها، كأنه لم يسمعها، كأن في أذنيه صمماً، فأخبره - أيها الرسول - وأنذره بعذاب النار الموجه.
 الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الثناء على القرآن بهذا الوصف العظيم، وهو ﴿الْحَكِيمِ﴾ ، فليس في القرآن خبرٌ أو حُكْمٌ سبق عتياً، لقوله: ﴿الْحَكِيمِ﴾ لأنَّ العبث ينافي الحكمة.
- ٢ - إِنَّ إقامة الصَّلَاة من الإحسان؛ لأنَّ ما بعدها بيان لها ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.
- ٣ - دَمٌ مَنْ يركنُ إلى لهو الحديث، وهو ما لا خير فيه.
- ٤ - دَمٌ كُلُّ ما يصدُّ عن سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - تحريم الهزء بآيات الله.
- ٦ - الكُفَّارُ يخرصون على إشغال النَّاس باللَّهو واللَّعب؛ ليصدُّوهم عن الحق.
- ٧ - كُلُّ ما أشغل الإنسان بالباطل هو من اللَّهو المُحرَّم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَنَى فِي الْأَرْضِ رَوْسَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۗ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

التفسير:

- ٨-٩ - إِنَّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات ثوابهم أجر كريم في جَنَّات النعيم، ماكثين فيها أبداً، وعد الله ذلك حقاً لا يُخلف الميعاد، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير عباده.

١٠ - خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ مِنْ غَيْرِ أَعْمَدَةٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ جِبَالًا ثَابِتَةً؛ لئَلَّا تَضْطَرِبَ بِكُمْ، وَنَشَرَ فِيهَا أَصْنَافًا كَثِيرَةً مِنَ الدَّوَابِّ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، فَأَنْبَتْنَا فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ بِهَيْجِ الْمَنْظَرِ، نَافِعٌ لِلبَشَرِ.

١١ - هذا الذي تشاهدونه هو خلق الله، فأروني - أيها المشركون - أي شيء خَلَقْتَهُ أَهْلَتِكُمْ التي عبدتموها من دون الله؟ بل هؤلاء المشركون في ضلال واضح بعيد عن الحق.

١٢ - قسماً لقد أعطينا العبد الصالح لقمان الحكيم الفقه في الدين، والتوفيق في أقواله وأعماله، ومن عيون الحكمة، وأمره سبحانه أن يشكر الله نعمه عليه بالقول والفعل، ويبيّن سبحانه أن نَفَعَ ذلك الشكر يعود لنفس الشاكر. وَمَنْ جَحَدَ نِعْمَةَ سَبْحَانِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ شُكْرِهِ، وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ، محمود على كل حال.

١٣ - يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى وَصَايَا لِقْمَانَ الْعَظِيمَةَ وَالْمَوَاعِظَ الْكَرِيمَةَ - فِي الْآيَاتِ السَّبْعِ التَّالِيَةِ - حِينَ خَاطَبَ ابْنَهُ بِقَوْلِهِ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ.
الفوائد والاستنباطات:

- ١ - خَلَقُ السَّمَاءِ فَوْقَنَا، وَرَفَعُهَا مِنْ دُونِ أَعْمَدَةٍ نَرَاهَا، دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.
- ٢ - الْجِبَالُ رَاسِيَةٌ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ بِأَبْعَادٍ مَحْسُوبَةٍ؛ مِمَّا يُقَلَّلُ مِنْ اضْطِرَابِ الْقَارَاتِ وَحَرَكَتِهَا.
- ٣ - يَنْظُرُ: صُورَةُ الْجِبَالِ، كَمَا فِي الْمَلْحَقِ.
- ٤ - بَيَانُ نِعْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ عَلَى لِقْمَانَ بِإِعْطَائِهِ الْحِكْمَةَ.
- ٥ - شُكْرُ اللَّهِ مِنَ الْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ هَذَا مِنْ تَفْسِيرِ الْحِكْمَةِ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ.

- ٦ - الْحِكْمَةُ وَالْمَعْرِفَةُ تَقُومُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ، وَالَّذِي لَا يَشْكُرُ اللَّهَ لَيْسَ عَالِمًا وَلَا حَكِيمًا.
- ٧ - فِي الْآيَةِ (١٢) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلٌ عَنْ عَاقِبَةِ مَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ، بِأَنَّ نَفَعَ ذَلِكَ الشُّكْرِ يَعُودُ إِلَى الشَّاكِرِ نَفْسِهِ، وَأَنَّ مَنْ يَجْحَدُ شُكْرَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ شُكْرِهِ، غَيْرُ مَحْتَاجٍ إِلَيْهِ.
- ٨ - عَلَى الْآبِ أَنْ يَهْتَمَّ بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِ وَتَوْجِيهِهِمْ وَنُصْحِهِمْ، وَأَنْ يُنَشِّئَهُمْ عَلَى الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ.
- ٩ - عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُحْسِنَ لِمَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ، وَأَنْ يَشْكُرَهُمْ عَلَى إِنْعَامِهِمْ وَفَضْلِهِمْ، وَفِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ الْوَالِدَانَ.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِضْلُهُ، فِي عَامِينَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيْ أَقْبِرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

- ١٤ - وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَبِرَّهِمَا؛ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ جَنِينًا فِي بَطْنِهَا، وَهِيَ تَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ، كَلَّمَا كَبُرَ الْحَمْلُ إِلَى وَقْتِ الْوِلَادَةِ، وَفَطَامَهُ عَنِ الرِّضَاعَةِ فِي مَدَّةٍ تَمَامَ عَامَيْنِ، وَأَمْرَانَهُ بِالشُّكْرِ لِي عَلَى نِعْمِي، وَبِالشُّكْرِ لَوَالِدَيْكَ عَلَى جُهْدِهِمَا فِي التَّرْبِيَةِ، إِلَيَّ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ.
- ١٥ - وَإِنْ بَدَلَا جُهْدُهُمَا لِيَحْمِلَاكَ عَلَى الشُّرْكِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبْهُمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا - وَلَوْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ - وَاتَّبِعْ طَرِيقَ مَنْ تَابَ وَأَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ إِلَيَّ مَصِيرُكُمْ، فَأَخْبِرْكُمْ الْأَخْبَارَ الْعَظِيمَةَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا وَشَرًّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.
- ١٦ - ثُمَّ كَرَّرَ خُطَابَ الْاسْتِعْطَافِ لِأَنَّهُ أَدْعَى لِلْإِجَابَةِ: يَا بَنِيَّ إِنْ كَانَتْ الْحَسَنَةُ أَوْ السَّيِّئَةُ بِوِزْنِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ - وَهِيَ أَصْغَرُ الْحَبُوبِ - سِوَاءً وَوُجِدَتْ فِي صَخْرَةٍ، أَوْ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي السَّمَوَاتِ السَّعِيَّةِ، أَوْ فِي الْأَرْضِ السَّعِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحَاسِبُ عَلَيْهَا. إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، خَيْرٌ بِأَحْوَالِهِمْ.
- ١٧ - يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ بِأَوْقَاتِهَا وَشُرُوطِهَا، وَأْمُرِ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْهَهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي بِحِكْمَةٍ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَصِيبُكَ مِنَ النَّاسِ حِينَ تَدْعُوهُمْ لِذَلِكَ. إِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي الْحِرْصُ عَلَيْهَا، وَالتَّمَسُّكُ بِهَا.
- ١٨ - وَلَا تُمَلِّ خَدَّكَ لِلنَّاسِ كِبْرًا عَلَيْهِمْ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مُعْجَبًا بِنَفْسِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْرَهُ الْمُتَكَبِّرَ الَّذِي يَرَى الْعِظَمَةَ لِنَفْسِهِ.
- ١٩ - وَتَوَاضَعْ فِي مَشْيِكَ، وَاخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ. إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ حَقًّا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - طاعة الوالدين مُقَيَّدَةٌ بعدم معصية الله، لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
- ٢ - وجوبُ مُصاحبة الوالدين في الدُّنيا بالمعروف، حتى لو كانا كافرَيْن.
- ٣ - التحذير والتَّخويف من المخالفة؛ لأنَّ قوله: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ يعني: سأحاسبك أيُّها الإنسان.
- ٤ - قال الشيخ ابن عثيمين: «بلوغ الغاية في البلاغة في القرآن الكريم؛ لقوله: ﴿فَأَنْبِئْكُمْ﴾، ولم يُقَلِّ: فأجازيكم، وذلك أنَّه قد يُنَبِّأ الإنسان أحياناً بما عمل، ثمَّ يُغفر له، فذكر الله الإنباء؛ لأنَّه مؤكَّد، أمَّا المجازاة فإنَّ الله تعالى قد يغفر عن المذنب بذنوبه». (تفسير القرآن الكريم ١٩٨/٧).
- ٥ - يقول العلماء: إنَّ غاز الخردل المحضر كيميائياً - ليس بنبات - بل هو نتاج لعملية كيميائية معقدة تحضّر مخترِباً، وهو مهم جداً في الصناعات الكيميائية سلماً وحرِباً. (عجاز القرآن الكريم في الكيمياء: ص ٧).
- ٦ - أَهْمِيَّة الصَّلَاة في حياة المؤمنین؛ إذ بدأ بها.
- ٧ - دَمَّ هَاتين الخصلتين: تصعير الخدِّ للنَّاس تكبُّراً وتعاضُماً، والمشي في الأرض مرحاً.
- ٨ - رَفَع الصَّوْتِ في غير محلِّه مُحَرَّم؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، فإنَّ هذا التشبيه يقتضي التفسير منه.
- ٩ - على المسلم أن يحرص على القيام بواجبه تجاه إخوانه: بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.
- ١٠ - الصَّبْرُ على ما يُصيب المسلم خُلُقٌ عظيم، وزاد كبير له؛ ليستمرَّ على القيام بدَعْوَتِهِ.
- ١١ - المُتَكَبِّرُ المُخْتَالُ الفخور المُتَعَالِي، مكروه عند النَّاس، بغيض عند الله.
- ١٢ - المشيَّةُ الجَيِّدَةُ هي المتوسطة المقتصدة المتوازنة، من دون بُطءٍ مُتثاقِل، ولا إسرَاعٍ مُتلاحق.
- ١٣ - تلمح الآية إلى أخطار التلوث البيئي بالضجيج، فقد ثبت بالقياس أن شدة صوت نبيق الحمار تتجاوز مئة ديسيبل، وأن كثرة التعرض لهذا الصوت قد يصيب الإنسان بالعديد من الأمراض، ولذلك يجب أن تخصص لها أماكن بعيدة عن سكن الإنسان. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢٩٨-٣١٢).

﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢٠-٢١- ألم تبصروا - أيها العباد - أن الله تعالى سَخَّرَ لكم ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من الحيوانات والنباتات والأنهار وغيرها، وأسبغ عليكم بنعمه الظاهرة المرئية، والباطنة في العقول. وبعض الناس من يجادل في توحيد الله بغير حُجَّة وبيان، ولا كتاب مُنَزَّل من عند الله تعالى في غاية الوضوح. وإذا قيل لهؤلاء الغافلين: اتَّبِعُوا ما أنزل الله تعالى على رسوله من القرآن، قالوا: لا نتبع ذلك، بل نسير على طريقة آبائنا في عبادة الأصنام والأوثان. فأنكر الله تعالى عليهم، ووبَّخهم: أتبعوهم، ولو دعاهم الشيطان إلى عذاب النار الملتهية؟

٢٢- ومن يُخْلِص في عبادته لله تعالى وهو محسن في أقواله وأفعاله، فقد استمسك بالإيمان والإسلام. وإلى الله تعالى مصير الأمور كلها للحساب عليها.

٢٣- ٢٤- ومن جحد بالله تعالى - أيها الرسول - فلا يحزنك جُحودُه، إلينا مصيرهم يوم القيامة، فنخبرهم إخباراً مؤكداً عن جرائمهم كلها. إنَّ الله تعالى عليم بما تُخفي القلوب من خير وشر، نُمتِّعهم قليلاً في الحياة الدنيا العاجلة، ثم نُلجِّئهم إلى عذاب النار الشديد الموجه.

٢٥- وقسماً إن سَأَلت - أيها النبي - هؤلاء المشركين: مَنْ خَلَقَ السموات السبع والأرضين السبع؟ قسماً سيقولون: الله. قل لهم: الحمد لله على ظهور الحُجَّة من اعترافكم. بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق، فيتَّبِعُونه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٢٠) إخبارٌ مستقبليٌّ عن جدال بعض الكفَّار في وحدانيَّة الخالق سبحانه بغير دليل ولا برهان.
- ٢ - قال الشيخ ابن عثيمين: «جواز استخدام ما في هذا الكون في السَّموات والأرض لمصالحنا؛ لأنَّه مُسَخَّرٌ لنا، فإذا كان مُسَخَّرًا فلنا أن ننتفع به بما أَحَلَّ اللهُ لنا». (تفسير القرآن الكريم ٧/٢١٦)
- ٣ - ذمُّ الجدل بغير برهان؛ لقوله: ﴿يَغْيِرْ عَلِمٌ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾، وينبغي للمجادل أن يكون له دليل من العقل أو من النقل؛ لقوله: ﴿يَغْيِرْ عَلِمٌ﴾.
- ٤ - في الآية (٢١) إخبارٌ مستقبليٌّ عن ردِّ المجادلين في توحيد الله إذا قيل لهم: أتبعوا ما أنزل الله على نبيِّه محمَّدًا ﷺ فإنَّهم سيُصِرُّون على الشرك.
- ٥ - كلُّ شيء يوجب العقوبة، فهو من تلبية طلب الشيطان؛ لقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ النَّعِيرِ﴾.
- ٦ - في الآية (٢٢) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال مَنْ أخلص في عبادته وقصده إلى الله تعالى، وهو محسن في أقواله وامتقن لأعماله، فإنَّه قد أخذ بأوثق سببٍ مُوصِلٍ إلى رضوان الله وجنته.
- ٧ - الإشارة إلى أنَّه ينبغي لِمن أسلم وجهه إلى الله وهو محسن أن يصبر؛ لأنَّ العاقبة له، فلا يتعجل، أو يستبعد الفرج، أو يستبعد النصر.
- ٨ - ينبغي للإنسان مراقبة الله ﷻ دائماً؛ لقوله: ﴿عَلِمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.
- ٩ - التمتع في الدنيا قليل في زمنه ونوعه. أمَّا زمنه فظاهر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأمَّا نوعه فقد قال النبي ﷺ: «لَمْ وَضِعْ سِوَا أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».
- ١٠ - خَلَقَ اللهُ السَّموات والأرض مُسَخَّرَةً لبني آدم، وخالق بني آدم ليعبدوه وحده.
- ١١ - نِعَمُ اللهُ على الناس لا تُحصى، منها الظَّاهرة ومنها الباطنة، ويجب عليهم أن يشكروه عليها.
- ١٢ - الكافر يُجادل بالباطل، ويُشرك به، ولا يَجِدُ دليلاً نقلياً أو عقلياً يعتمد عليه.
- ١٣ - على الإنسان أن يتَّبع الحقَّ، مهما كان قائله، وأن يرفض كلَّ ما يتعارض معه، مهما كان صاحبه.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

٢٦- لله تعالى ملكوت ما في السموات السبع والأرضين السبع. إنَّ الله هو الغني عن غيره، المحمود في

الدنيا والآخرة.

٢٧- ولو تحوَّلت كلُّ أشجار الأرض أقلاماً، وصارت مياه البحار مداداً، فكتبت بها كلمات الله، لَفِيَّتْ

تلك الأقلام، وانتهت البحار، ولم تنته كلمات الله تعالى الدالة على سَعَةِ عِلْمِهِ. إنَّ الله عزيز في ملكوته لا يعجزه شيء، حكيم في تدبير خلقه.

٢٨- ما خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْعِبَاد، ولا بعثكم يوم القيامة، إلا كخَلَقِ نَفْسٍ وَاحِدَةً وبعثها. إنَّ الله سميع

للأقوال، بصير بالأحوال.

٢٩- ألم تَرَ - أَيُّهَا الْإِنْسَان - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ كَلَّامًا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْآخِرِ، فيزيد في أحدهما

وينقص من الآخر، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنَ الْعِبَادِ، فكلُّ منهما يجري في فَلَكِهِ إلى وقت يوم القيامة، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ذُو خَبْرَةٍ شَامِلَةٍ كَامِلَةٍ؟

٣٠- ذَلِكَ الْمُشَاهَدُ مِنَ آيَاتِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّتَيْنِ لَا تَغَادِرَانِ حَيَاةَ الْعِبَادِ؛ لِتُؤْمِنُوا، وَتَتَيَقَّنُوا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

هُوَ الْإِلَهَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَعْبُدُ الْعِبَادُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْعَلِيُّ بِذَاتِهِ فَوْقَ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، الَّذِي لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- الْكُفَّارُ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَا يَتَرَدَّدُونَ فِيهِ هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَهَذَا يُبْشِرُ كُونَ

به غيره من المخلوقين.

٢- الْوَاحِدُ وَالْجَمَاعَةُ وَالْقَلِيلُ سِوَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ، لِأَنَّهُ يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ.

٣- يَجِبُ وَصْفُ اللَّهِ بِكُلِّ كِمَالٍ، وَأَنْ تُسَمِّيَهُ سَبْحَانَهُ بِمَا سَمَى نَفْسَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، فَهُوَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ، سَمِيعٌ بَصِيرٌ، غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

- ٤ - يقول العلماء: ترشد الآية إلى أحد الاستخدامات الهامة للنبات وهي صناعة الأقلام. ومن قديم الزمان والإنسان يستخدم النبات في هذه المهمة، وقد دَلَّتْه خبرته على أفضل أنواع النباتات المستخدمة في ذلك وهو نبات الغاب (البوص)، وحديثاً يصنع من أخشاب القلم الرصاص. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: الدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٢٧٩).
- ٥ - تَعَاقَبُ الليل والنهار من آيات الله، وعلى المؤمن أن يَلْتَمِسَ لها، ويُفِيد منها.
- ٦ - نَظَّمَ الله حَرَكَة الشمس والقمر والأرض والنجوم، وَقَدَّرَهَا تَقْدِيرًا، وَجَعَلَهَا تَسِيرَ بِدِقَّةٍ مُتْنَاهِيَةٍ.
- ٧ - ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

التفسير:

٣١- ألم تنظر - يا عبد الله - أن السفن تسير في البحر بلطف الله ورحمته؛ ليرىكم سبحانه من عظيم آياته وعجائب قدرته؟ إن في ذلك الأمر العظيم لعلامات تدل على وحدانيته سبحانه لكل صبار على طاعة الله، شكور على نعمه العظيمة.

٣٢- وإذا هاجت أمواج البحر عند ركوب المشركين السفن، وغطاهم الموج العالي كالجبال والغيام أخلصوا دعاءهم لله تعالى، واستغاثوا به سبحانه، فلما أنقذهم إلى البر صاروا فريقين، أحدهما: لم يشكر الله تعالى على وجه الكمال، والآخر: رجع إلى كفره، وما يكذب بآيات الله تعالى إلا كل غدار خائن شديد الجحود لفضل الله تعالى عليه.

٣٣- يأمر الله تعالى البشر بطاعته، وأتباع أمره، والخوف من يوم القيامة للحساب، حين لا يغني كل والد عن ولده، ولا ينفع ولد والده بشيء، وحذرهم سبحانه من الانخداع بالدنيا وملذاتها، ومن خداع شياطين الإنس والجن ومكرهم للبعد عن الإيمان بالله تعالى.

٣٤- إن الله وحده عنده علم وقت قيام الساعة، وهو الذي ينزل المطر بأمره، ويعلم ما تحمل أرحام الإناث من الأجنة وأحوالها، ويعلم ما تكسبه كل نفس في غدها، وما تعلم كل نفس بأي مكان تموت، بل الله تعالى هو المتفرد بهذا العلم. إنه سبحانه عليم بكل شيء، خبير بأحوال النفوس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجلٌ يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، ورأسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا

وَلَدَّتِ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا فِذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الْحَفَاةُ الْعُرَاةُ رُؤُوسَ النَّاسِ فِذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴿۳۱﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴿۳۲﴾. ثُمَّ انصَرَفَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ. فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ.

(صحيح البخاري ۸/ ۳۷۳ - كتاب التفسير - سورة لقمان، (الآية) برقم ۴۷۷۷. وصحيح مسلم ۱/ ۳۹-۴۰ برقم ۹-۱۰ كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٣١) إخبار مستقبلي عن الحكمة في جزيان السفن في البحر بأمر الله، وذلك ليري عباده من عبره وحججه عليهم.
- ٢ - يري الله الناس آياته، من خلال نعمة وعطاياه ورحمته، لكن لا يلتفت لها إلا المؤمن.
- ٣ - على المؤمن أن يجمع بين الأمرين المتقابلين: الصبر على الشدة، والشكر على النعمة.
- ٤ - الكافر لا يعرف الله إلا عند الشدة، وهو ينقض عهده مع الله عند الرخاء.
- ٥ - في الآية (٣٢) إخبار مستقبلي عن حال المشركين فيما إذا ركبوا السفن، وعلتهم الأمواج من حولهم كالشعب، فإتهم يصابون بالخوف، فيفزعون إلى الله، ويخلصون الدعاء له، وإذا نجأهم إلى البر فمنهم من لم يشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها.
- ٦ - عدم الانخداع والاعتزاز بالحياة الدنيا وزينتها، لأنها تنسي الآخرة.
- ٧ - الحدر من الشيطان ووساوسه وتزيينه؛ لأنه لا يعد الناس إلا غروراً.
- ٨ - مهما بلغ الإنسان من العلم فإن علمه لا يكاد يذكر أمام ما يجهله، ويخفيه الله عنه.
- ٩ - في الآية (٣٤) إخبار مستقبلي بأن الله وحده يعلم ما في أرحام الإناث. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو أن الله وحده يعلم ما تكسبه كل نفس في غدها. وفيها إخبار مستقبلي آخر: وهو أن الله وحده يعلم بأي أرض تموت الأنفس.

النزول: مكة.

الفضائل:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة سورة الجمعة والمنافقين، وكان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الْعَرَّ﴾ ① ﴿تَنْزِيلٌ﴾ و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١]. (أخرجه مسلم برقم ١٦٧/٦).

وعن جابر ؓ قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الْعَرَّ﴾ ① ﴿تَنْزِيلٌ﴾ و﴿تَبَرَّكَ﴾. (أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤١٢/٢) وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة ١٠٨/٢).

المقاصد:

١ - بيان عظمة الخالق في بدء خلق الكون ونهايته.

٢ - تقرير أصول الإيمان.

٣ - الردُّ على شبهات المشركين.

٤ - التحذير من خطر المنافقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ فِي مَطَلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

٢ - هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ نَزَلَ حَقًّا بِالتَّدْرِجِ، لَا شَكَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْخَلَائِقِ.

٣ - بَلْ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ؟ لَقَدْ كَذَبُوا فِي زَعْمِهِمْ، بَلْ هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ، وَالْكَلَامُ الصَّادِقُ الْمُنَزَّلُ مِنْ رَبِّكَ؛ لِتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا مَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ قَبْلَكَ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ؛ لِكَيْ يَهْتَدُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ.

٤ - يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كِهَالِ قُدْرَتِهِ بِخَلْقِهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَقْفُهَا، اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ سُبْحَانَهُ. لَيْسَ لَكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَادُ - مِنْ وِلِيِّ غَيْرِ اللَّهِ، وَلَا شَفِيعٍ يَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِإِذْنِهِ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ؟

٥ - يُدَبِّرُ سُبْحَانَهُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ تُرْفَعُ أَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي يَوْمٍ. وَمِقْدَارُ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي الصُّعُودِ وَالنُّزُولِ إِلَى الْأَرْضِ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِنْ أَيَّامِكُمْ.

٦-٩ - ذَلِكَ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ عَالَمٌ بِكُلِّ مَا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ، وَبِمَا تَشْهَدُهُ الْأَبْصَارُ، الْعَزِيزُ فِي مَلَكُوتِهِ، الرَّحِيمُ بِمَخْلُوقَاتِهِ، الَّذِي أَحْسَنَ وَأَتَقَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَدَأَ خَلْقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ مُتَنَاسِلَةً مِنْ نَظْفَةِ مَاءٍ ضَعِيفٍ وَهُوَ الْمُنِيُّ، ثُمَّ أَنْتَمَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ بِإِرْسَالِ الْمَلَكِ لَهُ لِیَنْفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، وَجَعَلَ لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - السَّمْعَ لِتَسْمَعُوا بِهِ الْأَصْوَاتَ، وَجَعَلَ الْبَصَرَ لِتُبْصِرُوا بِهِ الْأَشْيَاءَ، وَجَعَلَ الْقُلُوبَ لِتَعْقِلُوا بِهَا. وَمَعَ هَذِهِ النِّعَمِ فَشُكِّرُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ قَلِيلًا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٥) إخبار مستقبلي عن تدبير الله تعالى أمور الخلق من السماء.
- ٢ - في الآية (٧) كلُّ مخلوق خُلِقَ وَفَقَّ ما يناسب حاله. ووجه الدلالة من الآية: أنه لو لم يكن الأمر كذلك لما كان إحسان خلقه.
- ٣ - تكذيب نظرية داروين وفيها: أن الخلق نشأ بالتطور.
- ٤ - الله يُدَبِّرُ الأمر على الأرض، ويُنظِّم حياة الناس، ويُحاسبهم يوم القيامة.
- ٥ - في الآية (٩) إخبار مستقبلي بأن الإنسان رغم إتمام الله لخلقهِ وإيداعه له، وإحسان خِلقته، فإنَّ الإنسان قليلاً ما يشكر ربَّه على ما أنعم به عليه.

﴿ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

- ١٠ - يُذَكِّرُ الله تعالى استهزاءً مُنكري البعث: إذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا مختلطة بتراب الأرض، أُنْبِعث خلقاً جديداً؟ بل أمرهم لم يقتصر على السخرية، وإنما بلغوا التكذيب بلقاء الله تعالى.
- ١١ - فردَّ الله عليهم: قل أيها الرسول: سوف يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بقبض أرواحكم، ثم مصيركم إلى ربكم؛ ليعاقبكم على كفركم. قال الشيخ الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذي يقبض أرواح الناس مَلَكٌ واحد معين، وقد بيَّنَّ تعالى في آياتٍ أُخَرَ أن الناس تتوفاهم ملائكة لا مَلَكٌ واحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُنَّهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].»

١٢ - ثُمَّ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ حَالَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَقْفُونَ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ مُنْكَسِرِينَ رُؤُوسَهُمْ إِلَى أَسْفَلَ مِنَ الْخِزْيِ وَالذَّلَّةِ يَسْتَغِيثُونَ: يَا رَبَّنَا أَبْصَرْنَا فَضَائِحَنَا، وَسَمِعْنَا الْحَقَّ وَعَرَفْنَا، فَارْجِعْنَا إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَعْمَلَ بِطَاعَتِكَ، إِنَّا مُصَدِّقُونَ تَصَدِّيقاً جَازِماً بِوَحْدَانِيَّتِكَ.

لقد بيّن الله ﷻ أنهم لو أرجعهم الله تعالى إلى ما طلبوا لكذبوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَمْخَفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

١٣ - ولو شئنا هداية العباد جميعاً لهديناهم، ولكن وَجِبَ وثبت ثبوتاً لا تبديل فيه: لأملأن نار جهنم من عصاة الجن والإنس أجمعين.

١٤ - ثُمَّ يُؤَيِّخُ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ الْمَعَذَّبِينَ بِالنَّارِ: ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ؛ بِسَبَبِ نَسْيَانِكُمْ لِقَاءَ اللهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ. إِنَّا تَرَكْنَاكُمْ الْيَوْمَ فِي النَّارِ تَمَكُّثُونَ فِيهَا أَبَداً بِسَبَبِ جِرَائِمِكُمْ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ هُوَ الْمَوْكَلُ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ إِذَا انْتَهَتْ الْأَجَالُ، وَلَنْ تَتَأَخَّرَ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ.

٢ - الموعظة الكبرى بزيارة ملك الموت العظمى.

٣ - بيان فظاعة ما يجلُّ بالكافرين يوم القيامة، من قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾، والمقدّر جوابها: لَرَأَيْتَ أَمراً فظيعاً؛ لأنَّ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّافِعِينَ لِرُؤُوسِهِمْ، سَتَكُونُ حَالَهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ﴾.

٤ - عُقُولُ الْكُفَّارِ ضَيِّقَةٌ؛ وَهَذَا يَسْتَبْعِدُونَ الْبَعْثَ وَالْحَيَاةَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا تُرَاباً.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَذِّ ذُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ؎ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

١٥-١٦- سبب النزول:

عن أنس بن مالك ؓ أن هذه الآية ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ نزلت في انتظار هذه الصلاة التي تُدعى العَتَمَة. (قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (السنن ٣٤٦/٥ برقم ٣١٩٦ كتاب التفسير، باب سورة السجدة)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي).

التفسير:

إنما يؤمن بآيات القرآن العظيم الذين إذا وُعطوا بها استجابوا لها، وخرُّوا ساجدين لله وحده، مُسَبِّحِينَ الله بحمده، وهم لا يستكبرون عن طاعة الله، تَتَنَحَّى جُنُوبَهُمْ عن فرش النوم للتهجد في صلاة الليل، يدعون ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه، وممَّا أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البرِّ.

١٧ - فلا يعلم أحد من الخلق ما يتفضَّل الله به عليهم من النعيم، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثواباً لما قدَّموه من الأعمال الصالحة.

عن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. (صحيح البخاري ٣٧٥/٨ - كتاب التفسير - سورة السجدة، باب (الآية) برقم ٤٧٧٩. وصحيح مسلم ٢١٧٤/٤ برقم ٢٨٢٤ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها).

١٨ - أفمن كان في الحياة الدنيا مُصَدِّقًا بالله مُطِيعاً له، كمن كان خارجاً عن طاعة الله؟ لا يستوون في الحساب بالثواب أو العقاب.

١٩ - أمَّا الذين صدَّقوا بالله، وعملوا الأعمال الصالحة، فجزاؤهم الجنَّات العالية عند شجرة سدرة المنتهى ذات الثمار والأوراق، يأوون إليها؛ تكريباً دائماً بسبب ما قدَّموا من أعمال البرِّ.

- ٢٠- وأما الذين خالفوا أمر الله تعالى فمصيرهم نار جهنم، كلما حاولوا أن يهربوا منها أُعيدوا فيها، ويُقال لهم - إهانة وتوبيخاً - : ذوقوا عذاب النار الذي كنتم تُكذِّبون به، وتسخرون منه.
- ٢١- وقسماً مُؤكِّداً سنذيقهم العذاب الأقرب في الحياة الدنيا من المصائب، قبل العذاب الأعظم يوم القيامة، لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي.
- ٢٢- ولا أحد أشدَّ ظلماً لنفسه ممنْ وَعِظَ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ وَالْكَوْنِ، ثُمَّ تَرَكَ الْإِيمَانَ بِهَا. إِنَّا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهَذِهِ الْآيَاتِ مُنْتَقِمُونَ بِالْعَذَابِ الْمَوْجِعِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- من صفات المؤمنين إذا وَعِظُوا بِآيَاتِ الْقُرْآنِ، أَوْ تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ سَجَدُوا لِلرَّبِّهِمْ خَاشِعِينَ مُطِيعِينَ.
- ٢- على المؤمن أن يخضع لله، ولا يكون من المستكبرين.
- ٣- فضيلة قيام الليل؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ فِي سِيَاقِ الْمَدْحِ ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾.
- ٤- المؤمن خير من الفاسق، ولو أنَّ الفاسق أعظمُ جاهاً في الدنيا عند الخلق.
- ٥- الإيمان لا يتمُّ إلا بالعمل الصالح؛ لقوله: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ فلا يكفي مجردُ العقيدة، بل لا بُدَّ من عمل صالح.
- ٦- أهل النار مُجِمِّعٌ لهم بين العذاب الجسمي والعذاب النفسي بالتوبيخ.
- ٧- الله عادل في انتقامه من الكُفَّار؛ لأنَّه يعاقبهم على ذنوبهم، ويوقع بهم نتائج جرائمهم.
- ٨- الإعراض عن آيات الله بعد التذكير بها إجرام؛ لقوله: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾
 وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
 الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى
 الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى
 هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
 ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٣-٢٤ - وقسمًا لقد أعطينا موسى ﷺ التوراة، فلا تكن - أيها الرسول - في شك من لقاء موسى
 ﷺ ليلة العروج إلى السماء، وجعلنا موسى ﷺ بالتوراة هادياً لذرية يعقوب ﷺ إلى أتباع الحق،
 وجعلنا منهم قادة وقدوة يُقتدى بهم في الخير، ويدعون الناس إلى عبادة الله وحده، ونالوا هذا المقام حين
 صبروا على الطاعة والابتلاء، وكانوا يُصدّقون بآياتنا تصديقاً جازماً.

٢٥ - إِنَّ رَبَّكَ - أيها الرسول - يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر
 الدين.

٢٦-٢٧ - يُؤَيِّخُ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ: أولم يتبين لكم كثرة من دمرناهم من الأمم السابقة الذين كذبوا
 رسل الله، يسرون في ديارهم فيرون ما حل بهم؟ إن في ذلك الدمار وما تبقي من الآثار لدلالات على
 وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، أفلا يسمعون هذا الحق؟ أولم يعلموا أننا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض
 القاحلة التي لا يصيبها المطر، فنخرج بذلك الماء مروجاً من النبات، تأكل منه دوابهم، من الورق والعشب
 وأنفسهم من الثمر والحب؟ أفلا يبصرون ذلك الرزق من عند الله تعالى؟

٢٨-٣٠ - ويسأل المشركون سخرية: متى هذا القضاء بعدابنا إن كنتم صادقين في تهديدكم؟ فردّ الله
 تعالى عليهم: قل أيها الرسول: يوم نزول العذاب لا ينفع إيمان الكفار، ولا هم يُمهّلون للتوبة، فأعرض
 عنهم، وانتظر ما يحل بهم من العقاب، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم من الابتلاء.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إثبات رسالة موسى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، وتأکید هذه الرسالة؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾؛ لأنَّ الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات: اللام، وقد، والقسم المقدَّر.
- ٢ - يجبُ الإيمان بأنَّ التوراة مُنزَّلة على موسى ﷺ ولكنَّ اليهود حَرَّفوها بعد ذلك.
- ٣ - لا تُنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين والدعوة إلى الله.
- ٤ - يقتدي الدُّعاة بالأنبياء وبأئمة الهدى من السَّابِقين، فيُثبِّتون على الحق.
- ٥ - التزامُ شرعِ الله يجمع بين الناس على الحق، ومُخالفتُهُ تُؤدِّي إلى الفُرقة والنِّزاع والخلاف.
- ٦ - قال الشيخ ابن عثيمين: «الاستدلال بالشيء المحسوس على الشيء المعقول؛ لقوله: ﴿يَمْتَشُونَ فِي مَسَكِينِهِمْ﴾، أو بعبارة أخرى: الاستدلال بعين اليقين على صدق علم اليقين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَن أَلْقَرُون﴾ هذا علم اليقين، ﴿يَمْتَشُونَ فِي مَسَكِينِهِمْ﴾ هذا عين اليقين».
- ٧ - مُشاهدةُ آثار المُعدِّين السَّابِقين تقود إلى العبرة والعظة عند المؤمنين.
- ٨ - من الأدلَّة على وحدانية الله والبعث بعد الموت خروجُ النبات بعد المطر.
- ٩ - الأصل فيما نبتَ من الأرض الحِلُّ، من قوله: ﴿أَنعَمْنَهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾، فالأصل فيما نبت من الأرض أنَّه حلال، حتى يقوم دليل على التَّحريم.
- ١٠ - الحثُّ على النظر والتبصُّر، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿أَفَلَا يَتَّبِعُونَ﴾.
- ١١ - الكُفَّار يَتَهَكِّمُونَ بالمؤمنين، ويسألونهم أسئلة يستبعدون بها حقائق العقيدة.
- ١٢ - المكابر يُعَرِّضُ عنه ويُثْرِكُ حتى ينزل به العذاب، فإذا رأيت مَنْ يكابر تأمره بالحق، ولكن مَنْ يكابر ويجادل، فاتركه.
- ١٣ - على المؤمن أن يُعَرِّضَ عن الكُفَّار بعد دعوته، فلا يَنْشَغِلُ بهم، ولا يتأثر لشبهاتهم.
- ١٤ - على المؤمن الصبر والثبات على الحق، وانتظارُ الفرج من عند الله، فإنَّ دينَ الله ظاهرٌ بإذن الله.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - التشريع لكيان الأسرة.
- ٢ - بيان غزوة الخندق، وغزوة بني قريظة.
- ٣ - تعظيم رسول الله ﷺ، ونصرته على تألف الكفر والنفاق ومكر اليهود.
- ٤ - التحذير من النفاق والمنافقين وترهيبهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾
أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١-٣- يُخَاطَبُ اللهُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ ﷺ بِشَرَفِ النَّبُوَّةِ، وَيَأْمُرُهُ بِالثَّبَاتِ عَلَى التَّقْوَى بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَمُخَالَفَةِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ. إِنَّ الله كَانَ عَلِيًّا بَعْبَادِهِ، حَكِيمًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيَأْمُرُهُ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ الْمُنزَّلِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَيَشْمَلُ هَذَا الْحُكْمَ الْأُمَّةَ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى خَيْرٌ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُونَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، ثُمَّ أَمْرُهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ اللهُ حَافِظًا وَنَاصِرًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ.

٤ - مَا جَعَلَ اللهُ لِلْإِنْسَانِ قَلْبَيْنِ فِي صَدْرِهِ، فَلَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكَفْرُ فِي صَدْرِ أَحَدٍ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُحَرِّمُونَ عَلَيْكُمْ جَمَاعَهُنَّ بِقَوْلِكُمْ: أَنْتِ عَلِيٌّ كَظْهَرِ أُمِّي، فَتَجْعَلُوهُنَّ كَالْأُمَّهَاتِ مُحَرَّمَاتٍ عَلَيْكُمْ - وَكَانَ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا فَأَبْطَلَهُ الْإِسْلَامُ، وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً -، وَمَا جَعَلَ الْأَوْلَادَ الَّذِينَ تَتَّبَعُونَهُمْ أَبْنَاءَ لَكُمْ. ذَٰلِكُمْ الْقَوْلُ الْبَعِيدُ عَنِ الْحَقِيقَةِ فِي التَّحْرِيمِ، وَالتَّبَتُّي لَيْسَ إِلَّا مَجْرَدُ قَوْلٍ بِالْأَفْوَاهِ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَقُولُ الْحَقَّ الثَّابِتَ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ لِلْهُدَايَةِ إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ.

٥- انسبوا الأبناء الذين تَبَيَّنْتُمُوهُمْ لآبائهم الحقيقيين الذين هم من أصلابهم، فنسب الولد لأبيه الأصل هو أعدل حكماً، فإن جهلْتُم معرفة آبائهم فهم إخوانكم في الدين، وليس عليكم جناح فيما وقعتُم فيه من خطأ سابق، وعليكم الإثم فيما تَعَمَّدْتُم نسبتهم لغير آبائهم مع عِلْمِكُم بذلك. وكان الله غفوراً لِمَن أخطأ، رحيماً به، وبِمَن تاب وأناب.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن أبا حذيفة - وكان مَن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ - تَبَيَّنَ سالمًا وأنكحه بنت أخيه هنداً بنت الوليد بن عتبة - وهو مولى لامرأة من الأنصار - كما تَبَيَّنَ رسول الله ﷺ زيداً، وكان مَن تَبَيَّنَ رجلاً في الجاهلية دعاه الناس إليه، وورث من ميراثه، حتى أنزل الله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ فجاءت سهلة النبي ﷺ.. فذكر الحديث. (صحيح البخاري ٧/٣٦٥ برقم ٤٠٠٠- كتاب المغازي).
عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. (صحيح البخاري ٨/٣٧٧ كتاب التفسير - سورة الأحزاب، باب (الآية) برقم ٤٧٨٢. صحيح مسلم ٤/٨٨٤ برقم ٢٤٢٥ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة).

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب التَّقوى على الأمة، فإذا كان الرسول ﷺ يُؤمَّرُ بالتَّقوى فغيره من باب أولى.
- ٢- الإنسان مهما بلغ من المرتبة فإنَّ التكاليف لا تسقط عنه.
- ٣- تحريم طاعة الكافرين والمنافقين، والركون إليهم.
- ٤- الكافر والمنافق لا يمكن أن يكونا ناصحين للمؤمنين أبداً.
- ٥- تحذير الإنسان من المخالفة؛ لأنَّ هذا يوجب أننا لا نخالف الله ما دما نعلم أنه خير بما نعمل.
- ٦- وجوب تقديم الوحي على الرأي؛ لقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، فإنَّ هذا الخطاب موجه إلى النبي ﷺ، وإلى أمته بالأولى.
- ٧- وجوب التوكُّل على الله في الأحوال كلها.
- ٨- كفاية الله ﷻ فوق كلِّ كفاية؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.
- ٩- تحريم الظَّهار؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، فإذا كان الله لم يُشَرِّع ذلك، فإنه لا يحلُّ لنا أن نُشَرِّعه؛ لأنَّ الأمر من الله وحده.
- ١٠- الإنسان قد يقول قولاً لا يعتقدُه؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.
- ١١- يجب على المرء أن يلجأ إلى ربه ﷻ في سؤال الهداية؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

١٢- وجوب نسب الإنسان إلى أبيه ﴿ آدَعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ يعني: انسبوهم لأبائهم.

١٣- نفي الإثم في الخطأ؛ لقوله: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾.

١٤- مدار الأحكام والمواخذ عليها هو القلب؛ لقوله: ﴿ وَلَكِنْ مَا تَمَدَّتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ وهذا له شواهد

كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَآءِ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا عَفَاكَ اللَّهُ وَلَا نَتَقَرَّبُ إِلَيْكُم بِغُلُوبٍ إِلَّا ذَا بَأْسٍ وَعَنَّا عِدَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَدْبَارًا لِّوَجْهِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٦- النبي محمد ﷺ أحقُّ بالمؤمنين أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم، وحرمة أزواجه ﷺ حرمة أمهاتهم عليهم، في أمتهن يجرم عليهم نكاحهن من بعد وفاته ﷺ، وذوو القربات بعضهم أحقُّ بميراث بعض، فهم أولى في شريعة الله بالإرث من المؤمنين غير الأقارب - لأن الميراث بالهجرة والموالة تُسَخِّع هذه الآية - إلا أن تُوصوا إلى أصدقائكم الذين تُوالونهم، وتودونهم من المؤمنين بالبرِّ والإحسان وصية. كان ذلك الحكم العظيم والحقُّ الكريم مكتوباً في اللوح المحفوظ، فيجب العمل به.

عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا فليتره عصبته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني وأنا مولاه». (صحيح البخاري ٣٧٧/٨ كتاب التفسير - سورة الأحزاب - برقم ٤٧٨١).

٧-٨- واذكر - أيها الرسول - حين أخذنا من النبيين العهد المؤكَّد بتبليغ الرسالة، وأخذنا منك ذلك العهد، ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وأخذنا منهم عهداً مؤكِّداً باليمين؛ لتبليغ الرسالة،

ليسأل الله تعالى هؤلاء الأنبياء وأتباعهم الصادقين هل بلغوا العباد؟ فمن كذب فقد أعدَّ سبحانه للمكذِّبين عذاباً موجعاً.

٩- يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ جُنْدُ الْأَحْزَابِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَحَاطُوا بِالْمُؤْمِنِينَ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحاً عَاتِيَةً اقْتَلَعَتْ خِيَامَهُمْ، وَقَلَبَتْ قُدُورَهُمْ، وَأَرْسَلَ مَلَائِكَةً مِنَ السَّمَاءِ لِعَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ. وَكَانَ اللهُ تَعَالَى بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقُرَّ. (صحيح مسلم ٣/١٤١٤-١٤١٥ برقم ١٧٨٨، كتاب الجهاد - باب غزوة الأحزاب). القُرَّ: البرد.

١٠-١١- واذكروا حين جاءكم كفار مكة ومن حالفهم من فوقكم، وكفار نجد من أسفل منكم، وتآمر اليهود معهم على المؤمنين، وحاصروا المدينة، واذكروا حين زاغت الأبصار من شدة الكرب، واضطربت قلوب المنافقين، واعتزتهم الظنون السيئة أن الله لا ينصر دينه وجنده، هنالك ابتي المؤمنون بهذه الفتنة الشديدة، وتميز المؤمن من المنافق، وزلزلوا بالخوف والجوع زلزالاً شديداً.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. قالت: كان ذلك يوم الخندق.

(صحيح البخاري ٧/٤٦١ - كتاب المغازي، باب غزوة الخندق. وصحيح مسلم ٤/٢٣١٦ برقم ٣٠٢٠ - كتاب التفسير).

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب تقديم محبة النبي ﷺ على النفس؛ لقوله: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٢- عِظْمُ شَفَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ؛ لكونه أولى بهم من أنفسهم.
- ٣- زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين؛ لقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.
- ٤- تحريم نكاح زوجات النبي ﷺ بعده؛ لكونهن أمهات المؤمنين.
- ٥- فضيلة الهجرة، وتؤخذ من قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾؛ لأنَّ المهاجر مؤمن، وتخصيصه بالعطف يدل على شرفه وفضله.
- ٦- ثبوت الإرث لذوي الرحم، أي: كل قريب ليس بندي فرض ولا عصبه.
- ٧- جواز الوصية لمن بينك وبينهم موالاة.
- ٨- عِظْمُ الْمَسْئُولِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَجِهَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ خَصَّهُمْ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ، وَعِظْمُ الْمَسْئُولِيَةِ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهم ورثة الأنبياء.

- ٩ - فضيلة هؤلاء الأنبياء الخمسة عليهم السلام. وجه الدلالة تخصيصهم بالذكر، فإن تخصيص أفراد العام بالذكر يدل على شرف ذلك المخصص.
- ١٠ - مسؤولية أولي العزم، أعظم من مسؤولية غيرهم.
- ١١ - النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلفظ الماضي، والإعداد بمعنى التهيئة.
- ١٢ - التحذير من خصال الكفر، فقد وردت في النصوص أعمال وأقوال، وصفها الشارع بأنها كفر، فيجب الحذر منها.
- ١٣ - ينظر: خريطة موقع غزوة الخندق، كما في الملحق.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۖ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۖ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَلِيغًا ۖ وَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبْرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۖ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَايًا وَلَا نَصِيرًا ۖ ﴾

التفسير:

- ١٢ - ومن الظنون السيئة أن المنافقين والذين في قلوبهم شك، ولم يستقر الإيمان في قلوبهم يقولون: ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا وَعْدًا خَادِعًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ.
- ١٣ - واذكر - أيها الرسول - حين قال بعض المنافقين للمؤمنين: يا أهل المدينة لا إقامة لكم في المدينة بأمان، فارجعوا إلى منازلكم واتركوا محمدًا. وبعض المنافقين يطلب الإذن من النبي ﷺ في الانصراف من المعركة بحجة أن بيوتهم غير حصينة يخافون عليها من العدو والسرقة، وما يريدون بذلك إلا الهروب من القتال.
- ١٤-١٥ - ولو دخل الكفار المدينة من جميع نواحيها، ثم طلبوا إلى المنافقين أن يرجعوا عن الإسلام، لفعلوا ذلك مسرعين، ولم يتأخروا إلا زمنًا قليلًا. وقسمًا لقد عاهدوا الله على يد رسوله ﷺ من قبل غزوة الخندق ألا يفروا من القتال. وكان عهد الله مسؤولاً عن الوفاء به يوم القيامة، ومحاسباً عليه.

١٦-١٧- قل - أيها الرسول - هؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الهروب إن خفتم من الموت أو القتل، وإذا هربتم لا تتمتعون في الدنيا إلا زمناً يسيراً على قدر الأجل. قل لهم: مَنْ الذي يستطيع أن يمنعكم من الله إن أراد بكم نِقْمَةً، أو أراد بكم رحمة؟ ولا يجدون من غير الله ولياً ينفعهم، وناصرأ ينصرهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الحذر من المنافقين؛ لأنهم ينتهزون كل مناسبة لتثييط العزائم، وتفريق الصّف.
- ٢ - الله تعالى ورسوله وعدا المؤمنين بالنصر، لقوله: ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾، والوعد المذكور في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١]، وفي السنة يقول النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ». (صحيح البخاري برقم ٣٣٥. وصحيح مسلم برقم ٥٢١).
- ٣ - بيان إرجاف المنافقين للمؤمنين.
- ٤ - أولئك المرجفون لم يقتصروا على الإرجاف، بل ضلّلوا الناس بقولهم: ﴿ فَأَرْجِعُوا ﴾، فيستفاد منه فائدة تنفرع على هذا، وهي أن كل مَنْ دعا إلى الرجوع عن الحق فيه شَبَهَ بالمنافقين.
- ٥ - قُرْبُ المنافقين من الكفر والشرك؛ لقوله: ﴿ سَبِّحُوا بُرْهَانَ اللَّهِ لَأَتَوْهَا ﴾ مبادرين، فلا يترثون، ويقولون: ننظر في الأمر.
- ٦ - المنافقون أصحاب غدر وخيانة؛ لقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبْرَ ﴾ وهم الآن يحاولون الإدبار.
- ٧ - تحريم تولية الأدبار عند ملاقات العدو.
- ٨ - لا فِرَارَ من قَدَرِ الله؛ لقوله: ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾.
- ٩ - البقاء في الدنيا - وإن طال - قليل؛ لقوله: ﴿ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٨-١٩- إن الله يعلم قطعاً المنافقين المثبطين للعزائم عن الجهاد في سبيل الله، الذين يقولون لإخوانهم في النسب والصحة: تعالوا إلينا إلى الأمن والراحة. ومع هذا الخذلان فإنهم لا يشاركون في القتال إلا نادراً رياءً وسمعة، فهم بخلاء عليكم بالموادة والعون والنصح. فإذا حضر القتال رأيتهم في كرب شديد، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم، كحال المغشي عليه من شدة سكرات الموت. فإذا زالت حالة الخوف بانتهاء القتال أدوكم بالكلام السيئ من الذمّ وحرب الإشاعة، ويتخاصمون على الغنائم بسبب بُخلهم وحرصهم على المال. أولئك البعداء عن الحق لم يصدقوا بقلوبهم حقاً، فأبطل الله ثواب أعمالهم، وكان ذلك الإحباط الذي يبعدهم عن الجنة يسيراً على الله.

٢٠- يحسب المنافقون من شدة خوفهم أنّ الأحزاب - وهم كفار قريش ومن تحزّب معهم - بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد ولّوا عنها، وإن يزعج إليهم الكفار تارة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية بعيداً عن المؤمنين خوفاً من القتل وترتباً للحوادث، إذ يسألون عن أخباركم، ولو كانوا بينكم وقت احتدام المعركة ما شاركوا في القتال إلا مشاركة على استحياء؛ لبُخلهم وجبنهم.

٢١- قسماً لقد كانت لكم - أيها المؤمنون - في رسول الله ﷺ قدوة حسنة في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، فيجب أتباعه لِمَنْ كان مؤمناً مُحْلِصاً لله يرجو ثوابه، ويخاف عقابه، وأكثر من ذكر ربه بلسانه وقلبه.

٢٢- يمدح الله تعالى المؤمنين ومواقفهم في غزوة الأحزاب: ولما شاهد المؤمنون جموع الكفر تحاصر المدينة قالوا مستبشرين: هذا الذي نراه من حشود الكفر حول المدينة هو ما وعدنا الله ورسوله من تحقّق

إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة، وصدق الله ورسوله في هذا الوعد، وما زادهم ذلك الحصار إلا ثباتاً على الإيمان، وتسليماً لقضاء الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بُخِلَ المنافقين بما ينفع المؤمنين، وأنهم لا يأتونهم إلا عن كراهية، كالشحيح بدين ما؛ لقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.
- ٢ - جُبِنُ المنافقين؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحُوفُ رَأَيْتَهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ﴾.
- ٣ - شدة حنقِ المنافقين على المؤمنين، وأنهم عليهم أشداء غلاظ؛ لقوله: ﴿سَلَفُكُمْ بِالْإِسْنَةِ جِدَادٍ﴾.
- ٤ - التحذير من هذه الصفات التي يتصف بها المنافق.
- ٥ - لو عاد الأحزاب مرة أخرى لَوَدَّ المنافقون أنهم في الأعراب، لا في المدن؛ لقوله: ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُكَ فِي الْأَعْرَابِ﴾.
- ٦ - هؤلاء المنافقون لا يريدون أن يشاركوا المؤمنين في معاركهم؛ لقوله: ﴿يَسْتَلُوتُ عَنْ آبَائِكُمْ﴾، فهم يحبون أن يكونوا بعيدين عن المعارك لا يتحسسون إلا الأخبار فقط.
- ٧ - لا يقا تل المنافق - لو شارك المؤمنين في القتال - إلا قليلاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.
- ٨ - الواجب علينا أن يكون تأسينا بالنبِيِّ ﷺ تأسياً حسناً، لا غُلُوً فيه ولا تفريط؛ لقوله: ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لأنَّ الغُلُوَّ زيادة، والتفريط نقصان، ودين الله ﷻ بين الغالي فيه، والمفريط فيه.
- ٩ - مشروعية كثرة الذِّكْرِ؛ لقوله: ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ ولا سيما في المعركة.
- ١٠ - يزداد المؤمن إيماناً عند رؤية الآيات الكونية والشرعية؛ لقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.
- ١١ - صحة مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إن الإيمان يزيد وينقص.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ
قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعَمُوهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

التفسير:

٢٣- من المؤمنين رجال عظماء وقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه من السمع والطاعة، فثبتوا عند القتال،
فمنهم من استشهد في سبيل الله، ومنهم من ينتظر النصر أو الشهادة في سبيل الله، وما نقضوا عهد الله، وما
بدلوه أبداً.

٢٤- ليجزي الصادقين بعهدهم جزاءً حسناً؛ بسبب طاعتهم الكاملة، ويُعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم
باستمرارهم على النفاق، أو يتوب عليهم إن تابوا. إنَّ الله كان غفوراً للثائين من ذنوبهم، رحيماً بهم.

٢٥-٢٧- وردَّ الله تعالى الأحزاب عن المدينة خائبين مكتئبين لم يجوزوا على شيء طمعوا فيه. وكفى
الله المؤمنين القتال بما أذاق الكفار من النكال. وكان الله قوياً لا يُغالب، عزيزاً في انتقامه. وأنزل الله تعالى
يهود بني قريظة من حصونهم؛ لنقضهم العهد، وقذف في قلوبهم الخوف الشديد عند لقاءكم أيها
المؤمنون، فقتلتم طائفة منهم، وأسرت طائفة أخرى، وأورثكم أرضهم ومساكنهم وأموالهم المنقولة وغير
المنقولة، وأورثكم أرضاً لم تطأها أقدامكم في الفتوحات ما بعد غزوة الأحزاب. وكان الله على كل شيء
من الأشياء قديراً، لا يعجزه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٣) إخبار مستقبلي بأنَّ هناك فئة من المؤمنين من الرجال الذين وقوا بعهدهم مع الله
تعالى، ينتظرون إحدى الحسنيين: إمَّا النصر أو الشهادة، وأنهم لم يُغيروا عهد الله، ولم ينقضوه.

٢- الثناء على أولئك المؤمنين الذين عاهدوا الله فصَدَّقُوهُ. وَجْهُ ذلك السياق أن قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ نكرة
للتعظيم، فهم رجال عظماء صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٣- أثنى الله على هؤلاء أنهم أتوا بما عاهدوا الله عليه على وجه الكمال بدون نقص ولا تغيير؛ لقوله:

﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾

- ٤ - ترغيب المنافقين في التوبة؛ لقوله: ﴿أَرْتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٥ - هؤلاء الأحزاب امتلأت قلوبهم غيظاً على رسول الله ﷺ؛ لقوله: ﴿يَغْظِيهِمْ﴾ فإن الباء للمصاحبة والملابسة.
- ٦ - إلقاء الرعب في القلوب من أعظم الهزيمة؛ لقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.
- ٧ - البشارة بأن المسلمين سيستولون على أراضٍ أخرى للكفار. وهذه تؤخذ من قوله: ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتَن تَرِدْنَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْن أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِخَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتَن تَرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَلْحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

التفسير:

٢٨-٢٩ - مخاطب الله تعالى رسوله ﷺ بشرف النبوة ويأمره أن يقول لأزواجه - حين طلبن منه زيادة النفقة -: إن كنتن تردن الدنيا فتعالين أعطيكن متعة الطلاق، وأطلقكُن طلاقاً من غير ضرار، وإن كنتن ترغبن في رضوان الله ورسوله والفوز بالجنة في الدار الآخرة، فإن الله قد هياً للمحسنات منكن ثواباً مضاعفاً في الجنة.

٣٠ - يبين الله تعالى بعض الأحكام الخاصة بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن: يا زوجات النبي من يأت منكن بدنبٍ صريحٍ بضاعفٍ لها العذاب في الدنيا والآخرة. وكان ذلك العقاب المضاعف سهلاً على الله تعالى.

٣١- وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مُكِنَّا لَهُ مَكْرَمًا - يا أزواج النبي - وتمثل لأوامر النبي ﷺ، نضاعف لها الأجر، فتتاله من مرتين، أجر الطاعة والامتثال، وأجر تأسي الصالحات بهن، وأعدنا بقدرتنا وعظمتنا لمن أطاعت، واستجابت عطاءً واسعاً زاخراً، وأجرنا في الجنات

٣٢- يا زوجات النبي لستن كغيركن من النساء، إن اتقيتن، فأتنتن أمهات المؤمنين، وزوجات خاتم النبيين، وأسوة لنساء العالمين، فلا تملن بريق القول، ورخيم الصوت، فيتأثر من في قلبه مرض ممن ابتلي بغلبة الشهوة، وقلن قولاً طيباً حسناً مقبولاً في الشرع والعرف، لا غلظة فيه ولا جفوة.

٣٣- والزمن بيوتكن، فلا تخرجن منها إلا لحاجة، كطلب العلم، أو لتحصيل أجر ومثوبة، أو نيل فضيلة كالصلاة في الجماعة، وأعمال البر وصلة الأرحام، ولا تبرجن بإبداء زينتك، كما كان حال النساء في الجاهلية، بل ينبغي أن تكن محتشمت، وداومن على إقامة الصلوات، وبإذن إلى إخراج الزكوات، وأطعن الله ورسوله بامثال الأوامر، واجتناب النواهي. إننا يريد الله بما أمركن به من الفضائل والمكرمات، وما نهاكن عنه من الرذائل والموبقات، أن يطهركن من أدناس المعصية وأدران الرذيلة يا أهل بيت النبي، ويطهركن تطهيراً تاماً، يليق بسمو مكانتكم، وكريم شمائلكم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضائل أمهات المؤمنين رضي الله عنهن؛ لأنهن اخترن الله ورسوله، والدار الآخرة.
- ٢- النية لها أثر عظيم في زيادة الثواب؛ لأنه رتب هذا الثواب على هذه الإرادة، والنية الطيبة.
- ٣- مزية عظيمة لزوجات النبي ﷺ؛ فإن إحداهن إذا عملت عملاً صالحاً، وأطاعت الله ورسوله، آتاها الله أجرها مرتين. فلما ضوعف لها العذاب، ضوعف لها الثواب، ولهذا قال: ﴿تُوْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، ومضاعفة الله تعالى أجر أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - من تفضله عليهن، ولأنهن قدوة للنساء يترسمن خطاهن.

- ٤- النهي عن الخضوع بالقول أمام الرجال قطعاً؛ لأطباع مرضى القلوب، وهذا لا يعني كون المرأة جافية غليظة في كلامها مع الرجال؛ ولذا قال تعالى بعد النهي عن الخضوع بالقول ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.
- ٥- الأصل هو بقاء المرأة في بيتها، فهو مملكتها وحضنتها، وميدان جهادها، ومحضن تربيتها لأبنائها، فلا تخرج إلا لحاجة، وقرارها في بيتها ليس حبساً لها، وعوداً بها عن ميادين الحياة ومعتك الكفاح، فإن رسالتها الكبرى ومجدها الحقيقي يشع من بيتها، لأن التعبير بـ ﴿وَقَرْنَ﴾ يفيد أن سكينه المرأة وطمانينتها وسعادتها الغامرة لا تحصل إلا وهي في بيتها.

- ٦- النهي عن كل ما يتصل بالجاهلية: من عادات ذميمة وخصال قبيحة كالترج وغيره.

- ٧- التبرج رمزٌ للتخلف، وشعار للجاهلية.
- ٨- العدول عن المضارع إلى الماضي في ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ لإفادة تحقق وقوعه.
- ٩- تكرار خطاب أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - ونداءهن دليل العناية بهن وتكريمهن.
- ١٠- ﴿إِن أَقْبَيْنَ﴾: سُمُو مكانة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ورفعتهن مقامهن لا يتم لهن إلا بتقوى الله تعالى، فهي معراج الوصول ومفتاح القبول.
- ١١- تنكير «مرض» للتنويع. والمراد مرض النفاق وضعف الإيمان وغلبة الشهوات.
- ١٢- دَلَّ النهي عن الخضوع بالقول على أَنَّ إظهار مواضع الحلي أبلغ في الزجر. وعلى أَنَّ كل ما يُجْرِك الشهوة أو يثيرها منهياً عنه، كالتعطر، والتطيب، والتبختر في المشية.
- ١٣- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: نصٌّ في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت؛ لأنَّ الخطاب هاهنا لهنَّ، وسبب نزول هذه الآيات فيهنَّ.
- ١٤- من أعظم مظاهر التقوى وثمراتها على النساء الحِشْمَةُ والحياء.
- ١٥- دَلَّت الآية على أَنَّ سليم القلب لا يقع فيما وقع فيه مريضه، من الميل إلى الشهوات، وسرعة التأثر، والاستجابة لدواعيها.
- ١٦- التعبير بالفعل المضارع ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾، ﴿لِيُذْهِبَ﴾، ﴿وَيُطَهِّرَكُمُ﴾ دلالة على تجدد الإرادة واستمرارها، وإذا أراد الله أمراً قَدَّرَهُ فلا رادَّ لإرادته.

﴿ وَأَذْكُرَ مَا يَتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (٣٤)
 إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
 وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ
 وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
 لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾

التفسير:

٣٤- واذكُرْنَ دائماً للعلم والعمل والتعليم ما يُتلى في بيوتكنَّ من آيات الله العظيمة، وما يُقرأ من سنة نبيه الحكيمة، التي نزلت بياناً وتقريراً لما جاء في القرآن. إِنَّ الله تعالى كان - ولا يزال - لطيفاً بعباده في أوامره وأقداره، خبيراً بأعمالهم، يعلم كلَّ ما لَطَفَ وَخَفِيَ، ويتعهد أوليائه باللطف والرعاية.

٣٥- إِنَّ المسلمين والمسلمات الذين امتثلوا لأوامر الله واستسلموا لأقداره وأحكامه، والمؤمنين والمؤمنات الذين صدَّقوا بآيات الله ورسوله، والقانتين والقانتات المطيعين لربهم المتبتلين له، والصادقين والصادقات مع الله تعالى ومع العباد، والصابرين والصابرات الذين حسبوا أنفسهم على الطاعة، وامتنعوا عن المعاصي، ورَضُوا بأقدار الله، والخاصعين والخاصعات لربهم في كل الأحوال، وفي الصلاة والدعاء على وجه الخصوص، والمتصدقين والمتصدقات على الفقراء والمساكين، والصائمين والصائمات فرضاً ونَفْلاً، والحافظين فُرُوجَهُم والحافظات عن المحارم والمآثم، والذَّاكِرِينَ الله كثيراً والذَّاكِرَاتِ، الحريصين المُكثِرِينَ من الذِّكْرِ. كل هؤلاء أصحاب الخصال الشريفة والشائِلِ المنيفة، هيَّا الله لهم مغفرةً لذنوبهم، وَجَنَّةً كريمةً؛ إكراماً لهم، وثواباً لأعمالهم.

٣٦- وما ينبغي لمؤمن ولا لمؤمنة أن يكون لهما اختيار إذا قضى الله ورسوله أمراً من الأمور، فليس لهم إلا التسليم والانقياد لأوامر الله والإذعان والقبول لحكم الله ورسوله. ومن يَعْصِ الله ورسوله بِتَرْكِ مَأْمُورٍ أو فعل محظورٍ، فقد بَعُدَ بُعْدًا شاسعاً عن الحق والهدى.

الفوائد والاستنباطات:

١- مكانة أمهات المؤمنين جميعاً رضي الله عنهنَّ، ورفَعَتْهُنَّ. وفي هذا رَدٌّ مُفْحَمٌ على الذين لا يُقِرُّون بفضلهنَّ.

- ٢ - إضافة البيوت إليهن - رضي الله عنهن - إشارة إلى أن السكنى في بيت الزوجية حق للمرأة، وأنها سيدة بيتها، مسؤولة عنه.
- ٣ - تكريم الإسلام للمرأة ومساواتها للرجل في كثير من التكاليف الشرعية، وما يترتب عليها من مسؤولية وجزاء.
- ٤ - جمعت الآية عشر خصال هي أبرز معالم الشخصية المسلمة: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفرج، وذكر الله.
- ٥ - قوله: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ من إيجاز القرآن، فقد اكتفى بما ذكره في ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ وفيه صون للمرأة، ومراعاة لحياتها الفطري، ومراعاة للفاصلة.
- ٦ - التنكير والتنوين في ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾ للتعظيم والتفخيم والتكثير، وتقديم المغفرة على الرحمة؛ لأنّ تفويت المهوب مُقَدَّمٌ على تحصيل المرغوب.
- ٧ - من مقتضيات الإيثار الامتثال، والرضا، والتسليم لما جاء في الكتاب والسنة.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٧ - واذكر - يا محمد - حين تقول لمن أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالرفق والعطف وغيره من وجوه الصلة والإحسان، وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه، أبقى زوجتك بالمعروف، واتق الله في معاملتها، فلا تظلمها، وإن كنت غير راضٍ عنها، فإن العدل واجب في الرضا والغضب، وتخفي في نفسك ما أطلعك الله عليه من طلاق زيد لزينب، وزواجك منها، وهو الذي أبداه الله لك رضي الله عنه، وتخشى قالة الناس، والله أحق أن ترهبه وتخافه. وكانت تلك الخشية إشفاقاً منك عليهم ورحمة بهم، وكان الله تعالى قد أعلم رسوله أن زيدا سوف يُطَلَّقُ زينب، وسوف يتزوجها رضي الله عنه لحكمة جليلة، وهي إبطال ما درج عليه الناس من تحريم

زوجة المتبنى، فلما طَلَّقَهَا زَيْدٌ بِمَحْضِ اختياره، ولم يبق في قلبه مَيْلٌ إليها، ولا وحشة من فراقها زَوْجَانِهَا، حتى لا يكون هناك تَأْتُمٌ أو ضيقٌ من الزواج بِمَنْ كانت زوجةً لِلْمُتَّبَنَى. وكان قضاء الله نافذاً، فهو سبحانه لا رَادَّ لِفِعْلِهِ، ولا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وزواج زيد من زينب ثم تطليقه إياها، ثمَّ زواج رسول الله ﷺ منها، كل ذلك بتقدير من الحكيم الخبير.

٣٨- إذا كان أمر الله مفعولاً، وَقَدْرُهُ مقدوراً، وقضاؤه نافذاً، فكيف يكون على النبي حَرْجٌ مِنْ تَزْوِجِ زينب - رضي الله عنها - في شيء هو من أمر الله الذي فرضه عليه، وَقَدْرُهُ له، وسنَّه في النبيين والمرسلين، فهم حملة لواء الشريعة ومعلمو الإنسانية الخير؟ وكان أمر الله قضاءً مُبْرَماً، وَحُكْمًا قاطعاً.

٣٩- هذه طبيعة الأنبياء وحالهم، فهم صفوة الخلق، وأعلم الناس بالحق، وأخشاهم الله تعالى، ورسول الله ﷺ هو أفضلهم مكانة. وكفى الله تعالى حسيباً لأنبيائه على التبليغ، ولأقوامهم على الاستجابة.

٤٠- ما كان محمد أباً لأحد من رجالكم، حتى تثبت حرمة المصاهرة والنكاح، وهذا ردٌّ على مَنْ قال: إِنَّ مُحَمَّدًا تَزَوَّجَ من حليمة ابنة زيد، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين، لذا لم يُعَقَّبْ ولدًا من بعده، لأنَّه لا نبوة بعده. وكان الله عليماً بأقوالكم وأفعالكم وأحوالكم، وبما فيه الصلاح والفلاح لعباده في الدارين.

الفوائد والاستنباطات:

١- مِنْ قَدْرِ الله في أنبيائه أن يفرض عليهم من الأحكام الخاصة بهم ما يكون عوناً على نشر الدعوة. من ذلك زواجه ﷺ بأكثر من أربعة لمقاصد كريمةٍ وَحِكْمِ جامعة، منها حِكْمٌ اجتماعية؛ لتوثيق أواصر الصلة، وتعميق وشائجها مع القبائل، ومنها حِكْمٌ سياسية، وَحِكْمٌ دعوية، وأخرى تربوية وتعليمية، وتشريعية.

٢- العاقل كما يتحرَّرُ عن المضارِّ، فإنه يتحرَّرُ عن إساءة ظنِّ الناس به.

٣- التعبير بـ ﴿فَلَمَّا فَصَنَ زَيْدٌ مَنَهَا وَطَرًا﴾ كناية عن الطلاق؛ لأنَّ الوَطَرَ هو الحاجة التي لصاحبها فيها همة وحرص، ولو قال: «فلما طلقها» لأمكن أن يكون هذا الطلاق متأثراً بشيء من هذا الموقف، أي: إن زيدا طلقها وما زال راغباً فيها؛ ولهذا أوثرت هذه الكناية لما فيها من دلالة بيِّنة على نفي أن يكون هناك عاملٌ ما في طلاق زيد لزينب، إلا أن يكون فراغ حاجته منها، وأنه لم يَعُدْ له فيها مَأْرَب، فطلاق زيد لزينب كان برغبته واختياره.

٤- التعبير بالمضارع في ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الأذهان، وليبان أنَّ البلاغ قائمٌ.

٥ - نهوض الدعوة بواجب الدعوة إلى الله تعالى دون التفاتٍ لمقالة أهل السوء والريبة، وشُبهه أهل الضلال والزيف.

٦ - التعبير بـ ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ لأنه ﷺ كان قد رُزق بأربعة أبناء، وكانوا قد لحقوا بربهم قبل أن يَبْلُغوا مبلغ الرجال.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذِينِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعَمَ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعِ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِن عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤١-٤٢ - يا أيها المؤمنون الصادقون، أَكثِرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَسْبِيحِهِ فِي الْبُكُورِ وَالْأَصَالِ، فَالذِّكْرُ مِنْ أَجْلِ الْقُرْبَاتِ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، مَعَ كَوْنِهِ مِنْ أَيْسَرِ الْأَعْمَالِ، وَأَقْوَاهَا لِلنَّفْسِ، وَأَزْكَاهَا لِلْفُؤَادِ، وَتَسْبِيحُ اللَّهِ تَعَالَى تَعْظِيمٌ وَتَنْزِيهٌ لَهُ تَعَالَى.

٤٣ - هو الذي يرحمكم، ويُسَبِّحُ عَلَيْكُمْ، وَيَقْبَلُ دَعَاءَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ لَكُمْ، وَتُصَلِّيُ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ بِالْدَعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ، لِيُخْرِجَكُم بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الشَّرْكِ وَالشُّكِّ، إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ. وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا، يَهْدِيهِمْ وَيُضَلِّحُهُمْ وَيَحْفَظُهُمْ.

٤٤ - تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقونه عند الحساب وفي الجنات سلام، يُسَلِّمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَيُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَهِيَ تَحِيَّةُ تَكْرِيمٍ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتِ الْكِرَامَةِ.

٤٥-٤٦ - يُوجِّهُ اللَّهُ الْخَطَابَ لِنَبِيِّهِ ﷺ بَيَانِ مَهْمَتِهِ الْجَلِيلَةِ وَرِسَالَتِهِ الْكَرِيمَةِ، فَقَدْ أَرْسَلَهُ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ وَعَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَشَاهِدًا عَلَى الْحَقِّ مُقَرَّرًا لَهُ، وَحُجَّةً فِيهِ، وَأَسْوَةً عَلَيْهِ، وَمِثَالًا لَهُ تُطَبِّقُهُ تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا، وَمُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ، وَدَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَطَرِيقِهِ

بإذنه وأمره، وسراجاً تُنير للناس دروبهم بوحى الله لك وهدايته وتوفيقه، وبشئائك وفضائلك التي يستنير بها المؤمنون، وهي واضحة وضوح الشمس.

٤٧ - وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا خَصَّهِمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَعَظِيمِ الْأَجْرِ، وَكَرِيمِ الْعَطَاءِ، مَا يَفُوقُ أَجُورَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يَخْتَصُّ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ.

٤٨ - وَلَا تُطْعِ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، بَلْ دُمْ عَلَى مَخَالِفَتِهِمْ، وَلَا تَلْقُ بِالْأَبْأَادِهِمْ، بَلْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ كَافٍ بِكَ.

٤٩ - يَا مَرْءَ اللَّهِ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَالَةِ طَلَاقِ النِّسَاءِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهِنَّ أَنْ يُكْرِمُوهُنَّ، وَيُفَارِقُوهُنَّ فِرَاقاً بِالْمَعْرُوفِ، وَذَلِكَ بِإِكْرَامِهِنَّ وَأَدَاءِ حَقُوقِهِنَّ مِنْ نِصْفِ الْمَهْرِ الْمَسْمُومِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قوله: ﴿وَسَرَّاجًا مُنِيرًا﴾ تشبيهه بليغ، أي: أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها، والتي لا تترك للباطل شبهة إلا كَشَفَتْهَا، كما يُضِيء السَّراج الوَقَادَ ظُلْمَةَ الْمَكَانِ.

٢ - الإِكْتَارُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ، فِذِكْرِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ خَيْرٌ مَا يَنْشَغَلُ بِهِ الْعَبْدُ، وَحِصْنٌ لَهُ، وَتَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ.

٣ - حَقُّ الرَّسُولِ أَنْ يُكْرَمَ وَيُقَدَّمَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ، فَمَا بَالُنَا بِمَنْ كَانَ مَرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلْيَحْدِزْ، وَلْيَقْصِرْ كُلُّ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِأَذَى.

٤ - النِّكَاحُ قَدْ يَطْلُقُ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ.

٥ - التَّعْبِيرُ بِـ ﴿تَرَّ﴾ دُونَ الْفَاءِ أَوْ الْوَاوِ، وَالْعَطْفُ بِهَا لِلتَّرَاخِي؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الطَّلَاقَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَرْتِيبٍ وَتَفْكِيرٍ طَوِيلٍ، وَلِضَرُورَةِ مُلِحَّةٍ؛ لِأَنَّ الطَّلَاقَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ، إِذْ فِيهِ هَدْمٌ وَتَحْطِيمٌ لِلْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ؛ وَهَذَا قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: إِنَّ الْآيَةَ تَرشِدُ إِلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الطَّلَاقِ الْحَظْرُ، وَأَنَّهُ لَا يُبَاحُ إِلَّا إِذَا فَسَدَتِ الْحَيَاةُ الزَّوْجِيَّةُ، وَلَمْ تَفْلِحْ وَسَائِلُ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ. (تفسير آيات الأحكام للصابوني ٤٣٨/١).

٦ - وَفِي وَصْفِ السَّرَاحِ بِالْجَمِيلِ دَمٌّ لِنَقِيضِهِ، وَهُوَ السَّرَاحُ الْقَبِيحُ، كَمَا يَقَعُ مِنَ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ يَشْتَمُونَ وَيَضْرِبُونَ وَيَعْمِرُونَ، وَيَهْتَكُونَ الْأَسْتَارَ، وَيَغْدِرُونَ وَيَفْجِرُونَ إِذَا طَلَّقُوا، وَوَصَفَهُ بِالْجَمِيلِ؛ لِكَوْنِهِ يَحْتَاجُ إِلَى تَجَمُّلٍ، يَحْتَاجُ إِلَى تَرْفُقٍ وَتَلَطُّفٍ، يَحْتَاجُ إِلَى أَنَّ يَظْهَرَ الْمُؤْمِنُ أَفْضَلَ مَا لَدَيْهِ مِنْ أَخْلَاقٍ كَرِيمَةٍ وَخِصَالٍ حَمِيدَةٍ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: «لَا تَذْكَرُوهُنَّ بَعْدَ الْفِرَاقِ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا تَسَرِّدُوا مِنْهُنَّ»

شيئاً تفضلتم به، فلا تجمعوا عليهنَّ الفراق بالحال، والإضرار من جهة المال». (لطائف الإشارات للقسري ١٦٧/٣).

٧- كفل الإسلام للمطلقة حقها في أن تبدأ حياة جديدة، فلا يجوز لزوجها أو لوليها أن يجرمها من هذا الحق، وعلى الزوج أن يتجمل في مفارقتها، ويحسن إليها، ويتركها وشأنها، فلا يعضلها، ولا يهضم حقوقها.

٨- التعبير بقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فيه إشارة إلى أنه ينبغي أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات، وإلى مراعاة حق المؤمنة. وإن كان الحكم سارياً على كل مطلقة، مؤمنة كانت أو كتابية.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ أَبْنَعِيَتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقْرَأَ عَيْتُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَانَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

التفسير:

٥٠- يَمْتَنُّ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِمَا أَحَلَّهُ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي دَفَعَ إِلَيْهِنَّ مَهْرَهُنَّ، وَمَلَكَتِ الْيَمِينَ مِنَ الْغَنَائِمِ أَوْ الْهَدَايَا وَالْهَبَاتِ الَّتِي هِيَ عَطَاءٌ مِنَ اللَّهِ لَكَ، مِثْلَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُصَيْنٍ وَجُوبِرَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ وَمَارِيَةَ الْقُبْطِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، كَمَا أَحَلَّ لَهُ بَنَاتِ عَمِّهِ وَبَنَاتِ خَالَتِهِ وَبَنَاتِ خَالِهِ وَبَنَاتِ خَالَاتِهِ اللَّاتِي حَظَّيْنَ بِشَرَفِ الْمُهْجَرَةِ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ؛ لِتَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ، إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ فَهِيَ حَلَالٌ لَكَ، خَاصَّةً دُونَ غَيْرِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ عَلِمْنَا مَا شَرَعْنَا وَقَدَّرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَإِمَانِهِمْ، أَلَّا يَتَزَوَّجُوا إِلَّا أَرْبَعَ نِسْوَةٍ حُرَّائِرٍ، وَمَا شَاؤُوا مِنَ الْإِمَاءِ، مَعَ اشْتِرَاطِ الْوَلِيِّ وَالْمَهْرِ وَالشَّاهِدِينَ، وَوَسَّعْنَا عَلَيْكَ مَا لَمْ يُوسَّعْ عَلَى غَيْرِكَ؛ لِئَلَّا يَضِيقَ صَدْرُكَ فِي نِكَاحٍ مِمَّنْ نَكَحْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ. وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا لِدُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، رَحِيمًا بِالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ.

٥١ - ومن هذه السَّعة أن جعل الله تعالى له الخيار في القسم والتراجع فيه، توسعةً وإكراماً له ﷺ، لكن النبي ﷺ كان يُقسِمُ بين نساته حتى تَقَرَّ أعينُهُنَّ، وتبتهج قلوبُهُنَّ، وَيَرْضَيْنَ بما منحهنَّ كلهنَّ، والله يعلم طبيعة الرجال والنساء، وما جُبِلَتْ عليه النفوس من الميل. وكان الله تعالى غفوراً لعباده على الذنوب والتفريط، حليماً بهم في تيسيره ومعافاته.

٥٢ - لا يجوز لك - أيها النبي - أن تتزوج بعد زوجاتك التسع، ولا أن تتبدَّلَ بهنَّ من أزواج: بأن تُطلِّقَ منهنَّ، وتتزوج من غيرهنَّ، ولو أعجبك حُسْنُهُنَّ، إلا ملك اليمين؛ فلا حَرَجَ عليك. والله يعلم ما في قلوبكم من الرضا بحُكْمِ الله والتفويض إليه. وكان الله تعالى مراقباً للأُمور، عالماً بها، قائماً بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في التعبير بالاسم الظاهر في موقع الإضمار تفخيمٌ وتكريمٌ للنبي ﷺ، وليبان سبب الخصوصية، وهو مقام النبوة الذي شَرَّفَه اللهُ به. وفي الالتفات للنبي ﷺ ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ اعتناء وامتنانٌ.

٢ - وفي قوله: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ إظهار في مقام الإضمار لأنَّ مقتضى الظاهر أن يقال: إِنْ وَهَبْتَ نفسها لك. والغرض من هذا الإظهار ما في لفظ ﴿النبي﴾ من تزكية فِعْلِ المرأة التي تَهَبُ نفسها بأنها راغبة لكرامة النبوة. (انظر: تفسير ابن كثير ٦ / ٤٤٢).

٣ - وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ أَلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: هذا عدلٌ وسَطٌ بين الإفراط والتفريط؛ فإنَّ النصراني لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصراني، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرَطَتْ فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع. (انظر: تفسير ابن كثير ٦ / ٤٤٢).

٤ - التحليل والتحريم لله تعالى، لا يَنَازِعُهُ فيه أحد.

٥ - حَصَّ الباري جَلَّ وعلا رسوله الكريم ﷺ في أحكام الشريعة بخصائص في أمور الزواج.

٦ - لتعدُّد زوجات النبي ﷺ حِكْمٌ عظيمة، ومقاصد سامية: منها عقد الصلوات، وتوثيق العُرا بين النبي ﷺ والقبائل، ومنها تعليم أمهات المؤمنين وإعدادهنَّ لتعليم نساء الأمة، ومنها حكم تشريعية، فقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في معاملة نساته، والعدل بينهنَّ، والصبر والترفق بهنَّ، وحكم سياسية فقد تزَوَّجَ صفية بنت حُيَيِّ الإسرائيلية، وتزَوَّجَ مارية القبطية وجُويرية بنت الحارث من بني المصطلق أعتقها، وتزَوَّجَها، وأعتق أهلها، فكانت بَرَكَةً على قومها، وكان لهذا الزواج بالغ الأثر.

٧- ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هذا السنن الرباني روعي فيه أحوال القلوب وأصنافها، وما يجول فيها من نوازع وخواطر، وما يتصارع فيه من غرائز ورغبات وعزائم، فالله تعالى يعلم ما يصلح شأننا، ويُنَبِّئِي فطرتنا.

٨- اقتران صفة الحلم بالعلم؛ لبيان حِلْمه تعالى بعباده، وتَرْفُقِهِ بهم، مع معرفته بخبايا نفوسهم، وأنه تعالى لا يؤاخذ على ما قد يمر بالنفس من هواجس ووساوس عارضة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ بُدِئُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوُا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءِأَبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

٥٣ - سبب النزول:

عن أنس بن مالك ؓ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ، فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ، فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَامَ، وَقَامَ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةٌ. فَجَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، فَرَجَعَ، وَإِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا، وَجِئْتُ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّىٰ دَخَلَ، وَذَهَبْتُ أَدْخُلُ، فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ. (صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب آية الحجاب برقم ٥٨٨٥). وعن أنس ؓ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؓ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنْ نَسَاءُكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْكَ الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَخْتَجِبْنَ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. (صحيح البخاري، أبواب القبلة، باب ما جاء في القبلة برقم ٣٩٣).

التفسير:

يُوجِّهُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ، إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُمْ أَوْ دَعَاهُمْ لَطَعَامٍ، غَيْرِ مُبَكَّرِينَ، بِحُجَّةٍ انْتِظَارِ نُضْجِهِ وَإِدْرَاكِهِ، وَلَا مَتْرَقِبِينَ نَضْجَهُ، لِثَلَاثِ شِقْوَ عَلَى النَّبِيِّ وَأَرْوَاجِهِ طَوَّلَ مَكْتِكُمْ، فَإِذَا دُعِيتُمْ فَلَبُّوا، وَإِذَا فَرَّغْتُمْ مِنَ الطَّعَامِ فَانصرفوا، وَلَا تَجْلِسُوا بَعْدَهُ لِلْحَدِيثِ، فَيَثْقُلُ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، وَيَتَأَذَى النَّبِيَّ

من ذلك، فيستحي منكم. والله لا يستحي من الحق، بل يُعَلِّمُكُمْ وَيُهَدِّبُكُمْ وَيَصِّرُكُمْ؛ مراعاة للحقوق والآداب، وإذا سألتموهن شيئاً يُسْتَمْتَعُ بِهِ وَيُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ آلَةِ الْمَنْزِلِ وَنَحْوِهَا، أَوْ خَاطَبْتُمُوهُنَّ فِي أَمْرٍ، فَخَاطِبُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ. ذَلِكَ أَطْهَرُ وَأَنْقَى، وَأَزْكَى لِقُلُوبِكُمْ مِنَ الْهَوَاجِسِ وَالْوَسَاوِسِ، وَقُلُوبِهِنَّ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلَا أَنْ تَنْزَوَّجُوا بِنِسَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ. إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا؛ لِحُرْمَةِ نَبِيِّكُمْ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَلِكُونَ نِسَائِهِ أَمْهَاتٍ لَكُمْ.

٥٤- إن تظهِروا شيئاً، أو تكتُموه في نفوسكم؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَهِدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ مَا بَدَأَ وَمَا خَفِيَ.

٥٥- لا حرج ولا إثم على أزواج النبي ﷺ في دخول الآباء والأبناء وإخوانهن، وأبناء إخوانهن، وأبناء أخواتهن، والنساء المسلمات، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ مِنَ الْعَبِيدِ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ يَتَّقِينَ اللَّهَ، وَيُرَاقِبْنَهُ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الْعِبَادِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- دعوة لمراقبة الله ﷻ في جميع الأحوال.
- ٢- أدب النبي ﷺ وحيأوه، والحياء من أجل الخصال، وأكمل الأخلاق.
- ٣- حرص الشريعة على تزكية النفوس، وطهارة القلوب، وسلامة الصدور.
- ٤- في مشروعية الحجاب تكريم للنساء وصيانة لهن، وحماية للبيوت، وسد لأبواب الفتن، وقطع لمطامع أصحاب القلوب المريضة.
- ٥- ذم الطفيليين وتحريم التطفل، وهو الحضور بغير دعوة؛ لما فيه من سوء الأدب وهتك الحرمات، وذم الثقلاء الذين يطيلون الجلوس، ويكثرون الكلام، فيملأ الناس من طول مجالستهم.
- ٦- ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيه التفات من الغيبة للخطاب: وفي الإقبال عليهن بالخطاب اعتناء بهن، وتنبه لهن.

- ٧- مقام النبوة أسمى المقامات، وإيذاء النبي ﷺ من أعظم الذنوب، وقد عَظَّمَ اللَّهُ حُرْمَةَ نَبِيِّهِ.
- ٨- الأدب في أمر الطعام، والاستئذان ودخول البيوت.
- ٩- الأدب في مخاطبة النساء، ومنع الاختلاط والخلوقة بهن.
- ١٠- في التعبير عن الانصراف بـ ﴿فَأَنْتَشِرُوا﴾ أدب من آداب القرآن ودقته؛ حتى لا يقف بعضهم عند باب البيت للحديث، ولينصرف كل واحد إلى عمله.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ٥٦
 إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
 يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا
 النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابٍ عَلَيْهِنَّ ذَلِكَ أَدْفَعُ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنُ
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي
 الْمَدِينَةِ لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا
 وَقْتَلُوا وَقَدْ تَلَّوْا الْقُرْآنَ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴿﴾

التفسير:

٥٦ - حقاً إِنَّ اللَّهَ تعالى وملائكته الكرام يصلُّون على النبي محمد ﷺ، وصلاته تعالى الرحمة والثناء والذكر الحسن، وصلاة الملائكة الدعاء والثناء، فيا أهل الإيمان صَلُّوا على نبيكم الذي أخرجكم الله به من الظلمات إلى النور، وهداكم به، ورحمكم باتباعه وطاعته، وبَدَلْ حياته مجاهداً مرياً معلماً، فَصَلُّوا عليه كما عَلَّمكم ربُّكم، وَسَلِّمُوا تسليماً. وصلاة المؤمنين ثناء على الرسول ﷺ، ودعاء لله أن يُعَلِّي ذِكْرَهُ ويزيده تعظيماً وتشريفاً.

٥٧ - إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ تعالى بمخالفة أوامره وانتهاك محارمه والتعرض لأنبيائه وأوليائه، ويؤذون رسوله بمخالفة هديه وهجر سنته، أو بانتقاص حقٍّ من حقوقه، أو بليذاته في أهل بيته وأصحابه، أو بالغمز واللَّمز والطعن في سيرته وشماله، لعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، فهم البعداء المحرومون، المستحقون للعذاب المهين.

٥٨ - والذين يؤذون عباد الله المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا من الذنوب والآثام التي تستوجب العقوبة، فقد ارتكبوا كذباً وافتراءً وذنوباً واضحاً، لا ينفك عنهم حتى يتوبوا.

٥٩ - يا أيها النبي، قل لأزواجك وبناتك وسائر نساء المؤمنين: يُرْجِنِ عليهن من جلابيبهن؛ حشمةً وصيانةً وعفةً وطهارةً؛ لئلا يتعرَّض لهن أحدٌ بسوء، فالحجاب تاج الكرامة، وشعار الفضيلة، ولباس الوقار، ذلك أقرب إلى أن يعرفن بالإيمان والعفة، فلا يتعرَّض لهن أحدٌ بأذى. وكان الله بهنَّ غفوراً لما سلف، إذ لم يكن عندهنَّ عِلْمٌ بذلك، رحيماً بهن.

٦٠-٦١ - لئن لم ينته المنافقون ومرضى القلوب، وأصحاب الإرجاف والإشاعات في المدينة من كيدهم وافتراءهم، وترويجهم للأكاذيب والشائعات ودسائسهم، لَنُغْرِبَنَّكَ بهم، ونُسَلِّطَنَّك عليهم، ثُمَّ لَا

يساكنونك في المدينة إلا قليلاً، حتى يخرجوا منها، مُلاحقين بالمذمة والعار، محرومين مطرودين أينما وجدوا وأدركوا، أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا، أي الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به.

٦٢ - طريقة الله ودأبه في الذين خَلَوْا من قبل من المنافقين والمرجفين، وسائر أعداء الدين، أن ينتقم الله منهم ويبدد شملهم، ويوهن كيدهم. وسنن الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل على مر العصور والأزمان.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تحريم أذى النبي ﷺ في ذاته أو في أهل بيته أو صحابته.
- ٢ - في الآية (٥٧) إخبار مستقبلي، وتأکید من الله ﷻ لوقوع العذاب المذل والمهين على الذين يؤذون الله ورسوله في أقوالهم وأفعالهم.
- ٣ - ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا﴾ التأكيد بـ ﴿قَدْ﴾ والفعل الماضي وصيغة افتعل؛ للإشارة إلى عِظَم ما احتملوه، وكونه أمراً لا يطاق حمله إلا بعناء شديد، وجُهد جهيد.
- ٤ - الحجاب طهرٌ وكرامةٌ، وسترٌ واستقامةٌ، وعِفَّةٌ وحياءٌ، وعنوان الإيثار وشعارُ المؤمنات، وِسْمَةٌ المجتمع المؤمن.
- ٥ - في هذا التفصيل والبيان ﴿قُلْ لَا زَوْجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ردٌّ على الذين يزعمون أنَّ الحجاب إنما فرض على أزواج النبي ﷺ خاصة، بل هو فرضٌ على كل مؤمنة.
- ٦ - التبرُّج والعُرْيُ تَبَدُّلٌ وَتَهْتِكٌ، وَتَعَرَّضٌ لِلأذى بالكلمات الجارحة والنظرات المسمومة، وربما يصل الأمر إلى اعتداء المفتونين بالمتبرجات.
- ٧ - على الداعية أن يبدأ بأهل بيته أولاً، وأن يهتم بإصلاحهنَّ وتأديبهنَّ.
- ٨ - تنكير ﴿مَرَضٌ﴾ لتعميمه، فيشمل كل مرض قلبي من أمراض الشهوات العارمة، أو أمراض القلوب من غِلٍّ وَحَسَدٍ وَكِبْرٍ وَطَمَعٍ وَشَحٍّ وَجُبْنٍ.
- ٩ - لا يجوز تمكين أهل النفاق ومرضى القلوب والمرجفين؛ لما في ذلك من شر مستطير، وخطر عظيم على المجتمع.
- ١٠ - التحذير من مُرَوِّجِي الإشاعات الذين يثيرون الهَلَعَّ والبلبله في الناس.
- ١١ - في الآية (٦١) إخبار مستقبلي، والبشارة لعباد الله المؤمنين بالنصر والغلبة على الذين يُضمرون الكفر، ويُظهرون الإيثار.

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴿

التفسير

٦٣ - يسألك الناس - أيها النبي - عن موعد قيام الساعة، فأجبهم أن موعدا في علم الله تعالى الذي استأثر به فلا يعرفه غيره، وأي شيء يُعلمك! لعلها تكون قريبا، فإذا أعدوا لها؟

٦٤ - إن الله تعالى أقصى أهل النفاق، وحرّمهم وطردهم، وألحق بهم المذمة والعار، وأعدّ لهم النار التي تُحرقهم بلهيبها.

٦٥ - ماكين فيها أبداً، لا يرحونها ولا يحمد لهيها، ولا يموتون، فيستريحون من عذابها، ولا يجدون من يحميهم، ويدفع عنهم.

٦٦ - يوم يتقلبون على جمرها، ويصطلون بسعيرها، فيشعرون بالحسرة والندامة على فوات الطاعة الواجبة، فيصيحون ويتأوهون، متمنين أن لو أطاعوا الله ورسوله؛ لتجوا من النار.

٦٧ - وقالوا متحسرين نادمين شاكين: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا، رؤساءنا ورؤوس الكفر والضلال الذين لقنهم الكفر، وزينوه لهم، فانقادوا لهم، وأطاعوهم طاعة عمياء في الكفر والضلال والظلم والجهل، فأضلّوهم الطريق الصحيحة الموصلة إليك.

٦٨ - ربنا وآتهم نظير تضليلهم لنا ضعفين من العذاب، وزد في جزيمهم وعارهم.

٦٩ - يا أهل الإيمان: لا تؤذوا نبيّه، فتكونوا كالذين آذوا موسى، إذ افتروا عليه بقولهم: إنه آدر، فبرّاه الله تعالى من افتراءهم، وكان عند الله تعالى ذا وجاهة ورفعة ومنزلة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنتو إسرائيل يغتسلون غرّة ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر - قال - فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه - قال - فجمّح موسى يائره يقول: ثوبي حجر

تُوبِي حَجْرًا. حَتَّى نَظَرْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْءَةِ مُوسَى، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجْرُ حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهِ - قَالَ - فَأَخَذَ تُوْبَهُ فَطَفِقَ بِالْحَجْرِ ضَرْبًا». (صحيح البخاري، كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة برقم ٢٧٤. وصحيح مسلم، في الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة برقم ٣٣٩. والأدرة: نفخة في الخصية. يقال: رجل آذُرٌ بَيْنَ الْأَدْرَةِ. الصحاح للجوهري ٣/١٣٨).

٧٠- ٧١- يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله، اتقوا الله في جميع أموركم، وتحرّوا الصواب والسداد في أقوالكم، يصلح لكم أعمالكم، ويقبلها منكم، ويغفر لكم ذنوبكم. ومن يلزم طاعة الله ورسوله، ويداوم عليها فقد فاز فوزاً عظيماً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الحكمة من إخفاء وقت الساعة؛ لتحفيز الهمم للعمل الصالح، وترك التواني والتسويق.
- ٢- حين يتهاذى المنافقون ومرضى القلوب في غيهم وإرجافهم وحرهم للإسلام والمسلمين، يُسلط الله عليهم عباده، فيقرعونهم ويكتبونهم.
- ٣- الجزاء من جنس العمل: لَمَّا كَانَ حَالُ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي الدُّنْيَا هُوَ التَّلَوُّنُ وَالتَّظَاهِرُ بِخِلَافِ مَا يَضْمُرُونَ، وَمُقَابِلَةٌ هَذَا بِوَجْهِهَ وَمُقَابِلَةٌ هَذَا بِوَجْهِهَ آخَرَ، كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ﴾ لِتَقْلِبِهَا وَتَلَوُّنِهَا، وَتَقْنَعِهَا فِي الدُّنْيَا.
- ٤- طاعة غير الله في مخالفة أمره وأمر رسوله موجبة لسخط الله وعقابه، و التابع والمتبوع في العذاب مشتركون، فليحذر المسلم ذلك.
- ٥- زيادة الألف في ﴿الرَّسُولَ﴾ ﴿السَّبِيلَ﴾ مع كونها مراعاة للفاصلة؛ فإنها تدل على تفخيم شأن الرسول الذي خالفوه، وشأن السبيل الذي ضلوا عنه، مع الدلالة على التأوه والتوجع والحسرة والندم. ويناسب ذلك الإطالة في الصوت بما يشعر بالبكاء والعيويل والصراخ في جهنم.
- ٦- الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مُوجَّهٌ لِلْأُمَّةِ كَافَّةً، فَهُوَ عَلَى التَّغْلِيْبِ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ وَيَتَّظَاهَرُ بِهِ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ، وَعَلَى هَذَا فإِدْرَاجُهُمْ فِي الْخِطَابِ تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَتَبْكِيَةٌ.
- ٧- التنويه بموسى عليه السلام وما لقيه من أذى شديد، وكيف برّاه الله تعالى وجعل له الوجاهة.
- ٨- الوجاهة الحقيقية ما يكون وفق ميزان الشرع، وليس في ميزان الناس، فالعبرة بمقام العبد عند ربه. وفي هذا تسلية لكل من ابتلي بتناول الناس، وانتقاصهم له.
- ٩- القول الشديد أو تسديد الكلمة يعني سلامة موردها، وصدق مقصدها، مع صحة رميتها، ودقة تصويبها حتى تبلغ مداها.

١٠- في الآيتين (٧٠-٧١) إخبار مستقبلي بأن الله يصلح أعمال مَنْ اتقاه وقال قولاً سديداً. وفيهما إخبار مستقبلي آخر، وهو الفوز بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة لِمَنْ أطاع الله ورسوله فيما أمر ونهى.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٢- إِنَّا عَرَضْنَا التكاليف والمسؤولية والفرائض من عبادات ومعاملات وعمارة للكون، وقيام بواجبات الاستخلاف على سائر المخلوقات فامتنعن عن حملها، واستشعرن عِظَمَ المسؤولية، وثقلَ التكليف، واختار الإنسان أن يتحملها مع ما فيها من تبعات. إنه كان شديد الظلم لنفسه، شديد الجهل بقدر المسؤولية.

٧٣- ابتلى الله البشر بذلك لِيُعَذِّبَ مَنْ خان الأمانة، ونكث العهد من المنافقين والمنافقات الذين تظاهروا بخلاف ما يُضْمِرُونَ، والمشركين والمشركات الذين آثروا الشرك على التوحيد الخالص، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات الذين حفظوا الأمانة، وأدّوا رسالتهم في هذا الكون. وكان الله غفوراً رحيماً يغفر الذنوب، ويتفضل على عباده بالرحمة.

الفوائد والاستنباطات:

١- ثِقَلُ الأمانة وخطرها، فلا ينبغي التفريط فيها، والتهاون بشأنها أو التغافل عنها، أو الجهل بقدرها.

٢- تعريف الإنسان بذاته وطبيعته ورسالته من مقاصد القرآن، وموضوعاته الرئيسة.

٣- ابتلاء الله الإنسان؛ ليميز المؤمن من المشرك والمنافق، ويجازي كُلاً بما قَدَّمَ.

٤- عدل الله تعالى بالعصاة، ورحمته وتَفَضُّله على عباده المؤمنين.

٥- بُشْرَى الله لأهل الإيمان، وإنذاره لأهل الشرك والنفاق.

٦- مقابلة العذاب بالتوبة؛ لأنها سبب المغفرة والرحمة والنجاة.

٧- أعطى الله الإنسان حرية الاختيار، بينما بقيت السموات والأرض والجبال مُسَيَّرَةً لا تخير لها.

٨- في الآية (٧٣) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير الإيذان بالبعث، وبيان الحكمة منه.
- ٢ - تقرير رسالة النبي ﷺ، وعالميتها ومقاصدها.
- ٣ - ردُّ كثير من المفاهيم الباطلة، والتصورات المادية التي رسختها الجاهلية.
- ٤ - بيان عاقبة المستضعفين والمستكبرين، وتخاصُّمهم يوم الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾
يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ
وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلَّ
مُزْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي
الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَتَرَوُا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ
نُخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾

التفسير:

- ١ - يُثني الله سبحانه على نفسه، فهو المحمودُ قبل أن يُحمده الحامدون، المتفضلُ على عباده في الدنيا والآخرة، له ملك السموات والأرض، فالجميع ملكه وعبده، وتحت قهره وتصرُّفه؛ وله الحمد في الآخرة على كمال عدله، وتمام رحمته؛ إذ يفصلُ بين العباد، ويقضي بينهم، فيثيب المحسنين، ويعاقب المسيئين، ويُنصفُ المظلومين، ويقتصُ من المجرمين، وهو الحكيم في ملكه وتدبيره، الخبير ببواطن الأمور.

- ٢- يعلم ما يدخل في الأرض من كائنات، وما يخرج منها من كنوز ونبات، وما ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والمقادير والبركات والرحمات، ولا نازلة ولا صاعدة إلا وقد أحصاها ربنا عدداً، وأحاط بها قدرة وعلماً، وهو الرحيم نَشَرَ بساطَ رحمته، وَبَثَّ آثارها، الغفورُ أمطرَ سحابَ مغفرته وَفَتَحَ أبوابها.
- ٣- وقال الكفار مُنكرين للبعث، مستبعدين له، غافلين عن شواهد: لا تأتينا الساعة بأيِّ حال من الأحوال. أجبهم - يا محمد - مؤكِّداً لهم وقوعها بالقسم، بلى وربى الذي أحسن إليَّ وَتَعَهَّدني لتأتيكم؛ ليجازيكم، ويفصل بيني وبينكم، عالم الغيب يعلم كلَّ ما غاب واستتر. لا يغيب عن علمه شيء مهما صَغُرَ وَلَطْفُ، فما من صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مُسَجَّلَةٌ في اللوح المحفوظ الذي حَوَى كلَّ ما كان، وما يكون، وما سيكون، ومن تَمَّ فهو قادرٌ على بَعثِكُمْ وحسابكم.
- ٤- ليفصل بين العباد، ويقضي فيهم، فيثيب المؤمنين الذين عملوا الصالحات، بالمغفرة والرزق الكريم.
- ٥- والذين سعوا في آياته صِدًّا عنها، وقدحاً فيها، وتعجيزاً لِمَنْ جاء بها، وتثبيطاً لِمَنْ آمَن بها، ودعا إليها هؤلاء البعداء لهم عذاب موجه لأبدانهم.
- ٦- ويرى الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم النافع والمعرفة الواعية ما أنزل الله عليك هو الحق، ويهدي إلى طريق العزيز الذي يعزُّ أولياءه، الحميد المستحق للحمد والثناء فهو طريق العزة، وطريق المجد والثناء.
- ٧- وقال الذين كفروا ساخرين: هل نَدُلُّكم على رجلٍ يَدَّعي أنكم إذا تَقَطَّعتْ أشلاؤكم، ومزَّقتْ أوصالكم، وصِرتم تراباً، تُخَلِّقون خَلْقاً جديداً؟ وهذا منهم إمعان في الاستبعاد، ومبالغة في التشكيك.
- ٨- أفترى على الله هذا القول، أم أصابه صَرْبٌ من الجنون؟ بل الكافرون بالآخرة مُوَعَّلون في الضلال، في تجاهلهم للآيات، وَتَنكَّرهم للنبي ﷺ.
- ٩- يَرُدُّ الله عليهم مُنكراً أفلم ينظروا نَظَرَ اعتبار لما حولهم من آياتِ بينات، وما سبقهم من عِبرٍ وعظات. إن نشأ نخسف بهم الأرض، فتقبرهم، أو نسقط عليهم قطعاً من السماء فتبيدهم. إنَّ فيما سبق ذِكْرُه والإشارة إليه لآية لكل عبد مُقْبِلٍ على مولاه، راجع إليه في كل أحواله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- القادر على إيجاد هذه النعم في الدنيا قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالتَّعَمُّ العاجلة دليلٌ على الآجلة، ونعيم الدنيا برهانٌ على الآخرة.
- ٢- عِلْمُه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون، فهو المحيط بكل شيء علماً.
- ٣- تأكيد الرد على مُنكري البعث بالقسم واللام ونون التوكيد؛ تعظيماً لهذا اليوم، وتقريراً له على أبلغ وجه؛ أمرٌ يقينيٌ تقتضيه الحكمة الإلهية؛ لإقامة موازين العدل والإنصاف، ونَشْرِ بساط الرحمة وظلالها.

- ٤ - تقديم العذاب على الضلال؛ لأنهم في شقاء دائم وعذاب حالٍّ وأجل، كذلك لتقديم ما يسوؤهم ويرهبهم.
- ٥ - بيان موقف أعداء الإسلام من الحق، وأساليبهم في الصدّ عنه، وتشكيكهم في قدرة الله تعالى، وتشبيطهم للمؤمنين، وبثّ روح الهزيمة فيهم.
- ٦ - التعبير بـ ﴿وَيَرَى﴾ لإفادة تجدد هذه الرؤية ودوامها، وهم يرتقون من رتبة إلى رتبة ومن درجة إلى درجة في سلم المعرفة واليقين. قال الشيخ السعدي رحمه الله: «وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول ﷺ، احتجّ الله بهم على المكذّبين المعاندين». (تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٦٧٥).
- ٧ - دلّ إنكار الكفار للبعث على توغّلهم في عمّات الضلال، وتردّدهم في دركاته، فضلاً عن تقلّبهم في عذاب الدنيا قبل أن يذوقوا عذاب الآخرة.
- ٨ - في شهادة الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب وغيرهم، ممّن تبصّر بعلمه، واهتدى به إلى معرفة هذا الحق، حجةً على من لا علم لهم.
- ٩ - في الآية (٩) إخبار مستقبليّ عن خسف الأرض والعذاب من السماء للكفار.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْيٍ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ
 وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ غُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا
 شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ أَلْجِنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ
 عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَّجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ
 أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا
 دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
 الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير:

١٠ - وعزَّزنا وجلالنا لقد آتينا داود منا فضلاً عظيماً، ضَرَبَ اللهُ مثلاً بنبيه داود عليه السلام يدلُّ على كمال قدرته، وكريم عطائه لعباده الصالحين، فقد تَفَضَّلَ اللهُ على داود عليه السلام بهذه الآية العجيبة، وهي ذلك التآلف والانسجام بينه وبين ما حوله من جبالٍ وطيور، فالجبال تتجاوب بأمر من الله تعالى منسجمة مع هذا الصوت الجميل الخاشع، والطيور تشدو. وكما لانتَّ له الجبال مع صلابتها، وألفته الطيرُ مع نفورها ووحشتها، فقد ألان الله له الحديد ليصنع به الدروع السابغات المحكمات، فكان في يده ليناً، من غير طَرَقٍ أو تسخين، يَصْنَعُ منه بدقة وإحكام دروعاً حصينة متينة، بأمر الله تعالى وتعليمه، فقد أرشده سبحانه إلى أُسُسِ الجودة، وأصول الإتيان، وفنون الإبداع في صناعتها.

١١ - أمرناه أن اصنع دروعاً سابقةً محكمة، واضبط حلقاتها، حتى تكون منتظمة متينة متناسقة ضيقة لا تنفذ منها السهام، وأن يجتدوا في عمل الصالحات التي يعمُّ نفعها، ويمتدُّ أثرها في العاجل والآجل، إني مطلعٌ على أعمالكم، بصيرٌ بدقائقها ولطيفها، فضلاً عن جليلها.

١٢ - كذلك امتنَّ اللهُ على سليمان عليه السلام، فسَخَّرَ له الريح، تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده، فتقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير، وأذاب له عين النحاس التي تنبع من الأرض؛ لتفيض بالنحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، كما سَخَّرَ اللهُ تعالى له الجنَّ، يعملون بين يديه فيراهم ويُشرف على عملهم، ويوزع عليهم المهام، فسَخَّرَ له الشياطين في بناء المساكن والمحارِب، وصناعة القِصاع الكبيرة والتماثيل، وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار. ومَنْ تَمَرَّدَ منهم عن أمرنا له بطاعة سليمان نُذِقْهُ من عذاب النار المحرقة.

١٣ - يُنْشِئُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ أبنية مرتفعة للعبادة والسكنى، وثمانيل ينحتونها، وقصاع كالحياض التي يُجِيبِي فِيهَا الْمَاءَ، وَأَنِيَةِ الطَّبِيخِ ثَابِتَةً عَلَى قَوَائِمِهَا لِعِظَمِهَا. اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، وقليل من عبادي المكثّر من الشكر.

١٤ - فَلَمَّا نَفَذْنا قِصَاؤُنَا عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ، وَهُوَ مَتَكِيٌّ عَلَى عِصَاهِ يَشْرَفُ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَالْجَنُّ مُسْتَغْرَقُونَ فِي مَهَامِهِمْ؛ هِيئَةٌ لَهُ وَإِجْلَالًا، وَخُضُوعًا وَإِذْعَانًا حَتَّى أَكَلَتِ الْأَرْضُ عِصَاهُ، فَخَرَّ سَلِيمَانُ؛ لِيَعْلَمَ الْجَمِيعَ بِمَوْتِهِ، وَيَسْتَيَقِنَ الْإِنْسَانُ أَنَّ الْجَنِّ لَا عِلْمَ لَهُمُ بِالْغَيْبِ، وَتَسْقُطُ تِلْكَ الْأَوْهَامُ وَالْإِدْعَاءَاتُ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مَا لَبِثُوا فِي هَذَا الْعَمَلِ الشَّاقِّ الَّذِي كَلَّفَهُمْ بِهِ سَلِيمَانُ الصلوات.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تَفَضَّلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِالنَّعْمِ الْجَلِيلَةِ، وَالْمَوَاهِبِ الْعَظِيمَةِ؛ تَأْيِيدًا لَهُمْ وَتَكْرِيمًا.
- ٢ - تَنْكِيرٌ ﴿فَضْلًا﴾ لِلتَّفْخِيمِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَيْتًا﴾ زِيَادَةٌ فِي تَعْظِيمِهِ وَتَشْرِيفِهِ. وَقَدَّمَ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ لِلاِهْتِمَامِ بِالْمَقْدَمِ، وَالتَّشْوِيقِ لِلْمَوْخِرِ.
- ٣ - فِي قِصَّةِ دَاوُدَ الصلوات وَتَعَلُّمِهِ صِنَاعَةَ الدَّرُوعِ دَلِيلٌ عَلَى تَعَلُّمِ أَهْلِ الْفَضْلِ الصَّنَائِعَ، وَأَنَّ امْتِهَانَهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ مَنَاصِبِهِمْ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه: «عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ الصلوات كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ»، وَإِنَّمَا حَصَّه اللهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مَعَ نَبَوِّهِ كَانَ مَلِكًا، فَلَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنَ الْعَمَلِ. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٢٣٤. والحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، برقم ١٩٦٦).
- ٤ - إِتْقَانُ الْعَمَلِ مِنْ شِيَمِ أَهْلِ التَّقَى وَالصَّلَاحِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي تَطْوِيرِ الْحِرْفِ وَالصَّنَائِعَاتِ النَّافِعَةِ مَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ، وَأَمْرٌ ضَرُورِيٌّ.
- ٥ - الْأَنْبِيَاءُ رُؤَادُ الْحَضَارَاتِ، وَحَمَلَةٌ مَشَاعِلِ الْهُدَى وَالِارْتِقَاءِ، وَمُعَلِّمُوا الْإِنْسَانِيَّةَ، وَخَيْرٌ وَرَحْمَةٌ لَهَا، وَالْوَحْيُ مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهَبَّ اللهُ سَلِيمَانَ مَلِكًا عَظِيمًا وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ عَجِيبَةٍ، مِنْهَا الرِّيحُ وَالطَّيْرُ وَالْجَنُّ، فَضْلًا عَنِ الْإِنْسَانِ، وَإِذَابَةً عَيْنِ النَّحَاسِ لَهُ.
- ٦ - الدَّعْوَةُ إِلَى تَوْظِيفِ الْمَلَكَاتِ وَالْمَوَاهِبِ وَالنَّعْمِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.
- ٧ - الشُّكْرُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَهُوَ اعْتِرَافُ الْقَلْبِ بِنِعْمَةِ اللهِ، وَاسْتِحْضَارُهَا، وَتَنَاءُ اللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ.
- ٨ - حَصَّ آلُ دَاوُدَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمْ مَوْضِعُ التَّأْسِيِّ وَالِاقتِدَاءِ، وَتَحَطُّ الْأَنْظَارِ. وَفِي هَذَا دَرْسٌ لِأَنَّ كُلَّ دَاعِيَةٍ أَنْ يَكُونُوا أَسْرَعَ اسْتِجَابَةً وَأَشَدَّ حِرْصًا، وَأَعْظَمَ إِقْبَالًا عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَشُكْرِ نِعْمِهِ.

٩- قُدِّمَتِ الْجِفَانُ عَلَى الْقُدُورِ مَعَ أَنَّ الْقُدُورَ آلَةُ الطَّبِيخِ، وَالْجِفَانُ آلَةُ الْأَكْلِ وَالطَّبِيخُ قَبْلَ الْأَكْلِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ذُكِرَتِ الْأَبْنِيَّةُ الْمَلَكِيَّةُ نَاسِبٌ أَنْ يُشَارَ إِلَى عِظْمَةِ السَّمَاطِ الَّذِي يُمَدُّ فِيهَا فَذُكِرَتِ الْجِفَانُ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ فِيهَا بِخِلَافِ الْقُدُورِ، فَإِنَّهَا لَا تَحْضُرُ هُنَاكَ. (انظر: روح المعاني للألوسي ٢٧٢/١٦).

١٠- إِنَّ دَابَّةَ الْأَرْضِ هِيَ إِحْدَى الْحَشْرَاتِ الَّتِي تَأْكُلُ الْخَشَبَ، وَتَحْفَرُ فِيهِ؛ لِتَتَّخِذَ مِنْهُ مَأْوَى وَطَعَامًا فِي أَنْ وَاحِدٍ، وَلِذَا تَعْرِفُ بِاسْمِ نَاقِرَاتِ الْخَشَبِ (Woodborers) أَوْ الْقَادِحِ، وَمِنْهَا الْأَرْضِيَّةُ (القرضة).
يقول العلماء في قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ﴾: أول إشارة في تاريخ البشرية إلى حقيقة أن من الحشرات ما يعيش على أكل الأخشاب. وأنَّ تاء التانيث في الفعل ﴿تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ﴾ تدل على أن الذي يبدأ النخر في الخشب هي الإناث من تلك الحشرات الناخرة. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢١٢-٢٢٦).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُٗ
بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ
أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي
وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

التفسير:

١٥- قسماً لقد كان لقوم سبأ في ديارهم ومساكنهم آية عجيبة، تدل على قدرة الله تعالى، وسنته الماضية، وعدله في حكمه: جنتان عن اليمين والشمال، فيهما الأشجار الوارفة الظلال البانعة الثمار والزروع التي تُسقى بالماء النَّمير من الخزانات وراء السدِّ. فهنيئاً لهم هذه الطيبات، وليشكروا ربهم عليها. بلدة وافر الخيرات، سالمة من الآفات، خالية من المنغصات، طاب فيها المقام ورغد العيش، ومساكن طيبة، ومناظر رائعة، وسهول ممتدة، وربوع خضراء، وأنهار تتدفق بالخيرات، وأشجار تتفتق بأطياب الثمرات، ورب غفور يعفو عن الكثير، ويثيب على القليل، ويمنح الثواب الجزيل.

١٦ - فلم يشكروا ربهم بل أعرضوا عن المُنعم جَلَّ وعلا، وقابلوا النعم بالجحود والنكران، فسَلَطَ الله عليهم السيل الجَرَّار الذي خَرَّب سَدَّهم، وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت بتلك الحقول والبساتين المثمرة أشجاراً رديئة الثمر، كالطرفاء والسدر وغيرها من الأشجار التي لا تُغني من جوع.

١٧ - ذلك العقاب بسبب كُفْرِهِم وِجْحودِهِم، فلا نُعاقِبُ إلا مَنْ كفر بالنعم، وأصرَّ على ذلك، وتمادى فيه، فيتبدَّل حاله مِنْ رَعْدِ العيش، وطيب الحياة، ووفرة الثمر إلى القَحْطِ والجذب وتَلَفِ الزروع، وقلة الثمر.

١٨ - وكانوا في نِعَمٍ ظاهرة، وحياة رغيدة، وعيشة سهلة لِيَنَّة، وبلاد طيبة آمنة، وقرى متقاربة متواصلة بالخيرات من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام، وجعلنا السير بين قُراهم و القرى التي باركنا فيها سيراً مقدَّراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، حتى يكون المَقِيلُ في قرية، والمبيثُ في قرية أخرى، ودَعَوْنَاهُمْ للسير فيها آمِنِينَ من كل المخاطر والآفات، مهما ساروا بالليل أو النهار، ومهما طال سفرهم.

١٩ - تعالَى القوم على هذه النعم، وطلبوا زواهلها، وتمنَّوا لو كان السفر طويلاً، وبلغ الترفُ ببعضهم والدَّعةُ أن اشتكى من بُعد الأسفار؛ جحوداً وإنكاراً لِنِعَمِ الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتملَّ لهم، فجعلناهم عبرةً يتحدث الناس عنهم، ويتعجَّبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفترقهم بعد اجتماع شملهم، وذُلمَّ بعد عِزِّهم، حتى صار تفريقهم مثلاً سائراً فقالوا في الأمثال، ذَهَبُوا أَيِّدِي سَبَا وَتَفَرَّقُوا أَيِّدِي سَبَا. (جمع الأمثال للميداني ١/ ٢٧٥). إِنَّ فِي ذَلِكَ لِمَوَاعِظٍ وَعِبْرًا لِكُلِّ مَنْ أَكْثَرَ الشُّكْرَ، وَوَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - سيقت قصة سبأ لتكون عبرةً وعظةً وحجةً على كفار قريش الذين أنكروا البعث، وكذبوا بالنبي ﷺ، وأعرضوا عمَّا بين أيديهم وما خلفهم من الآيات، فالجزء الدنيوي تمهيدٌ وبرهان ودليل، وعنوانٌ على الجزء في الآخرة.

٢ - يقول علماء النبات: إِنَّ كُلَّ أَعْضَاءِ النَّبَاتِ تَحْتَاجُ إِلَى عِنَصْرِ الأُكْسِجِينِ، والأُكْسِجِينِ يَتَشَرُّ بَيْنَ حَبِيبَاتِ التُّرْبَةِ بِالقَدْرِ الكافي؛ لِتَنفَسِ الجذور، فإذا زادت نسبة الماء بالتربة (أغرقت التربة)، فالماء الزائد يَحُلُّ مَحَلَّ الأُكْسِجِينِ فلا يجد الجذر ما يتنفس به من الأُكْسِجِينِ فيموت مختنقاً كما يفرق الإنسان والحيوان، فإذا مات الجذر توقفت عملية امتصاص الماء والأملاح من التربة ومات النبات عطشاً رغم توافر الماء تحت قدميه، وترى النباتات الغارقة بالماء ذابلة كأنَّها تعرضت للفتحة الحرارة في قلب الصيف. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٢٨٥-٢٨٧).

٣- عاقبة الجحود والنكران، والغفلة والنسيان: الشقاء والحرمان.

٤- التعبير بـ ﴿سَيُرَوُّ فِيهَا﴾ مُؤذِنٌ بشدة القرب، حتى كأنهم لم يخرجوا من القرى نفسها.

(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ١٦/٢٨٨).

٥- قَدَّمَ اللَّيَالِي لِأَنَّهَا مَظِنَّةُ الْخَوْفِ؛ وَقَدْ قِيلَ: اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ، أَوْ لِأَنَّهَا سَابِقَةٌ عَلَى الْأَيَّامِ، أَوْ يَكُونُ

التقدير: سَيُرَوُّ فِيهَا آمَنِينَ، وَإِنْ تَطَاوَلَتْ مَدَّةُ سَفَرِكُمْ، وَامْتَدَّتْ لَيَالِي وَأَيَّامًا كَثِيرَةً.

٦- قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بصيغة المبالغة مع اقتران الصبر بالشكر؛ لِأَنَّهُ حِينَ

تَمْتَرُجُ مَرَارَةَ الصَّبْرِ بِحَلَاوَةِ الشُّكْرِ مَعَ حَرَارَةِ الْإِيمَانِ تَتَفَتَّقُ عَنِ بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ، وَفِكْرٍ ثَاقِبٍ، وَعَقْلٍ مُسْتَنِيرٍ يَسْتَنْبِطُ الدَّرُوسَ، وَيَسْتَوْعِبُ الْعِبَرَ.

٧- تعبيد الطرق وتمهيدها واجب شرعي على أولياء أمور المسلمين وأثريائهم. وتلك نعمة عظيمة

تستوجب حمد الله تعالى، وشُكْرَ مَنْ يَقُومُ بِهَا، وَالدُّعَاءَ لَهُ.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٣١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴿٣٢﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾﴾

التفسير:

٢٠- لما أعرض قوم سبأ عن شكر النعم، ونسوا المنعم، وأخذوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع

والم لذات، وقعوا في مصائد الشيطان، فصَدَّقَ عَلَيْهِمْ ظَنَّهُ إِلَّا فَرِيقًا مَّنْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِمْ مِنْ وَسَاوِسِهِ، وَنَجَّاهُمْ مِنْ إِغْوَاثِهِ.

٢١- وما كان له أن يصل إلى بني آدم، لولا أن الله تعالى قَدَّرَ ذَلِكَ فَتَنَةً وَابْتَلَاءً لِلنَّاسِ، فَلَمْ يَقْهَرِهِمْ

إِبْلِيسُ عَلَى الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْهُ الدُّعَاءُ وَالتَّرْزِيقُ، وَإِنَّمَا اتَّبَعُوهُ بِأَهْوَائِهِمْ الْجَاحِمَةَ، بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَدَلِيلٍ. وَحِكْمَةُ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ امْتِحَانُ الْعِبَادِ؛ لِيَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَاللَّهُ يَحْفَظُ الْعِبَادَ، وَيُحْصِي عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، فَيَجَازِيهِمْ بِهَا.

٢٢- قل - يا محمد - للمشركين احتجاجاً عليهم، وتبكيئاً لهم، وتحدياً: ادعُوا آلهتكم التي زعمتم، فهم لا يملكون في هذا الكون مثقال ذرة. والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء، ولا بغيرهم؛ فما هو في حاجة إلى مُعين.

٢٣- ولا تُقَبَلُ الشفاعة، ولا تُجدي عنده، إلا لِمَنْ أذن له وارتضاه، فأما المشركون به فليسوا أهلاً لذلك، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدث شيء من أقدار الله، فإذا سُري عنهم قالوا للملائكة فوقهم: بماذا أمر ربكم؟ فيجيبونهم، قال: القول الحق، وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم، استشعاراً وتعبيراً عن هيئته وإجلاله، فله سبحانه أن يحكم في عبادته بما يشاء، ويفعل ما يريد وهو العليُّ الكبير المنفرد بالعلو والكبرياء.

الفوائد والاستنباطات:

١- كلُّ مَنْ ضلَّ وغوى فقد صدَّق فيه ظنُّ إبليس، حين أقسم بعزته تعالى أن يغويهم، إلا عباد الله المخلصين، كما أخبر ربُّ العزة ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

٢- فتنة إبليس ابتلاءً وامتحاناً للناس؛ ليتبين المؤمن الصادق من الكافر المرتاب، فثبتت الله المؤمن، ويعصمه، ويقع المرتاب في حبال الشيطان، ويقدر إيمان العبد بالله واستعانه به، ويقينه باليوم الآخر بقدر ثباته أمام هذه الفتنة ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ من هنا ندرك مدى أهمية الإيمان باليوم الآخر، وأثره في وقاية الإنسان من مكابد الشيطان، وعصمته من فتنه.

٣- مشهد الملائكة وهم في غاية الهيبة والإجلال لربهم، خاشعين مُذعنين لأمره تعالى مشهد متكرر في الدنيا، كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قَالَ: « إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسَّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا ﴿ فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾... » الحديث. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَشَفَّ النَّعْمَ فَأَنبَتَهُ يَنبَاتَ تِيمِينَ ﴾ [الحجر: ١٨]، برقم ٤٧٠١).

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْتَعْتَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٤- قل لهؤلاء المشركين: مَنْ يرزقكم من خيرات وبركات السموات والأرض. إنه الله وحده، أما الأصنام فإنها لا تملك في هذا الكون مثقال ذرة، وإنا أو إياكم لعلى هدى، أو في ضلال واضح، فالهدى لا يتعدّد.

٢٥- قل للمشركين: لا تسألون عن أعمالنا وجرائمنا، ولا تسأل عن أعمالكم، فكل إنسان محاسب عن نفسه، مسؤول عن عمله، قل لهم: يجمع ربنا بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا بالقول الفصل، والحكم العادل، وهو سبحانه يفصل بين عباده بالحق، وهو العليم بصالحهم وطالحهم، لا يخفى عليه منهم شيء.

٢٧- قل: أطلّعوني وأبصروني آهتكم المزعومة التي ألحقتموها بالله تعالى؛ لأنظر أيّ صفة فيها جعلتها على زعمكم نداءً لله تعالى. بل هو الله تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، صاحب العزة الحكيم في أقداره وأحكامه.

٢٨- وما أرسلناك إلا للناس قاطبة، مبشراً مَنْ أطاع بجزيل الثواب، ومنذراً مَنْ عصى بأليم العقاب، ولكن أكثر الناس لا يدركون حقيقة الرسالة ومهمة الرسول.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٢٤) إخبار مستقبليّ عن رزق الله تعالى لجميع عباده.

٢- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ درسٌ في آداب الجدل والمناظرة، أن يقول الرسول ﷺ للمشركين: إن أحدنا لا بدّ أن يكون على هدى، والآخر لا بدّ أن يكون على ضلال، ثمّ يدعُ تحديد المهتدي منهما والضال؛ ليثير دوافع التدبر ونوازع التفكير في رفقٍ ولطفٍ، بعيداً عن أجواء التعصب والهوى والاستعلاء، وفيه أبلغ ما يدل على الإنصاف والموضوعية، والتجرّد للحق، وابتغائه في رفقٍ ولطفٍ. وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي للدعاة تدبّره، ويعتمد على الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدل.

- ٣- لما كان صاحب الهدى مستعلياً به، مستشرفاً به، كان التعبير بـ (على) في مقابل التعبير بـ (في) للضال المنغمس في ضلاله، الغارق في أوهامه، المحصور فيها.
- ٤- ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ دليل على الرِّفْقِ بالمخالف، والتلطُّفِ معه في الخطاب، وترغيبه، وكَسْبِ وُدِّهِ وعاطفته؛ حتى يُقْبَلَ على الحقِّ، ويُذَعِنَ له، فلا يكابر ولا ينفر من أهل الحق.
- ٥- ذُكِرَ الإِجْرَامُ المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك. وهذا أبلغ في الإنصاف والتأدب في الحوار، وأرجى للقبول.
- ٦- عموم رسالة الإسلام، وسمو مقاصدها، مع جهل الكثيرين بها.
- ٧- في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي بأنَّ الرسولَ ﷺ أُرْسِلَ للناس أجمعين في الماضي والحاضر والمستقبل، أُرْسِلَ إليهم مُبَشِّراً بشواب الله، ومنذراً عقابه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَّضِعَفُوا لِلَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا لِلَّذِينَ أَتَّضِعَفُوا أَنْخُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ أَتَّضِعَفُوا لِلَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْآيِلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾

التفسير:

- ٢٩- يخبر الله تعالى عن سوء أدب الكفار وفرط جهلهم إذ يقولون للرسول ﷺ والمؤمنين: متى وقت مجيء يوم القيامة، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه؟ وهذا الاستفهام سؤال إنكار واستبعاد ومرء.
- ٣٠- قل: لكم أيها الكفار ميعاد لا يتخلف، قدره الله وحدده، فإذا حلَّ بكم فلا مفرَّ منه، ولا سبيل إلى تأخيره وتأجيله، كما لا يمكن تقديمه بأي حال.
- ٣١- وأعلن الكفار إصرارهم على الكفر بالقرآن وما فيه من أنباء، فاندفعوا إلى تكذيب لا مُسَوِّغَ له إلا سحائب الجحود الغائمة، وحُجُبُ الإنكار الكثيفة التي لا تنجلي عنهم، ولا تنقشع عن عقولهم، ولو

ترى مصيرهم وتخاصمهم لرأيت أمراً عظيماً هائلاً، حين يقف الظالمون بين يدي رب العالمين يتراجعون، ويراشقون التُّهَمَ فيما بينهم، ويتطارحون اللُّوم والعتاب، يقول الذين استضعفوا في الدنيا للذين استعلوا فيها، وبطروا الحق، وغمطوا الناس: لولا غَوَايَتِكُمْ لَنَا وَقَهْرُكُمْ لَنَا لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، فقد كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً وَعَوْناً.

٣٢- وهنا يستنكر المستكبرون بقولهم: أنحن صرَّفْنَاكُمْ عن اتباع الهدى بعد إذ جاءكم واضحاً جلياً، بل اخترتم أنتم طريق الإجرام بإرادتكم، من أجل مصالحكم، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، فقد جاءكم الهدى، فما الذي صرفكم عنه أيها المجرمون؟ هل أَرْغَمْنَاكُمْ على اتِّباعنا؟ أو إنه الإجرامُ يَسْرِي في دمائكم، والتبعيةُ تَحْمِلُكُمْ على الانصياع لنا، وممَّالَاتْنَا.

٣٣- أجاوبهم بكل ما لديهم من حسرةٍ وحُرْقَةٍ: أَنَسِيتُمْ عَمَلَكُمْ الدَّائِبَ، وكيدكم المتواصل، وتأمركم على الحق وأهله، وصدِّكم الدائم، وأوامركم الصريحة، ودعواتكم المتواصلة كي نكون وَفَقَ ما أنتم عليه؟ ولما رأوا عذاب النار كتموا الحسرة، وتمنَّوا لو سلكوا طريق الحق. وجعلنا الأغلال تُطَوَّقُ أعناق الذين آثروا الكفر وماتوا عليه، إمعاناً في إذلالهم، ونكالاً بهم، وجزاء عادلاً لظلمهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- ضرورة تذكير الكافر ومواجهته بمصيره الذي ينتظره إن بقي على كفره.

٢- يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ عنيفةٍ وحواراتٍ صريحةٍ بين الأتباعِ والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، يتبادلون فيها اللوم والعتاب، ويراشقون التُّهَمَ، ويسعى كلُّ فريقٍ إلى النجاة ولو على حسابِ الآخر، وينكشف لكلِّ فريقٍ حقيقةُ الآخر، وتُفَضَّحُ النِّيَّاتِ، ويظهر المستور، وتتهاوى العلاقات الهشَّة، والمودة الزائفة.

٣- إسناد المكر لليل والنهار يَدُلُّ على استغراقه لكل الأوقات، ودأبهم وهمتهم في نشر الكفر. والتعبير بالمضارع ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾؛ لاستحضار صورتهم وهيئتهم حال يُلقون عليهم الأوامر، كما يفيد الاستمرار.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ
 أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
 جِزَاءٌ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي
 الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن
 شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣٤-٣٧- وما أرسلنا في قرية من رسول ينذر قومه إلا بادر المترفون بالتكذيب، وأعلنوا كفرهم وإعراضهم، واستبعدوا العذاب متعللين بكثرة المال والولد، واهمين أن ذلك سبب للنجاة! وهذا منطق عجيب، فأجبههم يا محمد: بأن بسط الرزق وتضييقه من شأن الله تعالى، ولكن كثيراً منهم يجهلون هذه الحقائق، فليس بسطة الرزق وتضييقه دليلاً على ما زعمتم، وليست الأموال والأولاد هي التي تقرب إلى الله وتؤدي منه، إلا لمن آمن وعمل صالحاً، وجعل المال والولد وسيلة لرضا الله تعالى، فأولئك لهم جزاء مضاعف بسبب إيمانهم وصلاتهم وقيامهم بحقوق المال والولد. وهم في درجات الرضوان في أعالي قصور الجنة، مُتَعَمِّون مُعَافَوْنَ من كل آفة.

٣٨- أما الذين يسعون في آيات الله، للتكذيب بها، وتعجيز من آمن بها ودعا إليها، واهمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم؛ فهؤلاء البعداء المحرومون محبوسون، مُعَذَّبُونَ في جهنم.

٣٩- قل لهم يا محمد: إن ربي يفتح أبواب الرزق لمن يشاء من عباده، ويمسك عن من يشاء، لحكم عظيمة، وما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة في أي باب من أبواب الخير، فإن الله تعالى يُخْلِفُ على المنفق، وهو خير من يُوسِّعُ على عباده ويرزقهم، فاطلبوا الرزق منه، والتمسوا أسبابه، وأنفقوا يُنْفِقُ عليكم.

الفوائد والاستنباطات:

١- المال ليس له قيمة في ذاته، وليس عصمة ووقاية لصاحبه، وليس دليلاً على قربيه من الخالق الرازق ﷻ، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة.

٢- الإتيان باسم الفاعل ﴿مُتْرَفُوهَا﴾ لبيان انغماسهم بالترف، حتى صار وصفاً ملازماً لهم.

٣- الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق، ومن معاول هدم الأمم وإبادة الشعوب، ومن شأن المترفين الركون إلى الدنيا وملذاتها، والصدود عن الحق، والاعتزاز بالأمانى الكاذبة، والتفاخر بالمال والولد.

٤- في الآية (٣٦) إخبار مستقبلي أن الله ﷻ وحده يوسع الرزق في الدنيا لمن يشاء من عباده، ويضيّق على من يشاء، في الماضي والحاضر والمستقبل.

٥- الحث على البذل والإنفاق، فالله تعالى يخلف على المنفق، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسْكًا تَلْفًا». (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى...﴾ [الليل: ٥ - ١٠]).

٦- خصّ المترفين بالذكر؛ لأنهم غالباً أول المكذبين للرسول عليهم السلام؛ لما انشغلوا به من زخارف الدنيا وبهارجها.

٧- في الآية (٣٩) إخبار مستقبلي أن الله ﷻ وحده يعوّض المنفق ما أنفقه امتثالاً لأمره وطلباً لرضائه، وذلك في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهُوا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ ؕ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آيَاتُنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آيَاتُنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٠- واذكر يوم يحشُرُ الله تعالى المشركين ومعبوداتهم، ثم يقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟ وهذا الاستفهام يتضمن توبيخاً وإنكاراً على المشركين.

٤١ - فأجابوا مُعْظَمِينَ لله: تنزيهاً وتقديساً لك ربنا، نبأ من صنيع المشركين، إذ كيف يعبدوننا وأنت مالكنا ومُدَبِّرُ أمورنا! ونحن ما دعوناهم لعبادتنا، بل فعلوا ذلك استجابةً وطاعةً لشياطين الجن الذين زَيَّنُوا لهم ذلك، فَصَدَّقَ أكثرُهم بهم، وسَلَّمُوا لهم.

٤٢ - فإذا لم تَبَقْ لكم حجةٌ ولا عذرٌ فقد خاب رجاؤكم، وانقطع أملكم، فلا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرراً، كما كان استمتاع الإنس والجن بعضهم ببعض، ونقول توبيخاً: ذوقوا عذاب النار التي طالما كذبتُم بها في الدنيا، وبقيتم على تكذيبكم.

٤٣ - وإذا تتلى عليهم آياتنا الشاهدة لنا بالوحدانية ولنبينا بالرسالة، مع وضوحها وجلالتها، قالوا مُكذِّبِينَ مُغْرِضِينَ: ما هذا إلا رجل يسعى إلى صَرْفِكُمْ عن عبادة الآباء، وقالوا: ما هذا إلا كذبٌ، وقال الذين اختاروا الكفر، وَيَقُولُوا عليه: ما هذا إلا سحر واضحٌ.

٤٤ - وما آتيناهم قبل هذا الكتاب الذي نزل فيهم من كتب يتدارسونها، وما أرسلنا إليهم قبلك يا محمد من نذير يذكرهم، فكان خَرِيئاً بهم أن يُقْبِلُوا على هذا الكتاب، ويتمسكوا به، ويستجيبوا لهذا النذير الذي جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، بدلاً من التكذيب والافتراء الذي لا أصل له.

٤٥ - وكذَّبَ الذين كانوا من قبلهم من الأمم الهالكة، والقرون الغابرة، فما بلغ كَفَّارُ قريش من الرفاهية والترف معشار ما بلغت تلك الأمم التي آتاها الله نِعْماً وفيرة، ومكَّن لهم ما لم يُمَكِّنْ لغيرهم، فما أغنت عنهم النعمُ حين كذَّبوا رسلَ الله. فانظر كيف كان عذابي لهم وإنكاري عليهم، وتبديلي نِعْمي عليهم بالنقم؟ فليَحْذَرْ هؤلاء الكفرة من مصير أسلافهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ ومساجلاتٍ مباشرة بين الأتباع والمتبوعين، وبين المشركين ومَنْ أشركوهم مع الله.

٢ - لا تبقى للمشركين حُجَّةٌ يتعلَّلون بها، بل يستيقنون من ضلالهم، ويعاينون العذاب الذي طالما استبعدوه، وكذَّبوا به.

٣ - الإتيان بالاسم الظاهر في موضع الإضمار ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾؛ لبيان سبب هذه المقولات الكاذبة وهي بقاؤهم على الكفر، وإصرارهم عليه.

٤ - بيان أثر التقليد الأعمى لِمَا كان عليه الآباء والأجداد، في الصدود عن دعوة الحق.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَجْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ نَنفَكُوا مَا يُصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُثُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ءَمِنَ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٤٦ - قل لهم يا محمد: إنما أقدم لكم هذه الموعدة البليغة، وأدعوكم إلى هذه النظرة الصائبة الموقفة: أن تقوموا لله تعالى بإخلاص وتجرد، مجاور كل واحد صاحبه الذي يثق في صدقه ونصحه، وينظران معاً نظراً الصدق والإنصاف، أو يراجع كل فرد نفسه، فيتفكر ويتأمل بعدل، ويعزم عزمًا خالصاً على ابتغاء الحق، فإن من ينشد الحق بعزم وصدق يوفق إليه، ثم تتفكروا فيما بينكم في أمر صاحبكم - أي الرسول محمد ﷺ -، هل صحيح ما تدعونه به من جنون، فإن تجردتم للحق أدركتم أنه ليس كما زعمتم، وما هو إلا نذير لكم من العذاب الأليم الذي يستحقه المكذبون.

٤٧ - قل لهم يا محمد: لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً في مقابل دعوتي إليكم، فخذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم! لا أرتقب إلا ثواب الله، ولا أبتغي إلا رضاه، وهو عالم بجميع الأمور، شاهدٌ عليها، مُطلع عليّ، يعلم نيتي ومقصودي.

٤٨ - قل: إن ربّي يقذف بالحق، فتلقاه القلوب السليمة ويستقرّ فيها، ويُلقيه إلى أنبيائه، ويَهدي إليه كل من ينشده ويتحرّاه، وهو تعالى الذي أحاط علماً بكل أمور الغيب، فلا تخفى عليه خافية.

٤٩ - قل: جاء الحق، ولاحت أعلامه، وتجلّت حججه، وقامت دلائله، أما الباطل فقد تمزقت حُجُبُه، وتلاشت شبهاته، وتبددت ظلماته، فلم تعد له صولة ولا جولة، فهو زاهق، لا يُقيم حقيقة ولا يؤكد لها، بل يذهب بلا أثر له، فلا يلتفت إليه، ولا يُؤبّه به.

٥٠ - قل لهم يا محمد: إن ضللتُ فإثم الضلال على نفسي لا يتحمّله غيري، وإن اهتديت فما كنت لأهتدي إلا بهداية الله لي عن طريق الوحي. إنه سميع لكل صوت، ومجيب لكل من دعاه، وقريب من عباده بعلمه وقدرته ورعايته.

٥١- ولو ترى هذا الموقف المهيب حين يروعهم الفزع، ويغشاهم الهول، ويستبدُّ بهم الرعب، ويحاطُّ بهم من كل جهة، وفي كلِّ موقفٍ عند الموت، وعند دخول القبر، وسؤال الملكين، ويوم الفزع الأكبر، أهوالٍ عظامٍ تتربِّص بهم، فلا مفرَّ منها ولا مهرب، وأخذوا بغتةً، ونزِعُوا انتزاعاً من الموقف إلى جهنم.

٥٢- وقالوا: صدَّقنا بهذا النبيِّ وبما وعد به من البعث. وأتَى لهم ذلك وقد انصرم الزمان، وفات الأوان، وانطوت الصحائف، وانقضت الدنيا فلا مردَّ إليها، فلا يُسمَعُ لهم دعاء، ولا يُرَحَمُ لهم بكاء، كيف لهم أن يتعاطوا الإيمان من بُعد! يعني في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وأتَى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا!

٥٣- وأتَى لهم أن يُقبل إيمانهم، وقد كفروا به من قبل، وألقوا الشُّبه والأباطيل، ورَمَوْه بالظنون والأوهام في كِبَرٍ واستعلاءٍ ومجاهرة.

٥٤- وحيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وترفيها، كما حيل بينهم وبين نعيم الجنة وملذاتها، وحيل بينهم وبين الإيمان. إنهم كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يُتَقَبَّلْ منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تَضَمَّنَت الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ وَقُرْدَىٰ﴾ الأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر.
- ٢- تفيد (ثم) الترتيب والتراخي الزمني، أي: تتفكروا بعد أن تعقدوا العزم، وتخلصوا النية، وتتجددوا للحقيقة بقيامكم لله تعالى.
- ٣- وصف الرسول ﷺ بصاحبكم للإيماء إلى أَنَّ حاله ﷺ مشهورٌ بينهم، لأنَّه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا. وفي هذا تعريضٌ بتجاهلهم، وتنكيرهم له.
- ٤- الداعية يرتقب الأجر من الله تعالى على دعوته، ويراقب الله تعالى في أداء هذه الرسالة الخالدة.
- ٥- الهداية تأتي في لحظة واحدة، وقذائف الحق لا تسري إلا للقلوب التي تتلَهَّفُ عليها، وتشوق إليها، والتعبير بـ ﴿يَقْدِفُ بِالْحَقِّ﴾ يفيد قوة الحق، وسرعة وصوله للقلوب.
- ٦- الباطل إن تقادم به الزمان لا يزيد إلا زهوفاً، والحق على مرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.
- ٧- تَذَكَّرُ أحوال الآخرة، ومواقفها العظيمة، ومشاهدها المهيبه، مما يُسَلِّي الدعاء، ويخفِّف عنهم، ويهَوِّن عليهم ما يواجهونه من مصاعب وعقبات.
- ٨- الشك والارتياب في حقائق الدين يورث الحرمان من خير الدنيا والآخرة.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقريرُ أركان العقيدة، وبيان أصولها، ورَدُّ شبه الكفار.
- ٢ - الحديث عن خلق الإنسان، والغاية من خَلْقِهِ ومصيره الذي ينتظره.
- ٣ - تسلية النبي ﷺ، وتسرية فؤاده ممَّا لحق به من أذى الكفار، وتكذيبهم.
- ٤ - بيان فضائل حملة القرآن الكريم ومراتبهم وثوابهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٍ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - الحمد لله تعالى مبدع السموات والأرض، ومبديها من غير أن يسبقها مثال، مع ما بثَّ فيها من مشاهد الجمال وآيات الجلال، وله الحمد على أن جعلَ الملائكة الكرام البررة رسلاً موكِّلين بمهام، وجعلهم متفاوتين في الرُّتَبِ، فمنهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة أو أكثر، ومن شأنه تعالى أن يزيد في الخلق ما يشاء.

٢ - يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أن ما يفتحه على عباده من رحمات، لا يقدر أحدٌ على إمساكها وحبسها، وما يمسك منها فلا يقدر أحدٌ على إرسالها، فخرائن الرحمت بيده يجود بها على من يشاء من عباده، وهو العزيزُ الغالبُ فلا يمتنعُ عليه شيء، والحكيمُ في تصريفه وتدبيره وتقديره.

٣ - يُذَكِّرُ اللهُ الناس جميعاً بنعمه عليهم وواجبِ ذكْرها وشكرها، فلا خالق غيره ولا رازق سواه، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فكيف تُصرفون عن الحقِّ مع جلالاته ووضوحه؟

٤ - وإن يكذبوك فيما جئت به فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك، فتكذيبهم لا مُسَوِّغَ له، وشأنهم شأنُ مَنْ سبقهم من المكذبين، وإلى الله مرجعهم ومصيرهم.

٥ - ينادي اللهُ على الناس جميعاً يُذَكِّرهم بحقيقة وعده، وأنه كائن لا محالة، فأمنوا به، واستعدُّوا له، ولا تُغُرَّنكم زخارفُ الدنيا ومباهجها، ولا يَغُرَّنكم الشيطانُ بوعوده الكاذبة، وأمانيه الباطلة، وتزيينه الخادع.

٦ - حَقًّا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ؛ فَعَادُوهُ كَمَا يَعَادِيكُمْ وَذَلِكَ يُبْغِضُهُ وَمَخَالَفَتُهُ وَعَصْيَانُهُ، وَالْحَذَرُ مِنْ مَكَائِدِهِ، وَالْيَقِظَةُ؛ لِثَلَا تَقْعُوا فِي مَصَائِدِهِ، فَلَا غَرَضَ لَهُ وَلَا غَايَةَ إِلَّا أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَنْ مَالَ إِلَيْهِ، وَسَارَ فِي فَلَكِهِ، وَتَحَزَّبَ لَهُ، وَانْجَرَّ لِحَبَائِلِهِ؛ لِيَكُونَ مِنَ الْمَاكُثِينَ فِي نَارٍ تَتَأَجَّجُ بِأَهْلِهَا، وَتُسَعَّرُ بِهِمْ.

٧ - الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ شَدِيدٌ، وَالَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمَةٌ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ.

٨ - أَفَمَنْ رَزَىٰ لَهُ الشَّيْطَانُ عَمَلَهُ الْقَبِيحَ، فَرَأَاهُ حَسَنًا كَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ؟ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنِ الْحَقِّ وَيُوقِفُ مَنْ يَشَاءُ لَهُ، فَالْهُدَايَةُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهَا، وَرَامَ أَسْبَابَهَا، وَرَغِبَ فِيهَا بِصَدَقِ وَهْمَةٍ، فَلَا تُهْلِكُ - أَيُّهَا النَّبِيُّ - نَفْسَكَ حَزَنًا بَعْدَ حَزْنٍ، وَهَمًّا إِثْرَ هَمٍّ، عَلَى مَنْ اخْتَارُوا طَرِيقَ الضَّلَالِ. وَاللَّهُ تَعَالَىٰ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ ضَمَائِرِهِمْ، وَمَجَازِيهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فِي اسْتِفْتَاكِ السُّورَةِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ تَنْوِيهٌ وَتَنْبِيهٌُ عَلَىٰ فَضَائِلِ الْحَمْدِ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْحَمْدِ، بِالْمَصْدَرِ أَوْ بِلُغَةِ وَأَعْمٌ مِنْ قَوْلِهِ: أَحْمَدُوا اللَّهَ، بِالْأَمْرِ، وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لَامُ الْجِنْسِ أَوْ الْاسْتِفْرَاقِ، فَالْحَمْدُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالْمَحَامِدُ كُلُّهَا لَهُ تَعَالَىٰ.

٢ - فِي الْآيَةِ (٢) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ بِأَنَّ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رِزْقٍ وَمَطَرٍ وَصَحَّةٍ وَعِلْمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ، فَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَمْسُكَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ، وَمَا يَمْسُكَ مِنْهَا فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْسُلَهَا بَعْدَهُ.

٣ - لَفَتْ الْأَنْظَارُ إِلَىٰ عَالَمِ الْمَلَائِكَةِ، هَذَا الْعَالَمِ النُّورَانِيِّ الَّذِي جُوبِلَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ، وَمَحَبَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي الرَّتَبِ. وَالْإِيمَانُ بِهِمْ رُكْنٌ، وَمَحَبَّتُهُمْ فَرَضٌ.

٤ - الزِّيَادَةُ فِي الْخَلْقِ عَامَةٌ وَشَامِلَةٌ، مِنْهَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمَثَالِ: الْخَلْقُ الْحَسَنُ، وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ، وَالصَّوْتُ الْحَسَنُ.

٥ - الدَّعْوَةُ لِلتَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِيهَا حَوَاهِذَا الْكَوْنِ الرَّحِيبِ مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ كِبَالِ الْقُدْرَةِ، فَبَقْدَرِ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ وَتَعَمُّقِهِ يَزِيدُ تَدْوُقَهُ لِهَذَا الْجَمَالِ الْكُونِيِّ الْبَاهِرِ الَّذِي يَتَجَلَّى حَتَّىٰ يَرَاهُ الْجَمِيعُ، وَيَدُقُّ وَيَلْطَفُ، فَلَا يَكْتَشِفُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الْمَدْقُقُونَ.

٦ - خَزَائِنُ الرَّحْمَاتِ بِيدِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ، يَجُودُ بِهَا عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، «وَعَبَّرَ عَنِ إِرسَالِهَا بِالْفَتْحِ إِيدَانًا بِأَنَّهَا أَنْفَسُ الْخَزَائِنِ الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ، وَأَعَزُّهَا مَنَالًا». (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٤/ ٣٦٠).

- ٧- تسلية النبي ﷺ وتعزيتته بمن سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وما سجّلوه من صحائف مضيئة بالصبر، والصمود في مواجهة تكذيب أقوامهم وإعراضهم.
- ٨- في الآية (٦) إخبار مستقبليّ بأنّ الشيطان كان - وما يزال - وسيبقى عدوّاً لبني آدم، يدعوهم إلى الضلال.
- ٩- في الآية (٧) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ١٠- التحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الشيطان، وبيان معاداته للإنسان، والدعوة لأخذ الحذر من الوقوع في مكائده، والتسلّح بالإيمان والعمل الصالح.
- ١١- وجوب عداوة من عادانا في الدين، والشيطان هو العدو الأول.
- ١٢- من أسباب الصدود والإعراض: الاغترارُ بالباطلِ وزخارفه، والانبهار بطلائه الزائف، والعُجب والغرور، واعتلال النفس، وإهمال النظر.
- ١٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ فيه أبلغ الدلالة على حُبّه لقومه، وحرصه على هدايتهم.
- ١٤- في الآية (٨) إخبار مستقبليّ بأنّ الله ﷻ يُضِلُّ مَنْ يشاء من عباده، ويهدي مَنْ يشاء. وفيها إخبار مستقبليّ آخر، وهو أنّ الله عليم بقبائح الضالين.

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدْرٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾
 ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
 يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
 جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي
 كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
 وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَهُ تَلْبَسُونَهَا وَنَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِنَبْنَعُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَالْعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ الْبَلَّ فِي النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
 وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
 مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
 الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

التفسير:

٩ - ومن شواهد الوجدانية ودلائل العظمة: أنه تعالى الذي أرسل الرياح وصرَّفها، لتلقَّح السحاب. فسُقْنَاهُ إلى بلدة قاحلة، فأنزَلناه، وأحْيينا به الأرض بعد جَدْبِهَا وَقَحْطِهَا، كذلك إحياء الله للأموات وبعثهم.

١٠ - مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ، ويطلبها، فليطلبها من الله ﷻ بطاعته وموالاته، فلله العزَّةُ جميعاً، ليس لغيره منها شيء، إليه تعالى يَرْقَى الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والكلم الطيب يرقى بالعمل الصالح، فكلاهما ينهض بالآخر ويكمله. والذين يسعون ويحتالون في تحصيل العزَّة الواهمة والزعامة الكاذبة بالسيئات من الأعمال، فيجعلونها مطيِّبَةً، ويجهلون في إخفائها، مثل الماكر الذي يدبر الأمر في خفية، ويظهر خلاف ما يُضمِّره، شأنهم كالذي يغرس في أرضٍ جَدْبَةٌ لَا تُنْبِتُ زرعاً، كذلك أعمالهم وكيدهم إلى جَدْبٍ، وسبيلهم إلى المذلة والانكسار.

١١ - وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، منه خلق أبائكم آدم، ومنه خَلَقُ الغداء الذي هو عماد الإنسان، ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً ذكوراً وإناثاً، وما من أنثى تحمل وتضع، إلا بعلمه تعالى ولطفه وتدبيره. وما يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ بطول الأجل، وما ينقص من عُمرٍ مخلوقٍ بِقَصْرِ أَجَلِهِ، إلا في كتاب قَدَّرَ اللهُ تعالى فيه هذه الآجال. إِنَّ كُلَّ مَا مَرَّ بِسَيْرٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

١٢ - وَيَبْرَأُ تَعَالَى أَنْ الْبَحْرَيْنِ لَا يَسْتَوِيَانِ إِنْ التَّقْيَا، فِهَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٍ، وَلِكُلِّ بَحْرٍ مَكُونَاتِهِ وَخَصَائِصُهُ وَمَنَافِعُهُ، فَلَا يَسْتَوِيَانِ فِي التَّرْكِيبِ، وَلَا فِي الْكثَافَةِ، وَلَا فِيهَا يَحْوِيَانِهِ مِنْ كَائِنَاتٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَبَايُنٍ بَيْنَهُمَا، تَتَجَلَّى مِنْ خِلَالِهِ عِظَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَمَالُ إِعْزَامِهِ عَلَى النَّاسِ، وَإِنْ اجْتَمَعَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَمِنْهُمَا نَسْتَخْرِجُ اللَّحْمَ الطَّرِيَّ، الْأَسْمَاكَ وَالْحَيَوَانَاتِ الْبَحْرِيَّةَ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَالْحَلِيَّةَ مِنَ اللَّوْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ، كَذَلِكَ مِنْ مَنَافِعِ عَالَمِ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ تَحْمُلُ السَّفِينَ الْمَحْمَلَةَ بِالْخَيْرَاتِ وَالْمَنَافِعِ، وَتَقْلُهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَتَقْلُ النَّاسَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ وَتَيْسِيرِهِ؛ كَمَا تَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النُّعْمِ.

١٣ - يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُدْخِلُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، فَتَارَةٌ يَطْوِلُ النَّهَارُ وَتَارَةٌ يَقْصُرُ، وَتَارَةٌ يَطْوِلُ اللَّيْلُ وَتَارَةٌ يَقْصُرُ، وَفِي هَذَا التَّنَوُّعِ مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَجْرِيَانِ بِحِسَابِ دَقِيقٍ وَتَقْدِيرٍ مُحْكَمٍ، فَلَا يَتَوَقَّفَانِ، وَلَا يَعْتَرِبُهُمَا تَغْيِيرٌ، فَأَيْنَ تِلْكَ الْآلِهَةُ الْمَرْعُومَةُ الَّتِي لَا تَمْلِكُ شَيْئاً وَلَوْ يَسِيراً كَالْقَطْمِيرِ، وَهُوَ الْقَشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي بَيْنَ التَّمْرَةِ وَالنَّوَاةِ؟

١٤ - إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ، كَيْفَ وَهُنَّ أَصْنَامٌ لَا تَسْمَعُ؟ وَلَوْ قُدِّرَ لَهَا السَّمْعُ، فَآتَى لَهَا أَنْ تَجِيبَ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنطِقُ اللَّهُ تِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ؛ لِتَشْهَدَ عَلَى مَنْ عْبَدَهَا بِالْكَفْرِ، وَتَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الشَّرْكِ، وَلَا يَجْزِيكَ بِالْأَمْرِ مَخْبَرٌ مِثْلَ خَيْرِ عَالَمٍ بِهِ، لِأَنِّي خَيْرٌ بِمَا أَخْبَرْتُ بِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إِنَّ كُلَّ مَا يَأْتِينَا مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ إِلَى الْأَرْضِ يَنْشَأُ مِنْ إِثَارَةِ هَذِهِ الرِّيَاحِ لِلْبَحَارِ وَالْمَحِيطَاتِ الْمَالِحَةِ عِنْدَمَا تَنْزِعُ عَنْهَا طَبَقَةُ الْهَوَاءِ الْمَتَشَبِعَةِ بِبَخَارِهَا وَالْمُتَزَنَةِ بِدَرَجَةِ مَحْدَدَةٍ مِنَ التَّشْبِيعِ، فَتَأْتِي الرِّيَاحُ بِهَوَاءٍ جَافٍ مُتَجَدِّدٍ لِتَثِيرِ الْبَحَارِ كَمَا تَطْلُقُ كَمَا آخَرَ مِنْ بَخَارٍ عَذْبٍ يَصْنَعُ السَّحَابَ. (الإعجاز العلمي في قوله تعالى: تُثِيرُ سَحَاباً، مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٨).

٢ - تقرير البعث بدليل حسيٍّ مشاهدٍ، وهو نزول المطر، وإنبات الأرض، ودورة الحياة.

٣ - تنبيهٌ وتوجيهٌ لذوي الأقدارِ والهَمَمِ إِلَى طَرِيقِ الْعِزَّةِ، وَسَبِيلِ نَيْلِهَا.

٤ - فِي الْآيَةِ (١٠) وَقَفَ نَبِيُّ، وَيَنْظُرُ: تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّسَاءِ الْآيَةِ (١٧٣)، وَسُورَةِ الْأَنْعَامِ الْآيَةِ (٦٥).

٥ - فِي الْآيَةِ (١٠) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ مَكْرِ الْفَاسِقِينَ أَنَّهُ زَائِلٌ.

٦ - فِي الْآيَةِ (١١) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ عِلْمِ اللَّهِ الْمَطْلُوقِ، فَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ، فَيَطْوِلُ عَمْرَهُ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابِ عِنْدِهِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

٧ - تَحْذِيرٌ أَهْلَ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ الَّذِينَ يُضْمِرُونَ مَا لَا يُظْهِرُونَ، وَيَحْتَالُونَ لِارْتِكَابِ الْخَطَايَا.

- ٨- الالتفات للمتكلم في قوله تعالى: ﴿فَسَقَنَهُ﴾ وفيه تنبيه للمخاطب، واعتناء ولفظ من الله تعالى بخلقه، وتعظيم لذاته سبحانه، والتعبير بالفعل المضارع ﴿فَتَثِيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الأذهان، وجعلها ماثلة للعيان، دعوة للتأمل والتفكير في هذه الآية العجيبة.
- ٩- التعمير يكون بطول الأجل ومدّ الأعوام؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق لصالح الأعمال، وكذلك يكون نقص العمر بقصره؛ أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث، وتبديده في الكسل والفراغ.
- ١٠- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنْ مَّا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنَ الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

- ١٥- ينادي الله عباده ممتناً عليهم: أنتم الفقراء إلى الله تعالى في دقائق أموركم وجليلها، وعظيمها وهيئها، وعسيرها ويسيرها، والله وحده هو الغني الحميد، النافع بغناه خلقه، والجواد المنعم عليهم.
- ١٦-١٧- لو شاء لاستبدل بكم غيركم، فهو الغني عنكم، لا يفتقر إليكم. وما ذلك على الله تعالى بممتنع ولا عسير، فهو القادر على كل شيء.
- ١٨- ولا تحمل نفس أئمة إثم نفس أخرى، ولا يستتبع ذنب ذنباً غيره، وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها؟ إنما ينتفع بالنذر ويمثل لها الذين يخشون ربهم وإن لم يروه، ويخشونه في الخلوات بعيداً عن أعين الناس، وأقاموا الصلاة كما أمر الله. ومن تطهر من أدران الشرك، وأدناس المعاصي، وارتقى

لمكارم الأخلاق، فإنما تزكيتَه لنفسه تنفعه في دنياه، وتُنَجِّيه في آخراه. والله تعالى لا تنفعه طاعةُ الطائعين، ولا تُضُرُّه معصيةُ العاصين، والمرجع والمآب إليه تعالى، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

١٩-٢٢- هذا مَثَلٌ للكافر والمؤمن، أو للجاهل والعالم، أنَّهما لا يستويان أبداً، وهل يستوي مَنْ تعامى عن الحق وأعرض عنه، بِمَنْ أبصر الحق واستضاء به؟ وهل تستوي ظلمات الكفر والضلال مع نور الإيمان والهدى؟ وهل يستوي الظلُّ الذي يستروحُ إليه الإنسان ويَقِيلُ، ويتقي به وَهَجَ الشمس، وهيب الحرِّ، بالحرورِ الذي لا يتحمَّله ولا يطيقه؟ ولا يستوي الأحياء ولا الأموات، وَمَنْ شرح الله صدره للإسلام، وَمَنْ أقام على الكفر والضلال. إن الله يُسمع مَنْ يشاء إسماعه، وما أنت بِمُسمِعِ الأموات، وأنِّي لهم أن يسمعوا وقد قُبِرُوا وهم أحياء في غِيَابِ الشريك، ولُحُودِ الضلال!!

٢٣- ٢٤- ما أنت - يا محمد - إلا نذيرٌ، وقد أرسلناك بالحق داعياً وهادياً ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار. وليس ثمة أمةٌ إلا أَرْسَلْنَا إليها مَنْ يُنذرها.

٢٥- ٢٦- وإن يُصِرُّوا على تكذيبك، فالتكذيبُ ذَبْدُنُ أهل الكفر والضلال، ودأبهم، كما فَعَلَ مَنْ سبقهم مع ما جاءتهم به الرسل من الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات، وبالكتب المنزلة من عند الله، فانظر كيف كان جزاء الكافرين وعاقبتهم، أَخَذَهُمْ أَخْذاً شديداً، وجعلهم عِبْرَةً لكلِّ معتبرٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- التكذيب دأب الكفار على مَرِّ الزمان، وعاقبته وخيمةٌ.
- ٢- بلاغة اقتران الحميد بالغني، إذ ليس كل غني نافعاً بغناه، إلا إذا كان جواداً مُنْعِماً، وإذا جاد وأنعم حَمِدَهُ المنعمُ عليهم. والله تعالى هو المُنْعِمُ على عباده بما لا يحصى، ولا يُعَدُّ.
- ٣- جَمَعَ الظلمات، وأفرد النور؛ لأنَّ نور الحق وطريق الهدى واحد، أمَّا طرق الضلال وسبل الظلمات فإنَّها كثيرة متشعبة.

- ٤- من رحمته تعالى وعدله أنه لا يؤاخِذُ أحداً بجريرة غيره، ولا يُحْمَلُ أحداً وِزْرَ أحدٍ.
- ٥- لا ينتفع بالإنذار، ويُرْعَوِي له إلا أهل الخشية والطاعة يَمُنُّ أحياء الله قلوبهم، وأنار بصائرهم.
- ٦- بيان مهمة النبي ﷺ وهي التذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أنه لم تَحُلْ أمةٌ من الأمم السابقة من نذيرٍ.
- ٧- دَلَّتْ (ثم) على التراخي الزمني، فإله تعالى لم يُعَجِّلْ لهم العقوبة، بل أمهلهم حتى تُقَامَ عليهم الحجة، ومَدَّ لهم حتى لا يبقى لهم عذر.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ
 وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
 كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمُ
 أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
 هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
 مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ
 الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٢٨- ألم تنظر إلى السماء حين تنهمر بالمطار، فتنبت الأرض بالنباتات والأشجار، وتتفتح الثمار
 من أكمالها بألوانها البديعة، من الذي أبدع هذا الجمال، وصبغ هذه الألوان؟ ألم تنظر للجبال وطرائقها
 الموشاة بألوانها البديعة، فمنها الأبيض ومنها الأحمر، باختلاف درجات اللون، ومنها الأسود الشديد
 السواد، وكذلك من الناس والدواب والأنعام مختلفة ألوانهم؟ إنما يخشى الله حق خشيته العلماء العارفون
 به؛ المدققون في آياته الكونية، الواقفون على بدائع المخلوقات وعجائب الكائنات. إن الله لا يمتنع عليه
 شيء، وهو المعز لأوليائه، الغفور لعباده.

٢٩-٣٠- إن الذين يواظبون على قراءة القرآن والعمل به ويحافظون على الصلاة بأوقاتها وفرائضها،
 وينفقون من أموالهم في وجوه الخير، يبتغون الخير في تجارتهم الرابحة مع الله؛ ليحقق لهم ما يبتغون،
 ويبلغهم ما يأملون، ويضاعف لهم، فهو تعالى غفور يغفر لهم الذنوب والتقصير، شكور يشكر سعيهم،
 فيثيبهم الثواب الجزيل على العمل اليسير.

٣١- والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق كما شهدت بذلك الآيات والدلائل، وهو المصدق لما
 بين يديه، من بشارات ونبوءات.

٣٢- ثم أورثنا أعظم كتبنا لمن اخترناه من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه بلغ حد التقصير، خلط
 الصالحات بالسيئات، ومنهم مقتصد يكتفي بترك المحرمات، وفعل الواجبات، ومنهم سابق بالخيرات،
 وهم أصحاب الهمة العالية، والنفوس المطمئنة، والأرواح الوثابة إلى كل فضيلة، فذلك هو الفضل
 الكبير، والشرف العظيم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ينظر: صور ألوان الجبال، كما في الملحق.
- ٢ - الدعوة إلى النظر والتأمل في جمال الكون، وما يجويه من إبداع عجيب ونسق فريد وتمازج دقيق في الألوان، يشهد بعظمة الخالق جلّ وعلا، وبديع صنعه.
- ٣ - في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي عن حال العلماء في الخشية مع الله، فهم الذين يخشون الله، ويتقون عقابه بطاعته، واجتناب معصيته، فهم أعلم الناس به سبحانه وبصفاته وبشرعه، وقدرته على كل شيء.
- ٤ - حصر خشية الله في العلماء؛ لأنّ الخشية إنما تصدر عن عِلْمٍ بجلال الله وعظمته، وكلّما كانت المعرفة بالله أتمّ، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم.
- ٥ - الصلة بين العلم والخشية، فالعلم يُفْضِي للخشية، وبقدْرِ العلم تكون الخشية. وفي هذا المعنى يقول نبينا ﷺ: «... أَنَا أَتَقَاكُمْ لِهِنَّ وَأَعْلَمُكُمْ بِحُدُودِ اللَّهِ» (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله». وأن المعرفة فعل القلب برقم ٢٠).
- ٦ - الالتفات في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من الغيبة إلى التكلم تنبيه، وَلَفَتْ هذه الآية العجيبة.
- ٧ - أورد الله تعالى أعظم كتبه لِمَنْ اصطفاه، واختاره لِحَمَلِ هذه الأمانة، وتَيْلِ هذه المكانة، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ مسنداً لنون العظمة تعظيماً لشأن هذا الميراث، وليبان أنّ هذه النعمة هي بتوفيق الله تعالى خالصة منه تعالى.
- ٨ - قَدَّمَ السِّرَّ على العلانية؛ لأنّها هي الأصل لما فيها من سِتْرٍ على الفقير، وصيانة له، وبُعْدٍ عن الرياء، وإن جاز الإنفاق في العلن، بل قد يَحْسُنُ في بعض المواطن.

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٣٣) وَقَالُوا
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا
 يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا
 وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
 نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ
 فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴿

التفسير:

٣٣-٣٥- جنات عدن وارفة الظلال، يانعة الثمار، وافر المياها. يدخلونها جميعاً، يُحَلَّوْنَ فِيهَا بِأَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَأُخْرَىٰ مِنْ لُؤْلُؤٍ، أَوْ مِنْهَا مَعًا، وَيَرْفُلُونَ فِي حُلِيِّ السُّنْدُسِ وَالذَّبِيحِ، وَيَلْهَجُونَ بِالشُّكْرِ وَالشَّاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِمَا أَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ، وَأَزَاحَ مِنْ هُمُومٍ وَأَحْزَانٍ. إِنَّ رَبَّنَا كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ يَسْتَرُهَا وَيَمْحُوها، عَظِيمُ الشُّكْرِ يَضَاعِفُ الْحَسَنَاتِ، الَّذِي أَنْزَلَنَا وَبَوَّأَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِنَا، وَتَفَضَّلَهُ عَلَيْنَا، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا تَعَبٌ وَلَا مَشَقَّةٌ وَلَا كَدٌّ؛ لِأَنَّهَا دَارُ النِّعَمِ فِي ضِيافَةِ الْكَرِيمِ .

٣٦-٣٧- والذين ماتوا على الكفر عقابهم نار جهنم، لا يُحْكَمُ عَلَيْهِمُ بِالْمَوْتِ فَيَسْتَرِيحُونَ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا الشَّدِيدِ فَيَسْتَرْوِحُونَ. وَهَذَا جَزَاءٌ عَادِلٌ لِكُلِّ مَنْ أَصَرَ عَلَى الْكُفْرِ وَمَاتَ عَلَيْهِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ وَصَدَفَ عَنْهُ. وَمِنْ هَوْلِ النَّيْرَانِ يَجَارُونَ، وَيَسْتَغِيثُونَ فِيهَا أَلْمًا وَحَسْرَةً، سَائِلِينَ رَبَّهُمْ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْهَا؛ لَيْسْتَ دَرَكُوا مَا فَاتَهُمْ، وَيَصْلِحُوا مَا أَفْسَدُوهُ فِي حَيَاتِهِمُ الْأُولَى. وَأَتَى لَهُمْ ذَلِكَ، وَقَدْ أَهْلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَمَدَّ لَهُمْ فِي الْعَمْرِ؟ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَلَا رَجَعُوا إِلَيْهِ، بَلْ كَذَّبُوا بِالنَّذْرِ، وَأَعْرَضُوا عَنْهَا، فَيَقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا الْعَذَابَ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ اسْتِعْجَادًا وَتَحَدِّيًا، فَلَا نَاصِرَ لَكُمْ لظلمكم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- قَدَّمَ الْحَلِيَّةَ؛ لِأَنَّهَا أَحَبُّ إِلَى النَّفْسِ مِنَ الثِّيَابِ، وَالشُّوقُ إِلَيْهَا أْبْلَغُ.
- ٢- التَّرْغِيبُ فِي الْجَنَّةِ، وَالتَّرْهيبُ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ عَذَابِهَا، وَشِقَاءِ أَهْلِهَا.
- ٣- التَّأْمَلُ فِي مَصِيرِ الْكُفَّارِ اسْتِحْضَارٌ لِعَظْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَيْبَةٍ وَإِجْلَالٍ لِمَقَامِهِ تَعَالَى، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ.

٤- يُجْمَعُ لِلْكَفَّارِ بَيْنَ الْعَذَابِ الْحَسِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، زِيَادَةً فِي إِبْلَامِهِمْ، وَتَنْكِيلًا بِهِمْ.

٥- التَّعْبِيرُ بِالِاسْمِ الظَّاهِرِ ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾؛ لِبَيَانِ عِلَّةِ خِذْلَانِهِمْ وَهِيَ الْبَقَاءُ عَلَى الظلم.

- ٦- مجيء الفعل المضارع ﴿يَصْطَرِيحُونَ﴾ على وزن يفتعلون؛ لأنَّ زيادة المبنى تدل على قوة المعنى، فصراخهم شديد، وأفاد الفعل المضارع التجدد والاستمرار، فصراخهم دائم لا ينقطع.
- ٧- تكرار ﴿لَا يَمْسُنَا﴾ لتأكيد النفي، ونفي كلِّ حالة على حدة لاستقلال كل واحد، وفيه تعديد للنعيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّمَا ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُعَسِّفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا (٤٢) أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّتٍ وَلَا يَكُن يُوَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴿

التفسير:

٣٨- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا غَابَ وَاسْتَرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَدُورُ فِي الصُّدُورِ، وَمَا تَكُنُّهُ الْقُلُوبُ.

٣٩- هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ، هَيَّا لَكُمْ الْعَيْشَ فِيهَا، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا يُعِينُكُمْ، وَذَلَّلَ لَكُمْ الصَّعَابَ، فَمَنْ جَحَدَ هَذِهِ النَّعْمَ فَعَلَيْهِ وَحْدَهُ إِثْمٌ جَحُودُهُ وَعَاقِبَتُهُ، وَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إِلَّا مَقْتًا وَبُغْضًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَزِيدُهُ إِلَّا الْخَسَارَةَ فِي الدَّارَيْنِ.

٤٠ - يأمر الله نبيه ﷺ أن يسأل المشركين سؤال إنكار وتوبيخ وتقرير: هل أبصرتكم شركاءكم الذين تدعونهم من دون الله، أطلعونني: أي شيء خلقوا من خيرات الأرض، أم لهم نصيب وقسم في السموات؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بصيرة ويقين منه؟ فإذا تبين أنهم لم يخلقوا، ولم يملكوا ولا حجة لهم؛ فقد تقرر أن ما بين الظالمين من وعودٍ أمانٍ كاذبةٍ، وأوهاماً باطلة.

٤١ - إن الله تعالى بما له من العظمة والقدرة يمسك السموات والأرض، ولولا ذلك لزالتا، ولو زالتا ما استطاع أحدٌ سواه أن يقوم بهذا الأمر الجليل؟ فيا لَحِلمِهِ تعالى بعباده وإمهاله لهم. ولو شاء لَعَجَّلَ بهلاك كل مُذنبٍ ومُقصرٍ، ولكنه تعالى حلِيمٌ بهم، يستر ذنوبهم، ويتوب عليهم.

٤٢ - وأقسموا بالله أغلظ الأيمان مؤكداً إن جاءهم نذير اهتدوا بهديه، وكانوا أسبق للهداية، وأحرص عليها، وأمضى على خطاها من اليهود والنصارى. فلما جاءهم النذير ما ازدادوا إلا بُعداً وإعراضاً، وكان أولى بهم أن يشكروا الله على هذه المِنَّة، لكنهم بالغوا في النفور من هذه الدعوة، واستكبروا عنها، ومكروا بخبث ودهاء لإمامها ﷺ وأصحابه ؓ.

٤٣ - فعلوا ذلك استكباراً ومكراً، فماذا ينتظرون بعد ذلك؟ إلا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وسنة الله فيمن سبقهم على طريق الجحود والإعراض، أن يعاقبهم بعذاب عاجلٍ مع ما ينتظرهم من العذاب الآجل. وتلك سنة ثابتة لا تتغير ولا تبدل، ولا تنحرف عن مسارها، ولا تصيب إلا من يستحقها.

٤٤ - أقعدوا ولم يسيروا في الأرض، فيمعنوا النظر في عاقبة الأمم من قبلهم وآثارهم الغابرة وحضاراتهم الآفلة؟ كيف ازدهرت وارتقت، ثم تلاشت واضمحلت، فما أغنت عنهم قوتهم وما كان الله ليمنع عليه شيء، فهو تعالى العليم لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عن علمه غائبة، القدير على إلحاق العذاب بمن خالفه وعصاه.

٤٥ - ومن لطفه تعالى وحلمه ورحمته بعباده: أنه لا يعجل لهم العقوبة، بل يمهّلهم ويؤخرهم؛ لعلهم يتوبون ويرجعون، ولو عجل المؤاخذة، وأعقب كل ذنب بعقوبة عاجلة، وبادر العصاة بالنقمة والتنكيل، لما بقي على وجه الأرض من مخلوق، ولكن يمهّل ويؤخر إلى أجل قدره، فإما أن يجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة، وإما أن يدخر لهم العذاب؛ ليكون أشد وأعظم نكايَةً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - من نِعِمّه تعالى على البشرية وتكريمه لهم: أن استخلفهم في الأرض، فعليهم القيام بواجبات هذه المهمة الجليلة، ومقتضيات هذه المسؤولية العظيمة.
- ٢ - في تكرار ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ لزيادة التقرير، وليبيان استقلال كل زيادة منفية على حدة.
- ٣ - في الآية (٤١) إخبار مستقبليّ عن محافظة الله تعالى على السموات والأرض من الزوال والحَلَلِ.
- ٤ - من شواهد العظمة ودلائل القدرة ولطائف النعمة: أنّه تعالى المدبّر لهذا الكون المصرّف لأموره وَفَقَّ تقدير عَجِيب، وترتيب محكم.
- ٥ - من أسباب الصدود والإعراض ومظاهره: التخاذل عن نصره الحق، والاستكبار في الأرض، والكيد لهذا الدين.
- ٦ - في الآية (٤٣) إخبار مستقبليّ عن عاقبة المستكبرين الماكرين، وهو العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم. وفيها إخبار مستقبليّ آخر، وهو أنّ طريقة الله لا تتبدّل ولا تتحوّل، وستبقى كما هي، فلا يستطيع أحد أن يُبدّل، أو أن يحوّل العذاب عن نفسه أو غيره.
- ٧ - الدعوة إلى السير والنظر في أحوال السابقين وآثارهم، سير تاملٍ ونظرة اعتبارٍ.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١- تعظيم القرآن الكريم، وبيان مقاصده والدفاع عنه.
- ٢- بيان الأدلة على البعث والنشور، والردُّ على منكريه.
- ٣- تقرير نبوة محمد ﷺ وتأكيده رسالته، وأنه ﷺ بُعِثَ على فترة من الرسل.
- ٤- تقرير عقيدة القضاء والقدر، وأن كل شيء مُخْصَى ومُقَدَّر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾

التفسير:

١-٢- تلك الأحرف التي بدأت بها عددٌ من السُّور تحمل تنويهاً وإشارةً إلى عظمة القرآن وإعجازه، الذي نزل بالعربية على أحرفها المعلومة، إلا أن العَجَزَ عن الإتيان بمثله لا يزال قائماً، شاهداً على أن القرآن كلام الخالق جلَّ وعلا ورسالته السَّامية إلى الإنسانيَّة. يقسم ربُّنا بكلامه الذي جعله أجلاً وأعظم ما تنطق به الأفواه، ويتددُّ على المسامع بخشوعٍ وتدبُّرٍ، فهو جامع الحكمة ومورد العلوم والمعارف، وهو الحكيم المنيع، فلا تمتدُّ إليه أيادي العابثين والمُحَرِّفين.

٣-٥- أقسم بقرآنه الحكيم على صدق رسالة نبيه ﷺ، واندراجة في ذلك الشرف المعلى، وانتظامه في سلك المرسلين، ومضيئه على طريق معتدلٍ بين، سهلٌ آمن. هذه الرِّسالة وهذا الصِّراط إنَّما هو وحي الله

المنزَّل الذي أنزله بعزته ورحمته، فالله تعالى لا يُعجزُه شيء، أنزل كتاباً فيه العزَّة والمنعة، وفيه اليسر والرحمة.

٦- مقصود هذا الكتاب تخويف مشركي العرب الذين طال عليهم الأمد، وتوارثوا الكفر والضلال جيلاً بعد جيل، حتى أنزل الله آخر كتبه، وبعث آخر رسوله، فكان حريّاً بهم وقد أظلم هذا العهد، وجاءهم هذا النبي، أن يتبعوه وينقادوا له؛ ليتبهاوا من غفلتهم.

٧- لقد حَقَّ العذاب على أكثرهم في الدارين، وسبق علمنا وأقدارنا فيهم، فهم لا يؤمنون.

٨- ومن هذا العذاب: تلك القيود التي تُطَوَّق أعناقهم وتشدُّها إلى الأذقان، فإذا هم رافعون رؤوسهم كالإبل حين ترفع رؤوسها عن الماء، وقد أغمضت أجفانها في حركة عجيبة تأبى الشراب، وهؤلاء قد أعرضوا عن الحق، وصدّوا عنه، كما تُعرض الإبل المراض عن الماء الذي هو قوام حياتها، فصاروا عبيداً لتلك القيود والأغلال التي تعوقهم، وتحجبهم عن الحق قيود العادات والتقاليد، وأغلال الأهواء والشبهات، فأورثتهم هذا العناد.

٩- وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً، تحيط بهم من كل جانب، فتحجب عنهم أنوار الهدى، فهم لا يقبلون على الحق، ولا يترجعون عن الضلال، بل محصورون بين السدّين، مع الغشاوة التي غطت أعينهم، وأعمت أبصارهم، فهم في ظلمة الكفر والهوى أسارى، وعن الإيمان والهدى محجوبون.

١٠-١١- وسيان عندهم أنذرهم أم لم تُنذرهم، فهم مُصِرُّون على كفرهم مهما بلغت النذر. إنّنا ينتفع بالنذر، ويقبل بها من أتبع القرآن، وسار على نهجه، وخاف ربّه في خلوته وإن لم يره أحد، فبشّره بمغفرة عظيمة وأجر كبير في الجنة على استجابته، وأتباعه وخشيته.

١٢- إنّنا بعظمتنا وقوتنا نحيي الموتى، ونبعثهم من قبورهم، ونسجل عليهم ما قدّموا من خير أو شرّ، وخطواتهم وما خلّفوه من أعمال ظلت باقية بعدهم، وكلّ شيء جمعناه وأحصيناه في كتاب واضح.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- حكمة القرآن الكريم في مقاصده ومعانيه وأساليبه ونسقه.
- ٢- الصلة بين المقسم به والمقسم عليه؛ إذ القرآن دليل صدق النبي ﷺ في رسالته، ومعجزته الباقية.
- ٣- مَنْ حُرِم الهداية فهو على خطر عظيم، فليتدارك نفسه، فالعاقل يتلمس أسباب الهداية ليصل إليها، ويتجنب أسباب الغواية حتى لا يقع في شراكها.
- ٤- الخشية من أسباب الانتفاع بالقرآن، ومن أسباب فهمه، ونيل خيراته.

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنْ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَأْتِيَنَّكَ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ فَاسْمَعُوهَا ﴿٢٤﴾ إِنْ يَأْتِيَنَّكَ آيَاتٌ مِنْ رَبِّكَ فَاسْمَعُوهَا ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

١٣-١٤ - واذكر لقريش مثلاً قصة أصحاب القرية، وما كانوا عليه من تكذيب وعناد، حين أرسل الله إليهم المرسلين، فكيف كان عاقبة كفرهم وعنادهم؟ وذكّرهم حين أرسلنا إليهم رسولين، فبادروا إلى تكذيبهما، فأيدناهما وقوّيناها برسول ثالث، فدعوا قومهم، وأكدوا لهم أنهم مُرْسَلُونَ إليهم من ربهم.

١٥ - فرّد الكُفَّار مُنْكَرِينَ أن يرسل الله لهم بشراً، وهكذا يُحَقِّقُونَ من شأن البشرية، ويُنْكَرُونَ كُلَّ العلوم والمعارف التي جاء بها البشر. ثمّ أكدوا إنكار رسالات الله كلّها، واتّهموا الرسل بالكذب.

١٦-١٧ - قال الرسل مؤكّدين قوّمهم، ومُستشْهِدِينَ برّبهم: ربُّنا يعلم إنّنا إليكم لَمُرْسَلُونَ، فهو الذي أَرْسَلْنَا وَأَيَّدْنَا، وهو الشاهد علينا وهو حُجَّتُنَا وبرهاننا، فكيف تدّعون أنّه لم يُرسل أحداً، وما مُهْمَّتُنَا إِلَّا التَّبْلِيغُ بوضوح وبيان، وهل بَشَرِيَّتُنَا تقصر بنا عن ذلك؟

١٨ - فرّد الكفار بسوء أدب قائلين: إنّنا نشاءنا منكم، وضيّقنا ذرعاً بكلامكم، لئن لم تكفُّوا عن دعوتكم لَنَرْجُمَنَّكُمْ بالحجارة حتى نُسَكِّتْكُمْ، ولنُذَيِّقَنَّكُمْ عذاباً موجعاً.

١٩ - فأجابهم الرسل محذرين لهم: تشاؤمكم معكم لا يُفَارِقُكُمْ، إنّها أعمالكم التي ستودي بكم للهلاك، وهكذا جزاء النصح والتذكير! بل أنتم قوم غارقون في التمتع، تحاربون كل من يقف في وجه رغباتكم الجاحمة.

٢٠-٢١ - وبينما السّجال دائر بين المرسلين وأصحاب القرية، إذ جاء رجل من أطراف المدينة يسعى بهمة وجد، فما إن وصل لساحة الحوار حتى نادى على قومه نداءً المُجِبِّ المُشْفِق: يا قوم اتَّبِعُوا المرسلين،

فَاتَّبِعُوا عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ عَوَضًا، فَتَجَرَّدُوهُمْ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِهِمْ، إِذْ لَيْسَتْ لَدَيْهِمْ مَطَامِعٌ، وَسِيرَتُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ يَشْهَدُ بِذَلِكَ.

٢٢-٢٤- وكيف لا أعبُدُ الذي فطرني، وأوجدني من العدم، وإليه مرجعكم ومآبكم؟ ثم تساءل بأسلوب يُفيد التعجب والإنكار: أَأَشْرِكُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَدَّعِي لَهُ النَّدَّ، وَمَا تَمْلِكُ هَذِهِ الْأَنْدَادُ؟ إِنْ يُرِيدُنِ الرَّحْمَنُ بَطْرًا، لَا تُغْنِي عَنِّي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَشْفَعُ لِي عِبَادَتِي لَهُ، وَلَا تُنْقِذُنِي، فَكَيْفَ أُشْرِكُهَا مَعَ اللَّهِ. إِنِّي حَقًّا مَنُغَمَسٌ فِي الضَّلَالِ الْبَيِّنِ، إِنْ اتَّخَذْتُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ آلِهَةً، وَرَجَوْتُ شَفَاعَتَهَا وَنَفْعَهَا، إِنِّي أَعْلَنُ أَمَامَكُمْ وَأَوْكِدُ إِيمَانِي بِرَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وَصَرَّفَ أُمُورَكُمْ، فَاسْتَجِيبُوا لِي، وَأَصْغُوا لِكَلِمَاتِي.

٢٥-٢٧- وهنا ينتقل المشهد إلى الدار الآخرة، فقد انتقل الرجل إليها، والظاهر أنهم قتلوه خنقًا وغيظًا من كلماته الصادقة فنال الشهادة، وانتقل إلى جوار الرحمن ليقال له: ادخل الجنة، حيث تنتهي به تلك الرحلة ويُقضى به هذا الطريق الذي سلكه إلى جنات النعيم، ولا يزال الرَّجُلُ يحمل مشاعر طيبة نحو قومه، ويرجو هدايتهم مع ما جنته أيديهم الآثمة، فيقول متمنيًا هدايتهم: يَا لَيْتَ قَوْمِي عَلَى دَرَايَةِ بِمَغْفِرَةِ رَبِّي وَسِتْرِهِ لِي، وَيَطْلُبُ أَنْ يُلْحِقَهُ بِعِبَادِهِ الْمَكْرَمِينَ، فِي جَنَاتِ النِّعَمِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- دعوة الرسل جميعاً واحداً، يعضد بعضهم بعضاً.
- ٢- أهمية العمل الجماعي في الدعوة، وأثره في النهوض بها.
- ٣- المبادرة إلى النصيحة دون تَوَانٍ أو تَقَاعُسٍ، أو خوف.
- ٤- إثبات نعيم القبر، والحياة البرزخية.
- ٥- دخول الجنة تكريم من الله تعالى لعباده الصالحين.
- ٦- تنكير ﴿رَجُلٌ﴾ للتفخيم والتعظيم، فهو مثال للرجولة في أروع صورها، كما أفاد أيضاً أنه لا معرفة للرسل به، بل بلغته الدعوة وهو في أطراف المدينة، فأقبل على غير موعد أو اتفاق.
- ٧- الالتفات في الخطاب من براعة الرجل، وحُسنِ بيانه وتَرْفُفِهِ، وتَلَطُّفِهِ بقومه.
- ٨- الإيجابية في الدعوة والنصح، وشِدُّ الرِّحَالِ والسعي، والجِدُّ والتحرُّك؛ لتبليغ دعوة الله.
- ٩- لم تُدَكَّرْ اسم هذه القرية سِتْرًا على أهلها، كما لم تذكر اسم القرية التي مر بها موسى والخضر، وهذا درس في الستر.

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ قَدْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَمًا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾

التفسير:

٢٨- وما أنزلنا على قوم الرجل الصالح الذي استشهد، من جند من السماء لعذابهم، فهم أضعف شأنًا، وأقل قدرًا من إنزال ملائكة عليهم لإهلاكهم.

٢٩- ما كان هلاكهم إلا بصيحة واحدة، صاح بها ملكٌ واحدٌ، فإذا هم جميعاً هلكى هامدون.

٣٠- يا ندامة العباد يوم المعاد، إذا عاينوا العذاب على استهزائهم برسل الله إليهم، وسخريتهم منهم،

وكفرهم بهم.

٣١- ألم يعلم هؤلاء المستهزئون المكذبون بهلاك الأمم المكذبة قبلهم، أنهم لم يرجعوا إلى هذه الدنيا

بعد هلاكهم؟ فيتعظوا ويعتبروا، فيؤمنوا؛ ليسلموا من هلاك الدنيا، وعذاب الآخرة.

٣٢- كل الأمم سيحضرون بين يدي الله للحساب: فيما ثوابٌ، أو عقاب.

الفوائد والاستنباطات:

١- عظمة قدرة الله تعالى في شديد عقابه.

٢- ثبوت ندم العباد المكذبين على ما صدر منهم في الدنيا من استهزاء وتكذيب بالله ورسوله.

٣- حرمة الاستهزاء بثواب الدين، وحرمة رب العالمين.

٤- على الأمم والأفراد الاستفادة مما يرون ويعلمون من أحداث ووقائع، وما يمرُّون به من تجارب.

٥- من حقائق الإيمان: الإيمان بيوم المعاد، وأن هناك جمعاً للعباد، وحساباً وثواباً وعقاباً.

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعِيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التفسير:

٣٣- هذه الأرض الميتة الجرداء التي لا نبات فيها ولا مرعى، يُحييها الله تعالى بأنواع النبات والحبوب بعد إنزال الماء عليها، فهي مثال دالٌّ على قدرة الله على البعث بعد الموت، لِمَنْ نَظَرَ وَاعْتَبَرَ، فَمَنْ أَحْيَا الْأَرْضَ بِالنبات، أَحْيَا الْخَلْقَ بَعْدَ الْمَمَاتِ.

٣٤-٣٥- وجعل الله في الأرض البساتين من أنواع النخيل، وأصناف الأعناب وغيرها، وَفَجَّرَ فِيهَا عِيُونَ الْمَاءِ لَسَقِيَّهَا، وَلِيَأْكُلُوا مِنْ لَذِيذِ ثَمَرِهَا. كل ذلك من رحمة الله بهم، وَنِعْمَ عَلَيْهِمْ. وليس بعمل أيديهم خروج الثمار وتنوعها، واكتمال فوائدها، فليشكروا الله عليها بحمده والإيمان به.

٣٦- تَنَزَّهَ اللَّهُ الْعَظِيمَ الَّذِي تَفَرَّدَ بِخَلْقِ الْأَصْنَافِ كُلِّهَا، مِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْنبَاتِ، وَمِنْ النَّاسِ مِنْ ذَكَورٍ وَإِنَاثٍ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى، الْقَرِيبَةِ وَالْبَعِيدَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير عقيدة البعث بعد الموت.
- ٢- الاستدلال بالمثل على حصول الإحياء بعد الموت وإمكانه، وتقديم المثل عليه بما تراه العين، ويشعر به الحس، فَمَنْ أَحْيَا الْأَرْضَ بِالنبات أَحْيَا الْإِنْسَانَ بَعْدَ الْمَمَاتِ.
- ٣- للإيمان بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال، عَظِيمُ الْأَثَرِ فِي ضَبْطِ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ، وَدَفْعِهِ لِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكِ الشَّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ.
- ٤- تَنَوُّعُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِبْجَادِ، وَالْإِمْدَادِ بِالْخَيْرَاتِ.
- ٥- تَفَرُّدُ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - بِالْخَلْقِ قُدْرَةً وَحِكْمَةً.
- ٦- التنبية على نظام الزوجية في المخلوقات: في الناس، والنبات، وسائر الموجودات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].
- ٧- على الإنسان دوام التفكير في ملكوت الله تعالى وخلقِهِ.

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٣٧- للناس علامة دالة على كمال القدرة لله ﷻ، وهي هذا الليل حين يُنزع منه النهار، فإذا الناس في ظلام دامس للنوم والراحة.

٣٨- وعلامة أخرى للناس دالة على عظمة الخلق، وقدرة الخالق وعلمه، هي هذه الشمس إذ تجري في مجرى قدره الله لها، لا تخرج عنه ولا تتعداه، ولا تقصر دونه. هذه الحركة الدائبة والمنظمة للشمس هي من تقدير الله العزيز الذي لا يغالب في ملكه، والعليم الذي لا يغيب عنه شيء.

٣٩- والقمر آية أخرى عظمى في خلقه، وتقدير منازل كل ليلة، إذ يبدأ ضئيلاً، ثم يكبر ويكمل ويصير قمراً مستديراً، ثم يصغر ويرجع ضئيلاً أصغر متقوساً مثل عذق النخلة القديم.

٤٠- لا يمكن الشمس أن تلتحق القمر لتغير مساره، أو تمحو نوره، ولا يمكن الليل أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته، واكتمال زمنه. فلكل من الشمس والقمر وغيرهما من الأجرام العظيمة فللك قدره الله له لا يتعداه، ولا يخرج عنه، ولا يقصر فيه، فيحقق به نظام الكون، وتتنظم به الحياة.

الفوائد والاستنباطات:

١- تنبيه الناس على ما في الكون من آيات باهرة، ودلائل ظاهرة على وجود الخالق وقدرته، وعظيم حكمته ورحمته بالناس.

٢- بلاغة القرآن الكريم في سهولة عرض أدلته القاطعة، وحججه البالغة على القدرة على الخلق والبعث، بما يراه ويُحسّه الإنسان حوله من تعاقب الليل والنهار، وحركة الشمس في مدارها، والقمر في منازلها.

٣- لفت نظر البشر لما في الكون من نظام دقيق يسير عليه، ويدل على الخالق وقدرته ورحمته بخلقه، فقد خلق هذا الكون ونظمه، وسخره لما فيه استقامة الحياة، وصلاح الأحياء.

٤- التفكير المجرد في آيات الله في كونه وخلقها يقود كل منصف إلى الحق، وتعرفه بالخالق، وما يجب من إيمان به، وطاعة له، وشكر لنعيمه.

٥- ما في الآيات من دلالات وإشارات في الأرض والسموات يدل على أن القرآن وحي من الله، وأن

مَنْ بَلَغَهُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

٦ - يقول العلماء: إن الشمس تسير باتجاه محدد لتستقر فيه، ثم تكرر دورتها من جديد، وقد وجدوا أن أفضل تسمية لاتجاه الشمس في حركتها هو «مستقر الشمس»، وهو الاتجاه الذي تجري الشمس والمجموعة الشمسية نحوه. (http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-06-04/447-2012-05-30-00-19-27).

٧ - بينت الأبحاث العلمية في العصر الحديث أن كسوف القمر، أي: اختفاء القمر مدة من الزمن ناتج عن وقوع الأرض بين الشمس والقمر فتحجب الأشعة المنعكسة عن القمر فنظن أن القمر اختفى ولا يُرى منه إلا آثاراً بسيطة. ويحدث الكسوف للقمر دائماً عندما يكون القمر بدرًا، ويحدث مرة على الأقل في كل عام، وعند حدوث الكسوف الكلي للقمر يمكن رؤيته بسهولة من أي مكان على الأرض بشرط أن يكون في الجهة المقابلة للقمر. (http://kaheel7.com/pdetails.php?id=253&ft=37). وينظر: صورة توضح كسوف القمر، كما في الملحق.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ في قوله (كل) يفيد العموم فهو تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف إذ التقدير (وكل الكواكب)، ويشهد له ضمير الجمع في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مع أن ما سبقه شيان: الشمس والقمر، لا أشياء، ولهذا يقرر علماء الفلك أن المجموعة الشمسية وغيرها من المجموعات التي تسير في مواقعها وتسبح في أفلاكها لو حادت قيد شعرة عن مسارها المخصص لاختلف نظام الكون كله باختلال نظام الجاذبية بين الكواكب. (مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، ص ١٨٧).

﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَاءُ نَغْرِقْهُمْ فَلَا يَصْرِحْ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقِدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير:

٤١ - ودليل آخر للناس على القدرة: أَنَا حَمَلْنَا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمِ نُوحٍ فِي سَفِينَةِ نُوحِ الْمَمْلُوءَةِ بِأَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الطُّوفَانِ الَّذِي عَمَّ الْأَرْضَ، وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ. وتلك نعمة ورحمة وعبرة.

٤٢ - وَخَلَقْنَا لَهُوَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَ سَفِينَةِ نُوحِ الَّتِي صُنِعَتْ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالِ سَابِقٍ، وَأَنْوَاعِ الْمَرَاقِبِ الَّتِي تَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ، وَتَبْلُغُهُمْ أَوْطَانَهُمْ.

- ٤٣- وإن أردنا إغراقهم فَعَلْنَا، ولن يجدوا مَنْ يُغِيثُهُمْ، ويُنجيهم من الغرق.
- ٤٤- إلا أن نرحمهم فننجيهم من الغرق، ونمتعهم إلى أجل معلوم، لعلهم يرجعون ويؤمنون.
- ٤٥- وإذا قيل للمشركين المعرضين: احذروا عقاب الدنيا، وعذاب الآخرة لا يحلُّ بكم بسبب كفركم، فأمنوا بربكم، لعلكم تُرحمون وتَسَلِّمُونَ من العذاب، أعرضوا ولم يَسَلِّمُوا.
- ٤٦- وما تجيء هؤلاء المكذبين من علامة ظاهرة تُبَيِّنُ لهم الحق، وتُدْهِمُهم على الرشد إلا كفروا بها، وأعرضوا عنها، ولم يتنفعوا منها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- نعمة الله على الإنسانية بإنجاء ذرية قوم نوح المؤمنين؛ لتستمر الحياة، وَيَعْمُرَ بهم الكون، ولو غرقوا جميعاً لانقطعت الحياة.
- ٢- رحمة الله بالناس، ونعمته عليهم في هدايتهم لصناعة المراكب، وتسييرها وتسخيرها لهم.
- ٣- كثرة نِعَمِ الله على الناس، وقلة ذكركم وشكرهم.
- ٤- العناد والإصرار على الأخطاء يمنع الاستفادة من الآيات البيّنات.
- ٥- في إضافة الآيات إلى الرب - جلَّ وعلا - تعظيم لشأنها، وتمويل لموقفهم منها، وكفرهم بها، وفي إضافتهم إلى الرب ﴿مَنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لُطْفٌ بهم، ورحمة لهم، وتذكير بمصدر تلك الآيات وعظمتها. فكانت سفينة نوح في صنْعِها وسيرها فتحاً في صناعة المراكب والسفن.
- ٦- آيات الله باهرة ومعجزات شاهدة على العظمة والقدرة، تُقْنِعُ العقل، وتأخذ بمجامع النفس.
- ٧- في الآية (٤٦) إخبار مستقبليٌّ عن تكذيب الكفار للبراهين والأدلة الربّانية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَجَدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

- ٤٧- وإذا نُصِحَ الكفار أن ينفقوا على الفقراء والمساكين من رزق الله الذي تَفَضَّلَ به عليكم، أنكروا على المؤمنين الناصحين، محتجّين بالشُّبه قائلين: أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ؟ ونرزق مَنْ لو أراد الله رَزَقَهُ؟! هذا ضلال منهم، وُبُعْدٌ عن الحق، وخطأ في التفكير والتعبير.

٤٨ - ويسأل الكفار مُكذِّبين ومستهزئين: متى يكون هذا البعث الذي تؤمنون به، إن كنتم صادقين فيما تقولون؟

٤٩ - ليس بينهم وبين ما يُوعَدون إلا أن ينتظروا صيحة الفناء والفرع عند قيام الساعة، تأخذهم فجأة وهم يختصمون، ويتنازعون في شؤون دنياهم، فإذا هم خامدون ميتون.

٥٠ - فإذا حصلت هذه الصيحة فجأة، فإنَّ هؤلاء المكذِّبين لن يستطيعوا فعلَ شيء، أو توصية أحد بشيء، ولن يستطيعوا الرجوع إلى أهلهم، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم، وهم على أحوالهم فيها. إنه مشهدُ حالةِ الناس عند نفخة الفناء وصيحة الفرع بحصولها فجأة في أسواقهم وأعمالهم؛ يُفصّل ذلك حديث: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وقد انصرف الرجل بلبنٍ لِقَحْتِهِ، فلا يَطْعَمُهُ، ولَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وهو يَلِيط حوضَه فلا يسقي منه، ولَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها». (صحيح البخاري ٢٣٨٦/٥، برقم ٤٣٥٩، ومسلم كتاب الفتن، باب قرب الساعة برقم ٢٩٥٤. اللَّقْحَةُ: الناقة القرية العهد بالثَّاج. يَلِيط: يُضْلِخُ).

الفوائد والاستنباطات:

١ - من منهج القرآن الكريم عَرَضُ أقوال المشركين، وشُبَّه المعاندين بوضوح تام، مهما عَظُمَ فُحْشُهَا، وَبَدَتْ لأهلها قوتها، ثمَّ يردُّها بأبلغ ما يكون.

٢ - من طبائع بعض النفوس إيراد الشُّبَّه، والحِجَاج بها؛ قناعة أو خبثاً وجهلاً. فأما مُريد الحق فسريعاً ما يرجع، وأما صاحب الهوى فيبقى في ضلاله وغيِّه. وبهذا التوازن المنضبط تجري عمارة الكون، واستمرار الحياة.

٣ - الساعة لا تأتي إلا بغتة، فعلى المؤمنين بها الاستعداد لها.

٤ - إثبات عقيدة البعث والجزاء.

٥ - لقيام الساعة بدايات وعلامات ونهايات.

٦ - استعجال المكذِّبين بالبعث استبعاداً له، واستهزاء به.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا إِنَّا بِنُورِنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٥١- ونفخ الملك في القرن نفخة البعث، فإذا الموتى يخرجون من قبورهم بعد إحيائهم، وردّ أرواحهم مسرعين إلى ربهم؛ ليحكم بينهم، ويُجازيهم على أعمالهم.

٥٢- قال المكذبون بعد بعثهم نادمين: يا ويلنا وهلاكنا، مَنْ بَعَثَنَا بعد موتنا، وأخرجنا من قبورنا؟ فيجابون: هذا ما وَعَدَ به الرحمن، وأخبر به المرسلون، وقع وتحقق، ولكنكم كنتم به تكذبون.

٥٣- هذا الحدث العظيم، والبعث الكبير، ليس إلا نتيجة نفخة واحدة من الملك، فإذا جميع الخلق حاضرون بين يدي الحق سبحانه للفضل بين الخلق، فما أعظم قدرة الله!!

٥٤- في ذلك اليوم العظيم يتم الحساب والجزاء بالعدل، فلا تُظلم نفس شيئاً بتقص حسنتها، أو زيادة سيئاتها، بل تأخذ جزاء ما كانت تعمل في الدنيا، إن خيراً فخير أو شراً فشر.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير عقيدة البعث والجزاء يوم القيامة.
- ٢- تصوير بعض مشاهد يوم القيامة وأهوالها.
- ٣- سهولة بعث الخلق من قبورهم على الله.
- ٤- سهولة تجمّع الخلق وحسابهم على الله رغم كثرتهم، وتفرّقهم، واختلاف لغاتهم. فما هم إلا كنفس واحدة.
- ٥- تأكيد العدل الإلهي يوم الحساب، فكلُّ يُجْزى بعمله، ولا تُظلم نفس شيئاً، فالخوف من ظلم الإنسان لنفسه، لا من ظلم الله له.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَهْمُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِكِ مُتَّكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التفسير:

- ٥٥- أهل الجنة في ذلك اليوم مشغولون عن غيرهم بأنواع النعيم التي يتلذذون، ويتنعمون بها.
- ٥٦- أصحاب الجنة وزوجاتهم مُتَنَعِّمُونَ بالجلوس، والاسترخاء على الأسيرة المزيّنة، وتحت الظلال الوارفة، حيث لا حرٌّ ولا برد.
- ٥٧- ولأصحاب الجنة أنواع الفواكه اللذيذة، وهم كل ما يطلبون ويرغبون من أصناف النعيم.
- ٥٨- وهم نعيم آخر أعظم وأكبر حين يُكَلِّمُهُم رَبُّهُمُ الرَّحِيمُ بِهِمْ، وَيَرَوْنَهُ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، فتحصل لهم السلامة التامة، والنعمة الكاملة، والرحمة السابقة من الله.
- ٥٩- وبعد الخطاب للمؤمنين بالشواب، جاء الخطاب للكفار بالعقاب، فيقال للكفار في ذلك اليوم: تَمَيَّزُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وانفصلوا عنهم.
- ٦٠-٦١- وَيُنَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُكَذِّبِينَ: أَلَمْ أَطَّلُبْ مِنْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِي فِي كِتَابِي أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، وَلَا تُطِيعُوهُ؛ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لَكُمْ عَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَأَنْ أَعْبُدُونِي وَحْدِي، فطاعتي وعبادتي هي الطريق الموصل لمرضاتي وجناتي.
- ٦٢- وَقَسَمًا لَقَدْ أَضَلَّ الشَّيْطَانُ مِنْكُمْ خَلْقًا كَثِيرًا عَنِ الْحَقِّ. أفما كان لكم عقلٌ ينهاكم عن أتباعه على ضلاله وإغوائه؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تصوير لبعض نعيم الجنة بالتفصيل المشوق.
- ٢- هذا التفصيل لنعيم الجنة دليل على النعيم المادي الجسدي، المتوج بنعيم الروح، وسلام الله وكلامه لعباده، ونظرهم إلى وجهه الكريم.
- ٣- وَصَفُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ هُوَ تَقْرِيْبٌ لِحَقِيْقَتِهِ، إِذْ لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَفِي هَذَا النِّعَمِ ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].
- ٤- تمايز المؤمنين عن الكافرين يوم القيامة.

- ٥ - طاعة الرحمن، ومعصية الشيطان، هي طريق النجاة يوم القيامة.
- ٦ - بيان طريق الحق، وطريق الضلال، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، ولا يظلم ربك أحداً.
- ٧ - إثبات إضلال الشيطان لكثير من بني الإنسان، رغم ادّعائهم العقل والتفكير فيما يقذفه في عقولهم من شبهات، وما يُزيّنه في نفوسهم من شهوات.

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

- ٦٣-٦٤ - هذه نار جهنم التي كنتم تُوعَدون بها في الدنيا على كُفركم بالله، وتكذيبكم رسل الله. ادخلوها اليوم، وذوقوا حرّها وألمّها جزاء لكم على كفركم.
- ٦٥ - في هذا اليوم العظيم يوم القيامة نطبع على أفواه المشركين، فلا ينطقون، ولكن تتكلم أيديهم بما بطشت، وتشهد أرجلهم بما سَعَتْ إليه في الدنيا، وكسبت من الآثام والإجرام.
- ٦٦ - ولو أردنا لطمسنا على أعينهم، فلا يُبْصِرُونَ الصراط الذي يرغبون في سلوكه واجتيازه، ولكننا لم نشأ ذلك.
- ٦٧ - ولو نشاء لَغَيَّرْنَا خَلْقَهُمْ، وأَقْعَدْنَا هُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ، فلا يستطيعون أن يَمْضُوا أمامهم، ولا يرجعوا خلفهم، وَلَبَّقُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ لا حَرَكَ بِهِمْ، ولكننا لم نفعَل.
- ٦٨ - ومن نُطَلِّ عُمُرَهُ حَتَّى يَبْتَرَمَ نُعِدَّهُ إِلَى حَالَةِ الضعف الأول التي بدأ بها حياته طفلاً ضعيف الجسم والعقل. أَفَلَا يَعْقِلُ الْإِنْسَانُ أَنْ مَنْ فَعَلَ هَذَا بِهِمْ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ؟
- ٦٩-٧٠ - وما عَلَّمْنَا رَسُولَنَا - محمداً ﷺ - الشعر، وما ينبغي له، وَيَحْتَسُنُ بِهِ، أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا. وما هذا الذي جاء به إِلَّا ذِكْرٌ يَنْذِرُ بِهِ الْعَاقِلَ، وقرآن كريم يبيّن الدلائل على الحق، يُنذِرُ بِهِ مَنْ كَانَ حَيًّا الْقَلْبَ، مستنير البصيرة، ويتحقق به وقوع العذاب على المكذبين بالله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تَحَقُّقُ وَعِيدِ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
- ٢ - تقرير كمال العدل يوم القيامة، إذ تشهد على الإنسان جوارحه.
- ٣ - نُطْقُ الْأَيْدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْكَلَامِ إِقْرَارٌ لَأَنَّهَا الْبَاطِشَةُ، وَنَطَقَ الْأَرْجُلُ شَهَادَةً؛ لِأَنَّهَا الْمَتَلَبِّسَةُ بِالْفِعْلِ السَّابِقِ فِي الدُّنْيَا.
- ٤ - عَجْزُ الْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كِتْمَانِ شَيْءٍ مِنْ فِاسِدِ أَعْمَالِهِ.
- ٥ - تنبيه الإنسان على قدرة الله على طمس بصره، وإعاقة حركته، ومسح خلقه.
- ٦ - بيان مظاهر قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وأطوار حياته، إذ يبدأ طفلاً بادي الضعف، فقوياً شديداً البأس، فهراً شديداً الضعف لا يُحْتَمَلُ إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ وَعَطْفٍ. فَمَا أَعْظَمَ آيَاتِ اللَّهِ فِي النَّفْسِ لِمَنْ يَتَفَكَّرُ وَيَتَدَبَّرُ!!
- ٧ - تقرير نبوة الرسول ﷺ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَبِيٌّ مَرْسَلٌ، لَا شَاعِرٌ مُفَاخِرٌ.
- ٨ - تقرير أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَحْيٌ وَذِكْرٌ، لَا شِعْرٌ.

﴿أَوْلَدٌ بَرُّوْنَا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمْنَا لَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْرُجُوكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

التفسير:

- ٧١- أولم يرَ الناس أَنَا خَلَقْنَا لأجلهم أنعاماً مختلفة من الإبل والبقر والغنم وغيرها، ومَلَكْنَاهَا لهم، يتصرّفون بها كما يريدون.
- ٧٢- وسَخَّرْنَاهَا، فجَعَلْنَاهَا منقادة لهم، فمنها ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه المتاع والأثقال، ومنها ما يأكلون لحمه، وَيَتَنَعَّمُونَ به.
- ٧٣- وجعلنا لهم فيها منافع كثيرة أخرى، إذ يتنعمون بأصوافها، وأوبارها، وأشعارها أثنائاً، ورياشاً، ولباساً، وكساء، وغير ذلك، كما يشربون ألبانها تروِي عَطَشَهُمْ، وتُقَوِّي ضَعْفَهُمْ. أفلا يشكرون الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم من غير حَوْلٍ منهم ولا قُوَّة، فيؤمنون به، ويؤخِّدونَه، ويَصْرِفُونَ نِعْمَتَهُ فيها يرضيه؟

- ٧٤- واتخذ المشركون من دون الله آلهة يعبدونها طَمَعاً في نُصْرَتِهَا لهم، وَنَفَعِهَا إِيَّاهُمْ.
 ٧٥- لا تستطيع تلك الآلهة المعبودة نُصْرَ مَنْ يعبدها وَنَفْعَهُ، ولا نُصْرَ نَفْسِهَا. فكل من الآلهة المعبودة،
 والمشركين العابدين لها لا يستطيع أحدٌ نَفْعَ الآخر، وَدَفَعَ العذاب عنه في الدنيا والآخرة.
 ٧٦- فلا يَحْزُنُكَ - أيها الرسول - كُفْرُهُمْ بالله، وتكذيبهم لك، واستهزاؤهم بك، فنحن نعلم ما
 يُخْفُونَ من أقوال وأفعال، وما يُظْهِرون، وسوف نجازيهم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- لَقَدْ نَظَرَ الإنسان إلى ما أنعم الله به عليه من الأنعام.
- ٢- تسخير كثير من المخلوقات ومنها الأنعام؛ لخدمة الإنسان وراحته.
- ٣- لولا تذليلُ الله الأنعام للإنسان وتسخيرها له، لما استطاع الاستفادة منها.
- ٤- تعداد أنواع النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وما يُوجب ذلك مَنْ شُكِرَها وَذُكِرَها، وَتَمَدَّ المنعم بها.
- ٥- ضلال المشركين بعبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.
- ٦- أَمَرَ الله نَبِيَّهُ ﷺ بِالْأَلَّا يَحْزَنَ عَلَى ما يسمعه من أقوال المشركين بعد أن حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ.
- ٧- كمال علم الله، فلا يخفى عليه شيء من أقوال العباد وأفعالهم، وهو يجازيهم عليها بعدله أو فضله.

﴿ أَوْلَئِذَا نَسَّئُنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشَأْتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير:

٧٧- ألم ير الإنسان ابتداء خلقه، إذ خلقناه من نطفة ضعيفة مرت بأطوار مختلفة حتى كبر، فإذا هو كثير الخصام، شديد الجدل.

٧٨- ٧٩- وضرب الإنسان لربه مثلاً لا ينبغي له ضربه، فقاس قدرة ربه على قدرته، وساوى بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق، واعتقد استحالة إحياء الموتى بعد بلاء عظامها، وتخلل أجزائها. وتساءل: مَنْ يحيي العظام وهي رميم؟ ولو تذكّر خلقه، وتّفكّر فيه، لعلم أنّ القادر على الخلق ابتداءً قادر على الإحياء والإعادة انتهاءً. فمن أوجده من عدم، وأنشأه أول مرة، قادر على إحيائه بعد وجوده. ذلكم الله رب العالمين، العليم بأسرار خلقه، ودقائق صنعه.

٨٠- فالله الذي أخرج من الشجر الأخضر الرطب ناراً محرقة ترؤونها، وتوقدون منها، قادر على إحياء الأموات.

٨١- أليس الذي خلق السموات والأرض بعظمتها، وما فيها من آيات، بقادر على أن يخلق مثلهم، ويعيدهم كما بدأهم؟ بلى إنه قادر على ذلك. فمن يخلق الخلق العظيم يخلق ما دونه، فهو الخلاق لجميع المخلوقات، العليم بجميع الكائنات.

٨٢- إن أمر الخلق والبعث على الله تعالى يسير جداً، فإذا أراد شيئاً قال له: (كن) فيكون.

٨٣- فتنزّه الله - تعالى وتقدّس - عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء، المتصرّف في خلقه وأمره بلا مدافع ولا منازع، قد ظهرت دلائل قدرته، وعظيم حكمته، وتمام نعمته، وإليه يرجع الخلائق يوم القيامة للحساب والثواب أو العقاب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير عقيدة البعث بعد الموت بالبراهين الواضحة، والدلائل القاطعة.
- ٢ - من الخطأ والجهل قياس الخالق على المخلوق في القدرة.
- ٣ - من براهين القدرة على البعث الاستدلال بالمبدأ على المعاد، وأنَّ الإعادة في منطق العقل أهون من الابتداء والاختراع. فالقادر على الإيجاد من العدم قادر على إعادة الموجود.
- ٤ - من دلائل البعث خَلَقَ الضد من الضد، كإخراج النار من الشجر الأخضر الممتلئ بالماء، فالقادر على ذلك قادر على الإحياء بعد الموت.
- ٥ - يقول العلماء: إن كل صور الطاقة ذات الأصل العضوي من النفط والغاز المصاحب له، إلى الفحم الحجري والغازات المصاحبة له، إلى الفحم النباتي، والخشب والخطب والقش والتبن، وغير ذلك من الفضلات النباتية والحيوانية التي لها الأثر الكبير في تكوين الشجر الأخضر، وما وهبه الله ﷻ لها من قدرة فائقة على احتباس جزء من طاقة الشمس يعينه على تأيين الماء، ثم اقتناص ذرات الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود بنسب ضئيلة جداً في الغلاف الغازي للأرض لا تتعدى ٠,٠٣٪، وذلك بواسطة أيون الأيدروجين الناتج عن تحلل الماء، وإطلاق الأوكسجين إلى الغلاف الغازي للأرض.
(<http://www.ahram.org.eg/archive/2002/11/4/OPIN7.HTM>)
- ٦ - مشروعية استعمال الحُجَجِ العقلية، والأدلة المنطقية في إثبات القضايا الشرعية، وصياغة الجدل المحمود.
- ٧ - تقرير عظمة الله وقدرته، وأتمها دائرة بين الكاف والنون.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - إثبات وحدانية الله تعالى، وسوق الأدلة الكونية الكثيرة على ذلك.
- ٢ - تأكيد عقيدة الإيمان بالبعث بعد الموت، وأنه حقيقة ثابتة.
- ٣ - تمائل مواقف الأمم من رسلهم، وعرضُ جملة من قصصهم.
- ٤ - تأكيد نصره الله لأتباعه وأوليائه في الدنيا والآخرة، وأنَّ العاقبة للمتقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ١﴾ فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ٢﴾ فَالتَّالِيَتِ ذِكْرًا ٣﴾ إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ٥﴾ إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةَ الْكَوَاكِبِ ٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
مَّارِدٍ ٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩﴾ إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠﴾ ﴿

التفسير:

- ١-٣ - أقسم الله بالملائكة، وهي في صفوفها نظاماً وطاعة، وعبادة واستعداداً لتنفيذ أوامر الله في كونه. وفي الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يُئِمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف». (صحيح مسلم، باب الأمر بالسكون في الصلاة. برقم ٤٣٠).
- وإقسام آخر بالملائكة وهي تسوق السحاب وغيره إلى حيث قدر الله، وأراد.
- وإقسام ثالث بالملائكة وهي تُردد آيات الله تعالى وكلامه لرسوله، وتقديسه سبحانه بالتسبيح، والتحميد، والتمجيد.

- ٤ - ويأتي جواب ما أقسم الله به من أصناف الملائكة: إنه إلهنا ومعبودنا، وإنه واحد لا شريك له.
- ٥ - فالإله الواحد هو خالق السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما والمتصرف فيهما، وهو سبحانه مُدَبِّر الشمس في مشارقتها، ومغاربها، وهذا من أدلة القدرة والوحدانية.

٦-٧- إنا - لما لنا من القدرة والعظمة - زينا السماء الدنيا، وجعلناها بزينة النجوم والكواكب التي يراها كل إنسان، وحفظناها بالشهب من كل شيطان متمرد خارج عن طاعة الله.

٨-١٠- لا تستطيع الشياطين أن تصل إلى الملائكة في السموات العلى، فتستمع إليهم إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى من شرعه، وأمره، وقدره، إذ يُرجمون بالشهب من كل جهة حفظاً للسماء منهم، وطرذاً لهم عن الاستماع لما يدور في الملاء الأعلى، ولهم في الآخرة عذاب دائم موجه، لكن من خطف من الشياطين الكلمة بسرعة وخفية من السماء، فإنه يُرسل إليه شهاب من نار، فيخرقه ويحرقه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان أن الله - جل وعلا - يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وأما الخلق فلا يقسمون إلا به سبحانه.
- ٢- في قسم الله بالمخلوقات بيان لعظمتها، ولتُنظَر لفوائدها وخصائصها التي قد يغفل عنها. وكل ذلك دالٌّ على قدرة خالقها وعظمتها ووحدانيتها.
- ٣- الملائكة أصناف وأنواع في الخلق والواجبات.
- ٤- أهمية الترتيب والنظام، فعليه سار الكون والحياة والعبادة.
- ٥- تقرير حقيقة التوحيد الكبرى، وأنه لا إله إلا الله، فلا معبود بحق إلا الله سبحانه.
- ٦- الكون بسمائه وأرضه ونظامه في مشارقه ومغاربه، ودقة حركته، دليل ساطع على قدرة خالقه وعظمته ووحدانيته.
- ٧- بيان بعض الحكم من إنشاء النجوم، فهي آية من آيات الله، زينة للسماء، وحراسة لها، وعلامات يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر.
- ٨- في الآية (١٠) إخبار مستقبلي عن أتباع الشهاب لكل الشياطين التي تنصت إلى أخبار السماء.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ آءَا مِنْنَا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا آءَا لَتَبْعُوهُنَّ ﴿١٦﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

التفسير:

١١ - اسأل - أيها الرسول - قومك المكذبين بالدين، والمنكرين للبعث بعد الموت، سؤال تقرير وتوبيخ ومُحاجة: هل خلقهم أعظم وأشق من خلق السموات والأرض وما فيها من المخلوقات، وسائر الموجودات؟ لا شك أن الجواب الإقرار بأن خلق السموات والأرض وما فيها أكبر من خلق الناس، فقد خلق الله الإنسان الأول - آدم ﷺ - من طين لَزِجٍ يلتصق باليد لضعفه، فكيف يُنكر هذا الإنسان الضعيف في أصله ومادته وذاته إعادة خلقه وبَعْثِهِ؟!

١٢ - بل عجبت - أيها الرسول - من تكذيبهم، وإنكارهم البعث بعد الموت، وهو حقاً محل عجب واستغراب. وأبلغ وأقبح من إنكارهم أنهم يستهزئون بك، ويسخرون من قولك ودعوتك، فجمعوا بين الإنكار، والسخرية البالغة.

١٣ - وإذا ذُكِرُوا بما نُسوه، أو عَقَلُوا عنه، لا ينتفعون بهذا التذكير، ولا يتعظون به، ولا يستفيدون منه، إما جهلاً أو عناداً.

١٤ - وإذا رَأَوْا آية باهرة، ومعجزة قاهرة، قرآنية أو كونية، تُدُلُّ على نبوتك، وصدق دعوتك، وإمكان بعثهم بعد موتهم، بالغوا بالاستهزاء والعجب بدل أن يستفيدوا منها، ويؤمنوا بها.

١٥-١٧ - وقال الكفار لمحمد ﷺ: ما جئت به من قول وفعل إنما هو سِحْرٌ بَيِّنٌ ظاهر، ولا يُعْقَلُ ولا يُقْبَلُ أننا - إذا مِننَا وَتَحَلَّلْت أجسادنا، وَبَلَّيْت عِظَامُنَا - سوف نبعث مرة أخرى وتعود لنا الحياة بعد ذلك. وأبعد من ذلك أن يُبعث آباؤنا الأقدمون الذين اكتمل فناؤهم.

١٨-٢٠ - قل لهم أيها الرسول: نعم سوف تُبْعَثُونَ بعد موتكم، وأنتم أذلاء صاغرون، ولا يتطَلَّبُ بَعَثُكُمْ أكثر من صيحة واحدة من المَلَكِ في الصُّور، فإذا هم قيام ينظر بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى أهوال يوم القيامة. حينئذ يعرفون الحق، ويعترفون به، ويقولون: يا هلاكنا وخسارتنا، هذا يوم الجزاء والحساب.

٢١ - فيقال لهم: هذا يوم القضاء والحكم بين الخلائق بالعدل الذي كنتم تُكذِّبون به في الدنيا، فالיום يُقضى عليكم بما تستحقون.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - قدرة الله تعالى العظيمة في الخلق والتقدير من أدلة القدرة على البعث بعد الموت.
- ٢ - خالق الشيء الأكبر والأصعب أقدر على خلق الأدنى والأصغر، فضلاً عن إعادة خلقه وبعثه. وهذه حجة قرآنية، وبديهية عقلية يغفل عنها المنكر المكابِر، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٨١-٨٢].
- ٣ - بيان أصل خلق الإنسان، ومادته الطين. وهذا دليل على ضعفه، فمن الأرض خلق، وإليها يعود، ومنها يخرج، فهو جزء من دورة الخلق والحياة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]. فعلى الإنسان معرفة قدره وقدرته.
- ٤ - الإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء والحساب ركن من أركان الإيمان، وهو بالغ الأثر في الحياة الدنيا وفي الآخرة.
- ٥ - على الإنسان التعلُّم والتذكُّر، وقبول الحق بدليله.
- ٦ - العدل أساس الكون، ويوم القيامة يقضي الله بين الناس بالعدل، فيفصل بين المحسن والمسيء، والظالم والمظلوم، والمؤمن والكافر، فيعطي كل ذي حق حقه.
- ٧ - السخرية صفة دائمة للمكذِبين والمنكرين للبعث دَلَّ على ذلك التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾.

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾
 وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
 يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ
 مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾

التفسير:

٢٢-٢٦ - يقال للملائكة: اجمعوا الذين كفروا بالله ونظراءهم من العصاة وقرناءهم من الشياطين، وزوجاتهم الكافرات، وأهنتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله من الأصنام والأنداد، وسوقوهم سوقاً عنيفاً شديداً إلى نار جهنم، واحبسوهم قبل أن يصلوا إلى النار؛ لمساءلتهم عن أفعالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا، سؤال إنكار وتبكييت، فيقال لهم: مالكم لا ينصرون بعضكم بعضاً أفراداً وآلهة؟ إظهاراً للضعفهم وعجزهم. إنهم اليوم أذلاء منقادون لأمر الله لا يخالفونه، عاجزين عن الانتصار لأنفسهم.
 ٢٧- وأقبل بعض الكفار على بعض الرؤساء، يتلاومون ويتخاصمون، ويعتاب بعضهم بعضاً على ما كانوا عليه من ضلال، وما انتهوا إليه من عذاب، كلُّ يلقي بالمسؤولية على الآخر.

٢٨- قال الأتباع للمتبعين: إنكم كنتم تأتوننا من طريق الدين والحق والقوة، فتُهَوَّنون علينا أمرَ الدين، وتُنْفَرُوننا منه، وتُزَيِّنُون لنا الضلال والمعاصي، وتَحْمِلُوننا عليها.
 ٢٩- فأجاب المتبعون: ليس الأمر كما تزعمون، فلم تكونوا مؤمنين، بل كنتم - باختياركم - عُصاة كافرين، ولم تكونوا صالحين، فأفسدناكم، ولا مؤخِّدين، فحَمَلْنَاكم على الشرك.
 ٣٠- وما كان لنا عليكم من قدرة نقهركم بها، أو حجة نُقَرِّعُكم بها، بل كنتم طغاة عصاة فُجَّاراً، لديكم الرغبة والاستعداد للكفر والعصيان؛ ولذلك استجبتم لنا، واتبعتمونا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عَرَّضْ صورة من صور مواقف يوم القيامة، ومشاهدها.
- ٢ - جَمْعُ الأَشْبَاهِ والنظائر في الكفر والظلم والفسوق، والآلهة المعبودة من دون الله.
- ٣ - نشوب العتاب والخصام بين الأتباع والمتبعين يوم القيامة الذين اجتمعوا على الكفر والفسق والعصيان.
- ٤ - دَلَّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ على أَنَّ بعض الضلال والإضلال يأتي عن طريق ادِّعَاءِ الدين والحق، والإيهام بذلك.

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِذَا كُنَّا غَدَوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لَتَّارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣١-٣٢- ويتابع المتبوعون قولهم لأتباعهم إذ خاطبواهم بقولهم: فوجب علينا، ولزمنا نحن وأنتم وعيد ربنا: إِنَّا لَذَائِقُو الْعَذَابِ بسبب تكذيبنا ومعاصينا في الحياة الدنيا، فأضللناكم عن دين الله والإيمان به، وزينَّا لكم الباطل، ودعوناكم إليه، فقد كُنَّا ضالِّينَ قبلكم، فهلكنا بسبب ضلالنا وكفرنا، وأهلكناكم معنا.

٣٣- فَإِنَّ الْأَتْبَاعَ وَالتَّبِيعِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ، كما اشتركوا في الدنيا في العوابة والضلالة، ولكن كما قال تعالى: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْفَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب إجرامهم، فلا ينفعهم هذا الاشتراك.

٣٤- إِنَّا هَكَذَا نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ الْعَاصِينَ الْمَكْذِبِينَ، الذين اختاروا في الدنيا الكفر على الإيمان، فنذيقهم العذاب الأليم.

٣٥- إِنَّ سَبَبَ عَذَابِنَا لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِيْمَانًا بُوْحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَتَرَكَا مَا سِوَاهَا، كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْهَا، وَيُكْذِبُونَ بِهَا.

٣٦- وَيُنْكِرُونَ عَلَى دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ: أَنْتَرَكَ عِبَادَةَ آهْتِنَا مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ لِقَوْلِ رَجُلٍ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ لَا عَقْلَ لَهُ! يَعْنُونَ بِذَلِكَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَجَمَعُوا إِلَى تَكْذِيبِهِ الْكُذْبَ عَلَيْهِ، بِوَصْفِهِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَمَا هُوَ بِرِيءٍ مِنْهُ.

٣٧- كَذَّبُوا فِيهَا قَالُوهُ، فَمَا مُحَمَّدٌ ﷺ كَمَا وَصَفُوهُ، بَلْ قَالَ الصِّدِّيقُ، وَجَاءَ بِالْحَقِّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ تَوْحِيدٍ وَإِيْمَانٍ وَتَصْدِيقٍ لِمَا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ السَّابِقُونَ عَلَيْهِ، فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

١- اشترك الضالِّينَ والمضلِّينَ فِي الْعَذَابِ جَمِيعًا، وَأَنَّهُ لَا مَعْذِرَةَ لِأَحَدٍ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَلَا مَنْفَعَةَ فِي الْإِشْتِرَاكِ فِي الْعَذَابِ.

٢- الاستكبار عن قبول الحق وسماحه يؤدي إلى الضلال والهلاك.

٣- تعظيم كلمة الحق «لا إله إلا الله»، وأنها دعوة الرسل جميعاً.

٤- تصديق الأنبياء بعضهم لبعض؛ لأنَّ دين الله واحد.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾
 أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ
 بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتٌ
 آلَاطَرَفٍ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٣٨- إنكم - أيها المشركون - لذائقو العذاب الموجه.

٣٩- وما تعاقبون به - أيها المشركون - من العذاب في الآخرة إلا جزاء أعمالكم في الدنيا من كفر وتكذيب.

٤٠- ٤٣- لكن عباد الله الذين أخلصوا لله في عبادته وطاعته، اختصهم الله برحمته وولايته، فأنجاهم

من عذابه، وأدخلهم جنته، وأجرى عليهم رزقه المعلوم ووضفه بحسن منظره، ولذة طعمه، وطيب

رائحته، مما يشتهون من أنواع الفواكه، وكل ما في الجنة مما يؤكل إنما هو على سبيل التنعم والتفكه والتلذذ،

مع الإعزاز والإكرام من الله سبحانه لهم في جنات النعيم، فيجمع نعيم الجنة متعة النفس، ولذة الحس.

٤٤- ومن كرامتهم عند ربهم ومزيد نعيمهم، أنهم جالسون على سرر متقابلين فيما بينهم، تواصلاً

وتحايياً.

٤٥- ٤٧- لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، إذ يُدار عليهم في مجالسهم على أسرتهم بكأس من

الخمير من أنهار جارية، لا يخافون نقصها أو انقطاعها، بيضاء في لونها، لذيدة في مذاقها وشرابها، ليس فيها

أذى للجسم ولا للعقل، كما هو حال خمير الدنيا وما فيها من صداع الرأس، وذهاب العقل، فخمير الآخرة

ذات لون حسن، لذيدة المذاق، بلا كدر ولا ضرر، ولا نقص أو انقطاع.

٤٨- ٤٩- وعند أهل الجنة الحور العين الجميلات الأعين، كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه نقاء، أو

البیض المصون عن لمس الأيدي، وفضول النظر، لا ينتظرن لغير أزواجهن عفة وحياء.

الفوائد والاستنباطات:

١- بيان عدل الله سبحانه مع الكافرين المكذبين، فالجزاء من جنس العمل.

٢- بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين المخلصين بمضاعفة أجر الحسنات، الحسنة بعشر

أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ فضلاً منه ورحمة.

٣- وصف نعيم الجنة وصف عظيم يستهوي السامع، ويغري الطامع بالعمل على تحصيله والوصول

إليه، وذلك بتحقيق طاعة الله تعالى، والطمع في رحمته.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا أَهِنَّا لَمَدِيُونٌ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِيَتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْنَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْأَفُوْرٌ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيَسْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

التفسير:

٥٠ - أقبل أهل الجنة بعضهم على بعض، يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا وأحوالهم فيها، وما كانوا يلاقونه ويُعانونه فيها، وما أنعم الله به عليهم في الجنة، وحديث الأجناس من تمام الإناس.

٥١-٥٣ - فقال أحدهم: إنه كان لي في الدنيا صديق يُنكر البعث، ويقول لي: كيف تُصدّق بالبعث الذي هو في غاية البعد والاستغراب؟! كيف يُعقل أننا إذا متنا وبَلينا وصِرنا تراباً وعظاماً تُخِرّة، تُبعث أحياء، وتُحاسب على أعمالنا؟!

٥٤-٥٥ - فقال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلِعُونَ وناظرون معي إلى النار لتنظر حال الصديق ومصيره؟ فنظر فرأى قرينه وصاحبه في الدنيا في وسط النار الموقدة.

٥٦-٥٧ - فخاطبه المؤمن عاتباً قائلاً: والله لقد كِدْتَ تُهْلِكُنِي بِإِغْوَائِكَ، ودعوتك لي إلى الكفر والتكذيب. ولولا فضلُ الله عليَّ ورحمته بي بهديتي وتبتي على الإيمان، لكنت من الماكثين معك في النار أدوق أهوالها.

٥٨-٥٩ - ويستمر في خطابه: هل مازلت على اعتقادك بأننا لن نموت إلا مودة واحدة، لا بُعث بعدها ولا جزاء ولا ثواب وعقاب؟! لقد تَكَشَّفَتْ لك الحقيقة.

٦٠-٦١ - إِنَّ هَذَا النِّعْمِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ بِالْجَنَّةِ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، والظفر المقيم. ومثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون، ويجتهد المجتهدون في الدنيا؛ ليحصلوا عليه في الآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التحذير من قرناء السوء؛ فإنهم سبب لضلال الإنسان.
- ٢ - الحرص على اختيار الصديق، فالمرء على دين خليله، فلينظر المرء مَنْ يُخَالِلُ.
- ٣ - بيان سخرية المكذبين بالمؤمنين، إذ يَرَوْنَ إِيَابَهُمْ بِالْغَيْبِ والبعث من قبيل التَحَلُّفِ، والحقيقة أنهم هم المتخلفون الضالون.

- ٤ - بيان بعض صور حوادث الآخرة، وسماع الصوت للمُعَذَّب في النار، وقدرة الله على كل شيء.
 ٥ - تقرير البعث وتحقيقه، وبيان ما يحصل فيه من قول وعمل.
 ٦ - تمام نعيم أهل الجنة بالأنس والمحادثة فيما بينهم.

﴿ أَدْلِكَ خَيْرٌ تُرْزَلَا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
 أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوَنَّ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ
 إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾
 فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٢ - أذلك الذي سبق وَصَفَهُ من نعيم الجنة الكامل، والخلود الدائم خير عطاء وضيافة، أم شجرة الزقوم الخبيثة الملعونة التي هي طعام أهل النار؟ لا شك في الجواب، وأنَّ طعام أهل الجنة أفضل وأكمل من طعام أهل النار، لكنه سؤال تقرير للحقيقة، وتوبيخ للكفار.

٦٢-٦٨ - إِنَّا جَعَلْنَا شَجَرَةَ الزَّقُومِ فِتْنَةً وابتلاء لظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي، إذ قالوا متعجبين مستنكرين مكذِّبين: كيف تنبت في النار شجرة والنار تأكل الشجر؟ فلا يُعقل هذا، ولا يُقبل!! إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَنْبِتُ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، ثُمَّهَا قَبِيحُ الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبِرِ، مَتْنَاهِي الْقَبِيحِ وَالْبَشَاعَةِ، كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ الَّتِي تُكْمَلُ أَشْبَعُ مَا يَتَصَوَّرُ وَيَتَخَيَّلُ مِنْ أَحْبَثِ الثَّمَرِ طَعْمًا وَمَرَارَةً، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا، فَهِيَ طَعَامُهُمُ الَّذِي لَا بَدِيلَ لَهُمْ عَنْهُ، فَسَوْفَ يَأْكُلُونَ مِنْهَا حَتَّى تَمْتَلِئَ بَطُونُهُمْ شَبَعًا. ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَشَارِبُونَ شَرَابًا شَدِيدَ الْحَرَارَةِ، يَخْتَلِطُ مَعَ طَعَامِهِمُ الْمَذْكُورِ، فَيَجْتَمِعُ لَهُمْ بَشَاعَةُ مَنْظَرِ الثَّمَرِ، وَمَرَارَةُ الزَّقُومِ، وَحَرَارَةُ الْحَمِيمِ، ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْعَذَابِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ.

٦٩-٧٠ - إِنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى الشَّرْكِ وَالضَّلَالِ فِي الدِّيَانَةِ وَالْعِبَادَةِ فَاقْتَدَوْا بِهِمْ، وَسَارُوا عَلَى خَطَاهُمْ، وَسَارَعُوا إِلَى مِتَابَعَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بَرَهَانٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إِنَّ أَحْسَنَ الْأَسَالِبِ الدَّعْوِيَّةِ وَالتَّرْبُويَّةِ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ؛ لِاسْتِثْرَاءِ أَنْوَاعِ الْمَشَاعِرِ فِي الْإِنْسَانِ.
 ٢ - تقرير البعث والجزاء من خلال عرض صور للأحداث والوقائع التي تتم في يوم القيامة عَرْضًا

تصويرياً معبراً ومؤثراً.

- ٣- التحذير والتنديد بالتقليد والاتباع للأبء والأجداد وأهل البلاد من غير دليل ولا برهان، وأن هذا من الجهل والتعصب المذموم المؤدّي إلى الهلاك، وأن الواجب هو البحث عن الحق بدليله.
- ٤- قُصور النظر العقلي المجرد لأموال الآخرة الغيبية وأحوالها، دون الرجوع إلى الأدلة الشرعية، وأن هذا يؤدّي إلى الفتنة والضلال؛ لأن الآخرة غيب تُقصرُ العقول البشرية عن إدراكه، واستعمالها في تصويره وتحليله خطأ منهجي فادح.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

التفسير:

- ٧١- والله لقد ضلّ عن الحق والهدى قبل قومك - يا محمد - أكثر الأمم السابقة.
- ٧٢- والله لقد أرسلنا في تلك الأمم مُرْسَلِينَ كثيرين يخوفونهم من عذاب الله، فتنادوا في عيهم وضلالهم، وكفروا برسولهم.
- ٧٣-٧٤- فتأمل - يا رسول الله - وقومك كيف كانت نهاية تلك الأمم المكذبة، لقد عُذِّبَتْ وصارت مثلاً وعبرة للناس، إلا عباد الله الذين استجابوا لله، وأخلصوا دينهم له، فإن الله تعالى حَصَّهم برحمته، وَنَجَّاهم من عذابه.
- ٧٥- وقسماً لقد نادانا نبياً نوح، ودعانا لنصرته على قومه، بعد كفرهم واستكبارهم وإعراضهم عن دعوة نبيهم، قال: يا ربّ إني مغلوب فانتصر، فسارَعْنَا لإجابته ونُصِرْتَهُ على قومه، فَأَكْرَمْنَا بنا من مُجِيبٍ وناصر.
- ٧٦- وَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَتْبَاعَهُ مِنَ الْأَشْرِكِينَ، ومن الغرق بالطوفان العظيم الذي عمّ الأرض، وأهلك الأحياء.
- ٧٧- وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا على وجه الأرض بعد غرق قومه.

٧٨- وَأَبْقَيْنَا لَهُ ذِكْرًا جَمِيلًا، وَثَنَاءً حَسَنًا فَيَمُنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الْأُمَمِ وَالنَّاسِ يَذْكُرُونَهُ بِهِ.
٧٩- أَمَّا نُوْحٌ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ وَسَلَامَةٌ لَهُ مِنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ، فَلَا يُذَكَّرُ بِسُوءٍ، بَلْ تُثَنَّى عَلَيْهِ الْأَجْيَالُ وَالْأُمَمُ
مِنْ بَعْدِهِ.

٨٠-٨٢- هَكَذَا نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادِ فِي طَاعَتِنَا وَامْتِثَالِ أَمْرِنَا، فَإِنَّ نُوحًا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
بِيقِينٍ، وَالْعَامِلِينَ بِإِخْلَاصٍ؛ لَذَا أَنْجَيْنَاهُ وَأَكْرَمْنَاهُ، وَأَغْرَقْنَا أَعْدَاءَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

١- ضلال كثير من الأمم السابقة مع إرسال الرسل إليهم، ووجود المنذرين بينهم.
٢- الهلاك في الدنيا والآخرة عاقبة الكفر والتكذيب.
٣- من سُنن الله تعالى إنجاء المؤمنين الصادقين عند إهلاك المكذبين.
٤- إجابة الله تعالى دعاء المرسلين والصالحين من عباده، وإنجاؤهم من الكروب والظلم، فالدعاء هو العبادة.

٥- إكرام الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام بأنواع الإكرام من إنجائه وأهله وقومه المؤمنين، وجعل ذريته هم
الباقيين في الأرض، وإعظام أجره، ورفع ذكره في العالمين.

٦- فضل الإحسان، وحسن عاقبته في الدنيا والآخرة، عند الله وعند الناس، كما قال سبحانه: ﴿ هَلْ
جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّيَبْرِهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّفَكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِنَّ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِأَيْمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

التفسير:

٨٣-٨٤- وإن من أنصار نوح على منهاجه ومِلته نبي الله إبراهيم عليه السلام حين جاء ربه، وأجابه بقلب نقي طاهر بريء من كل اعتقاد باطل، وخلق دميم.

٨٥-٨٧- حين قال لأبيه وقومه منكرًا عليهم، وموبخًا لهم: ما هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله كذبًا وزورًا، وتركون عبادة الله المستحق للعبادة وحده دون سواه، فأى شيء تظنون به رب العالمين وقد عبَدتم سواه؟ هل يترك عقابكم وعذابكم؟

٨٨-٨٩- فنظر إبراهيم نظرة في نجوم السماء على عادة قومه في ذلك، متفكرًا ومستدلًا بها على الحوادث، فقال لقومه معترضًا عن الخروج معهم إلى أعيادهم: إني مريض، فلا أرغب في الخروج، فتركوه وأعرضوا عنه، وخرجوا إلى عيدهم.

٩٠-٩٢- فذهب مسرعًا إلى أصنام قومه، وخاطبها مستهزئًا بها وبمن يعبدها قائلاً: هَلَّا تَأْكُلُونَ هذا الطعام الذي يقدمه لكم سدنتكم؟ ما لكم لا تنطقون، ولا تجيبون من يسألكم؟ وكان هذا تقريرًا بأنها آلهة لا تنفع ولا تضر.

٩٣-٩٦- فأقبل على أصنامهم يضربها بيمينه بقوة، ويكسرها بعنف وشدة. فأقبل قومه عليه يعُدون مسرعين غاضبين، مستنكرين لفعله فهم يعبدونها ويعظمونها، وهو يكسرها ويهينها، فأجابهم: كيف تعبدون أصناماً تنحتونها أنتم، وتصنعونها بأيديكم، وتركون عبادة ربكم الذي خلقكم، وخلق عمَلكم، وما تعبدون من أصنام وكواكب؟!

٩٧- فقررُوا عقابه، فقالوا: ابنوا لإبراهيم بنيانًا، واملؤوه حطبًا، وأوقدوه نارًا، ثم ألقوه فيها. واستعمال هذه الشدة منهم إنما هو دليل على ضعف الحججة، وتمام العجز عن ردِّ حجة إبراهيم عليهم.

٩٨- فأراد قوم إبراهيم به كيدًا وعملاً لإهلاكه وإحراقه، فردَّ الله كيدهم ومكْرهم في نُحورهم، ونجَّى الله إبراهيم من عذابهم، وجعل نارهم بردًا وسلاماً عليه، فعادوا ذليلين خائبين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - دين الله واحد، وهو الاستسلام لله بالطاعة، وإفراده بالوحدانية؛ ولذا كان الأنبياء إخوة يقتبسون من مشكاة واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَدْيَانَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلْمًا﴾ [آل عمران: ١٩].
- ٢ - كمال إيمان إبراهيم، وصبره على الابتلاء بالإلقاء في النار وغيره.
- ٣ - عظمة قدرة الله تعالى وإعجازه في تحويل النار الحارقة برداً وسلاماً على إبراهيم.
- ٤ - وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه، وظهور المصلحة في ذلك.
- ٥ - استعمال القوة والبطش في الحوار دليل على ضعف الحجة.
- ٦ - قول إبراهيم لقومه ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عُذْرٌ اعتذر به وتَوْرِيَةٌ، وتعريض بالكلام، وليس كذباً مُحَرَّمًا لارتباطه بمقصد شرعي صحيح، وتسميته بذلك من باب التوسع في الكلام، ومراعاة بعض التقديرات.
- ٧ - جمع قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ كمال النفس والروح؛ فَإِنَّ سلامة القلب مصدر محامد الأعمال وكمالها، فما أسعد مَنْ جاء رَبَّهُ بقلب سليم، مُنْزَّهاً عن كل خلق ذميم، واعتقاد باطل!!.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَاهِدِينَ﴾ (١١) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرئِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَّبِعُكَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ إِبرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

التفسير:

٩٩-١٠٠ - وقال إبراهيم مُخْبِرًا عن حاله: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أتمكّن من عبادة ربي بحرية وراحة: فإيا ربّ اهْدني إلى خيري الدنيا والآخرة، وإلى المهجر المبارك، وهب لي أولاداً صالحين يؤنسون وحدتي، ويعينونني في غربتي، ويعبدونك معي.

١٠١ - فأجاب الله تعالى دعوته، وحقّق رغبته، وبشّره بولّد كريم حلِيم، هو إسماعيل.

١٠٢ - فلما كَبُرَ ابنه إسماعيل ومشى مع أبيه، وبدا له نَفْعُهُ وَعَوْنُهُ، قال له أبوه: يا بني! إني رأيت في المنام أني أذبحك، فما ترى في هذه الرؤيا؟ فأجابه إسماعيل بجواب أثلج صدره، وأعانته على أمره، وأرضى به ربه، وبرَّ به أباه قائلاً: افعل ما ترى وما تؤمر به من طاعة الله، فستجدي - إن شاء الله - صابراً، طائعاً، راضياً.

١٠٣ - ولأنَّ رؤيا الأنبياء حق، استسلم الأب إبراهيم، والابن إسماعيل لأمر الله، وانقادا له طاعة وإيماناً، وألقى إبراهيم ابنه على جبينه على الأرض، ليذبحه حقيقةً.

١٠٤-١٠٥ - وناديننا إبراهيم في تلك الحالة العصبية: يا إبراهيم قد حَقَّقَتِ الرؤيا، وصدَّقَتْها بسرعة استجابتك، واستجابة ابنك لها. إننا كما جزيناك على تصديقك بتفريج كربتك وشدتك، وإعتاق ابنك وإنجائه من الذبح، كذلك نُنجِّي، ونجزى كل الذين أحسنوا بإنجائهم من شدائد الدنيا والآخرة.

١٠٦ - حَقًّا إِنَّ أَمْرَكَ بِذَبْحِ ابنك هو الابتلاء والامتحان الشاق العظيم الذي يعجز عنه الكثير من البشر، وقد أبان امتثالك عن صدق إيمانك، وقوة يقينك برَّبِّكَ.

١٠٧ - واستنقذنا ابنك، فجعلنا بدلاً عنه كبشاً عظيماً يُذبح بدلاً منه، وفداءً له.

١٠٨ - وأبقينا لإبراهيم وإسماعيل ثناءً حسناً، وذكراً طيباً باقياً في الأمم بعده.

١٠٩-١١١ - نَحْمَةُ وسلاماً لإبراهيم من عند الله طيبةً مباركة، وكما جَزَيْنَا إبراهيم على طاعته لنا، وامثالِه أَمَرْنَا نجزي المحسنين من عبادنا. إِنَّ إبراهيم من عبادنا المؤمنين المخلصين الذين أَعْطَوْا العبودية حقها، والطاعة مستحقها.

١١٢ - وبَشَّرْنَا إبراهيم بولد آخر يُولد له اسمه إسحاق، يكون نبياً صالحاً، جزاءً لصبره ورضاه بأمر ربِّه، وطاعته له.

١١٣ - وأنزلنا عليها البركة في الدين والدنيا، وجعلنا من ذريتها مَنْ هو مؤمن بربه، محسن لنفسه، ومَنْ هو ظالم لها ظلماً بيئاً بكفره بربه، ومعصيته له.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فضل الهجرة في سبيل الله؛ لتحقيق العبودية لله بحرية وكرامة، وأنَّ هجرة إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام كانت أول هجرة في الأرض.

٢ - مشروعية الدعاء بطلب الولد، واستحباب الدعاء لِمَنْ رُزِق مولوداً بنحو: بُورك لك في الموهوب، وشكَّرت الواهب، وبَلَغَ رشده، ورُزِّقت برِّه.

٣ - الراجح عند الجمهور أنَّ الذبيح هو إسماعيل، وليس إسحاق كما يقول بعضهم، ويذهب إليه

اليهود، فإسماعيل كان دعوة إبراهيم، وإسحاق كان بشارة زوجته: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وإسحاق بُشِّرَ به وبعقبه فكيف يُؤمَّرُ بَدْبِجِه؟! كما أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وَصِفَ بِالْحَلِيمِ وهو ما يناسب موقفه من الذبح، وإسماعيل كان وحيد إبراهيم، فالابتلاء بَدْبِجِه وهو وحيد - حين بلغ معه السعي - أبلغ في الابتلاء وأكمل.

٤ - ينبغي للمرء طلبُ السلامة والعافية، فطلبُ البلاء لا يجوز، لكن إن قُدِّرَ ووقَّعَ، فعلى المسلم الصبر والرضا واحتساب الأجر.

٥ - قد يُبتلى الرجل الصالح بولد عاقٍ فاجر، فلا يلزم من صلاح الآباء دائماً صلاح الأبناء - وإن كان مظنة ذلك - ولا يعيب ذلك الأب ولا ينقصه؛ فكل نفس بما كسبت رهينة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْفَائِزِينَ ﴿١١٦﴾ وَآيَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

التفسير:

١١٤-١١٨ - وقسماً لقد منَّنا وأنعمنا على موسى وهارون عليهما السلام بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية، وعلى رأسها نعمة النبوة والرسالة، ونَجَّيْنَاهُمَا وقومهما من مؤمني بني إسرائيل من الغرق والمذلة، ومن قتل الأبناء، واستحياء النساء، ونصرناهم على عدوهم فرعون وقومه، فكانت لهم النصر والعزة عليهم، وأعطينا موسى وهارون كتاب التوراة الواضح في أحكامه، والبلغ في بيانه، ودلَّناهما على الطريق المستقيم الموصل إلى الله تعالى الذي لا اعوجاج فيه ولا ضلال، وهو الإسلام دين الله الذي بَعَثَ به أنبياءه ورسله ﴿إِنَّ الْدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] المتمثل بالاستسلام لله بعبادته، والانقياد لطاعته.

١١٩-١٢٢ - وأبقينا الذِّكْرَ الحسن والثناء الجميل على موسى وهارون في الأجيال بعدهما. سلام من عندنا وثناء عليهما ودعاء لهما، وكما أنجيناها وجزَّيناها خير الجزاء، فإننا نُنَجِّي ونجزى كل مَنْ أحسن من عبادنا المؤمنين المخلصين في عبادتهم وطاعتهم لنا، فإنَّ موسى وهارون من عبادنا المؤمنين بحق، والمخلصين بصدق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان إكرام الله تعالى لموسى وهارون بالنبوة والرسالة، وثناؤه عليهما.
- ٢ - بيان فضل الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون وقومه، وخلاصهم من الرّق والعبودية التي لحقت بهم، واستعباد فرعون لهم، وقتل أبنائهم، واستحياء نسايتهم، ونصرهم عليهم، وإنجائهم من الغرق الذي أهلك فرعون وقومه.
- ٣ - التوراة كتاب سماوي أنزله الله على موسى عليه السلام لهداية بني إسرائيل، بليغ في بيانه، وشامل في أحكامه في وقته وزمنه، إلا أنه حُرّف، ثم نُسخ بالقرآن الكريم.
- ٤ - في قصة إبراهيم عليه السلام وقومه، وموسى عليه السلام وقومه، مواعظ مؤثرة، ومواقف معبرة، وبيان لسُنن الله في خلقه، وإكرام لأوليائه، وإهلاك لأعدائه، وبيان لأثر صدق الإيمان، وكمال الإحسان في ذلك.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٣٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٣٨﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَّمْ عَلَيَّ إِلَى يَاسِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

التفسير:

١٢٦-١٢٣ - وَإِنَّ عَبْدَنَا إِلْيَاسَ لَمِنَ الَّذِينَ أَكْرَمْنَاهُمُ بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ، فَقَدْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَخَافُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، كَيْفَ تَعْبُدُونَ صَنَمًا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَتَرْكُونَ عِبَادَةَ أَحْسَنِ الْخَالِقِينَ، الْمُتَّصِفِ بِأَحْسَنِ الصِّفَاتِ وَأَكْمَلِهَا، الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ؟

١٢٧-١٢٩ - فَكَذَّبَ قَوْمُ إِلْيَاسَ نَبِيَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَجْمُوعُونَ وَمُحْضَرُونَ لِلْحِسَابِ وَالْعَذَابِ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، فَأَيُّهُمْ نَاجُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

١٣٠-١٣٢ - وَجَعَلْنَا لِإِلْيَاسَ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَ فِي الْأُمَّمِ بَعْدَهُ، فَسَلَامٌ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ، فَكَمَا جَزَيْنَا إِلْيَاسَ الْجِزَاءَ الْحَسَنَ عَلَى إِيْمَانِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَإِحْسَانِهِ، نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. إِنَّ إِلْيَاسَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُصْذِقِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى الْمُخْلِصِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التنديد بالشرك والكفر، والتحذير منه ومن عواقبه.
- ٢ - بيان فضل الإحسان، ومجازاة أهله بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة. وهذه قاعدة قرآنية مقررة في هذه السورة المباركة، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].
- ٣ - إلياس نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل يقال له: إلياس، وإل ياسين في القرآن الكريم.
- ٤ - تأخر عذاب قوم إلياس إلى يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَاَتَتْهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٧].
- ٥ - ينبغي اتباع الحكمة في الدعوة، ومعرفة أخطاء المدعوين وأوضاعهم وطباعهم.
- ٦ - ليس في قوله تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٥] دليل على تعدد الخالق، أو أن الإنسان يخلق أفعاله، بل المراد وَصَفُ خَلْقِ اللَّهِ بِتَمَامِ الْحَسَنِ وَكَمَالِهِ، على حدِّ قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿ وَإِنَّ لوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمْعَةُ الْهَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِيتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَمَتَّنَا عَلَيْهِمْ بِمَنْ تَشَاءُ ﴾

حِينَ ﴿١٤٨﴾

التفسير:

١٣٣-١٣٥ - وَإِنَّ عَبْدَنَا لوطاً لَأَحَدُ رُسُلِنَا، إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى قَوْمِهِ لَهْدَايَتِهِمْ وَرَدَّاهُمْ عَنْ غَوَايَتِهِمْ، فَاذْكُرُوا حِينَ خَلَصْنَاهُ وَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ جَمِيعاً مِمَّا حَلَّ بِقَوْمِهِ وَمِنَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، عَدَا زَوْجَتَهُ الْعَجُوزَ الْكَافِرَةَ، فَإِنَّهَا لَمْ تَنْجُ مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ بَقِيَتْ فِي الْعَذَابِ مَعَ الْهَالِكِينَ؛ لِأَنَّهَا بَقِيَتْ كَافِرَةً لَمْ تُؤْمِنْ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

١٣٦ - ثُمَّ أَهْلَكْنَا الْبَاقِينَ الْمَكْذِبِينَ الْكَافِرِينَ مِنْ قَوْمِ لوطِ هَلَاكاً شَدِيداً وَعَذَبْنَا هَمَّ عَذَاباً أَلِيماً.

١٣٧-١٣٨ - إنكم - يا أهل مكة - لتتروُن على ديارهم ومنازلهم في أسفاركم، وتشاهدون آثار هلاكهم وعذابهم ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، أفلا تعقلون وتعتبرون، وتخافون أن يصيبكم ما أصابهم، فتهلكوا كما هلكوا؟

١٣٩-١٤٠ - وإنَّ عبدنا يونس من الذين أكرمناهم بالنبوة والرسالة هداية قومه، فاذا ذكر قصته حين هرب من بلده، غاضباً من تكذيب قومه له، فركب سفينة مملوءة ركاباً ومتاعاً.

١٤١-١٤٢ - وحين عَصَفَتُ الرياح، وهاجت الأمواج بالسفينة، فكادت تغرق، أجرى ركاب السفينة القرعة لإلقاء بعضهم في البحر حتى ينجو باقيهم من الغرق، عندما تَحَيَّفُ حمولة السفينة، فكان يونس من الذين وقعت عليهم القرعة. فلما ألقي في البحر ابتلعه حوت ضخم، وهو آتٍ بيا يُلام عليه من خروجه من بلده بغير إذن ربه، وغضبه على قومه.

١٤٣-١٤٤ - فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته، وكذلك وهو في بطن الحوت، لَبَقِيَ في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطن الحوت قبراً له، ولكنه وَحَدَّ رَبَّهُ، وَسَبَّحَ له، واستغفر ذنبه بقوله:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الانبيا: ٨٧].

١٤٥ - فاستجاب الله نداءه ودعاءه، فألقاه من بطن الحوت على الساحل في أرض فضاء جرداء عارية من الشجر، خالية من البناء، وهو هزيل ضعيف البدن.

١٤٦ - وأنبأنا عليه شجرة من القرع؛ لَتَسْتُرَهُ وَتُظِلَّهُ، وَتَقِيَهُ حر الشمس، وأذى الحشرات.

١٤٧ - فلما استكمل قوته، واسترجع عافيته، أرسلناه إلى قومه أهل مدينة الموصل الذين كانوا يبلغون مئة ألف، بل يزيدون على ذلك.

١٤٨ - فلما جاء قومه آمنوا به وصدَّقوه، وعملوا بما جاء به، فمَتَّعْنَاهُمْ بحياتهم إلى حيث انقضاء آجالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إثبات نبوة لوط ورسالته.

٢ - العبرة في النجاة من الهلاك والعذاب للإيمان، وليست للنسب والقرابة والصدقة.

٣ - أهمية التدبُّر والتفكير في الأحداث الكونية، وقصص الأمم والأقوام؛ لِأَخْذِ العظة والعبرة منها، ومعرفة سنن الله في الكون والحياة، وَتَجَنُّبِ مصائر الأمم الهالكة.

٤ - إثبات نبوة يونس بن مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ذكره الله تعالى باسمه يونس، وَوَصَّفَهُ بصاحب الحوت،

وبذي النون.

- ٥ - الطاعة والذكر ومعرفة الله في الرخاء من أسباب الفرج عند الشدة والبلاء، كما جاء في الحديث: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ».
- ٦ - القرعة طريق من طرق القضاء عند التنازع في الأشياء، أو الاعتقاد باستواء الحقوق.
- ٧ - عظمة دعاء يونس عليه السلام معنى وأثراً، وهو قوله في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] بما فيه من توحيد الله، وتقديسه، والتوبة إليه، والاعتراف بالتقصير في حقه سبحانه وتعالى، فهو دعاء كل مكروب.
- ٩ - يستنبط من ذكر الفلك المشحون والحوت أن الموصل كانت تقع على بحر، وهذا يقوي قول علماء الآثار الذين عثروا على بعض حطام سفينة نوح عليه السلام وأنها كانت في مدينة الموصل.
- ١٠ - فَضِّلْ قَوْمَ يُونُسَ، إذ آمنوا برسولهم وَصَدَّقُوهُ، فرفع الله عنهم عذابه، وَأَحَلَّ عَلَيْهِمْ رَحْمَتَهُ وَنِعْمَتَهُ، فَمَتَّعَهُمْ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ إِلَى انْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ.
- ١١ - في قصة يونس عليه السلام درس بليغ، حين عاتب الله نبيه على غضبه على قومه، وخروجه من بلده قبل إذن ربه له، فقد لامه الله عليه وَعَرَّضَهُ لِالْتِقَامِ الْحَوْتِ لَهُ، ثم رحمه وعفا عنه.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُوكَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لِمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

التفسير:

١٤٩ - فاسأل - أيها الرسول - قومك كفار قريش سؤال تقرير وتوبيخ: كيف جعلوا لله البنات اللاتي لا يُحيونهنَّ، ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يريدونهم؟
١٥٠ - واسألهم - أيضاً - سؤال توبيخ آخر: هل خلقنا الملائكة إناثاً، وهل هم حاضرون عند خلقهم حتى يعرفوا حقيقتهم؟!.

١٥١-١٥٢ - إِنَّ مِّنْ كَذِبِهِمُ الْقَبِيحَ قَوْلَهُمْ: وَلَدَ اللَّهُ، حين يجعلون الملائكة الأظهار بنات الله، وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ في قَوْلِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

١٥٣-١٥٤ - لَأَيِّ شَيْءٍ يَخْتَارُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ، كما تزعمون وتحكمون؟ كيف تحكمون لله بالبنات، ولأنفسكم بالبنين، وأنتم لا ترضون لأنفسكم البنات؟ بشس الحكم أن تجعلوا لله ما ترونه الأدنى، وتجعلون لأنفسكم ما ترونه الأعلى.

١٥٥-١٥٧ - يَنْبَغِي أَنْ تَتَذَكَّرُوا وَتَعْرِفُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدًا، وَأَنْ قَوْلِكُمْ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ قَوْلٌ بَلَا عِلْمَ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ دَلِيلٌ وَحُجَّةٌ صَحِيحَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى قَوْلِكُمْ، وَكِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ لَكُمْ بِذَلِكَ، فَأَتُوا بِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ، فَلَا دَلِيلَ شَرْعِيٍّ، وَلَا مَنْطِقَ عَقْلِيٍّ عَلَى ذَلِكَ، فَثَبِتْ أَنْ لَا وَلَدَ لِلَّهِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

١٥٨ - وَزَعَمَ الْمُشْرِكُونَ بَاطِلًا آخَرَ حِينَ جَعَلُوا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْجَنِّ نَسْبًا، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ مِنَ الْجِنِّ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مُحْضَرُونَ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَكَذِبِهِمْ.

١٥٩-١٦٠ - تَنَزَّرَهُ اللَّهُ وَتَقَدَّسَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ سُبْحٰنَهُ مِمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْكَافِرُونَ. أما عباد الله المخلصون المؤمنون فإنهم يُتَزَهَّونَ اللهُ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الظالمون، إذ يعرفون الله حَقَّهُ وَقَدْرَهُ وَعَظَمَتَهُ، فَلَا يَصِفُونَهُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إبطال فرية بعض العرب وغيرهم أَنَّ الملائكة بنات الله، بأنه قول بلا علم، ورجم بالغيب، فلم يحضروا خَلَقَهُمْ، ولم يأتهم به كتابٌ من ربهم، فهو باطل محض، ليس عليه دليل شرعي، ولا منطق عقلي.

٢ - مشروعية رَدِّ الباطل، ودَحْضُهُ بالحجج والبراهين، وأنَّ الصراع بين الحق والباطل قائم إلى يوم الدين.

٣ - ما جاء به الكتاب والسنة هو الحق بعينه، وما خالفها هو الباطل بنفسه.

٤ - نصوص الشرع، ومنطق العقل، يَرُدُّان فِرْيَةَ الصاحبة والولد لله تعالى؛ لأنَّ اتخاذهما حاجة وشهوة، والله مُنَزَّهٌ عن ذلك، وهي فِرْيَةٌ عظيمةٌ وَصَفَ اللهُ بِشَاعَتِهَا بما تَقَشَّعِرُّ له الأبدان، وتنفطر منه القلوب.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوَ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفِّرُوا بِهِمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦١-١٦٣ - فَإِنَّكُمْ - أيها المشركون بالله - وكل ما تعبدونهم من دون الله من الأصنام والشياطين وغيرهم، لستم بقادرين على أن تُضِلُّوا أحداً من عباد الله عن دين الله، وتَفْتِنُوهُ عنه، إلا مَنْ قَدَّرَ اللهُ ﷻ عليه أن يَدْخُلَ النار، وَيَصَلِّيَ الجحيم؛ بسبب كُفْرِهِ وظُلْمِهِ وضلاله.

١٦٤-١٦٦ - وقالت الملائكة: وما مِنَّا مِنْ مَلَكٍ إِلَّا له مرتبة معلومة، ومقام معروف، فنحن الخاضعون لله، الواقفون صفوفاً في عبادة الله وطاعته، ونحن المنزهون الله سبحانه وتعالى عن كلِّ ما لا يليق بعظمته وكبريائه.

١٦٥-١٦٩ - وَإِنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ قَبْلَ بَعْثِكَ إِلَيْهِمْ، ونزول القرآن عليهم كانوا يقولون: لو جاءنا من الكتب والأنبياء ما جاء الأولين قبلنا، لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الصَّادِقِينَ فِي الْإِيمَانِ، المخلصين في العبادة.

١٧٠ - فلما جاءهم ما تمنَّوا من ذِكْرِ الْأُولِينَ، وَعِلْمِ الْآخِرِينَ، بإرسال محمد ﷺ إليهم، وإنزال القرآن عليهم؛ كفروا بذلك كله، فسوف يعلمون، وَيَرَوْنَ عاقبة كفرهم بالله ورسوله من عذاب الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وأن كل ما يقع في كون الله هو بتقدير الله وعلمه. ومن ذلك أن من كتب الله عليه النار فسوف يضلها ويدخلها. ولا يصح الاحتجاج بالقدر على الكفر والظلم والمعاصي؛ لأن الإنسان مأمورٌ بتحصيل العلم وتحقيق العمل، ولا يدري ما قدر له أو عليه إلا بعد وقوعه، أما الله جلّ في علاه فلا يقع في كونه إلا ما يعلمه، وقدّر وقوعه.
- ٢ - إثبات عبودية الملائكة، وطاعتهم لله، وعبادتهم له، لا يتجاوزون ما قدر الله لهم، وطلبه منهم.
- ٣ - الدقة والنظام من ظواهر خلق الله في كونه وشرعه. وشواهد ذلك في الكون ظاهرة، وفي الشرع معلومة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وصفوف المسلمين في صلاتهم مظهر ظاهر، ومشهد باهر.
- ٤ - بيان كذب المشركين في ادعاء الإيمان الصادق، والعبادة المخلصة لو أنزل عليهم كتاب، وأرسل إليهم رسول، إذ كفروا لما تحقق لهم ذلك.
- ٥ - تهديد الله ووعيده لمن كذب برسله، وكفر بكتابه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِنِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَنَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

التفسير:

- ١٧١-١٧٣ - وقسماً لقد سبقَتْ كلمتنا التي لا مردَّ لها، ووعدنا وقضاؤنا لرسلنا أنهم هم المنصورون على أعدائهم بالحجة البالغة، والقوة القاهرة، وأن جندنا المجاهدين في سبيلنا هم الغالبون لأعدائهم في كل مقام بحسب الواقع والمآل.
- ١٧٤-١٧٥ - فأعرض يا محمد عمَّن عاند وكفر بما جئت به من الحق، حتى تنقضي المدة التي أمهلهم إياها، ويأتيك أمر الله بقتلهم، وأنظرهم وارْتَقِبْ ماذا يُحِلُّ بهم من العذاب، فسوف يرون ذلك عياناً بياناً.

١٧٦-١٧٩ - أفيستعجلونك بنزول عذابنا بهم أيها الرسول؟! فلا يستبعدون ذلك، فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين المنذرين، فبئس صباحهم ذلك اليوم الذي يحلُّ عليهم العذاب فيه. فأعرض عنهم حتى يأذن الله بعذابهم، وأنظرهم وارْتَقِبْ ذلك اليوم، فسوف يرون ما يحلُّ بهم من العذاب والعقاب.

١٨٠-١٨٢ - تَنَزَّهَ وتقدَّس الله تبارك وتعالى، ذو العزة والجبروت، عن كل ما يَصِفُه به هؤلاء المكذبون المفترون. وسلام الله وتحيته الدائمة وثناؤه وأمانه على جميع رسله. والحمد الكامل لله ربِّ العالمين في الأولى والآخرة، فهو المستحقُّ وحدهً لكامل الحمد والثناء والشكر الذي خَلَقَ جميع الخلق، وربَّاهم بنعمه، وأنعم عليهم بفضله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآيات (١٧١-١٧٣) إخبار مستقبلي، وبشارة لعباد الله المرسلين، بأنَّ لهم النصر على أعدائهم بالحجة والقوة. وفيها إخبار مستقبلي آخر، والبشارة لجند الله المجاهدين في سبيله، بأنَّهم هم الغالبون لأعدائهم في كلِّ مقام، باعتبار العاقبة والمآل. وَعَدُّ الله لرسله وأوليائه بالنصر، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]. وَعَدُّ الله حقًّا لا يتخلفُ إذا تحقَّقت شروطه، وتوافرت أسبابه.

٢ - النصر يكون بالبيان والحجة البالغة، ويكون في ساحة القتال بالقوة والقهر، وقد تحقَّق نصرُ الله لرسله وأوليائه على أرض الواقع، وبحسب العاقبة والمآل.

٣ - إثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته لأُمَّته.

٤ - في ختمِ الله هذه السورة الكريمة بالتسبيح والسلام والحمد بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا

يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾ تعليمٌ للعباد بأدب الخطاب في الابتداء والختم، فيخسُنُ ختمُ الدعاء والكلام والمجلس بها؛ لجليل معناها، وعظيم دلالتها، وبلغ عبارتها.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - تحذير الأمة بذكر أخبار الأمم السابقة المكذبة.
- ٢ - تسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من كفار قومه.
- ٣ - إثبات البعث، وجزاء العاملين بأعمالهم من خير أو شر، ووصف أحوال يوم القيامة.
- ٤ - تقرير التوحيد بأدلته، والوحي بشواهد، والنبوة بأعلامها، والقرآن الكريم بعظمته وصدق مصدره.
- ٥ - تقرير عداوة إبليس لآدم وذريته بدافع الكبر والحسد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص﴾ وَالْقُرْءَانَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا
وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَيَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ
إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءِ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْالٌ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي
شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ
السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴿﴾
التفسير:

١-٢- ﴿ص﴾ فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وتحدي البلغاء أن يأتوا بمثل هذا القرآن. وفي
الآية قَسَمٌ تنويه بالقرآن الكريم الموصوف بما فيه من شرف وفضل، وهو تذكير لِمَنْ نسي وغفل، لكنَّ
الكافرين مستكبرون على الحق، متعالون عليه، وفي شقاق وعداء مع الله تعالى ورسوله ﷺ.

٣- كثير من الأمم المكذبة قبل هؤلاء المشركين أهلكتهم لكفرهم بربهم، وتكذيبهم لرسولهم، وحين
نزل عليهم العذاب استغاثوا واستجاروا، ولكن فات وقت الاستجارة والنجاة، فلا مَفَرَّ ولا مَنجَى.

٤-٥- وَعَجِبَ هؤلاء الكفار مِنْ بَعَثِ اللهُ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ؛ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيُنذِرَهُمْ عَذَابَهُ،
فكفروا به وكذبوه، وقالوا: ليس رسولاً صادقاً، بل هو كاذب في قوله، ساحر لقومه؛ إذ كيف يُصَيِّرُ الآلهة
الكثيرة إلهًا واحدًا؟ إِنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ودعا إليه، لَشَيْءٌ عَجِيبٌ.

٦-٧- وخرج رؤساء القوم وكبرائهم يُحَرِّضُونَ النَّاسَ عَلَى الاستمرار على الشرك، والبقاء على الكفر
وتَعُدُّدُ الْآلِهَةِ. إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ هَذَا الرَّجُلِ ودعا إليه شَيْءٌ مُدْبِرٌ، يُقصد منه الرئاسة والسيادة، فما سمعنا به في
دين آباءنا من قريش، ولا في دين مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فما هو إلا كذب وافتراء.

٨- كيف أنزل عليه القرآن مِنْ بَيْنِنَا، وليس هو بأكبرنا شرفاً، ولا أكثرنا مالاً، ولا أعلننا رئاسة؟ إِنَّ
هَذَا الاعتراض والإنكار ليس عن علم، بل عن حسد وكِبْرٍ وشك، بل قالوا ذلك؛ لِأَنَّهُمْ مَا قَدَّرُوا اللهُ حَقَّ
قَدْرِهِ، ولم يدوقوا عذابه، ولو ذاقوه ما قالوه.

٩- إِنَّ اصْطِفَاءَكَ لِلرَّسَالَةِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، وَقَفْضُ مِنْهُ، فَهَلْ هُوَ إِلَّا الْمُنْكَرُونَ يَمْلِكُونَ خِزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ
العزیز فی سلطانه، الوهَّاب لفضله لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، حتى يَتَصَرَّفُوا بِهَذِهِ الْخِزَائِنِ وَالرَّحْمَةِ كَمَا يَشَاؤُونَ!!

١٠- أم هؤلاء المشركين المعترضين مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما، فيتصرفوا بالعطاء والمنع كما يشاؤون!! فليأخذوا بالأسباب الموصلة لهم إلى السماء حتى يملكوا ويتحكّموا بالعطاء والمنع.

١١- هؤلاء الجند المكذبون جنود مهزومون، كما هزم غيرهم من الأحزاب قبلهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أقسم الله بالقرآن تعظيماً له، وتذكيراً بما فيه، والله أن يُقْسِمَ بما يشاء، أما الإنسان فلا يُقْسِمُ إلا بربه تعالى.

٢- بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء في النفوس، وعداء للنبي ﷺ.

٣- بيان جهل المشركين في استنكارهم للوحدانية، وقبّوهم لتعدّد الآلهة، ودفاعهم عنها.

٤- الكِبْرُ والحسد من موانع قبول الحق، والانقياد له.

٥- مَنْ لا يعلم ولا يملك فليس له حق الاعتراض على مَنْ يملك خزائن كل شيء، ويحيط عِلْمُهُ بكل شيء.

٦- إن أتباع الرؤساء والكبراء بلا عِلْمٍ ولا وَغْيٍ مُهْلِكٌ.

٧- ليس اتباع الآباء، أو التمسك بالواقع، دليل صحة وحق.

٨- قد يكون التحزّب مدعاة للخطأ؛ لما يدعو له من تَعْصِبٍ يمنع من التفكير الحر، والبحث عن الحق.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلًّا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَءَايَتْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْغُطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٢-١٤- كَذَّبَتْ قَبْلَ قَوْمِكَ - يا محمد - أقوامٌ كثيرة كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون صاحب

القوة والعظمة، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة قوم شعيب أصحاب البساتين والأشجار. أولئك الأقوام

والأمم أصحاب القوة والكثرة والغنى الذين تحزّبوا على الكفر والتكذيب، واجتمعوا عليه. كلهم كذّبوا

الرسول، وكفروا بهم، وبها جاؤوا به، فاستحقوا عذاب الله، وحلّ بهم عقابه.

- ١٥- فماذا ينتظر هؤلاء المشركون المكذَّبون بعد عِلْمِهِمْ بِمَا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ من عذاب؟ ليس الأمر أكثر من صيحة واحدة بهم ليس لها من رجوع ولا انقطاع حتى تُهلكهم.
- ١٦- وقال هؤلاء المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية والاستعجال: رَبَّنَا عَبَّجْ لَنَا نَصِينًا مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ.
- ١٧- اصْبِرْ - أيها الرسول - على ما يقولونه، ممَّا تَكَرَّرَ سَمَاعُهُ، وَنَخَافَ عِقَابَهُ، وَاذْكَرَ عَبْدَنَا وَنَبِيَّنَا دَاوُدَ صَاحِبَ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَالصَّبْرِ وَالْقُوَّةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ. إِنَّهُ تَوَّابٌ كَثِيرُ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَمَا يَرْضِيهِ.
- ١٨- ١٩- إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَ دَاوُدَ يُسَبِّحْنَ بِتَسْبِيحِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ، وَسَخَّرْنَا الطَّيْرَ مَجْمُوعَةً تُسَبِّحُ مَعَهُ بِتَسْبِيحِهِ، وَتُرْجَعُ بِرَجْعِهِ.
- ٢٠- وَقَوَّيْنَا مُلْكَهُ، وَبَيَّنَّنَاهُ بِالْهَيْبَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالنَّصْرِ، وَأَعْطَيْنَاهُ النُّبُوَّةَ، وَالْفَضْلَ فِي الْكَلَامِ وَالْحُكْمِ.
- الفوائد والاستنباطات:
- ١- تسلية الرسول ﷺ وتثبيتته على الثبات أمام أذى قومه، وتكذيبهم.
 - ٢- تهديد المكذِّبين بالعذاب، وتخويفهم من مصائر المكذِّبين قبلهم.
 - ٣- بيان سَفَهِ الْمُشْرِكِينَ بِطَلْبِ تَعْجِيلِ الْعَذَابِ، وَجَهْلِهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَظَمَتِهِ.
 - ٤- مشروعية الاقتداء بالصالحين، والتأسي بهم.
 - ٥- جمال الصوت من النعم، ينبغي توظيفه في طاعة الله من قراءة وتسبيح ودعوة.
 - ٦- إثبات نعم الله على نبيه داود بأنواع النعم: من حسن الصوت، وتسخير الجبال والطيور تسبيح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، وتلك من آيات الله ومعجزات داود.
 - ٧- إنعام الله على داود في إثبات ملكه بالقوة والهيبة، والعدل والحكمة، والبيان في الخطاب، وتلك أسباب تثبيت الملك والحكم.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا بِالْمِحْرَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَاِلَى نَعْمَةٍ وَاِحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ إِلَيْنِ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّوَاقِبَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

٢١-٢٢- هل أتاك - يا محمد - وقومك خبر المتخاصمين العجيب في واقعه، حين اعتلوا على داود سور محرابه، ودخلوا عليه مكان عبادته في خلوته، فارتاع من دخولها عليه، فقالوا له: لا تخف، فنحن خصمان متنازعان، ظلم أحدهما الآخر، فاقض بيننا بالعدل والإنصاف، ولا تجر علينا في الحكم، وأرشدنا إلى الطريق الحق، والسبيل الواضح العادل.

٢٣- قال أحدهما: إن هذا أخي وصاحبي يملك تسعة وتسعين نعجة من النعاج، وليس عندي إلا نعجة واحدة فقط، فطمع فيها، وقال: أعطنيها، وشدد علي في الكلام، وأكد رغبته فيها، وجرصه عليها.

٢٤-٢٥- قال داود: لقد ظلمك أخوك بسؤاله صمَّ نعتك إلى نعاجه؛ ليكمل ما عنده المئة. وإن كثيراً من الشركاء ليعتدي بعضهم على بعض، ويظلمه بأخذ حقه، وعدم إنصافه من نفسه، إلا المؤمنين الصالحين، فلا يبغى بعضهم على بعض، ويعطون الحق، ويُصِفُونَ من النفس، ولكنَّ عددهم قليل. وأدرك داود أننا اختبرناه بهذه الخصومة، فاستغفر ربه من خطئه؛ لأنه سمع من طرف واحد ثم حكم في القضية، وخرَّ ساجداً توبة وإنابة لربه، ورجوعاً عن ذنبه. فغفرنا له ذنبه، وأجبنا دعاءه، وجعلناه من المقرَّبين عندنا، وأعدنا له كرامة وقربة، وحسن مرجع عندنا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الخوف طبيعة بشرية تعترى الإنسان في حالات كثيرة، ولا يسلم منها الأنبياء.
- ٢- تأكيد حسن الأدب والخطاب حتى عند الخصام والتحاكم من خلال ألفاظ الآية، وإغفال تعيين الباغي منها، وإنما قالوا: بغى بعضنا على بعض.

٣- قوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ يحتمل أخوة القرابة والنسب، أو أخوة الصحبة والشراكة، وعلى أي منهما، فهما مثال لحسن الخطاب، وأدب المعاملة في خصومة القرابة والصحبة، واستبقاء الصلة، وعدم التقاطع والتدابير.

٤- إثبات نبوة محمد ﷺ، إذ مثل هذا القصص لا يأتي إلا بوحي إلهي.

٥- الإنصاف من النفس شاهد لمداغة حظوظ النفس وشهواتها، وهذه العلة لا يجوزه إلا القلة الذين تساموا بالإيمان والعمل الصالح، حتى راضت نفوسهم، وانقادت للحق.

٦- من طبيعة الخلفاء والشركاء الاختلاف والبغى فيما بينهم، مما يستدعي توثيق العقود وتفصيلها، منعاً من الاختلاف والتنازع.

٧- وجوب التوبة عند وقوع الذنب والمساورة لذلك.

٨- بيان فضل داود عليه السلام وإكرام الله له بما أعطاه من نبوة، وملك راسخ، ومعجزات باهرة، وحكمة وبلاغة ظاهرة، وتوبة كاملة، ومنزلة عند الله عالية.

٩- مشروعية السجود عند قراءة قوله تعالى: ﴿وَحَرَّارِكَا وَأَنَابَ﴾.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٣٨﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٣٩﴾﴾

التفسير:

٢٦- يا داودُ إِنَّا استخلفناك في الأرض، فجعلناك خليفة فيها، ومليكاً لها. فاحكُم بين الناس بالعدل والإنصاف، ولا تتبع الهوى في الأحكام، فيضلك ذلك عن دين الله وشرعه، فإنَّ الذين يَعْزِلُونَ عن سبيل الله، ويتبعون أهواءهم وشهواتهم، ويتركون شرع الله، فلا يُحْكَمُونَهُ بينهم، لهم عذاب شديد وعقاب أليم؛ بغفلتهم عن الآخرة، ونسيانهم الحساب يوم القيامة.

٢٧- وما خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وما بينهما وما فيهما من عجايب المخلوقات وكثرة أنواع، ودقة خَلْقِ، ما خلقنا ذلك باطلاً وهواً وعبثاً وسدى، واعتقاد أن ذلك الخلق لغير حكمة هو ظن الذين كفروا، فويل لهم من النار يوم القيامة لكفرهم بربهم، وسوء ظَنِّهم بخالقهم.

٢٨- أَيْعَقَلُ وَيُقَبِّلُ أن نجعل الذين آمنوا بربهم وأصلحوا في عملهم كالمفسدين في الأرض، الكافرين بالرب؟ أم نجعل الأخيار الأبرار المتقين لربهم المطيعين له كالأشرار الفجَّار الكفار؟! هذه التسوية بين هؤلاء وأولئك غير لائقة بحكمة الله وحُكمه وعدله، فلا يستوون عند الله وعند الناس، بل يُثيب الله المؤمنين الأتقياء الأخيار، ويعاقب المفسدين الأشقياء الأشرار.

٢٩- هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد - وهو القرآن - كتاب عظيم مبارك، كثير الخيرات والبركات والمنافع في الدنيا والآخرة. أنزلناه ليتفكروا في آياته، وَيَتَدَبَّرُوا هداياته ودلالاته؛ ليعملوا بها، وليتذكر أصحاب العقول السليمة القويمة ما أنزله الله عليهم، وما هداهم إليه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإنسان خليفة الله في أرضه، فواجب عليه اتباع شرعه.
- ٢- وجوب الحكم بالعدل، وحرمة اتباع الأهواء في الحكم بين الناس؛ لأنَّ الهوى يُعْمِي وَيُصِمُّ، ويوقع في الضلال والهلاك.
- ٣- نسيان الحساب والغفلة عن الآخرة مدعاة للتفريط والخسارة.
- ٤- تنزيه الله تعالى عن العبث والظلم والجهل.
- ٥- عدم التسوية بين الكافر والمؤمن، والأخيار والأشرار. فلكلِّ عَمَلُهُ، ولكلِّ جزاؤه.
- ٦- في الآية (٢٨) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ٧- الحَثُّ على تَدَبُّرِ القرآن الكريم؛ ومعرفة هداياته ودلالاته، والعمل به.
- ٨- بركة القرآن الكريم ثابتة ودائمة، ومَنْ طلبها وجدها.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَيَّ كُرْسِيَهُ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّهُ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

- ٣٠- وَرَزَقْنَا عَبْدَنَا دَاوُدَ بِالْوَلَدِ الصَّالِحِ سُلَيْمَانَ، فَانْعَمْنَا بِهِ عَلَيْهِ، وَأَقْرَرْنَا عَيْنَهُ بِهِ، فَانْعَمْنَا وَأَكْرَمْنَا بِعَبْدِنَا سُلَيْمَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الطَّاعَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى رَبِّهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ.
- ٣١- اذْكَرَ حِينَ عُرِضَتْ عَلَى سُلَيْمَانَ عَصْرًا الْخِيُولَ الْأَصِيلَةَ، وَهِيَ تَقِفُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ، وَتَرْفَعُ الرَّابِعَةَ حِينَ الْوُقُوفِ لِحَفَّتَيْهَا وَنَجَابَتَيْهَا، فَهِيَ صَافِنَةٌ فِي وَقْفَتِهَا، سَرِيعَةٌ فِي جَرِّيَّتِهَا، خَفِيفَةٌ فِي حَرَكَتِهَا، جَمِيلَةٌ فِي شَكْلِهَا، قَوِيَّةٌ مَهْيَبَةٌ فِي مَنْظَرِهَا، فَمَا زَالَتْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُعْجَبٌ بِهَا.
- ٣٢- فَقَالَ: إِنَّمَا آثَرْتُ حُبَّ الْخَيْلِ وَاسْتِعْرَاضِهَا، حَتَّى شَغَلْتَنِي عَن ذِكْرِ رَبِّي، وَأَهْلَيْتَنِي عَنْهُ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ فِي حِجَابِهَا، وَعُغْرَبَتْ فِي مَغَارِبِهَا.
- ٣٣- رُدُّوْا عَلَيَّ الْخَيْلَ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ، فَرُدُّوْهَا عَلَيْهِ، فَشَرَعَ يَمْسَحُ عَلَى سَيْقَانِهَا وَرِقَابِهَا - وَهَذَا مِنَ الْفُرُوسِيَّةِ - وَكَانَ يَعْتَبُ عَلَيْهَا بِلُطْفٍ؛ لِأَنَّهَا شَغَلْتَهُ عَن ذِكْرِ اللَّهِ.
- ٣٤-٣٥- وَلَقَدْ ابْتَلَيْنَا سُلَيْمَانَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ حِينَ جَعَلْنَا عَلَى كُرْسِيِّ مُلْكِهِ شَيْقًا وَلِدَ رُزُقًا بِهِ حِينَ أَقْسَمَ لَيَطُوقَنَّ عَلَى مِئَةِ امْرَأَةٍ مِّنْ نِّسَائِهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ تَأْتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ بِفَارَسٍ مُّجَاهِدٍ، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ تَحْمَلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشَيْقٍ وَوَلَدٍ، فَعَرَفَ سُلَيْمَانَ السَّبَبَ، فَتَابَ إِلَى رَبِّهِ وَأَنَابَ، وَطَلَبَ مِنْهُ مَغْفِرَةَ ذَنْبِهِ، وَإِجَابَةَ دَعْوَتِهِ بِاسْتِدَامَةِ مُلْكِهِ، وَتَمَيُّزِهِ عَن مَلِكٍ غَيْرِهِ بِمَا لَا يُعْطَى لغيرِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسِعُ الْفَضْلِ، كَثِيرُ الْعَطَاءِ.
- ٣٦- فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ، وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ وَطَلْبَتِهِ، فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ، وَذَلَّلَهَا لَهُ تَجْرِي لَيْسَةً طَيِّبَةً بِأَمْرِهِ، تَتَجَّهَ حَيْثُ قَصَدَ.

٣٧-٣٨- وَسَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ يَسْتَعْمَلُهُمْ فِي أَعْمَالِهِ، فَمِنْهُمْ الْبَنَّاؤُونَ يَشِيدُونَ لَهُ الدُّورَ وَالْقُصُورَ وَالْحِصُونَ، وَمِنْهُمْ الْغَوَّاصُونَ فِي الْبَحَارِ يَسْتَخْرِجُونَ اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ، وَآخَرُونَ مِنْ مَرَدَّةِ الشَّيَاطِينَ وَعَصَاتِهِمْ مُؤْتَقُونَ فِي الْأَغْلَالِ لِمَنْعِ شُرُورِهِمْ، وَكَفَّ أَذَاهُمْ.

٣٩- هَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، وَالتَّسْخِيرُ الْخَاصُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لغيرِكَ، عَطَاؤُنَا لَكَ، إِجَابَتُنَا لِدَعْوَتِكَ، فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ، وَآخِرِمَنْ شِئْتَ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ وَلَا عِتَابَ.

٤٠- وَإِنَّ لِسُلَيْمَانَ عِنْدَنَا فِي الْآخِرَةِ لَقُرْبَةً، وَحَسَنَ مَرْجِعَ، وَعَلُو مَنْزِلَةَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الولد الصالح هبة من الله، ونعمة على عبده، فعلى العبد شكر الواهب وبِرُّ الموهوب.
- ٢- الحث على المبادرة إلى التوبة والاستغفار عند الوقوع في الذنب مباشرة، وعدم التأخير والتسويف.
- ٣- جواز استعراض القوة في الأمة لإظهار القدرة، وشكر النعمة، وردع العدو.
- ٤- الخيل مربوط بنواصيها الخير، فيها القوة والجمال في حركتها ووقفتها واستعراضها.
- ٥- إن لمس الإنسان لسيقان الخيل وأعناقها له الأثر البالغ في تطمينها وإشعارها بالود والمحبة، ويمكن لراكب الفرس أن يعبر له أو لها بما يشاء عن طريق اللمس، كذلك يمكن الفرس أن يتفاهم مع غيره من الأفراس عن طريق لمس جسديهما ببعض. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢٨٠-٢٨٤).
- ٦- إرجاع ضمير ﴿تَوَارَتْ﴾ للشمس مع عدم تقدم ذكرها، إنما هو بقرينة ذكر العشيِّ، وحرف الغاية، ولفظ توارت، ولفظ الحجاب، والإضمار للشمس في ذكر الأوقات كثير في الكلام.
- ٧- الإنسان مُعَرَّضٌ للابتلاء، حتى الأنبياء، وفي ذلك رَفْعُ درجات، وتكفيرُ سيئات، وتذكيرٌ بالنعم والحسنات.

٨- بيان علو منزلة سليمان عند الله، وبيان نعيمه عليه في الدنيا، بقبول التوبة، واستمرار الملك، وتسخير الريح والجن، وتصفيد المردة، وتمكينه من العطاء والمنع، لما لم يكن لأحد غيره من الناس. وفي الآخرة بالتكريم والتقريب وارتفاع المنزلة عند الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٩- لم يُسَمَّ اللهُ فتنة سليمان، وتحديدها اجتهاد لم يرد عليه دليل قاطع، فهو ابتلاء عَرَّضَ له، ثمَّ خرج منه بإنعام وإكرام؛ فضلاً من الله ونعمة.

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِبُأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتَنَا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٤١- واذكر - يا محمد - عبدنا أيوب حين دعا ربه بما أصابه، حين قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ تَسَبَّبَ لِي بِتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ وَأَلَمٍ فِي جَسَدِي، وَمَالِي، وَأَهْلِي.

٤٢- فقلنا له: اضرب برجلك الأرض ينبع لك منها ماء بارد، فاشرب منه، واغتسل فيه، يذهب عنك ما أصابك من ضر وأذى.

٤٣- وأعطيناها أهله من زوجة وولد، وزدناه مثلهم بنين وحفدة، رحمة منا به، وإكراماً له على صبره، وإجابة لدعوته، وعبرة وذكرى لأصحاب العقول السليمة، والفهوم الصحيحة.

٤٤- وقلنا له حينما أقسم أيوب عليه السلام أن يضرب أهله: خذ بيدك حزمة أعواد من الحشيش ونحوه، فاضرب بها مَنْ أقسمت على ضربه؛ إبراراً بيمينك، حتى لا تحنث، ولا تؤذي مَنْ أحببت. إنا وجدنا أيوب صابراً على البلاء الذي حلَّ به، فنعِمَ العبدُ هو على صبره وطاعة ربه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- في تذكير النبي محمد ﷺ وقومه بقصص الأنبياء قبله، تسليية وتأسيية وعبرة، وتقديرٌ للنبوة.
- ٢- من فوائد الاغتسال بالماء البارد ما يلي:
 - أ- ينبه الجهاز العصبي مما يساعد على سرعة ردود الأفعال.
 - ب- تنشيط الجسم وزيادة تدفق الدم.
 - ت- تنشيط غدة البنكرياس وزيادة إفراز هرمون الأنسولين في الدم مما يساعد على سرعة احتراق السكر في الدم.
 - ث- يقلل من الألم لأنه يساعد الجسم على إطلاق هرمون الأندورفين القاتل للألم كما يحسن المزاج وينشط الأعصاب الحسية في الدماغ.
 - ج- تقوية جهاز المناعة ومقاومة الأمراض. (مجلة الإعجاز العلمي ص ٣٢، عدد ٤٥، ذو الحجة ١٤٣٤هـ).
 - ٣- في الابتلاء رفع درجات وتكفير سيئات؛ ولذا يعرض للأولياء والأنبياء.
 - ٤- فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.

- ٥ - بيان فضل نبي الله أيوب، ونعم الله عليه، بإجابة الدعاء، ورفع البلاء، وهبة الأهل والأبناء.
 ٦ - رفق الله بأيوب ومن أحب، حين هداه للبرِّ بيمينه، دون أذى حبيبه، بمخرج شرعي لطيف حين أمره بالضرب بالضغث، حيث لا حنث ولا أذى.

﴿ وَأذْكَرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأذْكَرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَتٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

التفسير:

٤٥ - واذكُرْ - أيها الرسول - عبادنا وأنبياءنا: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فإنهم أصحاب قوة على الطاعة، وبصيرة في الدين.

٤٦-٤٧ - إنا خصصناهم بخاصة عظيمة، وميزة كريمة، فقد جعلنا ذكُرَ الدار الآخرة حاضرة في قلوبهم لا يغفلون عنها، فعملوا لها بطاعتنا، ودَعَوْا الناس إليها، وذكَّروهم بها. وإنهم عندنا من الأصفياء الخُصَاء الذين اصطفيناهم لرسالتنا، واخترناهم لطاعتنا.

٤٨ - واذكر - أيها الرسول - عبادنا: إسماعيل، واليسع، وذا الكفل، بأحسنِ الذِّكْرِ. إنَّ كلاً منهم من الأنبياء والأخيار الذين اختارهم الله لنبوته، واختار لهم أكمل الأحوال والأوصاف.

٤٩-٥١ - هذا القرآن ذِكْرٌ وشرف لك - أيها الرسول - ولقومك. وإنَّ لأهل تقوى الله وطاعته لمصيراً إلينا حسناً، إذ يقيمون عندنا في جنات مُعدَّة لإقامتهم يُستقبلون فيها بأبواب مفتوحة، وأعدَّ لهم مجالسٌ يتكثرون فيها على الأرائك المزيَّنة، ويطلبون ما يشتهون من الفواكه المتنوعة، وأنواع الشراب المتعددة.
 ٥٢ - وعندهم نساء متساويات في السن، قاصرات أبصارهنَّ على أزواجهنَّ، لا يَنْظُرْنَ لغيرهم، ولا يَتَعَلَّقْنَ بسواهم.

٥٣-٥٤ - هذا النعيم المتنوع هو ما تُوعَدُونَ ومُجَزَّون به - أيها المؤمنون المتقون - يوم القيامة، فهو رِزْقُنَا لكم، لا انقطاع فيه، ولا نفاذ له.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تكريم الله لأنبيائه بذكْرهم والثناء عليهم.
- ٢- مَدْخُ الله لأنبيائه وعباده بالقوة في العبادة والطاعة، والبصيرة في الدين.
- ٣- ذِكْرُ الآخرة، وعدم الغفلة عنها، مَدْعَاة للعبادة، واستحضارها على الدوام.
- ٤- بيان فضل التقوى، والثناء على أهلها، وبيان ما أُعِدَّ لهم في الآخرة.
- ٥- تَنْوُّع نعيم الآخرة للمتقين وعباد الله المؤمنين، بما تشتهيهِ الأنفس، وتَلذُّ به الأعين، وهو نعيم دائم لا ينقطع، يَجَمُّ الكمال في العدد والنوع.
- ٦- الأنبياء والصالحون هداة يُقتدى بهم في الدين.

﴿ هَذَا وَاتَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَقَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَيَسَّ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَرْوَجُ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

التفسير:

- ٥٥-٥٦- هذا الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ وَوَضَّفَهُ للمتقين، وأما الطغاة المتجاوزون الحدَّ في الكفر والظلم فلهم شر مرجع ومصير، فقد أُعِدَّتْ لهم النار يُعَذَّبُونَ فيها، فيشملهم عذاب من جميع جوانبهم كأنها مهاد وفراش يتقلَّبون فيه، فَيَسُّ المهاد والفراش.
- ٥٧- هذا عذابهم. وأما شرابهم فماء شديد الحرارة، وصديد سائل من أجساد أهل النار فليشربوه، ولهم أصناف وأنواع أخرى كثيرة من العذاب.
- ٥٩- عند تَوَارُدِ المشركين على النار يتخاصمون بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً فيقولون: هذه جماعة كبيرة من الأتباع قادمة لكم، وداخلة معكم، فيقول الآخرون: لا أهلاً ولا مرحباً بهم، فلهم النار يقاسون حرَّها، كما قاسيناه.
- ٦٠-٦١- فيقول الأتباع للطاغين المتبوعين: بل أنتم لا مرحباً بكم؛ لأنكم أضللتُمونا في الدنيا عن الحق، حتى صارت النار لنا مَسْكَنًا ومقرأً، فَيَسُّ دار الاستقرار. فَيَا رَبَّنَا مَنْ أَضَلَّنَا فِي الدُّنْيَا عَنِ الْهُدَى وَأَدْخَلَنَا الْعَذَابَ، فَضَاعِفٌ عَذَابُهُ فِي النَّارِ.

٦٢-٦٤- وقال الطغاة المتبوعون: ما بآلنا لا نرى معنا في النار رجالاً كُنَّا نَعُدُّهم في الدنيا من الأشقياء والأشرار؟ هل تحقيرنا لهم واستهزاؤنا بهم كان خطأ، أو أنهم معنا في النار، لكن لم ترهم، ولم تقع عليهم الأبصار؟!

إنَّ ما تَقَدَّمَ من جدال أهل النار وخصامهم، وحديث بعضهم لبعض، حَقُّ واقع لا شك فيه.
الفوائد والاستنباطات:

- ١- ذمُّ الطغيان في الكفر والظلم، وبيان جزاء أهله في الآخرة.
- ٢- تنوُّع عذاب الطغاة والمشرِّكين يومَ الدين بما لا تُطيقه الأسباع، فضلاً عن الأجسام.
- ٣- ذِكْرُ صُورٍ ممَّا يجري من الخصام والجدال بين أهل النار للعِظَّة والاعتبار، وكشف الحقائق والأسرار.
- ٤- دعاء الأتباع على المتبوعين بمضاعفة العذاب عليهم؛ لأنهم سبب ضلالهم، وهم مَنْ زَيَّن لهم الكفر والمعاصي والفجور.
- ٥- بُطْلان معتقدات المشرِّكين، وتصنيفهم للناس في الدنيا إلى أشرار وأخيار.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْعَقِيلُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا آتَمًا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٦٥-٦٦- قل - يا محمد - لقومك: إنما أنا رسول من الله إليكم لأخوِّفكم، وأنذركم من عذاب الله أن يحلَّ بكم؛ بسبب كفركم وتكذيبكم، وأبْلَغكم أنه ليس هناك إله مستحق للعبادة والطاعة إلا إله واحد هو الله وحده، الذي قهر كل شيء وغلبه، فهو مالك السموات والأرض وما بينهما، والمتصرِّف فيهما، وهو العزيز في ملكه وانتقامه، الغفَّار لذنوب مَنْ تاب من عباده، وأناب إلى مرضاته.

٦٧-٦٨- قل - يا محمد - لقومك: إنَّ هذا القرآن خبرٌ عظيم النفع والهداية، أنتم عنه غافلون منصرفون لا تعلمون خيره، ولا تعملون به.

٦٩-٧٠- ليس لي علم باختصاص ملائكة السماء في شأن خلق آدم، لولا تعليم الله لي ما لا أعلم وحيًا من الله لي؛ لِأَنْذِرَكُمْ عَذَابَ اللَّهِ، وَأَبَيِّنَ لَكُمْ شَرَّهَ وَدِينَهُ.

٧١-٧٤- اذكر - يا محمد - لقومك، قصة خلق آدم حين قال ربك للملائكة مخبراً لهم: إني خالق بشراً من طين، فإذا سَوَّيْتُ خَلْقَهُ، وَأَكْمَلْتُ جَسَدَهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي، فَدَبَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ، فَاسْجُدُوا إِكْرَامًا لَهُ، وَإِعْظَامًا لَخَلْقِهِ، سَجُودَ تَحِيَّةٍ لَا سَجُودَ عِبَادَةٍ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، طَاعَةً لِلَّهِ وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، غَيْرَ إِبْلِيسَ، فَامْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ تَكْبُرًا وَاسْتِعْلَاءً، وَكَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير التوحيد بأدلته وعلاماته.
- ٢- تقرير نبوة محمد ﷺ، وأن ما جاء به وحي من الله بشواهد من الخبر عن الملائكة الأعلى، الذي لا يعلم ما يجري فيه إلا بوحى من الله.
- ٣- إظهار عداوة إبليس لآدم وذريته.
- ٤- ذم صفة الكبر والحسد، وبيان شرها وأذاها على من اتصف بها.
- ٥- تقرير الحوار بين الأنداد والأضداد، وعرض القرآن للشبه، والحجاج عند الخصوم بوضوح وصرحة تامة، والرّد على ذلك بالحجة البالغة.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير:

٧٥- يخاطب الله إبليس: ما الذي منعك من السجود لمن أكرمته، فخلقته بيدي؟ ونفخت فيه من رוחي؟ أستكبرت عليه، أم كنت من المتكبرين المتعاليين على ربك؟

٧٦-٧٨- قال إبليس معارضاً ربه: لم أسجد له؛ لأنني أفضل منه، وهو أدنى مني، فقد خلقتني من نار، وخلقته من طين، والنار خير من الطين. فردَّ الله عليه: فاخرج من الجنة حقيراً شريداً طريداً ملعوناً دائماً إلى يوم القيامة.

٧٩-٨٣- قال إبليس لربه: رَبِّ فَأَخَّرْ أَجَلِي، وَلَا تُهْلِكْنِي إِلَى حِينٍ تَبْعُثُ الْخَلْقَ مِنْ قُبُورِهِمْ. فأجاب الله طلبه: فإنك من المؤخَّرين إلى يوم الوقت المعلوم حين تموت الخلائق جميعاً عند النفخة الأولى.

٨٤-٨٥- فالحق مني، ولا أقول إلا الحق، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ يَا إِبْلِيسَ، وَمَنْ ذَرَيْتَكَ، وَمَنْ تَبَعَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَجْمَعِينَ، بِمَنْ تَبِعَ ضَلَالِكَ، وَتَرَكَ هُدَايَ.

٨٦- قل - يا محمد - هؤلاء المشركين: لا أطلب منكم أجراً ولا جزاء على دعوتكم وهدايتكم، ولا أدعي ما ليس لي، ولا أتكلَّفُ شيئاً تحزُّصاً وافتراءً، بل أتبع ما يوحي إلي من ربي.

٨٧-٨٨- ما هذا القرآن إلا تذكيرٌ للعالمين جميعاً من الجن والإنس، يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم، وما يصلح أحوالهم في دنياهم، وسوف تعلمون - أيها المشركون - خبر هذا القرآن وصدقه حين ينتصر الإسلام، ويدخل الناس فيه أفواجا، وحين يقع عليكم العذاب، وتنقطع عنكم الأسباب، حين ترون أخباره وحقائقه عين اليقين.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآيتين (٨٢-٨٣) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ إبليس قد أخذ على نفسه عهداً بأن يُضِلَّ بني آدم، إلا مَنْ أخلص العبادة لله تعالى.

٢ - إكرام الله للإنسان حين خلق أباه بيده، وأسجد له ملائكته، وأدخله جنته.

٣ - غَضَبُ الله على إبليس وطَرْدُهُ من الجنة؛ لمعصية ربه، وحسده لآدم وذريته.

٤ - بيان غاية إبليس من طلب تأخير أجله؛ ليُضِلَّ الناس، ويُغْوِيَهُمْ عن الحق، ويُفْرِيمَهُم بالمعصية،

ويُزَيِّن لهم الشهوات، ويوسوس لهم بالشبهات؛ ليكونوا قَرَنَاءَ بالنار. وبهذا تظهر عداوة الشيطان للإنسان.

٥ - حِفْظُ الله لعباده المؤمنين المخلصين من إغواء الشياطين.

٦ - دَمُّ التَّكْلِيفِ الْمُؤَدِّي إِلَى الكذب، والتقول على الله، ورسوله، والمؤمنين.

٧ - التذكر بالقرآن والتعلم من قصصه وخبره، وظهور صدقه وأنه وحي الله لرسوله ﷺ.

٨ - في الآية (٨٨) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة للإسلام وأهله، فقد تَوَعَّدَ الله المشركين بأنهم سيعلمون

خبر هذا القرآن وصدقه حين يغلب الإسلام، ويدخل النَّاسُ فيه أفواجا.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير عقيدة التوحيد، وتأكيدها.
- ٢ - التنويه بشأن القرآن الكريم.
- ٣ - إبطال عقيدة الشرك، والردُّ على شُبُه المشرِكين.
- ٤ - إثبات البعث بالمثال، والجزاء يوم الحساب؛ لتُجزى كل نفس بما كسبت، بعدلٍ لا ظلم معه.
- ٥ - بيان عظمة الله ﷻ في قدرته على تنظيم كونه وقبضته، ممَّا لا يَصِحُّ أن يُشْرَكَ معه غيره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٦﴾ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير:

- ١-٢- تنزيل القرآن الكريم إنما هو من الله العزيز في قدرته وانتقامه، الحكيم في تدبيره وأحكامه، فقد أنزلنا إليك - يا محمد - هذا القرآن يأمر بالحق والعدل، فاعبد الله وحده، وأخلص له عبادتك ودينك.
- ٣- فإن الطاعة التامة الكاملة والسالمة من الشرك لله وحده. فأما الذين أشركوا مع الله غيره واتخذوا من دونه أولياء وقالوا محتجِّين: ما نعبد تلك الآلهة مع الله إلا لتشفع لنا عند الله، وتُقربنا منه، وترفعنا عنده منزلة، فقد كفروا بهذه المقولة؛ لأنَّ العبادة والشفاعة لله وحده والله لا يرضى بأن يُشْرَكَ معه غيره، فَبَطَلَتْ تلك الشبهة. إنَّ الله لا يُوقِفُ للهداية إلى دينه مَنْ هُوَ كَدَّابٌّ عَلَى اللَّهِ، جَحُودٌ بِآيَاتِهِ وَرِسَالَاتِهِ.

٤ - لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاختار من مخلوقاته ما يشاء، واصطفى من يريد. تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَهُوَ الْقَهَّارُ لغيره بِقُدْرَتِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ لَهُ.

٥ - خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا بِالْحَقِّ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا كَيْفَ يَشَاءُ، يَجِيءُ بِاللَّيْلِ، وَيَذْهَبُ بِالنَّهَارِ، وَيَجِيءُ بِالنَّهَارِ، وَيَذْهَبُ بِاللَّيْلِ، وَذَلَّلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، يَجْرِي كُلُّ مِنْهُمَا فِي فَلَكِهِ بِانْتِظَامٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، تَتَحَقَّقُ بِذَلِكَ مَنَافِعُ الْعِبَادِ وَمَصَالِحُ النَّاسِ. إِنَّ اللَّهَ الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ، وَأَنْعَمَ عَلَى خَلْقِهِ بِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَأَوْجَدَهَا وَسَخَّرَهَا، هُوَ الْعَزِيزُ عَلَى خَلْقِهِ، الْغَفَّارُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير التوحيد، وإثبات نبوة رسولنا محمد ﷺ.
- ٢ - بيان مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من حكيم حميد.
- ٣ - الإخلاص ركن الطاعة الأساس.
- ٤ - بطلان شبهة المشركين في شركهم، بأنهم يريدون من أشركوا شفعاء يُقَرَّبونهم عند الله زُلْفَى، فالعبادة لله، والشفاعة برضا الله وإذنه.

- ٥ - تنزيه الله عن الولد، فهو الواحد الأحد الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كفواً أحد.
- ٦ - إثبات قدرة الله على الخلق والتصرف بما خلق، تدليلاً على القدرة والحكمة والنعمة.
- ٧ - حركة الكون والأفلاك مقدره الأجل، ومحددة المسار، وكلها أدلة على العزيز القهار.
- ٨ - تثبت الدراسات العلمية حتمية فناء كل من الشمس والقمر، فالشمس تفقد في كل ثانية من عمرها (على هيئة طاقة) ما يعادل ٦ , ٤ مليون طن من كتلتها. وقد ثبت أن الأرض تفقد من سرعة دورانها حول محورها ما يقدر بحوالي الواحد من الألف من الثانية في كل قرن من الزمان، وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها - على ضالته - يؤدي إلى تزايد مطرد في سرعة دوران القمر حول محوره مما يدفعه إلى التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة. ويُقدَّر علماء الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر سوف يخرج حتماً في لحظة من اللحظات من نطاق أسر الأرض له إلى نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه وتكون في ذلك نهايته الحتمية. ومن الحقائق الثابتة عن الأرض أنها مكورة (كرة أو شبه كرة)، ولكن نظراً لضخامة أبعادها فإن الإنسان يراها مسطحة بغير أدنى انحناء. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٥٧٥-٥٨٨، ٢٣١-٢٤٤).

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَجُ بِخَلْقِكُمْ فِي
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير:

٦ - خَلَقَكُمْ رَبُّكُمْ - أيها الناس - من آدم، وخلق منه زوجته، وخلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع ذكراً
وأُنثى: من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، كما أنه يخلقكم في بطون أمهاتكم طوراً بعد طور، ومرحلة بعد
أخرى، في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. ذلكم الخالق لتلك المخلوقات في
تلك الظلمات. هو الله ربكم المفرد بالملك، والموحد بالالوهية، المستحق وحده للعبادة، فكيف تعدلون
عن عبادته، وتنصرفون إلى عبادة غيره من خلقه؟

٧ - إِنْ تَكْفُرُوا - أيها الناس - بربكم، فلا تؤمنوا به ولا برسله ولا بكتبه، فإنه غني عنكم، ليس بحاجة
إليكم، بل أنتم الفقراء إليه، والضعفاء بين يديه، والله لا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمرهم به، بل يُحذِّرهم
منه، وإنما يرضى لهم شُكْرَ نِعْمِهِ عليهم، ولا تحملُ نفسٌ إثمَ نفسٍ أخرى، بل تُجْزَى كل نفس بما كسبت،
إلى الله مرجعكم ومصيركم، فيخبركم بعملكم الذي أحصاه عليكم، ويحاسبكم عليه، فهو عليم بأسرار
النفوس، وما تُخفي الصدور.

٨ - وَإِذَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ بَلَاءٌ وَشِدَّةٌ وَمَرَضٌ، تَذَكَّرَ رَبَّهُ، فاستغاث به ودعاه ورجاه، ثم إذا أجاب الله
دعوته، وكشَفَ ضُرَّهُ، وأسبغ عليه نعمه، نسي دعاءه رَبَّهُ، وكشَفَهُ ضُرَّهُ، وأشرك معه غيره؛ لِيُضِلَّ الْآخِرِينَ
عن الإيمان بالله، وَيُضِدَّهُمْ عن دينه، فقل له - يا محمد - مُهَدِّدًا مُتَوَعِّدًا: تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا مِنْ الْوَقْتِ إِلَى
حِينَ يَأْتِيَ أَجْلُكَ فَمُوتَ، فَإِنَّكَ بِكُفْرِكَ وَضَلَالِكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الْمَعْدِيَّينَ بِهَا، الْخَالِدِينَ فِيهَا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ينظر: صورة خلق الإنسان في الرحم، كما في الملحق.
- ٢ - تذكير الإنسان بِنِعْمِ الله عليه بأطوار خلقه، وتَنَوُّع الرزق.
- ٣ - قال الدكتور محمد جميل الحبال: «التفسير الطبي لقوله تعالى: ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ وجد أن للظلمة أثراً كبيراً في نمو الجنين داخل الرحم خاصةً جهازه العصبي، فالضوء يعيق نموه وقد يسبب إتلاف شبكية العين، لذلك تكون أجفان الجنين مغلقة أيضاً ولا تُفتح إلا قبيل الولادة». وينظر: صورة الظلمات الثلاث، كما في الملحق
- ٤ - بيان غنى الله تعالى عن خلقه، وافتقار الخلق إليه.
- ٥ - إثبات عدل الله يوم القيامة، في حُكْمِهِ بين خَلْقِهِ.
- ٦ - إحاطة علم الله بخلقهم في أحوالهم وأفعالهم، ظاهرها وباطنها، سرها وعلانياتها.
- ٧ - بيان معرفة الإنسان ربه في الشدة، وإعراضه عنه في الرخاء، بما يكشف نفسية الإنسان في تَقَلُّبِهِ وَتَغْيَرِهِ، وعدم ثباته في كثير من حالاته.
- ٨ - في الآية (٨) إخبار مستقبلي عن حال الإنسان الكافر إذا أصابه بلاء وشدة ومرض، فإنه يتذكَّر ربه، ويستغيث به ويدعوه، ثم إذا أجابه، وكشف عنه ضُرَّهُ، ومنحه نعمه، نسي دعاءه لرَبِّهِ، وأشرك معه غيره؛ لِيُضِلَّ غيره عن الإيمان بالله وطاعته.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ آتَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْهُ خُضُوعًا لَهُ، دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٩ - أهذا الكافر المتمتع بكفره خير، أم من هو عابد لربه، مطيع له، يقضي ساعات الليل في الصلاة لربه والسجود له، يخاف عذاب الآخرة، ويأمل رحمة ربه؟ قل يا محمد هل يستوي الذين يعلمون الحق، والذين لا يعلمون شيئاً؟

إنهم قطعاً لا يستونون. إنما يتذكر المواعظ، ويعرف الحقائق، أصحاب العقول السليمة من الهوى والشبهات.

١٠ - قل - يا رسول الله - لعبادي المؤمنين بربهم، المصدقين برسوله: اتقوا ربكم بطاعته، واجتناب معصيته، فإن للذين أحسنوا في هذه الدنيا بالعبادة والطاعة والعمل الصالح النافع، لهم حسنة في الآخرة وهي الجنة، مع حسنة الدنيا من صحة ونصر ورزق وغير ذلك. وإن أرض الله واسعة، فهاجروا فيها إلى حيث تعبدون ربكم، وتقيمون دينكم، واعلموا أن الصابرين يُعطون ثواب صبرهم في الآخرة بغير حسابٍ كثرةً ووفرة.

١١-١٣ - قل - يا محمد - للناس: إن الله أمرني ومن تبعني بإخلاص العباداة له وحده دون سواه، وأمرني أن أكون أول من أسلم من أمتي.

وقل للناس يا محمد: إني أخاف إن عصيت ربي فيما أمرني به من طاعته والإخلاص في عبادته عذاب يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم بأحداثه وأهواله.

١٤-١٥ - وقل لهم يا محمد: إني أعبد الله وحده لا شريك له، مخلصاً له في عبادتي وطاعتي.

فاعبدوا أنتم - أيها المشركون - ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام والمخلوقات، فلن يضُرَّني ذلك شيئاً، بل يضُرُّكم، وقل لهم: إن الخاسرين حقاً هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بما

أشركوا بالله. إنَّ خُسْرانَ المشركين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة هو الخسران البين الواضح، إذ لا رِبْحَ بعده أبداً.

١٦ - أولئك الخاسرون لهم يوم القيامة عذاب عظيم حيث تغشاهم قِطْعٌ من النار من فوقهم كهيئة الظلِّ عليهم، من تحتهم قطع أخرى كذلك. هذا العذاب الموصوف بها ترتعد به النفوس يُخَوِّفُ الله به عباده، ويُحذِّرهم منه. فيا عبادي اتقوني بامثال أوامري، واجتنب معاصي؛ حتى تَسَلِّمُوا من العذاب والعقاب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تفضيل أهل العلم على غيرهم عند الله وعند الناس.
- ٢ - تفضيل القانت العابد على العاصي العايب.
- ٣ - وجوب التقوى والصبر على الأذى.
- ٤ - تقرير التوحيد، وتأکید الإخلاص.
- ٥ - الخسران الكامل هو خسران الآخرة، حيث لا ربح بعده، أمَّا خسارة الدنيا فمعوضة.
- ٦ - شدة عذاب الآخرة وتتنوع ألوانه، يُخيف كل صاحب قلب حي.
- ٧ - التقوى وسيلة النجاة في الحياة الأخرى.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنفَعُوا رَبَّهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۗ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۖ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفًىٰ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

التفسير:

١٧-١٨ - والذين اجتنبوا طاعة الشيطان، وعبادة غير الله، وتابوا إلى الله وأنابوا إليه بعبادته وحده، وإخلاص الدين له، لهم البشرى في الحياة الدنيا بالتوفيق والهداية والثناء الحسن، وفي الآخرة بالرضوان ونعيم الجنان. فَبَشِّرْ - يا محمد - عبادي الذين يستمعون القول، فيتبعون أرشده وأحسنه، وأحسن ذلك

كلام الله، وكلام رسوله ﷺ. أولئك هم الذين وَفَّقَهُمُ اللهُ لِلرِّشَادِ وَالهُدَى وَالسَّدَادِ، فَهَدَاهُمْ لِأَحْسَنِ الْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، فَهَمُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْقَوِيمَةِ.

١٩-٢٠- أَمَّنْ وَجِبَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ؛ بِسَبَبِ عِنَادِهِ وَكُفْرِهِ بِآيَاتِ رَبِّهِ، فَلَنْ تُنْقِذَهُ مِنَ النَّارِ، فَلَسْتُ عَلَيْهِ بِوَكِيلٍ، وَلَا عَنْهُ بِمَسْئُولٍ، إِذْ ارْتَضَى الْهَلَاكَ لِنَفْسِهِ.

لكن الذين اتقوا ربهم - بطاعته وإخلاص عبادته - لهم في الجنة غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري من تحتها الأنهار، أعدّها اللهُ، ووعدها عباده المتقين وعداً متحققاً قطعاً، فإنّ الله لا يخلف الميعاد.

٢١- ألم تر - يا محمد - أن الله أنزل من السماء ماءً فأدخله في الأرض، وجعله عيوناً نابية، ومياهاً جارية، ثم يُخْرِجُ بِهَذَا الْمَاءِ زُرْعاً مُخْتَلِفاً أَنْوَاعُهُ وَأَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَبْسُ بِعَدِّ خَضْرَتِهِ وَنَضَارَتِهِ، فَتَرَاهُ أَصْفَرَ اللَّوْنِ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً مُتَكَسِراً. إن في هذه الأحوال والأطوار لَعِبْرَةً وَذِكْرًا لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ الْحَكِيمَةِ السَّلِيمَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بشاره اللهُ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ، وَتَرَكَ عِبَادَةَ غَيْرِ رَبِّ الْأَرْبَابِ.
- ٢- فضيلة التمييز بين الحق والباطل، واتباع الأحسن في الأقوال والأعمال، وتَرْكِ مَا دُونَ ذَلِكَ، وَشَرْفِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ؛ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالخَطَأِ مِنَ الصَّوَابِ.
- ٣- مَنْ وَجِبَّتْ لَهُ النَّارُ لَا يُمْكِنُ هِدَايَتُهُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.
- ٤- إنبات نعيم الجنة وتنوعه.
- ٥- تذكير الناس بما تراه أعينهم من مظاهر قدرة الله في الخلق والإحياء، وفي الإمامة والبعث، مما هو دليل على كمال القدرة، وتَفَرُّدِ الْأَلُوْهِيَةِ، وَاسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ.
- ٦- لاحظ العلماء أن أهم عناصر ترسب في النبات ولها خصائص التحطم هي السيلكا، فالسيلكا تتوافر في النبات في صور بلورات حجرية (phytolith) وهي مكونات الزجاج، وترسب في أماكن محددة بأوراق النبات خصوصاً نباتات ذوات الفلقة الواحدة مثل الشعير والقمح والذرة وتكون أعلى في حالة توافر الماء حيث تصل النسبة إلى أكثر من ١٠٪ من المادة الجافة Dry matter.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، قَوْلٌ لَلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفَسَعْتُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ، مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَنْقِي بَوَّجْهِهِ، سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاِنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

٢٢- أفمن وسَّع الله صدره، فسعدَ بقبول الإسلام والانقياد له والإيمان به، فهو على نور من ربه، وبصيرة من أمره، كمن ليس كذلك؟ لا يستوتون. فويل وهلاك للذين قست قلوبهم، وأعرضت عن ذكر الله، فهم في ضلال بين عن الحق.

٢٣- الله ﷻ هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، الذي هو أحسن الحديث؛ لأنه كلام الله، أنزله متشابهاً في حسنه وإحكامه، وفي لفظه وعدم اختلافه، تُعاد فيه القصص والأحكام، والحجج والبيانات، تقشعراً من سماعه وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثراً بما فيه من ترهيب ووعيد، ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكرِ الله؛ استبشاراً بما فيه من وعدٍ وترغيب. ذلك التأثر والتذكُّر هداية من الله لعباده. والله يهدي بهذا القرآن العظيم مَنْ يشاء من خلقه، وَمَنْ يُضِلُّهُ اللهُ عن الإيمان بهذا القرآن بكُفْرِهِ وعِنَادِهِ، فما له من هادٍ يهديه للدين، ويوفقه للحق.

٢٤- أفمن يُلقي في النار مغلولة يداه، فلا يستطيع أن يتقي النار إلا بوجهه، لكفره وضلاله، خير أم من ينعم في الجنة؛ لأنَّ الله وقَّعه وهداه إلى تقاه؟ وقيل يومئذ للظالمين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من المعاصي والآثام.

٢٥-٢٦- كذب الذين من قبل قومك - يا محمد - رسلكم، فجاءهم العذاب من حيث لا يشعرون بمجيئه، فأذاق الله الأمم المكذبة العذاب والهوان في الدنيا، وأعدَّ لهم عذاباً أشقَّ وأشدَّ في الآخرة. لو كانوا يعلمون أن ما حلَّ بهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لاتعظوا، واعتبروا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٢٢) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ٢ - في الإسلام انشراح للصدر، ونور في القلب واطمئنان للنفس، واقتناع في العقل، بخلاف مَنْ قسا قلبه، وضلَّ عقله، فكفر بربه.
- ٣ - القلوب قلبان: قلب قابل للهداية، وآخر مُعْرِضٌ عنها غير قابل لها.
- ٤ - القرآن أحسن الحديث؛ لأنه كلام الله، فيه خبرٌ ما قبلنا، ونبأ ما بعدنا، وحُكْم ما بيننا، لا تنقضي عجائبه، فهو متشابه في حسن بيانه وبلاغة ألفاظه، وإتقان أحكامه، وصدق قصصه وأخباره.
- ٥ - عِظْمُ تأثير القرآن الكريم فيمن يتلونه حق تلاوته، ويخشون ربهم حق خشيته.

﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (٣٠) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ﴾ (٣١) ﴿

التفسير:

٢٧-٢٨ - ولقد ضَرَبْنَا للناس جميعاً في هذا القرآن من كل مَثَلٍ من أمثال القرون الماضية وقصصهم وأخبارهم تخويفاً وتحذيراً؛ لعلهم يتذكرون ويتعظون، فينزعجوا عمّا هم مقيمون عليه من الكفر والتكذيب، وجعلنا هذا القرآن عربياً اللسان، بليغ البيان، واضح المعاني، لا لبس فيه ولا انحراف بل غزارة معنى في وجازة لفظ، فلعلهم يتقون الله بامثال أوامره، واجتناب نواهيه.

٢٩ - ضرب الله عبداً مملوكاً لشركاء متنازعين مختلفين، فهو حيرانٌ في إرضائهم جميعاً، وعبداً آخر مملوكاً خالصاً لمالك واحد يعرف مراده، وما يرضيه. هل يستويان حالاً ومثلاً؟ لا يستويان، كذلك المشرك هو في حيرة وشك، والمؤمن في يقين وإيمان وراحة واطمئنان، فالحق الكامل، والثناء التام لله وحده، ولكن المشركين لا يعلمون الحق، ولا يهتدون.

٣٠-٣١ - إِنَّكَ - يا محمد - ميت، وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ. وتلك حقيقة لا تُنكَرُ، ثم إِنَّكُمْ جميعاً - أيها الناس - يوم القيامة عند ربكم تتحاكمون وتتخاصمون، فَيُحْكَمُ بينكم بالحق والعدل.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - أهمية ضرب الأمثال للهداية والإفهام.
- ٢ - بيان مثل المشرك بربه، والموحد له، فالمشرك في حيرة وشك واضطراب، والمؤمن في يقين واطمئنان وراحة بال.
- ٣ - تقرير حقيقة الموت، فهو مصير كل حي، وأن كل نفس ذائقة الموت.
- ٤ - إثبات التخاصم والتحاكم يوم القيامة بين البشر، وأن الله يحكم بين الناس بالحق والعدل فيما هم فيه مختلفون ومتنازعون.
- ٥ - الثناء على القرآن الكريم بجمال المعاني، وكمال المباني.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ^{٣٢} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ^{٣٣} وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ^{٣٤} أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^{٣٥} لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ^{٣٦} ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ^{٣٧} لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^{٣٨} أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ^{٣٩} وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ^{٤٠} وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^{٤١} وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ^{٤٢} أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ^{٤٣} وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ^{٤٤} قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ^{٤٥} قُلْ يَتَقَوَّمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^{٤٦} مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ^{٤٧} ﴾

التفسير:

- ٣٢ - يُنَكِّرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الَّذِينَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، وَيُؤَبِّخُهُمْ: لَا أَحَدًا أَكْثَرُ ظُلْمًا مِنْهُمْ، وَلَا أَحَدًا أَكْثَرُ ظُلْمًا مِمَّنْ كَذَبَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مُسْتَقَرٌّ لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ؟
- ٣٣-٣٥ - يمدح الله تعالى النبي ﷺ والمؤمنين: والذي جاء بالحق الذي أمر الله به من توحيده وهو النبي ﷺ، والذين صدقوه واتبعوا سنته، أولئك أصحاب الدرجات العالية هم المتقون حقاً، لهم ما يتمنون عند ربهم في الجنة. ذلك المقام العالي جزاء الذين أحسنوا بأقوالهم وأفعالهم، ليغفر الله تعالى ذنوبهم، ويثيبهم بالجنة على عبادتهم في الدنيا بأفضل ما كانوا يعملون.

٣٦-٣٧- يُبَشِّرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ حَافِظٌ لَهُ مِنَ كَيْدِ الْمُشْرِكِينَ: أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مِنْ مَكْرِهِمْ؟ وَيُخَوِّفُكَ الْمُشْرِكُونَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - بِأَصْنَافِهِمْ وَفِرْسَانِهِمْ. وَمَنْ يُضِلِّهِ اللهُ عَنِ الْحَقِّ فَمَا لَهُ مِنْ مَرشِدٍ وَمَعِينٍ، وَمَنْ يَهْدِهِ اللهُ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ عَنِ الْحَقِّ. أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ فِي مَلَكُوتِهِ، ذِي انْتِقَامٍ مِنَ الْمُجْرِمِينَ؟

٣٨-٤٠- وَقَسَمًا إِنْ سَأَلْتَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - قَوْمَكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: مَنْ أَبْدَعَ هَذِهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ؟ قَسَمًا سَيَقُولُونَ: اللهُ. قُلْ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي عَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ غَيْرِ اللهِ، إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِشِدَّةٍ، هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْشِفَ عَنِّي ذَلِكَ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِخَيْرٍ هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْنَعَهُ عَنِّي؟ قُلْ لَهُمْ: اللهُ سَبْحَانَهُ كَافِيَنِي، عَلَيْهِ وَحْدَهُ يَعْتَمِدُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قُلْ لَهُمْ: اعْمَلُوا عَلَى حَالَتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا، إِنِّي عَامِلٌ عَلَى مَا أَمَرَنِي رَبِّي سَبْحَانَهُ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ الَّذِي يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُذِلُّهُ، وَيُصِيبُهُ عَذَابُ النَّارِ الدَّائِمِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تحريم الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ.
- ٢- وجوب الصدق في القول والعمل.
- ٣- جملة ﴿وَصَدَقَ بِهِ﴾ صلة موصول محذوف، تقديره: والذي صدق به؛ لأنَّ المصدِّق غير الذي جاء بالصدق.
- ٤- جملة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ خبر عن اسم الموصول. وجيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز.
- ٥- في الآية (٣٧) إخبار مستقبلٍ بأنَّ الهداية بيد الله ﷻ، فَمَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يُضِلَّهُ.
- ٦- حماية الله تعالى لرسوله ﷺ.
- ٧- تهديد الله تعالى بانتقامه من أعدائه، وأعداء رسوله ﷺ.
- ٨- في الآية (٣٨) جيء بحرف ﴿هَلْ﴾ في جواب الشرط، وهي للاستفهام الإنكاري أيضاً؛ تأكيداً لما أفادته همزة الاستفهام مع ما في ﴿هَلْ﴾ من إفادة التحقيق.
- ٩- أسند فعل ﴿يَأْتِيهِ﴾ إلى العذاب المخزي؛ لأنَّ الإتيان مُشعِرٌ بأنَّه يفاجئهم كما يأتي الطارق. وكذلك إسناد فعل ﴿وَيَجِلُّ﴾ إلى العذاب المقيم؛ لأنَّ الحُلُولَ مُشعِرٌ بالملازمة والإقامة معهم، وهو عذاب الخلود.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٤١ - إِنَّا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزلنا عليك - أيها الرسول - القرآن للعباد بالحقّ الواضح الذي لا يلتبس به الباطل، فمن اهتدى بنوره فنفعه يعود عليه. ومن انحرف عن طريق الحقّ فوبأل ذلك على نفسه، ولست أنت بموكلٍ عليهم؛ لتجبرهم على الهداية.

٤٢ - الله سبحانه هو الذي يقبض الأنفس من الأبدان عند موتها، ويتوفّى الأنفس التي لم تمت في منامها، فيمسك النفس التي قضى عليها بالموت، ويرسل النفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدّد، هو أجل موتها الحقيقي. إنّ في ذلك الأمر العظيم لعلاماتٍ على قدرة الله تعالى ليمنن تدبّر.

٤٣ - ٤٤ - يذمّ الله تعالى المشركين، ويُنكّر عليهم إذ لم يتدبّروا، بل اتخذوا لهم شفعا من الأوثان والأصنام: قل أيها الرسول لهم: اتّخذوهم شفعا، ولو كانوا لا يملكون شيئا، ولا يعقلون العبادة لهم؟ قل لهم: الشفاعة كلّها لله وحده، له سبحانه ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، ثم إليه مصيركم يوم القيامة للحساب.

٤٥ - وإذا قيل أمام المشركين: لا إله إلا الله، أو ذكّر الله وحده دون أصنامهم، نفّرت قلوبهم وانزعجت، وإذا ذكّرت آلهتهم فهم يفرحون.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تعزية رسول الله ﷺ عمّا كان يجده من قومه من التكذيب والعدا.
- ٢ - النوم وفاة صغرى، والموت وفاة كبرى. وحياة الإنسان بين هاتين الوفاتين.
- ٣ - الفاء في ﴿فَيُمْسِكُ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنّ ما تقدّم يقتضي مقدرا تُفصح عنه الفاء لبيان توفّي النفوس في المقام.

٤ - أفاد تنكير ﴿شَيْئًا﴾ في سياق النفي عموم كلّ ما يملك، فيدخل في عمومه جميع أنواع الشفاعة.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّصِبُ بِهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٤٦ - قل أيها الرسول: يا الله أنت مبدع السموات السبع والأرضين السبع، عالم بما غاب عن المخلوقات وما يشاهدونه، أنت تحكم بين العباد فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين.

٤٧-٤٨ - يُحَدِّثُ اللهُ تَعَالَى مِنْ مَغَبَّةِ الْكُفْرِ وَعِقَابِهِ الْمُتَحَقِّقِ: لَوْ أَنَّ لَهُمْ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ كُنُوزٍ وَضِعْفَهُ زِيَادَةً عَلَيْهِ؛ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ، وَتُكْشَفُ لَهُمْ حِينْتِذٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّعُونَهُ. وَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءُ الْجَرَائِمِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ عِقَابًا عَلَى سَخَرِيَّتِهِمْ بِرَسُولِهِمْ.

٤٩-٥١ - فإذا أصاب الإنسان بؤس دعانا مستغيثاً بنا، ثم إذا كشفنا عنه الكرب قال: إننا أعطيت هذا الفرج على علم من الله بآتي مستحق ذلك. وليس الأمر كما يظنون بل هو اختبار من الله تعالى؛ لينظر من يشكره ممن يكفره، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك الفرج اختبار، قد قال مقاتلهم هذه الأمم المكذبة السابقة، فلم يُغْنِ عنهم حين أتاهم العقاب ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا الزائل، فأصابهم ضرر جرائمهم التي ارتكبوها، والذين ظلموا أنفسهم بالكفر من قومك - أيها الرسول - سيصيبيهم أيضاً العقاب كسابقهم، وما هم بمفْلَتِينَ من عقاب الله.

٥٢ - أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يُوسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى قَوْمٍ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَى آخَرِينَ؟ فليس أمرُ الرِّزْقِ دليلاً على صلاح حال صاحبه، وإنما هو اختبار واستدراج. إن في ذلك الأمر العظيم لدلائل ساطعة لقوم مؤمنين بالله ورسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يُعَلِّمُ اللَّهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفِيَةَ الدَّعَاءِ، وَاللَّجُوءَ لَهُ ﷻ.
- ٢ - العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر في قوله: ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ دون أن يقول: بيننا، لما في ﴿عِبَادِكَ﴾ من العموم؛ لأنه جمع مضاف؛ فيشمل الحكم بينهم في قضيتهم هذه، والحكم بين كل مختلفين.
- ٣ - وجوب اللجوء إلى الله عند اشتداد الكرب والمصائب، وذلك بدعائه والتضرع إليه.
- ٤ - سُنَّةُ اللَّهِ ﷻ مَعَاقِبَةُ الْكَافِرِينَ وَالظَّالِمِينَ عَلَى جَرَائِمِهِمْ، عَلَى اخْتِلَافِ زَمَانِهِمْ وَمَكَانِهِمْ، وَهُمْ لَا يَغْلِبُونَ اللَّهَ، وَلَا يُعْجِزُونَهُ.
- ٥ - يَنْبَغِي أَخْذُ الْمَوْعِظَةِ مِنْ عَاقِبَةِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَمَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا، ثُمَّ دُمُّوا.

﴿قُلْ يَنْعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لِلَّهِ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَسْمِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايُتِي فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنتِ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَارِقِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

٥٤-٥٣ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، ورتبوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن ما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل: ﴿قُلْ يَنْعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (صحيح البخاري ٤١١/٨ برقم ٤٨١٠ - كتاب التفسير، سورة الزمر، وصحيح مسلم ١١٣/١ برقم ١٢٢ - كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله).

عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول ما لمفتين توبة وما الله بقابلٍ منه شيئاً، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ والآيات التي بعدها قال عمر: فكتبتها فجلست على بعيري، ثم طُفْتُ المدينة، ثم أقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الهجرة وأصحابه من المهاجرين، وقد أقام أبو بكر رضي الله عنه ينتظر أن يُؤذَنَ لرسول الله ﷺ فيخرج معه.

(أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٣٥) وأخرجه الضياء المقدسي في (المختارة ١/٣١٧-٣١٩ برقم ٢١٢-٢١٤)، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى ابن السكن في كتاب الصحابة بسند صحيح (الإصابة ٣/٥٧٢).

التفسير:

يُيَسِّرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُسْرِفِينَ الْمَذْنِبِينَ بِسَعَةِ كَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ. قُلْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنَ الدُّعَاءِ لِعِبَادِي الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنَ الْمَعَاصِي: لَا تَيْئَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ. إِنَّهُ سَبِّحَانَهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، إِنَّهُ حَقًّا هُوَ الْغَفُورُ لَذُنُوبِ عِبَادِهِ التَّائِبِينَ، الرَّحِيمُ بِهِمْ، وَأَقْبَلُوا - أَيُّهَا الْعِبَادُ - إِلَى رَبِّكُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ، وَأَذْعِنُوا لَهُ بِإِخْلَاصٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ الْعِقَابَ، ثُمَّ لَا يَنْصَرِكُمْ أَحَدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

٥٥-٥٦ - وَأَتَّبِعُوا - أَيُّهَا الْعِبَادُ - أَفْضَلَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَالْعَمَلُ بِأَحْكَامِهِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْجَأَكُمْ الْعَذَابَ وَأَنْتُمْ غَافِلُونَ عَنْهُ؛ لِثَلَا تَقُولُ بَعْضُ النَّفُوسِ الَّتِي اسْرَفَتْ فِي الذُّنُوبِ: يَا نَدَامَتِي عَلَى ارْتِكَابِي الْمَعَاصِي فِي حَقِّ اللَّهِ، وَإِنِّي كُنْتُ لِمَنْ السَّاخِرِينَ بِدِينِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا.

٥٧-٥٩ - أَوْ تَقُولُ تِلْكَ النَّفْسُ الْمُسْرِفَةُ فِي الذُّنُوبِ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَدَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ؛ لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لِلَّهِ بِطَاعَةِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. أَوْ تَقُولُ وَقْتُ رُؤْيَا الْعِقَابِ: لَيْتَ لِي رَجَعْتُ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَأَكُونَ فِيهَا مِنَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِأَقْوَامِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي الْمَسْمُوعَةَ وَالْمَرْتِيئَةَ قِطْعًا، فَكَذَّبْتَ بِهَا، وَتَكَبَّرْتَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، وَكُنْتَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

٦٠ - وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَجُوهَهُمْ مَسْوَدَةٌ، أَلَيْسَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَسْتَقَرٌّ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ عَلَى الْحَقِّ؟

٦١ - وَيُنَجِّي اللَّهُ مِنَ نَارِ جَهَنَّمَ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ، وَاجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ، بِسَبَبِ فَلَاحِهِمْ بِالْجَنَّةِ، لَا يَنَالُهُمْ أَذَى، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ حَطَامِ الدُّنْيَا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - البشرى للمذنبين أن الله يغفر جميع ذنوبهم، إذا تابوا منها.
- ٢ - الأمر بالتوبة إلى الله تعالى.
- ٣ - الأمر بالتزام أحكام القرآن الكريم.
- ٤ - التحذير من مصير الذين لم يأخذوا بأمر الله تعالى.
- ٥ - بيان مصير المكذبين، وسواد وجوههم يوم القيامة.
- ٦ - البشرى بنجاة المتقين من النار في الآخرة.

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَّ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

التفسير:

٦٢-٦٣ - الله سبحانه خالق جميع الأشياء، وهو القائم بتدبيرها، له مفاتيح خزائن السموات السبع والأرضين السبع، والذين كذبوا بآيات الله المسموعة أو المشاهدة، أولئك البعداء عن رحمة الله، هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

٦٤-٦٦ - قل - أيها الرسول - للمشركين مُؤَيَّباً لهم: هل تأمرونني أن أعبد غير الله الواحد المعبود بحق أيها الجاهلون؟ وقسماً لقد أوحى إليك وإلى الأنبياء من قبلك: والله - إن أشركت أيها الإنسان بعبادة الله غيره - ليطلقنَّ عملك قطعاً، وتكوننَّ حقاً من الخاسرين في الدنيا والآخرة، بل أخلص العبادة لله وحده، وكن من الشاكرين لله نِعَمَه بالقول والعمل.

٦٧- يَذُمُّ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ مَا عَظَّمُوا اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ تَعْظِيمِهِ، إِذْ أَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَسَاوُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، وَالْأَرْضُونَ السَّبْعَ فِي قَبْضَتِهِ سَبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتِ السَّبْعَ مَجْمُوعَةً بِيَمِينِهِ، تَنْزَهُهُ وَتَقَدَّسَ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبرٌ من الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذُه تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (صحيح البخاري ٤١٢/٨ برقم ٤٨١١ - كتاب التفسير - سورة الزمر، باب الآية. وصحيح مسلم ٢١٤٧/٤ - كتاب صفة القيامة والجنة والنار نحوه).

٦٨- يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى مَشَاهِدَ عَظِيمَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْآيَاتِ الثَّمَانِ الْأَخِيرَةِ: وَنَفْخَ الْمَلِكِ فِي الْقَرْنِ النَّفْخَةَ الْأُولَى، فَمَاتَ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ بَقَاءَهُ حَيًّا، ثُمَّ نَفَخَ الْمَلِكُ فِي الْقَرْنِ نَفْخَةً ثَانِيَةً لِلْبَعْثِ فَجَاءَ يَقُومُ النَّاسُ عَلَى أَرْجُلِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْظُرُونَ: مَاذَا يُؤْمَرُونَ.

٦٩-٧٠- وَأَضَاءَتِ الْأَرْضُ حِينَ يَتَجَلَّى اللهُ تَعَالَى لِحَسَابِ الْخَلَائِقِ، وَأُحْضِرَتْ صَحَائِفَ أَعْمَالِهِمْ، وَجِيءَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالشَّهَدَاءِ عَلَى الْأُمَمِ، وَقَضَى اللهُ بَيْنَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ بِالْعَدْلِ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِمْ، فَيَأْخُذُ كُلُّ عَبْدٍ حَقَّهُ. وَاللهُ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- التحذير من الكفر ومكاييد الكفار.
- ٢- الإشارة إلى رجوع السموات كتلة واحدة.
- ٣- القضاء بين الخلائق بالعدل بحضور الأنبياء والشهداء.
- ٤- الشرك محبط للعمل، فلا يُقبل معه عملٌ مهما كان.
- ٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويَبْلَى كل شيء من الإنسان، إِلَّا عَجَبَ دَنْبِهِ، فِيهِ يُرْكَبُ الْخَلْقُ». (صحيح البخاري ٤١٣/٨ برقم ٤٨١٤ - كتاب التفسير - سورة الزمر، باب الآية، وصحيح مسلم ٢٢٧٠/٤ - كتاب الفتن، باب ما بين النفختين).

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

التفسير:

٧١-٧٢- وحُشِرَ الكُفَّار بالضرب والإهانة إلى نار جهنم جماعات. حتى إذا وصلوا إليها فُتِّحَتْ أبوابها السبعة، وقال لهم الملائكة الخزنة مؤبِّخين لهم: ألم يأتكم رسل من أنفسكم يتلون عليكم، ويخوفونكم من هذا اليوم العصيب؟ قالوا: بلى. ولكن وَجِبَتْ كلمة العذاب على الكافرين بسبب جرائمهم، وقيل لهم: ادخلوا أبواب جهنم المفتحة ماكثين فيها على الدوام. فبئس المستقر الدائم نار جهنم للمتكبرين على أتباع الحق.

٧٣-٧٤- وحُشِرَ المتقون لرَّبِّهم إلى الجنة جماعات مُكْرَمِينَ، حتى إذا وصلوا إليها فُتِّحَتْ أبوابها الثمانية بتحية طيبة من الملائكة الخزنة: سلام عليكم من كلِّ شَرٍّ، طابَتْ نفوسكم وأحوالكم، فادخلوا الجنة ماكثين فيها على الدوام، وقالوا: الحمد لله الذي أنجز لنا وعده بالثواب في سكن الجنة، نزل فيها حيث نشاء، فنعيم ثواب العاملين بطاعة الله الجنة.

عن عاصم بن ضمرة قال: سمعت علياً يقول: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، وجدوا عند بابها شجرة تخرج من تحت ساقها عينان، فيأتون إحداها كأنها أمروا بها، فيتطهرون فيها، فتجري عليهم نضرة النعيم، قال: فلا تتغَبَّرْ أبشارهم بعدها أبداً، ولا تشعث شعورهم بعدها أبداً، كأنها دهنوا، قال: ثم يعمدون إلى الأخرى فيشربون منها، فتذهب ما في بطونهم من أذى وقذى، وتتلقَّاهم الملائكة فيقولون: ﴿ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ قال: ويتلقَّى كل غلمان صاحبهم بطوفون به، فغَلَ الوِلْدان بالحميم يقدم من الغيبة، يقولون: أبشِرْ قد أعدَّ الله لك من الكرامة كذا، ويسبق غلمان من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقولون: هذا فلان - باسمه في الدنيا - قد أتاكَنَ، قال: فيقلن: أنتم رأيتموه؟ فيقولون: نعم، قال: فيستخفهنَّ الفرح، حتى يخرج إلى

أسكفة الباب، قال: ويدخل الجنة، فإذا نهارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابي مبثوثة، فيتكى على أريكة من أرائكه، قال: فينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أصفر وأحمر وأخضر ومن كل لون. (أخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن عنه، المصنف ٧٤ / ٨).

٧٥- وترى - أيها الرسول - الملائكة مُحيطِينَ بعرش الرحمن من كل جانب يلهجون بالتسبيح بحمد ربهم، وقُضِيَ بين العباد بالعدل، وختم القضاء بقول: الحمد لله رب العالمين على ذلك القضاء العادل.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإشارة إلى أبواب جهنم وعددها سبعة.
- ٢- بيان حوار ملائكة العذاب مع الكفار في جهنم.
- ٣- بيان الفرق بين المصيرين والخلودين.
- ٤- الإشارة إلى بركة استغفار حَمَلَةَ العرش للمؤمنين.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير صدق القرآن الكريم، والرسالة النبوية.
- ٢ - بيان مقاصد الدعوة، وأصول الحوار في الدعوة.
- ٣ - انتصار أهل الحق، وخسران أهل الباطل في الدارين.
- ٤ - إقامة البراهين العظيمة في الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْيَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴿﴾

التفسير:

- ١ - تَقَدَّمَ في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن الكريم.
- ٢ - يمدح الله تعالى هذا القرآن الحكيم، فهو تنزيل من الله العزيز في ملكوته، العليم بأحوال مخلوقاته.
- ٣ - وهو الله الذي يعفو عن ذنوب عباده التائبين ويقبل توبتهم، شديد العقاب للمجرمين المتكبرين، صاحب الفضل على عباده المؤمنين، لا معبود بحق إلا هو سبحانه، إليه مرجع الخلائق أجمعين.
- ٤ - ٥ - ما يجادل في آيات القرآن للتشكيك فيها وتكذيبها إلا الجاحدون توحيد الله، فلا يخدعك - أيها المؤمن - تَصَرُّفُهُمْ و تَمَتُّعُهُمْ في مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا ومظاهرها. كَذَّبَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أُمَّمٌ، مِنْهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ كَعَادٍ وَثَمُودٍ وَقَوْمِ لُوطٍ وَغَيْرِهِمْ، وَعَزَمَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَوْلَادِكَ عَلَى مُحَارَبَةِ رُسُلِهِمْ بِالْقَتْلِ وَالتَّنْكِيلِ، وَجَادَلُوا رُسُلَهُمْ بِالْبَاطِلِ وَالكُذْبِ؛ لِيُطِيلُوا بِهِ الْحَقَّ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَهْلَكَتُهُمْ بِالْعَذَابِ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي لَهُمْ!؟

٦ - وكما أهلكنا المكذبين للرسول من قبلك أيها الرسول، فحقَّ عليهم العذاب، كذلك وَجَبَتْ كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك؛ لأنَّهم أصحاب النار، الملازمون لها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان عظمة القرآن الكريم.
- ٢ - اتفاق الكفار في عدائهم لرسولهم.
- ٣ - لا يُجَدِّعُ المؤمن بما عليه الكفار من رفعة ونعمة وتَنْقُلُ في البلدان؛ لأنَّهم صاثرون إلى العذاب.
- ٤ - التحذير من مصير الكفار.
- ٥ - تسلية النبي ﷺ.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ، كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ، تُوْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤٌ لَا يُنْحَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

٧-٩ - الذين يحملون عرش الله سبحانه من أشرف الملائكة ومن حول العرش، كلُّهم يلهجون بالتسبيح بحمد الله ﷻ، ويُصدِّقون به سبحانه، ويطلبون من الله المغفرة للمؤمنين، مُتَضَرِّعِينَ بدعاء عظيم

كريم: يا رَبَّنَا وَسِعْتَ رَحْمَتَكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِكَ، فَاغْفِرْ ذُنُوبَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَابُوا مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي وَأَتَبَعُوا دِينَ الْإِسْلَامِ، وَاصْرِفْ عَنْهُمْ عَذَابَ نارِ جَهَنَّمَ.

يا رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ يَقِيمُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَقَدْ وَعَدْتَهُمْ إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَدْخِلْ مَعَهُمُ الصَّالِحِينَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ. إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ فِي مَلَكُوتِكَ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِ مَخْلُوقَاتِكَ، وَاحْفَظْهُمْ مِنْ فِعْلِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْفَوَاحِشِ. وَمَنْ حَفِظْتَهُ مِنْهَا وَمِنْ عَوَاقِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَأَنْقَذْتَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. وَذَلِكَ الْمَقَامُ الْكَرِيمُ مِنَ الْحَفِظِ وَالنَّجَاةِ هُوَ الْفَلَاحُ الْعَظِيمُ بِجَنَّةِ النَّعِيمِ.

١٠-١٢ - يَذُرُّ اللهُ تَعَالَى الْكُفَّارَ، وَيُبَيِّنُ مَصِيرَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُنَادِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَهُمْ فِي النَّارِ: لَبَّغَضُ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ فِي الدُّنْيَا أَكْبَرَ مِنْ كِرَاهِيَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ وَأَنْتُمْ فِي النَّارِ، حِينَ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا فَكَفَرْتُمْ. فَقَالَ الْكُفَّارُ: يَا رَبَّنَا أَمَتْنَا إِمَاتَيْنِ حِينَ كُنَّا فِي أَصْلَابِ آبَائِنَا، فَأَخَيَّبْتَنَا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ انْقَضَى أَجَلُنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَخَيَّبْتَنَا لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاعْتَرَفْنَا بِجُرَائِمِنَا، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ نارِ جَهَنَّمَ؟ ذَلِكَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ هُوَ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِدَعْوَةِ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى، وَإِنْ يُجْعَلُ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْعِبَادَةِ تُصَدِّقُوا بِذَلِكَ! فَالْقَضَاءُ اللهُ الْعَلِيُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْكَبِيرُ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ مُتَصَاغِرٌ.

١٣-١٦ - هُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي يُرِيكُمْ دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا يَكُونُ سَبَبَ الرِّزْقِ الْكَرِيمِ. وَمَا يَتَعَطَّ بِتِلْكَ الْآيَاتِ إِلَّا مَنْ يَرْجِعُ إِلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ، فَاعْبُدُوا اللهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ذَلِكَ. اللهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الَّذِي ارْتَفَعَتْ دَرَجَاتُهُ ارْتِفَاعًا لَا مِثِيلَ لَهُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، يُلْقِي الْوَحْيَ مِنْ أَمْرِهِ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنْ اصْطَفَى مِنَ الرُّسُلِ، لِيُحَدِّثَ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ لِلْحِسَابِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ اللهُ تَعَالَى: مَنْ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي هَذَا الْيَوْمِ؟ فَيُجِيبُ سَبْحَانَهُ: اللهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، الْقَهَّارُ لِغَيْرِهِ عَلَى مَا يَرِيدُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - حَخَّصَ فِي الْآيَةِ (٧) طَائِفَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَوْصُوفَةً بِأَوْصَافٍ تَقْتَضِي رَفْعَةَ شَأْنِهِمْ. وَفِي ذَلِكَ تَنْوِيهِ بِشَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الشَّرِيفَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.
- ٢ - إِبْتِاثُ الْعَرْشِ لِلَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.
- ٣ - فِي الْآيَةِ (٧) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ اسْتِغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.
- ٤ - فِي الْآيَةِ (١٣) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ بِأَنَّ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ.

﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ
يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينٌ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ
الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ
اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

التفسير:

١٧ - اليوم - يوم القضاء بين العباد - تُثاب كل نفس بما قدّمت في الدنيا من خير وشرٍّ، لا يُظلم فيه أحد شيئاً، لا ينقص ثواب ولا بزيادة عقاب. إنَّ الله يُجاسِبُ جميع الناس سريعاً.

١٨ - وأنذِرْهم - أيها الرسول - من يوم القيامة القريب حين تضطرب القلوب، وتكاد تخرج من الحناجر من شدّة الرعب، مُتمثلة قلوبهم غمّاً وحرزناً، وليس للكافرين من قريب أو صديق، ولا شافع يُطاع في شفاعته لهم.

١٩-٢٠ - يُحذّر الله تعالى عباده من نظر المسارقة المُحرّم، فإنّه سبحانه يعلم بذلك ويحاسب عليه، ويعلم أيضاً ما يُضمّر في النفس من خير أو شرٍّ، ويُخبر بأنّه سبحانه يحكم بالعدل بين العباد، والآلهة التي تُعبد من غير الله لا يقدرّون على ذلك. إنَّ الله تعالى هو السميع للأقوال، العليم بالأحوال والأفعال.

٢١-٢٢ - أو لمّ يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار ديار المكذّبين؟ فيشاهدوا ما أحلّ الله بهم من الدمار والنكّال. كانوا أشدّ قوّة وبطشاً، وأقوى آثاراً في الأرض من القلاع والقصور، فدَمَرهم الله تعالى بسبب جرائمهم، وما كان لهم من الله من يحفظهم من ذلك العقاب. ذلك العقاب الشديد بسبب تكذبيهم لرسولهم الذين جاؤوا بالدلائل الواضحة. إنّه قويٌّ لا يغلبه أحد، شديد العقاب لمن كفر به.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يوم القيامة قريب، ولا يعلم أحد متى يأتي، فعلمه خاص بالله، لذلك سُمي يوم الآزفة.
- ٢ - النبي ﷺ مكلف بالإنذار، والهداية توفيق من الله تعالى.
- ٣ - في الآية (١٩) إخبار مستقبلي عن علم الله المطلق، فهو يعلم ما تختلسه العيون من نظرات، وما يضمرة الإنسان في نفسه من خير أو شر.
- ٤ - وجوب طاعة ما جاء به الله ﷻ لأنه حق.
- ٥ - قال ابن عاشور: «جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ مقررة لجملة ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَقْضُونَ يَشَقَّ﴾ [غافر: ١٩-٢٠]. فتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر، وهو تعريض بأن أفتهم لا تسمع ولا تبصر، فكيف ينسبون إليها الإلهية؟». (التحرير والتنوير: ١٧٥/٢٤).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْذِبُ بِأَفْعَالِهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٣-٢٥ - وقسمًا لقد أرسلنا موسى ﷺ بآياتنا المعجزات التسع، وحنة ساطعة دالة على صدقه إلى زعماء الكفر: فرعون وهامان وقارون، فسخرؤا منه، وأشاعوا أنه ساحر عليم السحر، وكذاب فيما جاء به من المعجزات الباهرة، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات من عندنا كذبوه، وأمروا بحرب الإبادة لأبناء المؤمنين بموسى، واستبقاء النساء للخدمة والمهانة، وما تدبير مكر الكفار إلا في ضياع وهلاك.

٢٦- وقال فرعون بغرور لزمته: دعوني أقتل موسى، وليدعُ رَبَّهُ لينقذه مِنِّي. إِنِّي أخاف إن لم أقتله أن يُعَيِّرَ ما أنتم عليه من العبادة، أو أن يفسد في أرض مصر بإثارة الفتن.
 ٢٧- وقال موسى ﷺ: إِنِّي استعنتُ برَبِّي وربِّكم من كلِّ مستكبر عن أتباع الحقِّ، لا يُصدِّق بيوم الحساب.

٢٨-٢٩- وقال رجل مؤمن من قوم فرعون يُخفي إيمانه مُنْكَرًا على قومه: أتقصدون قَتْلَ رجل لا ذنب له إلا أن يقول رَبِّي الله وحده وقد جاءكم بالمعجزات الواضحة من ربِّكم التي تدلُّ على صدقه؟ وإن يكُ كاذباً فعليهِ إنْهُم كذبه، وإن يكُ صادقاً في رسالته يُصِيبُكم بعض الذي يَعِدُكم به من العقاب. إنَّ الله لا يُوفِّق للحقِّ مَنْ هو متجاوز للحدِّ، كثير الكذب، يا قوم لكم اليوم مُلك مصر دون غيركم، فَمَنْ يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا بعد قتل موسى ﷺ؟ فَردَّ فرعون بتكثيرٍ ومكر: ما أشيرُ عليكم من النصح إلا بما أشيرُ على نفسي، وما أرشدُكم إلا إلى الطريق الصحيح.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- يؤتي الله رُسُلَه دلائل وآيات ومعجزات، تدلُّ على أَنَّهُ أرسلهم.
- ٢- في الآية (٢٥) سَمِّيَ الرأْيُ كيداً؛ لأنَّهم تَشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى والذين آمنوا معه، وأنَّهم أضمره ولم يعلنوه.
- ٣- الطغاة يظهرون بمظهر المصلحين الحريصين على الناس، ويتَّهمون الدُّعاة بالإفساد والتخريب.
- ٤- قد يكون الرجل الذي آمن هو أختاتون ولد فرعون، وذلك حسب دراسة فيها أدلة عقلية وعقلية. (ينظر: فك أسرار ذي القرنين وبأجوج ومأجوج ص ١٨٨-٢٠٥). ويؤيد هذا أن الرجل من ذرية فرعون، وكذلك لم يستخدم فرعون الرد المباشر على المؤمن ولم يهدده كفعله مع موسى ﷺ.
- ٥- الاستفهام في ﴿أَنْقَتُلُونَ﴾ استفهام إنكار، أي يقبح بكم أن تقتلوا نفساً تقول ربِّي الله.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنِ بِي صِرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣٠-٣٣- وقال الرجل المؤمن من آل فرعون لفرعون وحاشيته مُحذراً ناصحاً: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عاقبة تكذيب موسى ﷺ فيذكركم مثل أيام العذاب التي أهلكت الأمم السابقة الذين تحزَّبوا على أنبيائهم وكذبوهم، مثل حال قوم نوح ﷺ وعاد وثمود ومن جاء بعدهم، فقد دمَّرهم الله بسبب تكذيبهم، وليس الله بظالم عباده. ويا قوم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عذاب يوم القيامة حين يستغيث الكفار بعضهم ببعض، ويوم تَفَرُّونَ هَارِبِينَ، ليس لكم من الله ناصر يعينكم. وَمَنْ يُضِلِّهِ اللَّهُ عن طريق الحقِّ فما له من مُرشد يهديه إلى أتباع الحقِّ.

٣٤-٣٥- وقسماً لقد جاءكم نبيُّ الله يوسف ﷺ من قبل موسى ﷺ بالمعجزات الساطعة الدالة على صدقه، فلا زِلْتُمْ في شكٍّ على نهج آبائكم الذين كذَّبوا رسالته حتى إذا مات قلتم: لن يرسل الله رسولاً من بعده. مثل إضلالكم يُضِلُّ اللَّهُ الطُّغَاةَ الَّذِينَ يَشْكُونُ في وحدانيته سبحانه، الذين يجادلون في الدلائل الواضحة المنزلة من عند الله تعالى بغير حُجَّةٍ ولا برهان جاءهم من عنده سبحانه. كَبُرَ ذلك الجدل سخطاً من عند الله وعند المصدِّقين به سبحانه. مثل هذا الحُتْمِ على القلوب يختم الله على قلب كلِّ متكبرٍ على الحقِّ، طاغية بشدة ظلمه.

٣٦-٣٧- وقال فرعون بمكر وكِبْرٍ لوزيره هامان: يا هامان ابن بِي قَصِراً عالياً؛ لعلِّي أصل إلى طرق السموات، فأطلع إلى إله موسى. وَإِنِّي لَأَظُنُّ موسى كاذباً في دعواه. ومثل ذلك التزيين زَيْنَ الشيطان لفرعون عمله الباطل فرآه حقاً، ولم يهتد بضلاله إلى طرق الحقِّ. وما مَكْرُ فرعون إلا في خسارة وهلاك.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - على الداعية أن يستخدم أحسن الأساليب المؤثرة في الدعوة، كما فعل الرجل المؤمن.
- ٢ - تلتقي أحزاب الكفر على حرب الحق على اختلاف الزمان والمكان، ولكنهم خاسرون هالكون.
- ٣ - في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تأكيد الخبر بـ «قد» ولام القسم لتحقيقه؛ لأنهم مظنة أن يُنكروه لُبُعِدِ عهدهم به.
- ٤ - اختيار المضارع في ﴿يُجَادِلُونَ﴾ لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها، وأنهم لا ينفكُون عنها. وهذا صريح في ذمهم، وكناية عن ذم جداهم الذي أوجب ضلالهم.
- ٥ - في الآية (٣٥) إخبار مستقبلي عن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة، فإن الله يغضب عليهم، ويطبع على قلوبهم.
- ٦ - انتصب ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ على البدل المطابق لقوله: ﴿أَلْأَسْبَابَ﴾. وجيء بهذا الأسلوب من الإجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب؛ تفخياً لشأنها.
- ٧ - الطعنة يريدون إشغال الأتباع وإلهاءهم؛ لينصرفوا عن الدعوة والدعاة، كما فعل فرعون عندما طلب إلى هامان بناء الصرح.
- ٨ - بُيِّنَ فعل ﴿زُيِّنَ﴾ للمجهول؛ لأنَّ المقصود معرفة مفعول التزيين لا معرفة فاعله، أي: حصل له تزيين سوء عمله في نفسه، فحسب الباطل حقاً، والضلال اهتداء.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَتَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَاجِرًا إِنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٨-٤٠- وقال الذي صدق بالحق من قوم فرعون مؤكداً نصيحته وخطابه باستمالة قومه ببناء النسب: يا قوم اقتدوا بي أرشدكم طريق الحق. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متعة زائلة، وإن الآخرة هي الحياة الباقية، من عمل في الدنيا معصية فلا يجزى إلا عقاباً على قدر معصيته عدلاً من الله. ومن عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن بالله ورسله فأولئك أصحاب الدرجات العالية، يدخلون الجنة فضلاً من الله، فيرزقهم فيها رزقاً كريماً لا حدود له ولا انقطاع.

٤١-٤٤- وقال الرجل المؤمن مستعظفاً قومه بالنسب: ويا قوم أخبروني كيف أدعوكم إلى طريق الهداية ثم الجنة، وتدعونني إلى الغواية ثم النار، تدعونني إلى تكذيب الله تعالى، والشرك به في عبادة من ليس لي به علم أنه يستحق العباد من دونه، وأنا أدعوكم إلى الله العزيز في ملكوته وفي انتقامه، الغفار لمن تاب من عباده. حقاً يقيناً أن ما تدعونني إليه من الآلهة ليس بمقدوره إجابة دعاء من يدعو في الدنيا والآخرة، وأن مصيرنا جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة، وأن الطغاة المتمردين على الحق هم أهل النار ووقودها، فستذكرون صدق كلامي عندما يجل بكم العذاب، وأتوكل على الله. إنه سبحانه بصير بأحوال جميع العباد.

٤٥-٤٦- فكانت نتيجة هذه النصيحة الوقاية من عقوبة الله تعالى التي أصابت فرعون وقومه بسبب مكرهم، فقد أهلكوا بالغرق، ثم تلاهم العذاب في قبورهم، فهم يُعرضون على النار صباحاً ومساءً حتى قيام الساعة، فيأمر الله تعالى الملائكة: أدخلوا آل فرعون النار التي فيها أقسى العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - على الداعية أن يُبَلِّغَ دعوته، ويحرص على نصح قومه بما يراه من وسائل وأساليب ملائمة.
- ٢ - قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَفٍ﴾ بيان لِسَمَا فِي ﴿مَنْ﴾ من الإبهام من جانب احتمال التعميم، فلفظ ﴿ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَفٍ﴾ مرادٌ به عموم الناس بذكر صنفهم تنصيهاً على إرادة العموم.
- ٣ - في الآية (٤٠) قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ٤ - موافقة دعوة الرجل المؤمن لدعوة موسى عليه الصلاة والسلام، وهو دليل على أن هذا الرجل متأثر بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام.
- ٥ - قوة مناظرة الرجل المؤمن لقومه.
- ٦ - استخدام أسلوب الاستعطاف في الدعوة، إذ جاء حوارَه بلفظ: ﴿يَنْقَوْمِر﴾ ويشمل فرعون وهامان وقارون وأتباعهم.
- ٧ - تميّز عذاب فرعون وأتباعه في القبر بعرضهم على النار في الصباح والمساء.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ
اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا
مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا
دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ
الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمُ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ
بِبَلِيغِيهِ ؕ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴿

التفسير:

٤٧-٤٩ - يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى بِالْحَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ حِينَ يَتَخَاصَمُونَ فِي النَّارِ، يَقُولُ الْآتِبَاعُ لِسَادَتِهِمُ
الْمُتَكَبِّرِينَ: إِنَّا كُنَّا فِي الدُّنْيَا أَتِبَاعًا مَطِيعِينَ لَكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَدْفَعُونَ عَنَّا جِزَاءً مِّنَ عَذَابِ النَّارِ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِمُ
الْقَادَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ فِي الدُّنْيَا: إِنَّا جَمِيعًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ لَا مَخْرَجَ مِنْهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَضَى بَيْنَ الْعِبَادِ بِدُخُولِ
الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةِ وَالْكَافِرِينَ النَّارِ، فَلَا نَسْتِطِيعُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكُمْ شَيْئًا مِّنَ الْعَذَابِ. وَيَلْتَمَسُ أَهْلُ النَّارِ جَمِيعًا
مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْعَذَابِ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِيُخَفِّفَ عَنْهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا مِّنَ عَذَابِ النَّارِ.

٥٠ - وَلَكِنَّ هَذَا الطَّلَبَ لَا يُسْتَجَابُ لَهُ، بَلْ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مِّنْ خِزْنَةِ جَهَنَّمَ يَرُدُّونَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ بِالتَّنْكِيلِ
والتَّقْرِيعِ: أَوْلَمْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالْحُجُجِ السَّاطِعَةِ؟ فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ وَقَالُوا: بَلَى. فَرَدَّ عَلَيْهِمْ خِزْنَةُ
جَهَنَّمَ مُتَبَرِّئِينَ مِّنَ الدَّعَاءِ لَهُمْ: فَادْعُوا أَنْتُمْ، وَلَيْسَ دَعَاءُ الْكُفَّارِ إِلَّا فِي ضَيَاعٍ، فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ.

٥١-٥٢ - يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَى الْبَشْرَى بِنُصْرِ رُسُلِهِ وَأَتِبَاعِهِمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ
تَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ لِلنَّبِيِّاءِ وَالرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تَنْفَعُ أَعْذَارُ الْكُفَّارِ، وَهُمْ الطَّرْدُ مِّنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ،
وَسُوءُ الدَّارِ بِعَذَابِ النَّارِ.

٥٣-٥٤ - وَقَسَمًا لَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىَ ﷺ التَّورَةَ وَالْمُعْجِزَاتِ التَّسْعَ، وَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَوَارَثُونَ التَّورَةَ
جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، فِيهَا هُدَايَةٌ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَمَوْعِظَةٌ مِّنْ خَطَرَةِ الْبَاطِلِ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ.

٥٥-٥٦- فاصبر - أيها الرسول - على أذى الناس. إنَّ وعد الله بالنصر على الأعداء حقٌّ ثابت، واستغفر لذنبك لتقتدي بك الأمة، وواظبْ على التسبيح لله المقرون بالحمد له والثناء عليه في المساء والصباح. إنَّ الذين يُجادلون في آيات الله المسموعة والمشاهدة بغير حُجَّة صحيحة ما في صدورهم إلا تكبُّر عن اتِّباع الحق، ما هم ببالغي مُرادهم في التغلُّب على المؤمنين، فالتجئْ إلى الله من شرورهم. إنَّه هو السميع لأقوالهم، البصير بأحوالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - قال ابن عاشور: «في الآية (٤٨) عِبْرَةٌ لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتغاء بأنفسهم في مهاوي الخسران، فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي، فإن كان إقدامهم ومغامرتهم بأنفسهم وأممهم على علم بعواقب ذلك، كانوا أحرىء بالمذمَّة والخزي في الدنيا، ومضاعفة العذاب في الآخرة».

(التحرير والتنوير: ٢٤/٢١٢).

٢ - في الآية (٥١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة.

٣ - قد يكون النصر مادياً بالتمكين في الأرض، وقد يكون مَعْنَوِيًّا في الثبات على الحقِّ.

٤ - على المؤمن أن يصبر على ما يُواجهه من أذى الأعداء، وأن يُوقن بالفَرَج من الله.

٥ - الإكثار من ذِكْرِ الله وتسبيحه وحده واستغفاره، يُقَرِّب المؤمن من الله، كما فعل رسول الله ﷺ.

٦ - تنكير ﴿كَبْرٌ﴾ للتعظيم، أي: كِبْرٌ شديد بتعدُّد أنواعه، وتمكُّنه من نفوسهم.

٧ - جملة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ﴾ تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة.

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَارْتَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

التفسير:

٥٧-٥٨- مبيِّنُ الله تعالى عَظَمَةَ قدرته في الخلق، وسهولة أمر البعث عليه: لَخَلْقُ الله للسموات السبع والأرضين السبع أكبر من خَلْقِ الناس وإحيائهم بعد موتهم، ولكنَّ أكثر العباد لا يعلمون ذلك، وكما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يعمل بطاعة الله، والمُكذِّب الذي يقترف الجرائم. قليلاً ما تتعظون أيها العباد.

٥٩- إنَّ القيامة لآتية قطعاً لاشكَّ فيها، ولكنَّ أكثر العباد لا يؤمنون بذلك.

٦٠- وقال خالقكم ومُدبِّر أمركم: أيها الناس اسألوني أعطِكم، إنَّ الذين يتكبَّرون عن دعائي وطاعتي سيدخلون نار جهنم صاغرين.

٦١-٦٢- يُخبر الله تعالى عن عظيم قدرته في فضله على العباد: الله وحده هو الذي جعل الليل مظلماً لراحتكم، والنهار منيراً لمعايشكم. إنَّ الله لصاحب فضل على الناس كلهم، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون الله على هذا الفضل. ذلكم الله العظيم ربكم أبداعَ خَلْقِ كلِّ شيء، لا إله يستحقُّ العبادة غيره، فكيف تعدلون عن الإيمان به، وتعبدون غيره؟

٦٣- مثل هذا الانصراف من الحقِّ إلى الباطل يُصرف كلُّ مَنْ كَذَّبَ بآيات الله تعالى.

٦٤-٦٥- يُخبر الله تعالى عن فضله الكبير على الناس في معاشهم وخلقهم: الله وحده الذي سَخَّرَ لكم الأرض مُستقراً لكم لمعايشكم، والسماء سقفاً لحياتكم ورزقكم، وخلقكم في أحسن هيئة، ورزقكم من

المطاعم والمشارب المستلذّة الحلال. ذلكم الله الذي رزقكم هو ربكم، فتعاضم وكثُر خيره وإحسانه، هو الحيّ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بعظمته، لا إله غيره، فادعوه وحدّه مخلصين له الطاعة والعبادة، الثناء الكامل والشكر لله خالق العالمين، ومُدبّر شؤونهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الرّدُّ على منكري البعث.
- ٢ - توبيخ الذين كذّبوا بقيام الساعة.
- ٣ - البشرى باستجابة الله تعالى الدعاء.
- ٤ - وجوب الشكر على نعمة السكن في الليل، والكسب في النهار.
- ٥ - الإشارة إلى نعمة تمهيد الأرض للحياة، ونعمة بناء السماء، وجعلها سقفاً للأرض.
- ٦ - بيان عظمة الله تعالى من خلال مخلوقاته.
- ٧ - أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن نسبة الحديد في الأرض ٩, ٣٥٪ من مجموع كتلة الأرض، ويتركز هذا الحديد في قلب الأرض على هيئة كرة ضخمة (٩٠٪) من كتلة قلب الأرض، أما باقي الحديد فيتوزع على كل من وشاح الأرض وغلافها الصخري بسمك يقدر بحوالي ثلاثة آلاف كيلو متر (٢٨٩٥ كيلو متر) في تناقص مستمر يصل بنسبة الحديد في الغلاف الصخري للأرض إلى ٦, ٥٪. وتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض من وسائل جعله جرمًا مستقرًا في ذاته، حيث إن المقصود بأثقال الأرض هو الأحمال الثقيلة، وليست أجساد الموتى فقط. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٩٥-٤١٤).

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأَمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَتَلْبُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَعْلَىٰ فِي آعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تَرِيَّتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

التفسير:

٦٦- يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يُبَلِّغَ أُمَّتَهُ النهي عن عبادة ما سوى الله تعالى؛ لما أنزل عليه من الآيات المسموعة الواضحة والمشاهدة من عنده سبحانه، وأن يُبَلِّغَ بَأَنَّهُ أَمْرٌ أَنْ يَخْضَعُ بِالطَّاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَى رَبِّ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ.

٦٧-٦٨- هو الله الذي خلقكم - أيها الناس - في الأصل من تراب بخلق أبيكم آدم عليه السلام، ثم جعل تكاثركم بعد آدم عليه السلام من مَنِيٍّ يَصِيرُ دَمًا جَامِدًا، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ أَطْفَالًا بَعْدَ أَطْوَارٍ أُخْرَى، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا كَمَا لَكُمْ فِي الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ إِلَى أَنْ تَصِيرُوا فِي سِنِّ الشَّيْخُوخَةِ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَمُوتُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلِتَبْلُغُوا بِهَذِهِ الْأَطْوَارِ الْمَعْدَّةِ أَجْلاً مُسَمًّى تَنْتَهِي عِنْدَهُ أَعْمَارُكُمْ، وَلَكِي تَعْقِلُوا تَدْبِيرَ اللَّهِ لِحَلْقِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ بِحَقِّ سُبْحَانِهِ، هُوَ الَّذِي وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: ﴿ كُنْ ﴾، فَيَكُونُ كَمَا أَرَادَ اللَّهُ.

٦٩-٧٢- ألا تعجب - أيها الرسول - من الكفار الذين يُجَادِلُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْمَسْمُوعَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ وَيُشَكِّكُونَ فِيهَا كَيْفَ يَعْدِلُونَ عَنْهَا؟ وَمِنْ صِفَتِهِمْ: أَنَّهُمْ كَذَبُوا بِالْقُرْآنِ وَبِالْكِتَابِ السَّابِقَةِ الْمُنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَسَوْفَ يَرُونَ عَاقِبَةَ تَكْذِيبِهِمْ حِينَ تُوَضَّعُ الْقِيُودُ الْحَدِيدِيَّةُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَالسَّلَاسِلُ فِي أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ، تَسْحَبُهُمْ زَبَانِيَّةُ الْعَذَابِ فِي الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ، ثُمَّ تُوقَدُ بِهِمْ نَارُ جَهَنَّمَ.

٧٣-٧٧- ثم يُقال لهم توبيخاً: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فيجيبون معترفين: ذهبوا عنّا فلم ينفعونا، بل لم نكن نعبد شيئاً يستحقُّ العبادة في الدنيا. مثل ذلك الضلال يُضِلُّ الله المكذِّبين به، فلا يهتدون إلى الحقِّ. ذلكم الضلال الكبير بسبب ما كنتم تُظهِرونه في الدنيا من البهجة والسرور بالمعصية والباطل، وبسبب تَكْبُرِكُمْ وَبَطْرِكُمْ، ويقال لهم ذمّاً وتوبيخاً: ادخلوا من أبواب جهنم السبعة ما كنتم فيها أبداً، فبئس مأوى المتكبرين على الحق. فاصبر - أيها الرسول - على أذاهم، إنَّ وعد الله بنصرك عليهم حقٌّ لا ريب فيه. فإن أريناك بعض الذي نَعُدُّهم من العقاب فذلك هو المطلوب، أو نَتَوَفَّيْتِكَ قبل رؤية عقابهم، فإلينا مصيرهم يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٦٨) إخبار مستقبليٌّ عن قضاء الله تعالى أنه نافذ في عباده في الماضي والحاضر والمستقبل.
- ٢ - على المؤمن الصبر على ما يُواجهه من الأذى، مع اليقين بتحقُّق وَعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِ الْحَقِّ، وهزيمة الباطل.
- ٣ - حذف مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لدلالة ﴿كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ عليه، أي: يتحققون ما كذبوا به.
- ٤ - في قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، والمخصوص بالذم محذوف؛ لأنه يدل عليه ذِكْرُ جَهَنَّمَ أي: فبئس مَثْوَى المتكبرين جهنم.
- ٥ - عدل عن ضمير (هم) إلى الاسم الظاهر وهو ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للإشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تَكْبُرُهُمْ عَلَى الرِّسْلِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ آتِيَّ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

التفسير:

٧٨- وقسمًا لقد أرسلنا رسلاً إلى أممهم من قبلك أيها الرسول، منهم من أخبرناك بقصصهم بالوحي، ومنهم من لم نذكر لك أخبارهم، وما كان لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، فإذا جاء أمر الله بنزول العقاب على الكفار في الدنيا أو في الآخرة حُكِمَ بالعدل بين المؤمنين والكفار، فنجي المؤمنين، وهلك أهل الباطل.

٧٩-٨١- يُخبر الله تعالى عن فضله على العباد، إذ سخر لهم الإبل للركوب والأكل، وقدر فيها منافع كثيرة كالإلبان والجلود والوبر، وتبلغوا بالحمولة على بعضها حاجة في أنفسكم من الوصول إلى البلدان البعيدة، وعلى هذه الأنعام في البر، وعلى السفن في البحر تُحْمَلُونَ. ويُريكم الله تعالى دلائله الدالة على وحدانيته، فأَيُّ تلك الدلائل والبراهين تُنْكِرُونَ؟!

٨٢-٨٥- أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار ديار المكذبين، فيشاهدوا عاقبتهم وما أحلَّ الله بهم من الهلاك والنكال؟ كانوا أكثر منهم أعداداً وُعُدَّةً، وأشدَّ قوَّةً في الأجسام والبطش، وأقوى آثاراً في الأرض من الحصون والقصور، فما أغنى عنهم ما عمَّروا في الدنيا، فحين جاءت هذه الأمم رسلهم بالشرائع والمعجزات فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي واغترَّوا به، فنزل بهم عقاب كفرهم واستهزائهم بالرسول والآيات العظيمة. فلما رأوا شدة العذاب وعانوا أهواله قالوا: صدقنا بالله وحده، وكذبنا بالآلهة التي كنا نعبدُها مع الله تعالى. فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا شدة

العذاب. سَنَّ اللهُ سُنَّةً قَدْ سَبَقَتْ فِي عِبَادِهِ أَلَّا يَقْبَلَ الْإِيمَانَ وَالتَّوْبَةَ حِينَ نَزَلَ الْعَذَابُ، وَخَسِرَ الْمَكْذِبُونَ بِاللَّهِ أَنْفُسَهُمْ وَقَدْ نَزَلَ الْعَذَابُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تنكير ﴿رُسُلًا﴾ مفيد للتعظيم والتكثير، أي: أرسلنا رُسُلًا عددهم كثير، وشأنهم عظيم.
- ٢ - عَرَفَ اللهُ بِأَسْمَاءِ بَعْضِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يُعَرَّفْ بِالكَثِيرِ مِنْهُمْ.
- ٣ - فِي الْآيَةِ (٨١) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنْ مَشَاهِدَةٍ دَلَّاهُ قُدْرَةَ اللهِ تَعَالَى فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.
- ٤ - الْإِشَارَةُ إِلَى نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لِأَنْوَاعِ الْمَرَاقِبِ لِلْإِنْسَانِ.
- ٥ - التَّحْذِيرُ مِنْ تَأْخِيرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ رُؤْيَةِ عَذَابِهِ.

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - إقامة البراهين الدالة على عظمة الخالق ﷻ.

٢ - رفعة القرآن الكريم.

٣ - تقرير الرسالة النبوية، وتسلية النبي ﷺ.

٤ - تأكيد بشرية النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ① تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا نَمْلِكُ لَهُمْ أَعْيُنَآ وَنَحْنُ لَا نَسْمَعُ ⑤ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ⑥ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ⑦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ⑧ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑨ ﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأن من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز

القرآن.

٢ - هذا القرآن تنزيل من الرحمن بالخلق أجمعين في الدنيا، الرحيم بالمؤمنين في الدارين.

٣-٤ - كتاب يُبَيِّن آياته وأحكامه غاية البيان وأحكام غاية الإحكام، مع كونه قرآنًا عربيًّا فصيحاً

بمعانيه السهلة، ومبانيه الجزلة في غاية البيان والتمام، لقوم يعلمون ما فيه من خير الكلام، وأفضل الأحكام، مُبَشِّرًا للمؤمنين بِجَنَّاتِ النعيم، ومُنذِرًا للكافرين بعذاب الجحيم، فأعرض أكثر العباد، فهم لا يسمعون سماع تَدْبِيرٍ لما فيه من الهداية والتكريم.

٥-٧ - وقال المشركون للنبي محمد ﷺ بكيد وسفه: قلوبنا في أغطية لا يصل إليها شيء مما تدعوننا إليه

من الإيمان، وفي آذاننا صَمَمٌ فلا نسمع، ومن بيننا وبينك - يا محمد - حاجز يحجبنا عن إجابة دعوتك، فاعمل على منهج دينك، إننا عاملون على منهج ديننا. فَرَدَّ اللهُ تعالى عليهم: قل لهم أيها الرسول: ما أنا إلا

بشر مثلكم، يوحي الله إلي أنها معبودكم الحق إله واحد، فاستقيموا إليه بالطاعة، واطلبوا منه المغفرة لذنوبكم. والهلاك للمشركين الذين لا يُعطون زكاة أموالهم، وهم مُكذِّبون بالآخرة والبعث.

٨- إن الذين صدَّقوا بالله، وأقرُّوا له بالوحدانية، وعَمِلُوا بطاعته، لهم ثواب جزيل غير منقوص، ولا مقطوع.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإشارة إلى بيان القرآن الكريم لأسلوب الترغيب والترهيب.
- ٢- الرسول ﷺ بَشْرٌ، مَيَّرَهُ اللهُ عَلَى غَيْرِهِ بِالنُّبُوَّةِ.
- ٣- كلمة «لا إله إلا الله» كلمة جامعة للدين كُلِّهِ.
- ٤- اعتراف الكفار باليأس من رحمة الله تعالى.
- ٥- الإشارة إلى أَنَّ التَّخَلُّفَ عَنْ دَفْعِ الزَّكَاةِ مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ.

﴿قُلْ أَيِّنَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
 وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾
 فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

٩-١١- يُنَكِّرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْكُفَّارِ، فَيَأْمُرُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِي سَبْعِ يَوْمَيْنِ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ مِمَّاثِلِينَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ؟ ذَلِكَ الْخَالِقُ الْمُبْدِعُ هُوَ رَبُّ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، وَجَعَلَ سَبْحَانَهُ فِي الْأَرْضِ جِبَالًا رَاسِخَةً فَوْقَهَا، وَزَادَ الْأَرْضَ خَيْرَاتٍ كَثِيرَةً، وَقَدَّرَ

فيها أرزاق أهلها في أربعة أيام كاملة. هذا التفصيل الزمني بيان للسائلين، ثم قصد سبحانه إلى السماء وكانت دُخاناً من قبل، فأمر السماء والأرض بالانقياد لأمره سبحانه، فأجابتا: أتينا خاضعين.

١٢- ففرغ من تسويتهنَّ سبع سموات في يومين آخرين، ورَتَّبَ مقرِّراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ورَتَّبَ السماء الدنيا - الأولى - بالكواكب المنيرة، وحفظاً لها من الاختلال، واستراق الشياطين السمع بالشهب النارية. ذلك الخلق البديع، والتدبير الدقيق تقدير الله العزيز في ملكوته، العليم بأحوال مخلوقاته.

١٣-١٦- فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان للآيات الكونية الدالة على الوحدانية، فقل - أيها الرسول - لهم مُحذِّراً: قد خَوَّفْتُكُمْ عذاباً شديداً، صاعقة مدمرة كصاعقة قوم عاد وقوم ثمود حين جاءتهم رسلهم يتبع بعضهم بعضاً، يأمرونهم جميعاً بدعوة التوحيد، فَرَدُّوا على رُسُلهم: لو شاء ربنا أن نُوحِّدَهُ لأنزل إلينا ملائكة، فإننا بما أرسلتم به من التوحيد مُكذِّبون. فأما قوم عاد فاستكبروا على نبيهم هود ومن معه من المؤمنين بالباطل، فقد اغترُّوا بقوتهم، وقالوا: لا أحد أقوى منا. أولم يعلموا أن الله خالقهم هو أقوى منهم، وأقدر عليهم؟ وكانوا بآياتنا الباهرة والمعجزات الظاهرة يُكذِّبون، فعاقبناهم، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرودة في أيام عصبية؛ لكي نُذيقَهُم عذاب الذلِّ في الحياة الدنيا. ولعذاب الآخرة بالنار أشدُّ، وليس لهم ناصر يُخلِّصهم من العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- خَلَقَ اللهُ الأرض في يومين، وقَدَّرَ فيها أقواتها في يومين، وخالق السموات السبع في يومين، فكان مجموع خلق السموات والأرض في ستة أيام.
- ٢- يجب تحذير المخالفين من العذاب، ولَفَتْ أنظارهم إلى ما أصاب الذين من قبلهم.
- ٣- الاستكبار والاعتزاز بالقوة وظلُّم الآخرين يقود إلى الدمار والهلاك، كما حصل لقوم عاد.
- ٤- ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.
- ٥- ينظر: الدخان الكوني في الملحق.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبِجَنَّتَيْنِ اللَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا بِنَقْوَنِ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

التفسير:

١٧- ١٨- وأما قوم ثمود فقد أرسلنا إليهم نبيهم صالحاً يبين لهم طريق الهداية، ويحذّرهم من الغواية، فاختاروا طريق الغواية، فدمرتهم صاعقة العذاب المهين؛ بسبب ارتكابهم الجرائم، وأنقذنا نبي الله صالحاً عليه السلام ومن صدق برسالته، وكانوا يخافون الله بامثال أوامره.

١٩- ٢٠- ويوم القيامة يُجمَعُ أعداء الله إلى نار جهنم، فيُحْبَسُ أولهم على آخرهم؛ لِيُسَاقُوا إلى الجحيم، حتى إذا حضروا النار ولم يعترفوا بفضائحهم، شهدت عليهم ألسنتهم وأبصارهم وجلودهم التي يُنطقها الله تعالى، فتذكّر ما كانوا يرتكبون من الكبائر والجرائم.

٢١- وأنكروا على جلودهم الناطقة: لم أقررتم علينا؟ فأجابت: أنطقنا الله بقدرته الذي أنطق كل شيء، وهو الذي خلقكم الخلق الأول ولم تكونوا شيئاً، وإليه مصيركم للحساب.

٢٢- ٢٤- سبب النزول:

عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كان رجلاً من قريش، وخيّن لها من ثقيف - أو رجلاً من ثقيف، وخيّن لها من قريش - في بيت، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال: بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾

وَلَا أَبْصَرَكُمْ وَلَا جُلُودَكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ (صحيح البخاري ٤٢٤/٨ برقم ٤٨١٦ - كتاب التفسير - سورة فصلت، باب الآية، وصحيح مسلم برقم ٢٧٧٥ - كتاب صفات المنافقين). والختن هو: الصهر.

التفسير:

وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود حين مباشرتكم القبائح مخافة الفضائح، ولكن ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما ترتكبون من الجرائم. ذلكم الأمر البالغ في القبح: ظنكم الفاسد الذي ظنتموه بربكم، الذي أوقعكم في الدمار، فأصبحتم من الخاسرين لأنفسكم وسعادتكم، فإن يصبروا على العذاب فالنار منزلة لهم، وإن يطلبوا إرضاء الله للمغفرة فما هم من المرضى عليهم؛ ليغفر لهم.

٢٥- وقيضنا هؤلاء الظالمين أصحاباً فاسدين من شياطين الإنس والجن، فحسّنوا لهم الأعمال القبيحة في الدنيا، ورغبوهم فيها، وأنسوهم ذكراً الآخرة، فوجب عليهم العذاب ضمن الأمم السابقة من مردة الإنس والجن. إنهم كانوا خاسرين أنفسهم وأعمالهم في الدنيا والآخرة.

٢٦-٢٧- وقال رؤساء الكفر لأصحابهم وأتباعهم في مكة: لا تسمعوا محمداً إذا قرأ القرآن، وارفعوا أصواتكم عند قراءته؛ حتى لا يؤثر فيمن يسمعه، ولكي تغلبوه على دينه. وقسماً مؤكداً لتذيقن الكفار عذاباً شديداً، ولنجزينهم في الآخرة جزاءً أقيح ما كانوا يرتكبون من الجرائم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ينتقم الله من المتكبرين المتجبرين، ويجعل قوتهم ضعفاً وعجزاً، ويوقع بهم الخزي والذل.
- ٢- جعل الله إهلاك عاد وثمود عبرة لمن بعدهم، ودرساً لأبد أن يعلمه الناس؛ ليحذروا العذاب.
- ٣- من أحسن ظنه بالله، وطمع في مغفرته، كان الله عند حسن ظنه.
- ٤- في الآية (٢٥) إخبار مستقبلي عن جعل الله تعالى للكفار أصحاباً من شياطين الإنس والجن، يُزيّنون لهم قبائح أعمالهم في الدنيا.
- ٥- عادة قادة الكفار أنهم يطلبون من أتباعهم التشويش على القرآن، والصد عنه في أي زمان ومكان.
- ٦- القرآن سلاح عظيم في أيدي المؤمنين في مواجهة الكفرة الملحدين.

﴿ ذَلِكْ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

التفسير:

- ٢٨- ذلك الجزاء العظيم جزاء أعداء الله من الكفار والعصاة، وهو النار، لهم في جهنم دار الإقامة الدائمة؛ بسبب تكذيبهم بآياتنا وحججنا.
- ٢٩- وقال الكفار بعد دخول النار: يا ربنا أَرْنَا مَنْ أَضَلَّنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ؛ لكي ندوسهما بأقدامنا ليكونا من الأذلين.
- ٣٠-٣٢- يمدح الله المؤمنين ويُبشِّرهم بسعادة الدارين: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا قَوْلًا صَادِقًا: رَبُّنَا اللَّهُ وحده لا شريك له، ثم استقاموا على أداء فرائضه، تنزل عليهم الملائكة عند الموت، وفي القبر مُبشِّرين لهم: لا تخافوا ممَّا أمامكم، ولا تحزنوا على ما خلقتهم، وأبشروا بالجنة التي وعدكم الله إياها على لسان الرسل، نحن أنصاركم في الحياة الدنيا، ونكون معكم في الآخرة، ولكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم من النعيم المقيم، ولكم فيها ما تطلبون من المقام الكريم، مقاماً وضيافة من ربِّ غفور لذنوبكم، رحيم بكم.
- ٣٣- ولا أحد أفضل قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى توحيد الله وطاعته، وعمل مع ذلك عملاً صالحاً، وقال: إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ المطيعين لله.

٣٤-٣٥- ولا تتساوى الخصلة الحسنة من المؤمنين، والخصلة السيئة من الكافرين والفاسقين، ادفع الإساءة بالخصلة التي أحسن منها، فبذلك يصير المسيء إليك المعادي كأنه قريب منك. وما يُرزق هذه الخصلة الحميدة بدفع السيئة بالحسنة إلا الصابرون على طاعة الله، وما يُوفَّق لها إلا صاحب توفيق عظيم من الخير والأجر.

٣٦- وإن يوسوس لك الشيطان؛ ليضربك عمًا أمر به الله تعالى، فاستعد بالله من شرّ الشيطان. إنّه سبحانه هو السميع للأقوال، العليم بالأحوال والأفعال.

٣٧-٣٨- ومن دلائل وحدانية الله وقدرته العظيمة: اختلاف الليل والنهار، الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وتعاقب الشمس والقمر، الشمس بضيائها، والقمر بنوره، لا تسجدوا - أيها العباد - للشمس ولا تسجدوا للقمر، فإنّهما مخلوقات الله، واسجدوا لله وحده الذي خلَقهنّ جميعاً، إن كنتم تعبدونه وحده حقاً. فإن استكبر الناس فإنّ الملائكة الذين عند ربّك - أيها الرسول - يلهجون بالتسبيح له باستمرار، بالليل والنهار، وهم لا يملّون تلك الأذكار.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- في الآية (٣١) إخبار مستقبليّ عن تأييد الملائكة للمؤمنين بالنصر والتسديد في الدنيا.
- ٢- وجوب الاستقامة على شرع الله، والبشرى على ذلك بالاطمئنان في الدارين.
- ٣- على المؤمن مواجهة نزغات الشيطان وسأوسه بالالتجاء إلى الله؛ لينجّو منها.
- ٤- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم شرط أساس للانتفاع بتربية القرآن وتوجيهاته؛ لأنّ القرآن الكريم كتاب تربية وهداية يقصّد إلى تقوية المؤمن في جانب المعرفة وتقويته في جانب الإرادة، وسعادة المؤمن متوقفة على استكمال هاتين القوتين ودفع ما يضعفهما من الشبهات والشهوات، والاستعاذة حصن المؤمن وسياجه الذي يستعصي على نفاتات إبليس وسهامه.
- ٥- بيان عظمة الدعوة إلى الله تعالى.
- ٦- الثناء على الذين يسبحون الله تعالى.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَتَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقُولُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَأَذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٩- ومن دلائل قدرته على البعث: أنك - أيها الإنسان - ترى الأرض يابسة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وازدانت، وزادت بالثمرات والخيرات. إن الذي أحيا هذه الأرض بالانبات لمُحْيِي الموتى يوم القيامة. إنه سبحانه على كل شيء قدير لا يُعجزه شيء.

٤٠- إن الذين يكذبون بآيات القرآن ويُحرفونها لا يخفون على الله، أقمن يلقي في النار لكفره خير أم الذي يأتي يوم القيامة آمناً من عذاب الله؟ والإجابة على هذا الاستفهام محذوفة للعلم بها بداهة طلباً للإيجاز، وتقديرها: بلى إن من يأتي آمناً يوم القيامة هو خير وهم المؤمنون الموحدون لله. ثم يتوعد الله الملحدين: اعملوا ما شئتم، إنه سبحانه بكل ما تعملون بصير، لا يخفى عليه شيء منه.

٤١-٤٢- إن الذين كذبوا بالقرآن لما جاءهم من عند الله لهم عقاب لا يكاد يُوصف من شدة أهواله، وإن هذا القرآن لكتاب أعزه الله وحفظه من كل تحريف وتبديل ونقص وزيادة، فلا يأتيه الباطل من أي ناحية، تنزيلٌ من إله حكيم في الأقوال والأفعال، محمود في كل حال.

٤٣- ما يقول لك هؤلاء المشركون أيها الرسول من الإشاعات إلا مثل ما قالت الأمم السابقة المكذبة لرسولها. إن ربك لذو مغفرة للمؤمنين التائبين، وذو عقاب موجه للكافرين.

٤٤- ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة أعجمية لأنكر المشركون، وقالوا: هلاً بيئت آياته بلغتنا حتى نفهمها، أكلام أعجمي ورسول عربي؟ فرد عليهم سبحانه: قل لهم: هذا القرآن للمؤمنين هداية إلى الحق، وشفاء للقلوب من الشكوك والقلق، والذين يكذبون به في آذانهم صمم عن سماعه وتدبره، وهو على قلوبهم

عمى فلا يهتدون به. أولئك البعداء عن الحق كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع داعياً، ولا يجيب منادياً، ولا يعرف هادياً!

٤٥ - وقسماً لقد آتينا موسى كتاب التوراة، فاختلف فيه قومه ما بين مُصَدِّقٍ ومُكذِّبٍ. ولولا حُكْمٌ سابق من ربِّك بتأخير الحساب إلى يوم القيامة لَفَصَلَ بينهم بدمار الكفار، وإنَّ المُكذِّبين لفي شكٍّ من القرآن شديد الريبة.

٤٦ - يُبَيِّنُ الله عدله بين العباد: مَنْ عمل عملاً صالحاً طاعة لله، فيعود نَفْعٌ عَمَلِهِ لنفسه، وَمَنْ أساء فعصى الله ورسوله، فيعود ضَرَرٌ إِسَاءَتِهِ على نفسه. وما ربُّك بذي ظلم لأحد، فلا يُعاقِبُ أحداً إلا بذنبه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - من الأدلَّة على البعث وإحياء الموتى: إحياء الله الأرض الميتة بالماء، وإنبات النبات فيها.
- ٢ - في الآية (٤٠) إخبار مستقبليٌّ بأن الله بصير بالأعمال، لا يخفى عليه شيء منها، سواء كانت تلك الأعمال في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل.
- ٣ - القرآن محفوظ من التغيير والتبديل، ولن يأتي من حقائق العلم الثابتة ما يُدُلُّ على بطلان شيء منه.
- ٤ - جميع الرُّسُل قُوبِلُوا بتكذيب الكافرين وشُبُهاتهم واتِّهاماتهم، وقابلوا ذلك بالصبر والثبات.
- ٥ - يختلف تأثير القرآن في الناس حَسَبَ نظرهم له، فهو هدى وشفاء للمؤمنين، وصَمَمٌ وعمى على الكافرين.

٦ - في الآية (٤٦) قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۗ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنَ شُرَكَاءِى قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَعْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤٧-٤٨- يُخبر الله تعالى عن سعة علمه، واختصاصه بعلم قيام الساعة، وما تُخرجه الأشجار من الثمار من أوعيتها، وما تحمله الإناث في بطونها، وما تضع حملها من الأولاد. كلُّ ذلك بعلم من الله سبحانه، ويوم ينادي الله المشركين يوم القيامة توبيخاً وفضحاً لكذبهم: أين شركائي الذين أشركتموهم معي في العبادة؟ أجابوا: أخبرناك ما منَّا من أحد يشهد اليوم أنَّ معك شريكاً. وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة، وأيقنوا أنَّه لا مهرب لهم من عذاب الله.

٤٩- لا يَمَلُّ الإنسان دائماً من طلب الله الغنى والمال والصحة والولد، فإن أصابه مصيبة فهو شديد اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

٥٠- وقسماً إن أدقنا الكافر رحمة منَّا من بعد مصيبة أصابته ليقولَنَّ: هذا الفضل حقُّ لي قطعاً أستحقُّه، وما أعتقد أنَّ الساعة آتية. وقسماً إن عدت إلى ربِّي بالبعث فإنَّ لي عنده الجنة، فلنُخبرَنَّ الكفَّار بكل ما ارتكبه من الجرائم، وقسماً سنذيقهم حقاً من عذاب شديد الألم.

الفوائد والاستنباطات:

١- إنَّ ما يُعبد من دون الله هلاك وضرار، ولن يُجدي شيئاً عن عابديه؛ لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾.

٢- الفرق بين اليأس والقنوط: أنَّ اليأس زوال الرجاء بحيث ينقطع رجاء الإنسان، والقنوط أشدُّ من اليأس، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَيَتَوْسَّ﴾ يكون هذا ابتداءً، والقنوط نهايته.

٣- بيان حالة الإنسان الكافر، وهو كُفْرُه بنعمة الله ﷻ، واعتزازه بنفسه في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى﴾.

٤ - من طبيعة الإنسان أنه يحبُّ الخير دائماً وهو ما يلائم نفسه ومرادها؛ لقوله: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾.

٥ - من صفات الكافر اليأس والقنوط من رحمة الله عند مسه الضر.

٦ - ذمُّ أهل اليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ.

٧ - من صفات الكافر إعجابه بنفسه، إذ يضيف الرحمة إلى نفسه، أو إلى استحقاقه إيَّاهَا.

٨ - بيان عُتُوِّ الكافر وعناده، إذ أنكر ما قامت الأدلَّة الشرعية والعقلية والحسية على ثبوته في قوله:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾.

٩ - تأكيد أنَّ هؤلاء الكافرين سوف يُخْبَرُونَ بما عملوا؛ لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾،

ويكون هذا يوم القيامة.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ

إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ

آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيضٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَهْتَفُوا بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٍ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٥١ - وإذا أنعمنا على الإنسان بخير انصرف عن شكر الله المنعم، وإذا أصابته مُصيبة فهو صاحب

دعاء كثير.

٥٢ - قل - أيها الرسول - هؤلاء المشركين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله، ثم كذبتُم به، إذن

تكونوا أضلَّ الناس، وفي خلاف بعيد عن الحق.

٥٣ - سنريهم دلائل الحق وبراهين الصدق في نواحي السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم وما فيها

من عجائب قدرة الله تعالى، إلى أن يتبين لهم أنَّ القرآن العظيم هو الحق من الله تعالى، أولم يكف هؤلاء

المشركين دليلاً على أنَّ القرآن حقٌّ، بأنَّ ربَّك شاهد على كلِّ شيء ممَّا يفعله خلقه؟ الجواب: بلى والله إن هذا

لكافٍ.

٥٤ - ألا فانتبهوا - أيها العباد - من خطورة اعتقاد هؤلاء المشركين الذين هم في شكٍّ من البعث

والحساب، ألا فانتبهوا لأنفسكم، واحذروا من سخط الله تعالى، فإنَّه بكلِّ شيء محيط لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٥١) إخبار مستقبلي عن حال الإنسان ضعيف الإيمان مع ربه في الرخاء والشدّة، فإنّه إذا أنعمه الله بصحة أو رزق أو غيرهما أعرض وترفع عن الانقياد إلى الحق، وإن أصابه ضرّ فهو ذو دعاء كثير بأن يكشف الله ضرّه، فهو يعرف ربه في الشدّة، ولا يعرفه في الرخاء.
- ٢ - إنّ الإنسان من حيث هو إنسان بطر عند النعماء، مُقيل عند الضراء؛ لقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ﴾.
- ٣ - ما يتمتع به الإنسان من النعيم هو من عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾.
- ٤ - التحذير من هذه الحالة، فإذا رأى الإنسان من نفسه أنّه عند النعمة يفرح، ويبطر ويتهاون بما أوجب الله تعالى عليه، فليعلم أنّه داخل في هذا الإنسان المذموم.
- ٥ - وجوب التفكير في آيات الله تعالى في الآفاق وفي نفسه؛ فهو طريق إلى الحق، وكلما ازداد الإنسان تأملاً وتدبراً فإنه يزداد إيماناً.
- ٦ - الاستدلال بالآثار على مؤثراتها. وَجّه ذلك أنّ الله تعالى استدلّ بتمكينه للرسول على أنّه حقّ، فالإنسان يستدلّ بالآثار على مؤثراتها.
- ٧ - الحذر من المخالفة، وهذه فائدة تربويّة تؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإذا علمت أنّ الله شهيد على كلّ شيء، على نفسك وأفعالك وأقوالك، فإنك سوف تراقب الله ﷻ.
- ٨ - بيان حال هؤلاء المكذّبين، وأنّ سبب تكذيبهم أنّهم في شكّ من لقاء الله، ومعلوم أنّ من كان في شكّ من لقاء الله فلن يعمل الله.
- ٩ - بيان إحاطة الله بكلّ شيء، علماً وقدرةً وسلطاناً وتدبيراً، وغير ذلك، ومحيط بكلّ شيء، بأفعاله وأفعال العباد.
- ١٠ - تحقيق مراقبة الله؛ ذلك أن الإيمان بإحاطة الله تعالى بكلّ شيء يورث المراقبة التامة له.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير الإيمان بوحداية الله تعالى، والإيمان بالملائكة والرسل والبعث.
- ٢ - بيان عظمة مبدأ الشورى، وأهميته في حياة المسلمين خاصة، والبشرية عامة.
- ٣ - تقرير هداية القرآن الكريم للبشرية.
- ٤ - تأكيد وحدة المصدر لدى المرسلين، وأنه من عند رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقٌ ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾

التفسير:

١-٢- تقدم في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأن من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز

القرآن.

٣-٥- مثل ما أوحى إليك ربك - يا محمد - هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة، الله العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير مخلوقاته، له كل ما في السموات السبع، وكل ما في الأرضين السبع، وهو العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، العظيم الذي اجتمعت فيه صفات العظمة. ومن عظمته أن السموات السبع تُقارب أن تتشقق، فهي تتأثر بعظمته سبحانه وبكل ما يمس هذه العظمة من قول المشركين: إن الله اتخذ ولدًا! والملائكة كلهم يلهجون بالتسبيح بحمد ربهم، ويسألون الله المغفرة لذنوب المؤمنين. ألا فانتبهوا أيها العباد، ولا تغفلوا عن مغفرته لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان قدرة الله تعالى، حيث إن كلامه المنزل على نبيه من الحروف التي يتكلم بها الناس، ويُركَّبون منها كلامهم، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله.

٢ - إثبات نبوة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾

٣- عموم ملك الله ﷻ في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول يفيد العموم.

٤- بيان علو الله ﷻ الذاتي؛ لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

٥- نعمة الله علينا أن سخر لنا الملائكة يستغفرون لنا؛ لأن الملائكة لولا أن الله سخرهم لنا ما استغفروا لنا، لكن الله سخرهم.

٦- تأكيد أن الله ﷻ غفور رحيم، وأكد ذلك بثلاثة مؤكّدات: ﴿أَلَا﴾، ﴿إِنَّ﴾، ﴿هُوَ﴾.

٧- بيان الحكمة في حكم الله القدير؛ لأنّ قوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ كالتعليل لقوله:

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، كأنّ قائلاً يقول: لماذا يستغفرون لمن في الأرض؟ فتكون الإجابة: لأنّ الله هو الغفور الرحيم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩) ﴿وَمَا آخَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠) ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ لِيَسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢) ﴿

التفسير:

٦- يهدّد الله المشركين الذين اتخذوا من غير الله آلهة يعبدونها، بأنّ الله يحفظ عليهم أعمالهم، ويحاسبهم عليها يوم القيامة. لست - أيها الرسول - مسؤولاً عن أعمالهم، وإنما أنت مبلّغ وقد أدّيت الأمانة.

٧- ومثل ما أوحينا إلى الأنبياء السابقين أوحينا إليك قرآناً عربياً فصيحاً؛ لتنذّر أهل مكة ومن حولها من العباد أجمعين، وتحدّر من العقاب يوم القيامة لجمع الخلائق وحسابهم، يوم لا شكّ فيه، ثم يتفرّق فيه العباد فريقين: فريق في الجنة، وفريق في نار جهنّم المستعرة.

٨- ولو شاء الله لَجَعَلَ الناس كُلَّهُم مهتدين، ولكنَّه أراد أن يُدْخِلَ في رحمته مَنْ يشاء من المؤمنين، والظالمون أنفسهم بالكفر ليس لهم من دون الله مَنْ يَتَوَلَّى أمورهم، ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

٩- يُنَكِّرُ اللهُ على المشركين أَنَّهُمْ لم يتخذوا الله ولياً، بل اتخذوا أولياء من دون الله يَتَوَلَّوْنَهُمْ، فالله وحده هو الوَلِيُّ بِحَقِّ إن أرادوا ولياً. وهو وحده الذي يبعث الموتى، وهو على كلِّ شيء قدير لا يُعْجِزُهُ شيء.

١٠- وما اختلفتم فيه - أيها العباد - من أمور الدين فَحُكِّمَهُ إلى الله في كتابه وَسُنَّةِ رَسُوْلِهِ ﷺ. ذلكم الله العظيم رَبِّي وربُّكُمْ، عليه وحده اعتمدت في أموري، وإليه أَرْجِعُ في كلِّ شؤني.

١١-١٢- هو سبحانه خالق السموات السبع والأرضين السبع، جعل لكم من جنسكم أزواجاً ذكوراً وإناثاً لتسكنوا إليها، وجعل لكم من الإبل والبقر والغنم أزواجاً أيضاً، يُكْتَرُّكُمْ، وَيُبْتَكُمُ منتشرين بسبب التوالد، ليس يشبهه تعالى ولا يماثلُهُ شيء من مخلوقاته، وهو السميع للأقوال، البصير بالأحوال، له سبحانه ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، يُوسِّعُ رِزْقَهُ على مَنْ يشاء من عباده، وَيُضَيِّقُهُ على مَنْ يشاء. إِنَّهُ سبحانه بكلِّ شيء من الأشياء عليم، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١- تسلية الدُّعَاءِ إلى الله في مواجهة المعوقات التي تعترض طريقهم.

٢- أهمية معرفة اللغة العربية وتعلُّمها. وَجَهْ ذَلِكَ أَنَّهُ إذا كان القرآن عربياً، وكُنَّا مخاطبين به ومُلْزَمِينَ بالعمل به، فَإِنَّهُ لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بتعلُّم اللغة العربية.

٣- في الآية (٨) إخبار مستقبليٍّ عن عاقبة الظالمين أنفسهم بالشرك يوم القيامة، فَإِنَّهُمْ ليس لهم وَلِيٌّ يَتَوَلَّى أمورهم، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله تعالى.

٤- في الآية (٨) قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وقف نبوي، ينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وتفسير سورة الأنعام الآية (٦٥). وقال النحاس: «ينبغي أن يقطع على الآية التي فيها ذكر الجنة والثواب، ويفصل ممَّا بعدها، إن كان بعدها ذكر النار والعقاب، نحو: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [سورة الشورى: ٢٨]، لا ينبغي أن يقول: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ لَأَنَّهُ منقطع مما قبله منصوب بإضمار فعل، أي: ويعذب الظالمين، أو وأوعد الظالمين». (القطع والانتاف ص ٨٩).

٥- القائم بالعدل من الناس له ناصر وولي، والدليل من مفهوم المخالفة، إذا كان الظالم لا ولي له ولا نصير، فَمَنْ قام بالعدل فله وليٌ ونصير.

٦- إثبات الولاية لله؛ لقوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، فلا ولاية لأحد من دون الله؛ لَأَنَّ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل

يفيد الحصر.

- ٧- وجوب الرجوع إلى حكم الله عند الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٨- الله ينشر ويثبت ويكثر بني آدم، وما خلق له من الأنعام بسبب التزاوج.
- ٩- الردُّ على المشركين الذين جعلوا مع الله إلهًا آخر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فهو لا مثيل له، لا في الخلق، ولا في الصفات، ولا في غيره.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَقَرُّوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجْلِ مُسَمَّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ إِنَّمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١٣- يَمْتَنُّ سبحانه على عباده المؤمنين والنبي ﷺ بكرمه العظيم أن شرع لهم من الدين خير الأديان، وهو الإسلام الذي أمر به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وهم أولو العزم من المرسلين، أمرهم بإقامة جميع شعائر هذا الدين، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة في الدين، وذمَّ المشركين الذين استثقلوا، وأعرضوا عن دعوة النبي ﷺ إلى توحيد الله، الذي يصطفي مَنْ يشاء من المرسلين، ويُوَفِّقُ مَنْ يرجع إليه بالطاعة من المؤمنين.

١٤- وما تفرَّق أهل الأديان والمشركون إلا من بعد ما جاءتهم الرسل بالعلم من عند الله، وما حملهم على ذلك إلا الحسد والعداوة بينهم. ولولا حُكْمٌ سابقٌ من الله بتأخير العقاب لُفِضِي بينهم بإهلاك الكفَّار، وإنَّ أهل الكتاب الذين أوتوا التوراة والإنجيل من بعد أولئك الهالكين لَفِي شَكٍّ في كُتُبِهِمْ أوقعهم في الريبة والحيرة.

١٥- فهذا الدين العظيم فادع - أيها الرسول - واستقم كما أمرك الله، ولا تَتَّبِعْ أهواء المشركين، وقل: آمنت بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأمرني ربِّي أن أعدل بينكم في الحكم. الله ربُّنا وربُّكم

جميعاً، لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، لا جدال بيننا وبينكم بعد ما تبين الحق. الله يجمع بيننا وبينكم جميعاً يوم القيامة، وإليه المرجع للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - دين الأنبياء واحد من نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم.
- ٢ - إثبات رسالة النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ قال: ﴿وَأَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.
- ٣ - الأمم جميعهم مأمورون بإقامة الدين، وعدم التفرق فيه.
- ٤ - عصمة الله تبارك وتعالى ﴿مَنْ يُبْسَبْ﴾ من البدع والمخالفات؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾.
- ٥ - الحثُّ على الإنابة إلى الله عز وجل؛ لأنها سبب للهداية.
- ٦ - مَنْ خالف الدين من بعد مجيء العلم فإنه باغٍ معتد؛ لقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.
- ٧ - يجب على المرء أن يستقيم كما أمر، ولا يُحدث في دين الله ما ليس منه؛ لقوله: ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتُ﴾.
- ٨ - تثبيت الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ مثل هذه الأوامر والنواهي تُؤَيِّده وتُثَبِّته وتُقَوِّيه.
- ٩ - وجوب الإيمان بكلِّ ما أنزل الله من كتاب؛ لقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾.
- ١٠ - وجوب العدل؛ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، مَجْهُمٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ
 ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الْأَيُّهَا
 الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ، فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ، مِنْهَا
 وَمَا لَهُ، فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦ - والكفار الذين يُحَاجُّونَ في دين الله تعالى من بعد ما استجاب الناس له حُجَّتْهُمُ باطلة عند ربهم،
 وعليهم سَخَطٌ من الله في الدنيا، ولهم عذاب شديد الألم في الآخرة.

١٧- ١٨ - الله تعالى الذي أنزل القرآن وسائر الكتب متسمة بالصدق، وأنزل العدل؛ ليحكم بين الناس
 بالإنصاف، وما يُعْلِمُكَ لَعَلَّ وقت الساعة قريب وأنت لا تدري. تلك الساعة التي يستعجل بمجيئها
 الكفار سخرية، والمؤمنون خائفون من قيامها، ويعتقدون جزماً أنّها واقعة حقاً. ألا فانتبهوا أيها العباد. إنّ
 الذين يجادلون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحق.

١٩ - الله سبحانه ذو لطف بعباده، يرزق مَنْ يَشَاءُ منهم، وهو القويُّ الذي له القوَّةُ كُلُّهَا لا يغلبه أحد،
 العزيز في انتقامه من أعدائه.

٢٠ - يُحْضُ الله تعالى على العمل للآخرة، فَمَنْ كَانَ يريد بأعماله ونيَّته ثواب الآخرة نُضَاعَفَ له
 حسناته، وَمَنْ كَانَ يريد بعمله متاع الحياة الدنيا وحدها نُؤْتِيَ منها ما نَشَاءُ لِمَنْ نريد، وما له في الآخرة من
 ثوابٍ يستحقه.

عن أبي هريرة ؓ قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ، فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ
 حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ، مِنْهَا وَمَا لَهُ، فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: ابن آدم تفرغ
 لعبادتي، أملاً صدرك غنى وأسدُّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسدِّ فقرك».

(أخرجه الترمذي في السنن برقم ٢٤٦٦. وقال: حسن غريب. وابن حبان في (صحيحه ١١٩/٢ برقم ٣٩٣) وأخرجه الحاكم من
 رواية معقل بن يسار بنحوه. وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٣٢٦/٤) ووافقها الألباني في (السلسلة الصحيحة برقم ٩٥٠).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - قال الشيخ ابن عثيمين: «إثبات القياس؛ لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ لأنَّ الميزان ما تُوزن به الأشياء ويقارن بينها، ففيه إثبات القياس في الشرائع السَّاوِيَّة.... واعلم أنَّ كلَّ مثل ضربه الله في القرآن فَإِنَّهُ مُثِبَّتٌ للقياس؛ لأنَّ المقصود به قياس هذه الحال على هذه الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤]، عندنا هنا مشبَّه ومشبَّه به، والتشبيه يقتضي الموازنة وإلحاق المشبَّه بالمشبَّه به، وهذا تماماً هو القياس». (تفسير القرآن الكريم ٤٧٧/٩).
- ٢ - النبي ﷺ لا يعلم متى تقوم الساعة؛ لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: وما يُعْلِمُكَ. وهذا حقٌّ ثابت، فإنَّ جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ قال: أخبرني عن السَّاعة؟ فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». (صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، برقم ٥٠، وصحيح مسلم - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم ٩).
- ٣ - المؤمن بالسَّاعة خائف منها؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، ولكنَّهم خائفون خوفاً يحملهم على العمل لها.
- ٤ - التحذير من الحرص على متاع الحياة الدنيا، والدعوة إلى إخلاص العمل لله تعالى لنيل الأجر والثواب.
- ٥ - الآية (٢٠) مقيدة بالآية ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ. فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيْنَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]؛ لأنَّ مَنْ أراد حرث الدنيا فَإِنَّهُ لا يُعْطَى كلَّ ما أراد.
- ٦ - في الآية (٢٠) إخبار مستقبليٍّ عن جزاء مَنْ أراد بعمله الآخرة أو الدنيا، فمَنْ أراد بعمله ثواب الآخرة، فأدَّى حقوق الله، وأنفق في الدَّعوة إلى الدِّين، فإنَّ الله يزيد له في عمله الحسن، فيضاعف له ثواب الحسنة إلى عشر أمثالها إلى ما شاء الله من الزيادة، ومَنْ أراد بعمله الدنيا وحدها آتاه الله منها ما قسمه له، وليس له في الآخرة شيء من الثواب.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

٢١- يُؤَيِّخُ اللهُ تعالى المشركين: هل هؤلاء المشركين بالله شركاء من الآلهة والشياطين، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله تعالى؟ ولولا أن حكم الله سابق بامهالهم؛ لَفُضِيَ بينهم بتعجيل هلاكهم. وإن الظالمين أنفسهم بالكفر لهم عذاب موجه يوم القيامة.

٢٢- ترى - أيها الرسول - الكافرين بالله خائفين يوم القيامة من عقاب الله؛ بسبب ارتكابهم الجرائم في الدنيا، والعقاب نازل بهم، والمؤمنون الذين عملوا بطاعة الله في رياض الجنان الطيبة، لهم ما يتمنون من أنواع النعم من عند ربهم. ذلك الجزاء العظيم هو الفضل الكبير الذي لا يُوصف قَدْرُهُ.

٢٣- ذلك المقام الكريم الذي يُبَشِّرُ اللهُ عباده المؤمنين الذين يعملون بما أمرهم الله تعالى. قل - أيها الرسول - للمشركين: لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، ومن يكتسب حسنة نضاعفها له. إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، شكور لعباده المؤمنين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئِلَ عن قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبیر: قربي آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: عَجَلْتُ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

(صحيح البخاري ٨/٤٢٦ برقم ٤٨١٨ - كتاب التفسير - سورة الشورى، باب الآية).

٢٤-٢٥- يُؤَيِّخُ اللهُ المشركين: بل يقولون: إنَّ مُحَمَّدًا اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه؟ لو افتريت ذلك لَطَبَعَ اللهُ على قلبك، ويزيل الله الباطل، ويُثَبِّتُ اللهُ الحق، ويُوضِّحُه بحججه الحكيمه. إِنَّهُ

سبحانه عليم بما في قلوب العباد، وهو الذي يقبل التوبة من عباده إذا تابوا، ويصفح عن الذنب لمن يشاء، ويعلم ما تفعلون من خير وشرٍّ، فيحاسبكم عليه.

٢٦- ويستجيب المؤمنون الذين يعملون الصالحات لِمَا دعاهم الله إليه من الحقِّ، ويزيدهم من فضله هدىً وأجرًا كبيراً، والمُكذِّبون بالله لهم عذاب شديد الألم في نار جهنم.
الفوائد والاستنباطات:

١- قال الشيخ ابن عثيمين: «مَنْ أطاع الزعماء الكبار في تحريم شيء أحلَّه الله، أو تحليل شيء حرَّمه الله، أو إيجاب شيء لم يوجبه الله، فإنَّه قد اتخذهم شركاء». (تفسير القرآن الكريم ٩/٤٩٠).

٢- ما قضاه الله أَرْلاً لا يتغيَّر، يعني في الماضي لا يتغيَّر.

٣- في الآية (٢٢) عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَاَقْعُ بِهِمْ﴾ وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٤- في الآية (٢٣) إخبار مستقبليٍّ، وبشارة لعباد الله المؤمنين بالنعيم والكرامة في الآخرة. وفيها إخبار مستقبليٍّ آخر عن جزاء مَنْ يكتسب حسنة، فإنَّ الله يضاعفها له بعشر فصاعداً.

٥- بيان شدَّة منابذة الكفار لما جاء به النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٦- الطبع على القلب عقوبة من الله يُصيب بها العُصاة.

٧- في الآية (٢٥) إخبار مستقبليٍّ عن تَقَبُّلِ الله توبة عباده، إذا رجعوا إلى توحيدهِ وطاعته، ويعفو عن سيئاتهم. وفيها إخبار مستقبليٍّ آخر، وهو أَنَّ الله ﷻ يعلم ما يصنع عباده من خيرٍ وشرٍّ - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - ، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيهم بها.

٨- فضيلة الإيمان والعمل الصَّالح، وأنَّه سبب لإجابة الله تعالى.

٩- كُلُّ ما يَنال الإنسانَ من خير فبفضل الله. وعلى هذا يجب على الإنسان أن يقطع عن نفسه الإعجاب

والغرور.

١٠- الله تعالى يُنذر النَّاسَ عن المعاصي والكفر بذكر العقاب.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾
 وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ
 مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ
 رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾
 وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٢٨- ولو وسَّع الله تعالى الرزق على عباده فوق حاجتهم، لحملهم ذلك على الفساد والعدوان فيما بينهم، ولكنه سبحانه يرزق بقدر ما يشاء لكفائتهم. إنه بعباده خبير بأحوالهم، بصير بتدبير شؤونهم، وهو الذي ينزل المطر من بعد ما يتسوا من نزوله، وينشر رحمته في خلقه، وهو الوليُّ الذي يتولى عباده بفضله، المحمود على كلِّ حال.

٢٩- ومن دلائل قدرة الله: خلق السموات السبع والأرضين السبع، وما نشر فيهما من أصناف الدوابِّ التي تدبُّ على وجه الأرض، وفي كلِّ سماء، وهو سبحانه على جمع المخلوقات كلِّهم إذا يشاء قدير، لا يعجزه شيء.

٣٠- وما أصابكم - أيها العباد - من مصيبة فبسبب معاصيكم التي ارتكبتوها، ويعفو ربُّكم عن كثير من الذنوب، فلا يؤاخذكم بها.

٣١- ولستم - أيها العباد - بمعجزين الله في الأرض، فلن تفلتوا منه، وليس لكم من غير الله من وليٍّ يتولَّى أموركم، ولا نصير يدفع عنكم ما يؤذيكُم.

٣٢-٣٤- ومن دلائل عظمة قدرته سبحانه: السفن الكبيرة التي تجري في البحر كالجبال، إن يشأ الله أن يجعل الرياح ساكنة، فتقف السفن ثابتة على ظهر البحر. إنَّ في ذلك التدبير العظيم لعلامات واضحة على القدرة الربانية لكلِّ صَبَّارٍ على طاعة الله، شكور لنعمه سبحانه، وإن يشأ يُرسل الرياح العاصفة، فيغرق هذه السفن ومن عليها بسبب ذنوبهم، ويتجاوز سبحانه عن كثير من الذنوب.

٣٥- ويعلم الكفَّار الذين يجادلون في آياتنا المسموعة والمشاهدة بالباطل، ما لهم من فرار من عقاب الله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٢٧) إخبار مستقبلي عن حال العباد فيما إذا بسط الله الرزق، وسَّعه عليهم، فإنهم يبغون في الأرض أشراً وبطراً، ويطغى بعضهم على بعض، ولكن الله يُنزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفائتهم.
- ٢ - بسطُ الرزق وتضييقه من عند الله وحده.
- ٣ - الإشارة إلى أن توسيع الرزق على أحد، وتضييقه على آخر، مبني على خبرة وعلم؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُوهَ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾.

- ٤ - تمام قدرة الله ﷻ بجمع هذه الدواب يوم الحساب؛ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.
- ٥ - في الآية (٣٠) إخبار مستقبلي بأن اكتساب الذنوب والآثام يوقع المصائب في الدُّنْيَا والدُّنْيَا، مع أَنَّ الله ﷻ يعفو عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذ عباده بها.
- ٦ - توصل العلم الحديث إلى:

- أ- أن السفن تبقى ساكنة، ما لم تؤثر فيها قوة تحركها.
- ب- أن للسفن قسماً مغموراً في الماء لا نراه، يُؤمِّن لها التوازن ويحفظها من الغرق.
- ج- تسخير مياه البحار والأنهار وجعلها ذات كثافات مناسبة لتحمل على ظهرها السفن.
- د- استخدام الخشب لصناعة السفن؛ لأنه أخفُّ من الماء، ومسامير لتثبيت الألواح الخشبية ذات السطح الكبير، ممَّا يزيد من القوة الضاغطة، ويمنع تَسْرُبَ الماء إلى داخلها.
- (<http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=556>).

- ٧ - وجوب خوف الله تعالى ورقابته؛ لأنَّ الله ﷻ إذا أراد أن يُعَذِّبَ العاصيَ فلن يخفى عليه.
- ٨ - التحذير من المعاصي، وأنها سبب للعقوبات؛ لقوله: ﴿يَمَّا كَسَبُوا﴾.
- ٩ - دَمُّ المِجَادِلَةِ لِإِبْطَالِ الحَقِّ؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾، أمَّا المِجَادِلَةُ لِإِبْطَالِ الحَقِّ فَإِنَّهَا وَاجِبَةٌ بِالنَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ فِي الأَسْلُوبِ وَالبَيَانِ وَالبَرهَانِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَدَلْتَهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَخُذُوهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾
 وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ٱصَابَهُم ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ
 سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْتِيَ مَآ
 عَلَيَّهِ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ؕ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٤١ - يُقَلِّلُ اللهُ تَعَالَى مِنْ شَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَهْمَا جَمَعْتُمْ - أَيُّهَا الْعِبَادُ - مِنْ زَخْرَفِ الدُّنْيَا فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ، فَإِنَّهَا هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةُ، وَثَوَابُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، وَأَبْقَى أَثْرًا لِدَوَامِهِ. وَهَذَا الْخَيْرُ هُوَ الدَّائِمُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ الْمُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِ. وَمِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الْخَبِيثَةِ، وَإِذَا غَضِبُوا تَجَاوَزُوا عَنِ الذَّنْبِ، وَكَظَمُوا الْغَيْظَ، وَالَّذِينَ أَجَابُوا رَبَّهُمْ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَحَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَيَتَشَاوَرُونَ فِي مُهِمَّاتِ الْأُمُورِ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْمَالِ يَتَصَدَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَالَّذِينَ إِذَا تَعَرَّضُوا لِلظُّلْمِ لانتصروا لدفعه، بمجازاة المسيء بمثل ما اعتدى من غير زيادة. فَمَنْ عَفَا عَنِ الْمَسِيءِ، وَأَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْفُورِ عَنْهُ ابْتِغَاءً رِضَا اللَّهِ، فَأَجْرُ عَفْوِهِ عَلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَمَنْ عَاقَبَ الْمُعْتَدِيَّ بِمِثْلِ اعْتِدَائِهِ فَلَا ذَنْبَ عَلَيْهِ.

٤٢ - إِنَّهَا الْإِثْمُ وَالْعِقَابُ عَلَى الَّذِينَ يَتَعَدَّوْنَ عَلَى النَّاسِ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْبَاطِلِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. أَوْلَئِكَ الْبِعْدَاءُ عَنِ الْحَقِّ لَهُمْ عَذَابٌ مُوجِعٌ.

٤٣ - وَلَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَذَى وَسَتَرَ عَلَى السَّيِّئَةِ. إِنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَأَكْدَاهَا.

الفوائد والاستنباطات:

١ - فِي الْآيَةِ (٣٦) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ وَالبشارة للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربهم يتوكلون بأن لهم عند الله تعالى نعيم الجنة المقيم.

٢ - وجوب التوكل على الله؛ لقوله: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

٣ - أهمية الشورى في علاج أنواع العنف والقضاء على الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛

لأن الكل تحت قبة واحدة ويجب أن يحافظ على هوية الجماعة ووحدة الكلمة ونبذ الفرقة والشقاق.

- ٤ - مسؤولية مجلس الشورى في الارتقاء بالمجتمع من خلال النتائج السديدة والتوصيات الرشيدة ذات قرارات حكيمة ومخرجات كريمة.
- ٥ - من صفات الذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون: أنهم لا يرؤون بالظلم، وإغفال الأخذ بحقهم؛ لقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ﴾.
- ٦ - يجب على من انتصر إذا أصابه البغي ألا يتجاوز الحد بالاستيفاء.
- ٧ - في الآية (٤٠) إخبار مستقبلي بأن جزاء سيئة المسيء فيما إذا أساء فإن عقوبته سيئة مثلها من غير زيادة. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو جزاء من عفا عن المسيء وترك عقابه، وأصلح الود بينه وبين المعفو عنه ابتغاء وجه الله، فأجر ذلك العفو على الله.
- ٨ - التحذير من الظلم. ووجهه أن في الظلم انتفاء محبة الله للعبد، وما أعظم الخسارة فيمن خسر محبة الله له!
- ٩ - في الآية (٤٣) إخبار مستقبلي عن جزاء من صبر على الأذى وستر السيئة، فإن ذلك من عزائم الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي أمر الله بها، ورثب لها ثواباً جزيلاً، وثناء حميداً.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَّةٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ۗ مِن اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۗ إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِن تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

التفسير:

- ٤٤ - وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ عن الهداية فليس له ناصر يتولى هدايته، وترى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر يوم القيامة حين رأوا العذاب يقولون لربهم: هل هناك طريق للرجوع إلى الدنيا لنعمل صالحاً؟
- ٤٥-٤٦ - وترى - أيها الرسول - هؤلاء الظالمين يُعْرَضُونَ على نار جهنم خائفين من الخزي يُسَارِقُونَ النظر من شدة الخوف. وقال المؤمنون: إن الخاسرين حقاً هم الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم

القيامة. ألا فاتبها - أيها العباد - من سوء عاقبتهم. إن الظالمين في عذاب دائم، وما كان لهم من أعوان ينقذونهم من العذاب، ومن يُضللله الله عن الهداية فما له من طريق يخرجهم من العوابة ليصل به إلى الهداية.

٤٧-٤٨ - أجيوا دعوة ربكم - أيها العباد - لعبادته من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يمكن أحداً أن يرده بعد حكم الله بوقوعه، ما لكم من مفر تلجؤون إليه في ذلك اليوم، وما لكم من ناصر يُعينكم، ولا سبيل لكم لإنكار ما اقترنتم، فإن أعرضوا عن هذه الدعوة والإيمان، واستحبوا الكفر فما أرسلناك - أيها الرسول - عليهم حافظاً لأعمالهم لتحاسبهم عليها، فما عليك إلا تبليغ الدعوة. وإننا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - إذا أكرمتنا الإنسان برحمة فرح بها، وإن تُصنهم مصيبة بسبب ارتكابهم المعاصي فإن الإنسان جحودٌ لنعم الله.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إن المستكبرين على الحق المعاندين يُجازون بعقاب يناسب معصيتهم. لأنهم يُعرضون على النار خاشعين ذليين.

٢ - تسلية للدعاة، فالداعي عليه البلاغ، وليس عليه أن يهدي الناس؛ لأن الهداية من الله.

٣ - ما يصيب الإنسان من سيئة هو بسبب عمله؛ لقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾.

٤ - في هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٥٣﴾﴾

التفسير:

٤٩-٥٠ - لله سبحانه ملكوت السموات السبع والأرضين السبع وما فيها، يخلق ما يشاء من الخلق، فيرزق من يشاء الإناث، ويرزق من يشاء الذكور، أو يرزقهم ذكورا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له ولد. إنه سبحانه عليم بأحوال الخلق، قدير على خلق ما يشاء، ورزق من يشاء.

٥١- وما صَحَّ لأحدٍ مِنَ البشرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا بِوحيٍ مُنزلٍ عليه، أو يُكَلِّمَهُ من وراءِ حجابٍ، أو يرسل إليه مَلَكًا، فيوحي بإذن ربِّه ما يشاء تبليغُه. إِنَّه سبحانه عليٌّ بذاته وأسمائه وصفاته، حكيمٌ في تدبير شؤون مخلوقاته.

٥٢-٥٣- ومثَل ما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك - أيها الرسول - قرآنًا من عندنا، ما كنت تعرف ما الكتب السابقة ولا الإيمان، ولكن جعلنا هذا القرآن نورًا يُبَصِّرُ العباد، يهدي به مَنْ نشاء من عبادنا. وإنَّك - أيها الرسول - لتَهدي إلى الإسلام حقًّا، وهو دين الله الذي له ملك ما في السموات السبع والأرضين السبع، ألا فاتبهوا أيُّها العباد، فإنَّ مرجع أمور الخلائق إلى الله تعالى للحساب.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيتين (٤٩-٥٠) إخبارٌ مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ يخلق ما يشاء من الخلق - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - فَيَهَبُ لِمَنْ يشاء من عباده إناثًا لا ذكورَ معهم، وَيَهَبُ لِمَنْ يشاء الذكور لا إناث معهم، ويعطي ﷻ لِمَنْ يشاء من النَّاس الذكر والأنثى، ويجعل مَنْ يشاء عقيمًا لا يُولد له.

٢- لا اختيار للمرء بالنسبة للأولاد؛ لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فجعل الأمر راجعًا إلى مشيئته ﷻ.

٣- الإشارة إلى أنَّ ما خالف هَدْيَ النبيِّ ﷺ ليس صراطًا مستقيمًا، تؤخذ من قوله: ﴿إِنِّي صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، يعني أنَّ غير ما أنت عليه ليس صراطًا مستقيمًا.

٤- في الآية (٥٢) إخبارٌ مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ جعل القرآن ضياءً للنَّاس، يهدي به الله مَنْ يشاء من عباده إلى صراط مستقيم - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل -.

٥- عُقِمَ أحد الزوجين قَدْرًا من الله تعالى وابتلاءً وبحكمة منه قد لا يعلمها الإنسان، فعليه التسليم وليعلم أن ما كُتِب عليه في ذلك هو خير له وليطمئنَّ به دونما تحسُّر أو جزع.

٦- إثبات الوحي من الله إلى البشر بواسطة.

٧- تقرير هداية القرآن الكريم.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - تقرير الرسالة النبوية.
- ٢ - تقرير وحدانية الله تعالى بالبراهين الكونية.
- ٣ - تقرير البعث والحساب بالجنة أو النار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴿﴾

التفسير:

- ١ - تَقَدَّمَ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطَعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.
- ٢-٤ - قَسَمًا بِالْقُرْآنِ الْمُبِينِ بِأَحْكَامِهِ وَهَدْيِهِ لِلْعِبَادِ، إِنَّا - لِمَا لَنَا مِنَ الْعِظْمَةِ الْكَامِلَةِ وَالْقُدْرَةِ الشَّامِلَةِ - جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا فَصِيحًا؛ لِكَيْ تَفْهَمُوا مَعَانِيهِ، وَتَتَدَبَّرُوا مَرَامِيهِ، وَإِنَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ فِي شَرَفِهِ وَمَقَامِهِ، حَكِيمٌ فِي حِكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَأَمَرَ أَنْ يَكْتُبَ مَا يَرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ، فَالْكِتَابُ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾».

(أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه، السنة ٢/٤١٠ برقم ٨٩٨، وأخرجه الطبري (التفسير ٢٥/٤٨) من طريق ابن عليه عن الدستوائي به. وإسناده صحيح. (انظر: مرويات أحمد في التفسير ٤/٨١ برقم ١٤٩).

٥- يُنكَرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْكُفَّارِ، وَيُؤَيِّبُهُمْ: أَنْتَرَكَ تَذَكِيرَ كُمْ لِأَجْلِ إِعْرَاضِكُمْ، وَمَعْصِيَتِكُمْ وَإِسْرَافِكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ؟

٦-١٠- ما أكثر إرسالتنا الأنبياء في الأمم السابقة! وما يأتي تلك الأمم من نبيٍّ إلا كانوا به يسخرون، فدمرنا مَنْ هم أشدُّ قوَّةً من قومك أيها الرسول، ومضى ذكر أخبار السابقين ودمارهم. وقسماً إن سألتهم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ؟ لَيَقُولُنَّ: خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ فِي مَلَكُوتِهِ، الْعَلِيمُ بِمَخْلُوقَاتِهِ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - الْأَرْضَ فِرَاشاً، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا طُرُقاً؛ لِكَيْ تَهْتَدُوا إِلَى مَطْلُوبِكُمْ وَغَايَتِكُمْ.

١١-١٤- وهو الله سبحانه الذي نَزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ بِلْدَةَ لَا نَبَاتَ فِيهَا. مِثْلَ ذَلِكَ الْإِخْرَاجَ تَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَالَّذِي خَلَقَ الْأَصْنَافَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا تَرْكَبُونَ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ مِنَ السَّفَنِ وَالْإِبِلِ وَالْخَيْلِ؛ لِتَسْتَقَرُّوا عَلَى ظُهُورِهَا، وَتَقُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي ذَلَّلَ لَنَا هَذَا الْمَرْكَبَ، وَمَا كُنَّا لَهُ مَطِيقِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا بَعْدَ مَمَاتِنَا رَاجِعُونَ لِلْحِسَابِ.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجاً إِلَى السَّفَرِ، كَبَّرَ ثَلَاثاً ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَيْكَ رَاغِبُونَ﴾ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبَرِّ وَالتَّقْوَى. (صحيح مسلم - كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره برقم ١٣٤٢).

الفوائد والاستنباطات:

١- كون القرآن باللغة العربية منقبة كبرى للعرب؛ لأنَّ القرآن العظيم نزل بلغتهم؛ لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

٢- مِنَّةُ اللَّهِ ﷻ عَلَى الْعَرَبِ، فَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا وَاحِدًا وَبَلَّغْتَهُمْ، هُدَايَةَ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

٣- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلَهُ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

٤- تقرير نعم الله تعالى على خلقه بما جعل لهم من الطُّرُقِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى تَبَاعُدِ أَقْطَارِهَا بِالشَّعَابِ وَالْجِبَالِ وَالنَّجُومِ.

- ٥- في الآية (١٠) إخبار مستقبلي عن سبب جعل الله الأرض لعباده فراشاً وبساطاً، وسهّل لهم فيها طرُقاً لمعاشهم ومتاجرهم؛ وذلك كي يهتدوا بتلك السُّبُلِ إلى مصالحهم الدنيئة والدنيوية.
- ٦- رحمة الله ﷻ بإنزال المطر من فوق؛ لأنّه لو كان من أسفل لغرقت الأرض السفلى دون أن يصل الماء إلى قيمم الجبال، ولكنّ الله تعالى جعله ينزل من فوق حتى يروي العالي والنازل.
- ٧- قياس المعقول على المحسوس، وإن شئت فقل: قياس الغائب على الحاضر؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ﴾.

٨- نعمة الله ﷻ على عباده، إذ جعل لهم من الأنعام والفلك ما يركبونه.

- ٩- استحباب هذا الذكر عند الرُّكوب، وهو: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

- ١٠- في الآية (١٣) إخبار مستقبلي عن الحكمة من جعل الله السفن في البحر، والبهائم في البر، مراكب لعباده؛ وذلك لكي يستوا على ظهورها، ثم يتذكروا نعمة ربهم إذا ركبوا عليها، ويقولوا: الحمد لله الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مَطِيقِينَ. وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا بَعْدَ مَمَاتِنَا لَصَائِرُونَ، وإليه راجعون.
- ١١- إن في تقرير الله تعالى لهذه النعم على عباده دعوة لهم للاعتراف بفضله وشكره عليها بالإيمان به وعبادته وحده دون شريك وطاعته والانقياد لأمره وشرعه.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ، مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) أَمْ أَلَمَّا تَأْتُوا بِنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧) أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكُنَّبُ شَهَدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) أَمْ أَنبِئْتَهُم كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ، فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿التفسير:

- ١٥- وجعل هؤلاء المشركون لله ولداً سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً. إن الإنسان مبالغ في الكفر، مُعَلِّينَ لَهُ.

١٦- يُنكر الله على المشركين: هل اتخذ الله لنفسه البنات، وخصّصكم بالبنين؟

١٧-١٩- وإذا بُشِّرَ أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ بِوَلَادَةِ بِنْتٍ لَهُ، صار وجهه مُسْوَدًّا مِنَ الْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ! أَيْجْعَلُونَ اللَّهَ وَلَدًا مِنْ شَأْنِهِ النَّشْأَةِ فِي الزَّيْنَةِ، وهو في الجدال عاجز لِقُصُورِ بَيَانِهِ؟ وجعل هؤلاء المشركون الملائكة الذين هم يعبدون الرحمن إناثًا! هل حَضَرُوا عند خَلْقِهِمْ حتى يحكموا بأنهم إناث؟ سَتُكْتَبُ مَقَالَتُهُمْ الْمَرْعُومَةَ، وَيُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ.

٢٠-٢٢- وافترؤا أيضاً بقولهم: لو شاء الله الرحمن ألا نعبد هؤلاء الشركاء ما عبدناهم. ليس لهم دليل على ما يدَّعون، وما هم إلا يكذبون. هل أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن، فهم ملتزمون بالعمل بما فيه؟ فلم يأتوا بحجَّةٍ على ما يزعمون، بل اعترفوا بأنهم مُقلِّدون لدين آبائهم وكفرهم، وأنهم سائرون على منهج آبائهم في الكفر.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإنكار على هؤلاء الذين جعلوا لله ولداً؛ لقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِيَّاهُ إِذَا بَشَّرَهُ بِابْنٍ فَقَالَ سَوَءٌ عَلَيَّ إِذْ بَشَّرْتُ بِالْغُلَامِ فَأَعْرِضْ عَنْهُ﴾.
- ٢- التنديد التام بهؤلاء؛ حيث إنهم إذا بُشِّرُوا بالأنثى صارت لهم هذه الحال، وهم يدَّعونها للخالق ﷻ.
- ٣- ضعف المرأة في الخصام، بكونها لا تُبَيِّنُ ما في قلبها من الحجة.
- ٤- تهديد أولئك المفترين بأنَّ شهادتهم سَتُكْتَبُ، ويعاقبون عليها.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَوْلُوا حِجَّتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنْزَعْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٣- وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة، كذلك فعل الذين من قبلهم من الأمم المكذبة، فما بعثنا قبلك - أيها الرسول - من نذير إلا قال أهل البطر والترف: إننا وجدنا آباءنا على دين، وإننا على طريقتهم سائرون مُتبعون.

٢٤-٢٥- يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ أَنْكَرُوا عَلَى الْكُفَّارِ تَقْلِيدَ آبَائِهِمْ فِي الْكُفْرِ، وَقَدْ جَاءَهُمُ الْمُرْسَلُونَ بِالْهُدَايَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ أَصْرُوا عَلَى غَوَايَتِهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا بِمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ جَاهِدُونَ، فَأَهْلِكُنَاهُمْ. فانظر - أيها الرسول - كيف كان مصير المكذبين بالله ورسوله؟

٢٦-٢٨ - واذكر - أيها الرسول - حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه (آزر) وقومه: إنني بريء من هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، لكن ربِّي الذي خلقتني هو الذي أعبده، ويهديني إلى طريق الحق. وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) باقية في ذريته من بعده، ووصَّاهم بها؛ لكي يرجعوا إلى طاعة ربِّهم، وتوحيده.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تسلية النبي ﷺ بأنَّ هذا الذي قيل له قد قيل لِمَن قبله من الرسل، كقوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].
- ٢ - اتفاق أهل الباطل على هدف واحد، ألا وهو تكذيب الرُّسل.
- ٣ - إنَّ هؤلاء القوم المكذِّبين للرسل ليس لديهم حُجَّة إلا اتِّباع آبائهم.
- ٤ - بيان معالجة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام للمكذِّبين، فهم يأتون بالحُجج المقنعة، ولكن الكافرين يعاندون.
- ٥ - عاقبة المكذِّبين الهلاك والدمار.
- ٦ - تحذير هذه الأمة من تكذيب رسولها أن يصيبهم ما أصاب غيرهم.
- ٧ - قوَّة رجاء إبراهيم بالله ﷻ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِين﴾، والسين هذه تدلُّ على التَّحقيق.
- ٨ - تمام نصح إبراهيم عليه السلام لعقبه، إذ جعل كلمة التوحيد باقية فيهم، وهذا بمنزلة الوصية للعقب أن يقوموا بهذه الوصية.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩-٣٢- ولم يُحَقِّقِ المشركون من قومك - أيها الرسول - وصية إبراهيم، ولم أعجل لهم العقوبة، بل مَتَّعْتَهُمْ هم وآباءهم بالنعم، حتى جاءهم القرآن ورسولٌ مُّوَضَّحٌ لهم طريق الهداية بالمعجزات العظيمة، فبيّن كل ما تحتاج إليه الأمة من خير فتفعله، ومن شرّ فتتركه، ولما جاءهم القرآن أنكروه، وقالوا: هذا الذي جاء به محمدٌ سحر، وليس بوحى من عند الله، وإنا به مكذبون، وقالوا بسفاهة ومكر: هلا نزل هذا القرآن على رجل من كبار زعماء مكة أو الطائف! فأنكر الله عليهم: أهؤلاء يقسمون رحمة ربك - أيها الرسول - فيمتنحون النبوة من أرادوا؟ لا، نحن قَسَمْنَا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض، فجعلنا بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً؛ ليكون كل منهم مُسَخَّرًا للآخر، ويخدم بعضهم بعضاً. ورحمة ربك العظيمة - أيها الرسول - بإدخالهم الجنة خير مما يجمعون من حطام الدنيا.

٣٣-٣٥- ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من العيش، ويصيروا ملة واحدة في الكفر، لأغدقنا على الكفار ملذات الدنيا، وجعلنا لهم القصور ذات السقوف الفضية، والسلالم المريجة للارتقاء، والأبواب الفضية، والشُرر الفارحة التي يتكثون عليها، وأثاثاً من الذهب. وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نُعْطِيهِ للكفار إلا شيء يُتَمَتَّعُ به في الحياة الدنيا الفانية، وأما نعيم الآخرة فمُدَّخَرٌ عند ربك للمتقين في الجنة الباقية.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ما جاء به النبي ﷺ فهو الحق، إن كانت أخباراً فهي صدق، وإن كانت أحكاماً فهي عدل.
- ٢ - شدة عناد المكذبين للرسول ﷺ، إذ أعلنوا إعلاناً صريحاً أنهم كافرون به.
- ٣ - إقامة الدليل الذي لا انفكاك عنه، بأن كفار قريش لا يستطيعون قسَمَ رحمة الله؛ لقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ﴾، فهذا لا يمكنهم إنكاره.

- ٤ - في الآية (٣٢) إخبار مستقبلي عن الحكمة في رفع الله العباد بعضهم فوق بعض درجات، هذا غني، وهذا فقير، وهذا قوي، وهذا ضعيف؛ ليكون بعضهم سبباً لبعض في المعاش.
- ٥ - هذه المتعة الدنيوية ما هي إلا متاع الحياة الدنيا، وهي زائلة، فلا يتعلق الإنسان بها.

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ، قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ، لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٩ - وَمَنْ يُغْرِضْ وَيَتَغافل عن القرآن وعبادة الرحمن، نجعل له شيطاناً يُغويه لا ينفك عن الوسوسة، فهو ملازم له لا يفارقه. وإن شياطين الإنس والجن ليمنعون هؤلاء الكفار الضالين عن الهداية، فيزيئون لهم الغواية، ويظنون أنهم على بصيرة وهدى من أمرهم، حتى إذا جاء الكافر مع قرينه يوم القيامة للحساب ندم وصاح: يا ليت بيني وبينك مثل بُعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحب القبيح أنت. ولن ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأجلاؤكم، فلن يواسي بعضكم بعضاً، ولن يكون العذاب مؤزعاً عليكم فيُخففَ لأجل الشركة؛ لأنكم اشتركتم في الظلم والكفر.

٤٠ - أفأنت - أيها الرسول - تُسمع الصم عن سماع الحق، أو تهدي العمي عن إبصار الهدى، وتهدي

مَنْ كَانَ فِي انحراف عن الحق؟

٤١-٤٥ - فهؤلاء لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فإن توفيناك - أيها الرسول - قبل هلاكهم، فإننا منتقمون منهم بعدك، أو نرينك الذي وعدناهم من العذاب حقاً، فإن لنا القدرة التامة على نصرك عليهم، فتمسك بقوة بما أمرك الله، إنك على دين الإسلام. وإن هذا القرآن لشرَّف لك ولقومك حقاً إذ نزل

بلغتهم، فهم أعرف الناس به، وسوف تُسألون يوم القيامة عن الإيثار والعمل به. وأسأل - أيها الرسول - أتباع المرسلين قبلك: هل أذن الله بعبادة الأوثان من دون الله؟

عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ فقال: قال أنس: ذهب رسول الله ﷺ وبقيت النعمة، ولم يُر الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ. (أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٤٧/٢ - كتاب التفسير. وصححه ووافقه الذهبي)، وأخرجه البيهقي في (شعب الإيمان ٤/١١٨-١١٩ برقم ١٤١٠). وأخرجه الضياء المقدسي في (المختارة ٦/١٠٧-١٠٩ برقم ٢٠٩٧-٢١٠٠) من طرق عن حميد الطويل، عن أنس به. وصححه محقق الشعب: رجاله ثقات).

٤٦-٤٧ - وقسماً لقد أرسلنا موسى ﷺ بالآيات الدالة على وحدانيتنا، وبالمعجزات الدالة على صدق رسالته إلى فرعون وأعوانه، فقال موسى: إني رسول إليكم من رب العالمين. فلما جاءهم بالآيات والمعجزات قابلوه بالضحك والسخرية؛ تعبيراً عن إنكارهم رسالته.

٤٨ - وما تُري فرعون وأعوانه من معجزة إلا هي أعظم مما قبلها، وأخذناهم بأنواع العذاب؛ لعلمهم يرجعون عن كفرهم، فيؤمنون بالله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في الآية (٣٦) إخبار مستقبلي عن جزاء من يُعرض عن القرآن، فلم يخف عقابه، ولم يهتد بهديته، فإن الله سيجعل له شيطاناً في الدنيا يُغويه، فهو له ملازم ومصاحب، يمنعه الحلال، ويبعته على الحرام.
- ٢ - التحذير من الغفلة عن ذكر الله؛ لأن الغفلة عن ذكر الله تُورث وساوس الشيطان.
- ٣ - تبرؤ الإنسان من قرينه يوم القيامة يوم تتكشف الحقائق وتُزال الأتعة.
- ٤ - تسلية النبي ﷺ، فقد كان يحزن على ضلال قومه.
- ٥ - بيان غلبة قدرة الله ﷻ على كل قدرة؛ لقوله: ﴿فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾.
- ٦ - القرآن الكريم شرف لهذه الأمة، وبقدر الشرف تعظم المسؤولية ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْتَلُونَ﴾.

٧ - إقامة البيئنة الكبرى على أنه لم يقل أحد من الرسل السابقين: إن هناك آلهة تُعبَد من دون الله؛ لقوله: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾.

٨ - إن عدم قول أحد من المرسلين السابقين بوجود آلهة تعبد من دون الله لهُو من البيئنة الكبرى على وحدانية الله تعالى وألوهيته.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَدِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤٩-٥٠ - وقال فرعون وزمرته: يا أيها العالم - وكانوا يُسمُّون السحرة علماء - ادعُ الله لنا بعهدته الذي عهد إليك أن يكشف عنا العذاب، إننا مُصدِّقون برسالتك. فدعا لهم، فكشف الله عنهم العذاب، وقابلوا ذلك بنقض العهد.

٥١-٥٣ - وأعلن فرعون مُنادياً في قومه بفخر وكِبْر: أليس لي ملك بلاد مصر، وهذه أنهار النيل تجري من تحت قصوري؟ أفلا تُبصرون عظمة سلطاني؟ ثم قال بسفاهة ومكر: بل أنا أفضل من موسى الذي هو ذليل لا عزة له، ولا يكاد يُفصح عن الكلام. فهلاً ألقى على موسى ~~الطيط~~ أساور من ذهب إن كان عظيماً، أو جاء معه الملائكة متتابعين مصاحبين له، يشهدون له بالرسالة.

٥٤-٥٦ - فاستحَفَّ فرعون عقول قومه، فأغراهم بمتاع الدنيا، وأغواهم بالضلالة فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً مخالِفين أمر الله، فلما أغضبونا بكفرهم انتقمنا منهم عاجلاً، فأغرقناهم كلهم في البحر، وجعلناهم قدوة للكافرين بعدهم في استحقاق العذاب، وموعظة للآخرين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان كذب فرعون وزمرته؛ لأنهم وعدوا أن يبتدوا إذا كشف عنهم العذاب، بل أصروا على الكفر.
- ٢ - بيان غرور فرعون، وسوء أدبه مع موسى ~~عليه السلام~~.
- ٣ - أثبت العلماء حديثاً أن الأماكن الأثرية حيث توجد الأهرامات في مصر، كانت ذات يوم مليئة بالأنهار والغابات. وهذه الحقيقة العلمية لم يتم التأكد منها إلا في منتصف عام ٢٠١٢م في دراسة علمية استغرقت عدة سنوات. (http://www.kahcel7.com/ar/index.php/2012-12-04-18-35-47/1265-2013-05-02-18-34-36)

٤ - من عادة الطواغيت خداع أتباعهم بطلب مزيد من البراهين غير المتوافرة في تلك الحالة.

٥ - اتفاق الرسل على التوحيد.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلْهَيْتَنَا خَيْرًا مَّا هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُذِّبٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِيسَى ابْنَ اللَّهِ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٣﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿٦٤﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ يَنْعَبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٦٩﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٠﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَكُمْ فِيهَا فَلَاحٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

٥٧-٥٩- سبب النزول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يفتنوا لها، فيسألوا عنها؟! ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد، قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس، فلم يسألوا عنها، أم لم يفتنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعبدُ من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصراري تعبد عيسى بن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً؟ فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولون. قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. قال: قلت: ما يصدون؟ قال:

يضعجون، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، قال: هو خروج عيسى بن مريم ﷺ قبل يوم القيامة.

(أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٣٢٨-٣٢٩ برقم ٢٩٢١، وصححه المحقق أحمد شاكر، وأخرجه ابن حبان (برقم ٦٨١٧)

مختصراً، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢ / ٤٤٨)، وصححه السيوطي (لباب النقول ص ١٨٩).

التفسير:

ولما ضربَ اللهُ تعالى عيسى بن مريم مثلاً؛ لكونه مثل آدم، خلقهما من غير أب، قابله المشركون بالصياح والضجيج، وبافتراءهم أنَّ محمداً يريد أن نتخذه إلهاً نعبد، كصنيع النصارى مع عيسى. وقالوا: آلهتنا التي نعبدها خير أم محمّد فنعبده، ونترك آلهتنا؟ ما مثّلوا لك هذا المثل - أيها الرسول - إلا خصومة يخاصمونك بها بأنهم يلتمسون الخصومة بالباطل، ما عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالإيمان والنبوة، وجعلنا ولادته من غير أب آيةً ودليلاً على عظمة قدرتنا لبني إسرائيل وغيرهم.

عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم تلا هذه الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. (أخرجه ابن ماجه في السنن ١٩/١ برقم ٤٨ - المقدمة، باب اجتناب أهل البدع والجدل، وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه (الجامع الصحيح - التفسير - سورة الزخرف) وقال الألباني: حسن صحيح ابن ماجه ١٥/١). وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٤٧، ٤٤٨).

٦٠- ولو نشاء لجعلنا منكم - أيها البشر - ملائكة خلفاء في الأرض بدلاً منكم.

٦١-٦٢- وإنّ نزل عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة لعلامةً على قرب قيام الساعة، فلا تشكوا في ذلك، وأطيعوني فيما أمركم به، هذا طريق قويم إلى الجنة، ولا يمنعكم الشيطان بغوايته من طاعتي وهدايتي. إنّه لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

٦٣-٦٤- ولما جاء عيسى عليه السلام بالمعجزات الباهرة إلى بني إسرائيل قال لهم: قد جئتكم بالنبوة حقاً، ولأوضح لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمور الدين، فخافوا الله، وأطيعوا أمري. إنّ الله تعالى هو ربّي وربكم جميعاً، فأخلصوا له العبادة وحده، هذا هو الطريق القويم إلى الجنة.

٦٥-٦٦- فاختلفت الفرق المتحرّبة من اليهود والنصارى في شأن عيسى عليه السلام والغلو فيه، فويل للظالمين أنفسهم بالكفر من عذاب يوم موعود يوم القيامة، هل ينظر هؤلاء المختلفون في عيسى عليه السلام إلا الساعة أن تأتيهم فجأة وهم في غفلة عنها؟

٦٧-٧٣- الأصحاب المتحابون من أجل الدنيا وشهواتها يُعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة، إلا الذين يخافون الله تعالى بطاعته ويتحابون في الله، فيقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم من عقابي، ولا أتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا. الذين صدّقوا بآياتنا، وكانوا مطيعين خاضعين لله، يقال لهم: ادخلوا الجنة من أبوابها الثمانية، أنتم وأزواجكم تنعمون فيها، يُطاف عليهم في الجنة بطعام في أوعية من ذهب، وأكواب من ذهب فيها الشراب، وفيها لهم ما تشتهي أنفسهم، وتلذذ الأعين من أصناف النعم، وهم فيها ما كثون

أبدًا، وتلك الجنة العالية المقام التي أورثكم الله إياها بسبب ما قدّمتم من الخير في الدنيا، لكم في الجنة فاكهة متنوّعة كثيرة، من كل صنف تأكلون.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - نزول المسيح عليه السلام آخر الزمان من علامات الساعة.
- ٢ - العرب المشركون كانوا يجادلون بالباطل؛ ليتغلّبوا على الحق، وهذا حال المشركين دائمًا.
- ٣ - المسيح عليه السلام جاء بالحكمة وبيان الدين، وحلّ الخلاف بين بني إسرائيل.
- ٤ - اختلف النصارى في المسيح على أقوال كثيرة، والحق أنه عبد الله ورسوله.

﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يُفَرِّغُونَ عَنْهُمْ فِيهِ مَبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ ﴿٧٩﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٨٠﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

التفسير:

٧٤-٧٦- إن الذين ارتكبوا الجرائم والكبائر في عذاب نار جهنم ما كانوا، لا يُخفف عنهم العذاب فترة، وهم فيه آيسون من رحمة الله، وما ظلمناهم بهذا العذاب ولكم كانوا هم الظالمين أنفسهم بالكفر وفعل القبائح.

٧٧- خاطب هؤلاء البائسون خازن جهنم واسمه مالك، يطلبون منه أن يقبض الله أرواحهم؛ ليتخلّصوا من العذاب، فردّ عليهم مالك: إنكم مقيمون في العذاب أبدًا.

٧٨- قسمًا لقد جئناكم بالحقّ الثابت عن طريق الرسل، ولكن أكثركم للحقّ كارهون.

٧٩-٨٠- يفضح الله تعالى مكاييد الكفار: أم أحكموا كيداً للنبيّ ﷺ فإننا مُحْكِمُونَ أمرنا وكيدنا لهم بتدميرهم وإهلاكهم، أم يحسبون أننا لا نسمع ما يُسرّون في صدورهم، وما يتهامون فيما بينهم، بلى نسمع ونعلم ذلك، ورُسُلنا من الملائكة الحَفَظَةَ يكتبون فضائحهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عدل الله مطلق في الجزاء والحساب، فلم يظلم سبحانه من في النار، إنّها هذا جزاء إجرامهم.
- ٢ - الإعراض عن الحق والاستكبار مؤدّب بصاحبه إلى النار.

٣- الترهيب من كتابة الملائكة؛ فإنها تُحْصِي كُلَّ الأَعْمَالِ والأَقْوَالِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ.

٤- فِي الآيَةِ (٨٠) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلٌ عَنِ سَمْعِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ الْمَطْلُوقِ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ فِيمَا يُسِيرُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِيمَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَرَسَلَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْحَفِظَةِ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا عَمَلُوا.

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُمْ يَا قَوْمِ إِيَّاكُمْ كَفَرْتُمْ بِالَّذِي أَنْتُمْ مَعْبُودُونَ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾

التفسير:

٨١-٨٣- قل - أيها الرسول - للمشركين الذين يزعمون أن الله ولد: لو فرض هذا فإنا أول العابدين له سبحانه، ولكن لا ولد له، فإنا أعبده بأنه لا ولد له. وهذا ممنوع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز. تنزه الله وتعظيم خالق السموات السبع والأرضين السبع، رب العرش العظيم عما يصف هؤلاء المشركون من الكذب، فدعهم يخوضوا في ضلالهم ويلعبوا في دنياهم، حتى يلاقوا يوم القيامة الذي يوعدون به لعقابهم.

٨٤-٨٥- وهو الله الذي هو إله في السماء، وفي الأرض هو إله، لا معبود سواه، وهو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، وتمجد الله تعالى، وتكاثرت خيراتة، الذي له ملكوت السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما، وعنده وحده علم قيام الساعة، وإليه المصير للحساب.

٨٦-٨٧- ولا يملك المعبودون من دون الله الشفاعة عند الله ولو كانوا ملائكة، لكن من شهد بالحق على بصيرة، وأقر بالوحدانية لله، وعلم حقيقة ما أقرّوا به، وشهدوا به، فإنه تنفع شفاعتهم عنده سبحانه بإذنه لهم. وقسم إن سألت المشركين من خلقهم؟ ليعترفن بأن الله خلقهم حقاً، فكيف يعدلون عن عبادة الله إلى عبادة غيره؟

٨٨- وقال النبي ﷺ متضرّعاً إلى ربّه شاكياً له: إنّ هؤلاء المشركين قوم لا يُصدّقون بالله ولا

برسالتني.

٨٩- فأجابه الله تعالى: فاعفُ عنهم، ودعهم، وقل لهم: سلام عليكم؛ لإعلامهم بالإعراض عنهم

وتركهم، فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم. وفي ذلك تهديد ووعد.

الفوائد والاستنباطات:

١- الردُّ على الذين يفترون على الله الكذب بأنّه اتخذ ولداً سبحانه وتعالى.

٢- تعليم الله تعالى لعباده المؤمنين التأدّب معه، ولاسيما إذا ذكر أنّه اتخذ ولداً، فإنّه ينبغي تعظيمه

بالتسبيح كما علّمنا في الآية (٨٢).

٣- اعتراف المشركين بأنّ الله خالقهم.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير نزول القرآن الكريم.
- ٢ - تقرير البعث، وبيان بعض علامات الساعة.
- ٣ - بيان مصير الأمم الكافرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٤ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ ٥﴾ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٦ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٧﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٨ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٩﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ١٠ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ١١﴾ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٢ ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٣﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٤ ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ ١٦ ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٧﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٨﴾ ﴿﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

٢-٧ - قَسَمًا بِالْقُرْآنِ الْمُبِينِ، بِضُرُوبِ بِلَاغَتِهِ وَأَنْوَارِ هِدَايَتِهِ، إِنَّنَا - لِمَا لَنَا مِنَ الْعِظْمَةِ الْكَامِلَةِ وَالْقُدْرَةِ الشَّامِلَةِ - أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ذَاتِ الْخَيْرَاتِ. إِنَّنَا كُنَّا مُخَوِّفِينَ النَّاسَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ يُبَيِّنُ اللَّهُ وَيُفَضِّلُ كُلَّ أَمْرٍ مُحْكَمٍ مِنَ الْأَجَالِ وَالْأَرْزَاقِ. هَذَا الْأَمْرُ الْحَكِيمُ فِي شَأْنِهِ هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ جَدًّا صَادِرٌ مِنْ رَبِّ كَرِيمٍ، إِنَّنَا كُنَّا مُرْسِلِينَ رِسَالًا هَادِيَةً، رَحْمَةً وَاسِعَةً مِنْ رَبِّكَ، أَيُّهَا الرَّسُولُ. إِنَّهُ سَبِّحَانَهُ هُوَ السَّمِيعُ لِلْأَقْوَالِ، الْعَلِيمُ بِالْأَحْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَهُوَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ يعني: ليلة القدر. ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل. (المستدرک ٢/٤٤٨-٤٤٩ - كتاب التفسير) وصححه الحاكم والذهبي، وأخرجه البيهقي عن الحاكم به (شعب الإيمان ٧/٢٦١-٢٦٢ برقم ٣٣٨٨) وقال المحقق: إسناده رجاله ثقات).

٨-٩- لا إله يُعبد بحق إلا الله وحده لا شريك له، يُحيي الأموات، ويُميت الأحياء وحده، ربُّكم وربُّ آبائكم السابقين، لكنَّ الكافرين ليسوا موقنين بالإيمان بالله وطاعة رسوله، بل هم في شكٍّ من ذلك، فهم غافلون لاهون عن ذلك.

١٠-١٤- سبب النزول:

عن عبد الله بن مسعود ؓ: إنما كان هذا لأنَّ قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. فأنزل الله ﷻ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ قال: فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسق الله لمُضَرَ؛ فإنها قد هلكت. قال: مُضَرَ؟ إنك لجريء، فاستسقى، فسُقوا، فنزلت: ﴿إِن كَرِهْتَ آلِهَتَهُمْ﴾ ﴿١٢﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَبْطِئُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ قال: يعني يوم بدر. (صحيح البخاري ٨/٤٣٤-٤٣٥ برقم ٤٨٢١ - كتاب التفسير - سورة الدخان. باب الآية، وصحيح مسلم ٤/٢١٥٦-٢١٥٧).

التفسير:

فانتظر - أيها الرسول - يوم تأتي السماء بدخان كثيف واضح، يُغْطِي الكفَّار جميعاً، ويعترهم كرب شديد فيقولون: هذا عذاب موجه، ويتضرَّعون إلى الله: يا ربَّنَا اكشف عَنَّا هذا العذاب، إِنَّا مُصَدِّقُونَ بك! كيف ومن أين لهم التَّدَكُّر بعد نزول العذاب، وقد جاءهم محمَّد رسول الله ﷺ برسالة ظاهرة المعالم؟ ثم أعرضوا عنه، واتهموه بأنَّه يُلقِّن من بشر، وأنَّه مجنون!

١٥-١٦- إِنَّا سَتِّفِرُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ مَدَّةً قَصِيرَةً، ثم سترجعون إلى الكفر، يوم نُعَذِّبُ الْكُفَّارَ فِي الدُّنْيَا - كما وقع يوم بدر - وفي الآخرة بعذاب النار، إِنَّا مُنْتَقِمُونَ مِنْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ.

عن مسروق قال: كنا عند عبد الله جلوساً، وهو مضطجع بيننا، فاتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن! إن قاصّاً عند أبواب كندة يقصُّ ويزعم أن آية الدخان تحيي، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام. فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: يا أيها الناس! اتقوا الله، مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئاً فليقلِّ بما يعلم. وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ. فليقل: الله أعلم. فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ

لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا. فقال: «اللهم! سَبِّحْ كَسْبِعِ يَوْسُفَ». قال: فأخذتهم سنةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حتى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجُوعِ. وينظر إلى السماء أحدهم، فيرى كهيئة الدخان. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإنَّ قومك قد هلكوا، فادعُ الله لهم. قال الله ﷻ: ﴿ فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْفِي السَّمَاءِ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ قال: أفيكشف عذاب الآخرة؟ ﴿ يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ فالبطشة يوم بدر، وقد مضت آية الدخان، والبطشة، والالزام، وآية الروم. (صحيح مسلم ٤/٢١٥٥-٢١٥٦ برقم ٢٧٩٨ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان. وصحيح البخاري، الاستسقاء برقم ١٠٠٧، والتفسير برقم ٤٨٠٩. واللفظ لمسلم).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان قدرة الله تعالى؛ إذ إنَّ كلامه المنزَّل على نبيِّه من الحروف التي يتكلَّم بها الناس، ويُركَّبون منها كلامهم، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله.
- ٢ - بيان عَظَمَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وما فيها من البركات.
- ٣ - نزول القرآن الكريم وما فيه من العلوم رحمة عظيمة من الله تعالى.
- ٤ - تسلية النبي ﷺ في مواجهة العقبات.
- ٥ - الإيمان لا ينفع عند رؤية العذاب.
- ٦ - الدخان من علامات الساعة.
- ٧ - حرب الإشاعة من أساليب الأعداء في كل زمان.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَرَّ نُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِي ﴿٢١﴾ فَدَعَارَبَهُ أَنْ هَتُوْلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ بَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ آخَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَيْتِ مَا فِيهِ بَلَكَاؤٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨- وقسماً لقد اخترنا قبل مشركي مكة قوم فرعون، وجاءهم رسول جامع لخصال الكرامة وهو موسى عليه السلام، ودعاهم إلى أداء حق الله من العبادة، وحق تسليم بني إسرائيل إليه، وأكد أنه مرسل من الله، وهو أمين على الوحي والرسالة.

١٩-٢٢- وألا تترفعوا عن طاعة الله تعالى، إنِّي آتيكم بحجّة واضحة على صدق رسالتي، وإنِّي لجأت إلى ربِّي وربكم أن تقتلوني بالحجارة، وإن لم تصدّقوني فكفّوا عني، فدعا موسى عليه السلام ربّه شاكياً له أنّ فرعون وقومه مجرمون؛ بسبب كفرهم.

٢٣-٢٧- فأوحى الله تعالى لموسى أن أسر بعبادي الذين صدّقوك، إنكم ملاحقون من فرعون وجنوده، واترك البحر ساكناً مفتوحاً على هيئته بعد ضربه بالعصا حتى يدخل فيه فرعون وجنوده، ثم يغرقوا في البحر، وقد غرقوا جميعاً وتركوا بساتين خضراء، وعيون ماء، وزروعاً متنوعة، وقصوراً فارهة، وعيشة حافلة بالنعم الناضرة.

٢٨-٢٩- كذلك أهلكناهم، وأورثنا ملكهم وديارهم قوماً من بني إسرائيل، فما حزن عليهم أحد في السماء ولا في الأرض، وما كانوا عن العقوبة التي قدرها الله عليهم مؤخّرين.

٣٠-٣٣- وقسماً لقد أنقذنا بني إسرائيل من عذاب فرعون المذلّ. إنّه كان متكبّراً من المسرفين في الطغيان والكبر، وقسماً لقد اصطفينا بني إسرائيل - على علمٍ منا بهم - على أهل زمانهم، وأعطيناهم من الدلائل على وحدانية الله، ومن المعجزات ما فيه اختبار واضح.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ابتلاء قوم فرعون موعظة لِمَنْ بعدهم.
- ٢ - الثناء على نبيِّ الله موسى عليه السلام.
- ٣ - اتفاق الأنبياء على الدعوة إلى توحيد العبودية.
- ٤ - البشرى من الله تعالى للمؤمنين بالنجاة من الكرب والعذاب.
- ٥ - النعمُ مهما عظمت في الدنيا فإنَّها زائلة.

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبِكُمْ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير:

٣٤-٣٧- إن هؤلاء المشركين - أيها الرسول - يقولون بسقفة ومكر: ما الموت إلا موتتنا الأولى التي نموتها في الدنيا، وما نحن بمبعوثين من قبورنا، فإن كان البعث حقاً فهاتوا آباءنا الذين ماتوا قبلنا، إن كنتم صادقين في اعتقاد البعث، هؤلاء المشركون خير في القوة أم قوم تبع الحميري؟ والذين من قبلهم من الأمم الكافرة دمّرناهم لأنهم كانوا يرتكبون جرائم الكفر والكبائر؟

٣٨-٣٩- وما خلّقنا السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما من المخلوقات عبثاً من غير غاية، ما خلّقناهما إلا بالحق الذي لا يصلح التدبير إلا به، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون أتباع الحق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير البعث.
- ٢ - الموعظة بالأمم الهالكة.
- ٣ - دَمُّ المشركين لجهلهم، وعدم استفادتهم من الوحي، وما فيه من الهدى والآداب.
- ٤ - ينظر: خريطة موقع قوم تبع، كما في الملحق.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ أَمِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْتُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْقَبُ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير:

٤٠-٤٢- يُهَدَّدُ اللهُ تَعَالَى وَيَتَوَعَّدُ الْكُفَّارَ بِمَشَاهِدٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَعَذَابِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّ يَوْمَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ لِلْحِسَابِ هُوَ وَقْتُ مَوْعِدِهِمْ جَمِيعاً لِلْعَذَابِ، يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ قَرِيبٌ عَنْ قَرِيبٍ شَيْئاً، وَلَا هُمْ يَمْنَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّفَاعَةِ. إِنَّهُ سَبْحَانَهُ الْعَزِيزُ فِي مَلَكُوتِهِ وَانْتِقَامِهِ، الرَّحِيمُ بِمَنْ آمَنَ مِنْ عِبَادِهِ.

٤٣-٤٤-٥٠- إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ الْخَبِيثَةَ الَّتِي تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ هِيَ طَعَامُ الْمُسْرِفِينَ بِالْكَبَائِرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَفَّارِ، وَهُوَ طَعَامٌ كَالْمُهْلِ الْمَذَابِ يَغْلِي فِي بَطُونِهِمْ غَلِيَّ الْمَاءِ الَّذِي يَفُورُ مِنْ حَرَارَتِهِ، تُؤَمَّرُ الزَّبَانِيَةُ: خَذُوا هَذَا الْأَثِيمَ، وَسُقُوهُ بِالضَّرْبِ إِلَى وَسْطِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ الْمَاءَ الْمَغْلِيَّ، وَيُقَالُ لَهُ تَهَكُّماً وَتَوْبِيخاً: تَذَوَّقْ هَذَا الْعَذَابَ، إِنَّكَ أَنْتَ الْمُعَزَّزُ الْمُكَرَّمُ. إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَشْكُونَ وَتُجَادِلُونَ.

٥١-٥٧- يُيَسَّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُتَّقِينَ فِي الْآخِرَةِ بِالمَكَانَةِ الْكَرِيمَةِ الْأَمِينَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، فَهَمَّ فِي جَنَاتٍ نَضْرَةَ وَعُيُونٍ عَذْبَةٍ، يَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ مِنَ الدِّيْبَاجِ الرَّقِيقِ أَوْ الْغَلِيظِ حَسَبِ الرِّغْبَةِ، مُتَقَابِلِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ. وَمِثْلَ هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ لِلْمُتَّقِينَ أَكْرَمَانَهُمْ بِالتَّزْوُجِ مِنَ الْحُورِيَّاتِ الْحَسَنَاتِ، ذَوَاتِ الْعُيُونِ الْجَمِيلَةِ الْوَاسِعَةِ. يَطْلُبُ هَؤُلَاءِ الْمُتَّقُونَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ، آمِنِينَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَضُرُّهُمْ، لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أَبَداً، وَحَمَاهُمْ مِنْ عَذَابِ نَارِ الْجَحِيمِ. هَذَا الْعَطَاءُ الْوَاسِعُ الْمُتَنَوِّعُ فَضْلاً مِنْهُ سَبْحَانَهُ. ذَلِكَ الْفَضْلُ الْكَرِيمُ هُوَ الْفَلَاحُ الْعَظِيمُ.

٥٨-٥٩- فإنها أنزلنا القرآن بلغتك - أيها الرسول - ولغة قومك، وجعلناه مُيسراً بالفاظه ومعانيه؛ لكي يتذكروا ما فيه من الهدى القويم. فانتظروا - أيها الرسول - ما وعدناك من النصر، إنهم منتظرون موتك وقهرك.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الرد على المشركين منكري البعث.
- ٢- بيان رحمة الله تعالى بالترهيب من ألوان العذاب في جهنم.
- ٣- البشرى للمتقين، وما أعدَّ الله تعالى لهم من البركات.
- ٤- في الآية (٥٦) إخبار مستقبليّ والبشارة لعباد الله المتقين بأنهم لا يذوقون في الجنة الموت بعد الموت الأولى التي ذاقوها في الدنيا، وبأنَّ الله سيقيهم عذاب الجحيم.
- ٥- بيان مكانة اللغة العربية؛ فهي اللغة التي نزل القرآن بها.
- ٦- التيسير لبيان القرآن الكريم للاستفادة من هديه الحكيم.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - إقامة الدلائل على وحدانية الله تعالى.
- ٢ - بيان عظمة القرآن الكريم في هدايته.
- ٣ - الرد على مُنكِرِي البعث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴿﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

٢ - يُثْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقُرْآنِ، فَهُوَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ فِي مَلَكُوتِهِ، الْحَكِيمِ فِي مَصَالِحِ مَخْلُوقَاتِهِ.

٣-٤ - إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، لَدَلَالٍ عَظِيمَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ، لِلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِهِ، وَيُقَرِّونَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَكَذَلِكَ فِي خَلْقِ أَنْفُسِكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَادُ - فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَفِيهَا يَنْشُرُهُ اللَّهُ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، دَلَالٌ عَلَى قُدْرَةِ تَدْبِيرِهِ شُؤُونَ مَخْلُوقَاتِهِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى.

٥ - وَفِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَعَاقِبِهَا، وَفِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ الَّذِي فِيهِ أَرْزَاقُ النَّاسِ، إِذْ بِهِ تَحْيَا الْأَرْضُ بِالنَّبَاتِ، وَفِي تَصْرِيفِ الرِّيْحِ لِمَنَافِعِكُمْ، دَلَالٌ عَظِيمَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أَتْبَاعَ الْحَقِّ.

٦ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الْكَرِيمَةِ، ذَاتِ الْفَوَائِدِ الْعَظِيمَةِ، تَتْلُوهَا عَلَيْكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - مُتَّسِمَةً بِالْحَقِّ فِي أَحْكَامِهَا، وَبِالْصِّدْقِ فِي أَخْبَارِهَا، فَبِأَيِّ كَلَامٍ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ يُصَدِّقُونَ؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان قدرة الله تعالى، حيث إنَّ كلامه المنزَّل على نبيِّه من الحروف التي يتكلَّم بها النَّاس، ويُركَّبون منها كلامهم، ومع ذلك عَجَزُوا أن يأتوا بمثله.
- ٢ - لَقَّتْ الأنظار إلى البراهين في السموات والأرض.
- ٣ - في الآية (٤) إخبار مستقبليٍّ في الحكمة مِنْ خَلْقِ النَّاس، وَخَلْقِ ما تَفَرَّقَ في الأرض من الدوابِّ التي تَدْبُ عليها، فهي حُجَجٌ وأدلةٌ لقوم يوقنون بالله وشرعه.
- ٤ - بيان عَظَمَةِ وحدانية الخالق سبحانه من خلال خَلْقِ بني آدم، وما سَخَّرَهُ لهم من المخلوقات.
- ٥ - ذكر ضروب البراهين الأخرى التي تدل على وحدانية الله تعالى؛ لإقامة الحجة على المشركين.

﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴿١٠﴾ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٧-١٠ - يتوعَّد الله تعالى بالويل والعذاب كلَّ كذَّابٍ مُّفْتَرٍ على الله، مُكثِرٍ من الجرائم والكبائر، يسمع آيات الله تُقرأ عليه، ثمَّ يتهادى في كفره مستكبراً عن الإيمان بآيات الله، كأنه لم يسمعها، فبشِّره - أيها الرسول - بعذاب شديد موجه. وإذا عَلِمَ هذا الأثيم بعض الآيات اتخذها سخرية. أولئك البعداء عن رحمة الله، لهم عذاب يبينهم ويخزيهم، لقد أقبلوا على الدنيا، ونَسُوا وراءهم نار جهنم التي تنتظرهم، ولا ينفعهم ما تملَّكوه في الحياة الدنيا من الأموال والولدان، ولا تنفعهم الأصنام والأوثان التي عبدوها من دون الرحمن، ولهم عذاب عظيم النيران.

١١ - هذا القرآن الكريم هدى إلى الطريق القويم، والذين جحدوا آياته لهم عذاب من أسوأ أنواع

العذاب الموجه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الترهيب من عذاب المكذِّبين بآيات الله تعالى.
- ٢ - التحذير من ترك أحكام الله تعالى، ولاسيما مَنْ عَرَفَ هذه الأحكام.

٣- التحذير من الاستهزاء بآيات الله تعالى.

٤- الترغيب في هداية القرآن الكريم.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَعْيُنُكُمْ فِيهِ بَأْمُرِهِ ۖ وَلِيُنْفِقُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيْنَتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَفِيئَاتِهِمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٢-١٣- يَمْتَنُّ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ: فَقَدْ ذَلَّلَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِلرُّكُوبِ عَلَيْهِ بِالسَّفْنِ بِإِذْنِهِ، وَلِتَطْلُبُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ مِنْ أَنْوَاعِ التِّجَارَةِ وَالْمَنَافِعِ، وَلِكَيْ تَشْكُرُوهُ عَلَىٰ نِعْمِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَطَاءِ الْكَرِيمِ لَدَلَالٌ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ.

١٤-١٥- قُلْ - أَيُّهَا الرُّسُولُ - لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ أَنْ يَغْفِرُوا عَنِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ عِقَابَهُ، لِيُعَاقِبَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ الْمُشْرِكِينَ بِسَبَبِ ارْتِكَابِهِمُ الْقُبَاحِ وَالْفُسْطَاحِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَثَوَابُهُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ بِاِقْتِرَافِ الْمَعَاصِي فَعَلَىٰ نَفْسِهِ وَزُرُّ عَمَلِهِ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ عَلَىٰ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

١٦-١٧- وَقَسَمًا لَقَدْ أَعْطَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْمُلْكَ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الْمَسْتَلَدَّةِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ عَالَمِي زَمَانِهِمْ، وَأَتَيْنَاهُمْ دَلَالًا وَاضِحَةً مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمِنْهُ بَعَثَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ. وَسَبَبُ هَذَا الْخِلَافِ هُوَ الظُّلْمُ وَطَلَبُ السِّيَادَةِ. إِنَّ رَبَّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - يَحْكُمُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فِي الدُّنْيَا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - قال العلماء: للبحر قانون يقول: «إن كل جسم غاطس في الماء يتلقى من الأسفل إلى الأعلى دفعا عمودياً قائماً مساوياً لوزن الماء المعادل لحجم هذا الجسم، ولولا هذا القانون لما أمكن أن يُركب البحر، ولما وجدت في البحر سمكة واحدة». (http://nabulsi.com/blue/ar/artp.php?art=4035)
- ٢ - بيان الحكمة من تسخير ما أودعه الله في البحر من النعم.
- ٣ - من خلُق المؤمن ألا يردَّ الإساءة بالإساءة.
- ٤ - ذمُّ الاختلاف والتحذير من الظلم.
- ٥ - من عدل الله تعالى القضاء بين الخلائق.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنكَ مِن اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

- ١٨-١٩ - ثم شرعنا لك - أيها الرسول - شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر من أمرنا ووحينا، فاتبعها بغاية جهدك، ولا تتبع ضلالات المشركين والجهلة. إنهم لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم. وفيه تحذير الأمة؛ لأن النبي ﷺ معصوم من ذلك. وإن الظالمين أنفسهم بالشرك والكبائر بعضهم أنصار بعض، والله يتولى وينصر الذين يخافونه، ويطيعونه.
- ٢٠ - هذا القرآن الوحي المنزل بصائر للعباد يُبصِّرهم بما ينفعهم وما يبصِّرهم، ويهديهم إلى طريق الحق، ورحمة واسعة من الله لقوم يوقنون بالحساب والثواب والعقاب.
- ٢١-٢٢ - يُنكر الله على أهل المعاصي: هل ظنَّ الذين يرتكبون الكبائر والجرائم أن نجعلهم كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونساويهم بهم في الحساب في حياتهم وبعد موتهم؟ بشس الحكم الذي اعتقدوه! وخلق الله السموات السبع والأرضين السبع بالعدل، ولتُجزى كلُّ نفس في الآخرة بالذي كسبت من خير أو شر، وهم لا يُظلمون بتقص ثواب، ولا زيادة عقاب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان عظمة الرسالة العظيمة والشريعة الحكيمة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ.
- ٢ - الاستغناء عن غير المسلمين بالاستعانة بالله تعالى والاستجابة لشريعته.
- ٣ - بيان عظمة القرآن الكريم وهدايته ورحمته للناس.
- ٤ - ترغيب المؤمنين، وترهيب غيرهم، ولا يمكن أن يتساوا عند الله تعالى.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتُّخِذُوا بِنَابِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِرُ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

٢٣- أخبرني - أيها الرسول - عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه! وأضله الله تعالى حال كونه عالماً بالحق، وطبع على سمعه وعلى قلبه، فلا يتعظُّ ولا يتدبَّر، وجعل على بصره غطاءً لا يُبصر الرشد، فمن الذي يقدر على هدايته بعد هذا الضلال؟! لا أحد يقدر على ذلك، أفلا تعتبرون بهذا الهدى؟

٢٤-٢٦- وزعم المشركون بالله بأنه لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت قوم، ويعيش قوم آخرون، واعتقدوا أنه ما يهلكهم إلا مرور الزمن، وليس لهم دليل من عقل أو نقل، ما هم إلا يتخَرَّصون من غير حُجَّة، وإذا نتلى عليهم آيات القرآن واضحات الدلالة على الإيمان بالبعث، ما كان حُجَّتَهُمْ إلا قولهم: أخبئوا لنا آباءنا الأولين إن كان ما تقولونه حقاً. قل لهم أيها الرسول: الله الذي خلقكم هو الذي يُميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يبعثكم جميعاً يوم القيامة. لا شك في ذلك، ولكن أكثر العباد لا يعلمون قدرة الله على البعث.

٢٧- والله ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، ويوم تقوم الساعة يخسر الجاحدون بآيات الله. ٢٨-٢٩- وترى - أيها الرسول - كل أمة من الأمم جاثمين على رُكبتهم. كل أمة تُدعى إلى صحيفة أعمالها، ويقال لهم: اليوم تُجزون مقابل ما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شرٍّ، هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادة ولا نقصان، إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِكُمْ.

٣٠- فأما المؤمنون الذين عملوا بما أمر الله، فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي جَنَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ. ذلك المقام العالي هو الفلاح

الواضح.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الهداية من عند الله تعالى.
- ٢ - في الآية (٢٤) إخبار مستقبلي، وإثبات للبعث بعد المات.
- ٣ - بيان مشهد من حوار غير المسلمين؛ ليظهروا أنهم على حق.
- ٤ - الترهيب من قيام الساعة، وبيان خسارة الجاحدين آنذاك.
- ٥ - دقة الحساب بعد إحصاء ونسخ الأعمال.
- ٦ - البشري والترغيب للمؤمنين بالجنة.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُ كَمَا فَتَشْرُكُوا اللَّهَ هَذَا وَمَا وَنُكُّمُ النَّارَ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُم كُنتُمْ أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَاللَّهُ الْغَنِيُّ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

- ٣١-٣٢- وأما الكفار فيقال لهم: أفلم تكن آياتي القرآنية تُقرأ عليكم في الدنيا، فاستكبرتم عن الإيمان بها، وكنتم قوماً ترتكبون الجرائم والكبائر؟ وإذا قيل لكم: إنَّ وعد الله بالبعث حقٌّ واقعٌ، وأنَّ قيام الساعة أمرٌ لا شكَّ فيه، قلتُمْ: ما نعلم ما الساعة؟ ما نتوَقَّع وقوعها إلا ظنًّا، وما نحن بمتحقِّقين أنَّ الساعة آتية.
- ٣٣-٣٤- وظهرت لهؤلاء المجرمين صُحُفُهُم الحافلة بالفضائح والقبايح، ونزل بهم من العقاب والعذاب ما كانوا به يسخرون، ويُقال لهم: اليومَ نترككم في عذاب النار، كما تركتم الإيمان بهذا اليوم الآخر، ومصيركم النار، وما لكم من أنصار ينصرونكم.
- ٣٥- ذلكم العذاب الشديد بسبب استهزائكم بآيات الله وحُجَجِهِ، وانخداعكم بشهوات الحياة الدنيا، فالיום لا يُخرجون من عذاب النار، ولا يُطلبُ منهم أن يُرضوا ربَّهم بالتوبة والطاعة.

٣٦-٣٧- فله الثناء الكامل والشكر الشامل، خالق السموات السبع والأرضين السبع والعالمين ومُدبّر شؤونهم، وله سبحانه العظمة والسلطان والكبرياء في كل السموات والأرضين، وهو العزيز في انتقامه وملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ذم الاستكبار تجاه ما يَرَوُه من البراهين.
- ٢- الجزاء من جنس العمل، فكما ترك الكفار شرع الله تعالى، فإنه يتركهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.
- ٣- بيان عظمة الله تعالى.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - تقرير العقيدة، وتفنيدهُ شُبُه المشرِكين حول التوحيد والرسالة والبعث.
- ٢ - تعظيم القرآن الكريم وتقرير نزوله، وذكُر الشواهد على كونه من عند الله تعالى.
- ٣ - بيان إعراض الكفار عن القرآن، وعاقبة إعراضهم في الآخرة.
- ٤ - بيان دلائل النبوة وأعلامها وشواهداها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُوهُمَا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ - تَقَدَّمَ في مطلع سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة، وأنَّ من الحكمة في إيرادها بيان إعجاز القرآن.

٢ - هذا القرآن نزل بالتدرُّج من عند الله، العزيز في سلطانه وملكه، الحكيم في أفعاله وكلامه.

٣-٤ - ما خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ وما بينهما من المخلوقات إلا بالحق، وإلى أجلٍ زمانه معلوم عنده وحده سبحانه، والكفار عمَّا أنذرهم القرآن من الأهوال مُّعْرِضُونَ عنه، لا يَأْبَهُونَ به. قل لهم - أيها الرسول - مُنْكَرًا عليهم: أخبروني عن حال آهتكم من الأصنام والأوثان التي تعبدونها من غير الله، أروني أي شيء خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ؟ أم لهم مشاركة مع الله في خلق السموات السبع؟! هاتوا لي كتاباً من عند الله مِنْ قَبْلِ هَذَا القرآن، أو هاتوا بَقِيَّةً من عِلْمٍ من علوم السابقين التي يُعْتَدُّ بها، إن كنتم صادقين في دعواكم المزعومة.

٥ - لا أَحَدَ أَشَدُّ ضَلَالًا مِنَ الْمُشْرِكِ الذي يعبد آلهة من غير الله لا تقدر على استجابة دعائه، ما بَقِيَّتِ الحياة الدنيا، وهي عن دعاء مَنْ يعبدها عاجزة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في إيراد الاسمين الجليلين ﴿الْمَزِيدَ الْكَبِيرَ﴾ إشارة إلى أن هذا الكتاب عزيز؛ لأنه من عند العزيز، وحكيم فيما اشتمل عليه من أحكام ومعاني؛ لأنه من عند الحكيم، فمن تمسك به نال العزة في الدارين، وهُدِيَ إلى الحكمة.
- ٢ - عَطْفٌ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على ﴿بِالْحَقِّ﴾ من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام به، فالأجل المسمى بيوم القيامة، وهو يوم الحق.
- ٣ - تقديم ﴿عَمَّا أَنْذَرُوا﴾ على متعلقه وهو ﴿مُعْرِضُونَ﴾ للاهتمام بما أنذروا به، وكذلك رعاية للفاصلة.
- ٤ - بيان لعظمة القرآن، وإرشاد للعباد إلى وجوب التمسك به، وتلاوته وتدبره والعمل به، والدعوة إليه، واقتباس أنواره، واستخراج كنوزه.
- ٥ - لم يُخْلَقْ هذا الكون عبثاً، وإنما خُلِقَ لأسمى غاية.
- ٦ - مع هذه المسلمات الواضحة، فإن الكفار في إعراضٍ وغفلة عن الآيات والنذر.
- ٧ - قال ابن العربي في الآية (٤): «وهي أشرف آية في القرآن، فإنها استوفت أدلة الشرع عقليها وسمعيها». (احكام القرآن ٧ / ١٢٩).
- ٨ - قال ابن عاشور: «الأمر في ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي إن لم يخلقوا من الأرض شيئاً، فلا تستطيعوا أن تُروني شيئاً خلقوه في الأرض، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدعي بالدليل على إثبات دعواه». (التحرير والتنوير: ٨/٢٦).
- ٩ - قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إفحام وإثارة لهم بأنهم لا يأتون بحجة لا من جانب العقل، ولا من جانب النقل المسطور أو المأثور. وفيه إيجازٌ بالحذف، فقد حُذِفَ جوابُ الشرط، لدلالة السياق عليه.
- ١٠ - براءة المشركين يوم القيامة مما كانوا عليه في الدنيا من شرك.
- ١١ - أهمية علم الآثار في معرفة التاريخ والحضارات، وأسباب سقوطها.

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاحِقٌ لَّمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَبَهُ قُلْ إِنْ افْتَرَبْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

٦- وإذا مُجِعَ العباد يوم القيامة كانت الالهة التي يَدْعُونَهَا فِي الدنيا لهم اعداء، إذ يتبرؤون منهم، ويجحدون عِلْمَهُمْ لِعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُمْ.

٧- وإذا تُتلى على هؤلاء المشركين آيات القرآن مُوضَّحات لطريق الهداية، زعم الكفار حين جاءهم القرآن الحقُّ أَنَّهُ سِحْرٌ واضع.

٨-١٠ - سبب النزول:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض: «إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام». قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (صحيح البخاري ٧/ ١٦٠ برقم ٣٨١٢ - كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وصحيح مسلم ٤/ ١٩٣٠ برقم ٢٤٨٣ - فضائل الصحابة، باب فضل عبد الله بن سلام).

التفسير:

أيقولون: اختلق محمد هذا القرآن، وافتراه من تلقاء نفسه؟ قل لهم أيها الرسول: إن اختلقته على الله - على سبيل الافتراض - فلا تستطيعون أن تَرُدُّوا عَنِّي شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ عَاجَلَنِي بِهِ، هُوَ سَبِحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَا تَخُوضُونَ فِيهِ مِنَ القَدْحِ فِي القُرْآنِ. كفى بالله شاهداً يشهد لي بالصدق، ويشهد عليكم بالجحود، وهو الغفور للتائبين، الرحيم بهم. قل لهم: لستُ بأوَّلَ رسول، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء والرسل، وما أدري ما يفعل الله بي وبكم في الدنيا، ما أتبع إلا ما يوحي إلي من القرآن، ولست أنا إلا نذيراً بالمعجزات الباهرة والحجج الظاهرة. قل لهم: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله، وجحدتم به، وشهد رجل من

بني إسرائيل - كعبد الله بن سلام ﷺ - على صدق القرآن، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ اتِّبَاعِ الْحَقِّ.

١١-١٢ - وقال الكفار للمؤمنين: لو كان هذا القرآن خيراً ما سَبَقْنَا إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءُ وَالْفُقَرَاءُ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِالْقُرْآنِ مَعَ وَضُوحِ مَعَالِمِهِ وَإِعْجَازِهِ فَسَيَقُولُونَ: هَذَا كَذِبٌ مَّنْقُولٌ عَنِ السَّابِقِينَ. وَمَنْ قَبْلَ الْقُرْآنِ التَّوْرَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ قَدْوَةً يُؤْتَمُّ بِهَا فِي دِينِ اللَّهِ، وَرَحْمَةً لِّمَنْ صَدَّقَ بِهَا وَعَمِلَ بِهَا فِيهَا. وَهَذَا الْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِّمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ نَزَلَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ؛ لِيُخَوِّفَ الْكُفَّارَ وَالْفِجَّارَ، وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ الْأَبْرَارَ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إضراب انتقالي إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم، أي: إذا كان قولهم: إِنَّهُ سِحْرٌ، عَجِيباً، فَإِنَّ دَعْوَاهُمْ بِأَنَّهُ مَفْتَرِي، أعجب.

٢ - وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ. فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أَنَّ اللَّهَ لَا يُقِرُّ أَحَدًا عَلَىٰ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَيْهِ، بَلْ يَفْضَحُهُ وَيَعَاقِبُهُ.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ رَدٌّ عَلَىٰ مَنْ يُغَالُونَ فِي شَأْنِ الْأَوْلِيَاءِ، وَيَدَّعُونَ مَعْرِفَتَهُمْ بِالْغَيْبِ، فَإِذَا كَانَ سَيِّدَ الْبَشَرِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ لَا يَعْرِفُ الْغَيْبَ، فَكَيْفَ بغيره؟.

٤ - اتفاق الشرائع السَّوَابِيَةِ فِي الْأَصُولِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْفُرُوعِ، فَكُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ جَاءَتْ بِصَلَاحِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا، وَإِنْ كَانَتْ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ قَدْ جَاءَتْ خَاتِمَةً مُتَمِّمَةً لِّمَا قَبْلَهَا.

٥ - قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ﴾ رَدٌّ عَلَىٰ شَبَهَاتِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، وَسَعَوْا جَاهِدِينَ إِلَىٰ تَشْوِيهِ مَحَاسِنِهَا، وَطَمَسَ مَعَالِمَهَا، فَطَعَنُوا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمَثَالِ فِي الْحِجَابِ، وَطَعَنُوا فِي تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ، وَفِي فَرِيضَةِ الْجِهَادِ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ كَانَتْ فِي شَرَائِعِ مَنْ قَبْلَنَا، وَدَلٌّ عَلَىٰ ذَلِكَ الْقُرْآنُ، وَلَا زَالَتْ كُتُبُهُمْ مَعَ تَزْيِيفِهَا وَتَحْرِيفِهَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ.

٦ - قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْجِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أَسْلُوبُ الْقَصْرِ؛ لِقَصْرِ الْإِتِّبَاعِ عَلَى الْوَحْيِ، فَالْوَحْيِ طَرِيقُ الْإِتِّبَاعِ وَمَنْهَجُهُ، كَذَلِكَ قَصُرَ مَهْمَتُهُ ﷻ فِي الْبَلَاغِ الْمُبِينِ.

٧ - المقابلة بين الإيمان والاستكبار؛ لبيان علة كفرهم وصدودهم عن الحق، وهو استكبارهم.

٨ - عَبَّرَ عَنِ التَّوْرَةِ بِـ ﴿كِتَابِ مُوسَىٰ﴾ بِطَرِيقِ الْإِضَافَةِ دُونَ الْأَسْمِ الْعَلَمِ وَهُوَ التَّوْرَةُ؛ لِمَا تُؤْذَنُ بِهِ الْإِضَافَةُ إِلَىٰ اسْمِ مُوسَىٰ مِنَ التَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ كِتَابٌ أَنْزَلَ عَلَىٰ بَشَرٍ، كَمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

٩- الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَيْسُنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: لينذرهم للتعميم، وكذلك لبيان ظلمهم، وحاجة الظالم إلى مَنْ يُنذَرُه.

١٠- المقابلة بين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ و﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾: فالظلم وَضَعُ الشيء في غير موضعه، وهو بَخْسٌ للحق، وتَعَدُّ على الآخرين، ومجاوزهٌ للحد، أمَّا الإحسان فإنه إتمام وتفضل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

التفسير:

١٣-١٤- إن الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين التي هي مُنتهى العمل، فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا. أولئك أصحاب الدرجات العالية هم أهل الجنة ما كثين فيها أبداً، نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على ما قَدَّمُوا من الأعمال الصالحة في الدنيا.

١٥- وأمَرنا الإنسان أمراً جازماً بالإحسان بالوالدين بالقول والفعل، إذ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ جَنِيناً فِي بَطْنِهَا بِمَشَقَّةٍ، وَوَلَدَتْهُ بِمَشَقَّةٍ أَيْضاً، وَمُدَّةِ حَمْلِهِ وَفَطَامِهِ ثَلَاثُونَ شَهْرًا قَمْرِيًّا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ نَهَايَةَ قَوَاهِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ: يَا رَبِّ أَهْمَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَوَفَّقَنِي أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا تَقْبَلُهُ مِنِّي، وَاجْعَلِ الصَّلَاحَ سَارِيًّا فِي ذُرِّيَّتِي مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَحْفَادِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ. إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِي، وَإِنِّي مِنَ الْمُطِيعِينَ لَكَ، الْخَاضِعِينَ لِحُكْمِكَ.

١٦- أولئك الشاكرون التائبون، أصحاب المنزلة الرفيعة، الذين نَقَبَلُ مِنْهُمْ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ، وَنَصَفَحَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ فِي جَمَلَةٍ عِدَادِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. هَذَا الْوَعْدُ الصَّادِقُ الَّذِي وَعَدْنَا بِهِ عَنْ طَرِيقِ رَسَلِنَا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقديم نفي الخوف على نفي الحزن؛ لأنّ دفع المخاوف مقدم على إذهاب الأحزان وجلب المسرات، وفي هذا بيان لعظم نعمة الأمن.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ وإنما تعدّى بـ ﴿فِي﴾ لتضمينه معنى الطُفِّ بي في ذُرِّيَّتِي، أو لأنه جعل الذرّيّة ظرفاً للصّلاح.
- ٣ - التوحيد والاستقامة طريق السعادة في الدارين.
- ٤ - الوصية بالوالدين والبر بهما والإحسان إليهما.
- ٥ - أقل مدة الحمل ستة أشهر أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ، وَفِصْلُهُ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقوله تعالى في الرضاع: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾.
- ٦ - شُكْرُ نِعَمِ اللَّهِ تعالى، والاستعانة بالله تعالى على ذلك.
- ٧ - من دواعي الإجابة والقبول: التوبة إلى الله تعالى، ولزوم طريق الإسلام.
- ٨ - بلوغ الأربعين حدّاً فاصلاً بين مرحلتين، وبلوغها يستدعي وَقْفَتَيْنِ: وقفة مع الماضي الذي مرّ، والتوبة مما سلف من تفريط وإفراط، ووقفة لما يستقبله العبد من الزمان الحاضر والآتي.
- ٩ - في الآيتين (١٥-١٦) إخبار مستقبليّ عن جزاء من استجاب لوصيّة الله بالوالدين، فأحسن في صحبته لهما برّاً بهما في حياتهما وبعد مماتهما، فجزاؤه: أن يتقبّل الله منه أحسن ما عمل من صالحات الأعمال، ويصفح عن سيئاته.

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُنْجِرَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَذَا يَسْتَفِثَانِ
 اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا
 وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا
 وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١٧-١٨- وثمة جاحدون لنعيم الله، وذلك من قبيل الذي تَضَجَّر من والديه حين دَعَوَاهُ إلى الإيمان بالله، وأنكر عليهما قائلاً: أتعدانني أن أُخْرَجَ من قبري حيًّا، وقد مَضَّتِ القرون من قبلي، ولم يُبعث منهم أحد؟ وهما يستغيثان الله تعالى هداية الولد، ويقولان مَخُوفَيْنِ له: ويلك آمِن بالله، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْبَعثِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ. فیردُّ عليهم بفرور: ما هذا القول إلا ما سَطَّرَهُ الْأَوْلُونَ من الكذب. أولئك البعداء عن الحقِّ الذين وَجَبَ عليهم العذاب في جملة الأمم السابقة من كَفَرَةِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ. إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

١٩-٢٠- ولكلِّ فريق من المؤمنين والكفار منازل عند الله يوم القيامة بما قَدَّمُوا من عمل في الدنيا، وَلِيُوقِفَهُمْ اللَّهُ جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، وهم لَا يُظْلَمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ بِنَقْصِ ثَوَابٍ أَوْ زِيَادَةِ عِقَابٍ. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَضُ الْكُفَّارُ عَلَى النَّارِ، وَيُقَالُ لَهُمْ دَمًا وَتَوْبِيخًا: أَلْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ بِمَا أَصَبْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَاغْتَرَرْتُمْ بِلَذَائِهَا، وَرَضِيْتُمْ بِشَهْوَاتِهَا، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الذَّلِّ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِكُمْ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبِسَبَبِ ارْتِكَابِكُمْ الْجَرَائِمِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- الترهيب من عقوق الوالدين ومعصيتهما إذا أمرا بطاعة، وبيان شدة جِزْصِهْمَا وشفقتها على ولدهما العاق.

٢- قوله تعالى: ﴿ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي: الهوان الشديد، وإضافته إلى الهون لعراقتة، وتمكُّنه فيه.

٣- جِزْصُ الْأَبْوِينِ الصَّالِحِينَ عَلَى هِدَايَةِ وَلَدِهِمَا، واستقامته على الحق وهو من الواجب عليهما تجاهه.

٤- جزاء كل كافر بقدر عمله، وإن اشتركوا في سوء العاقبة، فالنار دَرَكَاتٍ، كما أَنَّ الْجَنَّةَ دَرَجَاتٍ.

٥- قد يُبْتَلَى الْوَالِدُ الصَّالِحُ بِالابْنِ الطَّالِحِ، وهذا امتحانٌ من الله للعبد.

٦ - طَلَبُ الهداية من الله تعالى، كما يوحي بذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمَا يَسْتَفِيثَانِ اللَّهَ﴾، فَيَسْتَحَبُّ الدعاء للولد بالهداية.

٧ - الدعوة للزهد والتقشف، وقد كان رسول الله ﷺ زاهداً في حطام الدنيا الزائل، متواضعاً في ملبسه وماكله، ومسكنه.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الشُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أِجْتَنَّا لِلنَّافِكِ عَنْ آلِهَتِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرْتِكُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢١- واذكر - أيها الرسول - لقومك نبيَّ الله هوداً، أخا عادٍ في النسب، حين أنذر قومه بمدينة الأحقاف في حضرموت - وقد مضت الرسل التي أنذرت أممها قبل هود - وحذّرههم بالألوهة إلا الله وحده، إنّي أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يوم عاصيب.

٢٢- فردّوا عليه مُنْكَرِينَ بِسَفَاهَةٍ وَغُرُورٍ: يا هود أجتتنا بدعوتك لتضرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فأتينا بما تعِدُنَا به من العذاب، إن كنت من الصادقين في إنذارك.

٢٣- وقال لهم هود عليه السلام محذراً لهم من جهلهم: إننا العلم بنزول العذاب عليكم عند الله وحده، وأبليغكم ما أرسلت به إليكم، ولكني أراكم قوماً تجهلون قدرة الله في نزول العقاب.

٢٤-٢٥- فلما رأوا الريح التي تزعج سحب العذاب متجهة إلى أوديتهم قالوا: هذا سحب عارض يأتينا بالمطر. فقال لهم هود عليه السلام: بل هو العذاب الذي استعجلتم به، إنّه ريح تحمل عذاباً موجعاً، تُدمر

كُلُّ شَيْءٍ تَمُرُّ بِهِ بِأَمْرِ رَبِّهَا سَبْحَانَهُ - وَيَصْحُحُّ أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ لِلَّهِ تَعَالَى وَليْسَ لهُودَ - فَأَصْبَحُوا هَلْكَى لَا يُرَى مِنْ آثَارِهِمْ شَيْءٌ سِوَى دِيَارِهِمْ الْخَاوِيَةِ. وَكَمَا جَزَيْنَاهُمْ نَجْزِي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم قالت: وكان إذا رأى غيباً أو رجعاً عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عُرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يُؤْمِنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عَذَّبَ قَوْمَ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمَ الْعَذَابِ، فَقَالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُتَّطِرُنَا﴾».

(صحيح البخاري ٤٤١/٨ برقم ٤٨٢٩ - كتاب التفسير - سورة الأحقاف. باب الآية). واللهاة: اللحم في سقف أقصى الفم. (النهاية ٤/٢٨٤).

٢٦-٢٧ - وقسماً لقد مكنا لقوم عاد من أسباب التمكين والقوة ما لم نمكنكم يا أهل مكة، وجعلنا لهم نعمة السمع والأبصار والأفئدة للفهم والإدراك، واستعمالها في طاعة الله تعالى وسعادة الدارين، فاستعملوها فيما يسخط الله عليهم فلم تنفعهم شيئاً، إذ كانوا يكذبون بآيات الله المسموعة والمشاهدة، ووقع بهم العذاب الذي كانوا به يسخرون، وقسماً لقد دمرنا ما حولكم من أهل القرى - يا أهل مكة - كعاد وثمود ولوط ونحوهم، وبئنا لهم أنواع الدلائل والبراهين؛ لكي يرجعوا عن كفرهم.

٢٨ - فهلاً نصرتهم آلهتهم التي اتخذوها للعبادة من غير الله، ويتقربون بها إلى الله. لم تنصُرهم، بل غابت تلك الآلهة عن نصرتهم. وذلك الضلال البعيد هو كذبهم وافتراؤهم على الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ينظر: خريطة موقع الأحقاف، كما في الملحق.
- ٢ - لما أقام الله تعالى عليهم الحجج الباهرات والدلائل النيرات، وأزال ما أثاروه من أباطيل وشبهات، وأخذهم بالترغيب والترهيب، أقام عليهم الحجج بهذه القصة التي سار بها الركبان، ولا زالت آثارها باقية، ومسرح أحداثها قائماً.
- ٣ - مكن الله تعالى للأمم غابرة ما لم يمکن لنا، مع ما في هذا العصر من تقدم وازدهار حضاري، ولكن التمكين نسبي، فعلى الرغم من التقدم العلمي، وهذا التحول التقني، وهذه المخترعات والتطورات التي لم تخطر على بال من قبلنا، إلا أن الحضارات البائدة تميزت بمنجزات لم تنهياً للحضارة المعاصرة، وعلماء الآثار والتاريخ يعلمون ذلك.

٤ - التعبير بقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء

﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أن افتراءهم متكرر.

٥ - تشابه مواقف الكفار من أنبيائهم على مر التاريخ، وتشابه عاقبتهم.

٦- قد تقتضي الضرورة مصارحة الجاهل بجهله ليكون على حذر، ويُبَدَّدَ ظلام الجهل بنور العلم والحكمة.

٧- السمع والبصر والفؤاد من نعم الله تعالى التي ينبغي أداء شكرها، وحسن الانتفاع بها، وإلا فإنها تصير نِقْمَةً ووبالاً على صاحبها، حين يُسيء استغلالها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَؤُا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرَمَ مِّنۢ بَعْدِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مِن دُونِهِ إِلٰهًا لَّا يَلْبَسُ عِلْمَ الْغُيُوبِ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمَّا يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةٌ مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- وإذا كان كفار قريش قد كذبوا النبي الأمين ﷺ، فإن الله تعالى قد آتاه بمعجزة عظيمة حين آمنت الجن. من أجل ذلك أثنى الله تعالى على الجن المؤمنين، وسأعهم القرآن من النبي ﷺ - كما في الآيات الأربع التالية - حين بعث الله تعالى طائفة من الجن يستمعون القرآن من النبي ﷺ، فلما حضروا التلاوة قال بعضهم لبعض: أنصتوا؛ لنستمع القرآن، فلما فرغ من التلاوة رجعوا إلى قومهم يُخَوِّفونهم العذاب إن لم يؤمنوا بالله تعالى. عن علقمة قال: قلت لابن مسعود ؓ: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكن قد افتقدناه ذات ليلة وهو بمكة، فقلنا: اغتيل أو استُطير، ما فعل به؟ فإتينا بشر ليلة بات بها قوم، حتى إذا أصبحنا أو كان في وجه الصبح، إذا نحن به يجيء من قبيل حراء، قال: فذكروا له الذي كانوا فيه، فقال: «أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم» فانطلق، فأرانا أثرهم، وأثر نيرانهم».

(أخرجه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح»). (السنن ٥/ ٣٨٢-٣٨٣ برقم ٣٢٥٨ - كتاب التفسير)، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي) وأخرجه مسلم من طريق علي بن حجر به نحوه، وأخرجه مسلم (الصحيح ٢/ ٢٤ - كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن).

٣٠-٣٢- ودَعَوْا قومهم ببناء النسب لاستمالتهم، يُبَشِّرُونَهُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا قِرْآنًا عَجَبِيًّا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُصَدِّقًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنزَّلَةِ، يَهْدِي إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَالطَّرِيقِ الصَّحِيحِ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَصَدِّقُوا بِرِسَالَتِهِ، يَغْفِرِ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُخَلِّصْكُمْ مِنْ عَذَابٍ مُوجِعٍ. وَمَنْ لَا يُجِيبُ رَسُولَ اللَّهِ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ فَلَنْ يُفْلِتَ مِنْ اللَّهِ طَلَبًا، وَلَا يُعْجِزُهُ هَرَبًا، وَلَيْسَ لَهُ أَنْصَارٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. أُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ عَنِ الْحَقِّ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ ظَاهِرٍ.

٣٣- يُنَكِّرُ اللَّهُ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ: أَوْلِمَ يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَبْدَعَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ؛ وَلَمْ يَعْجِزْ عَنْ اخْتِرَاعِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءَ؟ بَلَى، إِنَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

٣٤- وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَضُ الْكُفَّارُ عَلَى النَّارِ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا وَتَقْرِيبًا: أَلَيْسَ هَذَا الْعَذَابُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كُنْتُمْ تُنْكِرُونَهُ؟ فَأَجَابُوا: بَلَى وَرَبَّنَا هُوَ الْحَقُّ. فَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ.

٣٥- فَاصْبِرْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - عَلَى أَذَى قَوْمِكَ، كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعِزْمِ وَالثَبَاتِ مِنَ الرُّسُلِ - وَهُمْ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ - وَلَا تَتَعَجَّلِ الْعَذَابَ لِلْكَفَّارِ بِالِدَعَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ مَصِيبُهُمْ، وَيَوْمَ يَرُونَهُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَمُكِّثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. هَذَا الْوَعْظُ بِلَاغٍ عَظِيمٍ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَلَا يُدَمِّرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا الْقَوْمَ الْمُخَالِفِينَ أَمْرَهُ سَبْحَانَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بلاغة لغة الجن في وصف القرآن الكريم، ومقارنته بالكتب السابقة، وبيان موقفه منها، وبيان مقاصده، وتقرير الرسالة النبوية.

٢ - من المعلوم أن الإنجيل بعد التوراة، وإنما قالوا بعد موسى عليه السلام؛ لأنَّ الإنجيل جاء مُكَمَّلًا للتوراة، ناسخًا لبعض أحكامها.

٣ - تكرير النداء: ﴿يَنْفَوْمَنَا﴾ لإظهار العناية والتلطف بهم، ولفت أنظارهم.

٤ - ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: ﴿مِنْ﴾ بيانية أي جميع الذنوب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، أو للتبعيض لاستثناء الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، فإنها لا تغفر إلا بأداء الحقوق أو تقديم العوض، أو العقوبة، أو المسامحة.

٥ - تقييد الإعجاز بكونه في الأرض؛ لبيان أنه لا مَقَرَّ وَلَا مَهْرَبَ لِكُفَّارِ الْجِنِّ، لَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَلَا فِي بطنها.

٦ - تقرير الإيمان بالجن، وأن فيهم المؤمن، وفيهم الكافر.

٧ - فضل الاستماع للقرآن؛ فهو طريق التدبُّر والانتفاع بهدياته.

- ٨- التواصي بالتأدب والخشوع عند الاستماع للقرآن.
- ٩- ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ لبيان علة مصيرهم وسبب شقائهم، وهو الكفر.
- ١٠- قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزِيمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الفاء واقعة في جواب شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر كما مر من أول السورة؛ فاصبر كما صبر من قبلك أولو العزم من الرسل؛ فإن كل ما ورد في السورة مما يُثبِت الفؤاد، ويُسَلِّي النفوس.
- ١١- فضلُ الهمةِ العاليةِ والعزيمةِ القويةِ في العملِ الصالحِ، والدعوةِ إلى الله.
- ١٢- التحذير من الفسق وسوء عاقبته، فهو من أسباب الهلاك.
- ١٣- عَرَضُ الكفار على النار قبل إلقائهم فيها؛ تنكيلاً وترويعاً لهم.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين في مواجهة الكفرة والمنافقين.
- ٢ - إعداد المؤمنين وتربيتهم؛ ليكونوا مؤهلين لمواجهة هذه التحديات الصعبة.
- ٣ - التهديد والوعيد للكفار والمنافقين؛ لترؤيعهم وتذكيرهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا
 نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَضَىٰ الرِّقَابِ حَتَّىٰ
 إِذَا أَتَخْتَمُوهُم فَشَدُّوا أَلْوَابَاقَ فَإِمَّا مَاتَ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَفْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ
 الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١-٣- يذم الله تعالى الكفار الذين صدوا أنفسهم والناس عن دينه، ويحذرهم من بطلان أعمالهم، ويمدح المؤمنين الذين عملوا بما أمر الله، وصدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو الحق الثابت، وهو كلام ربهم، ويبيئهم بفلاح سعيهم إذ كفر عنهم ذنوبهم، وأصلح شأنهم وحالهم. ذلك الجزء العظيم العادل بسبب أتباع الكافرين غواية الشيطان ومعصية الرحمن، وبسبب أتباع المؤمنين هداية القرآن وطاعة الرحمن. مثل هذا البيان يبيِّن الله أحوال أهل الكفر وأهل الإيمان.

٤-٦- يُخَرِّضُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَرْبِ الْعَدُوِّ مِنَ الْكُفَّارِ فِي مِيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ وَكَسْرِ شَوْكَتِهِ، فَإِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَوَاجِهُوهُمْ بِأَرْوَاعِ فَنُونِ الْقِتَالِ، وَأَضْرِبُوا الرِّقَابَ وَالرُّؤُوسَ وَكُلَّ طَرْفٍ مِنْهُمْ. حَتَّى إِذَا أضعفتهم بكثرة القتل فأخيموا قيد الأسارى، ثم بعد ذلك لكم الخيار في التعامل معهم، فإمَّا أَنْ تَمُوتُوا عَلَيْهِمْ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَعْرَكَةِ بِفَتْكِ أَسْرِهِمْ، وَإِطْلَاقِهِمْ بِغَيْرِ عَوْضٍ، وَإِمَّا أَنْ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ فِدْيَةً بِالْمَالِ أَوْ تَقَوْمُوا بِتَبَادُلِ الْأَسْرَى. وَلِيَكُنْ هَذَا شَأْنَكُمْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الْحَرْبُ، ذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ الْحَاسِمُ وَالْحُكْمُ الْجَازِمُ.

ولو يشاء الله لانتصر للمؤمنين من الكافرين بغير قتال، ولكن ليختبركم، فشرع الجهاد لنصرة دينه، والذين قُتِلُوا في سبيل إعلاء كلمة الله فلن يُبْطَل أعمالهم، سيُوفَّقهم إلى طريق الجنة، ويُصْلِحُ حالهم في الآخرة بالتجاوز عن سيئاتهم، ويُدخلهم الجنة من أبوابها الثمانية، وقد عرَّفهم منازلهم فيها ودرجاتهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - العاقبة المحمودة تكون للحق وأهله، أما الباطل - مهما انتفش - فمصيره إلى الزوال.
- ٢ - الإيمان هو الأساس والمنطلق لأي عمل صالح.
- ٣ - سُنَّةُ الله تعالى في الابتلاء؛ ليميز المؤمن من الكافر.
- ٤ - الصراع والتدافع بين الحق والباطل سُنَّةٌ ربانية.
- ٥ - ليس الغرض من القتال في الإسلام إبادة الكفار واستئصالهم، وإنما كسر شوكتهم، ودفع شرهم وإضعافهم.
- ٦ - الأخذ بأسباب النصر، والتمكين من العمل والجهاد.
- ٧ - جِرْصُ الإسلام على حقن الدماء، والخروج من المعارك بأدنى خسائر، فالحرب في الإسلام ليست حرب إبادة انتقامية، وإنما هي جهاد لإعلاء كلمة الله، وكسر شوكة الأعداء.
- ٨ - موقف الإسلام من الأسرى يدل على سماحته وعدله.
- ٩ - فضل الشهادة في سبيل الله، ومكانة الشهداء وكرامتهم، وتَنَعُّمُهم في الجنان.
- ١٠ - في الآية (٤) إخبار مستقبلي، والبشارة لعباد الله المؤمنين بالنصر على أعداء الله، وذلك لأن الله ﷻ جعل عقوبتهم على أيدي المؤمنين، وذلك بالجهاد. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو: أَنَّ الحكمة من شرع الجهاد اختبار الله المؤمنين بالكافرين، ولكي ينصر الله بهم دينه. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو أَنَّ جزاء مَنْ قُتِلَ في سبيل الله من المؤمنين فلن يُبْطَل الله ثواب عمله، بل سيوفِّقه إلى طاعته ومرضاته، ويصلح شأنه في الدنيا والآخرة.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاضَلٌ أَعْمَلُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

٧- يُبَشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنين مؤكِّداً أنَّهم إذا نصرُوا دين الله تعالى بالجهاد في سبيله، وأتباع أحكامه، فإنه ينصرهم على عدوهم، ويثبت أقدامهم في ميدان المعركة.

٨-١١- والذين كذبوا الله ورسوله فدماراً وخزياً لهم، وأبطل ثواب أعمالهم، أفلم يسيروا في الأرض، فَيَرَوْا في طريقهم كيف كان مصير الأمم السابقة كعاد وئمود وقوم لوط؛ ليعتبروا؟ فقد أهلكهم الله، وآثارهم باقية، وللمكذِّبين أمثال ذلك العقاب. ذلك الدمار العظيم الذي أتى عليهم لحِقَمِهِمْ؛ لأنَّ الله ناصرُ المؤمنين، وأنَّ الكفار لا ناصرَ لهم.

١٢- يُبَشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنين الذين يعملون بما أمر الله بالثواب في الآخرة، فإنه يُدْخِلُهُمْ جنات تجري الأنهار من تحت أشجار قصورها، ويذمُّ الكافرين بأنَّهم يتمتَّعون بشهوات الدنيا، ويأكلون مثل البهائم، إذ لا همَّ لهم إلا بطونهم، ونار جهنم مأواهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الآية (٧) إخبار مستقبلي، والبشارة لعباد الله الذين صدَّقوا به، وأتبعوا الرسول، ونصروا دينه بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنَّ الله سينصرهم على أعدائهم.

٢- من بدائع القرآن وقوع ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ في جانب الكفار مقابلة قوله للمؤمنين: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

٣- الدعوة إلى السير في الأرض، والنظر في آثار السابقين للعظة والاعتبار.

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَاللْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ الإظهار في موضع الإضمار؛ لبيان العلة في هلاكهم وللتعميم، فيشمل كل كافر.

٥- ولاية الله لعباده المؤمنين.

٦- التنفير من الكفر.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتْرِفٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٤) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥) ﴿وَمَن مِّن مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِّن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (١٦) ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ﴾ (١٧) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (١٨) ﴿

التفسير:

١٣ - كم من أهل قرية - أيها الرسول - كان أهلها أشد بأساً من أهل قريتك مكة، الذين كانوا سبباً في خروجك منها دمرناهم، فلا ناصر لهم يمنع العذاب عنهم.

١٤ - هل من كان على حجة وبصيرة من أمر دينه، مثل من زين له الشيطان قبيح عمله، فراه حسناً، واتبع هواه الباطل؟ والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين. ومعنى وصف البيئة بأنها من الله: أن الله أرشدهم إليها، وأثار أذهانهم، فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجة حجة في نفسها، وكونها من عند الله تزكية لها، وكشف للتردد فيها، وإتمام لدلائلها.

١٥ - صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين: فيها أنهار جارية من ماء عذب لم يتغير طعمه، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر طيبة لذيدة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى من الشوائب، وهم فيها أصناف الثمرات، ومغفرة من ربهم لذنوبهم، هل من هو في هذا المقام الكريم، كمن هو ماكث أبداً في نار الجحيم، وسقوا ماءً حاراً مغلياً فقطع أمعاءهم؟

١٦ - ومن هؤلاء الخاسرين شزيمة من المنافقين الذين يستمعون إليك أيها الرسول، حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لمن حضر من أهل العلم بسخرية: ماذا قال محمد في الماضي القريب؟ أولئك البعداء عن الحق الذين طبع الله على قلوبهم، فلا يفقهون، واتبعوا أهواءهم في النفاق. وسياق الكلام يدل على دم هذا السؤال لقوله عقبه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فهو سؤال يُنبئ عن مدمّة سائليه.

١٧ - وأما المؤمنون الذين اهتدوا إلى طريق الحق، فزادهم الله توفيقاً، وألهمهم رشدهم.

١٨ - فهل ينتظر هؤلاء الكفار إلا قيام الساعة التي وُعدوا بها أن نجيتهم فجأة؟ فقد ظهرت بعض علامات، فمن أين لهم الاتعاظ إذا جاءتهم الساعة؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - شتان بين من كان على هدى وبصيرة من ربه، ومن التبت عليه الأمور، من هنا ندرك أهمية توعية الناس وتبصيرهم؛ حتى لا يقعوا فريسة سهلة للدعاية المضللة، وتزيين الباطل.
- ٢ - تشويق القلوب، وترويح النفوس، وتقوية العزائم، بذكر نعيم الجنان وما فيها من أنهار جارية وثمرات طيبة، ومغفرة عظيمة.
- ٣ - المقارنة بين عاقبة المؤمنين، وعواقب الكفار مما يثبت القلوب، ويُسلي النفوس، ويُسحذها بالزاد في مواجهتها الصعبة للمكائد والتحديات.
- ٤ - تنكير ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مع نسيبها إلى الرب تعالى تعظيم وتفخيم لها.
- ٥ - من أهم أسباب الصدود عن الحق اتباع الأهواء.
- ٦ - المؤمن يزيده الله هداية ونوراً، والكافر والمنافق لا يزداد إلا بُعداً وضلالاً وتخبُّطاً.

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثَوَكُمُ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَو صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٩ - فاعلم - أيها الرسول - أنه لا معبود بحق إلا الله، واستغفر لذنبك ولذنوب المؤمنين والمؤمنات. والله يعلم تصرفكم في معاشكم، ومستقركم عند راحتكم من العمل، وفي البرزخ ودار القرار في الجنة أو النار.

٢٠-٢١ - ويقول المؤمنون حرصاً على نصره الدين: هلاً نزلت سورة من الله تعالى فيها أحكام الجهاد وآدابه. فإذا نزلت سورة محكمة في بيانها وأحكامها، وذكُر فيها الجهاد، رأيت المنافقين الذين يعتريني قلوبهم

الشك في الدين، ينظرون إليك - أيها الرسول - نظراً المغمى عليه في شخوص أبصارهم، جبناً وخوفاً من الموت في ميدان القتال. فخير لهم طاعة الله ورسوله، وأن يقولوا قولاً سديداً طيباً يدل على الإيمان، فإذا جد الأمر وفرض القتال، فلو صدقوا الله في الإيمان والعمل، لكان خيراً لهم من العصيان.

٢٢-٢٣ - فلعلكم - إن عرضتم عن الإسلام - أن ترجعوا إلى أفعال الجاهلية في سفك الدم الحرام، وتقطيع الأرحام. أولئك البعداء عن الحق طردهم الله من رحمته، فأصمهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى.

٢٤ - يوبخ الله تعالى المنافقين وكل مغيرٍ عن القرآن: أفلا يفهمون القرآن؛ ليؤدبوا أحكامه ومواعظه؟ بل قلوبهم قاسية طبع عليها، فلا تتأثر بالقرآن.

الفوائد والاستنباطات:

١ - العلم قبل العمل، فطن الإمام البخاري بملكته الفقهية في تبويب «الصحیح»، فعقد باباً في كتاب العلم بعنوان «باب: العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾».

٢ - قال ابن عاشور في الآية (٢٠): «هذه الآية إنباء عما سيكون من المنافقين حين يجيئ الحد، ويجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال يوم أحد، وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين، فلما بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأحد، قال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ ورجع هو وأتباعه، وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين». (التحرير والتنوير ٩٣/٢٦).

٣ - الإعراض عن الحق، وإطلاق العنان للأهواء، من أسباب الفساد والقطيعة.

٤ - الفساد في الأرض، وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر.

٥ - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات؛ إيداناً بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب. (تفسير أبي السعود ٩٩/٨).

٦ - تنكير القلوب: إمّا لتحويل حالها وتفضيح شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكرا لا يُعرف حالها، ولا يقادَر قدرها في القساوة، وإما لأن المراد بها قلوب بعض منهم، وهم المنافقون. (انظر: تفسير أبي السعود ٩٩/٨).

٧ - قال النسفي: «وأضيفت الأفعال إلى القلوب؛ لأن المراد الأفعال المختصة بها، وهي أفعال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح». (مدارك التنزيل للنسفي ١٤٩/٤).

٨ - وجوب تدبر القرآن الكريم، ومن صوارف التدبر وعوائقه قسوة القلوب، وإغلاقها.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۚ ﴾
 ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
 الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا
 وَسَيُحِيطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿

التفسير:

٢٥-٢٨- يذم الله تعالى المرتدين عن الإسلام، الراجعين على أعقابهم كفاراً بالله، من بعد ما عرفوا طريق الهداية، إن الشيطان قد زين لهم الغواية، وغرهم بالأمانى الخادعة. ذلك الأمر الخطير والشر المستطير، بسبب قولهم لليهود والكفار الذين كرهوا ما نزل الله تعالى على نبيه ﷺ من الوحي: سنطيعكم في بعض أموركم، كالتعود عن الجهاد جهادكم. والله تعالى يعلم مكائدهم الخفية، فكيف تكون حالتهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد؟ ذلك العذاب الرهيب بسبب اتباعهم ما يُغضب الله من الكفر والنفاق، وكُرهِهم العمل الصالح الذي يرضاه، فأبطل أعمالهم.

٢٩- أم ظنَّ المنافقون أنَّ الله تعالى لن يكشف ما في قلوبهم من القبائح كالحقد والحسد؟

٣٠- ولو نشاء - أيها الرسول - لأريناك المنافقين، فعرفتهم بعلامات خاصة بهم. وقسماً لتعرفنهم من فحوى كلامهم، وحركة ألسنتهم. والله تعالى يعلم كل أعمالكم - أيها العباد - من خير أو شر.

٣١- قسماً سنختبر المؤمنين بالجهاد؛ حتى يظهر المجاهدون في سبيل الله منكم والصابرون، ونختبر أقوالكم وأفعالكم؛ حتى تميّزوا الصادق من الكاذب.

٣٢- إنَّ الكفار الذين منعوا الناس عن الإسلام، وعادوا الرسول ﷺ من بعد ما عرفوا أنه نبي صادق من عند الله تعالى، لن يَصُرُوا الله بهذه القبائح، وسيبطل أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- أدب القرآن الرفيع وبلاغته في التعبير، إذ أرسى أصول الآداب، ومكارم الأخلاق، وأسّس الكلمة الطيبة. عن إسماعيل بن كثير قال: قال لي مجاهد: تدري ما قول الله ﷻ: ﴿يَصْرِيئُوتَ وَيُجَاهِدُونَ وَأَدْبَرَهُمْ﴾؟ قلت: ما هو؟ قال: وأستاههم، ولكن الله ﷻ كريم يَكْنِي. (التفسير من سنن سعيد بن منصور ١/١٥٢).
- ٢- بيان منهج القرآن في توطين النفوس، وتبئتها لمواجهة البلاء، واستقباله بنفس راضية مطمئنة، وقلب ثابت راسخ.
- ٣- قال إبراهيم بن الأشعث: «كان الفضل إذا قرأ هذه الآية ﴿وَلَنَبَلِّغَنَّكُمْ﴾ بكى، وقال: اللهم لا تَبْلُنَا، فَإِنَّكَ إِن بَلَوْتَنَا فَضَحَّخْتَنَا، وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا وَعَدَّيْتَنَا». (الكشف والبيان للشعلي ٩ / ٣٨).
- ٤- الحثُّ على إعلاء كلمة الحق، ورفعة الأمة.
- ٥- بيان أسباب الارتداد، وأنها ليست خَللاً في منهج الإسلام أو قصوراً فيه، وإنما هي ثمرة الاستجابة لتسويل الشيطان وإملائه.
- ٦- التحالف والتواطؤ بين المنافقين والمرتدين، وبيان الكارهين لما أنزل الله من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم.
- ٧- سُنَّة الله في كشف أصحاب القلوب المريضة، وقَضَجِهِم.
- ٨- حرف الاستقبال في الآية (٣٢)؛ لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدلُّ على أَنَّ الله محبب أعمالهم من الآن.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا ءَعْمَالَكُمْ ۗ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۗ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَزِيدَنَّ ءَعْمَالَكُمْ ۗ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ ءَأْمُولَكُمْ ۗ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبِخْرَجِ أَصْفَنَّاكُمْ ۗ ﴿٣٧﴾ هَٰأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ ؕ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا ءَأَمْثَلَكُمْ ۗ ﴿٣٨﴾ ﴾

التفسير:

٣٣- يأمر الله تعالى المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فيما بلغهم من الشريعة في القرآن الكريم والسنة الشريفة، ونهاهم عن إبطال أعمالهم الصالحة بالكفر.

٣٤- إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ مَنَعُوا النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ مَاتُوا عَلَى ذَلِكَ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ جُرَائِمَهُمْ.

٣٥- فَلَا تَهِنُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - عَنِ جِهَادِ أَعْدَائِكُمْ، وَتَجَبُّنَا عَنْ قِتَالِهِمْ، فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الصَّلَاحِ، وَأَنْتُمْ الْغَالِبُونَ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ بِبَصْرِهِ، وَلَنْ يَنْقُصَكُمْ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

٣٦- ٣٧- يُزَهِّدُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِإِخْبَارِهِمْ عَنِ حَقِيقَةِ أَمْرِهَا، بِأَنَّهَا لَعِبٌ فِي الْأَبْدَانِ، وَهُوَ فِي الْقُلُوبِ. وَإِن تُصَدَّقُوا بِاللَّهِ، وَتَتَّقُوهُ بِأَمْتَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، يُعْطِيَكُمْ ثَوَابَ أَعْمَالِكُمْ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِإِخْرَاجِ أَمْوَالِكُمْ جَمِيعَهَا فِي الزَّكَاةِ، بَلْ يَأْمُرُكُمْ بِإِخْرَاجِ بَعْضِهَا، إِن يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ فَيَجْهَدْكُمْ وَيُلْحِقَ عَلَيْكُمْ، تَبَخَّلُوا بِهَا، وَتَمْتَنَعُوا عَنْ آدَائِهَا، وَيُخْرِجْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الْبَخْلِ وَكَرَاهَةِ الْإِنْفَاقِ.

٣٨- هَٰ أَنْتُمْ - مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ - تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي نَصْرَةِ الدِّينِ، فَمِمَّنْكُم مَّن يَبْخَلُ بِالنَّفَقَةِ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالَ بُخْلِهِ عَلَى نَفْسِهِ بِفَوَاتِ الثَّوَابِ. وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَإِن تُعْرِضُوا عَنِ طَاعَتِهِ يَجْعَلْ بِدَلَّكُمْ قَوْمًا آخَرِينَ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْ أَحْكَامِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإسلام لا يرضى لأتباعه بالمذلة والهوان، والهزيمة النفسية، والاستسلام للأعداء.
- ٢- الإسلام دين السلام العادل، سلام العزة والكرامة، وليس السلام الزائف، سلام الضعف والإجحاف.

٣- الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، فهو من وسائل الجهاد، وقد تَرَبَّبَ عَلَى تَرْكِ الْإِنْفَاقِ أَوْ التَّقْصِيرِ فِيهِ هَزَائِمٌ، وَنَكَبَاتٌ حَلَّتْ بِالْأُمَّةِ.

- ٤ - الإسلام دين وسطي، يراعي التوازن في الحقوق والواجبات، والتكليف بما يطاق.
- ٥ - من سننه تعالى سنة الاستبدال؛ ليمضي ركب الدعوة.
- ٦ - في الآية (٣٥) إخبار مستقبلي، وبشارة عظيمة لعباد الله المؤمنين به وبرسوله بالنصر والظفر على الأعداء، فيما إذا لم يضعفوا عن جهاد المشركين، وتجنبوا قتالهم.
- ٧ - في الآية (٣٨) إخبار مستقبلي عن عاقبة المؤمنين فيما إذا تولوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره، فإن الله سيهلكهم، ويأت بقوم آخرين، ولا يكونوا أمثالهم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه، ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

النزول: مدنية.

فضل السورة:

عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه: فقال عمر بن الخطاب: نَكَلْتُ أُمَّ عَمْرٍ، نَزَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَجِيبُكَ. قال عمر: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ النَّاسِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ، فَمَا تَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخاً يَصْرُخُ بِي. فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فحِثُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فقال: «لقد

أنزلت علي الليلة سورة، هي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾».

(وما تَنبَيْ: ما لَيْتَ). (صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة الفتح، باب (الآية) ٨/٤٤٦، برقم ٤٨٣٣).

المقاصد:

١ - البشارة الكبرى بهذا الفتح المبين والنصر العزيز صلح الحديبية، وما أعقبه من فتح مكة، وفتح

خير، وغيرهما من الفتوحات.

٢ - تقرير أهمية تربية الأجيال وإعدادها؛ لتنهض بحمل رسالة الإسلام.

٣ - بيان فضل الله على نبيه ﷺ، وكريم شئله.

٤ - بيان مناقب الصحابة وفضائلهم، وتضحياتهم وصدقهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ يَا اللَّهُ ظَرْبَ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ السَّوَةِ وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١-٣- يُبَشِّرُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْفَتْحِ: إِنَّا - لَمَّا لَنَا مِنَ الْعِظْمَةِ وَالْقُدْرَةِ - فَتَحْنَا لَكَ - أَيُّهَا الرُّسُولُ - فَتْحًا مُبِينًا فِي ظُهُورِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فِي صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَإِنَّهُ تَحَقَّقَ بِسَبَبِهِ مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ، ثُمَّ تَحَقَّقَتِ الْبَشْرَى بِالْفَتْوحَاتِ تَتْرَى، وَذَلِكَ الْفَتْحُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى جُهُودٍ؛ لِكَيْ يَغْفِرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. وَفِيهِ بَشِيرَةٌ أُخْرَى لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْمَغْفِرَةِ الَّتِي حُصِّصَ بِهَا، وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْكَ بِإِظْهَارِ الدِّينِ وَانْتِشَارِهِ، وَيَهْدِيكَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا أَكِيدًا مُنِيعًا.

عن أنس رضي الله عنه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ قال: الحديبية. (صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة الفتح، باب (الآية) ٨/٤٤٧ برقم ٤٨٣٤، وأخرجه بنحوه بسنده عن البراء (صحيح البخاري - المغازي - غزوة الحديبية برقم ٤١٥٠).

٤-٦- سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئاً مريناً، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له، فقال لي: أما ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ فعن أنس، وأما «هنيئاً مريناً» فعن عكرمة. (صحيح البخاري - المغازي، باب غزوة الحديبية برقم ٤١٧٢).

التفسير:

هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية؛ ليزدادوا تصديقاً مع تصديقهم. والله جنود السموات السبع، والأرضين السبع، من الملائكة والجن والبراكين والغرق وغيرها ينصر بها دينه. وكان الله عليماً بأحوال خلقه، حكيماً في تدبير شؤونهم. ودبر هذا التدبير؛ ليدخل أهل الإيمان جنات تجري الأنهار من تحت أشجار قصورها، ماكين فيها أبداً، ويمحو عنهم خطاياهم. وكان ذلك المقام الكريم عند

الله فلاحاً عظيماً في جنّات النعيم، وليعذب الله أهل النفاق وأرياب الشرك المتصفين بسوء الظنّ بالله تعالى بأنّه يخذل المؤمنين، ويتركهم غنيمة للكفار، فعلى هؤلاء وحدهم تدور دائرة العقاب، وسخط الله عليهم بكفرهم وأبعدهم عن رحمته، وهيا لهم نار جهنّم، وساءت مرجعاً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - ينظر: خريطة موقع فتح مكة، كما في الملحق.
- ٢ - إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن المستقبل، فقد وصف الله الفتح بالمبين، على خلاف ما رآه كثير من الصحابة لصلح الحديبية بادئ الأمر.
- ٣ - استفتاح السورة بهذه البشارة العظيمة، فقد كان صلح الحديبية فاتحة خير على الدعوة، وتمهيداً لما تبعه من فتح مكة، وفتح خيبر وغيرها.
- ٤ - نيل المغفرة، واستجلاب النعم، وتحصيل الهداية، من أسمى أهداف المسلم في سعيه وجهاده ودعوته.
- ٥ - قال ابن عاشور: «تأكيد الكلام بـ (إنّ) لما في حصول ذلك من تردّد بعض المسلمين أو تساؤلهم، فعن عمر أنّه لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: «أوفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنّه لفتح». (التحرير والتنوير: ١٢٢/٢٦) والأثر صحيح.
- ٦ - ذكّر المؤمنين مع المؤمنين هنا لدفع توهم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختصاً بالرجال.
- ٧ - الإيمان يزيد بالطاعات والأعمال الصالحات.
- ٨ - المقابلة بين نعم الله وإكرامه لعباده المؤمنين، وبين نقيمه وسخطه وعذابه للكفار والمنافقين. وهذا من تمام البشارة، وكمال البهجة لأهل الإيمان.

﴿ وَبِاللّٰهِ جُنُودَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيْزًا حَكِيْمًا ﴿٧﴾ اِنَّا اَرْسَلْنَاكَ شٰهِيْدًا وَمُبَشِّرًا وَنٰذِيْرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُعَزِّرُوْهُ وَتُوَقِّرُوْهُ وَتُسَبِّحُوْهُ بُكْرَةً وَّاَصِيْلًا ﴿٩﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ يُبٰيِعُوْنَكَ اِنَّمَا يُبٰيِعُوْنَكَ اللّٰهُ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ اَيْدِيْهِمْ فَمَنْ نَّكَثَ فَاِنَّمَا يَنْكُثُ عَلٰى نَفْسِهٖ وَمَنْ اَوْفٰى بِمَا عٰهَدَ عَلَيْهِ اللّٰهُ فَسَبُوْا بِاَجْرٍ عَظِيْمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُوْلُ لَكَ الْمُخَلَّفُوْنَ مِنَ الْاَعْرَابِ شَغَلَتْنَا اَمْوَالُنَا وَاَهْلُوْنَا فَاَسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُوْلُوْنَ بِالسِّيْئَةِ مَا لَيْسَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا اِنْ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا اَوْ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ اَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُوْلُ وَالْمُؤْمِنُوْنَ اِلَى اٰهْلِيْهِمْ اَبَدًا وَّزَيَّنْتَ ذٰلِكَ فِيْ قُلُوْبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سُوْٓءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُرًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ فَاِنَّا اَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِيْنَ سَعِيْرًا ﴿١٣﴾ ﴾

التفسير:

٧- والله تعالى جنود السموات السبع والأرضين السبع، ينصر بها دينه ويسحق بها أعداءه. وكان الله عزيزاً في انتقامه، حكيماً في تدبيره.

٨-٩- إنا - لما لنا من العظمة والقدرة - أرسلناك - أيها الرسول - شاهداً على الخلق بالتبليغ، فلا يعذر المخالفون عن شريعتك، ومبشراً المؤمنين بجنات النعيم، ومخوفاً الفاسقين من نار الجحيم؛ لكي تُصدّقوا - أيها العباد - بالله، وتُقرّوا له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وتُجِلُّوا وتُعظّموا الرسول ﷺ، وتُسَبِّحوا الله في الصباح والمساء.

١٠- إن الذين يُبايعونك - أيها الرسول - على السمع والطاعة يوم الحديبية إنا يُبايعون الله تعالى، ويعقدون الصفقة الرابعة معه؛ ابتغاء رضوانه. يد الله فوق أيديهم، فهو يعلم ذلك العهد، فمن نقضه فإننا يعود عقاب نقضه عليه، ومن وُفي هذه البيعة العظيمة بطاعة رسوله ﷺ، فسيكرمه الله تعالى بجنة كريمة.

١١- يُحذّر الله تعالى نبيه ﷺ مكر المنافقين الذين تحلّفوا عن الخروج معه يوم الحديبية، بقولهم: شغلنا عن الخروج معك بالأموال والعيال، فاطلب لنا من الله المغفرة. يقولون خلاف ما يُطِنون من الكذب، قل لهم أيها الرسول: مَنْ يمنعكم من قضاء الله إن قدر عليكم شراً أو خيراً؟ ليس الأمر كما زعمتم، بل الله مُطلّع على فضائلكم وقبائحكم.

١٢- يفضح الله ما أخفاه المنافقون: بل حسبتم أن الرسول وأصحابه لن يرجعوا إلى ديارهم في المدينة أحياء، وزين الشيطان ذلك الظنّ الخبيث في نفوسكم، وظننتم بالله سوء الظنّ أنه لن ينصّر رسوله، وكنتم قوماً هلكي؛ بسبب هذا الظنّ السيئ.

١٣ - وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنِئِنَّا صَادِقًا بِالْقَوْلِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ عَذَابَ السَّعِيرِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - قال الرازي في الآية (٧): «كَرَّرَ اللَّفْظَ لِأَنَّ جُنُودَ اللَّهِ قَدْ يَكُونُ إِتْزَالُهُمْ لِلرَّحْمَةِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْعَذَابِ، فَذَكَرَهُمْ أَوَّلًا لِإِبْرَاهِيمَ الرَّحْمَةَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَثَانِيًا لِإِبْرَاهِيمَ إِتْزَالَ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ». (التفسير الكبير ٢٨/٦٥).
- ٢ - تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين بذكر جنوده في السموات والأرض؛ لنصرة أوليائه.
- ٣ - بيان مهمة الرسول والمرسل إليهم.
- ٤ - تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.
- ٥ - وجوب الوفاء بالعهد وحرمة نكثه.
- ٦ - إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الغيب المستقبلي، وتحقيقه كما أخبر.
- ٧ - بيان ظاهرة النفاق، وكشف خبايا المنافقين.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمِ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوءًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخَلَّفُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَى بِأْسِ شَدِيدٍ نَقْتُلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

- ١٤ - والله تعالى ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، يغفر برحمته لمن يشاء من عباده المؤمنين التائبين، ويعذب بعدله من يشاء من الكافرين والمنافقين. وكان الله غفوراً لمن تاب من عباده، رحيماً بهم.
- ١٥ - يكشف الله تعالى أمراً غيبياً من خداع المنافقين وطمعهم بالغنائم، سيقول هؤلاء الذين تخلفوا يوم أحد والحديبية للنبي ﷺ وأصحابه: إذا انطلقتم إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها: دعونا نخرج معكم. يريدون بذلك أن يغيروا وعد الله لأهل الحديبية أن تكون لهم غنائم أيضاً. قل لهم أيها الرسول: لن

تخرجوا معنا إلى خير، بمثل ذلك الأمر العظيم أمرنا الله. فردَّ المنافقون: ليس الله أمركم، بل أنتم تقولون ذلك حسداً منكم؛ لئلا نشارككم في الغنائم. وليس الأمر كما ظننوا، بل كانوا لا يفهمون أتباع الحق إلا نادراً.

١٦-١٧- قل - أيها الرسول - للمتخلفين عن القتال من أهل البادية: ستدعون إلى قتال قوم أصحاب قوة ضاربة، وعزيمة صارمة في ميدان القتال. شرع لكم جهادهم ولكم النصر عليهم، أو يدخلون دين الإسلام من غير قتالهم، فإن تستجيبوا وتنفروا إلى الجهاد يرزقكم الله الغنيمة أو الجنة، أو هما معاً، وإن تتخلفوا كما تخلفتم في يوم أحد والحديبية يُعذّبكم الله عذاباً موجعاً. ويُستثنى أصحاب الأعذار: الأعمى والأعرج والمريض، فليس عليهم إثم. ومن يطع أمر الله ورسوله، يدخله الله تعالى بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ومن يتخلف عن الجهاد في سبيل الله مع المؤمنين، يُعذّبه الله عذاباً موجعاً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الفقه في الدين من أسباب العصمة والنجاة والإنصاف.
- ٢ - إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الأمور المستقبلية.
- ٣ - فتح باب التوبة والقبول أمام المخلفين، وتلك رحمة الله تعالى، يفتح باب التوبة من كل ذنب مهما عظم.
- ٤ - في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ الآية (١٦) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ٥ - في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية (١٧) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ٦ - رفع الحرج عن أصحاب الأعذار والمرضى، وهذا من رحمته تعالى وتيسيره لعباده مع فتح ميادين الطاعة التي ينافسون فيها المعافين.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْذَبُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٨-١٩- قسماً لقد رضي الله عن المؤمنين، حين بايعوك تحت الشجرة بأرض الحديبية، فعلم الله ما في قلوبهم من السمع والطاعة، فأنزل السكينة عليهم، وجازاهم على هذه البيعة بفتح خبير - تقع شمال المدينة مسافة (١٦٠) كيلاً - وما بعدها، ومغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر وغيرهم. وكان الله عزيزاً في انتقامه من أعدائه، حكيمياً في تدبير شؤون خلقه.

٢٠- يُبَشِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِوَعْدِهِ الْكَرِيمِ فِي كَسْبِ الْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْعَدُوِّ عَلَى جِهَادِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، فَعَجَّلَ لِلصَّحَابَةِ ﷺ غَنَائِمَ خَيْرٍ، فَمَنَعَ أَنْ تَمْتَدَّ أَيْدِي الْأَعْدَاءِ إِلَيْهِمْ بِسُوءٍ، فَأَخَذْتُمُ الْغَنَائِمَ بِدُونِ جِهَادٍ وَقِتَالٍ، وَلِتَكُونَ هَذِهِ الْغَنَائِمُ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْجَنَّةِ.

٢١- وعدكم الله سبحانه - أيها المؤمنون - مغانم أخرى لم تقدروا على أخذها، عند نزول هذه الآية. علم الله أنها ستكون لكم بإذنه. وكان الله على كل شيء قديراً لا يعجزه شيء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. (أخرجه أبو داود الطيالسي، وسنده رجاله ثقات إلا سبأاً الحنفي لا بأس به، فالإسناد حسن، ينظر: تفسير ابن كثير ٤/١٩١-١٩٢، وأخرجه البيهقي بلفظ: هو ما أصبتم بعده (دلائل النبوة ٤/١٦٣).

٢٢-٢٣- يُبَشِّرُ اللهُ تَعَالَى رِعَايَتَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ: وَلَوْ قَاتَلَكُمُ كَفَّارُ مَكَّةَ لَانْهَزَمُوا فَارِّينَ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ مَنْ يُوَالِيهِمْ، وَلَا مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي سَنَّهَا فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ أَنْ يَنْصُرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَهْزِمَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ، فَلَنْ تَتَغَيَّرَ هَذِهِ السُّنَّةُ فِي الْعَالَمِينَ.

٢٤- سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم. مُتَسَلِّحِينَ يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ فَأَخَذَهُمْ سِلْماً، فَاسْتَحْيَاهُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (الآية) ٣/١٤٤٢ برقم ١٨٠٨).

التفسير:

والله تعالى هو الذي كَفَّ عَنْكُمْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَافِلُوا الْبَطْشَ بِكُمْ، وَكَفَّ أَيْدِيَكُمْ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ فِي الْحَدِيثِ، بَعْدَ مَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- قَدْ دُعِيَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ بِبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.
- ٢- رَضِيَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا خَيْرَ مَا يُؤْمَلُهُ الْعَبْدُ، وَأَعْظَمَ مَا يَنْأَلُهُ، فَهُوَ غَايَتُهُ، وَمُنْتَهَى أَمَلِهِ.
- ٣- الْإِلْتِقَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ لِلْخُطَابِ ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ لِلْعُنَايَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ بِالثَّنَاءِ.
- ٤- فَضَائِلُ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَكَرِيمُ شَمَائِلِهِمْ، مِنْ ذَلِكَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، وَنُصْرَتِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ صلى الله عليه وسلم.
- ٥- سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ.
- ٦- سَلَامَةُ الْأَبْدَانِ، وَحِفْظُ النُّفُوسِ، مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ، وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عَلِيمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمُحِيْمَةَ حِيْمَةَ الْجَنَهِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَّةَ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ تُحَمِّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَبُهمُ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهمُ مِنَ انْتِرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيُغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

التفسير:

٢٥- كُفَّار مكة هم الذين كذبوا بالله، ومنعوكم من الطواف بالمسجد الحرام، ومنعوا الهدى من الأنعام عن بلوغ منحره في الحرم. ولولا طائفة من المؤمنين والمؤمنات يعيشون مع كفار مكة، يكتمون إيمانهم خوفاً من بطش الكفار لم تعرفوهم؛ خشية أن تقتلوهم مع الكفار، فيقع عليكم إثم بغير علم، لأنمركناكم بقتالهم؛ ليُدخل الله في رحمته من يشاء، فينجي المؤمنين، ويرجع كثير من الكفار إلى الإسلام، لو تميّز أهل الإيمان عن الكفار، وخرجوا من بينهم، لعذبنا الكفار أشدَّ العذاب بالقتل والأسر.

٢٦- سبب النزول:

عن المسور بن مخرمة ومروان - يُصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه - قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق... فذكر الحديث بطوله وفي آخره: فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بَلْظَنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بلغ: ﴿ الْمُحِيْمَةَ حِيْمَةَ الْجَنَهِيَّةِ ﴾ وكانت حيتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يُقرؤا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

(صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ٥/٣٢٧-٣٣٣ برقم ٢٧٣١-٢٧٣٢).

التفسير:

حين جعل الكفّار في قلوبهم الكِبْرَ والبَطْرَ وهي عصبية الجاهلية، جعل الله تعالى الطمأنينة والصبر على رسوله ﷺ وصحابته ؓ، وألزمهم قول: (لا إله إلا الله) والقيام بها، وكان المؤمنون أحقّ بهذه الكلمة العظيمة من المشركين، فهم أهل لها. وكان الله بكلّ شيء عليماً، لا يخفى عليه شيء في السموات السبع والأرضين السبع.

٢٧- قسماً لقد جعل الله رؤيا رسوله ﷺ صادقة مُحَقَّقة، وهي دخوله ﷺ وأصحابه بيت الله الحرام آمنين من العدو، مُحَلِّقِينَ شعر رؤوسكم، ومُقَصِّرِينَ بعد طواف العمرة وَسَعِيَهَا، فعَلِمَ اللهُ من المصلحة في تأخير هذه العمرة ما لم تعلموا أنتم، فجعل من دون دخولكم مكّة الذي وُعدتم به فتحاً قريباً، وهو صَلْحُ الحديبية، ثم فتح خيبر.

٢٨- الله تعالى بمَنِّه وكرمه أرسل رسوله محمّداً ﷺ بالهداية إلى الخير ودين الإسلام؛ لِيُعَلِّمَهُ عَلَى الأديان كلّها. وكفى بالله شاهداً على صِحِّهِ رسالتك، وأنه ناصرك.

٢٩- لما بَيَّنَّ صدق الرسول ﷺ في رؤياه، واطمأنت نفوس المؤمنين، أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول ﷺ، والثناء على المؤمنين الذين معه. فيمدح الله سبحانه نبيّه ﷺ والصحابه ؓ: محمّد رسول الله ﷺ والذين معه من أصحابه غِلَاطٌ عَلَى مَنْ يعاديهم من الكفّار، متراحمون فيما بينهم، تراهم راکعين ساجدين، يطلبون من الله تعالى وحده رحمته ورضوانه، علامة طاعتهم ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة. ذلك الوصف الكريم ورد في كتاب التوراة والإنجيل، وصِفْتُهُمْ فِي هذَيْنِ الكتابين مثل زرع أخرج فروعه، فقَوِيَ حتى صار غليظاً، فقام الزرع واستقام على أصوله، يُعْجِبُ الزارع من جمال منظره، ليغيظ الكفّار بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وتوَادّهم وشدّة بأسهم على أعداء الله تعالى، وعد الله المؤمنين الذين عملوا بطاعته المغفرة لذنوبهم، والرزق العظيم في جَنَّةِ النعيم.

قال ابن عاشور: «ثم تكون أحكام الشدّة على الكفّار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، وللعلماء الإسلام فيها مقال». (التحرير والتنوير: ١٧٢/٢٦).

الفوائد والاستنباطات:

١- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِعَمْرٍ عَمِرٍ﴾ تَفْصِيلٌ لِلصَّحَابَةِ، وَإِخْبَارٌ عَنْ صِفَتِهِمُ الكريمة من العِفَّةِ عَنِ المعصية، والعِصْمَةِ عَنِ التَّعَدِّي، حتى إنهم لو أصابوا مِنْ أَوْلَئِكَ أَحَدًا لَكَانَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ.

٢- قَابَلَ بَيْنِ حِمِيَةِ الجاهلية وسكينة أهل الإيمان، وأضاف الحمية وهي: الأنفة والعصبية إلى الجاهلية تأكيداً لَدَمِّهَا. والعطف بالفاء يفيد المقابلة كما تقول: أكرمني فأكرمته.

- ٣- رؤيا الأنبياء حق، وقد يتأخر وقوعها.
- ٤- المستقبل لهذا الدين، والآمال معقودة على دعائه وحملته لوائه، فلم يَعُدْ للبشرية من سبيل سواه بعد أن تَبَدَّدت كل الفلسفات، وتحطمت كل التصورات، وفشلت القوانين الوضعية في إصلاح طريق البشر.
- ٥- استدل الإمام مالك رحمه الله بهذه الآية ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ على تكفير الذين يُبَغِضُونَ الصحابة ﷺ، قال: لأنهم يُغَيِّظُونَهُمْ، وَمَنْ غَاظَ الصَّحَابَةَ ﷺ فهو كافر لهذه الآية. قال ابن كثير: «ووافقه طائفة من العلماء على ذلك». (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ٢٦/٢٢٧).
- ٦- يُعَلِّمُنَا القرآن الكريم ذِكْرَ المشيئة، فالله تعالى يفعل ما يشاء.
- ٧- رَبُّطُ المسجد الحرام بالأمن؛ لأنه من أَحْصَى صفاته، فهو حَرَمٌ آمِنٌ.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - بيان معاني الإيمان ومقتضياته.
- ٢ - تعظيم شرع الله تعالى وتقديمه.
- ٣ - تعظيم النبي ﷺ، وحُسن التأدب معه.
- ٤ - حماية المجتمع المسلم من أسباب الشقاء والريبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانْقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾
 ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
 أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
 قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۗ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

١-٢- سبب النزول:

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمْرُ
 الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبُدٍ، وَقَالَ عُمَرُ: بَلْ أَمْرُ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتُ إِلَى - أَوْ إِلَّا - خِلَافِي،
 فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَتَمَارِيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدِّمُوا بَيْنَ
 يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية. (صحيح البخاري- كتاب التفسير- سورة الحجرات، باب (الآية) ٨/٤٥٧ برقم ٤٨٤٧).

التفسير:

يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى أدب التعامل في مخاطبة النبي ﷺ، فينهاهم عن المسارعة في الأشياء بين يديه
 وقبله، وعن قضاء أمر من أمور الشريعة دون أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ويأمرهم بتقوى الله فيما أمر وزجر.
 إنه سبحانه سميع للأقوال، عليم بالأحوال والأفعال، ونهاهم سبحانه في أثناء المخاطبة عن رفع أصواتهم
 فوق صوته ﷺ، ونهاهم عن الجهر عند ندائه ﷺ كما يجهرون فيما بينهم إذا نادى بعضهم بعضاً، بأن يُنادى
 بندااء يليق بمقام النبوة؛ خشية أن تبطل أعمالهم، وهم لا يشعرون بذلك.

قال ابن عاشور: «ولقد تَحَصَّلَ من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ، إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتاً عنده». (التحرير والتنوير: ١٨٣/٢٦).

٣-٤ - وَيُؤَكِّدُ اللهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ بَشَائِهِ عَلَى الصَّحَابَةِ ﷺ الَّذِينَ يَخْفِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أولئك أصحاب الدرجات العالية الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها لتقواه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لهم من الله تعالى مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم في جنة النعيم. وَيُؤَكِّدُ مَرَّةً أُخْرَى ذَمَّ الَّذِينَ ينادونه ﷺ من وراء بيوت نسائه بصوت مرتفع، ووصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون التعامل مع النبي ﷺ، ولا يدركون مقامه. قال ابن عاشور: «وتَقْيُّ العِقل عنهم مراد به عقل التأدب الواجب في معاملة النبي ﷺ». (التحرير والتنوير: ١٨٨/٢٦).

٥ - وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ انْتظَرُوا حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِهِ، لَكَانَ أَفْضَلَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - أفاد تذييل الآية الأولى ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مراقبة الله تعالى في القول والعمل، وتجويدهما.
- ٢ - حرمة الرسول ﷺ بعد مماته كحرمة في حياته، فلا يُقَدَّمُ قَوْلٌ أَوْ رَأْيٌ عَلَى كَلَامِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَيُرَاعَى الأَدَبُ فِي مَجَالِسِ العِلْمِ وَخَفِضِ الصَّوْتِ عِنْدَ قَبْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.
- ٣ - الحذر من محبطات الأعمال، وضرورة اليقظة.
- ٤ - الأَدَبُ مِنْ كِهَالِ العِقل، وَثَمَرَةُ التَّقْيِ.
- ٥ - مراعاة الأوقات الملائمة للزيارة، وأدب الاستئذان.
- ٦ - عَلَّقَ البِقَاعِيُّ عَلَى حُرْمَةِ رَفْعِ الصَّوْتِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَذَى العُلَمَاءِ الَّذِينَ هَيَّأَهُمُ اللهُ لِتَلْقَائِهِ فَهَمَّ دِينُهُ عِنْدَهُ شَدِيدٌ جَدًّا، فَإِنَّ تَكْدِيرَ أَوْقَاتِهِمْ يَمْنَعُهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ». (نظم الدرر ٧/٢٢٦).
- ٧ - الأَدَبُ عِنْدَ الأَكَابِرِ يَبْلُغُ بِصَاحِبِهِ إِلَى الدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالخَيْرُ فِي الأَوَّلَى والعَقْبَى.
- ٨ - تَنْكِيرُ مَغْفِرَةٍ؛ لِتَعْظِيمِهَا وَتَفْخِيمِهَا. وَفِي هَذَا إِيْءَاءٌ إِلَى إِثْمٍ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.
- ٩ - يَنْظُرُ: صُورَةَ حَجَرَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا فِي المَلْحَقِ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ
تَدْمِينًا ۖ﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَا يُؤْمِنُ
وَرَبِّئِنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ
وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴿

٦- سبب النزول:

عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي ؓ قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمَنْ استجاب لي جمعت زكاته، فيرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة من استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأتيه، فظَنَّ الحارث أَنَّهُ قد حدث فيه سخطة من الله ﷻ ورسوله، فدعا بسرّوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ﷻ ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حَبْس رسول الله ﷻ إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده ممَّا جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرق فرجع، فأتى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، ف ضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث، وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم: إلى مَنْ بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتَّة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «مَنَعَت الزكاة وأردت قتل رسول الله ﷺ». قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورسوله، قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينًا ۖ﴾

إلى هذا المكان: ﴿فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾. (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٧٩، وأخرجه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤)، برقم ٣٣٩٥). قال ابن كثير: وقد روي من طرق، ومن أحسنها ما

رواه الإمام أحمد .. فساق هذا الحديث. وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني، وقال: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ١٠٩). وقال السيوطي في الدر: .. بسند جيد. ا.هـ. وله شواهد عن مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري. وقال محققو المسند: حسن بشواهد، دون قصة إسلام الحارث بن ضرار الخزاعي (المسند ٢٥/ ٤٠٣-٤٠٥ برقم ١٨٤٥٩).

التفسير:

يُحذِّر الله تعالى المؤمنين من خبر الفاسق، بأنَّه يجب التثبُّت من صحَّة الخبر قبل تصديقه ونشره، خشية أن يجرَّ هذا الخبر إلى الوقوع في ظلم الناس الأبرياء، فيندموا على ذلك التسرُّع.

٧-٨- واعلموا - معشر المؤمنين - أنَّ بين أظهركم رسولَ الله ﷺ، فعظُّموا ووقِّروا، وانقادوا لأمره، فإنَّه أعلم بمصالحكم؛ لأنَّ الله تعالى لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة، ولو يُطيعكم في كثير من اقتراحاتكم واجتهاداتكم، لَوَقَعْتُمْ في مشقَّةٍ وحرَج، ولكنَّ الله بفضله حَبَّب إليكم الإيمان وزَيَّنَه في قلوبكم، وكرَّه إليكم أنواع الضلال من الكفر والخروج عن طاعته وارتكاب المعاصي. أولئك أصحاب المنازل الرفيعة هم المهتدون إلى أتباع الحقِّ. هذا الهدى العظيم فضل كريم من الله ونعمة منه. والله عليم بأحوال عباده، حكيم في تدبيره.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَعْتَمِدَنَّ﴾ قال: هذا نبيكم ﷺ يُوحى إليه، وخيار أئمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر لَعَتَمْتُوا، فكيف بكم اليوم؟ (أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. (السنن ٥/ ٣٨٨-٣٨٩ - كتاب التفسير، باب سورة الحجرات برقم ٣٢٦٩). وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

٩- سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي؟ قال: فانطلق إليه، وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرض سَبَخَةٌ، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله! لقد آذاني نثنُّ حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: والله! لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضَرْبٌ بالجريد وبالأيدي وبالنعال. قال: فبلغنا أنَّها نزلت فيهم: ﴿وَلَنْ تَأْبَهُنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَتَلَوْا فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. (صحيح البخاري - كتاب الصلح. باب ما جاء في الإصلاح برقم ٢٦٩١. وصحيح مسلم ٣/ ١٤٢٤ - كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين برقم ١٧٩٩). أرض سبخة: هي الأرض التي تملوها الملوحة، ولا تكاد تُنبِت إلا بعض الشجر. (النهاية لابن الأثير ٢/ ٣٣٣).

التفسير:

يحثُّ الله تعالى المؤمنين على الصلح إذا وقع قتال بين طائفتين من المؤمنين، فيجب أن تقوم طائفة أخرى من المؤمنين بالصلح بإِرضي الله تعالى، ويؤكِّد سبحانه وجوب الصلح، وأنَّه إذا اعتدت إحدى الطائفتين

على الأخرى ولم تَرْضَ بالصلح، وجب قتال الطائفة المعتدية إلى أن ترجع إلى حكم الله تعالى ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، بإعطاء كل ذي حَقِّ حَقَّهُ بالقسط والعدل. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَادِلِينَ بين الناس.

١٠ - ثُمَّ يُؤَكِّدُ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ فِي الدِّينِ، فيجب الإصلاح بين الإخوة، ثم يأمرهم بتقواه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لكي تفوزوا برحمة الله الواسعة؛ وفيه ترغيب في الصلح أيضاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب التثبت من الأخبار والتحري والدقة، وقبول خبر الواحد، والاحتجاج به إذا كان عدلاً.
٢ - الأمر بالتثبت من خبر الفاسق لا يعني إهمال خبره إذ قد يكون صادقاً؛ فيرتب على إهمال خبره وقوع مفسدة، أو تفويت مصلحة.
٣ - تنوع الأساليب القرآنية في النهي عن المنكرات، والتنفير منها، والترهيب من عاقبتها مع إيجاز في ذلك بليغ.

٤ - المؤمن إذا ارتكب كبيرة من الكبائر لا يخرج عن الملة.
٥ - وقوع الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين لا يُخرجهما عن الإيمان، بدليل نسبة الطائفتين إلى المؤمنين.
٦ - ضرورة الإسراع إلى رأب الصدع، والمبادرة إلى الإصلاح بين المتخاصمين.
٧ - وجوب قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله.
٨ - من ثمرات التقوى أنها تجلب رحمة الله تعالى.
٩ - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أما في حياته فظاهر، وأما بعد مماته فبهديته وسيرته وسنته. وتلك نعمة من الله وعصمة لعباده المؤمنين ألا يُتْرَكُوا بلا منهج ولا أسوة، فيبيتوا نهياً لأصحاب المذاهب الهدامة، والتصورات الباطلة.

١٠ - ذَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَكُرَّةَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ على أَنَّ الْمَعَاصِيَ مُتَفَاوِتَةٌ، وبعضها أقبح من بعض فبدأ بأشنعها وهو الكفر، ثمَّ الفسوق وهو الخروج عن الطاعة والمجاهرة بالعصيان، ثمَّ العصيان.
١١ - ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ﴾ وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ مِضَافاً إِلَى الْمُخَاطَبِينَ؛ لاستثارة عاطفة الأخوة واستنفارها.

١٢ - إذا كانت المبادرة إلى إصلاح ذات البين من المهمات الواجبات، فإن الإفساد بين الناس والسعي بالنميمة والوشاية والتحريض، وإضرار الفتن، من أكبر المنكرات.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا يُسَاءُ مِن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الِالْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِعَصِ الظَّنِّ إِنَّمَا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

١١ - سبب النزول:

عن أبي جبير بن الضحاك رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في بني سلمة: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ قال: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وليس منّا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل النبي ﷺ يقول: «يا فلان» فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾. (أخرجه أبو داود في السنن ٤/٢٩١، ٢٩٠ برقم ٤٩٦٢ - كتاب الأدب، باب في الألقاب، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (السنن ٥/٣٨٨ برقم ٣٢٦٨)، وابن ماجه (السنن ٢/١٢٣١ برقم ٣٧٤١)، وأحمد (المسند ٤/٢٦٠) والطبري (التفسير سورة الحجرات ٢٦/١٣٢)، والحاكم (المستدرک ٢/٤٦٣). وصححه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود برقم ٤١٥١).

التفسير:

وبما أَنَّ السخرية من أسباب نشوب القتال، فقد نهى سبحانه المؤمنين ألا يهزأ قوم من قوم آخرين، عسى أن يكون المهزوء بهم خيراً من الهازئين، ولا يهزأ نساء من نساء، عسى أن تكون المهزوء بها خيراً من الهازئات، ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يُعَيَّر بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب. بشئ الصفة والاسم الفسوق، كالصفات المنهية عنها بعد أن صرتم من أهل الإيمان. ومن لم يتب من هذه الصفات القبيحة فأولئك البعداء عن الحق هم الذين ظلموا أنفسهم بالوقوع في هذه المحرمات.

١٢ - يُحَدِّدُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ سَوْءِ الظَّنِّ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يَجْتَنِبُوهُ؛ لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ الظَّنِّ يُوَقِعُ صَاحِبَهُ فِي الْإِثْمِ، وَنَهَى عَنِ الْبَحْثِ عَنِ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَتَتَبُّعِ عِيُوبِهِمْ، وَنَهَى عَنِ أَنْ يَذْكَرَ الْمُؤْمِنَ أَخَاهُ بِمَا يَكْرَهُ فِي غَيْبَتِهِ، وَنَفَّرَ مِنْهَا: أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - أَكَلَّ لَحْمَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! فَكَمَا تَكْرَهُونَ ذَلِكَ فَاتَّقُوا اللَّهَ بَطَاعَةَ أَمْرِهِ. إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، رَحِيمٌ بِهِمْ.

١٣- لما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يُصلحوا بين الطوائف المتقاتلة، ونهاهم عن السخرية، واللَّمزِ، والتنازير، والظنِّ السوء، والتجسُّس، والغيبة، ذكَّرتهم بأصل الأخوة في الأنساب التي أكدتها أخوة الإسلام.

فِيخاطب الله البشر: إِنَّا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - خلقناكم من ذَكَرٍ أَبٍ واحدٍ هو: آدم، وأنثى أُمٍّ واحدة هي: حواء، فلا تفاخَرَ بينكم في الأنساب، وجعلناكم بالتنازل شعوباً، ومن الشعوب قبائل متعدّدة؛ ليعرف بعضكم بعضاً. إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ لَهُ. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِعِبَادِهِ، خبيرٌ بأحوالهم، وتدبير أمورهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- قال ابن عاشور: «دَلَّ قوله: ﴿يَسَّ الْآيَاتِ الْمُنُورِ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ على أَنَّ مَا نُهِوا عَنْهُ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّهُ فَسُوقٌ يَعَاقِبُ عَلَيْهِ، وَلَا تَزِيلُهُ إِلَّا التَّوْبَةُ، فَوَقَعَ إِجْمَازٌ بِحَذْفِ جَمَلَتَيْنِ فِي الْكَلَامِ اكْتِفَاءً بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ التَّذْيِيلُ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنَّ اللَّمَزَ وَالتَّنَازِيرَ مَعْصِيَتَانِ؛ لِأَنَّهُمَا فَسُوقٌ». (التحرير والتنوير: ٢٦/٢٠٨).
- ٢- الأصل في الشريعة التساوي بين الرجال والنساء في الأحكام، إلا ما دَلَّ الدليل على اختصاصه، وإنما حَصَّ النساء بالنهي عن السخرية لكثرة وقوعه منهنَّ، ولتعظيم حرمة المرأة.
- ٣- جاء النهي عن اللمز بلمز النفس؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، وَمَنْ لَمَزَ غَيْرَهُ فَكَأَنَّمَا لَمَزَ نَفْسَهُ.
- ٤- النهي عن اجتناب كثير من الظن؛ لِأَنَّهُ بَعْضُهُ جَائِزٌ كَحُسْنِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ.
- ٥- يجوز ذِكْرُ الْآخَرِينَ بِعِيُوبِهِمْ لِلتَّحْذِيرِ أَوْ لِلنَّصِيحِ أَوْ لِلشُّكَايَةِ؛ فَالضَّرُورَةُ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا دُونَ أَنْ يَتِمَّادَى الشَّخْصُ.

- ٦- التحذير من الشائعات، وخطرها على المجتمعات، فهي سلاحٌ من أسلحة أعداء الإسلام يسعون من خلاله إلى زعزعة الأمن، وإثارة الفتن، وبَثِّ العداوة، والنيل من الشرفاء.
- ٧- المساواة بين الناس جميعهم في الخلق والأصل.
- ٨- التفاضل بين الناس عند الله تعالى بتقواهم.

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَنْعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

١٤-١٥ - قال بعض الأعراب من أهل البادية: صدقنا بالله ورسوله تصديقاً تاماً بالقول والعمل. قل لهم أيها الرسول: لم تبلغوا مرتبة الإيمان ولكن قولوا: أسلمنا، ولما يدخل الإيمان الكامل في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. إن الله غفور للتائبين من ذنوبهم، رحيم بهم. ثم أرشدهم إلى مرتبة الإيمان: إنما المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا بشريعته، ثم لم يشكوا وشاركوا بالجهاد بالمال والنفس في سبيل نصرته دين الله. أولئك أصحاب الدرجات العالية، هم الصادقون في إيمانهم.

١٦-١٧ - قل - أيها الرسول - هؤلاء الأعراب: أتخبرون الله بإيمانكم وإسلامكم، والله يعلم كل ما في السموات السبع والأرضين السبع؟ والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء، يمتنون عليك بإسلامهم ونصرتهم لك، قل لهم: لا تمتنوا عليّ بدخولكم الإسلام، بل الله يمتن عليكم أن هداكم إلى الإيمان به ورسوله، إن كنتم صادقين في إيمانكم.

١٨ - يخبر الله تعالى أنه يعلم غيب السموات السبع والأرضين السبع. والله بصير بكل ما تعملون من خير أو شر، وسيجازيكم على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الإيمان نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ كبرى من الله لعباده. والله تعالى غنيٌّ عن إيمان المؤمنين، فمن آمن فلنفسه.
- ٢ - قال الرازي: «وفيه تحريض على الإيمان الصادق، لأنَّ مَنْ أتى بفعلٍ من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطي عليه أجراً فقال: وإن تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص».

- ٣- قال النسفي: «أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، فقليل: قل لم تؤمنوا مع أدب حسن، فلم يقل كذبتهم تصریحاً، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: «لم تؤمنوا» عن أن يقال: «لا تقولوا آمنا»؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن القول بالإيمان».
- (مدارك التنزيل للنسفي ٤/١٦٨).
- ٤- قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ حسن أدب إذ لم يقل: لا تمنوا علي، بل لي المنة عليكم، حيث بينت لكم الطريق المستقيم. (التفسير الكبير للرازي ٢٨/٩١).
- ٥- في ختم السورة دعوة إلى إصلاح القلوب، وتجديد الإيمان، وإصلاح الأعمال؛ فالله تعالى مطلعٌ عليها.
- ٦- استهلَّت السورة الكريمة بصفتي السمع والعلم، وخُتِمَتْ بصفتي البصر والعلم. وهذا من التناسب بين المطلع والختام.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، وتسرية نفوسهم.
- ٢ - بيان أصول العقيدة: التوحيد والرسالة والبعث.
- ٣ - تعظيم القرآن الكريم، والدعوة لتصديقه والعمل به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾
 إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ
 كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

- ١-٣- ﴿ق﴾ تَقَدَّمَ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطَعَةِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي إِيرَادِهَا بَيَانَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ. وَقَسَمًا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ذِي الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ عَلَى كُلِّ كَلَامٍ، إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَإِنَّ الْبَعْثَ لَحَقٌّ. بَلْ عَجِبَ كَفَّارُ مَكَّةَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْ جَنْسِهِمْ فَاسْتَنْكَرُوا. وَقَالُوا: هَذَا شَيْءٌ يُعْجَبُ مِنْهُ! إِذَا مِتْنَا، وَتَفَتَّتْ عِظَامُنَا مَعَ التَّرَابِ نُبْعَثُ أَحْيَاءً؟ ذَلِكَ الْبَعْثُ بَعِيدُ الْوُقُوعِ لَا نُصَدِّقُهُ!
- ٤ - قَدْ عَلِمْنَا عَلِيمًا قَاطِعًا مَا تَنْقُصُهُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، وَتَأْكُلُهُ مِنْ لِحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ إِذَا مَاتُوا، وَعِنْدَنَا أَيْضًا كِتَابٌ حَافِظٌ لَذَلِكَ، وَلِكُلِّ مَا يَجْرِي فِي حَيَاتِهِمْ وَمَمَاتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ.
- ٥ - فَلَمْ يُصَدِّقُوا مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْحَقِّ، بَلْ كَذَّبُوا بِهِ حِينَ جَاءَهُمْ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَلْتَبِسٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وصف القرآن بالمجيد؛ لمجد منزلته، ولأنَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ نَالَ الْمَجْدَ وَالْعِزَّةَ فِي الدَّارَيْنِ.
- ٢ - قال قتادة: «معناه مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ مَرَجَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، وَأَلْبَسَ عَلَيْهِ دِينَهُ». وَقَالَ الْحَسَنُ: «مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْحَقَّ إِلَّا مَرَجَ أَمْرُهُمْ». (تفسير البغوي ٤/ ٢٧١).
- ٣ - حُجِّجُ الْكُفَّارِ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ حُجِّجٌ وَاهِيَةٌ.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْتَنَاهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنْ
السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا
لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّبْنَا بِالْأَوَّلِ بَلًا
مُرْفِي لَيْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٦-٨- أ- يُنَكِّرُ اللهُ تعالى على هؤلاء الكفار بالبعث: أفلم ينظروا نظراً تدبُّر إلى السماء الدنيا فوقهم كيف
رفعناها بلا عمد، وزينناها وما ترى لها من شقوق ولا عيوب، والأرض فرشناها ووسّعناها، وجعلنا فيها
جبالاً ثوابت تحفظها من الاضطراب، وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات بهجة للناظر من حسن ألوانه
وثماره؟ خلّقنا هذه الآيات الكونية العظيمة؛ تبصيراً منا للعباد، وتذكيراً لهم بكمال قدرتنا لكل عبدٍ مقبلٍ
على الله بالحُبِّ والخوف والرجاء.

٩-١١- ونزلنا من السحاب مطراً كثيراً كخير البركات، فأخرجنا به البساتين الناضرة، وحبوب
الزرع المحصود، وأشجار النخيل العالية ذات الثمار المترابطة بعضها فوق بعض. أنبتنا هذه الخيرات رزقاً
للعباد؛ ليتفجعوا، وأحيينا بهذا الماء المبارك الأرض الميتة الجذبة، فصارت ذات مروج خضراء. مثل هذا
الإحياء نُخرجكم أحياء من قبوركم.

١٢-١٥- يُهَدِّدُ اللهُ تعالى مُنْكَرِي البعث، فيذكر لهم الأمم التي كذّبت قبلهم، كقوم نوح وأصحاب
بئر الرّس، وقوم ثمود وعاد وفرعون وقوم لوط، وأصحاب الشجر الملتفّ في مدين من قوم شعيب، وقوم
تُبَّع الحميري. كلُّهم كذّبوا رسلهم فوق بهم العذاب، ثم أنكروا الله تعالى عليهم: أفَعَجَزْنَا في ابتداء الخلق
حتى نَعَجِزَ عن إعادتهم بعد الموت؟ لا يُعْجِزُنَا ذلك، بل هم في شكٍّ واضطراب من أمر البعث.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إثبات البعث بأدلة حسية مشاهدة.

٢ - وجود الإنسان دليل على إمكان وجوده في حياةٍ أخرى، فالذي خلقه قادرٌ على أن يعيده كما بدأه.

(السراج المنير ٤/ ٥٠).

- ٣ - لم يقيد في قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ العباد بالإناثة، وقيد في قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ لأنَّ التذكرة لا تكون إلا للمنيب، والرزق يعمُّ كلَّ أحد، غير أنَّ المنيب يأكل ذاكراً أو شاكراً للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخص بقيد.
- ٤ - يقول العلماء: تعمل النخلة كنوع من أنواع الروافع حيث يوجد بها قوة متمثلة في جذع النخلة، ومقاومة في الوريقات (السعف) وهي مطوية بصورة مائلة على محورها وعلى محور الورقة (السعفة)، ومحور ارتكاز متمثل في مجموع جذري وتدي متميز، هذا النوع يمكن من تكوين الجذور العرضية بسرعة، وانتشارها خاصة في التربة الرملية، وهذا الشكل يعطي النخلة قوة تثبيت عالية في التربة.
(معجزة النخيل بين العلم والقرآن: مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٥).
- ٥ - هلاك المكذِّبين تسلياً للنبي ﷺ، إذ كذَّبه قومه، وفيه دليل على البعث والجزاء.
- ٦ - ينبغي تأمُّل آيات الله في الكون، وما فيها من إتقان وإبداع.
- ٧ - ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.
- ٨ - ينظر: صورة النخل الباسقات، كما في الملحق.
- ٩ - ينظر: خريطة موقع الرس، كما في الملحق.
- ١٠ - ينظر: خريطة موقع قوم تبع، كما في الملحق.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَفَّى الصُّلُوفُ فَتًى ۚ وَإِذْ يُرَى الْوَجْهُ السُّكَرَى ۚ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٧﴾ وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۚ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ ۖ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

١٦-١٨ - وقسمًا لقد خلقنا الإنسان، ونعلم ما يتحدث به نفسه سرًا، ونحن - بعلمنا - أقرب إليه من العرق الذي في صفحة العنق المتصل بالقلب، حين يكتب الملكان الموكَّلان بالإنسان أعماله وأقواله، أحدهما قعيد عن يمينه؛ لكتابة الحسنات، والآخر قعيد عن شماله؛ لكتابة السيئات، ما يتكلم الإنسان من قول إلا ويسمعه مَلَكٌ يرقبه في القول والفعل، فهو متابع له لا يفارقه.

١٩-٢٢ - وحضرت هذا المكذَّب بآيات الله سَكْرَةُ الموت بالأمر الحقَّ بشدائدها وأهوالها. ذلك الأمر ذو الكرب الذي كنت منه تنفر وتهرب، ونفخ المَلَكُ في القرن نفخة البعث الثانية. ذلك الوقت الشديد بالأهوال هو يوم الوعيد الذي تَوَعَّد الله به الكفَّار، وجاءت كلُّ نفس معها مَلَكٌ يسوقها إلى المحشر، ومَلَكٌ آخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا. قسمًا لقد كنت - أيها الكافر - في غفلة من هذا المشهد الرهيب، فأزلنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعتك وبصرك في الدنيا، فبصرك اليوم قويًّا نافذ.

٢٣-٢٦ - وقال المَلَكُ الموكَّل به: هذا ما عندي من كتاب أعمالك حاضر مُهَيَّأ. ثمَّ يأمر الله الملكين السائق والشهيد: ألقيا في نار جهنم كلَّ كافر مبالغ في التكذيب، معاند للحقِّ، شديد المنع للخير من وصوله إلى مستحقه، يظلم الناس، يشكُّ في أمر الدين، الذي أشرك مع الله آلهة أخرى فعبدها، فألقياه في عذاب نار جهنم الشديد الألم.

٢٧-٣٠ - ويحاول التخلص من العذاب بذكر ضلال الشيطان له، فيردُّ عليه الشيطان: ربنا ما أضللتك بل هو كان ضالًّا معاندًا للحقِّ. فردَّ الله تعالى عليهم: لا تتخاصموا لديَّ اليوم، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، ما أُغَيِّرُ حكمي بعقابكم، ولست ظالمًا حتى أُعَذِّبَ بدون ذنب. واذكر - أيها الرسول - لقومك يوم القيامة يوم نقول لجهنم: هل امتلأت؟ فتجيب: هل من زيادة من الجنِّ والإنس؟

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١٦) إخبار مستقبلي بعلم الله المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو خالق الإنسان، حتى إنه يعلم سبحانه ما تحدّث به نفس الإنسان، فهو سبحانه أقرب إليه من العرق الذي في العنق المتصل بالقلب.

٢ - قال الدكتور محمد جميل الحبال: «حبل الوريد هو جذع الدماغ (Brain Stem). فعبرة (حبل الوريد) لا تعني بالضبط وعاءاً دموياً لأن الحبل وهو ما يكون غير مجوف (غير أنبوبي) ولا يمكن أن يسمى حبلًا إذا أصبح مجوفاً. ولقد ربط الله ﷻ في هذه الآية بين وسوسة النفس وبين قربه من حبل الوريد، والوسوسة تحصل في الدماغ. وإن الحبل الذي عن طريقه ترد المعلومات من وإلى الدماغ (ذهاباً وإياباً) هو تبيان لتوريد المعلومات».

٣ - الله تعالى خالق الإنسان، وأعلم بما في نفسه، وأقرب إليه.

٤ - مراقبة الله تعالى، فالملك الموكّلان يُسجّلان كل قول وفعل.

٥ - استحضار مشاهد القيامة، ففيها الرهبة والروعَة، وفيها العظة والعبرة.

٦ - تنكشف الحقائق وتنجلي بالموت، فيرى الإنسان ما لم يكن يراه.

﴿ وَأَزَلَمْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٣١-٣٥ - وَقُرْبَتِ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ مكاناً غير بعيد، يُقال لهم: هذا هو الثواب الذي وَعِدْتُمْ به على السنة الرسل، لكلّ تواب إلى الله مطيع له، حافظ لعهد الله، مَنْ خشي الله في سرّه، حيث لا يراه أحد إلا الله ﷻ، وَلَقِيَهُ يوم القيامة بقلب سليم تائب من الذنوب، ويقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كلّ شرّ. ذلك اليوم العظيم هو يوم الخلود في الجنة أبداً، لهم فيها ما يريدون، ولدينا زيادة نعيم، أعظمه النظر إلى وجه الله الكريم.

٣٦-٣٧- ودمرنا قبل مشركي مكة أمماً كثيرة كقوم عاد وثمود، كانوا أشدّ منهم قوّةً وتسليطاً، فطوّفوا في البلاد، وعمّروا وخربوا فيها، فهل من منجى من عقاب الله؟ إنّ في ذلك الدمار للأمم السابقة لموعظة لمن كان له قلب حيّ يعقل ويتدبّر، أو أصغى السمع وهو حاضر القلب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الترغيب في الجنة ونعيمها المقيم، والحض على العمل لها.
- ٢- سعة فضل الله تعالى، وواسع كرمه بعباده المنعمين في الجنان.
- ٣- فضل الأوبة - أي الرجوع إلى الله تعالى - وحفظ النفس، وحفظ الدين. وصيغة المبالغة ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ تدل على تمكّن الصفة.
- ٤- وعيد المشركين وتذكيرهم بحال الهالكين من المكذبين.
- ٥- قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماحه وألّق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثير بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب». (الفوائد ٣/١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٣٨- وقسماً لقد خلقنا السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما من المخلوقات في ستة أيام، وما أصابنا من ذلك الخلق أي تعب.

٣٩-٤٢ - فاصِرٍ - أيها الرسول - على ما يقوله الكفار من الشرك والتكذيب، وَسَخَّ بِحَمْدِ رَبِّكَ، وَصَلَّ لَهُ صَلَاةَ الصَّبْحِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةَ الْعَصْرِ قَبْلَ الْغُرُوبِ - وهذان الفرضان كانا قبل الإسراء والمعراج - وَصَلَّ مِنَ اللَّيْلِ تَهَجُّدًا، وَسَبَّحَهُ، وَأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ. واستمع يوم ينادي الملك بالنفخة للبعث من موضع قريب، يوم تسمع الخلائق هذه الصيحة بالحق الذي لا شك فيه. في ذلك اليوم العظيم يخرج الناس من قبورهم أحياء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمره أن يُسَبِّحَ في أدبار الصلوات كلها، يعني قوله: ﴿وَأَذْبَرَ الشُّجُورَ﴾». (صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة ق، باب ﴿وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ٨/٤٦٢-٤٦٣ برقم ٤٨٥٢).
٤٣-٤٤ - إِنَّا - بما لنا من العظمة الشاملة والقدرة الكاملة - نُحْيِي الْمَوْتَى، وَنُمِيتُ الْأَحْيَاءَ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ، يَوْمَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنِ الْمَوْتَى الْمَقْبُورِينَ بِهَا، فَيُخْرِجُونَ مَسْرِعِينَ إِلَى الدَّاعِي. ذلك الإخراج العظيم، وبعثهم وجمعهم سهلٌ علينا.

٤٥ - يُهْدِدُ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبَبِ افْتِرَائِهِمْ: نحن أعلم بما يقولون من الكذب على الله، وما أنت - أيها الرسول - بجبار تُكرههم على الإسلام، فذكر بهذا القرآن من يخاف وعيدي.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الردُّ على ضلال اليهود، وزعمهم أن الله لما خلق السموات والأرض استراح يوم السبت.
٢ - الدعوة إلى الصبر والتأني، والتزوُّد بالتسبيح والتحميد في الأوقات الفاضلة، فهي خير زاد على هذه الدعوة.

٣ - تسلية النبي ﷺ، وتسرية فؤاده من اهتمامه بدعوتهم، وحُزْنُهُ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ.
٤ - العناية بالمؤمنين المتقين وتذكيرهم، فهم أرض خصبة، وتربة طيبة تُجْدِي فِيهِمُ النَّصِيحَةَ، وَتَنْفَعُ الْمَوْعِظَةَ.

٥ - التنويه بشأن القرآن الكريم وعظيم قدره في مفتح السورة وخاتمتها، فهو قرآن عظيم الشأن والقدر وإنما يتذكر به ويتعظ من خوف قائله ووعيده سبحانه ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ وَمَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿﴾.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير وقوع البعث.
- ٢ - إقامة البراهين في الآيات الكونية على وحدانية الخالق سبحانه.
- ٣ - الاعتبار من دمار الأمم المكذبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُوا ۝٦ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَعَلَى قَوْلٍ مُّخْلِيفٍ ۝٨ يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ ۝٩ قِيلَ الْخَرَّصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَقٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

التفسير:

١-٦- يقسيمُ الله تعالى بأربع مخلوقات عظيمة، فبدأ قسّمه بالرياح التي تهبُّ مُحمّلةً بالخيرات، أو الفاجعات بأمر الله تعالى، فالسُّحبِ الحاملات بالأقطار والبرد، فالسُّفنِ التي تجوب البحار بسهولة، فالملائكة التي تُقسّمُ أمر الله في خلقه. إنّ الذي تُوعَدون به - أيها العباد - من الحشرِ والنَّشْرِ لَوْعَدٌ صدق، وإنَّ الجزء على العمل لكائن مُحقق.

عن عبد الله بن الكوّاء الأعور من بني بكر بن وائل قال: يا أمير المؤمنين، ما ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ﴾؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾؟ قال: السحاب، قال: فما ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾؟ قال: السفن، قال: فما ﴿ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ﴾؟ قال: الملائكة، ولا تُعدُّ لمثل هذا، ولا تسألني عن مثل هذا، قال: فما ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾؟ قال: ذات الخلق الحسن. (المختارة ١٢٢/٢-١٢٦ برقم ٤٩٤، وأخرجه الحاكم من طريق أبي الطفيل قال: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قام على المنبر فقال: سلوني قبل ألا تسألوني، ولا تسألوا بعدي مثلي فقام ابن الكوّاء... فذكر مختصراً... وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٦٦-٤٦٧)، وأخرجه المقدسي من طريق أبي الطفيل به (المختارة ١٧٦/٢ برقم ٥٥٦)، وصححه الحافظ ابن حجر (تفليق التعليق ١٤٩/٤).

٧-٩- وقسماً بالسماء ذات الزينة والخلق الحسن، إنكم - أيها المشركون - لفي قول متناقض في القرآن وفي رسول الله ﷺ، يَصْرِفُ عن الإيمان بالقرآن والرسول ﷺ مَنْ صرفه الشيطان عن الإيمان بهما. ١٠-١٤- لُعِنَ الكَذَّابُونَ على الله الذين هم في أعماق الضلال، غارقون في الغفلة والحيرة، إذ يسألون بسخرية: متى يوم الحساب؟ يوم الحساب يدخلون نارَ جهنم، ويُحْرَقُونَ بها، ويُقال لهم توبيخاً: ذُوقُوا عذاب النار الذي كنتم به تستعجلون هازئين في الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- ينظر: مخطط جريان الفلك، كما في الملحق.
- ٢- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- ٣- القادر على خلق أمور بديعة قادر على تحقيق البعث الموعود.
- ٤- أثبت العلماء وجود نسيج محكم في السماء، فأطلقوا عليه مصطلح (النسيج الكوني)، وكتبوا عنه فقالوا: (كيف حُبِكَت الخيوط في النسيج الكوني)، واستخدموا الكلمة Weave باللغة الإنكليزية، وهي تماماً تعني حبك. (<http://quran-m.com/container2.php?fun=artview&id=969>). ينظر: صورة اتقان النجوم في السماء، كما في الملحق.
- ٥- الآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوبِ﴾ إحدى معجزات القرآن العلمية، التي تشير إلى تعدد مجاميع الكواكب، وإلى الجاذبية.
- ٦- إن أصل كلمة الفتن هو إذابة الجوهر؛ لِيُظْهَرَ غِشُّهُ، ثم استعمل في التعذيب والإحراق.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآءَ أَنْهَامِ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنْ
 آتِلٍ مَّا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَأْتَسَحَرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
 لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ
 لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير:

١٥-١٩- إنَّ الذين يخافون الله بالاستجابة لأحكامه في جنات خضراء وعيون ماء، حائزين ما رزقهم الله من مقام كريم. إنَّهم كانوا قبل في الدنيا مُحْسِنِينَ في أعمالهم وأقوالهم، ومن ذلك أنَّهم كانوا لا ينامون إلا قليلاً من الليل، ويستغفرون الله قبل الفجر، وينفقون من أموالهم حَقَّ المحتاجين الذين يسألون والذين يتعففون.

٢٠-٢٢- وفي الأرض مخلوقات هي دلائل واضحة على قدرة خالقها للموقنين بوحدانية الله، وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خَلْقِكُمْ إلى منتهاه، أفلا تُبْصِرُونَ قدرة الله في خَلْقِكُمْ؟ وفي السماء أسباب رزقكم وما تُوعَدُونَهُ من الرزق والجزاء في الدنيا والآخرة.

٢٣- وقسماً بِرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إنَّ ما تُوعَدُونَ به من الرزق والبعث لَحَقٌّ واقعٌ، مثل نُطْقِكُمْ الذي لا تشكُّون فيه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة.
- ٢- الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا فإنَّ الله تعالى سيحسن لهم الثواب.
- ٣- استحباب قيام الليل، وذمُّ نومه كله.
- ٤- أثبتت دراسات الأرض: أنَّ الأرض مبنية من عدة نُطْقٍ محددة حول كرة مصمتة من الحديد والنيكل، تعرف باسم لُبِّ الأرض الصلب (الداخلي)، ولهذا اللب الصلب - كما لكل نطاق من نُطْقِ الأرض - دوره في جعل هذا الكوكب صالحاً للعمران بالحياة الأرضية في جميع صورها. وأنَّ للأرض مجالاً مغناطيسياً ثنائي القطبية، له صلة وثيقة بلُبِّ الأرض الصلب، وحركة إبطاره السائل من حوله، ويتولد المجال المغناطيسي للأرض من حركة المكونات فيها وفيه. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٧٩-٩٨).

- ٥ - دعوة الله ﷻ عباده إلى التأمل والتفكير في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات العظام، فكُلُّهَا عِبْرَةٌ وآيات، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته، وعظيم رحمته بهم.
- ٦ - قال الدكتور محمد جميل الحبال: «من أهم هذه الآيات الباهرات في الأنفس (الإنسان) التي تَوَصَّل إليها العلم مؤخراً، ولا يزال يعمل لإكمال الكشف عن حقائقها هي: البصمة الوراثية، أو الخارطة الجينية (Genetic Map) وما يسمى أيضاً الجينوم البشري (Human Genome) التي هي أساس تكوينه، وتُشكِّل جميع صفاته وخواصه ظاهراً وباطناً! وتميِّزه ليس فقط عن جميع المخلوقات، وإنما أيضاً عن كل فرد من أفراد البشر، حيث إنَّه لكل واحد منهم خارطته الجينية الخاصة به!». «
- ٧ - قال العلماء: يُفْهَمُ رزق السماء في الأطر التالية:
- أ- في إطار فهم السماء بنطاق التغيرات الجوية، فإنَّ رزق السماء هو المطر الذي نرتوي به، ونُزوي زرعنا منه.
- ب- في إطار تفسير السماء بالسماء الدنيا، فإنَّ رزق السماء هو كل صور المادة والطاقة المتولَّدة في داخل النجوم، من مثل شمسنا التي تصل إلى الأرض بصور متعددة.
- (<http://www.islamicmedicine.org/zaghlool/20.htm>)
- ٨ - البشري بضم الهمزة من الرزاق ﷻ، وفي السماء رزق العباد، فلا يُطلب إلا من الله تعالى.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَافَةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاخْطُبْكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير:

٢٤-٢٥ - هل أتاك - أيها الرسول - حديث ضيف إبراهيم من الملائكة الكرام؟ حين دخلوا عليه في بيته فحيّوه بتحية الإسلام، فردّ عليهم التحية قائلاً: سلام عليكم، أنتم قوم غرباء لا نعرفكم.
٢٦-٣٠ - فأنسل إلى أهله خطفاً، فأخذ عجلاً سميناً فشواه، ثمّ قدّمه متلطّفاً في دعوتهم إلى الطعام قائلاً: ألا تأكلون؟ فلمّا امتنعوا عن الأكل أحسّ في نفسه الخوف منهم، فعرفوا ذلك، وقالوا: لا تخف منّا، إنّنا رُسلُ الله. وبشّروه بولد يكون عالماً، فأقبلت زوجته إبراهيم نحوهم تصيح متعجبة حتى لطمت وجهها وقالت: كيف ألدُّ وأنا عجوز عقيم؟ فأجابت الملائكة: هكذا قال ربُّك كما أخبرنا. إنّهُ هو الحكيم في تدبير شؤون عباده، العليم بمصالحهم.

٣١-٣٧ - قال إبراهيم للملائكة: فما شأنُ مهمّتكم أيُّها الملائكة المرسلون؟ فأجابوا: إنّنا أرسلنا الله إلى قوم اقترفوا جرائم كبيرة؛ لنُدَمِّرَهم بحجارة من طين مُتَحَجَّرٍ، مُعَلِّمَةٍ على المسرفين، بجريمة الفاحشة القبيحة، فأخرجنا من كان في البلدة من المؤمنين بنبي الله لوط عليه السلام، فما وجدنا فيها غير بيت لوط من المسلمين، فدَمَرناها، وتركنا فيها آثار الدمار؛ موعظةً للذين يخافون العذاب الموعود.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير نبوة محمد ﷺ.
- ٢ - في ذِكْرِ الله تعالى لقصص الأنبياء السابقين تسليّة للنبي ﷺ وتذكيره، فهم أسوة حسنة له.
- ٣ - مشروعية البدء في السلام، ووجوب الردّ عليه.
- ٤ - من أدب المضيف أن يبادر بالضيافة.
- ٥ - بيان أنّ من إكرام الضيف أن يُقدِّم له أكثر ممّا يأكل، وألا يُوضَعَ الطعام بموضع ويُدعى الضيف إليه.

- ٦- جواز تشكُّل الملائكة بصورة رجال من البشر.
- ٧- الخوف الفطري عند وجود أسبابه لا يقدح في العقيدة، ولا يُعدُّ شركاً.
- ٨- حَصَّ اللهُ تعالى في قوله: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ صفة العلم؛ لأنَّها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل، لا الصورة الجميلة والقوة، كما يعتقد بعضهم.
- ٩- تقرير حقيقة علمية وهي: أنَّ كل مؤمن صادق الإيمان مُسلمٌ، وليس كل مسلم مؤمناً، حتى يُحسن إسلامه وفق أركان الإيمان الستة.
- ١٠- تشنيع جريمة اللواط، وهو سبب من أسباب هلاك الأمم السابقة.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُمْ وَجُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مِلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير:

- ٣٨-٤٠- وجعلنا في قصة موسى ﷺ موعظة حين أرسلناه إلى فرعون بالحجج الدامغة، والمعجزات الساطعة، فتكبر فرعون مغتراً بقوته، وأشاع عن موسى بأنه ساحر مُحترف أو مجنون مخرف، فأخذنا فرعون وجنوده إلى البحر فألقيناهم، وأغرقناهم فيه، وهو مُقترف ما يُلام عليه من الكبر والكفر.
- ٤١-٤٢- وموعظة ثالثة في قصة عاد وتكذيبهم لنبِيِّهم هود ﷺ، حين أرسلنا عليهم الريح العاتية التي تُدمر كلَّ شيء مرَّت عليه، فما تركت شيئاً إلا جعلته هالكا مُتفتتاً.
- ٤٣-٤٥- وموعظة رابعة في قصة قوم ثمود، وتكذيبهم بنبِيِّهم صالح ﷺ، حين أُنذروهم بأن يتمتعوا بالحياة إلى انتهاء آجالهم، فعصوا أمر الله، وعقروا الناقة، فأخذتهم صاعقة العذاب المُدمرة وهم ينظرون إليها، فما استطاعوا أن يفلتوا من العقاب، وما كانوا مُنتصرين لأنفسهم.
- ٤٦- وأهلكنا قوم نوح ﷺ من قبل هؤلاء فأغرقناهم. إنَّهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تأكيد الله ﷻ عِظَمَ معجزات موسى ﷺ لبني إسرائيل.
- ٢ - الدلالة على عِظَمِ شأن القدرة الربانية، ونهاية فرعون وقومه.
- ٣ - اتهام المبطلين لأهل الحق دَفْعاً للحق، ورَفْضاً له، يكاد يكون سُنَّةَ بشرية في كل زمان ومكان.
- ٤ - قوة الله تعالى فوق كل قوة؛ إذ كُلُّ قوة في الأرض هو خالقها.
- ٥ - وجوبُ أخذ العظة والعبرة من قصص الأقسام السابقة.
- ٦ - من عوامل الهلاك العتوُّ عن أمر الله، والخروج عن طاعته وطاعة رسوله.

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُودُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾ فَنُؤَلِّهِمْ هُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

التفسير:

- ٤٧-٤٩ - يُخبر الله تعالى عن قدرته العظيمة ونعمه الكريمة: والسماء بنيناها بقوة وقدرة عظيمة. وإنا لمُوسِعُونَ لأرجائها، والأرض جعلناها فراشاً للخلق، فَنِعْمَ الخالقون نحن، وخالقنا من كل جنس من الأجناس صنفين مختلفين؛ لتذكروا قدرة الله وعظمته في خلقه.
- ٥٠-٥١ - قل لهم أيها الرسول: فالجئوا - أيها العباد - إلى الله تعالى بالعبادة والصلاة. إنني لكم منه نذير بكل بيان ووضوح، ولا تجعلوا مع الله معبوداً آخر.
- ٥٢-٥٣ - مثل ما كذب كفار مكة رسولهم محمداً ﷺ كذبت الأمم السابقة، فلم يأت رسول إلا واتهموه بالسحر أو الجنون، فهل أوصى أولهم آخرهم بالكذب؟ لم يوص بعضهم بعضاً، بل حملهم الطغيان والتكبر والإعراض عن اتباع الحق.

٥٤-٥٥- فأعرض عنهم أيها الرسول، فلا لومَ عليك ولا عتاب، وواظبْ على الموعظة بالقرآن، فإنَّ الموعظة ينتفع بها المُصدِّقون بالله تعالى.

٥٦-٥٨- وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدوني وحدي، ما أريد منهم من رزق، فأنا الغنيُّ، وما أريد أن يُطعموني، فأنا الرزاق للخلق أجمعين، ذو القوَّة والقدرة، الشديد.

٥٩-٦٠- يَتَوَعَّدُ اللهُ تعالى الكفَّارَ: فإنَّ للذين ظلموا أنفسهم بالكفر نصيباً من العقاب، مثل نصيب أصحابهم الذين سبقوهم بالكفر، فلا يستعجلون العذاب، فإنَّه واقع بهم قطعاً، فويل للذين كذَّبوا بالله من يوم القيامة الذي وعدهم بالعذاب فيه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تذكير الله ﷻ ببعض ما امتنَّ به على عباده من النعم، ممَّا يستوجب عليهم عبادته وحده.
- ٢- تقرير التوحيد والبعث بمظاهر القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء، ومظاهر العلم والحكمة المتجلية في كل شيء.
- ٣- ظاهرة الزوجية في الكون في الذرَّة انبهر لها العقل، وهي ممَّا سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. فدلَّ هذا على أن القرآن وحي الله، وأنَّ مَنْ أُوحي إليه هو محمد بن عبد الله ﷺ.
- ٤- تأكيد قاعدة الزوجية المطلقة في خلق كل شيء من الأحياء والجمادات ومن أمثلة ذلك:
 - أ- الزوجية في الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات.
 - ب- الزوجية في الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية.
 - ج- الزوجية في النطفة الذكرية التي قد تحمل صبغتي الذكر أو صبغتي الأنثى.
 - د- الزوجية في الصبغيات في نواة الخلية الحية.
 - هـ- الزوجية في حاملات الوراثة (المورثات أو الجينات) على كل صبغتي من الصبغيات.
 - و- الزوجية في بناء الحمض النووي.
 - ز- الزوجية في الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة، وإلكتروناتها التي تحمل شحنة سالبة.
 - ح- الزوجية في الجسيمات الأولية، أي في الوجود والعدم. (مقالات الدكتور زغلول النجار في الأهرام، ص ٦١٥).
- ٥- ثبت علمياً أنَّ دورات تكوُّن القارات، وتبادلها مع المحيطات، ودورات البناء والهدم على سطح القارات تتكون من السهول الخصبة، والتربة الغنية، والصحور الرسوبية المختلفة التي تحوي في أحشائها الكثير من الخيرات الأرضية من مثل النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والمياه تحت السطحية، وركازات

العديد من المعادن الاقتصادية التي يمكن أن تتكون أثناء عمليات الترسيب أو بواسطتها، ولولا ذلك كله ما أنبتت الأرض، ولا كانت صالحة لل عمران! (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٠٣-٣١٨).

٦- أثبتت الأرصاد الفلكية حقيقة تَوْشُّعِ الكون، وتباعدِ مجرَّاته عنا، وتباعدِ بعضها عن بعض بمعدَّلات تقترِبُ أحياناً من سرعة الضوء (المقدرة بنحو ثلاثمئة ألف كيل في الثانية)، وقد أيدت كل من المعادلات الرياضية وقوانين الفيزياء النظرية استنتاجات الفلكيين في ذلك. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ١١١-١٢٠). وينظر: صور توضيحية تمثل تمدُّد الكون، وابتعاد المجرَّات عن بعضها البعض، كما في الملحق.

٧- الحث على الفرار إلى رحمة الله من عذاب الله، وذلك بإخلاص العبادة له وحده دون سواه.

٨- بيان إنكار الله ﷻ اتفاق الكفار على تكذيبهم لرسولهم بوصفهم بالسحر أو الجنون، والتعجب من حالهم.

٩- الحث على التذكير والموعظة؛ لأنَّه يزيد المؤمن بصيرة وقوة.

١٠- بيان الحكمة من خلق الإنس والجن.

١١- تقديم ذِكْرِ الجن على الإنس في الآيات، وذلك لتَقَدُّمِ خَلْقِهِمْ على خَلْقِ الإنس في الوجود.

١٢- إثبات صفة الرزق والقدرة وشدة القوة لله ﷻ.

١٣- التحذير من استعجال العذاب، والاعتبار بمن سبق من الأقوام السابقة.

١٤- التهديد والوعيد للكفار من عذاب يوم القيامة.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١- تقرير البعث والحساب.
- ٢- الرد على شبهات المشركين حول التوحيد والرسالة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿ فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ٣ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ ﴾
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَورًا ٩ ﴾ وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سِيرًا ١٠ ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ
جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ١٤ ﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ﴿
أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ ﴾

التفسير:

١٠-١ - يُقْسِمُ اللهُ تعالى بستة أشياء عظيمة: بجبل الطور في صحراء سيناء، وبالقرآن المكتوب على جلد رقيق، وبالبيت المعمور بالملائكة التي تطوف حوله في السماء السابعة، وبالسقف المرفوع وهو السماء الدنيا، وبالبحر المسجور الحافل بالمياه. إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ - أيها الرسول - بالكفار لواقِع، ليس له دافع يدفعه عنهم. في ذلك اليوم الرهيب تتحرك السماء باضطراب، وتُنسَفُ الجبال نُسْفًا.

عن علي عليه السلام قال: ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ بيت في السماء بحيال البيت يقال له: «الضراح» حُرْمَتُهُ في السماء كحرمة هذا في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه. (إنحاف الخيرة: كتاب التفسير، سورة الطور، برقم ٢٩٥. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٦٨). وأخرجه الفاكهي في تاريخ مكة بنحوه من حديث عبد الله بن عمرو موقوفاً وصححه إسناده الحافظ ابن حجر (الفتح ٦/٣٠٩).

١١-١٤ - يَتَوَعَّدُ اللهُ الكفارَ، وَيَهْدِدُهُمْ بالويل في ذلك اليوم للمُكذِّبِينَ بالله ورسله، الذين هم منغمسون في اللهو والباطل، يوم يُساقون إلى نار جهنم سَوْقًا بِالذَّفْعِ وَالضَّرْبِ وَالسَّحْبِ، ويُقال لهم: هذه نار جهنم التي كنتم بها تَسْحَرُونَ، وَلَا تُصَدِّقُونَ بها.

١٥-١٦ - وَيُوبِّخُونَ فِيهَا: أفسحراً ما تُشاهدونه، أم أنتم عُثمِّي لا تُبصرون؟ ذوقوا حرارة هذه النار الشديدة، فاصبروا على آلامها، أو لا تصبروا عليها، فلن تُخرجوا منها، فالصبر والجزع سواء، إنَّما تنالون جزاء أعمالكم السيئة في الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

١ - القسم بجبل الطور دلالة لفضله على الجبال.

٢ - لله أن يُقسِمَ بما شاء من مخلوقاته. أما العبد فلا يجوز أن يُقسِمَ بغير الله.

٣ - تقرير البعث والجزاء.

٤ - ثبت علمياً أنَّ كل محيطات الأرض بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي، وأعداداً من بحارها مثل البحر الأحمر، قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تُمزِّق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساساً في قيعان البحار والمحيطات. (آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار الصفحات ١٨٣-١٩٩).

٥ - بيان بعض أهوال يوم القيامة للموعظة والترهيب.

٦ - تقرير قاعدة: الجزاء من جنس العمل.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْمُرٍ ﴿١٧﴾ فَكَاهِنِينَ يَمَاءً انْتَهَمَ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا آَلَتْهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَمِهِمْ وَلَحْمِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعْلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤٌ مَّكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

١٧-٢٠ - يُبَشِّرُ اللهُ تعالى المتقين الذين يخافون الله، ويُطيعونه بما أعدَّ لهم من المقام الكريم في جنَّات النعيم، مُتَّعَمِينَ بما أعطاهم ربُّهم من الخير العظيم، وَنَجَّاهُمْ من عذاب نار الجحيم، ويُقال لهم: كُلُوا واشربوا ما تشتهون من الأكل الطيب والشراب السائغ؛ جزاء ما كنتم تعملون بطاعة الله الكريم. مُتَّكِنِينَ على سرر مُتَّقَابِلَةٍ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بنساء جميلات حسان واسعات العيون.

٢١-٢٨- والذين آمنوا بالله وأتبعتهم ذريتهم في الإيمان، ألحقنا بهم ذريتهم في درجاتهم في الجنة، وما نقصناهم شيئاً من ثواب عملهم. وكلُّ عبد مرهون بعمله، لا يُؤاخذ بذنب غيره، وأمددناهم بأنواع الفاكهة واللحوم التي يشتهونها، يتجاذبون في الجنة كأس خمر لا تُؤدِّي بشاربها إلى هذر القول، ولا يلحقهم منها إثم، ويطوف عليهم ولدانٌ لخدمتهم كأئمتهم اللؤلؤ المصون في أصدافه في جواهرهم. وأقبل أهل الجنة يتسامرون يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم في الدنيا، قالوا: إننا كنا بين أهلنا خائفين من ربنا، فأكرمنا الله بالهداية والمغفرة، وحمانا من عذاب نار جهنم وحرها المحرق المؤثر في الجسم. إننا كنا من قبل نعبده وحده، ونتضرع إليه. إنه هو اللطيف بعباده، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- العناية بأسلوب الترغيب والترهيب بذكر حال المؤمنين بعد حال الكافرين.
- ٢- بيان جزاء المتقين وما أعد لهم من النعيم في الجنة.
- ٣- بيان فضل الله على أهل الإيمان والتقوى.
- ٤- مشروعية الدعاء بكلمة هنيئاً لمن أكل أو شرب؛ أسوة بأهل الجنة.
- ٥- البشارة من الله لعباده المؤمنين بالحقاق ذرياتهم الذين أتبعوهم في الجنة.
- ٦- بيان أن خمر الآخرة مختلف عن خمر الدنيا، وإن تشابهت الأسماء.
- ٧- الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة وليست ثمناً لها؛ لأن الجنة أغلى من عمل الإنسان، وإنها العمل الصالح يُزكِّي النفس، فيؤهل صاحبه لدخول الجنة.
- ٨- تقرير قاعدة أن المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه، لا يُحرَّره إلا الله ﷻ، فمن استطاع أن يحرر نفسه فليفعل، وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان.

﴿ فَذَكَرْنَاكَ أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنِ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٣١﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رِبِّبَ الْمُنُونِ ﴿٣٢﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٣٣﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٥﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ لَمْ يَسْمَعُوا فِيهِ فَلَإِنَّ مَسْمُوعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٤﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٢٩- فواظب - أيها الرسول - على تذكير العباد بالقرآن، فما أنت بفضل الله عليك بالرسالة والأمانة بكاهن يرجم بالغيب كذباً، ولا بمجنون، كما يفترى المشركون.

٣٠-٣١- يُنكر الله تعالى على المشركين خمس عشرة مرة في الآيات التالية الأربع عشرة: أم يقول المشركون هو شاعر نتظر به نزول الموت؟ قل لهم أيها الرسول: انتظروا موتي، فإنني منتظر هلاككم.

٣٢-٣٣- أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب؟ أم هم قوم معتدون متكبرون؟ أم يقولون: إن محمداً اختلق القرآن؟ ليس الأمر كما يزعمون، بل لا يُصدّقون بالقرآن، فليأتوا بكلام مثل القرآن، إن كانوا صادقين في زعمهم.

٣٤-٣٥- أم خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ رَبِّ وَلَا خَالِقٍ؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ أم أبدعوا خلق السموات السبع والأرضين السبع؟ لا بل هم لا يُصدّقون قطعاً.

٣٦- أم يملكون خزائن رزق ربك للعباد؟ أم هم الأرباب المتصرّفون في المخلوقات؟

٣٧-٣٨- أم لهم مصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي، فيعلّمون أنّهم على حق؟ فليأت من يزعم ذلك بحجة واضحة على صدق دعواه.

٣٩- أم لله البنات ولكم البنون كما تزعمون؟

٤٠-٤١- أم تطلب - أيها الرسول - منهم أجراً على تبليغ الرسالة، فهم بسبب ذلك الغرم المزم لهم مجهدون؟

٤٢-٤٣- أم عندهم علم الغيب، فهم قد اطلّغوا على ما لم يطلّغ عليه الرسول ﷺ فكذبوه، فهم يكتبون ذلك، ويبلّغونه للناس؟

٤٢ - أم يبتغون مكرًا بالنبي ﷺ والمؤمنين؟ فالكفار هم الذين يقع عليهم عاقبة مكرهم.

٤٣ - أم لهم إله يعبدونه من دون الله؟ تنزيهاً لله، وتعظيماً له عما يُشركون به.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وجوب التذكير والوعظ والإرشاد على أهل العلم بالكتاب والسنة.
- ٢ - تحريم الكهانة؛ لأنها من أعمال الشياطين.
- ٣ - إبطال الله تعالى لمزاعم المشركين، ودخض حُججهم، والردُّ عليها.
- ٤ - ذمُّ الطغيان فإنه منبع كل شرٍّ، ومصدر كل فتنة وضلال.
- ٥ - حرمة الكذب مطلقاً، وعلى الله ورسوله بخاصة؛ لما ينشأ عنه من فساد الدين والدنيا.
- ٦ - التنقل بكلمة ﴿أَمْ﴾ في خمس عشرة آية من المعجزات القرآنية. (روح المعاني ٢٧-٢٨/٣٩).

﴿وَإِنْ رَأَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤٤-٤٧ - يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى عِنَادَ الْمُشْرِكِينَ وَإِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ: إِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا قِطْعًا مِنَ السَّمَاءِ لِعِقَابِهِمْ قَالُوا: هُوَ سَحَابٌ مَرَاكِمٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. فَاتْرُكْهُمْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - فِي ضَلَالِهِمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ مِنْ أَهْوَالِهِ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَنْفَعُهُمْ مَكْرُهُمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا أَحَدٌ يَمْنَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرِهِمْ عَذَابًا يَذُوقُونَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ بِمَصَائِبَ تَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ الْعَذَابَ.

٤٨-٤٩ - وَأَصْبِرْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - عَلَى قَضَاءِ رَبِّكَ، فَإِنَّكَ بِمَرَأَىٰ مِنَّا وَحِفْظِنَا لَكَ، وَوَاظِبٌ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ لِرَبِّكَ حِينَ تَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَحِينَ تَقُومُ مِنْ نَوْمِكَ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ، وَفِي صَلَاةِ الصُّبْحِ حِينَ تَغِيبُ النُّجُومُ عَنِ الرَّؤْيَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان عناد كفار قريش ومكابرتهم في الحق.
- ٢ - تسلية الرسول ﷺ، وهي للدعاة بعده أيضاً.
- ٣ - تقرير سوء عاقبة الظلم في الدنيا قبل الآخرة.
- ٤ - وجوب الصبر على قضاء الربّ، وعدم الجزع.
- ٥ - مشروعية التسبيح عند القيام من النوم بنحو: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، والحمد لله الذي أحياي بعدما أماتني، وإليه النشور.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير وقوع الوحي.
- ٢ - تقرير توحيد العبودية والربوبية.
- ٣ - تقرير وقوع البعث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَاضِلٌ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾
 عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ
 أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾

التفسير:

١-١١ - يُقَسِّمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالنَّجْمِ إِذَا سَقَطَ وَذَهَبَ ضَوْؤُهُ، مَا حَادَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنِ الْحَقِّ، وَمَا تَأَثَّرَ بِغَوَايَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ إِمَامَ الْهُدَايَةِ، وَمَا يَتَكَلَّمُ عَنِ هَوَىٰ، إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ يُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ، عَلَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ مَلَكٌ شَدِيدُ الْأَسْبَابِ، وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذُو قُوَّةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ، فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ صَوْرَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَهُوَ بِأُفُقِ الشَّمْسِ عِنْدَ مَطْلَعِهَا، ثُمَّ قَرَّبَ جَبْرِيلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِتَبْلِيغِهِ بِالْوَحْيِ، فَكَانَ فِي قُرْبِهِ مِنْهُ قَدْرَ قَوْسَيْنِ - أَيِ ذِرَاعَيْنِ تَقْرِيبًا - أَوْ أَقْرَبَ مِنْ قَوْسَيْنِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا أَوْحَىٰ بِوَأَسْطَةِ جَبْرِيلَ. مَا جَحَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا رَأَاهُ بِصَرِّهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير النبوة لمحمد ﷺ وإثباتها بما لا مجال للشك والجدال فيه.
- ٢ - إضافة الضمير إلى كفار قريش في قوله تعالى: ﴿مَاضِلٌ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى﴾ ﷻ إعلاما بوقوفهم على تفاصيل حاله الشريفة، وإحاطتهم بمحاسن شؤونه، فهو تبيكيت لهم على أبلغ وجه.
- ٣ - تنزيه الرسول ﷺ عن القول بالهوى، أو صدور شيء من أفعاله أو أقواله من أتباع الهوى.
- ٤ - شدة اقتراب جبريل عليه السلام من الرسول ﷺ.

٥- إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام على حقيقته مرتين. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قال: إنَّه رأى جبريل له ستمئة جناح. (صحيح البخاري ٤٧٦/٨ - كتاب التفسير - سورة النجم ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ برقم ٤٨٥٦. وصحيح مسلم - الإيمان - باب في ذكر سدره المنتهى ١٥٨/١ برقم ١٧٤).

٦- الإبهام في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ يفيد التعظيم.

﴿أَفْتَمْرُوهٖ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

التفسير:

١٢-١٨- أفتجادلون - أيها المشركون - محمداً على ما يراه بعينه من آيات الله العظيمة؟ وقسماً لقد رأى محمد ﷺ جبريل مرّة أخرى عند شجرة النبق المشهورة بسدره المنتهى، وهي في أعالي السماء السابعة، عندها جنة المأوى التي وعد بها المتقون، إذ يغشى شجرة السدره فراش من ذهب، وأمور عظيمة لا يطيق البشر أن يحيطوا بها، فما انصرف بصر النبي ﷺ ولا تجاوز ما أمر برؤيته. قسماً لقد شاهد محمد ﷺ ليلة المعراج من آيات ربه العظيمة من مشاهد الجنة والنار وغيرها.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب. قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطيت الصلوات الخمس، وأعطيت خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً - المقدمات - (صحيح مسلم ١٥٧/١ - كتاب الإيمان، باب في ذكر سدره المنتهى برقم ١٧٣).

١٩-٢٣- أخبرونا - يا معشر المشركين - عن الآلهة الثلاثة التي تعبدونها: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، هل لها القدرة على جلب الخير، أو دفع الشر؟ أتجعلون لكم الذكر الذي هو مرغوب فيه عندكم، وتجعلون لله بزعمكم الأنثى التي تظنون أنها الأدنى؟ تلك القسمة ظالمة. ما هذه الأوثان إلا أسماء لا حقيقية لها، ابتدعتم تسميتها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من حجة. ما يتبعون في عبادتها إلا مجرد الظن،

وما تشتهيهم أنفسهم بتزيين الشيطان لهم. وقسماً لقد جاءهم من ربهم الحق بالقرآن العظيم بواسطة النبي الكريم ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه؟». (صحيح مسلم ١٦١/١ - كتاب الإيمان، باب في قوله الضياء: «نور أنى أراه؟»، برقم ٧٨).
- ٢ - تقرير رحلة الإسراء والمعراج.
- ٣ - حَذَفُ المرثيِّ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾؛ لتفخيم الأمر وتعظيمه.
- ٤ - توبيخ الله لكفار قريش؛ وذلك لترجيح جانبهم الحقير على جناب الله تعالى العزيز الجليل.
- ٥ - التنديد بالشرك والمشركين، وتسفيه أحلامهم.
- ٦ - عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿الَلَّتْ وَالْعُرَى﴾، «كان اللات رجلاً يُلْتُ سَوِيْقَ الْحَاجِ». (صحيح البخاري ٤٧٨/٨ - كتاب التفسير - سورة النجم، باب (الآية)، برقم ٤٨٥٩).
- ٧ - عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أتى العُرَى لتدميرها، فإذا هي امرأة ناشرة شَعْرَهَا تحتفن التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رَجَعَ إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «تلك العُرَى». (التفسير: ٣٥٧/٢ - ٣٥٩ برقم ٥٦٧، وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٢/١٩٦ برقم ٩٠٢). وقال محقق النسائي: إسناده حسن، وقال محقق مسند أبي يعلى: إسناده صحيح).

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا كَفَى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْتَعِمُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْفَقَ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٤-٢٦- ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع بشفاعة الأصنام، فله سبحانه الملك كله، فله أمر الآخرة والدينا، وكثير من الملائكة الكرام في السموات السبع لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله لمن يشاء ولمن يرضى الله عنه من المشفوع لهم.

٢٧-٣٠- إن الكفار الذين كذبوا بالحياة الآخرة لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى بقولهم: هي بنات الله! وما لهم بهذا الافتراء من دليل صحيح، ما يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظنون الفاسدة. وإن مثل هذا الظن الباطل لا يقوم مقام الحق، فدع - أيها الرسول - هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن القرآن، ولم يريدوا إلا شهوات الحياة الدنيا. ذلك هو الضلال البعيد الذي تَوَصَّلُوا إليه من العلم. إن ربك وحده هو أعلم بمن سلك طريق الغواية، وهو وحده أعلم بمن سلك طريق الهداية.

٣١-٣٢- والله سبحانه ملك ما في السموات السبع والأرضين السبع، وعاقبة أمر العباد أن يجزي الله من ارتكب السيئات بالنار، وأن يجزي من اكتسب الحسنات بالجنة، والمحسنون هم الذين يتعدون عن كبائر الذنوب، وعن الجرائم التي عقوبتها الحدود، إلا الذنوب الصغيرة فإن الله يغفرها. إنه سبحانه واسع المغفرة لعباده، هو أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم، وحين أنتم أجِنَّةٌ في بطون أمهاتكم، فلا تُزَكُّوا أنفسكم بالمدح، هو سبحانه أعلم بمن خاف عقابه، وطمع في ثوابه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الإنسان لا يُعطى بأمانته، ولكن بعمَلِهِ وَصِدْقِهِ فِيهِ.
- ٢- كل شفاعة تُرَجَى لا تحقق شيئاً إلا بتوافر شرطين، الأول: أن يأذن الله للشافع في الشفاعه، الثاني: أن يكون الله قد رضي للمشفوع له بالشفاعة.

- ٣- توبيخ الله لعبدة الأوثان بما توهموه من شفاعتهم.
- ٤- أكثر الأمراض مردها إلى قلب لا يؤمن بالآخرة.
- ٥- أكثر الفساد في الأرض هو نتيجة الجهل وغياب العلم اليقيني.
- ٦- في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا﴾ الآية (٣١) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).
- ٧- النهي عن المبالغة في الحرص على هداية الكفار المعرضين عن عبادة الله.
- ٨- استدلال بالآية: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَيرًا لِإِثْمِهِمُ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ على تكفير الصغائر باجتناح الكبائر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَحْتَبُوا كِبَيرًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].
- ٩- تكرير لفظ الجزاء اعتناءً بأمره، والتنبيه على تباين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين.
- ١٠- النهي عن تزكية النفس.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ يَمَافِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَرِزُّ وَازِرَةً وَزِرًا أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْتَهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْتَهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْتَهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّعَاةُ الْآخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْتَهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْتَهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٣٣-٣٧- أفريت - أيها الرسول - قُبِحَ حاله مَنْ أَمَرَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَعْطَى قَلِيلًا مِنْ مَالِهِ ثُمَّ امْتَنَعَ بِخِلَافٍ وَعَصِيَانًا؟ أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَيَكُونُ لَهُ الرَّؤْيَا الصَّحِيحَةُ بِأَنَّ مَا يَقُومُ بِهِ هُوَ الْحَقُّ؟ أَمْ لَمْ يُخْبَرْ بِالْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي التَّوْرَةِ الْمُنزَّلَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي وَفَّى أَوْامِرَ اللَّهِ تَعَالَى؟

٣٨-٤٤- هذه الصحف الكريمة فيها من الأخبار العظيمة الواردة في الآيات السبع عشرة التالية: أَلَا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بِذَنْبٍ غَيْرِهَا، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَثَابُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ مِنْ خَيْرٍ، وَأَنَّ مَا قَدَّمَهُ سَوْفَ يُرَى فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُحَاسَبُ عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ جَزَاءً وَافِيًا، وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ

مصيرَ الخلائق، وأنه سبحانه أضحك مَنْ شاء في الدنيا والآخرة بالفرح والحُبور، وأبكى مَنْ شاء في الدنيا والآخرة بالغمِّ والعذاب، وأنه سبحانه هو وحده الذي يميت الأحياء ويحيي الموتى.

٤٥-٤٩ - وأنه سبحانه خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى، من الإنسان والحيوان، من نطفة دافقة في الرحم، وأنه سبحانه يعيد الخَلْقَ حقاً بعد مماتهم، وأنه سبحانه هو أغنى مَنْ شاء مِنْ خَلْقِهِ، وَمَلَكَ مَنْ شاء منهم، وأرضاهم بما رزقهم، وأنه سبحانه هو ربُّ الشُّعرى - وهو: نجم مضيء - .

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقديم ذِكْرِ صحف موسى؛ لكونها أشهر عند كفار قريش.
- ٢ - بيان أنه لا يُجازى عامل إلا بعمله، خيراً كان أو شراً.
- ٣ - تقرير عدالة الله تعالى في حكمه وقضائه.
- ٤ - ذِكْرُ الله لبعض آياته الدالة على الألوهية.
- ٥ - مظاهر قدرة الله تعالى في عِلْمِهِ وحكمته.
- ٦ - ينظر: صورة النطفة، كما في الملحق.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَتَقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أظلم وَأَطعَىٰ ﴿٥٢﴾
وَالْمُؤَنِفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّهَا مَا غَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكَ تَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾
أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾
وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾

التفسير:

٥٠-٥٤ - وأنه سبحانه دَمَّرَ عاداً الأولى وهم قوم هود عليه السلام، وأهلك قوم ثمودَ قوم صالح عليه السلام، فلم يَبْقَ منهم أَحَدٌ، وأهلك قوم نوح عليه السلام من قبل هؤلاء، إنهم كانوا هم أشدَّ بطشاً وإجراماً من الذين جاؤوا بعدهم، وأهلك مدائن قوم لوط عليه السلام، فجعل عاليها سافلها، فأصابها من صنوف العذاب.

٥٥ - فبأيِّ نِعَمِ الله عليك تَشْكُ وتخاصم؟

٥٦-٥٨ - هذا القرآن الذي جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ نذيرٌ لكم أن يَحُلَّ بكم ما أصاب الأمم المكذبة برسُلِ ربِّها، اقترب قيام الساعة، لا يقدر على كَشْفِهَا وَرَدِّهَا إلا الله تعالى.

٥٩-٦٢ - يُنْكِرُ الله على المشركين: أفمن هذا القرآن تَعَجَّبُونَ إنكاراً له، وتضحكون منه سخريه، ولا تبكون خوفاً من وعيده، وأنتم لاهون عما فيه من العبر؟ فاسجدوا لله وحده، وأخْلِصُوا العبادة له.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الموعدة من هلاك الأقسام السابقة.
 - ٢ - ترهيب الظلمة والطغاة من أهل الكفر والشرك من أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الدمار والخسران.
 - ٣ - بيان قُرْبِ الساعة، وخَفَاءِ زَمَنِ وقوعها عن كُلِّ خَلْقِ الله.
 - ٤ - الترغيب في البكاء من خشية الله.
 - ٥ - مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية لِئَمَّنْ يتلوها، وَلِئَمَّنْ يستمع لها، وهي من عزائم السجودات في القرآن الكريم. ومن خصائص هذه السجدة أَنَّ المشركين سجدوها مع رسول الله ﷺ حول الكعبة، كما في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». (صحيح البخاري ٨ / ٤٨٠ - كتاب التفسير - سورة النجم، باب (الآية) برقم ٤٨٦٢).
- وعن عبد الله ﷺ قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾. قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأته أخذ كَفًّا من تراب فسجد عليه، فرأته بعد ذلك قُتِلَ كافرًا، وهو أمية بن خلف. (صحيح البخاري ٨ / ٤٨٠ - كتاب التفسير - سورة النجم - باب (الآية) - برقم ٤٨٦٣. وصحيح مسلم ١ / ٤٠٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة).

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - تقرير معجزة انشقاق القمر.

٢ - تقرير الوحي والرسالة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا
أَبْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١-٣- اقرب وقت قيام الساعة، وانشق القمر إلى شقين؛ معجزة للنبي ﷺ حين سأله كفار مكة أن يريهم آية، وإن ير المشركون حجة واضحة يُعرضوا عن التصديق، ويزعموا أنه سحر دائم، وكذبوا النبي ﷺ واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل، وكل أمر من خير أو شر مستقر واقع بأهله يوم القيامة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه. حتى كأنه مُنذِرٌ جيش، يقول: صبّحكم ومساكم. ويقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى. (صحيح مسلم ٥٩٢/٢ - كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم ٨٦٧).

٤-٦- وقسماً لقد جاءهم من الأخبار العظيمة ما فيه كفاية لردعهم عن غوايتهم. هذا القرآن حكمة عظيمة بالغة غايتها، فماذا تنفع التحذيرات لمن أصر على الكفر؟ فأعرض - أيها الرسول - عنهم، وانتظرهم يوم يدعو المملك إلى أمر عظيم، توجل منه القلوب في مشاهد القيامة والحساب.

٧-٨- ذليلة أبقارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول، يخرجون من قبورهم، كأنهم في انتشارهم وسوقهم حشود جراد منتشر في الأفق، مسرعين للاستجابة للملك الذي يدعوهم، ويقول الكفار: هذا يوم شديد الهول.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عن أنس رضي الله عنه قال: «سأل أهل مكة أن يُريهم آية، فأراهم انشقاق القمر». (صحيح البخاري ٨/٤٨٣ - ٤٨٤ - كتاب التفسير - سورة القمر، باب (الآية)، برقم ٤٨٦٧. وصحيح مسلم، برقم ٢٨٠٢).
- ٢ - تَوَصَّل العلماء إلى حقيقة علمية وهي: أن القمر كان قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم، بدليل وجود تَمَرُّقات طويلة جداً وغائرة في جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار وأكثر من الكيلو متر، وأعراضها بين نصف الكيلو متر وخمسة كيلو مترات، وتمتد إلى مئات من الكيلو مترات في خطوط مستقيمة أو متعرجة. ويزيد قطرها على الألف كيلو متر. ومن أمثلتها الحفرة العميقة المعروفة باسم بحر الشرق (Mare Orientalis)، ومن هنا فقد فَسِّرَت على أنَّها من آثار انشقاق القمر، وإعادة التحامه. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٥٣٧-٥٤٨). وينظر: صورة انشقاق القمر في الملحق.
- ٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- ٤ - انشقاق القمر معجزة له ﷺ.
- ٥ - إنذار الله تعالى لعباده بَدُئُوا يوم القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمرهم بالاستعداد لأهوال يوم القيامة.
- ٦ - التنديد باتباع الهوى، والتحذير منه فإنه مهلك.
- ٧ - ترك دعوة الكفار عند العلم بأنَّ ذلك لن يؤثر فيهم.
- ٨ - بيان حال الكفار يوم القيامة، وما يواجهون من أهوال عظام.
- ٩ - يقول العلماء: إنَّ سِرْبَ الجراد المهاجر يغطي مساحات من الأرض تقدر بأكثر من ألف كيلو متر مربع، ويتراص الجراد المهاجر على ارتفاعات قريبة من سطح الأرض بكثافات تتراوح بين المليون وعشرات الملايين جرادة في الكيلو متر المربع الواحد، وتعرف باسم الأسراب الطباقية. إنه تشبيه عجيب عندما يتزاحم الناس وهم يُساقون إلى أرض المحشر، وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة في مقدمة السَّرْب. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ١٨٢-١٩٦).

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى
ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَعَذَابِي ﴿١٦﴾ ﴾

التفسير:

٩-١٤ - كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - قَوْمُ نُوحٍ عليه السلام، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا نُوحًا، وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ،
وَإِنْتَهَرُوهُ بِغِلْظَةٍ، وَهَدَّدُوهُ بِالْقَتْلِ. فَدَعَا نُوحَ رَبَّهُ: يَا رَبِّ إِنِّي ضَعِيفٌ عَنِ مَقَاوِمَةِ هَؤُلَاءِ، فَانصُرْنِي عَلَيْهِمْ.
فَأَجَبْنَا دَعَاءَهُ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِهَطُولِ الْمَطْرِ بِأَبْلَغِ مَا يَكُونُ مِنَ الصَّبِّ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا مُتَدَفِّقَةً،
فَالْتَقَتْ مِيَاهُ السَّمَاءِ بِمِيَاهِ الْأَرْضِ، فَتَكَوَّنَ الطُّوفَانُ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لِإِهْلَاكِهِمْ، وَحَمَلْنَا نُوحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ
عَلَى سَفِينَةِ ذَاتِ الْأَوْحِ خَشَبٍ مُشْدُودَةٍ بِمَسَامِيرَ، تَجْرِي بِمَرَأَى مَنْأٍ وَحِفْظِنَا، وَأَغْرَقْنَا الْمُكذِّبِينَ عِقَابًا عَلَى
كُفْرِهِمْ.

١٥-١٦ - وَقَسَمًا لَقَدْ جَعَلْنَا قِصَّةَ الطُّوفَانِ لِلْمَوْعِظَةِ، فَهَلْ مِنْ مُتَعَطِّ يَتَّعِظُ بِهَا؟ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَإِنذَارِي لِمَنْ كَذَّبَ رِسَالِي وَلَمْ يَتَّعِظْ بِآيَاتِي؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تسلية الرسول ﷺ بسيرة الأنبياء والرسل السابقين.
- ٢ - تحذير قريش من الاستمرار في الكفر والمعاندة.
- ٣ - إضافة نون العظمة في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ تفخيم لنوح عليه السلام، ورفع لمحلِّه، وتشنيع لمكذِّبيه.
- ٤ - دعاء نوح على قومه بعد اليأس من إيمانهم.
- ٥ - ينظر: صورة الماء المنهمر، كما في الملحق.
- ٦ - ينظر: صورة العيون المتفجرة منها الأنهار، كما في الملحق.
- ٧ - تقرير حادثة الطوفان.

﴿ وَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

التفسير:

١٧- وقسماً لقد يسرنا القرآن للتدبر والتلاوة والحفظ لمن أراد أن يتذكر، فهل من متعظ يتعظ به؟
 ١٨-٢١- كذبت قبيلة عاد نبيها هوداً فأهلكناهم، فكيف كان عقابي وإنذاري لمن كفر بي؟ إننا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد في يوم عاصيب، مستمر عليهم بالتعذيب والتنكيل، تخطف الناس من ديارهم، فترمي بهم على رؤوسهم، فتجعلهم كالنخل المنقلع من أصوله، فكيف كان عذابي وإنذاري لهم؟
 ٢٢- وقسماً لقد يسرنا القرآن للتدبر والتلاوة والحفظ، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، فهل من متعظ يتعظ به؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- سهّل الله تعالى فهم القرآن والانعاط به، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال البليغة.
- ٢- فضل الله على هذه الأمة بتسهيل القرآن؛ للحفظ والتذكر.
- ٣- كل قصة من قصص الأقوام الهالكة فيها عظة وعبرة.
- ٤- بيان أن قوة الإنسان مهما كانت أمام قوة الله تعالى هي لا شيء، ولا ترد عذاب الله بحال.
- ٥- استمر عذاب قوم عاد عدة أيام حتى أهلكهم.
- ٦- التهويل والتعجب من قرط عتو قوم عاد.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْهَىٰ الذِّكْرُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَةً لَهُمْ فَارْتَفِبَتْهُمْ وَأَصْطَبِرُ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيِّمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

التفسير:

٢٣-٢٧ - كَذَّبَتْ قَبِيلَةَ ثَمُودَ نَبِيِّهَا صَالِحًا بِالآيَاتِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ، فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ: كَيْفَ نَتَّبِعُ وَاحِدًا مِثْلَنَا فِي الْبَشَرِيَّةِ؟ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَجَنُونَ، هَلْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ وَأَصْطَفَىٰ بِالرِّسَالَةِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَثِيرُ الْكُذْبِ وَالتَّكْبُرِ. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مُهَدِّدًا وَمُؤَبِّخًا لَهُمْ: سَيَعْلَمُونَ فِي الْآخِرَةِ مَنْ هُوَ الْكَذَّابُ الْمُتَكَبِّرُ؟ إِنَّا مَخْرَجُوا النَّاقَةَ الَّتِي طَلَبُوهَا مِنَ الصَّخْرَةِ ابْتِلَاءً لَهُمْ، فَانْتَظِرْ - يَا صَالِحُ - عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ، وَالزَّمِ الصَّبْرَ عَلَىٰ أَذَاهُمْ.

٢٨-٣١ - وَأَخْبِرْهُمْ خَيْرًا عَظِيمًا أَنَّ الْمَاءَ مَقْسُومٌ بَيْنَ قَوْمِكَ وَالنَّاقَةَ: لِلنَّاقَةِ يَوْمَ تَحْضُرُ لِلشَّرْبِ، وَهُمْ يَوْمَ يَحْضُرُونَ لِلشَّرْبِ. فَجَبَّطُوا وَنَادُوا أَحَدَهُمْ مِنْ أَشْقَى الْقَوْمِ، فَحَثَّوهُ عَلَىٰ عَقْرِهَا، وَغَامَرَ بِقَتْلِ النَّاقَةِ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَنُذُرِي عَلَىٰ تَكْذِيبِ رِسُولِهِمْ؟ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَانُوا كَالْتَّبَنِ الْيَابِسِ الْمَفْتَتِ.

٣٢ - وَقَسَمًا لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلتَّدْبِيرِ وَالتَّلَاوَةِ وَالْحِفْظِ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ، فَهَلْ مِنْ مُتَعَطِّ يَتَعَطَّىٰ بِهِ؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بَيَانُ سُنَّةِ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ.
- ٢ - تَكْذِيبُ أَحَدِ الرِّسَالِ هُوَ تَكْذِيبُ كُلِّ جَمِيعٍ؛ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ أَصُولِ الشَّرَائِعِ.
- ٣ - التَّعْبِيرُ بِلَفْظِ (أَلْقَى) دُونَ (أَنْزَلَ) لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْعَجَلَةَ فِي الْفِعْلِ.
- ٤ - الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ هُوَ قَدَارُ بْنُ سَالِفٍ، وَكَانَ أَجْرًا قَوْمِهِ.
- ٥ - دَعْوَةُ اللَّهِ إِلَىٰ حِفْظِ الْقُرْآنِ وَالتَّذَكُّرِ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ الْإِلْهَامِ وَالكَمَالِ.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٣-٣٩ - كَذَّبَتْ قَبِيلَةُ لُوطٍ بِإِنذَارِ نَبِيِّهِمْ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ إِلَّا أَهْلَ لُوطٍ - مِنْ دُونِ امْرَأَتِهِ - نَجَّيْنَاهُمْ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا عَلَيْهِمْ. وَمِثْلُ ذَلِكَ الْجِزَاءُ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ. وَقَسَمًا لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقامًا مِنْهُمْ فَشَكُّوا فِي ذَلِكَ. وَقَسَمًا لَقَدْ طَلَبُوا مِنْهُ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ أَنْ يَفْعَلُوا الْفَاحِشَةَ الْقَبِيحَةَ بِصَيْفِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَأَعْمَيْنَاهُمْ، فَذُوقُوا عِقَابِي وَإِنذَارِي الَّذِي حَدَّرَكُم مِّنْهُ رَسُولِي لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَسَمًا لَقَدْ جَاءَهُمْ وَقْتُ الصَّبَاحِ عَذَابٌ مُّسْتَأْصِلٌ لِلْكَفْرَةِ مُتَّصِلٌ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، فَذُوقُوا عَذَابِي الشَّدِيدَ وَإِنذَارِي الشَّدِيدَ.

٤٠ - وَقَسَمًا لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ وَالتَّلَاوَةَ وَالْحِفْظَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ وَيَعْتَبِرَ، فَهَلْ مِنْ مُّتَعَطِّ يَتَعَطَّ بِه؟

٤١-٤٢ - وَقَسَمًا لَقَدْ جَاءَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ الْإِنذَارُ بِوَسْطَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَحَدُوا بِآيَاتِنَا الْبَاهِرَةِ، وَحُجَّجْنَا

الظَّاهِرَةَ، فَدَمَّرْنَاهُمْ بِالْفِرْقِ تَدْمِيرَ عَزِيزٍ لَا يَغَالِبُ، مُقْتَدِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته.
- ٢ - بيان جزاء الشاكرين لله تعالى بالإيمان به، وطاعته وطاعة رسله.
- ٣ - فائدة التكرير في قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٨﴾ ﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ أَنْ يَجِدُوا عِنْدَ اسْتِمَاعِ كُلِّ نَبَأٍ مِنَ أَنْبَاءِ الْأَوَّلِينَ إِدْكَارًا وَاتِعَازًا، وَأَنْ يَسْتَأْنِفُوا تَنْبَهُاً وَاسْتِيقَازًا.
- ٤ - تيسير القرآن وتسهيله للحفظ والاعتبار.

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِيرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير:

٤٣-٤٥- يُنْكِرُ اللهُ تعالى على كَفَّارِ مَكَّةَ وَيُقَرِّعُهُمْ: هل كُفَّاركم خير وأشدُّ من الأمم السابقين الهالكين البعيدين عن رحمة الله؟ أم لكم براءة من عذاب الله مسطرة في الكتب المنزلة بالسلامة من العقاب؟ أم يقولون بفرور: نحن جماعة واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد؟ سيُهزم هذا الجمع ويُوَلُّون الأدبار، كما حصل يوم بدر.

٤٦-٥٠- سبب النزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر. فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾. (صحيح مسلم ٤/٢٠٤٦ - كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، برقم ٢٦٥٦).

التفسير:

بل يوم قيام الساعة موعدهم بالعذاب. وعذاب الساعة بنيران جهنم أشدُّ ألماً وحرارة من عذاب الدنيا. إِنَّ الْكُفَّارَ بِاللَّهِ فِي بُعْدٍ شَدِيدٍ عَنِ الْحَقِّ، وَنَارٍ مُسَعَّرَةٍ بِهِمْ، يَوْمَ تَسْحَبُهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِشِدَّةٍ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيحاً وَتَوْبِيخاً: ذُوقُوا شِدَّةَ عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خَلَقْنَاهُ بِقَضَاءِ سَبْقِ عِلْمُنَا بِهِ، وَجَرَى بِهِ الْقَلَمُ. وَمَا أَمْرُنَا لِلشَّيْءِ إِذَا أَرَدْنَاهُ إِلَّا أَنْ نَقُولَ كَلِمَةً وَاحِدَةً وَهِيَ: ﴿كُنْ﴾ فَيَكُونُ كَسْرَةَ لِمَحِ الْبَصَرِ.

٥١-٥٣- وقسماً لقد دَمَرْنَا أمثالكم في الكفر من الأمم السابقة، فهل من مُتَعَطِّ يَتَعَطَّ بِهِمْ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، مِنْ أَعْمَالِهِمْ مَكْتُوبٌ فِي صَحْفِهِمْ.

٥٤-٥٥- إِنَّ الْمُتَّقِينَ اللهُ بِطَاعَتِهِ فِي جَنَّاتٍ ذَاتِ أَنْهَارٍ عَذْبَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي مَقَامِ كَرِيمٍ عِنْدَ مَلِكٍ عَظِيمٍ، مُقْتَدِرٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ سَبْحَانَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - قوله: ﴿سَيَهْرَمُ الْبَصَرُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ من دلائل النبوة لأنها آية مكية، وقد نزلت ولم يُفرض الجهادُ بعدُ، ففيها إخبار عن الغيب، وهذا من معجزات القرآن.
- ٢ - عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة، وإني لجارية العَبْ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾. (صحيح البخاري ٤٨٦/٨ - كتاب التفسير - سورة القمر (الآية) برقم ٤٨٧٦).
- ٣ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.
- ٤ - كتب الله كلَّ قَدْرٍ قَدْرَهُ في مخلوقاته، في اللوح المحفوظ قبل وقوعه.
- ٥ - أعمال العباد مدونة في كتب الكرام الكاتين لا يُترك منها شيء.
- ٦ - بيان حُسْنِ حالِ المؤمنين بعد بيان سوء حال الكفرة؛ ليتكافأ الترهيب والترغيب.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - إقامة البراهين الكونية للإنس والجن على توحيد الربوبية لله تعالى.
- ٢ - تقرير البعث والحساب.
- ٣ - تعظيم الله تعالى على نعمه الكثيرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ ٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ ٨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ ﴿فِيهَا
فَنَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢ ﴿﴾

التفسير:

- ١-٢- الله الرحمن بالإنس والجان، عَلَّمَهُمُ الْقُرْآنَ بتيسير التلاوة والبيان.
- ٣-٤- خلق الإنسان في أحسن تقويم، وَعَلَّمَهُ أَنْوَاعَ الْبَيَانِ؛ لما في نفسه من المقاصد والرغبات.
- ٥- والشمس والقمر يجريان في محاورهما ومنازلهما بحساب منتظم.
- ٦- والنجوم في السماء والأشجار في الأرض كلها تسجد لله، وتخضع لما سَخَّرَهَا لَهُ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ.
- ٧-٩- والسماء رفعها فوق الأرض سقفاً لها، ووضع العدل بين العباد في الأقوال والأفعال؛ لئلا تظلموا وتبخسوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالعدل، وَلَا تُنْقِصُوا الْمِيزَانَ إِذَا وَزَنْتُمْ.
- ١٠-١٢- والأرض بَسَطَهَا وَمَهَّدَهَا؛ ليستقرَّ عليها الخلق، فيها أنواع الفاكهة، والنخل ذات أوعية الثمر، وفيها الحبوب ذوات القشْرِ، وفيها كُلُّ نَبْتٍ طَيِّبٍ الرَّائِحَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - لما كانت السورة تعداداً للنعم الدنيوية والأخرية صَدَّرَهَا بِسَبْحَانِهِ بِالرَّحْمَنِ.
- ٢ - الرحمن مِثْلُ اسْمِ اللَّهِ، لَا يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى غَيْرِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: فَلَانٌ عَزِيزٌ أَوْ رَحِيمٌ أَوْ عَلِيمٌ أَوْ حَكِيمٌ، وَلَكِنْ لَا يُقَالُ: فَلَانٌ رَحْمَانٌ، كَمَا لَا يُقَالُ: إِلَهٌ أَوْ اللَّهُ.

٣- إنَّ الله بدأ بتعليم القرآن؛ لأنه أعظم النعم شأنًا، وأرفعها مكانًا، فهو مدار السعادة الدينية والدينية.

٤- مَيَّزَ اللهُ تعالى الإنسان عن الحيوان، بالبيان وهو التعبير عمَّا في الضمير وإفهام الآخرين.

٥- ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

٦- وجوب العدل في الوزن، وتحريم البخس فيه.

٧- ينظر: صورة وصف الميزان، كما في الملحق.

٨- وجوب شكر الله على آلائه.

﴿فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

١٣- فبأيِّ نعم خالقكما تجحدان أيها الإنس والجن؟ وينبغي للمسلم أن يُقَرَّ بالنعم، ويشكر الله عليها.

١٤-١٦- خلق الله تعالى أبا البشر آدم من طين يابس كالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجِنَّ من هب النار ذات

الألوان بعضها فوق بعض، فبأيِّ نعم خالقكما يا معشر الإنس والجنَّ تجحدان؟

١٧-١٨- هو سبحانه رَبُّ مَشْرِقِي الشمس ومَغْرِبِيَّهَا في الشتاء والصيف، فبأيِّ نعم ربكما يا معشر

الإنس والجنَّ تجحدان؟

١٩-٢٣- ومن نِعَمِهِ سبحانه أَنَّهُ جعل ماء البحرَيْنِ المتجاورين المالح والعذب يلتقيان، فيصبُّ الماء

العذب في الماء المالح، وجعل بينهما حاجزاً ليقبى الماء العذب عذباً والمالح مالحاً، فبأيِّ نعم ربكما يا معشر

الإنس والجنَّ تجحدان؟ يخرج من ماء البحرَيْنِ اللؤلؤ بأنواعه والمرجان بأحجامه، فبأيِّ نعم ربكما يا معشر

الإنس والجنَّ تجحدان؟

٢٤-٢٥- وله سبحانه السفن الجارية لمنافع الناس في البحر بأشرعتها كالجبال، فبأيِّ نعم ربكما

يا معشر الإنس والجنَّ تجحدان؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فِي أَيِّ آءِ آيَةٍ كَذَّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نِعَمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فلك الحمد». (أخرجه الترمذي، السنن - التفسير - باب ومن سورة الرحمن برقم ٢٢٩١، حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم ٢٦٢٤، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرک ٢/٤٧٣).
- ٢ - نتيجة لدوران الأرض حول محورها انبعجت قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلاً عند القطبين، ونتيجة لذلك أصبح لكل من المشارق والمغرب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكل من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض تمثل كل منهما مرة أقصى الشروق، ومرة أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، الصفحات ٤٨٧-٥٠٢).
- ٣ - ينظر: صورة البرزخ بين البحرين، كما في الملحق.
- ٤ - الإشارة إلى كسب اللؤلؤ والمرجان .
- ٥ - ينظر: صورة نموذج من اللؤلؤ، كما في الملحق.
- ٦ - ينظر: صورة نموذج من المرجان، كما في الملحق.
- ٧ - وجوب شُكْرِ الرحمن على إنعامه على الإنس والجان.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابُ مِّنْ نَّارٍ وَمُهَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

التفسير:

٢٦-٢٨- كلُّ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْخَلْقِ هَالِكٌ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْعِظْمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ وَالْمَجْدِ، فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا الْمَالِكِ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ تَجْحَدَانِ؟
 ٢٩-٣٠- يَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعٌ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ السَّعِيحِ وَالْأَرْضِ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، يُغْنِي وَيُفْقِرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ يَا مَعْشَرَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؟
 ٣١-٣٢- سَنَفْرُغُ لِحَسَابِكُمْ عَلَى مَا قَدَّمْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجَانُّ؟

٣٣-٣٦- يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ فَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ هَرُوبًا مِنْ حُكْمِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَحِسَابِهِ فِي الْآخِرَةِ فَاخْرُجُوا، لَنْ تَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِقُوَّةٍ وَحِجَّةٍ لَا تَمْلِكُونَهَا، فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ؟ وَإِذَا حَاوَلْتُمْ الْخُرُوجَ يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ هَبُّ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَاسٌ مَنْصَهْرٌ يُضَبُّ عَلَيْكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى النُّفُوزِ مِنْهُ، وَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ، فَبِأَيِّ نِعَمِ اللَّهِ تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ؟
 الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- ٢- الحثُّ على العبادة، وصرفُ الزمان اليسير إلى الطاعة.
- ٣- المنع من الوثوق بما يكون للمرء، فلا يقول إذا كان في نعمة: إنما لن تذهب، فيترك الرجوع إلى الله، معتمداً على ماله ومُلْكِهِ.
- ٤- في الآية (٢٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ كلَّ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْخَلْقِ هَالِكٌ.
- ٥- التهديد والوعيد من الله للجن والإنس بمحاسبتهما ومجازاتهما.

٦ - في الآية (٢٩) إخبار مستقبليٍّ أَنَّ الله ﷻ يسأله مَنْ في السموات والأرض حاجاتهم، فلا غنى لأحدٍ - في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - عنه سبحانه، فهو كلُّ يوم في الماضي والحاضر والمستقبل في شأن: يُعَزُّ وَيُذَلُّ، ويعطي ويمنع.

٧ - وجوب حمد الله تعالى وشكره على السراء والضراء.

٨ - تؤكد المعارف الحديثة عَجَزَ كل من الجن والإنس عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسموات على حدة؛ لأنَّ الأرض ليست تامة الاستدارة؛ لانبعاثها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القطبين، ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية؛ لأنَّه من الثابت علمياً أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها. (آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٣٧-٣٥٠).

٩ - من الثابت علمياً أن عنصر النحاس يتخلَّق في صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللبَّات الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرَّات العناصر الثقيلة ومنها النحاس، والنحاس منصهر، وتغلي قطراته في صفحة السماء، ويُعدُّ عقاباً رادعاً لكل محاولة من الإنس أو من الجن لاختراق أقطار السموات والأرض. (آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٣٣٧-٣٥٠).

﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَأْتِيءُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَأْتِيءُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَأْتِيءُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي ءَأْتِيءُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير:

٣٧-٤٠ - فإذا تصدَّعت السماء يوم القيامة، فكانت حمراء مثل لون الورد، وكالمعدن المذاب، فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تجحدان أيُّها الثقلان؟ ففي ذلك اليوم العصيب تُبعث الخلائق، فلا يُسأل أحد من الإنس والجن عن ذنبه، كأن يُقال: أنت مذنب؛ لأنَّ العلامات في الوجوه واضحة، فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تجحدان أيُّها الإنس والجن؟

٤١-٤٥ - تعرف ملائكة العذاب المكذِّبين لله بعلاماتهم، فتخطفهم من مقدِّمة رؤوسهم وأقدامهم، فتقذفهم في نار جهنم، فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تجحدان أيُّها الإنس والجان؟ ويقال لهم تقریباً: هذه نار جهنم التي

يُكذَّب بها المجرمون في الدنيا. يَتَرَدَّدُونَ بين نار جهنم الموقدة، وبين ماء حارٍّ شديد الحرارة، فبأيِّ نَعَمٍ ربكما تجحدان أيُّها الجانُّ والإنسان؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان الانقلاب الكوني، وخراب العالم للقيامة.
- ٢- يبعث الناس من قبورهم ولهم علامات تميزهم، فيُعَرَفُ السعيد والشقيُّ.
- ٣- لا يُسأل الإنسان عن ذنبه عند الخروج من القبور والحشر إلى الموقف؛ لأنه معروف بسيماه.
- ٤- الإذلال والإهانة لأهل الكفر والإجرام.
- ٥- ينظر: صورة موقع الناصية من الرأس، كما في الملحق.
- ٦- التنديد بالإجرام وهو الشرك والظلم والمعاصي.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَرَاتَا أَفْئَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَنَكُهُمُ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّيْنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصَصَاتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

التفسير:

٤٦-٥٣- ولمن خاف مقام ربّه من العباد، فامتثل أمره وترك المعاصي، جنتان عظيمتان، فبأيِّ نَعَمٍ ربكما تجحدان أيُّها الثقلان؟ هاتان الجنتان ذواتا أغصان كريمة من الثمار الطيبة، فبأيِّ نَعَمٍ ربكما تجحدان أيُّها الثقلان؟ فيها عينان عذبتان من المياه الجارية، فبأيِّ نَعَمٍ ربكما تجحدان أيُّها الإنس والجان؟ فيها من كلِّ أنواع الفاكهة صنفان، فبأيِّ نَعَمٍ ربكما تكفران أيُّها الثقلان؟

عن عبدالله بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيها، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن».

(صحيح البخاري ٨ / ٤٩١ - كتاب التفسير، باب ﴿وَمِنْ ذُنُوبِنَا جَنَّاتٍ﴾ برقم ٤٨٧٨، وصحيح مسلم - كتاب الإيثار، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة بهم، برقم ١٨٠).

٥٤-٥٩- مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ مُبْتَطِنَةٍ بَدِيحٍ سَمِيكٍ، وَثَمَرِ الْجَنَّتَيْنِ قَرِيبِ التَّنَاولِ، فَبِأَيِّ نِعَمٍ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ؟ فِي هَذِهِ الْجَنَّاتِ زَوَاجَاتٌ قَاصِرَاتٌ أَبْصَارُهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ، أَبْكَارٌ لَمْ يَقْرُبَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ، فَبِأَيِّ نِعَمٍ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجَانُّ؟ كَأَنَّ هَؤُلَاءِ الزَّوْجَاتِ الْحُورِ الْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ فِي جَمَاهُنَّ، فَبِأَيِّ نِعَمٍ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجَانُّ؟

٦٠-٦١- هَلْ جَزَاءٌ مَنْ أَحْسَنَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ بِالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ؟ فَبِأَيِّ نِعَمٍ رَبِّكُمَا تَجْحَدَانِ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجَانُّ؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضل الخوف من الله تعالى.
- ٢- تعدادُ الله سبحانه لبعض آلائه ونعمه لعباده المؤمنين في الآخرة؛ من أجل شكره سبحانه.
- ٣- حُبُّ نساء أهل الجنة لأزواجهن بحيث لا ينظرن إلا إليهم.
- ٤- الإشارة إلى أفضل النساء في الدنيا تلك التي تقصُر نظرها على زوجها، فتحبه ولا تحب غيره من الرجال.
- ٥- بيان أن الجن المتقين يدخلون الجنة ولهم أزواج، كما للإنس، سواء بسواء.
- ٦- الإشادة بالإحسان، وبيان جزائه.

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قُلُوبُهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

التفسير:

٦٢-٦٧- ومن دون الجنة السابقتين جنتان أقل منهما منزلة، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ هاتان الجنتان قائمة الخضرة، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ فيها عينان فوارتان بالماء العذب لا تنقطعان، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟

٦٨-٧٨- فيها أصناف الفاكهة وأشجار النخيل وأشجار الرمان، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ في هذه الجنان الأربع زوجات خيرات الأخلاق حسان الوجوه، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ هؤلاء الزوجات من الحور مصونات في الخيام العظيمة، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ هن أبكار لم يقربهن إنس قبلهم ولا جان، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ متكئين على وسائل خضر وفرش مزخرقة، فبأي نعم ربكما تجحدان أيها الإنس والجان؟ تعاظمت وتكاثرت خيرات اسم ربك صاحب العظمة والكبرياء والإكرام لعباده.

عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين، يطوف عليهم المؤمنون». (صحيح البخاري ٤٩١/٨ - كتاب التفسير - سورة الرحمن، الآية برقم ٤٨٧٩، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢١٨٢/٤، برقم ٢٨٣٨).

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان أن نعيم الآخرة أعظم وأجل من نعم الدنيا.
- ٢- أفراد الله النخل والرمان لفضلها.
- ٣- فضل المرأة المقصورة في بيتها.
- ٤- بيان أن الجن الصالحين يدخلون الجنة، ويسعدون فيها.

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - بيان أحوال العباد يوم القيامة.

٢ - إقامة الدلائل والبراهين على توحيد الربوبية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑨ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّيِّقُونَ ⑩ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ⑫ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ⑬ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ⑭ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ⑮ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑯ ﴾

التفسير:

١-٣- يُذَكِّرُ اللهُ تَعَالَى بِأَهْوَالِ وَمَشَاهِدِ مِنَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَامَتْ، فَكُلُّ الْخَلْقِ يَرَاهَا رَأْيَ الْعَيْنِ، لَا يَتَجَرَأُ أَحَدٌ أَنْ يُكَذِّبَ بِوَقُوعِهَا، وَهِيَ خَافِضَةٌ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى مِنَ النَّارِ، رَافِعَةٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا مِنَ الْجَنَّةِ.

٤-٦- إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ، وَارْتَجَّتْ ارْتِجَاجًا شَدِيدًا، وَفُتَّتِ الْجِبَالُ تَفْتِيثًا، فَكَانَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ غِبَارًا مُمْتَشِرًا.

٧-١٦- وَكُنْتُمْ - أَيُّهَا الْعِبَادُ - أَصْنَافًا ثَلَاثَةً: فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، مَا أَكْرَمَ مَقَامَهُمْ! وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى، مَا أُنْعَسَ حَالُهُمْ! وَالسَّابِقُونَ إِلَى الْحَسَنَاتِ وَالْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا هُمُ السَّابِقُونَ إِلَى النَّعِيمِ الْمَقِيمِ فِي الْآخِرَةِ. وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ هُمُ الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَ اللَّهِ، فِي مَقَامِ كَرِيمٍ وَجَنَّتِ النَّعِيمِ، يَدْخُلُهَا جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ، وَهَمُّ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ السَّابِقِينَ وَالْآخِرِينَ، يَجْلِسُونَ عَلَى سُرُرٍ مَنَسُوجَةٍ بِالذَّهَبِ، مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ وَجْهَ بَعْضٍ؛ لِمَزِيدٍ مِنَ الْأَنْسِ وَالنَّعِيمِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير البعث والجزاء في الآخرة.
- ٢- عَبَّرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِالْوَاقِعَةِ؛ لِلإِذَانِ بِتَحَقُّقِ وَقُوعِهَا لَا مَحَالَةَ.
- ٣- وصف القيامة بأنها خافضة لأقوام، رافعة لآخرين؛ تقريراً لعظمتها، وتهويلاً لأمرها.
- ٤- الإيثار والتقوى يرفعان، والشرك والمعاصي يضعان ويخفضان.
- ٥- بيان أن الناس على ثلاثة أصناف يوم القيامة.
- ٦- السابقون إلى الطاعات لهم فضل السبق في كل زمان ومكان.
- ٧- تأخير ذكر السابقين مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم في الفضل؛ ليرد ذكركم بيان محاسن أحوالهم.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿١٩﴾
وَفَلَاحَةٌ مِمَّا يَنْخَرِطُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً لِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير:

- ١٧-٢٣- يطوف عليهم غلمان على الدوام؛ لخدمتهم بأقداح وأباريق وكأس من خمر لذيذة جارية، لا تتصدع رؤوسهم من شربها ولا يسكرون، ويُقدِّمون لهم الفاكهة المفضلة، ولحم الطير الذي يشتهونه، ولهم زوجات ذوات عيون واسعة حسنة، كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه في جماله.
- ٢٤-٢٦- استحقوا هذه النعم العظيمة جزاءً لهم؛ بسبب ما قدّموا من خير في الحياة الدنيا، لا يسمعون في الجنة الكلام الباطل، ولا يلحقهم إثم مما يسمعون، إذ لا يسمعون إلا القول الطيب والسلام فيما بينهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير البعث والجزاء، بذكر أحوال الدار الآخرة.
- ٢- بيان أن السابقين يكونون من سائر الأمم المسلمة.
- ٣- بيان فضل خمر الجنة على خمر الدنيا المحرمة.
- ٤- تشبيه الله تعالى الحور العين بالجنة باللؤلؤ المكنون؛ لأنه الأصفى والأبعد عن التغير.
- ٥- إفشاء السلام من صفات أهل الجنة.

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهْمَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَاهُمْ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٧-٤٠- ثم ذكر الله سبحانه أصحاب اليمين، ومقامهم الكريم، وجزاءهم العظيم: فهم تحت أشجار السدر - النبق - لا شوك فيه، مثقل بالثمار، وموز متراكب بعضه فوق بعض، وظل واسع دائم، ومياه عذبة جارية، وأصناف الفاكهة الكثيرة الدائمة الدانية لا تمنع عنهم، وفرش عالية وثيرة. إننا خلقنا نساء أهل الجنة خلقاً متميزة عن خلقة الدنيا في طهارتهن، وجاهلتهن وجعلناهن أبكاراً لم يمسهن أحد، متحبات لأزواجهن، في عُمر الشابات الكاملات، أنشأناهن؛ ليستمتع بهن أصحاب اليمين، وهم جماعة كثيرة من السابقين، وجماعة كثيرة من هذه الأمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها. واقروا إن شئتم: ﴿ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴾». (صحيح البخاري ٤٩٥/٨ - كتاب التفسير - سورة الواقعة، الآية، برقم ٤٨٨١. وصحيح مسلم ٢١٧٥/٤ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها...).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان إكرام الله وإنعامه على المؤمنين المتقين.
- ٢ - تفصيل شؤون أصحاب اليمين، وما أعد الله لهم في الجنة.
- ٣ - استخدام أسلوب التعجب؛ لتعظيم ما لهم من السعادة وعلو الشأن.
- ٤ - العجوز في الدنيا إذا دخلت الجنة تصير شابة حسناء حوراء عروباً.
- ٥ - من صفات الحور أنهم أبكار، متحبات لأزواجهن، متساويات في السن.

﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
 تُرَابًا وَعِظْمًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ
 مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونَنَّ مِن شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوْنَا مِنهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾
 فَشَرِبُوا مِنْهُ مِن الْجَحِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا مِنْ شَرَبِ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا تَزَلُّمٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٤١-٤٨- وأصحاب الشمال ما أتس حالهم! في ربح حارة من النار، وماء شديد الحرارة، وفي ظل خائق من دخان شديد السواد، لا بارد مريح، ولا حسن المنظر. إنهم كانوا في الدنيا مترفين بالشهوات والمحرّمات، وكانوا يُصرُّون على شريكهم بالله، وكانوا ينكرون البعث ويقولون: هل نُبعث نحن وأباؤنا وأجدادنا الأوائل، وقد صرنا تراباً وعظاماً مُتفتتة؟

٤٩-٥٠- قل لهم أيها الرسول: إنَّ الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيُحشرون ليوم الحساب الذي حدّده الله تعالى بوقت معلوم.

٥١-٥٦- وبعد البعث إنكم - أيها الضالون عن الهدى، المكذّبون بالبعث - لآكلون حقاً من شجرة الزقوم الخبيثة ذات الطعم الذي لا يُطاق، فالتون منها بطنونكم، ثم تشربون على ذلك الطعام ماءً شديد الغليان، فشاربون منه بكثرة، كشرّب الإبل العطاش. هذا العذاب هو ما أُعدّ لهم من سوء الطعام يوم القيامة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- أصحاب الشمال يدخل فيهم كل كافر وجد على وجه الأرض.
- ٢- تفصيل أحوال أصحاب الشمال، وبيان هؤولها وفظاعتها.
- ٣- توضيح الأسباب التي استحق بها أصحاب الشمال ذلك العذاب والجحيم.
- ٤- التنديد بالترف في هذه الحياة الدنيا؛ فإنّه يقود إلى ترك التكاليف الشرعية، فيهلك صاحبه.
- ٥- ذمّ الترف، وبيان عاقبته الوخيمة.
- ٦- تقرير عقيدة البعث والجزاء بما لا مزيد عليه من العرض والوصف.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ يُبَدَّلَ امْتِلَاكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ يَسْمُ الْمَاءِ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَعًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٥٧-٦١- نحن - بما لنا من العظمة والقدرة - خلقناكم أيها الناس، فهلأ تصدقون بالبعث، أخبروني عمًا تقذفونه من المنى في أرحام النساء: أنتم تخلقون هذا المنى بشرأ سوياً، أم نحن بقدرتنا خلقناه؟ نحن قضينا عليكم بالموت، وما نحن بعاجزين على أن نُدَمِّرَكم، ونستبدل قومأ غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خِلقة لا تعلمونها.

٦٢- وقسمأ لقد عرفتم أن الله أنشأكم النشأة الأولى ولم تكونوا شيئأ، فهلأ تتذكرون قدرة الله على إنشائكم مررة أخرى.

٦٣-٦٧- أخبروني عن البذر الذي تذررونه في الأرض، أنتم تُنبِتون سنابله في الأرض أم نحن القادرون على ذلك؟ لو نشاء لجعلنا هذا الزرع هشيأ مُتَكسراً لا ينتفع به في طعام، فأصبحتم تتفجعون على ما أصاب الزرع، وتكلمون أنفسكم بقولكم: إننا لخاسرون مُعذَّبون، بل نحن محرومون الرزق.

٦٨-٧٠- أخبروني عن الماء الذي تشرَبونه عذبأ، أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ لو نشاء لجعلناه مالحأ جدأ، فهلأ تشكرون ربكم بالقول والفعل على نِعَمِهِ الجليلة عليكم.

٧١-٧٣- أخبروني عن النار التي تُوقَدونها من الشجر، أنتم الذين خَلَقْتُمْ شجرها أم نحن الخالقون لها؟ نحن جعلنا نار الدنيا تذكيراً لكم بنار جهنم، وجعلناها منفعة للمسافرين.

٧٤- فَسَبِّحْ - أيها الرسول - بِذِكْرِ اسمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ وبِحَمْدِهِ على فضله الكريم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان أن الآجال بيد الله تعالى وحده.

٢ - إقامة الأدلة والبراهين على صحة البعث وإمكانه عقلاً.

- ٣- بيان أنَّ القادر على النشأة الأولى، قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة.
 - ٤- امتنان الله بإنبات الزرع لعباده، ولو شاء لأهلكه.
 - ٥- حَصَّ الله تعالى الماء بالشرب مع تَعَدُّدِ منافعه؛ وذلك لأنَّ الشرب أعمُّ المقاصد المنوطة به.
 - ٦- وجوب شكر الله تعالى على إفضاله وإنعامه.
 - ٧- ذَكَرَ اللهُ حِكْمَتَهُ مِنْ خَلْقِ النَّارِ، فهي تُذَكِّرُ بنار جهنم.
 - ٨- وجوب تسبيح الله وتنزيهه عمَّا لا يليق بجلاله وكمالهِ، من العبث والشريك.
 - ٩- عن عقبه بن عامر رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قال: «اجعلوها في سجودكم».
- (أخرجه أبو داود، السنن ١/ ٢٣٠ برقم ٨٦٩ - كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٥/ ٢٢٥ برقم ١٨٩٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٧٧).

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْصَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَعْصَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

٧٥-٧٦- سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطِرَ النَّاسَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَّقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا»، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مُطِرْنَا بِالنَّوءِ، ١/ ٨٤، برقم ٧٣).

التفسير:

قَسَمًا مُؤَكَّدًا بِمَنَازِلِ النُّجُومِ وَمَطَالِعِهَا، وَإِنَّ هَذَا الْقِسْمَ - لَوْ تَعْلَمُونَ - عَظِيمُ الْقَدْرِ فِي مَدْلُولِهِ.

٧٧-٨٠ - والمقسم عليه: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَإِنَّهُ عَظِيمُ الْقَدْرِ وَالْمَنَافِعِ فِي الدَّارَيْنِ، فِي كِتَابٍ مَحْفُوظٍ مِنَ الْبَاطِلِ وَالتَّغْيِيرِ، مَصُونٍ فِي اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ، لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى طَهَارَةٍ فِي الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ، وَطَهَارَةٍ فِي الْبَدَنِ بِالْوُضُوءِ أَوْ الْغَسْلِ، وَهَذَا الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى نَبِيِّهِ الْأَمِينِ ﷺ.

٨١-٨٧ - سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني الأنواء، وما مُطِر قوم إلا أصبح بعضهم كافرين يقولون: مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. أ.هـ. (أخرجه ابن المنذر بسند صحيح عن ابن عباس. التفسير الصحيح ٦/٥٨).

التفسير:

يُنَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْكُفَّارِ مُؤَبِّحاً لَهُمْ: هَلْ بِهَذَا الْقُرْآنِ أَنْتُمْ مَكْذُوبُونَ؟! وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ - وَمِنْهَا هَذَا الْقُرْآنُ - أَنَّكُمْ تُكْذِّبُونَ بِهَذِهِ النِّعْمِ، فَهَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحَلْقُومَ عِنْدَ مَعَالِجَةِ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، وَأَنْتُمْ حَاضِرُونَ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِعِلْمِنَا وَمَلَائِكَتِنَا، وَلَكِنَّكُمْ لَا تَرَوْنَهُمْ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُونَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُحَاسِبِينَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ أَنْ تَرُدُّوا رُوحَ هَذَا الْمَيِّتِ إِلَى جَسَدِهِ؟ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي إِنْكَارِكُمُ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ.

٨٨-٨٩ - فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنَ السَّابِقِينَ بِالدرجات العُلا، فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ رَاحَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ بِجَنَّةِ

النَّعِيمِ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان». (أخرجه ابن ماجه، السنن برقم ٤٢٦٢ - الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، (مصباح الزجاجة ٢/٣٤٩)، وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/٤٢٠)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/٣٧-٤٠).

٩٠-٩١ - وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَيُقَالُ لَهُ: سَلَامٌ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ، وَمَنْ كُلُّ شَرٍّ، لِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

٩٢-٩٤ - وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنَ الْمَكْذِبِينَ بِاللَّهِ وَالبعث، والضالِّينَ عَنِ الْهُدَى، فَيُقَدَّمُ لَهُ شَرَابٌ فِي غَايَةِ

الحرارة، وهو يصطلي بنار جهنم.

٩٥-٩٦ - إِنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هُوَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ، فَسَبِّحْ بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ،

وَبِحَمْدِهِ عَلَى فَضْلِهِ الْكَرِيمِ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «... وإذا كان الرجل سوء قال: اخرجني أيتها النفس الخبيثة! كانت في الجسد الخبيث، اخرجني ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فلا يُفتح لها». (أخرجه ابن ماجه، السنن برقم ٤٢٦٢ - الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، (مصباح الزجاجة ٢/٣٤٩)، وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه ٢/٤٢٠)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/٣٧-٤٠).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير الوحي الإلهي، وإثبات النبوة المحمدية، وأنَّ القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى.
- ٢ - بيان أنَّ الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأنَّ العبد لا يقسم إلا بربه تعالى.
- ٣ - وجوب صيانة القرآن الكريم، ومنع مسسه دون طهارة.
- ٤ - عظيم قدر القرآن، وأنَّ الله تعالى تَوَلَّى حِفْظَهُ، وصيانتَه عن التحريف والتبديل.
- ٥ - بيان عَجْزِ كلِّ الناس أمام قدرة الله تعالى.
- ٦ - بيان أحوال الناس عند الموت.
- ٧ - في الآيات دلالة على أنَّ الروح بعد مفارقة البدن: إما مُنْعَمَةٌ أو مُعَذَّبَةٌ.
- ٨ - بيان فضل السابقين على أصحاب اليمين.
- ٩ - مَقَرُّ أرواح المؤمنين الجنة، ومَقَرُّ أرواح الكفار في النار.
- ١٠ - تأكيد وجوب التسييح والتنزيه لله تعالى.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - تقرير توحيد الربوبية لله تعالى بالبراهين والدلائل الكونية.
- ٢ - المقارنة بين عظمة الآخرة، وحقارة الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١-٢- يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ عِظَمَةِ قُدْرَتِهِ، وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ: إِنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ تَلْهَجُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ لِرَبِّهَا، تُنَزِّهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ وَتُقَدِّسُهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ الْعَزِيزِ فِي مَلَكُوتِهِ، الْحَكِيمِ فِي تَدْبِيرِ مَخْلُوقَاتِهِ، لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا، يُحْيِي بِقُدْرَتِهِ الْمَوْتَى، وَيُمِيتُ الْأَحْيَاءَ كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

٣- هُوَ سَبْحَانَهُ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، وَالظَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَالْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ أَحَاطَ عِلْمًا.

٤- هُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي أَبْدَعَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى - اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِعِظَمَتِهِ - عَلَى عَرْشِهِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْلَاهَا، يَعْلَمُ وَحْدَهُ مَا يَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَيْرَاتٍ وَمَخْلُوقَاتٍ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ النَّبَاتِ وَالثَّمَرَاتِ، وَيَعْلَمُ وَحْدَهُ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَاتٍ وَعَقُوبَاتٍ، وَمَا يَصْعَدُ فِيهَا مِنْ حَشُودِ الْمَلَائِكَةِ وَثَمَرَاتِ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ مَعَكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَادُ - يَعْلَمُهُ وَقُدْرَتَهُ وَعِنَايَتَهُ أَيْنَمَا كُنْتُمْ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ بِصِيرٌ بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ قال: هو على العرش، وعلمه معهم. (مجموع الفتاوى ٥/ ٤٩٥-٤٩٦، ورجاله ثقات وسنده حسن).

٥- له ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، وإليه سبحانه مصير أمور المخلوقات، ومحاسبتها.

٦- يدخل ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فتزيد ساعات النهار، ويدخل ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد ساعات الليل، وهو سبحانه عليم بالنيات والخفايا في صدور الناس.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - فضل التسبيح، وأفضله: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. (أيسر التفاسير ٤/٢٠٣).
- ٢ - اتصافه سبحانه بالقادر الذي لا ينازعه شيء، والذي رتب كل موجود على ترتيب حُكْمِيّ، تامّ القدرة.
- ٣ - مظاهر القدرة والعلم والحكمة في هذه الآيات الخمس هي موجبات ربوبية الله تعالى وألوهيته، وهي مقتضية للبعث الآخر والجزاء فيه.
- ٤ - في الآية (٤) إخبار مستقبليّ عن عِلْمِ الله المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو يعلم ما يدخل في الأرض من حَبٍّ ومطر وغير ذلك، وما يخرج منها من نبات وزروع وثمار، وما ينزل من السماء من مطر وغيره، وما يعرج فيها من الملائكة والأعمال، وهو سبحانه بعِلْمِهِ مع خلقه، أينما كانوا، وهو بصير بأعمالهم التي يعملونها، وسيجازيهم عليها.
- ٥ - في الآية (٦) إخبار مستقبليّ عن عِلْمِ الله المطلق في الماضي والحاضر والمستقبل، كيف لا وهو يعلم بما في صدور خلقه؟
- ٦ - وجوب مراقبة الله تعالى والحياء منه؛ وذلك لعِلْمِهِ بظواهرنا وبواطننا وقُدْرَتِهِ علينا، عاجلاً وأجلاً.

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ٧
 وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ
 عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَاكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً
 مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا أَكْثَرَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
 قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بُشْرَتُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُنْفِقَتُ
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظِرُونَا نَقْتَسِمِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
 وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ
 وَغَرَّبْتُمْ الْآمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

التفسير:

٧- يأمر الله تعالى عباده أن يُصَدِّقُوا به، ويُقِرُّوا له بالوحدانية، وبرسوله بالرسالة، ويأمرهم بالإنفاق من أموالهم التي جعلهم خلفاء له سبحانه في التصرف فيها، ووَعَدَ المُسْتَجِيبِينَ له في هذه الأوامر بالثواب العظيم والنعيم المقيم في الجنة.

٨- وَيُؤَكِّدُ هذه الأحكام بإنكاره على مَنْ لَا يُسْتَجِيبُ: وَأَيُّ عُدْرٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَا هُوَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُوكُمْ لِلإِيمَانِ بِرَبِّكُمْ، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْعَهْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْيَمِينِ عَلَى ذَلِكَ، إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ؟

٩- هُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ آيَاتٍ مَفْصَّلَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْمَعْجَزَاتِ الْعَظِيمَةِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْغَوَايَةِ إِلَى نُورِ الْهُدَايَةِ. وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ شَدِيدُ الرَّأْفَةِ، وَاسِعُ الرَّحْمَةِ.

١٠- وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي نَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ، وَجَمِيعِ الْأَمْوَالِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَصِيرُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ لَا يَسْتَوِي فِي الْفَضْلِ وَالثَوَابِ مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ، وَقَاتَلَ الْأَعْدَاءَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، مَعَ مَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ وَقَاتَلَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ. أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا وَقَاتَلُوا بَعْدَ الْفَتْحِ، وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ وَعَدَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ. وَاللَّهُ بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ.

١١ - يُخْضُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي نَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ: إِنَّ مَنْ يَنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُضَاعَفْ لَهُ الثَّوَابُ، وَلَهُ جِزَاءٌ كَرِيمٌ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ.

١٢ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى - أَيُّهَا الرَّسُولُ - الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ يَمْتَدُّ نُورُهُمْ أَمَامَهُمْ وَحَوْلَهُمْ - وَهُوَ نُورٌ حَقِيقِي - عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ. وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «يُؤْتُونَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ: مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَأَدْنَاهُمْ نُورًا مِّنْ نُورِهِ عَلَى إِبْهَامِهِ، يَطْفِي مَرَّةً، وَيَقْدُ أُخْرَى». (أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ الْمُسْتَدْرَكُ ٢/٤٧٨). وَقَدْ صَرَّحَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِأَنَّهُ يَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ. (يَنْظُرُ الْمُسْتَدْرَكُ ٢/٤٧٨). وَيُقَالُ لَهُمْ: بِشَارَتِكُمُ الْعَظِيمَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَسْتَقْبَلُكُمْ مِنَ الزَّمَانِ دَخُولِ بَسَاتِينِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ مَا كَثُرْنَ فِيهَا أَبَدًا. ذَلِكَ الْمَقَامُ الْكَرِيمُ هُوَ الْفَلَاحُ الْعَظِيمُ.

١٣ - وَيَلْتَمِسُ أَهْلُ النِّفَاقِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ذَلِكَ النُّورَ فِي ظُلُمَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذْ يَنَادُوهُمْ وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ النُّورِ، فَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِاسْتِهْزَاءٍ: ارْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا فَاطْلُبُوا نُورًا آخَرَ. فَضُرِبَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِحَاجِزٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ الرَّحْمَةُ مِنَ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، وَظَاهِرُهُ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِينَ فِيهِ جَحِيمُ النَّارِ.

١٤ - يَصِيحُ الْمُنَافِقُونَ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا نَقِيمَ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ؟ فَيُرَدُّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ: بَلَى كُنْتُمْ مَعَنَا فِي الظَّاهِرِ، وَلَكِنَّكُمْ دَمَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِالنِّفَاقِ، وَشَكَّكْتُمْ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَانْخَدَعْتُمْ بِالْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ، وَتَمَنَّيْتُمْ أَنْ تَقَعَ الْمَصَائِبُ بِالْمُؤْمِنِينَ حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ، وَخَدَعَكُمْ الشَّيْطَانُ بِتَزْيِينِهِ لَكُمْ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِي.

١٥ - فَفِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ لَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ - أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ - عَوَاضٌ وَلَا مِنَ الْكُفَّارِ، مَصِيرَكُمْ جَمِيعًا نَارُ جَهَنَّمَ هِيَ مُسْتَقَرُّكُمْ، وَبئسَ الْمَرْجِعُ وَالْمُسْتَقَرُّ النَّارُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بَيَانُ لُطْفِ اللَّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ مَحَبَّتَهُ وَطَاعَتَهُ وَشُكْرَهُ.
- ٢ - الْإِنْفَاقُ فِي الشَّدَائِدِ وَالْحَرْبِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْيَسْرِ وَالْعَافِيَةِ.
- ٣ - بَيَانُ مَرَاتِبِ الصَّحَابَةِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ لِلسَّابِقِ.
- ٤ - فِي الْآيَةِ (٧ - ١١) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنْ عِظَمِ أَجْرِ الْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُحْتَسِبًا مِنْ قَلْبِهِ بِلَا مَنٍّ، وَلَا أَدَى، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُضَاعَفُ لَهُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ.
- ٥ - مِنْ بَشَائِرِ السَّعَادَةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ قَبْلَ دَخُولِ الْجَنَّةِ تَلَقِّي الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ، وَإِعْطَاؤُهُمْ كُتُبَهُمْ بِأَيَّامِهِمْ وَسَطْوَعِ نُورِ عَالِ يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبَأَيَّامِهِمْ، يَتَقَدَّمُهُمْ عَلَى الصَّرَاطِ إِلَى الْجَنَّةِ.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيفُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ءَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرِّدُهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٦- ألم يحين الوقت الذي فيه ترقى قلوب المؤمنين عند ذكر الله العظيم، وسماع القرآن الكريم، ولا يكونون في قسوة القلوب كاليهود والنصارى الذين طال عليهم الزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم، فبدلوا كلام الله، وكثير منهم مخالفون أمر الله؟

١٧- اعلموا - أيها العباد - أن الله تعالى يحيي الأرض الميتة بالمطر، فكذلك القلوب تحيا، وتطمئن بذكر الله العظيم والقرآن الحكيم.

١٨- إن الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله تعالى، وأنفقوا في سبيل نصره دين الله، يضاعف لهم الأجر الكريم، وهم جنات النعيم.

١٩- والذين صدقوا بالله تعالى، وأقروا له بالوحدانية، ولرسله بالرسالة، هؤلاء أصحاب المنازل العالية هم الذين بلغوا مرتبة الصديقين ومرتبة الشهداء، لهم ثوابهم الكريم، ويؤتون نورهم العظيم يوم القيامة، والكفار والذين كذبوا بآياتنا المسموعة والمشاهدة، أولئك البعداء عن رحمة الله ملامزون نار الجحيم.

٢٠- اعلّموا - أيها العباد - أنّ هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب بالأبدان، وهو للقلوب، وزينة في الملابس والمراكب، وافتخار بالأموال والأولاد والأنساب، ومباهاة بكثرتها، مثلها شبه مطر غزير أصاب أرضاً فأعجب الزّرع نباته الناشئ عن المطر، ثمّ يجفُّ بعد خضرته فتراه مُصْفَرّاً، ثمّ يتكسّر بعد جفافه، فيصبح فُتاتاً تُطَيِّره الرياح. والجزاء في الآخرة عذاب شديد بالنيران للكافرين، ومغفرة من الله ورضوان للمؤمنين، وليست الحياة الدنيا إلا متاعاً، وهو غرور لا حقيقة له لِمَن رضي بها وترك الآخرة.

٢١- سارعوا في السبق - أيها العباد - في ميدان الدنيا إلى أسباب المغفرة من التوبة النصوح ومرضاة الله بطاعته، وسابقوا في الدنيا إلى جنّة عظيمة، عَرَضُهَا كعرض السماء والأرض، أُعِدَّتْ للمصدّقين بالله تعالى وبرسوله ﷺ. ذلك المقام الكريم في الجنان فضل الله يرزقه مَنْ يشاء من عباده، والله صاحب الفضل العظيم على أهل الإيمان.

٢٢-٢٤- يُطَمِّئِنُ اللهُ تعالى عباده أنّ ما يقع في الأرض من مصائب وما يصيب العباد منها، أمورٌ مقدّرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الناس. إنّ ذلك الأمر العظيم من الإثبات على الله هيّن، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكيلا تفرحوا فرحاً بطر؛ بسبب ما رزقكم من متاع الدنيا. والله لا يحبُّ كلَّ متكبرٍ معجبٍ بما أعطاه الله من الخير. هؤلاء المتكبرون هم الذين يبخلون بأموالهم عن الإنفاق في سبيل الله، ويُرغَبون الناس في البخل، ومَنْ يعرض عن الإنفاق فإنَّ الله هو الغنيُّ عن خلقه، المحمود على كلِّ حال.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- صحَّ عن ابن مسعود ؓ أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، إلا أربع سنين. (صحيح مسلم، التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] برقم ٣٠٢٧).
- ٢- التحذير من الغفلة ونسيانِ ذِكْرِ اللهِ، وما عنده من نعيم، وما لديه من نكالٍ وعذاب.
- ٣- النهي عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب.
- ٤- تأكيد فضل الصدقة، وعِظْمُ أَجْرِهَا عند الله.
- ٥- مرتبة الصّديقين أعلى مرتبة من الشهداء؛ ولهذا قدّمهم عليهم في الآيتين.
- ٦- التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا.
- ٧- وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.
- ٨- بيان الحكمة في معرفة القضاء والقدر والإيمان بهما.

٩ - حرمة الاختيال والفخر والبخل، والأمر بالبخل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ
(٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثَّهُمْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَلَيْسُوا أَتَابِعُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِيقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَتَأْتِيَ لَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَيْقَدُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٥ - قسماً لقد أرسلنا رُسُلنا بالمعجزات الباهرة والحجج الظاهرة، وأنزلنا معهم الكتب الحافلة بالأحكام الشرعية، ومعالم الميزان العدل، ليقوم الناس بالحق والإنصاف في معاملاتهم، وأنزلنا الحديد فيه قوَّة وصلابة، ومنافع للناس في السلم والحرب، وليقوم المؤمنون بإعلاء كلمة الله، فيبني من ينصر دينه وينصر رسله. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ لَا يُغَالَبُ، عزيز في انتقامه.

٢٦ - وقسماً لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام وإبراهيم عليه السلام إلى قومهما، وجعلنا في ذرئتهما كثيراً من الأنبياء، وأنزلنا عليهم الكتب، فمن ذرئتهما عباد مهتدون، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله.
٢٧ - ثم أتبعنا بعدهم برُسُلنا الذين أرسلناهم، وجعلنا عيسى بن مريم عليه السلام بعد أولئك الرسل، وأعطيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب أتباعه الخواريين لِيناً وشفقة، ورهبانية ابتدعها الرهبان والقسس والانقطاع للعبادة، ما فرضناها نحن عليهم، ولكن ابتدعوها من جهة أنفسهم بنية رضا الله، فما قاموا بها حقَّ القيام، فجزينا المؤمنين منهم بالثواب الكريم، وكثيرٌ منهم مخالفون أمر الله تعالى.

٢٨-٢٩- يُخَاطِبُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخَافُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَأَنْ يُصَدِّقُوا الرَّسُولَ ﷺ وَيَتَّبِعُوا سُنَنَهُ؛ لِيُعْطِيَهُمْ ضَعْفَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلَ لَكُمْ نُورًا تَهْتَدُونَ بِهِ، وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. وَاللَّهُ غَفُورٌ لِعِبَادِهِ، رَحِيمٌ بِهِمْ، يَمُنِّحُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِيَعْلَمَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ إِعْطَائِهِمْ أَنْفُسَهُمْ أَوْ لغيرِهِمْ، وَأَنَّ الْفَضْلَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، يَعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللَّهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ الْعَظِيمِ عَلَى عِبَادِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان أفضال الله وإنعامه على الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان.
- ٢- تمثل عملية إنزال الحديد إلى الأرض وتمايزها إلى سبع أرضين واحدة من أخطر العمليات في تاريخ الأرض، فلولا هذه العملية ما كانت الأرض صالحة للعمران. ولولا الحديد في لب الأرض ما كان لها مجال مغناطيسي، ولولا المجال المغناطيسي للأرض ما استطاعت الإمساك بغلافها المائي، ولا بغلافها الهوائي، ولا بمختلف صور الحياة على سطحها.
- ٣- في الآية (٢٥) إخبار مستقبلي، وبيان للحكمة من إرسال الرسل بالحجج الواضحات، وإنزال الكتاب معهم بالأحكام والشرائع، وإنزال الميزان، كل ذلك كي يتعامل الناس بينهم بالعدل.
- ٤- تبيّن للباحثين بعد دراسات تحليلية للآثار الراسخة في صخور الأرض ومعالجات مخبرية لمحتوياتها أنّ المكونات الأساسية للحياة في الأرض إنّما نزلت من السماء، وأنّها ألحقت بتركيبية الأرض بفعل القذّفات النيزكية التي كانت تأتي من الفضاء. وكشفت دراسات دقيقة عن مكون هام للنيازك هو هيدرات الحديد الذي أنزل مع هذه الأجسام إنزالاً ملموساً في شكل مركب حديد وماء وأوكسجين. (مجلة الإعجاز العلمي العدد (٣٨) ربيع الآخر ١٤٣٢هـ ص ٣٩).
- ٥- ذمّ الله تعالى الرهينة لأمرين: ابتداء في دين الله لم يأمر الله به، وعدم التزامهم بما ابتدعوه مع زعمهم أنه قرينة يقربهم إلى الله ﷻ.
- ٦- في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي عن جزاء من خاف عقاب الله، وآمن برسوله، فإنّ الله ﷻ سيؤتيه ضعفين من رحمته، ويجعل له نوراً يهتدي به، ويغفر له ذنوبه.
- ٧- إبطال مزاعم أهل الكتاب في ضمان الجنة لهم، وإعلامهم بأنهم محرومون منها ما لم يؤمنوا برسول الله ﷻ، ويتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيهِ.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان أحكام الظهار، والكفارة فيه.

٢ - التحذير من ولاء المنافقين لليهود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوَرِكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

١ - سبب النزول:

عن خُوَيْلَةَ بنت ثعلبة رضي الله عنها قالت: والله فيّ وفي أوس بن صامت ؓ أنزل الله سورة المجادلة. قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خُلُقُهُ وَضَجِرَ. قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي. قالت: فقلت كلاً والذي نفس خويلدة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فوائبني وامتنعتُ منه، فغلبتُها بما تغلب به المرأة الشيخَ الضعيف، فألقيته عني. قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئتُ رسول الله ﷺ، فذكرت له ما لقيتُ منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقى من سوء خُلُقِهِ، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلدة، ابنُ عمِّك شيخ كبير، فاتقي الله فيه. قالت: فوالله ما برحْتُ حتى نزلَ فيّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُرِّي عنه. فقال لي: يا خويلدة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوَرِكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله:

﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (أخرجه الإمام أحمد، المسند ٦/٤١٠-٤١١، وأخرجه أبو داود مختصراً (السنن - الطلاق، باب في الظهار برقم ٢٢١٤) وذكره ابن كثير وسنده حسن ثم قال: هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة (٨/٦٢ طبعة الشعب).

التفسير:

قد سمع الله تعالى حقاً قول الصحابية خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها التي تحاورك - أيها الرسول - في شأن زوجها أوس بن الصامت رضي الله عنه الذي ظاهرَ منها بقوله: أنتِ عليّ كظهر أمي - أي: في حرمة النكاح - وهي تتضرعُ إلى الله أن يُنصِفَها، والله تعالى يسمع تحاورَكما في القصة. إنَّ الله سميع للأقوال، بصير بالأحوال والأفعال.

٢- الذين يُحَرِّمون منكم نساءهم - أيها المؤمنون - بالمظاهرة كصنيع أوس بن الصامت رضي الله عنه، فנסأؤهم لَسُنَّ أمهاتهم، وإنَّا هنَّ زوجاتهم، ما أمهاتهم في الحقيقة إلا الوالدات اللَّاتِي وَلَدَتْهُنَّ من بطونهنَّ، والحال أنَّ هؤلاء المظاهرين ليقولون كلاماً كاذباً لا حقيقة له. وإنَّ الله لعفوٌ غفور لِمَن تاب وأناب.

٣-٤ - حُكِمَ الذين يُحَرِّمون نساءهم على أنفسهم بالمظاهرة منهنَّ، ثمَّ يرجعون عن التحريم، ويعزمون على جماع نساءهم: عليهم عِتْقُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ الْجِمَاعِ. ذلكم الرِّجْزُ العَظِيمُ تُوعِظُونَ بِهِ، والله بكلِّ ما تعملون خبير لا يخفى عليه شيء، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ رَقَبَةً يَعْتَقْهَا، أَوْ لَمْ يَمْلِكْ ثَمَنَهَا، فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل الجِمَاعِ. فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ الصِّيَامَ فعليه إطعام ستين مسكيناً من أوسط الطعام. ذلك الترخيص لتُصَدِّقُوا بِاللَّهِ ورسوله في قبول هذه الأحكام. وتلك أحكام الله فلا تَتَعَدَّوْهَا، ولِلْمُكْذِبِينَ بِاللَّهِ عَذَابٌ مُوجِعٌ. أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فهو الرجل يقول لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمي، فإذا قال ذلك، فليس يحِلُّ له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يُكْفِّرَ عن يمينه بِعِتْقِ رَقَبَةٍ. (التفسير الصحيح ٦/٧٦).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إجابة الله لأوليائه بتفريج كربهم، وقضاء حوائجهم، فله الحمد والشكر.
- ٢ - تكرير لفظ الجلالة ثلاث مرات في الآية؛ وذلك لتربية المهابة، وإثارة تعظيم مِنِّهِ تعالى، ودواعي شكره.
- ٣ - ظهار أوس من خولة كان أولَ ظهارٍ في الإسلام.
- ٤ - تحريم الظهار، وأنَّه من الكبائر.

٥ - في الآيات دلالة على أن الظهار لم يكن مشروعاً في شرع قديم، ولا في شريعة الإسلام، بل هو من وُضع أهل الجاهلية.

٦ - قال ابن عاشور: «دَلَّ على تحريم الظَّهار ثلاثة أشياء، أحدها: تكذيب الله تعالى مَنْ فَعَلَ ذلك. الثاني: أَنَّهُ سَتَّاه منكرأ وزوراً، والزُّور: الكَذِبُ. وهو محرم بإجماع. الثالث: إخباره تعالى بأنه يعفو عنه ويغفر، ولا يُعفى ويُغفر إلا على المذنبين». (التحرير والتنوير: ١٣/٢٨).

٧ - من الحكمة في مشروعية كفارة الظهار: الرِّدْءُ والرَّجْرُ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكْتُوْنَ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ التَّجْوِيِثِ ثُمَّ يَعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ بِمَا لَمْ يَجِيْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرَ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير:

٥-٦ - إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ عَمْدًا فِي أَمْرِهِمَا خَذِلُوا، كَمَا خَذَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الَّذِينَ خَالَفُوا الْأَحْكَامَ، وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مَفْصَلَةً الْأَحْكَامِ لِلْعَمَلِ بِهَا، وَلِلْمُكْذِبِينَ بِهَا عَذَابٌ مُذِلٌّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُجْمِعِي اللَّهُ الْمَوْتَى جَمِيعًا وَيَجْمَعُهُمْ، فَيُخْبِرُهُمْ بِكُلِّ مَا عَمِلُوا، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَكَتَبَهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، وَهُمْ قَدْ نَسُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْجَرَائِمِ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُطَّلِعٌ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

٧ - أَلَمْ تَعْلَمُوا - أَيُّهَا الْعِبَادُ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ؟ مَا يَكُونُ مِنْ حَدِيثٍ سَرٍّ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَشْخَاصٍ إِلَّا كَانَ اللَّهُ رَابِعَهُمْ بِعِلْمِهِ، وَلَا خَمْسَةَ أَشْخَاصٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ، وَلَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ الْعَدَدِ وَلَا أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ فِي أَيِّ مَكَانٍ كَانُوا، ثُمَّ يُخْبِرُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ مَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ.

٨ - أَلَمْ تَنْظُرْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - إِلَى الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنِ الْحَدِيثِ سَرًّا بِمَا يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى مَا نُهُوا عَنْهُ، وَيُرْدَدُونَ الْكَلَامَ الْحَرَامَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ، وَمُخَالَفَةَ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ؟ وَإِذَا جَاءَكَ

هؤلاء اليهود حيّوك بتحية ظالمة فقالوا: السأم عليك - أي الموت عليك - ويتهامسون فيما بينهم بسخرية: هَلَّا يُعَدُّبْنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ لِمُحَمَّدٍ، إِنْ كَانَ رَسُولًا حَقًّا. تكفيهم نار جهنم يذوقون حرّها، فبئس المستقرّ هي. عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ الْيَهُودَ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، وَلَعَنَتْهُمْ. فَقَالَ: مَالِكٌ؟ قَالَتْ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: فَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ». (صحيح البخاري ٦/١٢٤ - ١٢٥ - كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، برقم ٢٩٣٥).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن يهودياً أتى على النبي ﷺ وأصحابه فقال: السأم عليكم، فردّ عليه القوم، فقال نبي الله ﷺ: هل تدرون ما قال هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، سلّم يا نبيّ الله. قال: لا، ولكنه قال كذا وكذا، ردّوه عليّ، فردّوه قال: قلت السأم عليكم؟ قال: نعم. قال نبيّ الله ﷺ عند ذلك: إذا سلّم عليكم أحدٌ من أهل الكتاب فقولوا: عليك. قال: عليك ما قلت. قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا تَرْمِيكَ بِهِ اللَّهُ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/٤٠٧ - كتاب التفسير، وصححه الألباني. صحيح سنن الترمذي برقم ٣٣٠١. وهو كما قال).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - مَنْ عَادَى اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ أَذَلَّهُ اللَّهُ وَأَهَانَهُ، وَجَعَلَ الْهَزِيمَةَ مَصِيرَهُ.
- ٢ - إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَشُهُودُهُ لِكُلِّ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، يُوجِبُ مِرَاقَبَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالخَشْيَةَ مِنْهُ، وَالْحَيَاءَ مِنْهُ أَشَدَّ الْحَيَاءِ.
- ٣ - عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْلَافِهِمُ الْيَهُودِ.
- ٤ - الْإِرْشَادُ إِلَى أَنْ التَّنَاجِي لِلْمَشَاوِرَةِ فِي الْخَيْرِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِدَدُ الْمُتَنَاجِينَ ثَلَاثَةً أَوْ خَمْسَةً أَوْ سَبْعَةً لِيَكُونَ الْوَاحِدُ عَدْلًا مَرَجِحًا لِلْخِلَافِ، قَاضِيًا فِيهِ، إِذَا اخْتَلَفَ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ وَاحِدٍ يُرْجَحُ جَانِبَ الْخِلَافِ، وَإِذَا اخْتَلَفَ أَرْبَعَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ خَامِسٍ يَرَجِحُ جَانِبَ الْخِلَافِ.
- ٥ - إِذَا سَلَّمَ الذَّمِّيُّ وَكَانَ سَلَامُهُ بِلَفْظِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ
 فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
 دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ
 ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ
 تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

التفسير:

٩-١٠ - يأمر الله المؤمنين إذا تحدّثوا بينهم سرّاً ألا يتحدّثوا بما فيه ذنب وعدوان على الآخرين، ومخالفة لأمر الرسول ﷺ، وأن يتحدّثوا سرّاً بما فيه خير، وطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه، ثم أمرهم بالخوف منه سبحانه، الذي هم إليه يرجعون للحساب. ويؤكد سبحانه أنّ النجوى بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان، من أجل أن يُدخِلَ الحزن في قلوب المؤمنين، وليس ذلك بمؤذٍهم شيئاً، إلا بأمر الله تعالى، وعلى الله فليعتمد المصدقون بالله تعالى ورسوله ﷺ. عن عبد الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث». (صحيح البخاري ١١ / ٨٤ - كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث برقم ٦٢٨٨. وصحيح مسلم ٤ / ١٧١٨ برقم ٢١٨٤ - كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث).

١١ - ويأمرهم أيضاً أن يتوسّعوا في المجالس إذا طلب إليهم ذلك، وأن يقوموا منها لأمر من الأمور التي تنفعهم، ثم بشر المؤمنين وأهل العلم برفع درجاتهم في الجنّة. والله خير بكلّ أعمالهم، وسيجازيهم عليها. عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: أنّه نهى أن يقيم الرجل من مجلسه ويجلس فيه الآخر، ولكن تفسّحوا، أو وسّعوا. (صحيح البخاري - الاستئذان، باب لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه، برقم ٢٦٧٠).

١٢-١٣ - يحثُّ الله تعالى الصحابة ﷺ على تقديم الصدقة لأهل الحاجة إذا تكلموا مع رسول الله ﷺ سراً. ذلك التقديم الكريم خير لكم؛ لما فيه من العون والثواب، وأزكى لقلوبكم، فإن لم تجدوا ما تُعطونه صدقة فلا إثم عليكم؛ لأنّ الله تعالى غفور لعباده المؤمنين، رحيم بهم، ثم أكّد الله تعالى ذلك: هل خِفْتُمْ - أيها المؤمنون - الفقر في تقديم الصدقات للمحتاجين قبل مناجاتكم لرسول الله ﷺ؟ فإذا لم تُقدِّموا الصدقة، وشقّ ذلك عليكم، وتاب الله عليكم بترخيص الترك، ورَفَعَ هذه المشقة، فواظبوا على إقامة

الصلاة وإعطاء الزكاة، وأطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل أحوالكم. إِنَّ الله خبير بكل ما تُقَدِّمون من أعمالكم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التحذير من مكر اليهود والمنافقين، وكيدهم للمؤمنين في كل زمان ومكان.
- ٢ - ضرورة تطهير المجتمع من الإشاعات والأحاديث الموهنة للعزائم.
- ٣ - في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ التحدُّث خفية بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان، فهو المزيِّن لها، والحامل عليها، وأن ذلك ليس بمؤذي المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته.
- ٤ - وجوب التوكل على الله، وتَرْك الأوهام والوساوس، فإنها من الشيطان.
- ٥ - من أدب مجلس العلم أن يُوسَّع المسلم لأخيه، والقيام للكبير والعالم لإجلالته.
- ٦ - في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ عن جزاء مَنْ طَلِبَ إليه أن يُوسَّع لغيره في المجلس فوسَّع له، فإنَّ الله ﷻ سيوسِّع عليه في الدنيا والآخرة. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله تعالى خير بأعمال عباده في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يخفى عليه شيء منها.
- ٧ - فضيلة الإيمان، وفضل العلم والعمل به.
- ٨ - اتفاق العلماء على أن حكم صدقة المناجاة منسوخ.

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ قَوْلًا مَّوَدًّا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُم وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
 عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
 ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾
 اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

التفسير:

١٤-١٥- ألم تنظر - أيها الرسول - وتتعجب من المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء؟ ليس هؤلاء
 المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، ويقسمون بالله كاذبين إنهم مسلمون، ومُقرِّون برسالة النبي ﷺ.
 وهم يعلمون أنهم كاذبون في ذلك. أعدَّ الله لهم عذاباً شديداً الألم، إنهم بئس ما كانوا يعملون من الجرائم.
 ١٦-١٩- جعلوا أيمانهم الفاجرة حمايةً لهم من القتل، فمنعوا أنفسهم والناس عن الدخول في الإسلام،
 فلهم عذاب مُدَلٌّ في نار جهنم، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً. هؤلاء البُعداء عن
 رحمة الله هم أهل النار ووقودها، مُلازمون لها. يومَ القيامة يخرجهم الله تعالى أحياء من قبورهم جميعاً،
 فيقسمون بالله كما كانوا يُقسمون لكم - أيها المؤمنون - في الدنيا، وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ سَيَنْقِذُهُمْ. ألا فانتبهوا
 أيها العباد، إنهم هم الكاذبون قطعاً، استولى عليهم الشيطان، وسَغَلَهُم بالشهوات حتى نَسُوا ذِكْرَ اللَّهِ.
 هؤلاء البُعداء عن الحقِّ أتباع الشيطان، ألا فانتبهوا أيها العباد، إِنَّ أَتْبَاعَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ أَنفُسَهُمْ فِي
 الدارين.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تحريم موالة اليهود.
- ٢- تحريم الحلف على الكذب، وهي اليمين الغموس.
- ٣- في الآية (١٩) إخبار مستقبلي عن عاقبة الذين غلبهم الشيطان، واستولى عليهم، حتى تركوا
 أوامر الله والعمل بطاعته، فإنَّ لهم الخسران في الدنيا والآخرة.
- ٤- من علامات استحواذ الشيطان على الإنسان تَرْكُهُ لِذِكْرِ اللَّهِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَلَوْعِدِهِ وَوَعِيدِهِ،
 بأعماله وأقواله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿

التفسير:

٢٠- إِنَّ الَّذِينَ يُعَانِدُونَ حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ الْبِعْدَاءُ عَنِ الْحَقِّ، هُمْ فِي جَمَلَةِ الْمُهَانِينَ الْمُبْعَدِينَ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

٢١- قَضَى اللَّهُ وَحَكَّمَ فِي عِلْمِهِ السَّابِقِ بِأَنَّ النُّصْرَ لِدِينِهِ وَرَسُولِهِ. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ، عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ.

٢٢- لَا تَجِدُ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - قَوْمًا يُصَدِّقُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَالُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ أَقْرَبَاءَهُمْ. هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ. قَدَّرَ اللَّهُ لِقُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَمَدَّهُمْ بِنُصْرِهِ مِنْهُ، وَتَأْيِيدَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَكْرَمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِدُخُولِ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ الْعَذْبَاءُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا، مَا كَثُرَتْ فِيهَا أَبَدًا لَا يَمُوتُونَ، قَبِلَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْمَالَهُمْ، فَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَنَالُوا ثَوَابَهُ، فَرَضُوا بِمَا أَكْرَمَهُمْ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَجُنْدِهِ، الْفَائِزُونَ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَبِجَنَّةِ النِّعَمِ فِي الْآخِرَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- فِي الْآيَةِ (٢٠) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ جَزَاءِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُمْ مِنْ جَمَلَةِ الْمُهَانِينَ الْمُبْعَدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٢- كَتَبَ اللَّهُ الْعَلْبَةَ لِدِينِهِ وَرَسُولِهِ.

٣- فِي الْآيَةِ (٢٢) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ عَنِ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي اللَّهِ وَالْمُعَادِينَ فِيهِ، بِأَنَّهُمْ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَقَوَّاهُمْ بِنُصْرِهِ مِنْهُ، وَتَأْيِيدَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُدْخِلُهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ.

٤ - تحريم موالة الكافر بالنصرة والمحبة، ولو كان أقرب قريب، وقد قاتل أصحاب رسول الله آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم في بدر. وفيهم نَزَلَتْ هذه الآية تبشّرهم برضوان الله تعالى لهم، وإنعامه عليهم.

٥ - مَنْ سعى للإيمان أمدّه الله بمزيد من التوفيق.

٦ - الخسران لحزب الشيطان، والفلاح لحزب الله.

النزول: مدنية.

عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبَيِّحْ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذَكَرَ فِيهَا. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير.
(صحيح البخاري ٤٩٧/٨ - كتاب التفسير - سورة الحشر برقم ٤٨٨٢).

المقاصد:

١ - بيان عقوبة نقض العهد.

٢ - بيان أحكام الفداء والغنيمة، وحق الفقراء في ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مَنْ لَيْسَ أَوْ تَرَكَتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

١ - سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت غزوة بني النضير - وهم طائفة من اليهود - على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - يعني السلاح - فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سببط لم يُصَبِّهِمْ جَلَاءَ فِيهَا خِلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك. ولولا ذلك لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ

والسبي. وأما قوله: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام. (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه. (المستدرک ۲/ ۴۸۳ - كتاب التفسير) وصححه الذهبي).

التفسير:

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ، وَكَثْرَةَ تَسْبِيحِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَسَعَةَ مَلَكُوتِهِ: إِنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ كُلَّهَا تَلْهَجُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ لِرَبِّهَا، وَتُحَدِّدُهُ وَتُقَدِّسُهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ الْعَزِيزُ فِي خَلْقِهِ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِهِمْ.

۲- اللهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رِسَالَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ دِيَارِهِمْ - الَّتِي جَاوَرُوا بِهَا الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ - عِنْدَ أَوَّلِ إِجْلَاءِ لَهُمْ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّامِ، مَا ظَنَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - أَنْ يُخْرَجُوا؛ لِشِدَّةِ حَصُونِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَظَنَّ بَنُو النَّضِيرِ أَنَّ حَصُونَهُمْ تَحْمِيهِمْ مِنْ أَيِّ اقْتِحَامٍ، فَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ، فَالْتَقَى فِي قُلُوبِهِمُ الْخَوْفُ، يَقُومُونَ بِخَرَابِ بِيوتِهِمْ بِشِدَّةٍ مِنَ الدَّاخِلِ؛ لِثَلَا يَسْكُنُهَا الْمُسْلِمُونَ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُخْرِبُونَ سَائِرَ الْجَوَانِبِ مِنْ ظَاهِرِهَا؛ لِيَقْتَحِمُوا حَصُونَهُمْ، فَاتَّعَظُوا يَا أَهْلَ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ.

۳- وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَى عَلَيْهِمُ بِالْخُرُوجِ مِنْ دِيَارِهِمْ؛ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ نَارِ جَهَنَّمَ.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين. إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ، فأمنتهم وأسلموا. وأجلى رسول الله ﷺ يهود المدينة كلهم: بني قينقاع (وهم قوم عبد الله بن سلام)، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة. (صحيح مسلم ۳/ ۱۳۸۷- ۱۳۸۸ - كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز - برقم ۱۷۶۶).

۴- ذَلِكَ الْعِقَابُ الْعَظِيمُ مِنَ الْجَلَاءِ؛ بِسَبَبِ أَتَمِّمْ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَمَرَ الرَّسُولِ ﷺ بِعِنَادٍ. وَمَنْ يَخَالِفِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لَهُ.

۵- سبب النزول:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ الْبُؤَيْرَةُ، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْ عَلَىٰ أُصُولِهَا فَاِذَِنَّ اللَّهُ﴾. (صحيح البخاري ۷/ ۳۸۳ - كتاب المغازي، باب حديث بني النضير... برقم ۴۰۳۱. وصحيح مسلم ۳/ ۱۳۶۵ - كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، برقم ۱۷۶۶. والبؤيرة موضع منازل بني النضير بالمدينة. وذكر البلادي أنها لم تعد معروفة (معجم المعالم الجغرافية في الحجاز ص ۵۱).

التفسير:

ما قطعتم - أيها المؤمنون - من نخلة أو تركتموها باقية على ساقها كما كانت، فأمر الله ورضاه، وليدّل الخارجين عن طاعته.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تذكير الله تعالى للمؤمنين بتسبيحهم له تسبيحاً شكرياً؛ على ما مكّنهم من فتح بلاد بني النضير.
- ٢ - التعريض لليهود بني النضير بأنهم أصابهم ما أصابهم لتكثّرهم عن تسبيح الله حقّ تسبيحه بتصديق رسوله ﷺ.
- ٣ - اليهود ذوو غدرٍ ونقضٍ، لا يدومون على عهد.
- ٤ - تحريم الخيانة والغدر.
- ٥ - بيان أكبر عبرة في خروج بني النضير، وذلك لما كان لهم من قوة، ولما عليه المؤمنون من ضعف. ومع هذا فقد انهزموا شر هزيمة وتركوا البلاد والأموال، ورَحَلُوا إلى غير رجعة. فعلى مثل هذا يتعظ المتعظون، فإنه لا قوة تنفع مع قوة الله، فلا يفتّر العقلاء بقواهم المادية، بل عليهم أن يعتمدوا على الله في كل حال.
- ٦ - إِنَّ قَدْ رَعِبَ فِي قُلُوبِهِمْ هُوَ مِنْ أحوال إتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا، فتخصيصه بالذكر للتعجب من صنعه سبحانه.
- ٧ - احتج بالآية (٢) في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ بعض علماء الأصول؛ لإثبات حجية القياس بناءً على أنه من الاعتبار.
- ٨ - عطف لفظ الرسول ﷺ على لفظ الجلالة؛ تعظيماً لشأنه، وبيان أن طاعته من طاعة الله.
- ٩ - مَنْ يَعَادِ اللَّهَ يُعَدِّبْهُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴿

التفسير:

٦- وما آفاء الله على رسوله - والقيء: ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال - من أموال يهود بني النضير، فلم تتركوا خيلاً ولا إبلاً لتحصيله، ولكن الله ينصر رسوله بقذف الرعب في قلوب من يشاء من أعدائه، فيستسلمون. والله على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حديثاً طويلاً ومنه: إن الله قد خصَّ رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه القية لم يُعْطِه أحدٌ غيره ثم قرأ: ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم. (صحيح البخاري - فرض الخمس، باب فرض الخمس برقم ٣٠٩٣).

٧- ما آفاء الله على رسوله من أموال الكفار فلله ولرسوله، يُصْرَفُ في مصالح المسلمين، ولأقرباء النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وعبد المطلب، واليتامى الفقراء الذين مات آباؤهم قبل البلوغ، والفقراء، والغريب المسافر المنقطع عن ماله، وذلك حتى لا يكون المال ملكاً متداولاً بين الأغنياء وحدهم، وما أعطاكم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو شرَّعه لكم، فخذوه، وما نهاكم عن أخذه أو فعله فانتهاوا عنه، وخافوا الله بطاعة أحكامه. إن الله شديد العقاب لمن عصاه. قال عمر رضي الله عنه: اجتمعوا لهذا القية حتى ننظر فيه، فإني قرأت آيات من كتاب الله استغنيت بها، قال الله: ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

الْقَرِينِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٤﴾ والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ثم قرأ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٦﴾. (أخرجه ابن أبي شيبة وسنده حسن. المصنف ٦٣٩/٧).

٨- وفي هذا الفيه حَقٌّ للصحابة الفقراء المهاجرين، الذين أُلْهِمُوا كَفَّارَ مَكَّةَ إِلَى الْمُهْجَرَةِ مِنْ بِلَادِهِمْ، فَتَرَكُوا الدِّيَارَ وَالْأَمْوَالَ، يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ الرِّزْقَ الْحَلَالَ وَمَرْضَاتِهِ، وَيَنْصُرُونَ دِينَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ هُمُ الصَّادِقُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ.

٩- سبب النزول:

عن أبي هريرة ؓ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يُضيفه الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تُدْخِرِيه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهن، وتعالني فأطفي السراج، ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت. ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عَجِبَ اللَّهُ ﷻ - أَوْ صَحَّحَكَ - من فلان وفلانة». فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿٤٧﴾.

(صحيح البخاري ٥٠٠/٨ - كتاب التفسير - سورة الحشر، باب (الآية) برقم ٤٨٨٩. وصحيح مسلم ١٦٢٤/٣ برقم ١٧٣ - كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره. نحوه).

التفسير:

يمدح الله تعالى الصحابة الأنصار ؓ من أهل المدينة: يُحِبُّونَ الصَّحَابَةَ الْمُهَاجِرِينَ ؓ، وَيُوَاسُونَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَلَا يَجِدُ الْأَنْصَارُ فِي أَنْفُسِهِمْ غِيظًا وَحَسَدًا مِمَّا أُعْطِيَ إِخْوَانَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْفُقَرَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَاجَةٌ وَفَقْرٌ، وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الْبَخْلِ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

١٠- وَيُثْنِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَيْضًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ جَاؤُوا بَعْدَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، يَلْهَجُونَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالِدَعَاءِ لِإِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ دَائِمًا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَاغْفِرْ لِإِخْوَانِنَا فِي الدِّينِ الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا

تجعل في قلوبنا حسداً وحِقْداً لأحدٍ من المؤمنين. رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، رحيم بهم. ولقد استجاب الله تعالى لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [سورة الحجر: ٤٧].

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير ممّا أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، ممّا لم يُوجِفِ المسلمون عليه بخيَلٍ ولا رِكابٍ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصةً، يُنْفِقُ على أهله منها نفقةً سنّته، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُراع عُدةً في سبيل الله. (صحيح البخاري ٤٩٨/٨ - كتاب التفسير - سورة الحشر، باب ﴿رَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ برقم ٤٨٨٥. وصحيح مسلم ١٣٧٦-١٣٧٧ - برقم ١٧٥٧ - كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء).
- ٢ - مصارف الفيء حدّدها القرآن وفصّلها، حتى يُرَضِيَ كُلَّ أَحَدٍ.
- ٣ - الإسلام حريص على الحلول المستوعبة للمشكلات؛ ولذلك أعطى المهاجرين حتى يفتنوا ويستقلّوا.
- ٤ - وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر، والانتهاز عمّا نهى.
- ٥ - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الظلم؛ فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإنّ الشحّ أهلك من كان قبلكم، تحلّمهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم». (صحيح مسلم - كتاب البر، باب تحريم الظلم ١٨/٨ ط المكتب التجاري).
- ٦ - بيان فضل المهاجرين بالمهجرة وترك الديار، وفضل الأنصار بالإيثار، وأنّ حبّهم إيمان، وبغضهم كفران.
- ٧ - فضيلة إيواء المهاجرين ومساعدتهم على العيش في دار الهجرة. والمهاجرون هم الذين هاجروا في سبيل الله تعالى؛ فراراً بدينهم ونُصرةً لإخوانهم المجاهدين والمرابطين.
- ٨ - الفقراء المستحقون للفيء ثلاثة أقسام هم: المهاجرون، والأنصار، ثم الذين أتبعوهم بإحسان.
- ٩ - فضل الإيثار في حظوظ النفس والدنيا.
- ١٠ - خطر الشحّ، وهو البخلُ بما وجبَ إخراجُه من المال، والحرص على جمّعه من الحلال والحرام.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير:

١١ - ألم تنظر - أيها الرسول - إلى المنافقين، يتقرَّبون إلى إخوانهم يهود بني النضير، ويعِدُّونهم بالنصر كذباً بقولهم: قسماً إن أخرجكم محمد ومن معه من دياركم؟ قسماً لنخْرُجَنَّ معكم، ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحد أبداً إذا أمرنا بخذلانكم، وإن قاتلكم أحد، لنعاوننَّكم عليه. والله تعالى يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون حقاً فيما وعدوا به بني النضير. قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعِدُّونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به».

١٢ - قسماً إن أخرج اليهود من ديارهم، لا يخرج المنافقون معهم أبداً، وقسماً إن قُوتل اليهود لا يقاتلون معهم، وقسماً إن قاتلوا معهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار فراراً، ثم لا تنفعهم نصره المنافقين.

١٣ - لأنتم - أيها المؤمنون - أشدُّ مهابةً وخوفاً في صدور المنافقين واليهود من الخوف من الله. ذلك الرعب المخيف؛ بسبب أنهم قوم لا يفقهون قدرة الله وعقابه.

١٤-١٥ - لا يقدر اليهود على قتالكم - أيها المؤمنون - مجتمعيين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من وراء الحيطان؛ ليتسروا بها. عداوتهم فيما بينهم شديدة، تظنُّ أنهم مجتمعون على أمر واحد، ولكن قلوبهم متفرقة غير متفقة. ذلك الوصف الغريب بسبب أنهم قوم لا يعقلون أتباع الحق.

صفة بني النضير فيما وقع لهم من الطرد والدُّلِّ، كصفة كفَّار مكَّة يوم بدر ويهود بني قينقاع، إذ ذاقوا عاقبة إجرامهم، ولهم عذاب موجه.

- ١٦ - مَثَلُ المنافقين في خداع يهود بني النضير بالوعود الكاذبة، كمثل الشيطان حين خدع الإنسان بالكفر ثم تركه إذ قال له: إِنِّي بريء منك، إِنِّي أخاف عذاب الله خالق العالمين.
- ١٧ - فكان عاقبة الشيطان والإنسان الذي انتكس بالكفر أنَّهما في نار جهنم، ماكثين فيها أبداً. وذلك العذاب الدائم جزاء المعتدين على حدود الله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير أنَّ الكافرين والمنافقين ملة واحدة.
- ٢ - المنافقون يُوالون اليهود، ويرتبطون بهم ارتباط مصير.
- ٣ - حُلفُ الوعدِ آيةُ النفاق، وعلاماته البارزة.
- ٤ - تثبيت الرسول ﷺ والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.
- ٥ - تقرير الرهبة التي يصاب بها أعداء الإسلام من رسول الله ﷺ ودينه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر». (أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب (١)، برقم (٣٣٥)، صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١ ص ٥١٩).
- ٦ - في الآيات تشجيع للمؤمنين على منازلة الكفار المقاتلين، والحَمْلِ عليهم، وتبشيرهم بأنهم المنصورون الغالبون.
- ٧ - في الآية (١٤) إخبار مستقبلي، وتأكيداً لمواجهة اليهود لعباد الله المؤمنين، وقد وصف الله حال اليهود عند مواجهة المؤمنين بأنهم لا يُواجهونهم مجتمعين إلا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من خلف الجدران.
- ٨ - من شِدَّةِ جُبْنِ اليهود وحُلْفائهم أنَّهم لا يُقاتلون إلا مُتَحَصِّنين مُجتمعين.

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّوَا اللَّهَ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُهُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٨-١٩- يأمُر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعة أوامره واجتناب نواهيه، ولتأمل كل نفس ما قدّمت من خير ليوم القيامة، ثم كرّر الأمر بالتقوى؛ لبيان أهميتها. إنّ الله خير بكلّ ما تعملون في الدنيا، وينهاهم أن يكونوا كالذين نسوا الله، فعاقبهم بنسيان حقوق أنفسهم. أولئك البعداء عن الحقّ هم المخالفون أمر الله.

٢٠- لا يتساوى يوم القيامة أصحاب النار المعدّبون، وأصحاب الجنة المنعمون، أصحاب الجنة هم الفالحون في الدنيا والآخرة.

٢١- يُخبر الله تعالى عن مكانة القرآن الكريم وهيبته في الخلق العظيم، فلو أنزله على جبل عظيم، فقهِم ما فيه من الوعظ والذكر الحكيم، لرأيتَه على صلابته خاضعاً متشققاً من خشية الله تعالى. وتلك الأمثال العظيمة تُبَيِّنُهَا للعباد؛ لكي يتفكروا في آثار قدرة الله وتوحيده.

٢٢- يُبَيِّنُ الله تعالى في الآيات الثلاث الأخيرة بعض أسمائه الحسنَى وصفاته العُلَى، فإنّه هو الله المعبود بحقّ لا إله إلا هو، عالم بما غاب عن علم جميع خلقه، وعالم بما شاهدوه وعلموه، هو الرحمن بالخلق جميعاً في الدنيا، الرحيم بالمؤمنين في الدارين.

٢٣- هو الله سبحانه المعبود بحقّ لا إله إلا هو، المَلِكُ لجميع الأشياء، المتصرّف فيها وحده، القُدُّوس: المنزّه عن كل نقص، السَّلَام: الذي سلّم من كل عيب، المؤمن: المصدّق رسلّه وأنبياءه بإظهار المعجزات على أيديهم، المهيمِن: الرقيب الحافظ لكلّ شيء، العزيز: الذي لا يُغالب، الجبَّار: الذي قهر جميع خلقه، المتكَبِّر: الذي له الكبرياء والعظمة، تنزّه وتقدّس الله عن كلّ ما يُلحقون به من الشركاء.

٢٤ - هو الله سبحانه الخالق البارئ لجميع المخلوقات، المصوّر لخلقه كيف يشاء، له سبحانه الأسماء الحسنى الكثيرة، يلهج له بالتسبيح والتحميد كلُّ ما في السموات السبع والأرضين السبع، وهو العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - فضل التقوى وعظمتها.
- ٢ - وجوب التقوى بفعل الأوامر، وترك النواهي.
- ٣ - في الآيتين (١٨-١٩) إخبار مستقبليٍّ عن عِظَمِ خبرة الله سبحانه وتعالى بما يعمل به عباده - سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - فإنَّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وهو مجازيهم عليها.
- ٤ - وجوب ذِكْرِ الله تعالى، وعدم نسيانه؛ لأنَّ مَنْ نسي الله نسيه فلن يجد له ولياً يواليه، أو ناصرأ ينصره.
- ٥ - وجوب التميُّز عن الكافرين، والبُعد عن مشابهة الكافرين.
- ٦ - توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم خشوعه عند تلاوة القرآن، وقلة تدبُّره فيه.
- ٧ - وجوب مراقبة الله تعالى والنظر فيما قدَّم الإنسانُ للآخرة، وما أُخِّر.
- ٨ - استحسان ضرب الأمثال؛ للتنبيه والتعليم والإرشاد.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان أصول الولاء والبراء.

٢ - خصائص أحكام بيعة النساء اللاتي يدخلن الإسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَّكُمْ ءَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُوْمِنُوا بِأَلَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَشْفَقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّوٓا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۗ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۗ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

١ - سبب النزول:

عن عبید الله بن أبي رافع كاتب علي يقول: سمعتُ علياً ؑ يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزيبر والمقداد قال: انطلقوا حتى تأتوا روضةً خاخ، فإنَّ بها طعينة معها كتابٌ فخذوه منها. فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحنُ بالطعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتُخْرِجِنَّ الكتاب، أو لتُلْقِيَنَّ الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يُخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنتُ امرأً من قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يَحْمُونَ بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع

إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلتُ ذلك كُفراً ولا ارتداداً عن ديني. فقال النبي ﷺ: «إنَّه قد صدقكم». فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه. فقال: «إنَّه شهد بدرًا، وما يُدريك لعلَّ الله ﷻ اطَّلَعَ على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم». قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. (صحيح البخاري ٥٠٢/٨ - كتاب التفسير - سورة الممتحنة، باب (الآية) برقم ٤٨٩٠، وصحيح مسلم ١٩٤١/٤-١٩٤٢ - كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ﷺ، وقصة حاطب بن أبي بلتعة، برقم ٢٤٩٤).

التفسير:

يُحَذِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّوَدُّدِ لِلْأَعْدَاءِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ: لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْصَارًا وَأَحْبَاءَ، تُحِبُّونَهُمْ وَتُصَادِقُونَهُمْ، وَقَدْ كَذَّبُوا بِاللَّهِ وَالْقُرْآنِ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيُخْرِجُونَكُمْ مِنْ مَكَّةَ لِأَجْلِ إِيْمَانِكُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ الدِّينِ، وَمَنْ أَجَلَ طَلَبِ رِضَائِي، فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَنْصَارًا تُبَلِّغُونَهُمُ الْأَسْرَارَ نُصْحًا وَتَقَرُّبًا لَهُمْ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَسْرَرْتُمْ وَأَظْهَرْتُمْ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْأَمْرَ الْخَطِيرَ ذَا الشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِ، فَقَدْ حَادَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ.

٢-٣- إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسِرُّون إليهم بالموَدَّة يكونوا حرباً عليكم، ويُمُدُّوا إليكم أيديهم بالبطش، وألستهم بالشتيم، وتمنَّوا قبل كلِّ شيء لو تكفرون كما كفروا، فتكونون سواء، لن تفيدكم قراباتكم وأولادكم شيئاً حين تناصرون الكفَّار من أجلهم. يفصلُ اللهُ بينكم وبينهم يوم القيامة، فيُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتِ النِّعِيمِ، وَيُدْخِلُ الْمُجْرِمِينَ نَارِ الْجَحِيمِ.

٤- يُرَغِّبُ اللهُ تَعَالَى فِي الْقِدْوَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ وَجَرَاةٍ: إِنَّا بَرِينُونَ مِنْكُمْ حَقًّا، وَمَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، كَفَرْنَا بِمَا آمَنْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَظَهَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا مَا دَمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ، حَتَّى تُقَرُّوا لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ. لَكِنْ يَسْتَشْنِي مِنَ الْاِقْتِدَاءِ اسْتِغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَيِّهِ آزَرَ حِينَ أَقْسَمَ بِاللَّهِ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ رَبِّي، وَمَا أَدْفَعُ عَنْكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ - فَلَا تَقْتَدُوا بِهَذَا لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ مَوْعِدٍ وَعَدَّ بِهِ أَبَاهُ - يَا رَبَّنَا عَلَيْكَ اعْتَمَدْنَا مَتَوَكِّلِينَ، وَإِلَيْكَ رَجَعْنَا تَائِبِينَ، وَإِلَيْكَ وَحَدَّكَ الْمَصِيرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٥- يَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَفْتُونِينَ فِي دِينِنَا بِتَسْلِيطِ الْكُفَّارِ عَلَيْنَا، وَاعْفِرْ لَنَا - يَا رَبَّنَا - ذُنُوبَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

فِي انْتِقَامِكَ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِكَ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الولاء لأعداء الله يهدم الإيمان، ويتناقض معه.
- ٢ - يجب أن يكون الولاء في الله، والله، لا للقرابة والنسب.
- ٣ - قد يُخطئ المؤمن ويضعُف، كما وقع من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، ولكن لا يُخرجه ذلك من الإسلام.
- ٤ - الخوف على المال والولد لا يُبيح الفتنة في دين الله.
- ٥ - تقرير قبول توبة الموالي لهم إذا ألجأته ضرورة قصوى.
- ٦ - مَنْ يتجسس على المسلمين بإفشاء أسرارهم للعدو يُعدُّ خائناً، وتجري عليه أحكام الخيانة.
- ٧ - فَضَّلْ أهل بدر وكرامتهم على الله تعالى.
- ٨ - قبول عذر الصادقين الصالحين ذوي السبق في الإسلام، إذا أخطأ أحدهم؛ اجتهاداً منه.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾
 عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنِّي مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ
 الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا
 يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

- ٦ - قسماً لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه قدوة حميدة حقاً في التبرؤ من الكفار، لِمَنْ كان يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه في الآخرة. وَمَنْ يُغْرِضْ عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فإنَّ الله وحده هو الغنيُّ عن عباده، الحميد في ذاته وصفاته، المحمود على كلِّ حال.
- ٧ - لعلَّ الله تعالى يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم من أقاربكم المشركين محبةً ومودةً بدخولهم الإسلام. والله قدير على كلِّ شيء، لا يُعجزه شيء، غفور لعباده التائبين، رحيم بهم.

- ٨-٩ - لا ينهاكم الله - أيها المؤمنون - عن الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم، ولم يُخْرِجُوكُم من أوطانكم، أن تَبَرُّوا إليهم، وتعطلوا فيهم بالإحسان إليهم. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العادِلين في جميع أمورهم. إِنَّمَا ينهاكم الله عن مودةً الذين حاربوكم بسبب الدين وأخرجوكم من أوطانكم، وناصروا الكفار على

إخراجكم، أن تتولّوهم بالنصرة والمحبة. ومن يتخذهم أنصاراً على المؤمنين فأولئك البعداء عن الحق هم الظالمون لأنفسهم ومجتمعهم.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك». (صحيح البخاري ٥/ ٢٧٥ - كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين وقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ عَنْ آلِيكُمْ﴾ برقم ٢٦٢٠، وصحيح مسلم ٢/ ٦٩٦ - كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، برقم ١٠٠٣).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - وجوب التآسي بالصالحين والاعتداء بهم.
- ٢ - ﴿عَسَى﴾ من الله تفيد وقوع ما يرجى بها ووجوده لا محالة، بخلافها من غير الله فهي للترجي والتوقع، وقد يقع ما يُترجى بها وقد لا يقع. (أيسر التفاسير ٤/ ٢٢٤).
- ٣ - العلاقات في المجتمع ينبغي أن تقوم على الأخوة في الله قبل الرحم والنسب.
- ٤ - يجوز للمسلم أن يصل أقاربه المشركين إن لم يكونوا محاربين، أمّا المحاربون فلا تجوز صلّتهم بحال من الأحوال.
- ٥ - جواز معاملة أهل الذمة بالإحسان، وجواز الاحتفاء بأعيانهم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۗ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ وَلَا بَيِّعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأَنْتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

١٠ - سبب النزول:

عن المسور بن مخرمة ومروان - يصدق كل واحد منها حديث صاحبه - قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق... فذكر الحديث بطوله، وفيه قوله: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. ثم جاء نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة. (صحيح البخاري ٥ / ٩٢٣ - ٣٣٣، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، برقم ٢٣٧٢).

التفسير:

يا أيها المؤمنون، إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فاختروهن؛ لتأكدوا من صدق رغبتهن في الإسلام. الله أعلم بحقيقة إيمانهن، فإن علمتموهن بعد الاختبار مؤمنات فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار، لأنه لا يحل للمؤمنات للكفار، ولا يحل للمؤمنين نكاح الكافرات، وأعطوا الأزواج الكفار ما أنفقوا من المهور على زوجاتهم المهاجرات إليكم. ولا حرج عليكم أن تتزوجوا

هؤلاء المهاجرات إذا آتيتموهن صداقهن، ولا تَتَمَسَّكُوا بعقد زواج الكافرات الباقيات في دار الكفر أو اللاحقات بها، واطلبوا من الكفار ما أنفقتم من صدق نساكنكم اللاتي ارتدن عن الإسلام، ولحقن بهم، وليطلبوا هم ما أنفقوا من صدق نساكنهم اللاتي أسلمن، ولحقن بكم. ذلكم الحكم هو حكم الله الكريم يحكم به بينكم فخذوه بقوة. والله عليم بالأحوال، حكيم في الأقوال والأفعال.

١١ - وإن ارتد بعض زوجاتكم ولحقن بالكفار، ولم يعطكم الكفار صداقهن الذي دفعتموه لهن، ثم تكتمن من هؤلاء الكفار، فأعطوا الذين فقدوا زوجاتهم من الغنائم وغيرها مثل ما أعطوا من الصدق، واتقوا الله بطاعة أحكامه الذي أنتم به مصدقون.

١٢ - يا أيها النبي، إذا جاءك النساء المصدقات بالله تعالى ورسوله ﷺ يعاهدنك على ألا يجعلن مع الله شريكاً في عبادته، ولا يسرقن شيئاً، ولا يزني، ولا يقتلن أولادهن بعد الولادة أو قبلها، ولا يلحقن بأزواجهن أولاداً ليسوا منهم، ولا يخالفنك في معروف تأمرهن به، فعاهدن على ذلك الأمر العظيم، واسأل الله لهن المغفرة من ذنوبهن. إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، عظيم المغفرة والرحمة.

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْنِسْنَ بِبُحْتَيْنِ بَقَرَتَيْهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مسَّت يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك». (صحيح البخاري ٥٠٤/٨ كتاب التفسير - سورة الممتحنة، الآية، برقم ٤٨٩١، وصحيح مسلم ١٤٨٩/٣، كتاب الإمامة، باب كيفية بيعة النساء، برقم ١٨٦٦).

١٣ - ينهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الذين غضب الله عليهم؛ لشركهم وكفرهم، أنصاراً وأصدقاء، قد تمكَّن اليأس في نفوسهم من ثواب الله في الآخرة، كمثل يأس الكفار من إحياء الأموات والاستفادة منهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يحرم نكاح المؤمن من المشركة والمشركة من المؤمنة.
- ٢ - جواز زواج المؤمنات المهاجرات بعد أن يمضي عليهن طهر، وبشرط دفع ما يستحقن من مهر.
- ٣ - عن أم عطية رضي الله عنها قالت: بايَعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً﴾، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها النبي ﷺ

شيئاً، فانطلقت ورجعت، فبايعها. (صحيح البخاري ٥٠٦/٨ - كتاب التفسير - سورة المتحنة، باب ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ
الْتُمَيْتُ﴾ برقم ٤٨٩٢).

- ٤ - التعويض على مَنْ خَيْرَ شيئاً من ماله حتى يأخذ كلُّ إنسان حَقَّهُ، وتقوم الحياة على العدل والقسط.
- ٥ - المرأة المسلمة لا تَحِلُّ للكافر، بل يجب طلاقها منه. وكذا المسلم لا يجوز استمرار زواجه بالمشركة.
- ٦ - بيعة النساء دلالة على تكريم هذا الدين لهنَّ.
- ٧ - تحريم مصافحة النساء للرجال الأجانب عنهنَّ؛ اقتداءً بالرسول ﷺ.
- ٨ - تكرار موضوع الولاء في أول السورة وآخرها دلالة على أهميته.
- ٩ - مكانة النساء ودورهنَّ العظيم في نصره الدين، ومشاركتهنَّ في كل مراحل الدعوة.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان بعض أحكام القتال وآدابه.

٢ - تسلية النبي ﷺ، وتثبيتته لمواجهة معوقات الدعوة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ مُبْتَلَيْنَ مَرْتُضُونَ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾﴾

١ - سبب النزول:

عن عبد الله بن سلام ؓ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. (أخرجه الترمذي في السنن ٥/٤١٢-٤١٣ برقم ٣٣٠٩ - كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصف، وأخرجه الدارمي (السنن ٢/٢٠٠ - كتاب الجهاد، باب الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال)، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/٤ برقم ٤٥٩٤)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٦٩)، وصححه الحافظ ابن حجر، فتح الباري ٨/٥٠٩).

التفسير:

يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى عَظَمَتَهُ فِي الْكُونِ، وَإِذْعَانَ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَكُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا فِي الْأَرْضِ السَّبْعِ سَبِّحَ لِلَّهِ وَبِحَمْدِهِ؛ تَعْبِيدًا وَتَقْدِيرًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزُ فِي مَلَكُوتِهِ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِ مَخْلُوقَاتِهِ.

٢-٣- يعتب الله تعالى على المؤمنين: لِمَ تقولون من دعوى الإيمان ما لا تُصدّقونه بالفعل؟ عَظَمَ بُغْضاً عند الله أن تقولوا شيئاً، ثمّ لا تفعلوه.

٤- يشني الله على المجاهدين، ويؤكد محبته لهم، حينما يقاتلون في سبيل نصرته دينه، حالة كونهم صافين صفّاً، كأنهم بنيان متماسك محكم، لا ينفذ منه العدو.

٥- واذكر - أيها الرسول - حين خاطب موسى ﷺ قومه مُستعطفاً بقرابة النسب: يا قوم لماذا تُؤذونني بالعصيان وسوء الأدب، وأنتم تعلمون يقيناً أنّي رسول الله مرسل إليكم؟ فلمّا انصرفوا عن الحقّ صرف الله قلوبهم عن قبول أتباع الحقّ. والله لا يهدي القوم المخالفين أوامرّه تعالى.

قال ابن كثير: « وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] ».

٦- واذكر - أيها الرسول - حين قال عيسى بن مريم ﷺ: يا بني إسرائيل إنّي رسول الله مرسل إليكم مُؤَيِّدًا، ومصدّقًا لما جاء قبلي من التوراة، ومبشّرًا بمجيء رسول يأتي من بعدي اسمه (أحمد)، وهو محمّد ﷺ. فلمّا جاءهم محمّد ﷺ بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، زعموا أنّ ذلك سحر واضح.

٧- ومن أشدّ عدواناً ممن اختلق الكذب على الله، كاتهام رسل الله تعالى بالسحر، وادّعاء الشركاء لله تعالى، وهو يُدعى إلى الدخول في دين الإسلام؟ والله لا يهدي القوم الظالمين أنفسهم ومجتمعهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- تحريم الكذب وخُلْفُ الوعد؛ إذ قول القائل أفعل كذا ولم يفعل، كَذِبٌ وخُلْفٌ وَعِدٌ. ويُعدُّ قوله من المقت الذي هو أشدّ البغض، ومن مَقْتَه الله فقد أبغضه أشدّ البغض، وكيف يفلح من مقته الله؟

٢- التحذير من مواصلة الذنب بعد الذنب، فإنّه يؤدي إلى الطبع وحرمان الهداية.

٣- وجوب الوفاء بالنذر.

٤- استحباب قيام المجاهدين في القتال صفوفًا كصفوف الصلاة، وأنّه يُسْتَحَبُّ سَدُّ الفُرْجِ والحِلَلِ في

الصفوف.

٥- فضل الجهاد في سبيل الله، والانضباط في القتال من أهم قواعد الحرب في الحاضر والماضي.

٦- الوَحْدَةُ عامل مهم من عوامل القوة والنصر.

٧- تسليّة رسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار قومه، وأمرّه بالصبر.

٨- يجب على المسلمين احترام الأنبياء، وعدم إيذائهم بالقول والفعل.

٩- الجزاء من جنس العمل كما في الآية (٥) في زيغ القلوب.

١٠ - في الآية (٧) إخبار مستقبلي بأن الله ﷻ لا يُوفِّق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ تَحَرُّقِ نُسُجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
﴿١٠﴾ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا
نَصْرَ مِن اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٌ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

التفسير:

٨- يريد هؤلاء الظالمون أن يُرُدُّوا حقائق القرآن العظيم بحرب الإشاعة التي أعلنوها ضدَّ النبي ﷺ،
والله تعالى مظهر دينه وناصره، ولو كره المكذَّبون بالله ورسوله.

٩- الله سبحانه هو الذي بعث رسوله محمداً ﷺ بالقرآن ودين الإسلام؛ لِيُعَلِّمَهُ عَلَىٰ كُلِّ الْأديَانِ المخالفة
بنشره والعمل به، ولو كره إظهاره المعاندون بالشرك.

١٠-١٣- يُرَعِّبُ اللهُ تعالى المؤمنين في الجهاد بالنفس والمال: هل أُرشدكم إلى تجارة رابحة، تُنقذُكم
من عذاب موجه؟ تواظبون على تصديقكم بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله بالأموال
والأنفس. ذلكم العَرَضُ العظيم خير لكم من كلِّ تجارة سواها، إن كنتم تعلمون عظمة الصفقة الرابحة
ذات المميزات الفريدة، إذ يغفر الله ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار
العذبة، ويُكْرِمُكم بالمساكن الطيبة بكلِّ مواصفاتها في جنات إقامة دائمة. ذلك المقام الكريم هو الفلاح
العظيم. وفي هذه الصفقة نعمة أخرى تُحِبُّونها، هي نَصْرٌ مُّؤَزَّرٌ من الله تعالى، وَفَتْحٌ عاجل. وبشِّر - أيها
الرسول - المؤمنين بهذه التجارة العظيمة المتميزة.

١٤ - يا أيُّها المؤمنون، كونوا أنصار دين الله، كما كان أصحاب عيسى ﷺ أنصاراً لدين الله، حين قال
لهم: مَنْ يَنْصُرُنِي، ويكون عوناً لي لنصرة دين الله؟ قال أصحابه المخلصون: نحن أنصار دين الله. فأمنت
طائفة من بني إسرائيل بدعوة عيسى ﷺ، وكفرت طائفة أخرى منهم، فأيدنا المؤمنين، ونَصَرْنَاهم على
أعدائهم الكافرين، فأصبحوا غالبين بالحُجَّةِ والإيمان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَتَأْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: الطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في زمن عيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾. (أخرجه ابن أبي شيبة، المصنف ٧/ ٤٦١ وسنده صحيح).

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تحريم الكذب على الله، وأنه من الكبائر العظيمة.
- ٢- تقرير أن الظلمة يجاربون الحق وينصرون الباطل، بعد أن سيطر الظلم والضلال على عقولهم.
- ٣- في الآية (٨) إخبار مستقبلي بأن النصر والعاقبة للإسلام وأنه سيعم الأرض.
- ٤- تقرير نبوة الرسول محمد ﷺ.
- ٥- إن الله حكم - وحكمته الحق - أن نور الإسلام سوف يظهر، ويعم أرجاء الأرض.
- ٦- إن الله أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الإسلام؛ لما فيه خير العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة.
- ٧- ورد في الآية (١١) ذكّر أربعة عناصر يُقَدِّمُهَا المؤمن، ويكون جزاؤه في أربعة أمور عظيمة، كما في الآية (١٢) و (١٣).
- ٨- في الآيات (١٠-١٣) إخبار مستقبلي عن جزاء الذين يداومون على إيمانهم بالله ورسوله، ويجاهدون في سبيل الله؛ لنصرة دينه بما يملكون من الأموال والأنفس، فإن الله ﷻ سينصرهم على عدوهم.
- ٩- تقرير فضل الجهاد في سبيل الله، وهو على نوعين: الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال.
- ١٠- تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم، والثبات أمامهم، والتحذير من الزيغ عن ذلك.
- ١١- الترغيب في السخاء ببذل النفس والمال في سبيل إعلاء الحق، وزهق الباطل.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - تقرير توحيد الألوهية والربوبية لله تعالى.
- ٢ - بيان بعض أحكام صلاة الجمعة.
- ٣ - تقرير رسالة النبي ﷺ، وبيان مقاصدها الجليلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَتَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ - يلهج بالتسبيح والتحميد لله تعالى كل ما في السموات السبع وما في الأرضين السبع؛ تمجيداً وتقديساً له، وهو سبحانه المالك لكل شيء المتصرف فيه، القدوس: المنزه عن كل عيب، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

٢-٣ - سبب النزول:

عن أبي هريرة ؓ قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يُراجعه حتى سألت ثلاثاً - وفينا سلمان الفارسي، وَضَعَ رسول الله ﷺ يده على سلمان - ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لنالها رجال - أو رجلٌ من هؤلاء».

(صحيح البخاري ٥١٠/٨ - كتاب التفسير - سورة الجمعة، ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ برقم ٤٨٩٧. وصحيح مسلم ١٩٧٢/٤ - ١٩٧٣ - كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس بنحوه).

التفسير:

الله سبحانه هو الذي أرسل محمداً ﷺ رسولاً إلى العرب الذين لا يعرفون القراءة والكتابة - إلا نادراً - وإلى الإنس والجنّ أجمعين، يقرأ عليهم القرآن، ويُطهّهم من دَنَسِ الشرك والمعاصي، ويُعلّمهم القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل بعثته في انحراف عن الحقّ ظاهر بالشرك والمعاصي، وبعثه سبحانه إلى أمم آخرين بعد الصحابة رضي الله عنهم من شتى الأجناس إلى يوم القيامة. والله هو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبير خلقه.

٤ - ذلك الأمر العظيم الشأن والشرف من بعثة النبي ﷺ إلى الإنس والجنّ كافة، فضّل من الله يعطيه مَنْ يشاء من عباده. والله وحده صاحب الفضل الواسع على خلقه.

٥ - مثل اليهود الذين علّموا التوراة وكُلّفوا العمل بها، ثمّ لم يعملوا بها، كمثّل الحمار يحمل كتاباً لا يعرف ما فيها. ساء مثل القوم المكذّبين بآيات القرآن، ومعجزات النبي ﷺ. والله لا يهدي القوم المكذّبين إلى أتباع الحقّ حيث كانوا من الظالمين المعتدين على حقّ الله تعالى ورسله وكنبه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - معجزة رسول الله ﷺ، فإنّه مع كونه أمياً بعثه الله يتلو على أمته القرآن، ويُطهّرها من الشرك، ويشرح صدورها بالإيمان.

٢ - أعظم نعم الله على العرب وعلى العالم بعثة النبي محمد ﷺ.

٣ - الدلالة على عموم رسالة محمد ﷺ لجميع الأمم.

٤ - فضل صحابة رسول الله ﷺ من العرب ومن غيرهم.

٥ - في الآية (٣) معجزة من معجزات النبوة، وذلك إخبار عن غيب وقع، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام. (تفسير القاسمي ١٥٩/٩).

٦ - في الآية (٥) إخبار مستقبليّ بأنّ الله ﷻ لا يُوفّق القوم الظالمين الذين يتجاوزون حدوده، ويخرجون عن طاعته، سواء كانوا في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

٧ - ذمّ مَنْ يحفظ كتاب الله، ولم يعمل بما فيه.

٨ - التنديد بمنّ يأتيه كتاب الله، ولا يعمل به أو يكفر به، ووضّفه بأسوأ الأوصاف.

٩ - تحذير المؤمنين من مشابهة اليهود في ترك كتابهم القرآن.

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ هَادُوا وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفْرُوتُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيَةِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَقِمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تُوْدَىٰ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَخْرَجُوا أَمْوَالَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا لَهْوٌ عَلَيْهِمْ يَأْتِيهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

٦-٧- قل - أيها الرسول - لليهود الذين يزعمون أنهم أحباء الله: إن زعمتم أنكم أحباء الله دون غيركم من الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في ادعائكم حبب الله لكم. ولا يتمنون الموت أبدا حرصاً على الحياة الدنيا؛ بسبب ارتكابهم الجرائم. والله عليم بالمعتدين.

٨- قل - أيها الرسول - لهؤلاء اليهود: إن الموت الذي تهربون منه فإنه مدرركم، ثم ترجعون يوم البعث إلى الله العالم بكل ما غاب وما حضر، فيخبركم بكل ما كنتم تعملون في الدنيا للجزاء عليه.

٩-١٠- يا أيها المؤمنون، إذا أذن لصلاة الجمعة الأذان الثاني فامضوا إلى سماع الخطبة والصلاة، واتركوا البيع والشراء، وكل ما يشغلكم عن الصلاة. ذلك الأمر العظيم الشأن خير لكم، إن كنتم تعلمون ما فيه من الخير ورضا الله تعالى، وإذا أدبتم الصلاة فانتشروا في الأرض، واطلبوا من رزق الله بسعيتكم، واذكروا الله ذكراً كثيراً؛ لكي تفوزوا برضاه.

١١- سبب النزول:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبلت عير يوم الجمعة - ونحن مع النبي ﷺ - فثار الناس إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَخْرَجُوا أَمْوَالَهُمْ﴾. (صحيح البخاري ٥١١/٨ - كتاب التفسير - سورة الجمعة برقم ٤٨٩٩. وصحيح مسلم ٥٩٠/٢ - كتاب الجمعة، باب في قوله تعالى: (الآية)، برقم ٨٦٣).

التفسير:

يعتب الله على بعض المسلمين أنهم إذا رأوا تجارة أو لهو الدنيا وزينتها أقبلوا عليها، وتركوا - أيها الرسول - قائماً على المنبر وأنت تخطب، قل لهم: ما عند الله الكريم من الجزاء العظيم خير من اللهو بزينة

الدنيا، وخير من التجارة مهما كانت رابحة. والله تعالى خير مَنْ رزق وأعطى، فاطلبوا الرزق منه في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان أن ذوي الجرائم أكثر الناس خوفاً من الموت وفراراً منه .
- ٢ - في الآيتين (٦-٧) إخبار مستقبليّ بأنّ اليهود لا يَتَمَنُّونَ الموت أبداً، إثارةً للحياة الدُّنيا على الآخرة، وخوفاً من عقاب الله لهم؛ بسبب ما قَدَّموه من الكفر وسوء الفعال. وفيها إخبار مستقبليّ آخر، وهو أنّ هؤلاء اليهود يعلمون علم اليقين بأنهم مذنبون بكفرهم وسوء فعالهم، لذلك لا يتمنّون الموت، ويؤثرون الحياة الدُّنيا على الآخرة، ويخافون من عقاب الله لهم. وفيها إخبار مستقبليّ آخر، وهو أنّ الله ﷻ عليم بالظالمين - سواء مَنْ كانوا في الماضي أو الحاضر أو المستقبل - فهو لا يخفى عليه من ظلمهم شيء.
- ٣ - تقرير واقعة البعث والجزاء وإحصاء الأعمال، ثم الجزاء عليها: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.
- ٤ - أهمية المسارعة في طاعة الله، ومن أعظم الطاعات صلاة الجمعة.
- ٥ - وجوب صلاة الجمعة والذهاب إليها، عند سماع النداء الثاني.
- ٦ - تحريم البيع والشراء وسائر العقود، إذا شرع المؤذن يؤذّن الأذان الثاني.
- ٧ - في الآية (١٠) دلالة على تقديم الخطبة على الصلاة.
- ٨ - مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة في الصلاة.
- ٩ - إنّ مَنْ توكل على الله، وفوّض أمره إليه، وعَمِلَ بالأسباب الموجبة، رَزَقَهُ من حيث لا يحتسب؛ لأنّه خير الرازقين.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - التحذير من المنافقين ومكايدهم.
- ٢ - بيان طرق الوقاية من آفة النفاق وكيد المنافقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَجَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهْمٌ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعَ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذِرْهُم فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

١ - سبب النزول:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لَأَصْحَابِهِ: لَا تُتَفَقَّحُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِهِ. وَقَالَ: لَيْتَنِي رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ. قَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَوَقَعَ فِي نَفْسِي نَمًّا قَالُوا شِدَّةً، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم تَصْدِيقِي فِي: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ ﴾، فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَلَوَّأُوا رُءُوسَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلُ شَيْءٍ». (صحيح البخاري ٥١٥/٨ - كتاب التفسير - سورة المنافقون، باب قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ برقم ٤٩٠٣، وصحيح مسلم ٤/٢١٤٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم ٢٧٧٢).

التفسير:

يُحذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ دَجْلِ الْمُنَافِقِينَ وَمَكْرِهِمْ: إِذَا جَاءَكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا بِالْأَسْتِثْمِ رِيَاءً: نَشْهَدُ بِأَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ حَقًّا، وَاللَّهُ يَشْهَدُ بِكَذِبِ الْمُنَافِقِينَ قَطْعًا.

٢-٣- اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمُ الْفَاجِرَةَ وَقَايَةَ لَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، فَمَنَعُوا أَنفُسَهُمْ وَالنَّاسَ عَنِ دِينِ اللَّهِ. بِشَسْ مَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ مِنَ الْجَرَائِمِ، ذَلِكَ الْإِفْسَادُ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَعْلَنُوا الْإِيمَانَ بِالْأَسْتِثْمِ فَقَطْ، ثُمَّ كَفَرُوا بِقُلُوبِهِمْ، فَخْتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَهَمْ لَا يَفْهَمُونَ أَتْبَاعَ الْحَقِّ.

٤- وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - تُعْجِبُكَ هَيْئَتَهُمْ، وَإِنْ يَتَكَلَّمُوا تُضْغِ لِكَلَامِهِمْ؛ لِفَصَاحَةِ حَدِيثِهِمْ، كَأَنَّهُمْ أَخْشَابٌ مُسَنَّدَةٌ إِلَى الْحَائِطِ؛ لِفِرَاقِ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، يَحْسِبُونَ كُلَّ صَوْتٍ وَنِدَاءٍ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ مَقْصُودُونَ بِذَلِكَ، فَهَمْ عَلَى خَوْفٍ دَائِمًا. هُمْ الْأَعْدَاءُ حَقًّا، فَاحْذَرْهُمْ، أَخْزَاهُمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ، كَيْفَ يَعْدِلُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ؟

٥- وَإِذَا نَصَحْتَهُمُ الصَّحَابَةَ ﷺ بِأَنْ يَأْتُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَائِبِينَ؛ لِيَطْلُبَ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَرَّكَوْا رُؤُوسَهُمْ سَخِرِيَّةً وَإِصْرَارًا عَلَى الْكُفْرِ، وَرَأَيْتَهُمْ يُعْرِضُونَ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ، وَهَمْ مُتَكَبِّرُونَ عَنِ التَّوْبَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب الحذر من المنافقين؛ لما يتصفون به من الخداع والكذب، والتلبس على الناس والحلف الكاذب.
- ٢- من صفات المنافقين صدُّهم عن سبيل الله بما يفعلونه في السر من محاربة المؤمنين.
- ٣- التحذير من الاستمرار على المعصية، فإنه يُوجب الطبع على القلب، ويحرم صاحبه الهداية.
- ٤- تقرير أن مظهر الإنسان لا يُنبئ عن حقيقته.
- ٥- الكشف عن نفسية الخائن والظالم والمجرم، وهو الخوف والتخوف من كل سوء؛ خشية أن يكون ذلك بياناً لحالهم، وكشفاً لجرائمهم.

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴿

التفسير:

٦ - سواءً على هؤلاء المنافقين استغفارُك لهم - يا محمد - أو عدم استغفارِك. لن يصفح الله تعالى عنهم؛ لإصرارهم على النفاق. إنَّ الله لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق الحقِّ.

٧ - يوضح الله تعالى قبائح المنافقين، بأنَّهم هم الذين يقولون لأهل المدينة: لا تُنْفِقُوا على المهاجرين من أصحاب محمد حتى يتركوه. ومن القائلين بذلك عبد الله بن أبي رأس النفاق. والله وحده ملك خزائن السموات السبع والأرضين السبع، يرزق جميع المخلوقات، ولكنَّ المنافقين لا يفهمون تدبير الله لمخلوقاته.

٨ - ومن فضائحهم قول رأس المنافقين عبد الله بن أبي بغرور: والله إن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ فريقنا الأقوى فريق المؤمنين الأذلَّ. والله تعالى العزَّة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين الصادقين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون تلك الحقيقة.

٩ - ١٠ - يا أيُّها المؤمنون، لا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن عبادة الله، ومن تشغله الدنيا عن الآخرة وعبادة الله تعالى فأولئك البعداء عن الحقِّ، هم الخاسرون في الدنيا والآخرة. وأنفقوا من أموالكم التي رزقناكم في وجوه البرِّ من قبل مجيء علامات الموت، فيقول أحدكم: يا ربِّ هَلَّا أَمَهَّلْتَنِي، وَأَخَّرْتَ مَوْتِي إِلَى زَمَنٍ قَلِيلٍ، فَأَنْفَقَ مِنْ مَالِي، وَأَصْبَحَ مِنَ الصَّالِحِينَ الْعَامِلِينَ بِأَحْكَامِكَ.

١١ - وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا عَنِ الْمَوْتِ إِذَا حَضَرَ أَجَلُهَا الْمَكْتُوبِ. والله خبيرٌ بكلِّ ما تعملون من خيرٍ أو شرٍّ وسيجازيكم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير مخاطر المنافقين على الأمة، وتفريقهم لها، وتأميرهم عليها.
- ٢ - لا يجوز الاستغفار للمنافقين ولا محبتهم، ولا الاجتماع بهم، ولا الصلاة عليهم في حال موتهم.
- ٣ - في الآيات (٩-١١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ تشغله أمواله وأولاده عن عبادة الله وطاعته، فهو مغبونٌ حَظَّهُ من كرامة الله ورحمته. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر بأنَّ مَنْ لم يبادر إلى الإنفاق ببعض ما أعطاه الله في طرق الخير، وجاءه الموت وبدأ يرى دلائله وعلاماته فإنه سيقول نادماً: رَبِّ هَلَّا أَمَهَّلْتَنِي، وَأَجَلَّتْ موتي إلى وقت قصير.
- ٤ - الرزق كله من عند الله يرزق البرَّ والفاجر، ولا يقدر أحد على مَنْعِهِ؛ لأنَّه سبحانه المعطي المانع.
- ٥ - النصر والغلبة تكون دائماً للمؤمنين في كل زمان ومكان.
- ٦ - النفاق يطبع على قلوب أصحابه فلا يقدرّون على تمييز الحق من الباطل.
- ٧ - وجوبُ ذِكْرِ الله، وتحريم الاشتغال بالمال والولد عن دين الله، وأنَّ مَنْ يفعل ذلك من الخاسرين.
- ٨ - العزة الحقُّ لله ولرسوله وللمؤمنين، فلذا يجب على المؤمن ألاَّ يذلَّ ولا يهون لكافر.
- ٩ - حرمة تأخير الحج مع القدرة على أدائه تسويفاً، مع الإيمان بقرضيته.
- ١٠ - عظمة الصدقة، وفِعْلُ الأعمال الصالحة من البر والإحسان.
- ١١ - الإنفاق في سبيل الله من أخلاق المؤمنين، والإمساك من أخلاق المنافقين.
- ١٢ - إنَّ الله لا يؤخر أجل نفس إذا استوفته.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١- تقرير التوحيد والبعث.
- ٢- الموعظة من هلاك الأمم السابقة.
- ٣- الحث على طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٤﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ
تَأْيِبُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلُ نَبَاتٍ كَفَرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١- يلهج بالتسبيح لله تعالى جميع ما في السموات السبع وما في الأرضين السبع وما بينهما؛ تنزيهاً عما لا يليق به، وتمجيداً وتقديساً لعظمته، له سبحانه الملك، والتصرف في كل شيء، وله الثناء الكامل والشكر الشامل في كل وقت، وهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

٢-٣- الله تعالى هو الذي خلقكم أيها الناس: فريق منكم جاحد به، وفريق منكم مُصَدِّق به، مُقِرٌّ له بالتوحيد. والله بكل ما تعملون من خير أو شر بصير، لا يخفى عليه شيء، أبداع خلق السموات السبع والأرضين السبع بالحكمة البالغة، والغاية المقصودة، وخلقكم في أحسن تقويم وهيئة، وإليه المرجع يوم القيامة.

٤- يُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى سَعَةَ عِلْمِهِ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ مَا تَخْفُونَهُ وَمَا تَظْهَرُونَهُ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الْأَسْرَارِ.

٥-٦- يُنَكِّرُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَوْجِئاً لَهُمْ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ خَيْرُ الْكُفَّارِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ أَصَابَهُمُ الْعِقَابُ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابُ النَّارِ الْمَوْجِعِ؟ ذَلِكَ الْعِقَابُ الْعَظِيمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ بِسَبَبِ إِنْكَارِهِمْ عَلَى

الرسول التي جاءتهم بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة، فقالوا: هل بشر مثلنا يهْدُونَا إِلَى الْحَقِّ؟ فكذبوا رسلهم، وأعرضوا عن أتباع الهدى، واستغنى الله عن عبادتهم. والله غني عن خلقه، محمود في كلِّ حال.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - كلُّ ذرة في الوجود تُسَبِّحُ الله المعبود، فهو مالك الملك، المستحق للحمد.
- ٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.
- ٣ - إثبات البعث والجزاء.
- ٤ - وجوب مراقبة الله تعالى، والحياء منه؛ لأنه عليم بذات الصدور.
- ٥ - وجوب الاعتبار بما حلَّ بالأُمم السابقة من الهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّفَاثِينِ وَمَنْ يَوْمُنَّ بِاللَّهِ وَعِعْمَلٍ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

٧- زعم الكفار أنهم لن يخرجوا من قبورهم أحياء يوم القيامة. قل لهم أيها الرسول: بلى قسماً بربي لتخرجنَّ حقاً من قبوركم أحياء، ثم لتُخبرنَّ الأخبار الشنيعة بما ارتكبتموه في الدنيا. وذلك البعث والإخبار سهل على الله تعالى.

٨- فصدّقوا - أيها المشركون - بالله ورسوله، والقرآن الكريم الذي أنزلناه على رسولكم، والله بكلِّ ما تعملون خبير، لا يخفى عليه شيء.

٩- يوم القيامة يجمعكم - أيها العباد - ليوم الحشر، ذلك يوم القيامة الذي يظهر فيه غبن الكافر نفسه بتكذبه لرسول الله، وغبن المؤمن نفسه بتقصيره في طاعة الله، ومن يصدّق بالله ويُقرِّ له بالوحدانية، ويعمل بأحكام الله، يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات نضرة، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكين فيها أبداً. ذلك المقام العالي الكريم هو الفلاح الحقيقي العظيم.

- ١٠- والذين كَذَّبُوا بِاللَّهِ وَالْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أُولَئِكَ الْكُفَّارُ الْبَعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، هُمْ أَهْلُ النَّارِ مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدًا. وَقَبِيحَ الْمَرْجِعِ الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.
- ١١- يُطْمَئِنُّ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الَّذِينَ نَزَلَتْ بِهِمُ الْمَصَائِبُ: أَنَّ كُلَّ مَا أَصِيبُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ مَحْنَةٍ، فَإِنَّهَا هُوَ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَمَنْ يُصَدِّقْ بِاللَّهِ، وَيُتَّقِرَّ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ، يَهْدِ قَلْبَهُ لِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَلِلتَّسْلِيمِ وَالرِّضَا بِقِضَائِهِ سُبْحَانَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلِيمٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا.
- ١٢- وَأَطِيعُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي حِكْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ، فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ هَذِهِ الطَّاعَةِ فَلَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا مَسْئُولِيَةٌ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلَ بِهِ بِبَلَاغٍ فِي غَايَةِ الْبَيَانِ.
- الفوائد والاستنباطات:

- ١- بعث الخلائق ونشورهم واقع لا ريب فيه.
- ٢- يوم القيامة هو اليوم الذي يغيب فيه الكافرون؛ بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان بالله.
- ٣- مِمَّا يُخَفِّفُ وَقَعَ الْمَصِيبَةُ اعْتِقَادُ الْمُؤْمِنِ أَنَّهَا قَدَرٌ مُقَدَّرٌ.
- ٤- فِي الْآيَتَيْنِ (١١-١٢) إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَصِيبُ أَحَدًا بِشَيْءٍ مِنَ الْبَلَاءِ - سِوَاءٍ فِي الْمَاضِي أَوْ الْحَاضِرِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ - إِلَّا بِإِذْنِهِ وَقِضَائِهِ وَقَدْرِهِ. وَأَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ، لِلتَّسْلِيمِ بِأَمْرِهِ وَالرِّضَا بِقِضَائِهِ. وَفِيهِمَا إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ - سِوَاءٍ فِي الْمَاضِي أَوْ الْحَاضِرِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ - لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. وَأَنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ ضَرَرٌ فِي إِعْرَاضِهِ، وَإِنَّمَا عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ بِبَلَاغٍ وَاضِحٍ الْبَيَانِ.
- ٥- وَجُوبُ الصَّبْرِ عِنْدَ نَزْوِ الْمَصِيبَةِ وَالرِّضَا، وَالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي قِضَائِهِ وَحُكْمِهِ، وَمَنْ تَكُنْ هَذِهِ حَالُهُ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَيَرْزُقُهُ الصَّبْرَ وَعَظِيمَ الْأَجْرِ، وَيَلطَفُ بِهِ فِي مَصِيبَتِهِ، وَإِنْ هُوَ اسْتَرْجَعَ قَائِلًا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَخْلَفَهُ اللَّهُ عَمَّا فَقَدَهُ، وَأَجْرَهُ.
- ٦- مَا مِنْ مَصِيبَةٍ تَحْدُثُ وَلَا نَازِلَةٍ تَنْزِلُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ. وَهَذَا يَقْتَضِي الصَّبْرَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَالرِّضَا بِقِضَاءِ اللَّهِ.
- ٧- وَجُوبُ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّي مِنْ
 أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا
 وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تَقْرَضُوا
 اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ (١٨) ﴿

التفسير:

١٣ - الله وحده لا معبود بحق سواه، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون.

١٤ - يا أيها المؤمنون، إن بعض أزواجكم وأولادكم أعداء لكم، يشغلونكم عن طاعة الله، وعمل الخير؛ بسبب حبكم لهم، فاحذروا موافقتكم لهم في ذلك. وإن تعفوا عن ذنوبهم بترك العقاب، وتصفحوا عنهم بالإعراض عنها، وترك اللوم، وتستروها عليهم، فإن الله عظيم المغفرة لعباده التائبين، عظيم الرحمة بهم.

١٥ - إنما أموالكم وأولادكم اختبار لكم، فقد تشغلكم مسيرتهم عن طاعة الله. والله عنده ثواب عظيم.

١٦ - فاتقوا الله بامتنال أمره، واجتناب نبيه على قدر جهدكم، دون التكلف فوق طاقتكم، واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا الله ورسوله، وتصدقوا من أموالكم في وجوه البر، يكن ذلك خيراً لأنفسكم، ومن سلم من البخل والطمع فأولئك أصحاب الدرجات العالية، وهم الفائزون في الدنيا والآخرة.

١٧-١٨ - إن تصدقتُم في سبيل الله عن طيب نفس، يضاعف الله لكم الثواب أضعافاً كثيرة، ويغفر

لكم ذنوبكم. والله شكور للمحسنين، حلیم بالمدنيين لا يعاجلهم بالعقوبة، وهو سبحانه عالم بكل ما غاب وما حضر، العزيز في ملكوته، الحكيم في تدبير شؤون مخلوقاته.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب التوكل على الله تعالى، وهو فعل المأمور وترك المنهي، وتفويض الأمر لله بعد ذلك.

٢ - بيان أن من بعض الزوجات والأولاد عدواً، فعلى المؤمن أن يحذر ذلك؛ ليسلم من شرهم.

٣ - عداوة بعض الأولاد لوالديهم، والزوجات لأزواجهن، وكونهم فتنة لهم.

٤ - التحذير من الانشغال بالأولاد والأزواج عن عبادة الله تعالى.

٥ - عن بُريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، فحملهما، ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما. (أخرجه الترمذي وحسنه السنن ٦٥٨/٥ برقم ٣٧٧٤ - كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/١٥١-١٥٢ برقم ١٨٠١) وابن حبان (الإحسان ١٣/٤٠٢ برقم ٦٠٣٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرک (١/٢٨٧) وصححه الألباني (صحيح ابن ماجه برقم ٢٩٠٠). وحسن محققا ابن خزيمة وابن حبان إسناده).

٦ - في الآية (١٦) إخبار مستقبليّ بأنّ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْبَخْلِ وَمَنَعَ الْفَضْلَ مِنَ الْمَالِ، فَهُوَ الظَّافِرُ بِكُلِّ خَيْرٍ، الْفَائِزُ بِكُلِّ مَطْلَبٍ.

٧ - في الآية (١٧) إخبار مستقبليّ عن جزاء مَنْ أَنْفَقَ أَمْوَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِإِخْلَاصٍ وَطَيْبِ نَفْسٍ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ سَيُضَاعِفُ لَهُ ثَوَابَ مَا أَنْفَقَ، وَيَغْفِرُ لَهُ ذُنُوبَهُ. وَفِيهَا إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيّ آخِرٌ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ شَكُورٌ لِأَهْلِ الْإِنْفَاقِ بِحَسَنِ الْجَزَاءِ عَلَى مَا أَنْفَقُوا. وَفِيهَا إِخْبَارٌ مُسْتَقْبَلِيّ آخِرٌ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ حَلِيمٌ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ عَصَاهُ.

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ - بيان أحكام الطلاق.

٢ - تقرير حقوق المرأة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١- يُخَاطَبُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِشَرَفِ النَّبَوَّةِ؛ لِبَيَانِ حَقُوقِ الْمَرْأَةِ فِي الطَّلَاقِ، لِيَعْمَلَ بِذَلِكَ هُوَ وَالْمُؤْمِنُونَ: إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَى طَلَاقِ نِسَائِكُمْ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي طَهْرٍ لَمْ يَبْقَعْ فِيهِ جِمَاعٌ، وَاضْبَطُوا وَقْتِ الْعِدَّةِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي طَاعَةِ أَحْكَامِهِ، لَا تُخْرِجُوا الْمُطَلَّقاتِ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي يَسْكُنَنَّ فِيهَا إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ عِدَّتَهُنَّ كَامِلَةً بِثَلَاثِ حِيضَاتٍ أَوْ ثَلَاثَةِ أَطْهَارٍ وَفَقَّ مَصْلُحَةً لِلزَّوْجَيْنِ. وَلَا يَجُوزُ لَهُنَّ الْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَّا إِذَا وَقَعَتْ فِي فَاحِشَةِ الزَّوْنِيِّ، فَتُخْرِجُ لِإِقَامَةِ الْحُدِّ عَلَيْهَا. وَتِلْكَ أَحْكَامُ اللَّهِ الْعَالِيَةِ الْقَدْرِ، وَمَنْ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِتَعْرِيفِهَا لِلْعِقَابِ، لَا تَدْرِي - أَيُّهَا الْمُطَلَّقُ - لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ طَلَاقِكِ أَيَّامًا رَجْعَةً.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ يقول: إِذَا طَلَّقْتُمْ قَالَ: فِي الطَّهْرِ فِي غَيْرِ جِمَاعٍ. (أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَبْرٍ (الْفَتْحُ ٩ / ٣٤٦).

٢-٣- فَإِذَا قَارَبِنَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهِنَّ، فَيَجِبُ أَنْ تَرَاجَعُوهُنَّ مَعَ حُسْنِ الْمَعَاشِرَةِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ، أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ بَوْفَاءَ حَقِهِنَّ، وَأَشْهِدُوا عَلَى الرَّجْعَةِ أَوْ الطَّلَاقِ رَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ مِنْكُمْ، وَأَقِيمُوا - أَيُّهَا الشُّهُودُ - الشَّهَادَةَ بِالْحَقِّ دُونَ تَحْيِيزٍ لِأَحَدٍ. ذَلِكَ أَمْرُ الْعَالِي الشَّانِ فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُصَدِّقُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ بِطَاعَةِ أَحْكَامِهِ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ أَسْبَابَ

الرزق من حيث لا يخطر على باله. ومن يعتمد على الله فهو كافيهِ، إنَّ الله نافذُ أمره وقضاه. قد جعل لكلِّ شيءٍ مقداراً لا يتعداه.

٤- والمطلقات اللاتي انقطع عنهنَّ دم الحيض لكبير سنهنَّ، إن شككن في عدتهنَّ فحكمهنَّ: العدة ثلاثة أشهر قمرية، والمطلقات الصغيرات اللاتي لم يحضن فعدتهنَّ ثلاثة أشهر أيضاً، والحوامل عدتهنَّ أن يَضَعْنَ حملهنَّ. ومن يتَّقِ الله في طاعة أحكامه يُسهِّل عليه أمره في الدنيا، ويوفِّقه في الآخرة.

عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالسٌ عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: آخر الأجلين، قلتُ أنا: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة رضي الله عنه: أنا مع ابن أخي، يعني أبا سلمة، فأرسل ابنُ عباس إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتِلَ زوجُ سُبَيْعة الأُسلمية وهي حبلى، فوضعتُ بعد موته بأربعين ليلة، فحُطِيتُ، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمنَّ خطبها. (صحيح البخاري ٨/ ٥٢١ - ٥٢٢ - كتاب التفسير - سورة الطلاق - ﴿وَأَلْتَمِسُ مِنْ الْمَجِيضِ﴾ برقم ٤٩٠٩).

٥- ذلك المذكور من الأحكام العالية القدر أمرُ الله الذي أنزله إليكم - أيها العباد - لتأخذوا به بحجْدٍ، ومن يتَّقِ الله بطاعة أحكامه يَمُحُّ عنه ذنوبه، ويجزل له الثواب بدخوله الجنة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في الطلاق معالجة مشكلة أسرية اجتماعية، ولكن هذا العلاج بعد معالجات سابقة هو بمنزلة: «آخر الدواء الكي».

٢- بيان السنَّة في الطلاق، وهي أن يُطلِّقها في طهرٍ لم يَمَسَّها فيه بجماع. عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض. في عهد رسول الله ﷺ. فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «مُرّه فليُراجِعها، ثمَّ ليتركها حتى تطهر، ثمَّ تحيض، ثمَّ تطهر. ثمَّ إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس. فتلك العدة التي أمر الله ﷻ أن يطلق لها النساء». (صحيح مسلم ٢/ ١٠٩٣ كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بنير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها برقم ١٤٧١).

٣- وجوب إحصاء العدة؛ ليعرف الزوج متى تنقضي عدة مطلقتها؛ لما يترتب على ذلك من أحكام الرجعة والنفقة والسكنى.

٤- وجوب السكنى للمطلقة ما دامت في عدتها.

٥- تحريم إخراج المرأة من بيت الزوجية إلى أن تنقضي عدتها، ما لم ترتكب فاحشة ظاهرة كالزنى.

- ٦ - بما أنه ثبت عن الصحابة والتابعين الوجهان في معنى القُرء بأنه الطهر، فيُنظر في مصلحة الزوجين أيهما أفضل، فإذا كان الأمل بالإصلاح فيُنظر في أبعاد الأجلين، وإذا كان الأمل معدوماً وقد بلغ الخلاف ذروته، فيُنظر في أقرب الأجلين، فيكون الجمع بين الوجهين. وينظر تفسير سورة البقرة الآية (٢٢٨).
- ٧ - في الآية (١) إخبار مستقبليُّ أن مَنْ تجاوز أحكام الله، فقد ظلم نفسه، وأوردها مورد الهلاك.
- ٨ - لا تَصِحُّ الرَّجْعَةُ إلا في العِدَّة، فإن انقضت العِدَّة فلا رَجْعَةَ للمطلقة، ولها أن تتزوج مَنْ شاءت هو أو غيره من ساعة انقضاء عدتها.
- ٩ - إذا قاربت عدة الزوجة المطلقة على الانتهاء وجب على الزوج عزم أمره: إمَّا الاستمرار في الطلاق، أو الرجعة قبل نهاية المدة.
- ١٠ - لا تَحِلُّ المراجعة للإضرار، ولكن للفضل والإحسان وطيب العشرة.
- ١١ - وجوب الإشهاد على النكاح، واستحباب الإشهاد على الطلاق والرجعة. أخرج الطحاوي - من طرق يقوي بعضها بعضاً - عن عمران بن حصين في رجل طلق ولم يُشْهِدْ، وراجع ولم يُشْهِدْ قال: بشس ما صنع، طَلَّقَ في غير عدة، وراجع في غير سُنَّة. لِيُشْهِدَ على ما صنع. (أحكام القرآن ٢/٣٢٨ برقم ١٨٠٤-١٨٠٧).
- ١٢ - في الآيتين (٢-٣) إخبار مستقبليُّ عن جزاء مَنْ خاف الله فعمل بما أمره به، واجتنب ما نهاه عنه، فإنه سيجعل له مخرجاً من كلِّ ضيق، ويُسَبِّبُ له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسبانته. وفيها إخبار مستقبليُّ آخر، وهو جزاء مَنْ تَوَكَّلَ على الله، فإنَّ الله هو كافيهِ ما أهَمَّهُ في جميع أموره. وفيها إخبار مستقبليُّ آخر، وهو أنَّ الله ﷻ بالغُ أمره، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وفيها إخبار مستقبليُّ آخر، وهو أنَّ الله - جَلَّتْ قدرته - قد جعل لكلِّ شيءٍ أجلاً ينتهي إليه، وتقديراً لا يتجاوزه.
- ١٣ - لا يجوز للزوج أن يُمَسِكَ زوجته بعد طلاقه إياها؛ لِيُضَرَّها بإمساكها.
- ١٤ - عِدَّةُ المطلقات الحوامل وَضَعُ الحَمَلِ، بقطع النظر عن المدة.

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِّنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ فَإِن أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَيْتِكُمْ مِّمَّاعَرَفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَتٍ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَنْلُؤُا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾

التفسير:

٦- أَسْكِنُوا - أيها المؤمنون - المطلقات المعتدات في مساكن مثل مساكنكم، على قدر سَعَتِكُمْ، ولا تُلْحِقُوا بهنَّ ضرراً في السكن أو النفقة، وإن كانت المطلقات حوامل فأنفقوا عليهنَّ في عِدَّتِهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ، فإن أرضعن لكم أولادكم منهنَّ بأجرة بعد الفراق، فأعطوهنَّ أجورهنَّ مقابل الرضاع، ولتكن أموركُم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارَّة، وإن لم تنفقوا على إرضاع الأمِّ، أو طلبت الأمُّ أكثر ممَّا يَحِقُّ لها، فيَحِقُّ للأب استئجار مرضعة أخرى.

عن فاطمة بنت قيس، أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة. ثم أخذ الأسود كفاً من حصي فحصبه به، فقال: وَيْلَكَ! تُحَدِّثُ بِمِثْلِ هَذَا. قال عمر: لا تترك كتاب الله وسنة نبيِّنا ﷺ لقول امرأة، لا ندري لعلها حفظت أو نسيت لها السكنى والنفقة. قال الله ﷻ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَنْحَسَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. (صحيح مسلم ١١١٨/٢-١١١٩، بعد حديث ١٤٨ - كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها).

٧- لِيُنْفِقَ المُوَسِّرُ ممَّا أعطاه الله على المطلقات والمرضعات، وَمَنْ ضَيَّقَ عليه رزقه فليُنْفِقْ على قدر طاقته. لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا بقدرٍ ما أعطاه الله من الرزق، سيبدل الله العُسْرَ يُسْرًا عاجلاً أو آجلاً.

٨-٩- وكثير من القرى تجرُّ أهلها، وأعرضوا عن أمر الله ورسله، فحاسبناهم على جرائمهم حساباً شديداً، وعذبناهم عذاباً عظيماً مُنْكَرًا، فذاقوا سوء عاقبة تجرُّهم وكُفْرِهِمْ، وكان جزاء كفرهم دماراً في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

١٠-١١- أعدَّ الله لهؤلاء المتجبرين عذاباً شديداً الأمل، فاتقوا الله بطاعة أحكامه يا أصحاب العقول السليمة، الذين أقرُّوا لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، قد أنزل الله إليكم قرآناً عظيماً، وأرسل رسولاً كريماً، يتلو عليكم آيات من كلام الله تعالى، مُفَصَّلَات في غاية البيان؛ كي يخرج المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة من غواية الشيطان إلى هداية الرحمن. وَمَنْ يُصَدِّقْ بِاللَّهِ، ويعمل بطاعته سبحانه، يُدْخِلْهُ جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ما كثر فيها أبداً، قد وَسَّعَ اللهُ له رزقه في الجنة.

١٢- الله تعالى وحده الذي خلق سبع سموات، وخلق سبعاً من الأرضين، يتنزَّل باستمرار وحي الله بأمره وقضائه إلى رسله بين السموات والأرضين؛ لتعلموا - أيها العباد - أن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء، قد أحاط حقاً بكل شيء علماً، فلا تخفى عليه خافية.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- وجوب السكن والنفقة لمن طلقاً رجعيّاً، وكذا للمطلقة الحامل حتى تضع ولدها.
- ٢- تستحق المطلقة نفقة إن أرضعت الطفل، فنفقة الولد على الوالد.
- ٣- الأم لا تُجْبَرُ على الرضاع حيث وُجِدَ غَيْرُهَا، وَقَبِلَ الصَّبِيُّ ثَدْيَهَا، وإلا أُجْبِرَتْ على الإرضاع.
- ٤- المطلقة طلاقاً بائناً إن أرضعت ولدها لها أجره إرضاعها، حسب اتفاق الطرفين الأم والأب.
- ٥- بيان منة الله على هذه الأمة بإنزال القرآن عليها، وإرسال الرسول ﷺ إليها.
- ٦- قدرة الله تعالى وعظمة صنعه في خلق الكون؛ ممّا يقتضي من العباد توحيده، والعمل في طاعته وتحكيم شرعه.
- ٧- في الآية (١٢) إخبار مستقبلي عن الحكمة في خلق الله السموات السبع والأرضين السبع، وإنزاله الأمر ممّا أوحاه إلى رسله، وما يُدبَّر به خَلْقُهُ بين السموات والأرض؛ وذلك كي يعلم النَّاسُ أَنَّ الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء، وأنَّه قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته.
- ٨- ينظر: مخطط طبقات الأرض السبع، كما في الملحق.

النزول: مدنية.

المقاصد:

- ١ - التحذير من تحريم ما أحل الله تعالى.
- ٢ - بيان أدب المرأة المسلمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتُ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ. وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِمَّا كُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَمِنْ نَبَّأَتْ عِيْدَاتٍ سَبَّحَتْ ثِيَابًا وَتَبَّتْ وَأَنْكَرًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾

١ - سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتوصيتُ أنا وحفصة أن آتينا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني لأجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير فدخل على إحداها فقالت له ذلك، فقال: «لا بأس، شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له»، فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتُ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ. وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شربتُ عسلاً. (صحيح البخاري - الطلاق، باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ برقم ٥٢٦٧).

التفسير:

يُخَاطَبُ اللهُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ ﷺ بِشَرَفِ النَّبُوَّةِ، وَيَعْتَبُ عَلَيْهِ حِينَما امْتَنَعَ مِنْ وَطْءِ أُمَّةٍ لَهُ، إِذْ حَلَفَ أَلَّا يَطَّأُهَا؛ مِرَاعَاةً لِرَغْبَةِ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَأَوْصَى حَفْصَةَ أَلَّا تَحْدُثَ أَحَدًا بِالْحَلْفِ، أَوْ جَاءَ الْعِتَابَ حِينَما امْتَنَعَ عَنِ شَرَبِ الْعَسَلِ بَعْدَ أَنْ شَرِبَهُ عِنْدَ زَيْنَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَاتَّفَقَتِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ أَنْ يَقُولَا لَهُ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا: إِنِّي لِأَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرٍ - وَهُوَ مَادَّةٌ نَبَاتِيَّةٌ حُلُوَّةٌ لَهَا رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ -. فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ لِحَفْصَةَ: لَا بِأَسِّ، شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ الْعِتَابُ: لِمَ تَمْتَنِعُ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي أَحَلَّهُ اللهُ لَكَ، تَبْتَغِي إِرْضَاءَ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟ وَاللهُ عَظِيمُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ.

٢- قد شرع الله تعالى لكم - أيها المؤمنون - ما تتحللون به من أيها نكح الكفارة، بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، والله ناصركم ومُتَوَلِّي أمركم، وهو العليم بتدبير خلقه، الحكيم بأحكامه.

٣- وإذ أسر النبي إلى زوجته حفصة رضي الله عنها ما امتنع عنه من نكاح الأمة، أو شرب العسل، فلما أخبرت عائشة بذلك، وأطلعته الله على إفشائها سره لعائشة رضي الله عنها، أعلم حفصة بعض ما أفشئت به، وأعرض عن إعلامها بعضه تكراً. فلما أخبرها بما أفشئت من الحديث قالت متعجبة: من أخبرك بأبي أفشيت سرّك؟ فأجاب النبي ﷺ: أخبرني به الله العليم، الخبير بالسر والعلن.

٤- يعتب الله على عائشة وحفصة رضي الله عنهما بسبب غيرتهن: إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما محبة ما كرهه رسول الله ﷺ من إفشاء سره، وإن تتعاونوا على النبي بما يسوءه فإن الله وليه وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد نصره الله أعوان له على من يؤذيه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أردت أن أسأل عمر ﷺ فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فما أتممت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة».

(صحيح البخاري ٥٢٦/٨ - كتاب التفسير - سورة التحريم - «تَبْتَغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ» برقم ٤٩١٤).

٥- سبب النزول:

عن عمر ﷺ: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربّه إن طلقكن أن يبدلهن أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية. (صحيح البخاري ٥٢٨/٨ - كتاب التفسير - سورة التحريم «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ» برقم ٤٩١٦).

التفسير:

يخاطب الله تعالى بعض زوجات النبي ﷺ: إن طلقكنَّ محمد ﷺ عسى ربُّه أن يُزوجه بدلاً منكِنَّ زوجات خيراً منكِنَّ، خاضعات لله بالطاعة، مُصدِّقات بالله ورسوله، مطيعات لله، راجعات إلى ما يحبه الله، كثيرات العبادة له، صائيات، متأملات في خلق الله، منهنَّ الثيبات، ومنهنَّ الأباكار.

٦- يا أيُّها المؤمنون، احفظوا أنفسكم وأزواجكم وأولادكم من نارٍ شديدة، بطاعة أمر الله واجتناب المعاصي. تلك النار التي تُوقد من أجساد الكفَّار والحجارة الملتهبة، يقوم على تعذيب أهلها ملائكة غلاظ القلوب أقوياء الأجسام، لا يخالفون أمر الله، ويُنفذونها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- عِظْمُ شأن النبي ﷺ عند الله، وهو ﷺ بشرٌ يتأثر مما يتأثر منه البشر.
- ٢- من لُطِفِ الله بالنبي ﷺ وبالمسلمين، ومن رحمته أن شرع لهم نَحْلَةَ القَسَمِ بأداء الكفَّارة لليمين.
- ٣- مَنْ حَرَّمَ على نفسه زوجة أو طعاماً، لم تَحْرُم عليه، وتلزمه كفارة يمين.
- ٤- لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى مَنْ يُركن إليه من زوجة وصدیق، وأنَّه يلزمه كتمانه.
- ٥- حسن العشرة مع الزوجات، والتلطف في العتب، والإعراض عن استقصاء الذنب.
- ٦- إكرام الله ﷻ لنبيه ورسوله محمد ﷺ بما أطلعه على ما كان من زوجتيه، وتأديب الله لهما، وأمرهما بالتوبة.
- ٧- فَضْلُ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد قال تعالى في حقهما: ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٨- وجوب أمر الأولاد والأزواج بطاعة الله واجتناب معاصيه. ويشمل كل مَنْ هو تحت ولاية المرء، وَمَنْ يَأتمر بأمره.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، تُوْرُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِمِنُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورُنَا وَآغْفِرْنَا لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِ وَكَانَتْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

٧- يُقال للكفار وهم في النار: لا تعتذروا عن ذنوبكم، فإنه لا ينفع اليوم الاعتذار، إنما تُعاقبون على ارتكابكم الجرائم في الحياة الدنيا.

٨- يا أيها المؤمنون، توبوا إلى الله تعالى من ذنوبكم توبة خالصة بالندم على الذنب والإقلاع عنه، والعزم على ألا يعودَ إليه. لعلَّ الله يمحو عنكم ذنوبكم، ويدخلكم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، يوم لا يُخزي الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين معه، نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة يسير أمامهم ومن حولهم حين يسعون يوم القيامة إلى الجنة يدعون الله: يا ربنا أتمِّمْ لنا نورنا حتى نصل إلى الجنة، واسْتُرْ علينا ذنوبنا. إنك على كلِّ شيء قدير، لا يعجزك شيء.

٩- يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين؛ لنصرة الدين والمحافظة على المسلمين، وأن يستعمل معهم الحزم والحجَّة والبرهان، ومصيرهم نار جهنم. وساءت جهنم مصيراً ومُستقراً.

١٠- يضرب الله تعالى الأمثال لأحوال المؤمنين والكافرين: إنَّ اتصال الكافر بالمؤمن وقربه في النسب لا ينفعه شيئاً، وإنَّ اتصال المؤمن بالكافر لا يضرُّه شيئاً مع قيامه بالواجب عليه؛ لعلَّه يتوبُ إلى الله، كما في الآيات الثلاث التالية: فقد ضرب مثلاً لحال الكفار امرأة نوح الطيِّلة وامرأة لوط الطيِّلة: كانتا زوجتي نبيِّين،

فخانتاهما في أمر الدين، فلم يدفع هذان النبيان عن زوجتيهما من عذاب الله، وقيل لزوجتيهما توبيخاً: ادْخُلَا نار جهنم مع الداخلين فيها.

١١-١٢ - وضرب مثلاً لحال المؤمنين آسيا امرأة فرعون، إذ قالت: يا رب اجعل لي بيتاً في الجنة، وأنقذني من طغيان فرعون وجرائمه، وأنقذني من القوم المعتدين، وضرب مثلاً آخر لحال المؤمنين مريم بنت عمران التي حفظت فرجها من الفاحشة، فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يَنْفُخَ في جَنِبِ قَمِيصِهَا، فَحَمَلَتْ بَعِيسَى عليها السلام، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّرَائِعِ، وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - اعتذار الكافرين يوم القيامة لا يُجدي، ولا يفيدهم شيئاً.
- ٢ - المؤمنون لهم نور يكرمهم الله به، يكون من أمامهم وعن يمينهم يوم القيامة.
- ٣ - البيئة لا تتحكّم في الإنسان، ولكنها تُؤثّر، والمؤمن هو الذي يُؤثّر في البيئة، ولا يتأثر.
- ٤ - يَحْسُنُ بالداعية أن يستخدم ضرب الأمثال؛ لإرشاد الناس إلى ما يدعوهم إليه.
- ٥ - وجوب التوبة الصادقة من الذنوب.
- ٦ - وجوب جهاد الكفار المقاتلين بالقوة، وجهاد المنافقين باللسان.
- ٧ - تقرير خيانة امرأتَي نوح ولوط في الدين.
- ٨ - تقرير مبدأ: « لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »؛ فالكافر لا ينتفع بالمؤمن يوم القيامة.

النزول: مكية.

فضل السورة: ورد في فضل سورة الملك عدد من الأحاديث تفيد أنها تحمي قارئها، وتُنجيه من عذاب القبر. ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ سورة من القرآن، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى عُفِرَ له، وهي ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾». (رواه أحمد برقم ٧٩٧٥ (١٣/٣٥٣) ط الرسالة، وأبو داود في كتاب الصلاة، برقم ١٤٠٠ (٥٧/٢) والترمذي برقم ٢٨٩١ (١٤/٥) تحقيق د. بشار عواد).

المقاصد:

- ١ - إثبات عظمة الله تعالى وقدرته على كل شيء.
- ٢ - إقامة الحجة على الكافرين المنكرين للبعث والجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ - تبدأ السورة الكريمة ببيان عظمة الله تعالى، وأنه سبحانه يملك الخير كله، ويهبُ البركة لمن يشاء، وله التصرف المطلق في هذا الكون، وقدرته سبحانه لا حُدَّ لها، فلا يُعجزه شيء، ويتصرف في ملكه كيف يريد.

٢ - من دلائل قدرة الله تعالى أنه هو الذي يميئ ويحيي، فالموت والحياة مخلوقان من جملة ما خَلَقَ، وهو الذي يهبُ الحياة لمن يشاء، فيحيا بعد أن كان ميتاً، ويُميته بعد ذلك دون إرادة منه، فالإرادة في الإحياء والإماتة لله وحده. وتُبيِّنُ الآيةُ الحكمةَ من خلق الموت والحياة، وهي اختبار العباد وامتحانهم، ليُظهِرَ إحصان المحسن وإساءة المسيء، وهو سبحانه الغالب، النافذ حُكْمُهُ وأمره، الكثير السَّرِّ لمن تاب وأصلح.

٣- ومن دلائل قدرة الله تعالى أنه خلق السموات السبع على هيئة طبقات بعضها فوق بعض، وهي خالية من العيوب، لا تصدع فيها ولا شقوق، ولا تباين ولا تخالف، فانظر - أيها الإنسان - إلى السماء مرة بعد مرة، وتأمل في هذا الخلق العظيم، فلن ترى فيه أي عيب أو خلل.

٤- يطلب الله تعالى في هذه الآية الكريمة إلى الإنسان أن يُعيد النظر والتأمل في خلق السماء، ومدى إحكامه وإتقانه، وأن يتفحص ويبحث عن العيب والنقص في هذا الخلق المُحكَم البديع. ونتيجة هذا النظر والبحث والتنقيب عن العيوب في الخلق هي التيقن من إبداع الخلق وإتقانه، وأن من يبحث عن العيب والنقص فيه سيصاب بالحسرة والخيبة والإعياء.

٥- بعد أن بيّنت الآية السابقة خُلُوَ السماء من العيب والخلل، تُبيّن هذه الآية مظهراً من مظاهر عظمة الله تعالى وقدرته، وهو تزيين السماء الأولى القريبة من الأرض بالنجوم والكواكب، التي تُرى من الأرض على هيئة المصابيح المضيئة، ولها مهمة أخرى وهي رصد الشياطين الذين يحاولون الدنو من السماء، وهياً الله للشياطين عذاباً شديداً في الآخرة، وهو نار حامية مستعرة.

الفوائد والاستنباطات:

١- في افتتاح السورة الكريمة بالإخبار عن عظمة الله والثناء عليه، براعة استهلال لندرة البدء بمثله في لغة العرب. وفي اختيار لفظ ﴿تَبَرَّكَ﴾ إشارة إلى أهمية البركة وفضلها، وهي أمر معنوي يُشعر به، ولا تُدرك حقيقته.

٢- تَقَدَّمَ ذِكْرُ الموت على الحياة؛ لأنه أسبق في الوجود، ولأنَّ مُدَّتَهُ أطول من مدة الحياة، ولأن قدرة الله تعالى فيه أوضح وأظهر.

٣- كما أن الحياة نعمة عظمى فإن الموت نعمة كذلك، فهو السبيل للوصول إلى الجنة والنعيم، وبه تحصل الراحة من الهموم والغموم، وفيه العبرة والعظة لجميع الخلق؛ ولذا ورد في الأحاديث الحث على تَدَكُّرِهِ وَتَرْقِيهِ، كما في قوله ﷺ: «أَكثِرُوا من ذكر هادم اللذات». (رواه أحمد في المسند برقم ٧٩٢٥ / ١٣ / ٣٠١) الرسالة، ورواه آخرون. وهو حسن، وهادم بالذال: قاطع).

٤- الإتقان والإحكام والإبداع ظاهر في الخلق كله، كبيره وصغيره، حيّه وجماده، مرئيّه وخفيّه، ظاهره وباطنه، ولا يزيد البحث والتنقيب عن الخلل في الخلق هذه القاعدة إلا ثباتاً وتحققاً.

٥- النص على البصر في الآيات دون غيره من الحواس؛ لأنه الوسيلة المثلى عند الإنسان للفحص والاختبار والتأكد من سلامة الشيء، أو حصول العيب فيه.

- ٦ - في إضافة الخلق إلى اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ إشارة إلى عموم رحمة الله تعالى بخلقه، وأن الرحمة هي مبدأ التعامل مع الخلق، ولا يُجرم منها إلا من لا يستحقها.
- ٧ - تشير الآيات إلى أن تَفَحُّصَ الشيء للتيقن من سلامته أو عيبه يحتاج إلى النظر فيه مراراً عديدة، فقد لا يظهر العيب من بادئ النظر وأوله.
- ٨ - ما تُرْجَمُ به الشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح مُنْقَضَةً، وتسمى الشُّهُبُ.
- ٩ - ينظر: زينة الكواكب في السماء، كما في الملحق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا الْقَوَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَحُوا لَهَا سَجْدًا وَأَنَابُوا رَبَّهُمْ فَسُحِقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

- ٦ - تُبَيِّنُ الآية الكريمة أن للكافرين من بني آدم ومن الشياطين عذاباً مُهِيباً ومُعَدَّاً في جهنم، فهم سيعذبون يوم القيامة جزاء كفرهم، وبئس ما يصيرون إليه، وهو جهنم.
- ٧ - حين يُلقى الكفار في نار جهنم يصدر منها صوت مُنْكَرٌ قبيح، وحين يسمعون به يزيد ذلك من عذابهم وفزعهم، وتكون جهنم في حالة غليان لشدة لهيبها.
- ٨ - تكاد جهنم تَتَقَطَّعُ وينفصل بعضها عن بعض؛ من شدة غيظها وغضبها على الكافرين، الذين استَحَقُّوا دُخُولَهَا بسبب سوء فعلهم. وفي هذا تصوير لقوة اشتعالها وعظيم نارها، وكلما دخلها جماعة من الكافرين بادرهم خَزَنَتُهُ جهنم بالسؤال توبيخاً لهم: ألم يرسل الله تعالى إليكم رسولاً يدعوكم إلى الهداية، ويحُثُّكم على الخير، ويُنذِرُكم هذا العذاب الأليم.
- ٩ - قال أهل النار للملائكة مُقَرِّين ببعثة الرسول: بلى، قد حصل، وجاءنا رسول من الله ولكننا لم نَتَّبِعْهُ ولم نُؤْمِنْ به، واتهمناه بالكذب على الله، وَرَعَمْنَا أَنَّهُ هو وأتباعه ضالُّون ضلالاً كبيراً، وكنا نظنُّ أنفسنا على الصواب.

- ١٠ - بدأ أهل النار بلوم أنفسهم ومعاتبتها، فقالوا فيما بينهم: لو أننا أَعْمَلْنَا عقولنا وأَسْمَعْنَا، وَاتَّبَعْنَا الرسول فيما دعانا إليه من خير وهدى، لَنَجُونَ من عذاب النار.
- ١١ - هذا الاعتراف من أهل النار لا ينفعهم، فقد حصل في وقت غير مناسب، وهم مستحقون للهلاك والعذاب الشديد الذي هم فيه.
- ١٢ - بعد بيان مصير الكافرين، تبيّن هذه الآية مصير المؤمنين الذين عَظَّمُوا الله تعالى في الدنيا، وخافوا من عذابه دون أن يَرَوْه، فهم مستحقون لأن تُغْفَرَ ذنوبهم، ولأن ينالوا ثواباً عظيماً في مقابل إيمانهم بالله.
- ١٣ - تبيّن هذه الآية شمول علم الله تعالى للسر والعلن. ويشمل ذلك كل ما يمكن أن يُسَرَّ ويُعْلَنَ من نيات، واعتقاد، وهَمَّ، وعلم، وعمل، فالله تعالى يعلم الأمور الخفية في القلوب، كما يعلم الأمور الظاهرة.
- ١٤ - وكيف لا يعلم الله تعالى الأسرار والخفايا، وهو الذي خلقها، وخلق كل شيء؟ ومن مظاهر قدرته البالغة عِلْمُهُ بالخفايا ودقائق الأمور علماً يقيناً محيطاً بها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - نسبة الغيظ والشهيق إلى جهنم: إمّا أن يكون على ظاهره، وإمّا أن يُجْمَل على تشبيه صوت هببها وسرعة تبادرِها بصوت الغضبان وحركته، وإمّا أن يكون المقصود به الزبانية. (الفخر الرازي، التفسير الكبير ٥٦/٣).
- ٢ - تدلُّ الآية الكريمة أنّ الكافرين يدخلون جهنم أفواجا متتابعة، وأنّ دخولهم إليها يكون مصحوباً بالإهانة والصغار، إذ يُلقَوْنَ فيها إلقاءً.
- ٣ - لا ينفع الندم إذا حصل في غير وقته المناسب.
- ٤ - عِلْمُ الله تعالى محيط بكل الدقائق، وشامل لجميع الأسرار والخفايا في هذا الكون، وهذا من لوازم ألوهيته سبحانه.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمْ إِنَّمَا مِنَّ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِيفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ إِنَّمَا مِنَّ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ أَيْدِيهَا وَيَقِيمُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ يَزُفُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٥ - سَخَّرَ اللهُ سبحانه الأرض لكم أيها البشر، وجعلها مُدَلَّلَةً يَسْهُلُ السير فيها، فسيروا في أنحائها في طلب المعاش والرزق، والتمسوا من نِعَمِ اللهُ فيها، وكُلُوا وانتفعوا بما رزقكم اللهُ، واعلموا أن مرجعكم ومآلكم إليه سبحانه.

١٦ - انتقل الخطاب في هذه الآية من عموم البشر إلى الكافرين منهم من خلال سؤا لهم: أَمْ إِنَّمَا مِنَّ الكفار - عقاب اللهُ لكم على كفركم به، وقدرته أن يحرك الأرض ويزلزلها، ويذهب باستقرارها فتضطرب، ويختل نظامها؟

١٧ - أَمْ إِنَّمَا مِنَّ - أيها الكفار - عقاب اللهُ لكم على كفركم بأن يُرْسِلَ عليكم حجارة من السماء يعذبكم بها، كما حصل مع بعض الأمم السابقة؟ إِنَّكُمْ حين ترون ذلك ستوقنون أن الإنذار والتخويف من اللهُ حق، وأنه قادر على إنفاذ وعيده.

١٨ - تبدأ هذه الآية بالقَسَمِ على أَنَّ الأمم السابقة لهذه الأمة كَذَّبَتْ رُسُلَهَا، فكان عقابهم على ذلك أليماً، فقد نزلت بهم أصناف من العذاب عقاباً لهم، وإنكاراً من اللهُ تعالى عليهم.

١٩ - تلفت هذه الآية أنظار الخلق إلى إحدى نِعَمِ اللهُ ودلائل قدرته، وتدعوهم إلى النظر فيها والاعتبار بها، فَإِنَّ اللهُ سَخَّرَ الهواء لِحَمْلِ الطيور، تبسط فيه أجنحتها في أحوال، وتَضُمُّهَا وتخفق بها في أحوال أخرى. وكل هذا برحمة اللهُ تعالى وقدرته، فهو الذي يمسك هذه الطيور أن تسقط برحمته، وهو سبحانه البصير بكل شيء، العليم بكل حال، المبدع في خلقه.

٢٠- تُخاطب هذه الآية المشركين، وتسألهم عَمَّنْ يستطيع أن يمنع عنهم عذاب الله حين يقع، ومعلوم أنه لا أحد يُمكنه ذلك، ولكن الكافرين مصابون بالغرور، ويظنون أنهم في منأى من عذاب الله أن يصيبهم، وأن أهتهم تحفظهم منه.

٢١- تسأل هذه الآية المشركين: هل يملك أحد أن يرزقكم إن مَنَّعَ الله عنكم الرزق، وَحَجَبَهُ عن الوصول إليكم؟ والجواب واضح أن لا أحد يملك ذلك، ولكن الكافرين يرفضون التسليم بذلك، ويتماذون في عنادهم واستكبارهم عن قبول الحق.

٢٢- في هذه الآية مقارنة بين المشرك الذي يسير على غير هدى، ويتخبط في سيره، ويتعثر ويختر على وجهه بسبب وعورة طريقه، وعدم تبيين السبيل له، وبين المؤمن الذي يسير قائماً معتدلاً يرى طريقه بوضوح، ويعلم معالمه، ويصل إلى غايته، فهل يستوي هذا وذاك؟

٢٣- هذا أمر بإعلام الخلق أن الله تعالى هو الذي خلقهم، وأحسن خلقهم، بأن مكنتهم من السمع والإبصار والإدراك؛ ولذا فهو المستحق للعبادة والطاعة والشكر على هذه النعم العظمى، ولكن عدداً قليلاً من عباده من يعلم قيمة هذه النعم، ويحافظ عليها، ويشكر خالقه على منحه إياها.

٢٤- والله تعالى هو الذي بثَّ الخلق على هذه الأرض، وفرَّقهم في أنحاءها، لتعمر الأرض بالحياة. ومرجع هؤلاء الخلق إليه وحده يوم القيامة، إذ يحشرهم ويحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١- أمر الله تعالى بالمشي في الأرض طلباً للرزق، ولم يأمر بالسعي، لما يعلمه سبحانه من حال الإنسان في الحرص على الرزق والمبالغة في طلبه، فكان الأمر بالمشي دون السير للتخفيف من الاندفاع، والتقليل من الاجتهاد البالغ في طلب الرزق.

٢- كَشَفَ العلم أن الطيور الصائفة تُركب من التيارات الهوائية المساعدة التي تنشأ من اصطدام الهواء بعائق ما، أو من ارتفاع أعمدة من الهواء الساخن، فإذا كانت الريح هينة ظلت الأعمدة قائمة وَصَفَّت الطيور في أشكال حلزونية، أما إذا اشتدت انقلبت الأعمدة أفقياً فتصُفُّ الطيور في خطوط مستقيمة بعيدة المدى. وتوصل العلم إلى أن كل طائر عندما يضرب بجناحيه يعطي رفعة إلى أعلى للطائر الذي يليه مباشرة، وعلى ذلك تتخذ الطيور المهاجرة - بإلهام الله تعالى - الطيران على شكل الرقم (٧). وهذا الشكل يُمكنُ الطيرَ من الطيران مسافات إضافية قُدِّرَتْ على الأقل بـ «٧١٪» زيادة على المسافة التي يمكن أن يقطعها فيما لو طار بمفرده. (صور إعجازية في القرآن الكريم ص ١٧٧ - ١٧٨).

- ٣- التعبير عن قبض أجنحة الطيور في الهواء بالفعل المضارع ﴿وَيَقِضْنَ﴾ دلالة على تجدد هذه الحركة واستمرارها وضرورتها من أجل إتمام عملية الطيران للطيور.
- ٤- في قوله تعالى: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ تشبيهه لحال المشرك بالدابة في مشيه مكيباً على وجهه منكساً رأسه، فهذا حال الدواب في هيئتها ومشيتها.
- ٥- قُدِّمَ السَّمْعُ عَلَى الْبَصَرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ لِأَنَّ الْجِهَازَ السَّمْعِيَّ يَعْمَلُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ قَبْلَ الْجِهَازِ الْبَصَرِيِّ، وَأَفْرَدَ السَّمْعَ مَعَ جَمْعِ الْأَبْصَارِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَثُرَتْ حَوْلَهُ الْأَصْوَاتُ لَا يَسْتَطِيعُ تَمْيِيزَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَأَى عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْتَطِيعُ التَّمْيِيزَ بَيْنَهُمْ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِٰنِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ۖ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

التفسير:

- ٢٥- يسأل الكافرون النبي الكريم ﷺ والمؤمنين عن يوم البعث والجزاء قائلين لهم: إن كان كلامكم صحيحاً في ثبوت هذا اليوم فأعلمونا متى يكون؟
- ٢٦- يأتي الجواب عن سؤا لهم بتوجيه النبي ﷺ أن يقول لهم: علمُ يوم البعث والجزاء عند الله وحده، وتنحصر مهمتي في إعلامكم بحصوله وتأكيده وقوعه، وتبيين الحق، والدعوة إليه.
- ٢٧- في يوم الجزاء وهو آتٍ لا ريب فيه، وكلُّ آتٍ قريب، تَسْوَدُّ وُجُوهُ الْكَافِرِينَ، ويظهر عليها الكآبة والذلَّة، وتقول لهم الملائكة: هذا اليوم الذي كنتم تُنْكِرُونَ وقوعه، وتستعجلون حصوله استهزاءً وتكديباً، قد حصل ووقع.
- ٢٨- قل - أيها النبي الكريم - للمشركين الذين يَتَمَنَّوْنَ موتك وموت من اتبعك من المؤمنين: أخبروني إن هلكتُ أنا وأتباعي، أو بقيت حياً برحمة الله وفضله، هل ثمة من يُحْمِيكُمْ من عذاب الله حين ينزل بكم؟ وفي هذا إقامة الحجة على المشركين بأقوى عبارة وأبلغ أسلوب، فعذابهم حاصلٌ لا محالة، وليس مرتبطاً ببقاء النبي وأتباعه، أو بموتهم.

٢٩- قل - أيها النبي الكريم - للمشركين: نحن آمننا بإلهنا الرحمن إيماناً جازماً، وَعَلِمْنَا يَقِيناً قدرته وعظمته، فلم نتوكل إلا عليه، ولم نسأل العون إلا منه، وأنتم كفرتم به، وسيظهر يوم القيامة - حين يحاسب الله الخلق - الفريقُ الخاسر المغرق في الضلال والتهيه.

٣٠- قل - أيها النبي الكريم - للمشركين: أخبروني بعد تفكُّرٍ وتَأَنُّ، إن حُرِّمَ من نعمة الماء فذهب في أعماق الأرض بعيداً، مَنْ يستطيع أن يغيثكم بماء عذب جارٍ، قريب التناول، سهل الاستخدام؟ وتنتهي الآية دون ذكر الجواب؛ لأنه لا يمكن إلا أن يكون الله وحده هو القادر على الإغاثة والإتيان بالماء؛ لأنه صاحب الأمر في هذا الكون، ولا قدرة لأحد على مثل هذا الفعل العظيم. وفي هذا السؤال وجوابه إقامة الدليل على وحدانية الله وعظمته، ووجوب عبادته وحده دون ما سواه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تأكيد أن علم الغيب لله وحده سبحانه، ولا يمكن لأحدٍ عِلْمُ شيء من الغيب إلا أن يُعَلِّمَهُ الله به.
- ٢ - إقامة الحججة على المشركين من خلال سؤاَلهم عن أمور لا يقدر عليها أحد إلا الله، مثل: مَنْ يجيرهم من العذاب يوم القيامة؟ مَنْ يأتيهم بماء معين إن غار ماؤهم؟
- ٣ - وقع التعبير عن الموت في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّ الموت هلاك، ووقع التعبير عن الحياة بالرحمة؛ لأنَّ حياة المؤمنين فيها زيادة طاعات وفِعْلُ خيرات.
- ٤ - وَضَعَ الظاهرَ موضع المضمَر في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ لتسجيل الكفر عليهم، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم. (الشوكاني، فتح القدير ٥/٣٥٢).
- ٥ - في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إخراج للكلام مخرَجَ الإنصاف؛ إذ فيه تسوية بين الفريقين، وجعلها محتملين للضلال بنسبة واحدة، مع حصول اليقين لدى صاحب الحق به، وهو من أساليب الإقناع.
- ٦ - تشير الآية الكريمة الأخيرة في السورة إلى أهمية الماء في حياة الإنسان، فبدونه تستحيل الحياة. ومن رحمة الله بِخَلْقِهِ إمدادُهم بالماء على نحوٍ دائم لا ينقطع، ولا يَغُورُ في الأرض.
- ٧ - قد يغور الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية بتكون الصدوع والخسوف الأرضية، كما قد يغور بالضَّخِّ المفرط الزائد على معدل تدفقِ الماء إلى البئر، وفي الحالتين لا يحفظ الماء في صخور الأرض أو يعوضه إذا غار إلا رب العالمين. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٤٥١-٤٦٨).

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - بيان قدر رسول الله ﷺ.
- ٢ - الرد على اتهامات المشركين للنبي ﷺ.
- ٣ - تهديد المكذابين، وبيان سوء عاقبتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيَبْصُرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْسُورُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير:

١ - تبدأ السورة الكريمة بحرف (نون) وهي آخر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، وحكمة الابتداء بهذه الحروف التنبيه على إعجاز القرآن، وأنه من جنس هذه الحروف، ثم أقسم الله تعالى بالقلم، وبما يُكتب به.

٢ - تنفي هذه الآية الكريمة - وهي جواب القسم - عن النبي ﷺ ما اتهمه به المشركون من جنون، وتبيّن أنّ النبوة نعمة عظيمة من الله تعالى خصّ بها نبيّه الكريم ﷺ.

٣ - تؤكد هذه الآية أنّ للنبي ﷺ ثواباً كبيراً دائماً لا يتقطع؛ لتحمله أعباء الرسالة وقيامه بحقها حق القيام.

٤ - تؤكد هذه الآية الكريمة أنّ النبي ﷺ يتحلّى بأعظم الصفات، وأحسنها وأطيبها، ويتمتع بالأخلاق العالية النبيلة المثلى، وقد جمع ﷺ محاسن الأخلاق، واتصف بأرقى ما يتصف به بشرٌّ من حُسن خُلُقٍ، وتُبلّ سلوك.

٥-٧ - إنّ مَنْ كان متصفاً بمحاسن الأخلاق لا يمكن أن يكون مجنوناً، وستعلم - أيها النبي الكريم، وسيعلم المشركون من قومك علم يقين لا امتراء فيه - من المستحقّ للوصف بالجنون حين تنكشف لهم

الحقائق، ويظهر الله تعالى لهم ولجميع الخلق ما يعلمه سبحانه، فإنه يعلم من أتبع سبيله، ومن لم يتبعه، ويعلم من يستحق الوصف بالجنون، ومن هم العقلاء من خلقه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في القسم بالقلم وبما يكتب رفعةً لشأن العلم والعلماء، وتنبيه لأهمية الكتابة وفضلها، ودورها في نشر العلم وحفظه.

٢ - تَوَلَّى اللهُ تَعَالَى الدِّفَاعَ عَنِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ وذلك لعظيم مقامه عنده، وَبَيَّنَّتْ لَنَا هَذِهِ الْآيَاتُ عَظِيمَ خُلُقِهِ، وَعَظِيمَ الْأَجْرِ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ.

٣ - سار مشركو مكة على طريقة من سبقهم من مشركي الأقوام السابقة في اتهام نبيهم بالجنون، وكأثمهم تواصوا على ذلك. ولعل لجوءهم إلى هذه التهمة لسرعة تبادرها إلى الأذهان، وكثرة حصول الاتهام بها بين الناس.

٤ - بدأت الآيات الكريمة بنفي تهمة المشركين للنبي ﷺ بالجنون، ثم بيان محاسنه وعظيم أخلاقه. وفي هذا تعليم لنا أن نُزِيلَ الْبَاطِلَ قَبْلَ تَثْبِيْتِ الْحَقِّ.

٥ - يُلَخِّصُ كَثْرَةَ الْمُؤَكَّدَاتِ فِي الْآيَتَيْنِ (٣-٤) وَهِيَ: التَّأَكِيدُ بِـ (إِنَّ)، وَالخَطَابُ بِالْكَافِ، وَتَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿لَكَ﴾، وَتَنْكِيرُ ﴿لَأَجْرًا﴾، وَوَصْفُهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ مَنْقُوعٍ، وَاسْتِعْمَالُ ﴿عَلَى﴾ الْمَفِيدَةَ لِلِاسْتِعْلَاءِ وَالتَّمَكُّنِ.

٦ - اجتمع في النبي الكريم ﷺ سمات القدوة الحسنة من الصفات الحسنة، والأخلاق الفاضلة، ولم يكن أحدٌ ليعيبه بشيء من هذا الجانب. ومن أحسن ما وُصِفَ بِهِ خُلُقُهُ الْكَرِيمُ مَا قَالَتْهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي حَقِّهِ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ». (رواه أحمد برقم ٢٤٦٠١، ٤١/١٤٨ الرسالة. وهو صحيح).

﴿ فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ ۙ (٨) وَدُّوْا لَوْ تَدْرَهُنَّ فَيُدْهِنُوْنَ (٩) وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبْنِيٍّ (١١) مَتَّاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُمَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُوطِ (١٦) ﴾

التفسير:

٨ - تَنَهَى هَذِهِ الْآيَةُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَطَلْبِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِهِ وَبِرِسَالَتِهِ، وَكَانَ طَلْبُهُمْ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ مَدَّةً، وَيَعْبُدُوا اللهُ مَدَّةً.

- ٩- وهم راغبون في أن تستجيب لطلبهم هذا، وأن تليّن لهم، وتوافقهم فيما يطلبون إليك، وهم من جانبهم مستعدون للتنازل في مقابل ذلك.
- ١٠- تنهى هذه الآية الكريمة النبي ﷺ عن الاستجابة لما يطلبه المتصف بالصفات السيئة المذكورة، وهي: أنه كثير الحلفِ بالباطل، حقير النفس والرأي.
- ١١- يعيب الناس ويغتابهم، ويسعى للوقعة بينهم، وينقل كلام بعضهم في بعض، أو في الافتراء عليهم.
- ١٢- بخيل يمنع ماله، ويمنع الآخرين من الإنفاق، ظالم، متجاوز للحدِّ، كثير الوقوع في الإثم.
- ١٣-١٤- غليظ الطبع، لثيم النفس، وهو بعد ذلك كله مجاهرٌ بالشرِّ، مُعْتَرِّبٌ بما عنده من مال وأولاد.
- ١٥- وبلغ به الغرور والسفه أن يقول عن آيات القرآن الكريم: إنّها أباطيل السابقين وخرافاتهم.
- ١٦- إنّ المتصف بهذه الصفات سيعاقب يوم القيامة بعقوبةٍ مُدَلَّةٍ له، إذ تُظهره بين الخلق بمظهر مهين، وهي علامة ظاهرة على أنفه، أو في وجهه؛ ليعرف بسوئه. وهذه الآيات عامة في كل من اتصف بهذه الصفات، وهم موجودون قديماً وحديثاً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- طَلَبُ المداهنة والتنازل عن بعض الحق من قِبَلِ المشركين قديمٌ حديثٌ، وهو ممّا يندرج ضمن اتباع خطوات الشيطان، إذ يبدأ التنازل بخطوة، ثم تتبعه خطوات.
- ٢- جميع الصفات المذكورة في هذه الآيات لِصَمْنِ نهي الله عن طاعته صفات ذميمة سيئة، ينبغي للمرء المسلم أن يترفع عنها، وأن يتخلق بحسن الأخلاق وطيبها.
- ٣- التفصيل الذي ورد في هذه الآيات للصفات الذميمة فيه تنفير منها، ومَنْ يتصف بها.
- ٤- في التعبير عن الأنف بالخرطوم، واختيار السمة، وهي العلامة فيه، لزيادة الإذلال والإهانة للمتكبر المتعالي على الخلق، الذي يشمخ بأنفه على الناس.
- ٥- ذكر بعض المفسرين أنّ هذه الآيات نزلت في شخص محدد من مشركي قريش، ثم اختلفوا في تحديده. والقول بالعموم أولى؛ ليشمل ذلك كل من اتصف بهذه الصفات الذميمة.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوَنَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أِنِ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْفِكُمْ إِن كُنتُمْ صٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَا إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ سَكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدَدُوا عَلَيَّ حَرَبٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصٰلُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلرَّاقِلُ لَكُم لَوْلَا تَسْتَحِينُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا كُنَّا طٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَن يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير:

في هذه الآيات الكريمة قصة أصحاب الجنة، الذين أرادوا منَع المحتاجين حَقَّهُم، فعاقبهم الله بتخريب جنتهم، فندموا وأصلحوا شأنهم، وكان ذلك عبرة لهم، ولمن علم بقصتهم.

١٧-١٨ - نخب الآية الكريمة أَنَّ البلاء أصاب مشركي مكة كما أصاب قومًا من قبلهم كان لهم بستان، واتفقوا فيما بينهم، وحلفوا الأيمان أن يقطفوا ثمار بستانهم صباحًا، ولا يتركوا فيه شيئًا للمحتاجين.

١٩-٢١ - فأرسل الله تعالى على بستانهم وهم نائمون في الليل ما أذهب ثماره وأهلكها، وهم لا يعلمون بما حصل.

٢٢-٢٣ - ولما أصبح أصحاب البستان نادى بعضهم بعضًا أن أشرعوا، وانطلقوا مبكرين إلى بستانكم لقطع ثماره، كما اتفقوا عليه ليلاً.

٢٤-٢٦ - فذهبوا وهم يتحدثون بصوت خافت أَنَّهُم لن يسمحوا لأحد من المساكين بالدخول إلى بستانهم، فهم أصحاب البستان، ولهم الحق في التصرف فيه، ومنَع مَنْ يشاؤون من دخوله.

٢٦-٢٧ - فوجى أصحاب البستان حين رأوه وقد هلكت ثماره وزالت، وظنوا أَنَّهُم قد وصلوا إلى غيره، وأنَّهُم تاهوا عن الطريق، ولكنَّهُم حين تأملوا تيقنوا أَنَّهُ بستانهم، وعرفوا أن الله عاقبهم على قصدهم السيئ، وحرَمَهُم من ثمار بستانهم لَمَّا أرادوا حرمان المساكين حَقَّهُم.

٢٨-٢٩ - قال أحدهم وهو أعدهم رأياً، وأفضلهم حالاً: ألم أطلب منكم أن تُنزَّهوا الله تعالى وتذكروه، ولا تمنعوا المساكين حَقَّهُم في مالكم، قالوا: نُنزَّهه الله تعالى عن الظلم فيما فعل بنا، واعترفوا بقصدهم ظلم المساكين بمنعهم حَقَّهُم من المال.

٣٠-٣٢ - وبدؤوا يلوم بعضهم بعضاً، واعترفوا بذنبهم، وتجاوزهم الحدَّ فيما عزموا عليه، ودعوا الله تعالى أن يعوضهم خيراً مما أهلكه لهم، قالوا ذلك وهم راجون من الله العفو، وقبول التوبة الصادقة.

٣٣- وبمثل هذا العقاب الذي أصاب أهل البستان يُعاقب الله كلَّ مَنْ تعدَّى وكفر، ولم يستجب لأمر الله تعالى، وهو عذاب هيِّن يسير مقارنة بعذاب الآخرة، ولو أنَّ المشركين والمعرضين عن أمر الله عَلِمُوا ذلك لما عَمِلُوا بما يؤدي إليه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تشابُه حالِ أهل الكفر والباطل في القديم والحديث.
- ٢ - ما حصل من أصحاب البستان من توبةٍ وإنابةٍ سريعة إلى الله، هو الأصل في كل مَنْ تضعف نفسه، ويقع في المعصية.
- ٣ - دَلَّتْ هذه الآيات على أنَّ مَنْ عزم على فعل المعصية، وأخذ بالأسباب المؤدية إليها يُعَدُّ عاصياً، وقد يزره الله عن ذلك الفعل.
- ٤ - كان إهلاك ثمر البستان مانعاً لأصحاب البستان من فعل المعصية التي عزموا على فعلها، فكان أمراً ظاهره الشرُّ وباطنه الخير لهم بمنعهم من فعل القبيح، وهلاك البستان أهون ممَّا عزموا عليه من معصية.
- ٥ - يقول العلماء: عندما يتعرض النبات للأعاصير الصاعقة أو الرياح الشديدة المصحوبة بالصاعقة يهلك الزرع، فالصاعقة تमित وتجفف، فإذا ارتفعت شدتها تؤدي إلى الإحراق والتفحم، والرياح الشديدة تحطم وتكسر ما جففته الصاعقة. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٤٠٢).
- ٦ - اتفاق مجموعة من الناس على فِعْلِ الأمر، خيراً كان أو شراً، يزيد من اندفاعهم ورغبتهم في أدائه، وانفراد شخص واحد به يسبب له وحشة وتردُّدًا، ومن هنا كان كثير من العبادات في الإسلام تُؤَدَّى على نحوٍ جماعي لرفع الهمم، وتقوية الدوافع.
- ٧ - دَلَّ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ على وجود بذرة الخير، ولو عند واحد من الجماعة العازمين على الشر، وعلى توجُّههم إليهم بالنصح ألا يفعلوا ما عزموا عليه إلا أنه مع ذلك وافقهم فيما أرادوا، ولم يمنعه ما فيه من خير من ذلك.
- ٨ - من طبع الناس التَّلَاؤُمُ فيما بينهم عند حصول ما يُدَمُّ، ومحاولة إقصاء الاتهام عن النفس، ولو بإلقائه على الآخرين، ولو كان فاعل ذلك على يقينٍ من كذبه.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلَّغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَّمَهُ أَبَاهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْتَلْهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّقْتَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّىٰ أَن تَدْرِكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبْدِيَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِرِّ لِمَا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٤- تبيّن الآية الكريمة أنّ الله تعالى أعدّ لمن آمن به واتقى عذابه ومعاصيه نعيماً عظيماً ورغد عيش

في الجنة.

٣٥- يُنكر الله تعالى على المشركين موبخاً لهم: فهو سبحانه لا يُساوي في الحساب والجزاء بين من آمن به وأسلم له، وبين من كفر به ولم يؤمن.

٣٦- يخاطب الله تعالى من يُسوِّي بين المؤمن والكافر في الحكم، مُنكراً عليه هذا الحكم الذي يستحق التعجيب من أمره، والتساؤل عن مبدأ حكمه، فإنه حكم معوج يدل على خلل، وفقد اتزان.

٣٧-٣٨- يسأل الله تعالى الكافرين عن سبب كفرهم، هل عندكم - أيها الكافرون - كتاب مُنزّل عليكم من الله، تجدون فيه الإباحة لفعل ما تريدون وتشتهون، دون حساب ولا عقاب.

٣٩- أحصلتم على أيمان مؤكدة وعهود من الله لكم مستمرة إلى يوم القيامة، يأذن لكم فيها أن تحكموا لأنفسكم بما ترغبون فيه من الخير، أم أنكم تفترون على الله الكذب في ذلك؟

٤٠-٤١- أسألهم - أيها النبي الكريم - أئمة من يكفل من بينهم، ويضمن ذلك الذي يزعمون من خير وحسن جزاء عند الله، أم يعرفون من يوافقهم على هذا القول، ومن يحميهم من عذاب الله، فليدعواهم لنصرتهم والشفاعة لهم إن كانوا موجودين.

٤٢-٤٣- تُخبر الآية أن أحداث يوم القيامة فيها أهوال بالغة، وأحوال مفزعة، ويؤمر المشركون أن يسجدوا فلا يُمكنهم ذلك، وتغشاهم الذلة والمهانة، وقد كانوا في الدنيا حين أمروا بالسجود والطاعة قادرين على ذلك فأبوا، ولذا يحال بينهم وبين القدرة على السجود يوم القيامة.

٤٤-٤٥ - هذا تهديدٌ للمكذِبين بالقرآنِ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى فيه أنَّه قادرٌ على إهلاكهم أيَّ وقت يشاء، ولكنه سبحانه اختار إمهالهم، وتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، وهم لا يشعرون بذلك، وَيَظُنُّونَ الإمهال إكراماً لهم وتفضيلاً لهم على المؤمنين، ولأنَّهم أهل مكر وكيد عامَلَهُم اللهُ بمثل صنيعهم.

٤٦-٤٧ - ما السبُّ الذي يدعو هؤلاء إلى الكفر والجحود؟ أتسألهم أجراً مقابل تبليغ الرسالة لهم، فيكون ذلك مانعاً لهم من الإيِّان؛ لأنَّه يثقل عليهم دَفْعُ هذه الغرامة؟ أم أنَّهم اطلعوا على ما في اللوح المحفوظ من غيب فكتبوه واتبعوه؟ وبما أنَّه لم يحصل أيُّ من هذين الافتراضين وجب عليهم الإيِّان بك واتباعك.

٤٨-٥٠ - هذه دعوة للنبي الكريم، ولكل مَنْ سار على دربه، أن يصبر على ما قضى اللهُ من إمهال الكافرين، وأن يواصل الدعوة والتبليغ على الوجه الأتم والأحسن، وألا يعجل كما حصل مع نبي الله يونس عليه السلام حين غادر قومه غاضباً منهم لعدم إيمانهم، وكان فعَلُهُ هذا اجتهداً منه، وليس بأمر الله تعالى، فابتلعه الحوت في البحر، فعلم أن هذا ابتلاء له من الله فاستغاث بربه سبحانه، وهو ممتلئٌ غيظاً على قومه، فاستجاب اللهُ له ورحمه، وأنجاه من بطن الحوت، وحَفِظَهُ. ولولا رحمة الله به لأُلْقِيَ في أرض خالية من النبات والزرع وهو مستحقُّ اللوم على ما بدر منه، ولكن اللهُ مَنَّْ عليه بالقبول والرضا والاصطفاء، فقبل توبته، وشفَّعه في قومه، وأعادهم إليهم ومَتَّعَهُم به، وهو نبي كريم موصوف بالصلاح الكامل. وفي هذه الحادثة عبرة عظيمة لكل مسلم أن يلتزم بأمر الله، وأن يصبر على الأذى ويحتمل حتى يأذن اللهُ بأمره.

٥١-٥٢ - وإنَّ الكافرين من شِدَّةِ عداوتهم لك، ونظرهم إليك بحقد وعداوة، ليكادُونَ يُزِيلُونَكَ عن مكانك، حين سمعوا ما تدعوهم إليه من الآيات البينات، وزادوا على ذلك اتهامك بالجنون، وكيف يستقيم هذا الاتهام ويُقبل، وقد أنزل اللهُ على نبيه كلاماً معجزاً هادياً للخلق أجمعين؟ وفي هذا إبطال لِرِزْوَانِهِمْ، ورَدُّ عَلَيْهِمْ بأبلغ عبارة، وأعظم دليل.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - دَلَّ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ المتضمن مقابلة المسلم للمجرم، أنَّ الكفر من أعظم الجرائم التي تحصل من الإنسان، ويستحق الكافر أن يلقب مجرماً.
- ٢ - عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يكشف اللهُ ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى مَنْ كان يسجد في الدنيا رثاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». (رواه البخاري برقم ٤٩١٩ في كتاب التفسير، باب سورة القلم). وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في

معنى الآية: «هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة». (أخرجه الطبري وغيره بسند حسن، يُنظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٣/٤٢٨، الصحيح المسبور للدكتور حكمت ياسين ٤/٥٢٤).

٣- الأمر بالسجود يوم القيامة ليس من باب التكليف؛ إذ لا تكليف في ذلك اليوم، ولكنه للتقريع والتخجيل.

٤- الاستدراج هو إيقاع الآخر في الحيلة بتمهل وخفاء دون أن يشعر بذلك، ومن الاستدراج ما يظنه الكافرون المنعم عليهم بالمال أنهم أعطوه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

٥- العادة ألا يُعلم المستدرجُ المستدرجَ بما يخطط له، ولا يخبره به ليتّم له الاستدراج كما يرغب، ولكن الله سبحانه عدلاً منه ورحمة بعباده أعلمهم باستدراجه إياهم ليأخذ الفطن اللبيب منهم حذرَه، وينجو من الاستدراج والإملاء.

٦- عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». (رواه البخاري برقم ٤٦٨٦ كتاب التفسير، باب سورة هود، ورواه مسلم برقم ٢٥٨٣، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم).

٧- يُستدل بقوله تعالى: ﴿لَيَرْفَعُنَّكَ بِأَبْصَرِهِ﴾ على إمكان حصول الإصابة بالعين، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيءٌ سابقَ القدرِ سبقته العين». (رواه مسلم برقم ٢١٨٨ كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي).

٨- كما بدأت السورة بنفي الجنون عن النبي الكريم ﷺ حُتِمت به، وفي ذلك توافقٌ والتئام بين البدء والختام.

٩- في بيان أَنَّ رسالة الإسلام عامة للعالمين في هذه الآيات، التي تُعدُّ من أوائل ما نزل مع بدء الدعوة، وما رافق ذلك من تضييق وإيذاء للنبي ﷺ وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ، إشارات إلى أَنَّ النصر لهذا الدين قادم بإذن الله، وأنه ليس خاصاً بأهل مكة ولا بما حولها، وفيه إشارات وبشائر بنصر هذا الدين، وأنه سَيَعُمُّ العالم كله.

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - إثبات يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ١ ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ ﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤ ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ ٧ ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِثَ بِالْحَاطِئَةِ ٩ ﴿ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ١٠ ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرًّا فِي الْجَارِيَةِ ١١ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَتَعْيِبًا أُذُنًا وَعِيَةً ١٢ ﴿ ﴾

التفسير:

- ١-٣- الحاقة: اسم من أسماء يوم القيامة، سُمِّيَتْ بذلك لتحقق وقوعها. وافتتحت السورة بذكر هذا الاسم ليوم القيامة، ثم الاستفهام عنه بـ ﴿ مَا ﴾ وبـ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ تهويلاً لسانه، وتفخياً لأمره، فإن يوم القيامة حدث عظيم، تتغير فيه الموازين، وتقلب فيه الظواهر، وهو يوم الحساب والجزاء والخلود.
- ٤- بعد أن أخبرت الآيات السابقة عن تحقق حصول يوم القيامة، انتقلت الآيات للحديث عن مصير بعض الأقسام الذين كذبوا بها، وتبدأ بذكر ثمود وعاد. وسُمِّي يوم القيامة هنا بالقارعة؛ لأنها تَقْرَعُ القلوب بأهوالها وفظائعها.
- ٥- كان جزاء ثمود - وهم قوم صالح - على تكذيبهم بالآخرة، وجحودهم بالله ورسوله، أن أهلكهم الله تعالى بصيحة عظيمة مجلجلة، لم تُبْقِ منهم أحداً.
- ٦- وكان جزاء عاد - وهم قوم هود - على تكذيبهم أن أهلكهم الله بإرسال ريح مدمرة شديدة بلغت الغاية في بَرْدِها وشدتها، فلا يقف في طريقها شيء، ولا يمنع من ثورانها مانع.
- ٧-٨- استمر هبوب هذه الريح العظيمة المهلكة على عاد، سبع ليالٍ وثمانية أيام متواصلة متتابعة بلا توقف ولا انقطاع، وتركت قوم عاد أمواتاً مُلْقَيْنَ في الأرض على هيئة أصول النخل المقتلعة من أماكنها،

الخالية الأجواف، وقد عَمَّتْهم هذه الريح بالهلاك، فلم يَنْجُ منهم أحدٌ، ولا يمكن أيَّ راءٍ في أرضهم أن يرى باقياً منهم، فقد هَلَكُوا جميعاً.

٩-١٠ - وأهلك الله فرعون وجنوده، ومَنْ كَذَّبَ بالله والبعث قبلهم من الأمم، وأهلك قري قوم لوط، فإن هؤلاء جميعاً اقرَفوا الفعل السيئة، وهي الكفر ومعصية رسولهم، فاستحقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، وكان هلاكهم في الدنيا بعذاب أليم.

١١-١٢ - وأهلك الله قوم نوح بالطوفان، وأنجى نوحاً ومَنْ آمَنَ معه في السفينة التي جرت في الماء بأمر الله وحِفْظِهِ، وجعل الله في ذلك عبرةً وذكرى لِمَنْ كان ذا سمع يَعي به الحق، ويتنفع به.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَعَدَّدَ أسماء يوم القيامة، ومنها الحاقة والقارعة، يدلُّ على أهميته وعظمته. ولكلِّ اسم من هذه الأسماء دلالة على حَدَثٍ من أحداث هذا اليوم العظيم.

٢ - وضع الاسم الظاهر موضع المضمَر في ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ لزيادة التهويل.

٣ - استمرت الريح التي أهلكت عاداً قومَ هود سبع ليالٍ وثمانية أيام مع إمكان إهلاكهم في لحظة واحدة؛ لبيان عظيم قدرة الله، ولتقضي عليهم قضاء تاماً لا يَفُلت منه أحد.

٤ - خاطب الله الذرية في قوله: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ مع أَنَّ المحمول أجدادهم لا هم، لاستحضار المشهد، ولأنَّ إنجاء السابقين إنجاءً لِمَنْ توالت منهم بعد.

٥ - كان إهلاك ثمود بصيحة عظيمة رهيبية، وُصفت في بعض الآيات بأنها رجفة، وفي بعضها بأنها صاعقة، وكل هذا للدلالة على عظمتها وقوة أثرها. (روح المعاني، ٢١/٢٠٨).

٦ - يُفَهُمُ مِنْ قوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أَنَّ ابتداء عذاب عادٍ كان أول النهار، وأنه انتهى آخر النهار كذلك، ولذا كان عدد أيامه زائداً على عدد لياليه بواحد.

٧ - يقول علماء النبات: النخيل من الأشجار القوية العملاقة الباسقة المتحدية لظروف الجفاف والرياح والرمال وما شابه ذلك، ومع ذلك فإنها تصاب بالهرم والشيخوخة، وعند الشيخوخة تَصَفَّرُ أوراقها، وتجف قمتها، وتبقى واقفة في الهواء كالوتد العملاق، وبعد فترة من الزمن يخرق الجفاف نُخَاعَهَا قبل الأجزاء الخارجية من الجذع فتصبح خاوية، فإذا هَبَّتِ الرِّيحُ تساقطت على الأرض خاوية اللب.

(الإشارات العلمية في القرآن الكريم علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٤٠٤).

٨ - الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ يعود على عاد وثمود.

٩ - سُمِّيَتْ قَرَى قَوْمِ لُوطٍ بِالْمُؤْتَفِكَاتِ؛ لِأَنَّهَا قَلْبَتْ بِأَنْ جُعِلَ عَلَيْهَا سَافِلُهَا، وَهُوَ عَذَابٌ مُنَاسِبٌ لِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، فِيهِ قَلْبٌ لِلْفِطْرَةِ، وَطَبِيعَةُ الْخَلْقِ.

١٠ - أَفْرَدَ لَفْظُ ﴿رَسُولٌ﴾ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ مَعَ أَنْ الْمُتَحَدَّثَ عَنْهُ رَسُولَانِ، إِذْ أُزِيلَ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ، وَأُرْسِلَ لُوطٌ إِلَى قَوْمِهِ؛ لِأَنَّ دَعْوَةَ الرِّسَالِ كُلِّهِمْ وَاحِدَةٌ، فَكَانَتْهَا رَسُولٌ وَاحِدٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

١١ - فِي إِفْرَادِ لَفْظِ ﴿أُذُنٌ﴾ وَتَنْكِيرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعْبَهُ أُذُنٌ وَعَيْبَةٌ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى قَلْبَةٍ مَنِ يَعْبِي مِنَ النَّاسِ، وَأَنْ هُوَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً كَبِيرَةً، وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ مِقَارَنَةً بِالْكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَعُونُ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا يَسْمَعُونَ. (الكشاف ٤/٦٠٠).

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ (١٣) وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدَكَّنَا ذَلِكَ وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَ يَذِرُ الْوَأْقِعَةَ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَ يَذِرُ وَاهِيَةً (١٦) وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَ يَذِرُ تَمَنِيَةً (١٧) يَوْمَ يَذِرُ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيئَةٌ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطْرِهَا دَائِبَةٌ (٢٢) كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٣) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَرَأَيْتُ كِتَابِيَةَ (٢٤) وَلَرَأَيْتُ مَا حِسَابِيَةَ (٢٥) بَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٦) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي (٢٧) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ (٢٨) خَذُوهُ فَعُوقُوهُ (٢٩) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣١) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٢) وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٣) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ (٣٤) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ (٣٥) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٦) ﴿﴾

التفسير:

١٣ - فَإِذَا نَفَخَ الْمَلِكُ الْمُؤَكَّلُ بِالنَّفْخِ فِي الْبُوقِ إِيْذَانًا بِبَدءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمَقْصُودُ فِي آيَةِ النَّفْخَةِ الْأُولَى.

١٤ - يِرَافِقُ النَّفْخَ فِي الصُّورِ أَحْدَاثٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا أَنْ تُزَالَ الْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَتُرْفَعُ هِيَ وَالْأَرْضُ، وَيُضْرَبُ بِهَا حَتَّى تَنْدَقَ وَتَتَكَسَّرَ الْجِبَالُ فَتَزُولُ وَتَتَفَتَّتْ، وَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُسْتَوِيَةً.

١٥ - إِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فَهَذَا إِيْذَانٌ بِبَدءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسُمِّيَتْ الْقِيَامَةُ وَاقِعَةً تَأْكِيدًا لِحُصُولِهَا.

١٦ - وَتَنْشَقُّ السَّمَاءُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَتَنْفُتِحُ أَبْوَابُهَا لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَتَصْبِحُ هَشَّةً ضَعِيفَةً غَيْرَ مُتَمَاسِكَةٍ.

- ١٧- وتكون الملائكة في جوانب السماء ونواحيها بانتظار أمر الله للقيام به، ومن الملائكة صنف يحملون العرش فوق سائر الخلق، وهم ثمانية من الملائكة العظام الخلق، أو ثمانية صفوف هائلة في الكثرة والقوة.
- ١٨- في هذا اليوم يُعْرَضُ الخلق على الله تعالى وذلك بعد النفخة الثانية التي تبعثهم من قبورهم، فيقومون صفوفاً بانتظار الحساب والسؤال، وهم في فزع ودهشة. والله تعالى عالم بهم وبأسرارهم، لا يغيب عن علمه أحد، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا أمر.
- ١٩- ٢٠- في هذه الآية بدء الحديث عن الفريق الأول وهم الذين يتسلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى، فإنَّ أحدهم يبادر بمخاطبة مَنْ حوله طالباً منهم أن يقرؤوا كتابه، لأنَّ ما فيه يُسرُّ ويُشَرَّفُ؛ بدلالة تسَلُّمِهِ باليد اليمنى، وقد كان متيقناً من حصول البعث والحساب، مؤمناً بالله وبما أخبر به.
- ٢١- تُبَيِّنُ هذه الآيات جانباً من نعم أصحاب اليمين في الجنة، فمقامهم فيها كله رضا وسرور ونعيم دائم لا ينقطع ولا يزول.
- ٢٢- وسُكْنَاهُمْ في جنة عظيمة القدر، ذات قصور عالية شامخة.
- ٢٣- والثمار فيها قريبة التناول، يحصل عليها الراغب فيها دون عناء ولا جهد.
- ٢٤- من صور النعيم في الجنة تناولُ الطعام والشراب؛ تَفَكُّهًا وَتَلَذُّذًا، لا عن حاجة إليها. وكل هذا النعيم جزاء لهم مقابل ما قَدَّمُوا في الحياة الدنيا من طاعة وعبادة.
- ٢٥- ٢٧- ثم ذكر القسم الثاني، وهم الذين يَتَسَلَّمُونَ صحيفة أعمالهم بيدهم الشمال، فإنَّ كُلَّ واحد منهم يتمنى أنه لم يبعث، ولم يَتَسَلَّمْ كتابه، ويتمنى لو أَنَّ الموت لم يُعَقِّبْه بعث ولا نشور؛ لَسَأَ تَيَقَّنَ من سوء المصير لحظة تَسَلَّمِهِ كتابه بشماله.
- ٢٨- ٢٩- وَيَعْلَمُ في ذلك الموقف أَنَّ ماله الذي أحبه في الدنيا، وجمعه بشتى الوسائل، لن يغني عنه شيئاً، ولن يمنع عنه عذاب الله، وأنَّ الجاه والسلطان والمكانة التي حصلت له في الدنيا لن تنفعه شيئاً، وقد زالت ولم يَبْقَ لها أثر.
- ٣٠- ٣٢- يأمر الله تعالى الملائكة الذين يُعَذِّبُونَ أهل النار أن يأخذوا هذا الكافر إلى جهنم، وأن يجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال، ويحيطوا جسده بسلسلة طويلة زيادة في تعذيبه وإهانته.
- ٣٣- ٣٤- تُبَيِّنُ هذه الآيات سبب حصول هذا العذاب لِمْنْ يعذب به، وهو كُفْرُهُ بالله، ومنعه الخير عن المساكين، من نفسه ومن غيره، فكان لا يُطعم المساكين، وَيَنْهَى غيره عن إطعام المحتاجين.
- ٣٥- لا يجد هذا الكافر مَنْ يحميه من العذاب، ولا مَنْ يُجِيرُهُ منه، فقد شُغِلَ أصدقاؤه بأحوالهم.
- ٣٦- ولا يجد هذا الكافر في النار طعاماً إلا ما يَسِيلُ من أبدان أهل النار من صديد ودم.

٣٧- لا يأكل هذا الطعام إلا مَنْ تَعَمَّدَ الكفر بالله، وعدم الإيمان به، وفَعَلَ ما يجلب سَخَطَ الله وعقابه.

الفوائد والاستنباطات:

١- يُؤخذ من الآيات التي تبين حال الجبال يوم القيامة ثبوت عدة مراحل من التغيير لها، منها الدُّكُ المذكور في هذه السورة، ومنها: النسف، والتسيير، وأن تصير هباءً، وأن تصير سراياً، وأن تصير كالعِهْن المنفوش، ولبعض المفسرين اجتهادات في ترتيب هذه المراحل. (الفخر الرازي، التفسير الكبير ١٢/٣١).

٢- ﴿هَآؤُمْ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خُذُوا، ويجوز فيه الهمز والقصر: هاء وها، وتتصل به كاف الخطاب. (الدرالمصون، ١٠/٤٣٢).

٣- الهاء في ﴿كَنِيْبَةٍ﴾ و﴿حِسَابِيَةٍ﴾ و﴿مَالِيَةٍ﴾ و﴿سُلْطَانِيَةٍ﴾ هاء الوقف التي تُجْتَلِبُ حال الوقف على الكلمة لتبين حركة آخرها، وثبتت هاؤها وصللاً لثبوتها رسماً.

٤- في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَذُّعُرْضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾ أقوى رادع للكفِّ عن محارم الله، واجتناب ما يُسَخِطُه سبحانه سرّاً وجهراً.

٥- يتمنى الكافر يوم القيامة الموت بقوله: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ مع شدة كراهيته له؛ لما يرى ممّاً هو عنده أشنع من الموت وأمرّ. (أورد الطبري عن قتادة كلاماً بمعناه في تفسيره جامع البيان ٢٩/٣٩).

٦- حَصَرَتِ الآية الكريمة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾ طعام أهل النار في هذا الصنف، وورد في آيات أُخَرَ أَنَّهُ مِنَ الضَّرِيْعِ، وَمِنَ الزَّقُوْمِ، وَلَا تَعَارُضُ بَيْنَهَا، إِذْ تُحْمَلُ عَلَى تَنَوُّعِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُعَذَّبُ بَعْضُهُمْ بِهَذَا وَبَعْضُهُمْ بِغَيْرِهِ، أَوْ عَلَى حَصُولِ بَعْضِ الْعَذَابِ فِي مَرَاحِلَ، وَبَعْضُهُ فِي مَرَاحِلَ أُخْرَى.

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَتَعْلَمُونَ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير:

٣٨-٤٠ - فَأَقْسِمُ قَسَمًا مُؤَكَّدًا، بما تبصرونه من المراثيات وما لا تبصرونه، على أن القرآن مُبَلَّغٌ لكم

بوساطة رجلٍ جامعٍ لمحاسن الأخلاق والفضائل.

٤١-٤٣ - تنفي هذه الآيات عن القرآن الكريم تهمة الشعر والكهانة، فإنه لا يُشبه كلام الشعراء ولا

الكهنة، لأنه كلام الخالق العظيم سبحانه، أنزله على نبيه للهداية والعبارة، إلا أنه لم يؤمن به، ولم يعتبر ويتعظ بما فيه إلا عددٌ قليلٌ ممن يُبَيِّنُ عليهم القرآن، وسمعوه.

٤٤-٤٧ - ولو أن هذا النبي الكريم ادَّعى على الله شيئاً لعاقبه سبحانه على ذلك بعقوبة عاجلة تُنهي

حياته، ولا يملك أحد أن يمنع تلك العقوبة عنه.

٤٨-٥٢ - تتحدث هذه الآيات عن القرآن الكريم، مُبَيِّنَةً أنه تذكرةٌ وعِزَّةٌ وموعظةٌ لأصحاب التقوى

ينتفعون بما فيه، ويعملون بما أمروا به. والله تعالى يعلم أن من الناس مَنْ يَكْذِبُ بالقرآن، وسيكون القرآن حسرةً وندامة على مَنْ كفر به، حين يَرَوْنَ ثواب المؤمنين، وما أعدَّ لهم من عقاب وعذاب. وإنَّ القرآن هو الحق البين الواضح الذي لا امتراء فيه ولا ريب، فنَزَّهَهُ رَبُّكَ، واذكر اسمه العظيم، حامداً إياه على نعمة القرآن، وعلى سائر النعم.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تَضَمَّنَ قوله تعالى: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴾ الْقَسَمَ بِكُلِّ شَيْءٍ، فالمبصر وغير المبصر

يشمل الخالق والمخلوق والدنيا والآخرة، والنعم الظاهرة والباطنة، وما نعلم من الخلق وما لا نعلم.

٢ - يشير النص في القَسَمِ بما لا تُبْصِرُ إلى وجود عوالم لا يستطيع الإنسان رؤيتها. ومجرد الجزم بوجود

هذه العوالم يفتح للإنسان آفاقاً هائلة من العلم بمدى ضعف الإنسان، وقلة حيلته أمام هذه العوالم العظيمة، ويتعالى بعلمه على الذين يُحْضِرُونَ إدراكهم في عالم مَرْتَبِيٍّ ضيق الحدود. وفيه دعوة إلى التأمل والتفكير والبحث، والاجتهاد.

٣- يُنْسَبُ الْقُرْآنُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، كما في قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ بوصفه مُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ، وَيُنْسَبُ إِلَى جَبْرِيلَ الْكَاتِبِ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠] بوصفه المرسل به من الله إلى رسوله، وَيُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥] لَأَنَّهُ قَائِلُهُ سَبْحَانَهُ.

٤- وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ الشُّعْرِ وَالْكِهَانَةِ - فِي الْآيَاتِ مَعَ اخْتِلَافِهَا - لِأُمُورٍ مِنْهَا: أَنَّ الْكِهَانَ كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي تَحْسِينِ كَلَامِهِمْ بِالسَّجْعِ وَالْمَحْسَنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ؛ لِيَقْوَى تَأْثِيرُ كَلَامِهِمْ فَيَمُنَّ حَوْلَهُمْ.

٥- مَعَ عَظِيمِ مَنزَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ اللَّهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَوْ حَادَ عَنِ الصَّوَابِ وَافْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَإِنَّ عِقَابَهُ سَيَكُونُ عَظِيمًا سَرِيعًا. وَبِهَذَا الْكَلَامِ يَتَأَكَّدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكْتُمِ مِنْهُ، وَلَمْ يُغَيِّرْ فِيهِ.

٦- الْوَتِينَ: عِرْقٌ يَصِلُ الْقَلْبَ بِالدِّمَاغِ، وَإِذَا انْقَطَعَ مَاتَ الْإِنْسَانُ فَوْرًا؛ وَلِذَا كَانَ النَّصْرُ عَلَى قَطْعِهِ لِسُرْعَةِ حَصُولِ الْمَوْتِ بِذَلِكَ.

٧- فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِحَقِّ الْيَقِينِ﴾ وَجِهَانٌ، أَوْهَمًا: أَنْ يَكُونَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ، وَمِثْلُهُ: عَيْنَ الْيَقِينِ، وَثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَيَكُونُ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ بِلَفْظِ مَغَايِرٍ، وَهُوَ أَسْلُوبٌ شَائِعٌ مَعْرُوفٌ فِي اللَّغَةِ. (الهداية ١٢/٧٦٩٣. الدر المنصور ١٠/٢٣٢).

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - تقرير البعث.

٢ - إثبات قدرة الله تعالى على ما يشاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلِيهِ أَتَى تَتْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَحْيِهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْتَ لَطْفٌ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير:

- ١-٢- دعا داع من المشركين على نفسه وعلى قومه بنزول العذاب؛ ليخدع الناس، ويبرهن لهم أنه ومن معه على الحق، حقاً أن العذاب سيقع على الكافرين، وليس ثمة ما يمنعه.
- ٣-٤- العذاب الذي سيصيب الكافرين من الله العليّ سبحانه الذي يعرّج إليه جبريل عليه السلام والملائكة الكرام يوم القيامة؛ ذلك اليوم الذي يبلغ مقداره خمسين ألف سنة من سني الدنيا.
- ٥- يدعو الله تعالى نبيه ﷺ إلى الصبر على إيذاء المشركين واستهزائهم به، وطلبهم تعجيل العذاب، وأن يكون صبره جميلاً لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله.
- ٦-٧- إن هؤلاء المستهزئين يُنكرون حصول يوم القيامة؛ ولذلك يستهزئون به، ويستعجلون حصوله، وهو في الحقيقة ثابت يقيناً، ولذا كان التعبير عن حصوله بالقرب، فإن كل آت قريب.
- ٨- في ذلك اليوم ستتغير السماء، وتنقلب طبيعتها، وتصبح كالنحاس الذائب.
- ٩- وينقلب حال الجبال فتطير من أماكنها، وتصبح كالصوف المتناثر المصبوغ بألوان الجبال المتعددة.

١٠ - وفي ذلك اليوم ينشغل كل امرئ بنفسه من شدة الهول والفرع، فلا يُبالي الصديق بصديقه الحميم، ولا يلتفت إليه، ولا إلى ما هو فيه من كرب.

١١-١٤ - ومع أنّ المرء يوم القيامة يرى مَنْ كان يعرفهم في الدنيا من أبنائه وإخوانه ومعارفه، إلا أنّه لا يتكلم معهم لانشغال كل واحد بنفسه، أما الكافر فإنّه يرغب أن يُقدّم مكانه للحساب - وهو يعلم أن مصيره العذاب المهين - أبناءه وزوجه وأخاه وأفراد عشيرته التي كان ينتسب إليها، وكلّ مَنْ في الأرض ممّن لا يعرف من الخلائق؛ لينجو بنفسه من العقاب.

١٥-١٨ - إنّ هذا الافتداء الذي يرغب فيه الكافر لن يحصل، وإنّ جهنم التي تلتهب نارها فيها صنوف من العذاب، منها نزع جِلْدَةِ الرَّأْسِ، أو أطراف الإنسان من أماكنها، وتطلب أصحابها الذين يحاولون الفرار منها، والتولّي عنها، وكانوا في الدنيا يجمعون المال، ويبالغون في حفظه، ولا يُؤدّون حقّ الله فيه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - التّكثير في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لبيان أنّ المقصود ليس التعريف به، أو تبيين هويته، والقصد منه العموم، إذ ينطبق ما في هذه الآية على كل مَنْ يصدر عنه مثل هذا السؤال.

٢ - الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن؛ لأنّ ﴿سَأَلَ﴾ بمعنى دعا، واللام في ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بمعنى على، أو يكون الكلام على تقدير سؤال سائل: لِمَنْ هذا العذاب الواقع؟ فيقال: للكافرين.
(أبو حيان، البحر المحيط ١٠/٢٧١).

٣ - وَصَفُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ ذُو الْمَعَارِجِ لم يقع في غير هذه الآية، والمعارج هي المصاعد، ويُفهم منه أنّ للملائكة الكرام طرقاً أو أبواباً، أو وسائل خاصة للصعود إلى السماء.

٤ - في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تحديد مدة يوم القيامة إلى ما قبل دخول الجنة والنار بخمسين ألف سنة - على قولٍ في تفسير الآية - وفي سورة السجدة تحديده بألف سنة. والجمع بينهما أن في يوم القيامة مواقف متنوعة لها مُدَدٌ يصل بعضها إلى ألف سنة، ومجموعها خمسون ألف سنة، ويخفف الله تعالى هذه المدة على المؤمنين؛ لما ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدريّ ؓ قال: قيل يا رسول الله: ما أطول هذا اليوم! فقال: «والذي نفسُه بيده إنه لِيُخَفَّفُ على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا». (رواه أحمد في المسند برقم ١١٧١٧، وحسّنه ابن حجر في الفتح ١١/٤٤٨).

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلُقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ۝٣٢ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۝٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ ﴾

التفسير:

١٩-٢١- تخييرُ هذه الآيات عن صفات الإنسان، إذا لم يُهتد به الإيمان بالله. وهذه الصفات هي: شدة الحرص، وقلة الصبر، وكثرة اليأس والضجر إذا أصابه شر، وإذا أصابه خير من مال وسعة رزق منعه عن غيره، وهذا كله من فرط حب الإنسان لنفسه وذاته، وتعلقه بلذاته.

٢٢-٣٥- يُستثنى من الانصاف بهذه الصفات القبيحة للإنسان مَنْ آمَن بالله واستجاب لدعوته، وعمل للنجاة من العذاب الواقع حقاً يوم القيامة، وداوم على أداء الصلوات، وأخرج حقَّ الفقراء في ماله، وتصدَّق عليهم، وحَفِظَ نفسه من الوقوع في الموبقات، وحَفِظَ قَرَجَه من الزنى، وما أشبهه من التجاوزات، والتزم بما أباحه الله له من زوج ومُلكٍ يمين، وأدَّى الأمانة، وحفظ العهد مع الله ومع الخلق، ولم يشهد إلا بالحق والصواب، دون ميل لأحد أو عليه، وحافظ على الصلاة في مواعيدها، وأقامها كاملة الأركان، مستوفية الشروط. إِنَّ مَنْ جَمَعَ هذه الصفات الحسنة يستحق دخول الجنة والإقامة فيها مُكْرَمًا غاية التكريم. الفوائد والاستنباطات:

١- في الآيات (١٩-٢١) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الإنسان جُئِلَ على الجزع وشدة الحرص، فإنَّه إذا أصابه المكروه والعسر فهو كثيرُ الجزع والأسى، وإذا أصابه الخير واليسر فهو كثير المنع والإمساك.

٢- ورد ذكر الصلاة في الآيات مرتين، الأولى مع تبين ديمومتها، والثانية مع تبين المحافظة عليها، وبكلا الأمرين يحصل الكمال في إقامة الصلاة.

٣- المقصود بـ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: الإماء، وهنَّ النساء المملوكات، وتفيد الآية جواز وطء الأمة من سيدها، وللإماء كما للعبيد أحكام مذكورة في كتب الفقه.

٤- على الإنسان أن يسعى إلى تهذيب طباعه، وأن يحمي نفسه من الجزع والهلع والطمع؛ ليكون من المكرمين في جنات النعيم.

- ٥ - في استثناء أهل الإيمان والاستقامة من عموم الناس دليل على قلة الموصوف بهذه الصفات، إذ المستثنى في الغالب أقل من المستثنى منه.
- ٦ - تفصيلاً لأبرز صفات المتقين الذين يدخلون الجنة.

﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَيَّ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي بُوعِدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير:

٣٦-٣٩- تبدأ الآية بالاستفهام عن السبب الداعي لجماعة من المشركين أن يجتمعوا حول النبي ﷺ جماعات عن يمينه وعن شماله (ذكره عدد من المفسرين منهم البيضاوي، أنوار التنزيل ٥/ ٢٤٧)، هل يطمع هؤلاء أن يدخلوا الجنة وهم على حالهم غير مؤمنين؟ كلا إِنَّ ذلك لن يحصل أبداً، وليس لهم أن يتكبروا على المؤمنين، وعلى غيرهم من الخلق، وهم مخلوقون من المادة التي يعلمونها، وهي النطفة المستقدرة.

٤٠-٤١- هذا قَسَمٌ بِمَشَارِقِ الشَّمْسِ وَمَغَارِبِهَا، أو بِمَشَارِقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَمَغَارِبِهَا. والمقسم عليه: إِنَّ الله تعالى قادر على إهلاك المشركين، واستبدال قوم آخرين بهم أفضل منهم، يستجيبيون لأمر الله ولا يعصونه، وهو سبحانه ليس بعاجز عن ذلك.

٤٢-٤٤- فاترك - أيها النبي الكريم - هؤلاء المشركين في لَهْوِهِمْ وباطلهم حتى يأتيهم العذاب في يوم القيامة الذين يكذبون به، وسيخرجون في ذلك اليوم من قبورهم مسرعين إلى أرض المحشر، كما كانوا في الدنيا يسرعون إلى آلهتهم، ولكنهم في يوم القيامة الذي كانوا يُكذِّبُونَ به، ولا يؤمنون بوقوعه، ستكون أبصارهم ذليلة منكسرة، ويحيط بهم الهوان والذل.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآيات الكريمة تعجيب من المشركين الذين أحاطوا بالنبي ﷺ، وسمعوا كلامه، وما يدعوهم إلى الإيمان به، ورأوا المعجزات، ومع ذلك لم يهتدوا ولم يتبعوه، وفي المقابل من الناس قديماً وحديثاً مَنْ آمن بمجرد سماع آية أو آيات.

٢ - يطمع الكافرون مع ما هم عليه من كفرٍ وصدٍّ عن سبيل الله بدخول الجنة، إن حصل اليوم الآخر حسب زعمهم، وفي المقابل يخشى المؤمنون من عذاب الله أن يدركهم، مع ما هم عليه من إيمانٍ وبذل وعمل صالح.

٣ - في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كناية لطيفة عن المنى المستقدر، وفيه لفت النظر إلى عظيم قدرة الله على خَلْقِ الإنسان من الشيء الحقير القليل.

٤ - بتعدُّد المواقع على خط العرض الواحد مع تعدد خطوط الطول، وعلى خط الطول الواحد يتعدد خطوط العرض، وبتعدد كل ذلك تتعدد المشارق والمغارب تعدداً مذهلاً. وكذلك الحال مع بقية أجرام السماء، ونتيجةً لتكوُّرها ولدورانها حول محاورها، ولسبْحها حول أجرام أكبر، فإن مشارقها ومغاربها تتعدَّدُ تعدُّداً كبيراً. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٤٨٧-٥٠٢).

٥ - وَرَدَ في هذه الآية جَمْعُ المشارق والمغارب بحسب اختلاف مكان حصولها كل يوم وزمانه، وورد في آية أخرى تشبيهاً بحسب مشرق الصيف والشتاء ومغربها، وورد في آية ثالثة إفرادها بحسب عموم الجهة والوقت.

٦ - في تشبيه إسراع الكافرين حال الخروج من القبور يوم القيامة بإسراعهم إلى آلهتهم في الدنيا تَهَكُّمٌ بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العباد، وسارعوا إلى طاعته جهلاً وضلالاً.

٧ - وَصَفَتِ الآياتُ الكريمة أفعالَ المشركين بالعبث واللعب، فلا هدف لها، ولا انتظارَ أجرٍ لِمَنْ فعلها، وفي المقابل كان وصف أفعال المؤمنين بالمدائمة والمحافظة عليها؛ لما فيها من جدٍّ وابتغاء الأجر العظيم.

٨ - لا يملك المشركون - كما هو حال سائر الخلق - حين يُؤْمَرُونَ بالبعث من قبورهم إلا أن يستجيبوا للأمر، وقد كانوا في الدنيا يتكبرون عن أمر الله، ويُعْرِضُونَ عنه.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - بيان قصة نبي الله نوح عليه السلام، ومعاناته مع قومه.
- ٢ - بيان عظمة الله تعالى من خلال الإبداع في خلق السموات، والأرض، والإنسان.
- ٣ - تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مواجهة المشركين، وإيذائهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا وَإِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

التفسير:

- ١ - يخبر الله تعالى عن نفسه بضمير العظمة، وبالتوكيد المفيد للاهتمام بالخبر، أنه بعث نبيه نوحاً إلى قومه ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى، ويخوِّفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، وهو عذاب مؤلم موجه.
- ٢-٣ - قام نوح عليه السلام بأداء مهمته وأعلم قومه أنه مرسل من الله تعالى إليهم ودعاهم إلى توحيد الله وخوِّفهم من عاقبة الكفر به سبحانه، ووضَّح لهم محتوى الرسالة، وأمرهم بعبادة الله تعالى على الوجه الذي يرضيه، وباجتناب ما يغضبه، كما أمرهم بطاعته فيما يدعوهم إليه، فهو المبلغ عن ربه.
- ٤ - أعلم نوح قومه أنهم إن أطاعوه وآمنوا بالله فإن الله تعالى يغفر لهم ما مضى من ذنوب وسيئات قبل حصول الإيمان منهم، ويبارك لهم في أعمارهم، ويرفع عنهم العذاب الذي ينزل بالكافرين، ولكن إن حان موعد موت أحدهم فإنه سيلقى حتفه دون تأخير، لأنَّ هذا مُثَبَّتٌ في علم الله، ومُقَدَّرٌ على جميع الخلق، ومَنْ عَلِمَ هذا سارع إلى الإيمان والتصديق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - اختيار أن يكون النبيُّ مرسلًا إلى قومه لا إلى غيرهم؛ ليكون ذلك آنس لهم، وأقرب إلى الاستجابة.
- ٢ - تقديم الإنذار لمناسبة المقام وللإهتمام، وعُظف عليه التبشير بمغفرة الذنوب والبركة في العمر.
- ٣ - سَلَكَ نبيُّ الله نوح عليه السلام مع قومه أسلوبَ التقرب والتودُّد إليهم، فنسبهم إلى نفسه، وذكرهم بأنهم قومه، وأنه منهم.

- ٤ - يمكن تلخيص دعوة النبي الكريم في ثلاث جمل هي: اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون.
- ٥ - أكد نوح عليه السلام كلامه لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لِيُزِيلَ تَرَدُّدَهُمْ، وَقَدَّمَ فِي الذِّكْرِ ﴿لَكُمْ﴾ لِيَشْعُرَهُمْ بِالاهْتِمَامِ بِأَمْرِهِمْ.
- ٦ - تفيد ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بيان أن الذنوب التي تُكْفَرُ بحصول الإيمان هي ما سبق من الذنوب، وما لا تَعَلُّقُ له بحق آدمي.
- ٧ - من فوائد الإيمان بالله حصول البركة في العمر.
- ٨ - الأجل المقدر في علم الله تعالى ثابت لا يتأخر، ولا يتقدم.
- ٩ - حذف جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لدلالة ما قبله عليه، وهو: لسارعتنم إلى الإيمان، والاستجابة لما يأمركم به نبيكم.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي مَا ذُنِبْنَاهُمْ وَأَسْتَفْسَفُوا نِيَاحُهُمْ وَاصْرُؤُهُمْ وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئُكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِيَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾

التفسير:

موضوع هذه الآيات تفصيل حديث نبي الله نوح عليه السلام عن دعوته قومه إلى الإيمان والأساليب المتعددة المتنوعة التي سلكها:

- ٥ - ٦ - قال نوح مناجياً ربه شاكياً إليه موقف قومه من دعوته إياهم: يا رب، لقد دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة في أوقات الليل، وفي أوقات النهار، بحثاً عن الوقت الأنسب لاستجابتهم، ولكنهم لم يستجيبوا إلى نصحي ودعوتي إياهم إلى الإيمان، وكانوا كلما دعوتهم نفروا مني، وأعرضوا عني إعراضاً بالغا.

٧- وكانوا حينما أدعوهم إلى الإيمان والاستقامة، وأبَيَّن لهم أن الإيمان سبب لمغفرة ذنوبهم يبالغون في الإعراض عن سماع كلامي إلى درجة أن يضعوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا كلامي، وَيَغْطُوا رُؤُوسَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ بِثِيَابِهِمْ لئلا يَرَوْني، واستمروا على هذا الفعل مستكبرين عن طاعتي واتباعي.

٨-٩- واصلَ نوحُ ﷺ كلامه مبيناً أنه سلك أساليب متنوعة في دعوة قومه، فقد دعاهم جِهَاراً في العلن، وِسْرًا في الخفاء، وهذا يُدُلُّ على دعوته إياهم مجتمعين ومتفرقين، وفي ذلك موافقةً لحال المدعويين، فإن منهم من يناسبه الدعوة في العلن والاجتماع، ومنهم مَنْ يناسبه الدعوة في السِّرِّ والانفراد.

١٠-١٢- في هذه الآيات تفصيلُ بعضِ ما كان يقوله نوح ﷺ لقومه من باب الترغيب والحثُّ على الإيمان، فقد دعاهم إلى الاستغفار بعد الإيمان بالله العظيم الذي يستجيب فيغفر الذنوب، وهو كثير المغفرة لمن يقبل عليه بالتوبة، ووعدهم إن آمنوا واستغفروا أن يُنَزِّلَ اللهُ تعالى عليهم الغيث متتابعاً غزيراً، وأن يزيد في أموالهم وأولادهم، وأن يُوسِّعَ عليهم في المعيشة، فتصبح في أرضهم بساتين مثمرة، وتجري لهم الأنهار يَسْقُونَ منها، ويتمتعون بها.

١٣-١٤- في هاتين الآيتين انتقالٌ من الترغيب إلى التوبيخ، فقد سأل نوح ﷺ قومه عن السبب الذي يصددهم عن الإيمان بالله وتعظيمه ورجاء رحمته والخوف من عقابه، وهم يرون دلائل وجود الله وعظمته بأعينهم، ولا يملك أي مخلوق ادعاء أنه فاعل ذلك، وهو خَلَقَ الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة، وتَغَيَّرُ حاله ونموه بعد ولادته طفلاً فصبيّاً فشاباً. إن في هذا الخلق أعظمَ دليلٍ على الله، فما الذي صرفهم عن الإيمان به؟

١٥-١٦- في هاتين الآيتين دليلٌ آخر على عظمة الله، بَيَّنَّه نوحٌ لقومه وهو يدعوهم إلى الله؛ ليؤكِّدَ عظمة الخالق من خلال خَلْقِ السموات السبع الواسعة العظيمة المركبة بعضها فوق بعض، ومن خلال خَلْقِ القمر والشمس في السماء الدنيا من هذه السموات، وجعل القمر منيراً لأهل الأرض ينتفعون من نوره، ويعلمون من مراحلهِ الشهور والأيام، وجعل الشمس مصباحاً يهب للأرض الضياء والحرارة.

١٧-١٨- عاد نوح ﷺ إلى تذكير قومه بنعمة الخلق، مُدَكِّراً إياهم بأنَّ اللهُ خَلَقَ أباهم آدم من تراب الأرض، وبأن الإنسان يعود بعد الموت إلى الأرض، فيدفن فيها، ويتلاشى في جوفها، ثمَّ يُخرجه الله منها يوم القيامة، وهذه الثلاثة: الخَلْقُ من الأرض، والإعادة فيها، ثمَّ الإخراج منها، من أعظم الأدلة على قدرة الخالق سبحانه.

١٩-٢٠- لَقَّتْ نوحُ ﷺ نَظَرَ قومه إلى آية واضحة قريبة من آيات الله، وهي هذه الأرض التي نحيا عليها، وهي مَهْدَةٌ مسخَّرة للإنسان فيسير في أرجائها لقضاء مصالحه، وابتغاء مَعاشه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - على الداعي إلى الله تعالى أن يسلك جميع الوسائل، والسبل المتاحة له في دعوته، وأن يبذل كل جهد ممكن في سبيل هداية المدعوين، ومخاطبة كل إنسان بما يلائمه، وفي الظرف الذي يناسبه، فمنهم مَنْ يُرجى استجابته إذا دُعي جهاراً، ومنهم مَنْ يُرجى استجابته إذا خُوطب منفرداً.
- ٢ - يُلحظُ مبالغة قوم نوح في التهرُّب من سماعه ورؤيته، وإصرارهم على الكفر، واستكبارهم عن طاعته. كل هذا بسبب تأصل الكفر في نفوسهم، وتعلُّقهم بالدنيا الزائلة.
- ٣ - أكَّد نوح عليه السلام صفة المغفرة لله تعالى بأكثر من مؤكِّد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ حيث استخدم ﴿إِنَّ﴾ و﴿كَانَ﴾ الدالة على ثبوت هذه الصفة، وصيغة المبالغة فعَّال، هذا التأكيد لتعظيم رجائهم بربهم.
- ٤ - في الآيتين (١١-١٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ جزاء التوبة والإستغفار هو إنزال الله المطر الغزير المتتابع، وإكثار الأموال والأولاد، وجعل الحدائق التي ينعم بثمارها وجمالها، وجعل الأنهار التي تُسقى منها الزروع والمواشي.
- ٥ - جَمَعَ نوح عليه السلام في دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، وبين فوائد الإيمان الدنيوية والأخروية، وبين لفت النظر إلى الآيات العلوية في السماء والدنيا في الأرض، ويَدُلُّ ذلك على بذله عليه السلام غاية الجهد في سبيل هداية قومه.
- ٦ - من ثمرات الإيمان في الدنيا حصولُ رَعْدِ العيش، والسَّعة في الرزق، وكثرة المال والولد، كما بيَّنت هذه الآيات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ولا يمنع هذا من حصول البلاء والضيق على فترات، أو لأفراد من الأمة ابتلاء واختباراً.
- ٧ - ينظر: صورة أطوار خلق الجنين، كما في الملحق.
- ٨ - الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ السَّمَاءِ نَارًا كَالسَّمِيقِ تَنَزَّلُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، فليس بإمكان الناس رؤية ما بعد السماء الأولى.
- ٩ - وصفت الشمس بالسراج؛ لأنها ملتهبة ونورها ذاتي صادر عنها إلى الأرض، ووصف القمر بالنور؛ لأن نورها ليس ذاتي إنما هو انعكاس لأشعة الشمس.
- ١٠ - مصدر «أُنبِت» المتعدي: إنبات، ومصدر «نبت» اللازم: نبات، ودلَّ ذلك على وجود حَذْفٍ في الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ والتقدير: والله أنبتكم من الأرض إنباتاً فنبتم نباتاً، فحذف في كل جملة ما أثبت في الأخرى، وهو نوع من أنواع البلاغة. وفي هذه الآية تشبيه نمو الإنسان بنمو النبات.

١١- يُسْتَدَلُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْاَرْضِ بِسَاطًا﴾ عَلَى كُرْوِيَةِ الْاَرْضِ، لِأَنَّ الشَّكْلَ الْكُرْوِيَّ هُوَ الشَّكْلُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَمْتَدُّ وَيَنْبَسِطُ، وَيَتَّصِلُ أَوَّلُهُ بِآخِرِهِ بِلا انْقِطَاعٍ، وَهُوَ مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ الْآيَةُ بِالْبَسْطِ.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ اِنْتَهَمْ عَصَوِي وَاتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ اِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كُتُبَارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَنَ ءَالِهَتِكُمْ وَلَا تَدْرَنَ وِدَا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ اَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ اِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ اُغْرِقُوا فَاَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللّٰهِ اَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي اَلْاَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ اِنَّكَ اِنْ تَذَرْتَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا اِلَّا فٰجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اَعْرِضْ لِيْ وَلِوٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنٰتِ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِيْنَ اِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢١- تخبر هذه الآية على لسان نوح عليه السلام شكواه من قومه، وأنهم لم يطيعوه فيما أمرهم به من الإيابة والاستغفار، وأنهم فضّلوا على ذلك اتباع كبرائهم الذين لم ينتفعوا بما رزقهم الله من مال وولد، فأنفقوا أموالهم للصدّ عن سبيل الله، وأمروا أولادهم بالكفر، واستعانوا بهم على تأييد الأتباع، وكان ذلك سبباً لزيادة خسارتهم.

٢٢- إنّ الكُبراء من قوم نوح عمِلُوا بِخَفَاءٍ، وَدَبَّرُوا الْاِسْءَاءَ لِنَبِيهِمْ، وَاجْتَهَدُوا فِي ذَلِكَ كَثِيرًا، وَبَدَلُوا لَهُ وَقْتَهُمْ وَفِكْرَهُمْ، وَكَانَ مِنْ هَذَا الْمَكْرَ مَا اَخْبَرَتْ بِهِ الْآيَةُ التَّالِيَةُ:

٢٣- أَمَرَ الْكُبراءَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ اِتِّبَاعَهُمْ بِالْتَّمَسْكِ بِعِبَادَةِ الْاِلْهَةِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللّٰهِ، وَهِيَ اِلْهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْهَا: وِدَّ وَسُوَاعٌ وَيَغُوثٌ وَيَعُوقٌ وَنَسْرٌ، وَهِيَ اَصْنَامٌ لِرِجَالِ صٰلِحِيْنَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ. فَلَمَّا تَوَقَّفُوا اُغْرَى الشَّيْطَانُ قَوْمَهُمْ اَنْ يَنْصَبُوا لَهُمْ تَمَاثِيْلَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيُسَمُّوْهَا بِاَسْمَائِهِمْ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ اَعْوَانًا لَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ اِذَا رَأَوْا صُورَ الصّٰلِحِيْنَ.

٢٤- وَكَانَ هَذَا التَّحْرِيزُ مِنَ الْكُبراءَ لِاِتِّبَاعِهِمْ بِعِبَادَةِ الْاَصْنَامِ سَبَبًا لِاَضْلَالِ كَثِيْرٍ مِنْهُمْ، فَاِنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ اِتِّبَاعَ كُبراءِهِمْ فِيْمَا يُوجِّهُوْنَهُمْ اِلَيْهِ. وَقَدْ اسْتَدْعَى هَذَا الْفِعْلُ مِنَ الْكُبراءِ وَاتِّبَاعِهِمْ اَنْ يَصْدُرَ مِنْ نُوحٍ عليه السلام دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ جَمِيْعًا: اَنْ يَزِيْدَ اللّٰهُ فِي ضَلٰلَتِهِمْ، وَاَنْ يُعَدِّبَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَشُرْكَهُمْ بِهِ.

٢٥- وَكَانَ نَتِيْجَةُ كُفْرِ قَوْمِ نُوحٍ وَعِنَادَتِهِمْ وَاِصْرَارِهِمْ عَلَى الضَّلٰلِ اَنْ اُغْرِقُوا بِالطُّوفٰنِ، وَسَيُعَذَّبُوْنَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ بِعَذَابِ النَّارِ جِزَاءَ مَا عَمِلُوا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِيْنَ اُغْرِقَهُمُ اللّٰهُ، وَلَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي الْاٰخِرَةِ

حين يعذبهم الله نصير من آهتهم ولا غيرها يمنع عنهم العذاب، فلم تنفعهم هذه الآلهة، ولم تُغن عنهم شيئاً.

٢٦-٢٨- وكان نوح عليه السلام قد دعا على قومه بالهلاك والاستئصال بعد أن يشس من إيمانهم، وبعد أن أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فطلب إلى ربه أن يهلك هؤلاء القوم، وألا يبقي منهم أحداً يسكن في الديار، مُعللاً ذلك بأنهم إن بقوا على ما هم عليه فإنهم سيتنادون في الكفر والإضلال، وسيستمر الضلال في ذريتهم وأبنائهم من بعدهم، خاتماً دعاءه بطلب المغفرة لنفسه ولوالديه، ولكل من دخل داره مؤمناً ولجميع المؤمنين والمؤمنات، ثم دعا مرة أخرى على أهل الكفر والظلم بالهلاك والخسران التام.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- يجتمع أهل الباطل على محاربة الحق، ويبدلون في ذلك جهداً كبيراً.
- ٢- حُرمت الصور والتماثيل من باب سدِّ الذرائع. وهو باب واسع من أبواب المحافظة على الدين، وذلك لئلا تُعبد من دون الله بعد أجيال أو قرون.
- ٣- ذمُّ المبالغة في تعظيم الأشخاص وتبجيلهم.
- ٤- بَلَغَ مِنْ حِرْصِ قَوْمِ نُوْحٍ عَلَى التَّمَسُّكِ بِآهَتِهِمْ أَنْ أَضَافَوْهَا إِلَى أَنْفُسِهِمْ (آهتكم).
- ٥- يسلك الشيطان حيلاً ظاهرها الخير ومآلها الشرّ، فليكن المرء في غاية الحذر من حيل الشيطان ومكايده.
- ٦- قال ابن عاشور: «ذُكِرَتْ (لا) مع ثلاثة من أسماء الأصنام، وحُدِّقَتْ من الاثنين الآخرين، لأنّه لا يزداد في التوكيد على ثلاث مرات». (التحرير والتنوير: ٢٩/٢١٠).
- ٧- ينظر: خريطة مواقع الأصنام، كما في الملحق.
- ٨- مع طول مدة دعوة نوح عليه السلام، ومع كثرة ما لقي في دعوته من شدائد وإيذاء، لم يَدْعُ على قومه بالهلاك إلا بعد ان أعلمه الله بأنه لن يؤمن أحد من قومه، فلم يبق معه بعد هذا الإعلام مجال للدعوة، وكان لأبدي في هذا الحال من التغيير والاستبدال.
- ٩- يلحظ أثر البيئة المحيطة بالمرء في سلوكه وعمله، فَمَنْ يَعْشُ فِي بَيْتَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالهُوَى يَتَأَثَّرُ بِهَا ولو بشكل يسير.

١٠- دعاء نوح عليه السلام لنفسه بالمغفرة من باب التمهيد؛ لإتمام الدعاء لِمْنْ سيذكرهم بعد ذلك، ولتعليم من بعده من الداعين أن يتدرّجوا في الدعاء بهذه الطريقة بدءاً بالنفس فالوالدين فالمعارف، فعموم أهل الإيمان.

١١- بيان كرامة الصالحين على الله تعالى، وعظيم منزلتهم عنده، فقد أهلك قوم نوح، وجعل ذلك آية كبرى، وهي الطوفان انتقاماً لنيبه وأتباعه، وإن كانوا قلة في العدد، فهم في ميزان الله ذوو منزلة عظيمة ومكانة كبرى.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - إثبات وجود الجن وأتهم مُكَلَّفون بالإيمان والطاعة كالإنس.
- ٢ - بيان تَفَرُّدِ عِلْمِ الله تعالى بالغيب، وأن الجنَّ لا يعلمون شيئاً من الغيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِي إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْمَنَّا بِهِ
وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ قَعَلَىٰ جَدْرَيْنَا مَا أَخَذَ صَحِيحَةً وَلَا وِلْدَانًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ
شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ مَن
الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَتَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

التفسير:

- ١ - بَلَّغَ - أيها النبي الكريم - كُلِّ مَنْ يَصِلُهُ بِلَاغِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَكَ أَنَّ جَمَاعَةَ مِنَ الْجِنِّ - عَدَدُهُمْ ما بين الثلاثة والعشرة - اسْتَمَعُوا إِلَى الْقُرْآنِ، فَهَالَهُمْ وَأَثَّرَ فِيهِمْ، فَقَالُوا لِقَوْمِهِمْ حِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ: لَقَدْ سَمِعْنَا كَلَامًا فِي غَايَةِ الْعَجَبِ؛ لِفَصَاحَتِهِ، وَعَظِيمِ بِلَاغَتِهِ، وَهُوَ كَلَامٌ يَخَالِفُ الْمَأْلُوفَ مِمَّا نَسْمَعُهُ عَادَةً.
- ٢ - يَتَضَمَّنُ هَذَا الْكَلَامُ الْإِرْشَادَ إِلَى الْحَقِّ وَالِدَعْوَةَ إِلَيْهِ، وَالتَّعْرِيفَ بِهِ؛ وَلِذَا سَارَعْنَا إِلَى الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ الْخَالِقِ، وَسَنَسْتَمُرُّ عَلَى هَذَا الْإِيمَانِ دَائِمًا، وَلِنَعُودَ إِلَى الشَّرْكِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ مِنْ قَبْلِ.
- ٣ - تَحْبِرُ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَيَاتُ بَعْدَهَا عَنْ مَضْمُونِ كَلَامِ الْجِنِّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ، وَبَلَّغُوهُ قَوْمَهُمْ، إِذْ قَالُوا لَهُمْ: لَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ خِلَالِ مَا اسْتَمَعْنَا إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ تَنَزَّرَهُ فِي عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ عَنِ الزَّوْجَةِ وَعَنِ الْوَلَدِ، فَهُوَ مُسْتَعْفِنٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعِظَمَةِ الْمَطْلُوقَةِ.
- ٤-٥ - وَأَنَّ مَا كَانَ يَقُولُهُ لَنَا الْجَاهِلُ السَّفِيهُ إِبْلِيسَ، وَرُؤْسَاءُ الضَّلَالِ مِنَ الْجِنِّ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، خَطَأً وَكُفْرًا، وَبَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَلَمْ نَكُنْ نَتَوَقَّعُ أَنْ يَتَجَرَّأَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَيَخْتَلِقَ كَلَامًا بَاطِلًا عَلَيْهِ سَبَّحَانَهُ.

٦ - وَتَبَيَّنَ لَنَا كَذَلِكَ خَطَا مَا يَفْعَلُهُ أَفْرَادٌ مِنَ الْإِنْسِ مِنَ اللَّجْوَةِ إِلَى عِظْمَاءِ الْجِنِّ؛ طَلِبًا لِلْحِمَايَةِ مِنْ صِفَارِهِمْ. وَكَانَ هَذَا اللَّجْوَةُ يَعْجِبُ كِبْرَاءَ الْجِنِّ؛ لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِسَبَبِهِ مِنْ تَعْظِيمٍ، فَازْدَادُوا كِبْرًا وَعَتْدَادًا بِحَالِهِمْ، وَإِعْجَابًا بِشَأْنِهِمْ.

٧ - وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْإِنْسِ الْمُسْتَجِيرُونَ بِالْجِنِّ عَلَى بَعْضِهِمْ غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْبَعْثِ، وَكَذَلِكَ كَانَ عِتَاةَ الْجِنِّ، فَتَشَابَهُوا فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الْجِنُّ مَخْلُوقَاتٌ غَيْبِيَّةٌ، يَمْلِكُونَ إِرَادَةً وَفَهْمًا، وَهُمْ مُكَلَّفُونَ كَالْإِنْسِ، وَمَخَاطَبُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ.

٢ - وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ بَيَانٌ سَبَبِ اسْتِمَاعِ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَيْرِ السَّمَاءِ، انْطَلَقُوا فِي الْأَرْضِ يَبْحَثُونَ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، وَأَنَّ النَّفْرَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تَهَامَةٍ سَمِعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَاسْتَمَعُوا لَتَلَاوَتِهِ فَآمَنُوا، وَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَخْبِرُونَهُمْ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَتَدُلُّ رَوَايَاتٌ عَلَى حُصُولِ لِقَاءٍ أَوْ لِقَاءَاتٍ بَعْدَ ذَلِكَ، اسْتَمَعُوا فِيهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَتَحَدَّثُوا مَعَهُ. (ينظر الرواية في: صحيح البخاري، برقم ٧٧٣، وصحيح مسلم، برقم ١٤٩).

٣ - فِي سُرْعَةِ اسْتِجَابَةِ هَذَا النَّفْرِ مِنَ الْجِنِّ لِلْإِيمَانِ، وَمِبَادَرَتِهِمْ إِلَيْهِ مَعَ قِلَّةِ مَا سَمِعُوهُ مِنْ آيَاتٍ، عَبْرَةٌ عَظِيمَةٌ وَدَعْوَةٌ إِلَى سُرْعَةِ الْاسْتِجَابَةِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ سَمِعَ الْآيَاتِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا.

٤ - الْجَدُّ فِي اللَّفْظِ: الْعَظْمَةُ وَالْجَلَالُ، وَوَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْأَثَرِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا حَفِظَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدًّا فِي عِيُونِنَا»، أَي: عَظْمًا، وَمِنْهُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». (الحديث رواه البخاري برقم ٨٤٤، ومسلم برقم ٢٠٦، ويُنظر: فتح الباري لابن حجر ١/٩٧).

٥ - تَأَدَّبَ الْجِنُّ فِي حَدِيثِهِمْ عَنِ اللَّهِ، فَقَدْ نَسَبُوا إِرَادَةَ الْخَيْرِ وَالرُّشْدَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَنْسَبُوا إِلَيْهِ إِرَادَةَ الشَّرِّ، إِذْ

قَالُوا: ﴿أَشْرُّ أُرِيدُ يَمَنٌ فِي الْأَرْضِ أَمَّا أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلِكًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ
فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا
﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّعِجَزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن
نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمَّنَّا بِهِ ؕ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا
مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ
حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوَالِدُ يَسْتَقِمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْفَيْنَهُمْ مَاءً عَدْوًا ﴿١٦﴾ لِنُقَبِّضَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ
يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

- ٨-٩- وأنا حين اقتربنا من السماء لاستراق السمع، كما كنا نفعل من قبل، متعنا من ذلك حراس من الملائكة الشداد، وأرسلوا شهاباً حارقة على من يحاول الوصول إلى السماء، ولا ينجو من هذه الشهب أحد بعد بعثة النبي ﷺ، وكُنَّا قبل ذلك نصعد إلى السماء، ويستمع من ينجو منا من الشهب إلى شيء من أخبار الأرض التي لم تحصل بعد، ونخبر به أوليائنا من الإنس، مع ما نضيفه إليه من أكاذيب وافتراءات.
- ١٠- ولم تكن قبل استماع القرآن نعلم السبب الذي متعنا من محاولة السمع، وذهبت بنا الظنون إلى توقع حصول شرٍّ بأهل الأرض، أو توقع وجود خيرٍ أراده الله بهم، ولذا هيأ له أسباباً منها هذا الأمر.
- ١١- وكُنَّا قبل الهداية بالقرآن متفرقين منقسمين إلى فئات عديدة، فمنا أهل الصلاح والخير، ومنا فئة أقل منهم درجة أو درجات، ومنا أهل الشرور والآثام، وأهل الكفر والطغيان.
- ١٢- وكنا نعلم أننا مهما بلغت قوتنا فإن الله تعالى قادر علينا، ولا يمكننا الفرار من أمره، ولا النجاة من عذابه، وفي هذا القول دليلٌ على أن قائلِي هذه العبارات كانوا من صالحِي الجنِّ قبل إيمانهم.
- ١٣- وإنا بعد أن سمعنا آيات القرآن الداعية إلى الخير والهدى، انتقلنا إلى الإيمان الحق بالله وبرسوله وبكتابه، ونحن نعلم أن الله تعالى لا يظلم أحداً ممن يؤمن به، ولا يكلف عباده فوق قدرتهم وطاقتهم. وفي هذا دلالة على يسر التكليف، وحصول الجزاء العدل على الأعمال.
- ١٤-١٥- تفيد هذه الآية الكريمة أن الجنَّ بعد أن بلغت الدعوة، بوساطة النفر الذين استمعوا القرآن، انقسموا إلى صنفين: مُسلمين استجابوا لأمر الله، وآمنوا به بعد أن بحثوا عن الحق الذي يُنجيهم

من العذاب، ويستحقون باتباعه الثواب، ومائلين عن الحق، مُصِرِّين على الكفر. وهؤلاء يستحقون العذاب على ذلك، وسيكونون وقوداً للنار يوم القيامة جزاء كُفْرِهِمْ وضلالهم.

وإلى هنا انتهى كلام الجن الذي حَكَّتْهُ لنا الآيات الكريمة، وانتقل الكلام إلى الله تعالى:

١٦-١٧- يخبر الله تعالى الخَلْقَ أَنَّ استجابة المكلفين من الإنس والجن، واستقامتهم على منهجه مفتاح لخير كثير، إذ يفتح الله سبحانه عليهم من بركات السماء والأرض جزاءً لإيمانهم، واختباراً لهم؛ ليظهر صادق الإيمان من مُدَّعِيهِ، أما مَنْ أَعْرَضَ عن الإيمان بالله وطاعته فإنه يستحق عذاباً مؤلماً.

١٨- يخبر الله تعالى الخلق أَنَّ المساجد بُنِيَتْ لعبادته وتعظيمه وذكْرِ اسمه سبحانه، وينبغي أن تبقى كذلك، وألا ينحرف الناس بها عن هذا الهدف، وألا يُعْظَمَ فيها أحد سوى الله، ولا يُعْبَدَ فيها غيره، ولا يُمدَّحَ فيها أهل الباطل والفجور، والحكام والأمراء الظلمة.

١٩- يخبر الله تعالى الخلق أَنَّ الجنَّ الذين استمعوا إلى تلاوة النبي ﷺ آيات القرآن كادوا من شدة حرصهم على الاستماع، ومن شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ في الدنوِّ من النبي ﷺ وازدحامهم عليه أن يكونوا جماعات متراكبة بعضها فوق بعض.

الفوائد والاستنباطات:

١- يدل مَنْعُ الجنِ من استراق السمع أَنَّهُمْ كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يسمعون بعض ما يُقضى في السماء من أمور الأرض، وكانوا يزيدون عليه أكاذيبَ وأقاويلَ، ويُخبرون بها أولياءهم من الإنس. (يُنظر الحديث في صحيح البخاري، برقم ٤٧٠١ و٤٨٠٠، وفي سنن الترمذي برقم ٣٣٢٣). فيظن هؤلاء أَنَّ الجنَّ يعلمون الغيب، فيَرْهَبُونَهُمْ، وَيُعْظَمُونَهُمْ.

٢- القسط هو النصيب بالعدل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الزَّكَاةَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]، وإن أخذ قِسْطَ غيره كان بمعنى الجور، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، والإقسط أن يعطي قِسْطَ غيره، وذلك إنصاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِسطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقِسطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. (المفردات في غريب القرآن، مادة قسط ٤٠٣).

٣- كان في محاولة الجن استراق السمع خطورةً قَدْ فِ الشُّهْبِ عليهم قبل الإسلام، وزاد الخطر عليهم بعد الإسلام إلى درجة الاستحالة، إلا أَنَّهُمْ يفعلون ذلك، لما ينتج عنه من تعظيم لهم ورفْعٍ لمنزلتهم عند أوليائهم من الإنس، ولظنهم احتمال النجاة، ورغبتهم في فعل الممنوع، وقد يفعلون ذلك في لحظة غفلةٍ ونسيانٍ، كما يحصل مع بني آدم.

- ٤ - في قوله تعالى: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿٦٦﴾ لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ ﴿﴾ إفادة أن من ثمرات الاستقامة الرخاء، وأن من أسباب الرخاء توافر الماء وكثرته، وأن من الرخاء ما يكون ابتلاء واختباراً.
- ٥ - نسبة المساجد إلى الله تقتضي الاعتناء بها، وتطهيرها من الأدران المادية والمعنوية، وإخلاص العبادة والدعاء فيها لله وحده، والتزام الآداب التي تليق بها فيها.
- ٦ - جاء وصفُ النبي ﷺ بالعبودية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدَ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿﴾ رَفَعًا لِمَقَامِهِ، وَتَشْرِيفًا لَهُ، فَإِنَّ مَقَامَ الْعِبُودِيَةِ مَقَامٌ شَرِيفٌ عَظِيمٌ الشَّانِ.
- ٧ - يُسْتَحَبُّ فِي مَجَالِسِ الْخَيْرِ التَّقَارُبُ، وَالدُّنُوُّ مِنَ الْمُتَحَدِّثِ؛ لِيَحْضَلَ السَّمْعُ إِلَى كَلَامِهِ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ، وَلِلْحَصُولِ عَلَى الرَّحْمَةِ الَّتِي تَنْزِلُ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فَرْجَةَ فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّلَاثُ فَادْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفْرِ الثَّلَاثَةِ، أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ».
- (رواه البخاري برقم ٦٦، ومسلم برقم ٥٨١٠).

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعُ نَاصِرًا وَقُلَّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير:

- ٢٠- قل - أيها الرسول الكريم - للخلق أجمعين، ومنهم المشركون الذين لم يستجيبوا لدعوتك: إني لا أعبد إلا ربي الذي خلقتني وأرسلني، ولا يمكن أن أشرك به غيره، وأدعوكم إلى توحيد الله وعبادته.
- ٢١- ومع أي رسول الله إلى الخلق فإني واحد من البشر، لا قدرة لي على إلحاق الضرر بمن عاداني، ولا على إلزامكم بالإيمان. إنما عليّ البلاغ، وكل إنسان مكلف من الجن والإنس مسؤول عن اختياره.
- ٢٢-٢٣- ولا يمنع عني عذاب الله تعالى، ولا يحميني من نزوله بي إلا قيامي بتبليغ ما أمرت به من الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله، وتنفيذ ما أرسلت به من الدين الحق، وإذا كان هذا هو حال الرسول الكريم ﷺ فكيف يكون حال غيره؟ وقد أعدَّ الله لمن لم يؤمن به وبرسوله الداعي إلى الحق المبين، ولمن عصى أمره وأمر رسوله عذاباً مؤلماً في النار، وهو عذاب دائم لا نهاية له.
- ٢٤- سيبقى المشركون في كفرهم وعنادهم حتى يعاينوا العذاب الذي وُعدوا به، فيحصل لهم وقتها العلم اليقين بأنهم كانوا في ضلال، وأنه لا قدرة لأحد من الخلق أن ينصّرهم ويحميهم من العذاب، إذ تتلاشى قوتهم مهما عظمت، أمام قوة الله وعظمت، ويتضاءل عددهم مهما كثروا أمام أعداد أهل الإيمان المؤيدين بالملائكة الكرام.
- ٢٥-٢٧- قل - أيها الرسول الكريم - إني لا أعلم الغيب، فلا أعلم متى سيحصل العذاب الذي سينزل بكم، ولكني أعلم أنه كائن كما أخبر الله سبحانه، وهو من علم الغيب الذي اختصَّ الله تعالى به نفسه، ولم يُطلع عليه أحداً من خلقه، إلا من شاء إطلاعه على بعض الغيب من رسله الكرام؛ ليكون معجزة لهم، وتأكيداً لصدقهم. ومن أطلعه الله تعالى من الرسل على شيء من الغيب فقد هيأ له من الملائكة حفظة يحمونه من أذى الجن والإنس؛ ليقوم بتبليغ الرسالة على أتم وجه وأكمل.

٢٨- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينِيًّا أَنَّ الرُّسُلَ السَّابِقِينَ قَامُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، وَعِلْمُ اللَّهِ شَامِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ عِلْمٌ مَا حَصَلَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ، وَعِلْمٌ كُلِّ دَقِيقٍ أَوْ عَظِيمٍ، ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، قَدِيمٍ أَوْ حَدِيثٍ، دَائِمٍ أَوْ مُنْقَطِعٍ، فَعِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِعَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَأْكِيدُ أَنَّ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَنَفِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَفْيٌ لَهُ عَنِ غَيْرِهِ.

٢- يَنْبَغِي لِكُلِّ امْرَأٍ الْقِيَامُ بِمَا يُكَلَّفُ بِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، وَأَنْتُمْ حَالٌ، وَإِذَا كَانَ الْقِيَامُ بِالْوَاجِبِ يَجِبُ مِنَ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ التَّقْصِيرَ فِيهِ يَسْتَلْزِمُهَا.

٣- يُلْحَظُ وَرُودَ الْجَمْعِ بَعْدَ الْإِفْرَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْصِرْ أَلْفًا وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ لَهُ، نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فالإفراد في ﴿يَعْصِرْ﴾ و﴿لَهُ﴾ مراعاة لللفظ ﴿مَنْ﴾ وهو مفرد، والجمع في ﴿خَالِدِينَ﴾ مراعاة لمعنى ﴿مَنْ﴾ وهو جمع.

٤- يُطْلَعُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ ارْتَضَى أَنْ يُطْلِعَهُ مِنَ الرُّسُلِ عَلَى غَيْبٍ خَاصٍّ، وَيَتِمُّ ذَلِكَ بَعْدَ حِمَايَةِ كَامِلَةٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ كَمَا يَنْقُلُوهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَيُفْتِنُونَا بِهِ النَّاسَ. (أيسر التفاسير ٤/٥٦٩).

٥- الْمَقْصُودُ بِالْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ، أَوْ ظُهُورُ الْعِلْمِ لِلْمَخْلُوقِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا قَبْلَ حُصُولِهَا. (تفسير ابن كثير ٨/٢٤٨).

النزول: مكة، وهي من أوائل ما نزل.

المقاصد:

- ١ - فضل قيام الليل، وأثره في القرب إلى الله.
- ٢ - تقرير البعث بذكر بعض أهوال يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْمَلُ ① فَوَاللَّيْلِ إِذَا قَلِيلًا ② نَصَفَهُ ③ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَيْلَ الْقُرْمَانَ تَرِيًّا ⑤﴾
 ⑥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑦ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑧ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑨
 ⑩ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑪ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑫﴾

التفسير:

٤-٤ - يخاطب الله العلي العظيم رسوله الحبيب محمد ﷺ: يا أيها المتلطف بشيابه، دَعِ التلُفُّفَ، وقم إلى الصلاة متقرباً بها إلى الله، ومُعِدِّاً نَفْسَكَ لِتَحْمُلِ أَعْيَابَ الدَّعْوَةِ وَمَتَطَلِّبَاتِهَا، واقسِم وقت الليل بين القيام في الطاعة والعبادة، وبين الراحة والنوم، بجعل معظم الليل أو نصفه أو ثلثه للقيام والعبادة، وباقية للراحة والنوم، واقرأ القرآن بترؤو وتمهل، مع تبين حروفه وألفاظه؛ ليكون أعون لك على حضور القلب والفهم والتأمل في معنى ما تقرأ.

٥ - في هذه الآية إعلام النبي ﷺ بأن ما سينزل عليه من الآيات كلام عظيم القدر جليل المقام، قوي التأثير، يحوي المعاني العظيمة، والتوجيهات السامية. وفي هذا الإعلام تهيئة له أن يستعد لما سيلقيه من أحداثٍ جسامٍ تتضمَّن التَّكْذِيبَ وَالْإِيذَاءَ؛ بسبب إنزال هذا القول الثقيل عليه.

٦ - إن أوقات الليل أنسب للطاعة والعبادة، وأكثر مناسبة لحصول الخشوع، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة وثواباً؛ لما في أوقات الليل من الهدوء والبعد عن الصَّوَارِفِ، وإقبال القلب على الله، مع ما فيها من صعوبة وثقل على النفس بهجر الفراش، وترك النوم.

٧ - أما أوقات النهار فإنها تمتلئ بالأعمال، وإنجاز المهام، وقضاء المصالح الدنيوية، فيصعب أن يحصل فيها فراغ القلب مما يشغله.

٨- وحافظ على ذِكْرِ الله تعالى في أوقاتك كلها، في الليل والنهار، ولا تَصْرِفَنَّ أعمال الحياة في النهار عن ذِكْرِ الله، وأقْبِلْ في ذِكْرِكَ لله عليه بجميع حَوَاسِّكَ، واقطع نفسك في وقت الذِّكْرِ عن الصوارف، وقرِّعْ قلبك للخشوع، والإقبال على الله.

٩- لله سبحانه مُلْكُ ما بين المشرق والمغرب، ويشمل ذلك الخلق كله، وهو وحده المعبود بحق، فاعتمِدْ عليه في جميع أمورك، وتَوَكَّلْ عليه وحده، فهو صاحبُ القدرة المطلقة.

الفوائد والاستنباطات:

١- وَصَفُ النبي ﷺ بالمزْمَلِ في هذا النداء من باب التلطفِ في ندائه، والتهوين عليه، وتبيين الحالة التي كان عليها بعد أن لقيه جبريل عليه السلام أول مرة في حراء، فرَجَعَ إلى بيته يرجف فؤاده، وهو يقول: «زَمَّلُونِي زَمَّلُونِي» (رواه البخاري، برقم ٣). وفي هذا دلالة على أَنَّ الآيات الأولى من سورة المزمل من أوائل ما نزل من القرآن الكريم.

٢- أَمَرَ اللهُ سبحانه نبيّه ﷺ بقيام قَدْرٍ من الليل، ولم يأمر بقيام الليل كله؛ لما في ذلك من المشقة والصعوبة، ويتفاوت هذا القَدْر بين ثلثي الليل وثلثه.

٣- الأَکْمَلُ في قراءة القرآن أن تكون مرتلةً مجوِّدةً متقنة، بتَأَنٍّ وتمعُّلٍ، وحضور قلب، وتفكُّرٍ في المعاني، واستشعار عظمة قائل هذا الكلام؛ ليحصل الانتفاع منها، ويعظم الأجر بها.

٤- وَصِفَ القرآن الكريم بأنه قول ثقيل؛ لأنَّه كلام الله الخالق العظيم، ولما حواه من المعاني الغزيرة، والتشريعات السليمة، ومحاسن الأخلاق، وقصص السابقين، وكل ذلك بنظمٍ مُعْجِزٍ.

٥- فضيلة المحافظة على ذِكْرِ الله في أوقات المؤمن كلها، فلا يَنْشَغِلُ عنه في أثناء القيام بأعمال الدنيا ومعاشها؛ ليبقى القلب موصولاً بالله في جميع الأحوال والأوقات.

٦- الأمور العظيمة بحاجة إلى تهيئة وإعداد، ومن أعظم الأمور حَمْلُ الرسالة، ونَشْرُ الدعوة إلى الحق والخير، وقد استجاب الرسول ﷺ والسابقون من أصحابه لأمر الله بالتهيئة لما هو قادم بقيام الليل، وترتيل الآيات، وإدامة الذِّكْرِ. قالت عائشة رضي الله عنها: «إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلًا حتى انتفخت أقدامهم...». (رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٢٦٩، وابن حبان برقم ٢٥٥١، وقال محققهما: إسناده صحيح). فصبروا بعد ذلك، وَتَحَمَّلُوا أعظمَ المشاقِّ، وَرَكِبُوا الأهوالَ، واستحَقُّوا لذلك نَصْرَ الله.

٧- تَصَمَّنَتْ هذه الآياتُ ذِكْرَ ثلاثة تعليقات للأمر بقيام الليل، أولها: أَنَّ القيام في الليل أجمع للخاطر، وأكثر مواطأة بين القلب واللسان، وثانيها: أَنَّهُ أثقل على النفس من الطاعة في النهار، وبالتالي فهو أكثر

تقويماً للنفس، وتهدياً لها، وثالثها: أن في النهار فسحةً من الوقت كافية للنوم، وقضاء المصالح، فليكن تفرغ الليل للقيام.

٨ - أمر الله تعالى بخمسة أمور وهي: قيام الليل، وترتيل القرآن، وذكر الله، والانقطاع إليه، والتوكل عليه.

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ١١ ﴾
 إِنَّ لَدَيْنَا أُنكَاةً وَوَجِيحًا ١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيَابٍ مَّهِيلًا ١٤ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ١٦ فَكَيْفَ تَنفِقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ١٧ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۗ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ١٨ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ١٩ ﴾

التفسير:

١٠ - واصبر على ما يصيبك من إيذاء وجهالة من قومك، ولا تقابل إساءاتهم بمثلهما، بل أعرض عنهم، واترك الرد على إيذائهم بمثله، واحتمل ذلك في سبيل الله، وفي سبيل تبليغ دعوته.

١١ - وأعرض عن الذين كذبوك وآذوك، ولا ترد عليهم بمثل ما فعلوا، واتركهم لي أتولى جزاءهم بما يستحقون. ومعظم هؤلاء المكذبين من المترفين والمنعمين في حياتهم، ولكن مدة هذا التنعم قليلة ستنتهي قريباً بموتهم، أو بظهور الإسلام.

١٢-١٣ - أعد الله تعالى لهؤلاء المكذبين بالحق قيوداً عظيمة ثقيلة يوثقون بها، وناراً هائلة يصلونها، وطعاماً في جهنم يعلق في خلوقهم، ويغصون به، وأصنافاً أخرى من العذاب المؤلم المهين؛ جزاء تكذيبهم بالحق، والإعراض عنه.

١٤ - وسيكون هذا العذاب في اليوم الذي تُزلزل فيه الأرض، وتُدك في الجبال، وتتحوّل إلى رمال هشة ضعيفة.

١٥ - إن إرسال رسولنا محمد ﷺ إليكم؛ ليُنذركم ويدعوكم إلى الحق، وليكون شاهداً لمن آمن وعلى من كفر، ليس بدعاً من الأمر، فقد سبقه إرسال رُسُلٍ آخرين إلى أقوامهم، ومنهم موسى عليه السلام الذي أرسل إلى فرعون وقومه.

١٦ - ولم يؤمن فرعون بموسى وبما أرسل الله، فاستحق الهلاك على ذلك، وكان هلاكه عبرةً مدويةً، فقد أغرقه الله وجنوده في البحر، وفي ذلك عبرة لمن يخاطب بهذه الآيات.

١٧- فاحذروا - أيها الناس - عقاب الله لكم إن لم تؤمنوا، وسيكون هذا العقاب في يوم القيامة الذي يشيب مِنْ هَوْلِهِ الصغار؛ لما يكون فيه من فظائع الأمور، ورهيب الأحداث.

١٨- من الأحداث الرهيبة في ذلك اليوم: تَشَقُّقُ السماء، وَتَمَرُّقُهَا وتناثر ما فيها من كواكب ونجوم، وهو مشهد مخيف مُجَلِّجِل. وَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ واقِعٌ يَقِينًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْهُ، وَوَعَدَ بِحُصُولِهِ، وَوَعَدُ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ.

١٩- إِنَّ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ ذِكْرِ الْعَذَابِ وَالتَّوَعُّدِ بِهِ عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ، وَدَعْوَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَرَجْرٌ وَرَدْعٌ لِلخَلْقِ عَنِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، فَلْيَغْتَنِمِ مَنْ شَاءَ هَذَا التَّذْكَيرَ، وَيَنْتَفِعْ مِنْ هَذِهِ الْعِبْرَةِ، فَيَسْلُكَ طَرِيقَ الْإِيمَانِ وَدَرْبَ الْهُدَى وَسَبِيلَ الْحَقِّ الْمُبِينِ.

الفوائد والاستنباطات:

١- فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِتَرْكِ أَمْرِ الْمُشْرِكِينَ وَجَزَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَعِيدِ عَظِيمِ لَهُمْ، وَتَرْهيبِ كَبِيرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَتَعَطَّى وَيَعْبِي، وَتَعْظِيمِ لِمَقَامِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ، وَإِجْلَالِ لِقَدْرِهِ.

٢- قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: «لَمْ تَرِدِ النَّعْمَةُ بِفَتْحِ النُّونِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا هُنَا، وَفِي سُورَةِ الدِّخَانِ: (٢٧)، وَهِيَ فِي الْمَوْضِعِينَ فِي سِيَاقِ الدَّمِ لِمَنْ اتَّصَفَ بِهَا، حَيْثُ لَمْ يَنْتَفِعُوا مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْمَلذَّاتِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْهُدَى». (يُنظَرُ: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ ٢٩/٢٧٠).

٣- فِي ذِكْرِ بَعْضِ صُورِ جَزَاءِ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ، رَادِعٌ كَبِيرٌ عَنِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعَصِيانِ، فَإِنْ شَكَلَا وَاحِدًا مِنْ أَشْكَالِ هَذَا الْعَذَابِ كَافٍ لِتَنْفِيصِ الْحَيَاةِ، وَتَحْوِيلِهَا إِلَى عَذَابٍ دَائِمٍ.

٤- فِي ذِكْرِ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ بِعَذَابٍ وَبِئِل - مَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جَبْرُوتٍ وَاسْتِعْلَاءٍ وَظَلْمٍ، لَمْ يَصِلْ طَغَاةَ مَكَّةَ إِلَى بَعْضِهِ - تَخْوِيفَ لَهُمْ، وَإِعْلَامَ بِأَتَمِّهِمْ - إِنْ بَقُوا عَلَى حَالِهِمْ - سَيَلْقَوْنَ مُصِيرًا كَمُصِيرِهِ أَوْ أَشَدَّ.

٥- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ يَذْكَرُ أَحْدَاثَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: «ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوَالِدَانَ شِيبًا». (رواه مسلم، برقم ٢٩٤٠).

٦- مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ إِعْلَامُهُمْ بِأَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ؛ لِيَسْتَعِدُّوا لَهَا، وَيَتَرَقَّبُوهَا، وَلَا يَفَاجِئُوهَا بِهَا، وَيُعِدُّوهَا لِهَذَا الْيَوْمِ عُدَّتَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَنْ رَحِمْتَهُ سَبَحَانَهُ بِهِمْ عَدَمُ الْإِزْمَامِ بِالْإِيمَانِ أَوْ بِالْكَفْرِ، وَتَرَكَ الْمَشِيئَةَ وَالِاخْتِيَارَ لَهُمْ؛ لِيَكُونَ فِعْلُ الْمَرْءِ حَاصِلًا مِنْ ذَاتِهِ وَتَابِعًا لِاخْتِيَارِهِ، وَيَكُونُ الْمَرْءُ بِذَلِكَ مُسْتَحِقًّا لِلْجَزَاءِ عَلَى مَا اخْتَارَ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ، دُونَ الْإِزْمَامِ وَلَا إِجْبَارٍ.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحِصَّهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ وَمَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْهُ وَمَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٠- يُخبر الله تعالى عن عِلْمِهِ باستجابة النبي ﷺ وأصحابه للأمر بقيام الليل في أول السورة، وأنهم فعلاً قاموا نحو ثُلُثَيْهِ ونِصْفِهِ وثُلُثَهُ، فهو سبحانه العالم بجميع ما يحصل في الكون. ولما كان الاستمرار في قيام الليل وجوباً لا ندباً فيه مشقة عظيمة، حصل في هذه الآية تخفيف حُكْمِهِ من الوجوب إلى الندب في حق المسلمين جميعاً، وَبَيَّنَّتِ الآية أسباب التخفيف، وهي: عِلْمُ اللَّهِ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ على وجه الوجوب غير مستطاع، وَعِلْمُ اللَّهِ تعالى بحصول العوارض التي تمنع من قيام الليل كالمرض والسفر والجهاد، إذ يَشُقُّ على النفوس القيام في هذه الأحوال. وهذا التخفيفُ في الحكم رحمة من الله تعالى بعباده، ومراعاة لظروفهم وأحوالهم، وَوَجَّهَ اللَّهُ سبحانه بعد ذلك المؤمنين من عباده إلى فِعْلِ الطاعات والقُرْبَات، بأداء الصلاة على وجهها الأتمِّ الأكمل، وإخراج الزكاة إلى مستحقيها، والإكثار من الصدق، وعمل الخير في وجوه البر المتعددة، وسيجد كل امرئ لما عمل من طاعة وعمل صالح جزاءً أفضل منه، وأجرًا مضاعفاً عند الله الكريم العظيم. ومن رحمة الله بعباده جميعاً توجيههم إلى الاستغفار، وهو طَلَبُ المغفرة من الله تعالى، ولا يستغني عن الاستغفار أحدٌ من الخلق. والله سبحانه واسع المغفرة، رحيمٌ بعباده.

الفوائد والاستنباطات:

١- تَأَخَّرَ نزول هذه الآية عن أول السورة سنةً واحدة، كما في الرواية عن عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ اللَّهَ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلًا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة». (رواه أحمد في المسند برقم ٢٤٢٦٩، وابن حبان برقم ٢٥٥١، وقال محققها: إسناده صحيح).

٢- من رحمة الله بعباده التخفيف عنهم في العبادات، ومن ذلك تخفيف وجوب قيام الليل إلى الندب، إذ يَشُقُّ على الناس القيام كلَّ ليلة؛ لما يعرض لهم من مرض وسفر وقتال، ولحاجة أجسامهم إلى الراحة والنوم بعد عناء النهار في طلب الرزق والمعاش. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/٥٣، والتحرير والتنوير ٢٩/٢٨٥).

٣- الاستغفار عبادة عظيمة القدر، عالية المقام، وهي مشروعة من الطائع والعاصي، وفي كثير من الأحوال وفي أعقاب العبادات، وبها يستدرك ما عسى أن يقع في الطاعات من تقصير.

٤- عَلِمَ التَّخْفِيفُ فِي حُكْمِ قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَمَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: إنه لم يَعُدْ مَحَدَّدًا بِنِصْفِ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثِهِ أَوْ ثُلُثَيْهِ، فَيَحْصُلُ الْقِيَامُ بِأَيِّ قَدْرٍ مَهْمَا قَلَّ، وَلَمْ يَعُدْ وَاجِبًا، بَلْ هُوَ مَنْدُوبٌ، وَالْمُرَادُ بِالْقِرَاءَةِ فِي آيَةِ الصَّلَاةِ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْبَعْضِ عَلَى الْكُلِّ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى جَوَازِ الْقِيَامِ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ، وَالتَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

٥- يُلْحِظُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْإِعْتِنَاءَ بِدَقَائِقِ الْوَقْتِ وَتَفَاصِيلِهِ، فَقَدْ ذُكِرَ فِيهَا ثُلُثُ اللَّيْلِ وَنِصْفُهُ وَثُلُثَاهُ، وَمَا هُوَ أَدْنَى مِنْهَا، وَفِي هَذَا دَعْوَةٌ لِلْإِعْتِنَاءِ بِالْوَقْتِ، وَالِاهْتِمَامِ بِهِ وَبِأَجْزَائِهِ الدَّقِيقَةِ.

٦- اِحْتَوَتْ سُورَةُ الْمَزْمَلِ عَلَى تَقْسِيمٍ بَدِيعٍ لِلْمَهْمَاتِ فِي الْيَوْمِ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

أ- بَدَأَ الْيَوْمَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَتَرْتِيلِ الْقُرْآنِ.

ب- الْعَمَلُ الْجَادُّ فِي النَّهَارِ.

ج- الْإِكْتِنَارُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَالتَّحَلُّقُ بِالصَّبْرِ.

د- اسْتِحْضَارُ الْإِعْتِبَارِ.

النزول: مكة.

والآيات الخمس في أولها هي ثاني ما نزل، بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يُحَدِّثُ عن زمن الوحي، فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ، فقلت: زَمَلُونِي زَمَلُونِي، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحوي الوحي وتابع». (رواه البخاري برقم ٤، ومسلم برقم ١٦١).

المقاصد:

- ١ - تقرير رسالة سيدنا محمد ﷺ.
- ٢ - تقرير البعث بعرض أسباب دخول النار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ ١ ﴿قُرْآنِذَر﴾ ٢ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾ ٣ ﴿وِثْيَابَكَ فَطَهِّرُ﴾ ٤ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ٥ ﴿وَلَا تَمَنَّكَ تَسْتَكْبِرُ﴾ ٦ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ﴾ ٧ ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ ٨ ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ٩ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ١٠

التفسير:

١-٥- تبدأ السورة بنداء النبي ﷺ: يا أيها المتغطّي بشيابه، قُمْ من مضجعك؛ لتندّر الناس، وتُبشّرهم وتُعَلِّمهم بما أُرسِلتَ به، وخُصّ ربك الذي خلقك وأرسلك بالتكبير، وخُصّ نفسك بتنقيتها مما يسخط الله، وِثْيَابَكَ بتطهيرها من النجاسات، وابتعد عن الأصنام والأوثان التي تُعبّد وتُعظّم من دون الله، وعن كل رجز وقبيح من قول أو فعل.

٦- ولا تنظر إلى ما تنفقه من مال وجهد وعلم ودعوة على أنه كثير، بل اجعله في نظر نفسك قليلاً.

٧- ومن أجل رضا الله والقرب منه احتجّل ما يصيبك من ضرر، واصبر على ما تسمع وما ترى، وما ينزل بك من إيذاء قومك؛ بسبب دعوتك إياهم إلى التوحيد والهدى.

٨-١٠ - فإذا نفخ في الصور نفخة البعث والقيام، فزع الخلائق واضطربوا، وخرجوا من قبورهم. وهو يوم شديد قاسٍ على الكافرين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله في الدنيا، أمّا المؤمنون فيكون يوماً يسيراً عليهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - أصل المدَّثَّر: المتدَثَّر، فأدغمت التاء في الدال. والدَّثار هي الثياب الظاهرة، ويقابلها: الشُّعار، وهي: الثياب التي تلي الجسد.
- ٢ - نداء النبي ﷺ بالمدَّثَّر ملاطفة في الخطاب، وتبيين للحالة التي كان عليها عند حصول النداء له.
- ٣ - تقديم المفعول على الفعل في عدد من هذه الآيات نحو ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ؛ للاختصاص، فلا يكون التكبير لغير الله.
- ٤ - ورد الأمر بتكبير الله تعالى بعد الأمر بالإنذار؛ لتنبية النبي ﷺ ألا يكثر بالكفار، ولا يبالي بهم ولا بتهديدهم وإيذائهم، وألَّا يُزْهِبَ إلا الله، فإنَّ كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه.
- ٥ - يرى عدد من المفسرين أن المراد بالأمر بتطهير الثياب تطهير القلب والنفس؛ وذلك لأن الثياب كالشيء الملازم للإنسان، فكُنِيَ بها عنه، ومثل هذا قول بعضهم: المَجْدُ في ثوبه، والعَفَّةُ في إزاره، ولأنَّ الغالب أن من يطهر باطنه فإنه يطهر ظاهره. (التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/١٧٠).
- ٦ - أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِهَجْرِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَسَيَّءِ الْأَخْلَاقِ مَعَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ بَعِيداً عَنْهَا، لِيَدُومَ عَلَى ذَلِكَ الْبَعْدِ وَيَحَافِظَ عَلَيْهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ مَا فَعَلَهُ بِفَطْرَتِهِ حَقٌّ وَصَوَابٌ.
- ٧ - في الأمر بالأمر بالاستكثار العطاء والعمل حِكْمٌ كثيرة، منها: الحثُّ على دوام العمل واستمراره، وعدم الاغترار به وبالنفس.
- ٨ - عَبَّرَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَنِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ بِالنَّقْرِ فِي النَّاقُورِ. وَالنَّقْرُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْقَرْعُ الْمُفْضِي إِلَى النَّقْبِ، وَالنَّقُورُ: الصُّورُ. (المفردات للراغب، مادة نقر، ٥٠٣). وفي هذا التعبير إشارة إلى شدة هذا الصوت وَعِظْمِهِ.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرَّهُنَّ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة، كما ذكر كثير من المفسرين، وكان من أشد أعداء هذا الدين، وله موقف عجيب ذكرته هذه الآيات.

١١- ١٥ - تبدأ هذه الآيات بالوعيد الشديد لِمَنْ اتصف بالصفات التي ستذكر لاحقاً، إذ يقول الله تعالى لِنبيه ﷺ: ﴿ انزك لي أمر عقاب هذا الكافر وجزائه، وقد كان وقت ولادته وحيداً لا مال له، وجعلت له بعد ذلك مالاً وفيراً كثيراً، ورزقته عدداً من الأولاد، يحضرون معه المحافل والمشاهد، ويأنس بوجودهم حوله، وبلغ من الرفاهية ورغد العيش منزلة عالية، وأصبح أحد كبار قومه، ومع حصول كل هذه النعم كان يطمع في الزيادة عليها.

١٦ - كلالن تحصل له زيادة على ما أعطي، فهو لا يستحق ذلك؛ لعدم إيمانه بالله ومعاندته للحق، مع تبينه له.

١٧ - وسيُعذب يوم القيامة في النار عذاباً شديداً يُرهبه، ويُذهب قوته، وذلك في مقابل طمعه في زيادة النعيم والرفاهية.

١٨ - ٢٥ - تذكُر هذه الآيات موقفاً لهذا الكافر المعاند للحق، وتروي كتب السيرة والتفسير (السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٤٣ و٢٤٤. وجامع البيان للطبري ٢٩/٢٥٦. وتفسير البغوي ٥/١٧٦): أَنَّ الوليد بن المغيرة بعد أن استمع مرة لتلاوة النبي ﷺ وتأثر بها، وامتدح ما سمع، خاف زعماء قريش أن يُسلم، وأن يُؤثر إسلامه في أهل مكة، فذهب إليه بعضهم، وطلبوا منه كلاماً واضحاً صريحاً في شأن القرآن؛ ليكون مقنعاً لِمَنْ يسمعه، ليقولوه للناس، ويصرفوهم عن اتباع الحق. فقال الوليد بعد أن فكَّر وتأمل، وأمعن النظر مراراً: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يُفرِّق بين الرجل وأهله وولده؟ وما هذا الذي يقوله إلا سحرٌ نقله عمَّن علمه إياه. وفي هذه الآيات وصف هذه الحادثة، إذ تبين أنه دخل في صراع كبير مع نفسه، وبحث بدأب عن كلام مقنع لِمَنْ يسمع هذا القرآن، فأكثر من التفكير، وتريث قبل أن يعلن ما توصل إليه من رأي في القرآن، وتَهَرَّب من إعلان الحق الذي استقر في قلبه، وهو مستحق لللعن والطرده من رحمة الله على ما فعل،

بسبب العناد والجحود. ونتيجة الاضطراب الهائل في نفسه والتفكير الطويل في قلب الحقيقة قَطَب وجهه عابساً، ثم زاد في ذلك العبوس والتجهّم، حتى توَصَّل إلى ما افتراه.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تشير الآيات الكريمة (١١-١٦) إلى فضيلة القناعة والرضا بالمقدّر، فلا يُكثر من التطلع إلى زيادة المال، ولا يبالغ في السعي إلى المنصب والجاه، كما تشير إلى التنفير من خُلُقِ العناد المذموم والمؤدّي إلى كثير من المساوي.

٢ - تُبيِّنُ الآيات الكريمة (١٨-٢٥) ما أصاب الوليد بن المغيرة من حيرة وتردّد، إذ تُبيِّن أنه فكَّر ورَتَّب في نفسه ماذا يقول عن القرآن من إفك مفترى، وهو مستحق - لِفِعْلِهِ - هذا اللَّعْنُ والطَّرْدُ من رحمة الله، فما أعجب تقديره، وما أغرب صنيعه، وما أجرأه على تبديل الحق، والافتراء عليه، وما أشدَّ عذابه على ذلك!!

﴿سَأُضْلِيهِ سَقَرَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٣٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٣٨﴾ لَوَاحِئًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٤٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيرَدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْتُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٤١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٤٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٤٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ ﴿٤٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكَبِيرِ ﴿٤٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٤٦﴾﴾

التفسير:

٢٦-٢٩ - في هذه الآيات بيان ما سيُعَذَّب به هذا المعاندُ المكابر، حيث إنه سيدخل جهنم، و «سقر» من أسائها أو إحدى ذرّكاتها، والاستفهام عن سقر للتهويل والتفطيع، وزيادة التخويف منها، فما أعلمك حقيقة سقر؟ إنَّها لا تُبْقِي أحداً مَنَّ يستحق دخولها، ولا تَذَرُ لِمَن دخلها لحماً ولا عظماً إلا أهلكته، ولعظمتها يراها الناس من مسافات بعيدة تُلَوِّح لهم، وتَظْهَرُ بهيئتها المرعبة.

٣٠ - يُشْرِفُ على أهوال جهنم من ضروب العذاب تسعة عشر ملكاً، أو تسعة عشر صنفاً من الملائكة. ٣١ - جعل الله القائمين على أمور العذاب في النار ملائكة، وجعل في هذا الصنف من الملائكة غلظة وشدة وقدرة كبيرة على التعذيب. وفي الإخبار بعددهم ابتلاء واختبار للخلق أدّى إلى تيقن أهل الكتاب من صدق النبي ﷺ؛ لتوافق هذه المعلومة مع ما في الكتب المنزلة من قبل، وأدّى إلى زيادة إيمان المؤمنين وتثبيتهم على الحق أكثر، فهم يُصَدِّقُونَ كل ما يخبر به الله تعالى من أمور الغيب، فإذا وافق ذلك تصديقاً

أهل الكتاب به، كان أذعى لتصديقه. أمّا أهل الكفر والنفاق وضعاف الإيمان فقد استنكروا إعلام الله تعالى عباده بهذه المعلومة، وعجبوا من ذلك، فجاء السياق يرد عليهم أن الله تعالى يعلم مَنْ يستحق الهداية فيهديه، ويسر له سُبُلَهَا، ويعلم مَنْ يستحق الضلال، فيتركه وما أراد بعد أن يُبَيِّنَ له الحُجَجَ والبراهين. ثم بَيَّنَّ سبحانه أنه وحده يعلم تفاصيل كل ما يتعلّق بجنوده من الملائكة وغيرهم، من كثرة وقوة وتَنَوُّع مَهَامِّ، وقد أعلم الله تعالى خَلْقَهُ عن النار وصفاتها وأهوالها؛ ليتذكروا ويعتبروا، ويعملوا للنجاة منها.

٣٢- إلا أن فريقاً من الناس لا ينتفع من الذِّكْرِ، ولا يستجيب للحق. وهذا الفريق يستحق الرَّدْعَ والزجر لما هو فيه، ثم أقسم سبحانه بالقمر، وهو من الآيات العظمى الدالة على الخالق سبحانه.

٣٣-٣٤- وأقسم سبحانه بالليل حين ينتهي وقته، وبالصبح الذي يَتَّبِعُ الليل، فينشر الضياء والنور في أرجاء الأرض.

٣٥-٣٦- إن جهنم وما فيها من أهوال وعذاب أمرٌ هائل ثقيل. وفي هذا الوصف تخويف وإنذار للبشر جميعاً؛ لينجوا من عذابها.

٣٧- فَمَنْ انتفع من هذا النذير تَقَرَّبَ إلى الله بعمل الطاعات، وسبق إلى الخيرات، وفاز بالجنات، وَمَنْ لم ينتفع به، وتأخر عن الاستجابة، وأقام على الشرك والضلال، فهو مَمَّنْ سيلقى سوء المصير.

الفوائد والاستنباطات:

١- من طبيعة الناس أن تَبَيَّنَ مواقفهم، وتَتَعَدَّدَ اتجاهاتهم، وتختلف نظرتهم نحو شيء واحد؛ نظراً لاختلاف طبائعهم، وتفاوتٍ تقديرهم، واتباع فريقٍ منهم الهوى.

٢- اختيار اسم (سقر) لجهنم في هذه الآيات دون غيره من الأسماء؛ لما فيه من مشاكلةٍ لكثير من آيات هذه السورة في الوزن، وفي الحرف الأخير منها.

٣- من صفات المؤمن الحق المبادرة إلى التصديق والانقياد لما يخبر الله سبحانه ولما يأمر به، ولو لم يعلم الحكمة، فإله أعلم بما شرع وأنزل.

٤- استقلَّ بعض المشركين عدد خزنة جهنم من الملائكة، وأنهم تسعة عشر، فقال أبو الأشدِّ وهو رجل من قريش: يا معشر قريش لا يَهْوُلُونَكُمْ التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، وَوَرَدَ قريبٌ منه عن أبي جهل. (ينظر: تفسير ابن كثير ٨/٢٦٥، ولباب النقول للسيوطي ٢٠٦-٢٠٧-٢٢٣).

وهذا كله دليل غرور، وإجحاف بحق الملائكة الكرام لظنهم أنهم كالبشر؛ ولذا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمَلُّهُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

٥- ينظر: صورة إدبار الليل، كما في الملحق.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْلَا نُنكَرُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْلَا نُنكَرُ لَطَعْمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا آلِيقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفْوَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير:

٣٨-٣٩- يخبر الله سبحانه أن الناس جميعاً ينالون عقابهم على ذنوبهم ويُمنعون من النعيم يوم القيامة؛ بسبب كفرهم وضلالهم، أما المؤمنون فإنهم يدخلون الجنة، ولا يُمنعون منها؛ بسبب أعمالهم الحسنة.
٤٠-٤٢- يُدْخِلُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابَ الْيَمِينِ الْجَنَّةَ، فَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ مَصِيرِ الْكَافِرِينَ، إِذْ لَمْ يَرَوْهُمْ مَعَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ، وَيُسْمَعُ لَهُمْ بِالْحَدِيثِ مَعَهُمْ، فَيَسْأَلُونَهُمْ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِمُ النَّارَ، وَحِزْمَانِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ.

٤٣-٤٨- يذكر أهل النار في الجواب أسباب دخولهم النار وهي: غفلتهم عن أداء العبادات المطلوبة منهم - وأهمها الصلاة - وعن الإحسان إلى المحتاجين، وعن إطعام المساكين، وغفلتهم عن مراقبة النفس وما يصدر عنها من أقوال وأفعال غير لائقة ولا حسنة، والكفر بالله تعالى وعدم التصديق بحصول يوم القيامة، وأنهم بقوا على هذه الحال حتى أتاهم الأجل، وماتوا على غير الهدى، فاستحقوا دخول النار، ولأنهم لا يستحقون الشفاعة، فلن يشفع لهم أحد من عباد الله الصالحين. وعلى افتراض حصول شفاعة أحدٍ لهم، لن تُقبل هذه الشفاعة لهم.

٤٩-٥١- وَإِنَّ مِمَّا يُسْتَعْرَبُ: ابْتِعَادَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ وَهُدَايَتِهِ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُعْرَضُونَ عَنْهُ إِعْرَاضاً شَدِيداً، كَمَا تَنْفِرُ الْحُمْرُ الْوَحْشِيَّةُ، وَتَفِرُّ فَرِزَةً إِذَا رَأَتْ أَسْداً مُقْبِلاً عَلَيْهَا يُرِيدُ إِهْلَاكَهَا، فَتَتَفَرَّقُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ بِلَا هَدَفٍ سِوَى الْهَرَبِ وَالنَّجَاةِ. وَهَذَا النُّفُورُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْحَقِّ مُسْتَعْرَبٌ جَدًّا، فَهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى الْهُدَى وَالرُّشَادِ، لَا إِلَى الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ، وَلَكِنَّ الْوَهْمَ الَّذِي فِي نَفْسِهِمْ، وَتَمَكَّنَ الْكُفْرَ مِنْ قُلُوبِهِمْ هَيَّأَ لَهُمْ ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ.

٥٢-٥٣- بلغ من كفر المشركين وعنادهم، طَلَبُ حصول كل واحد منهم على كتاب من الله يخاطبه فيه، ويطلب منه الإيمان. كلا إِنَّ ذلك لن يحصل، فهم ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا يخافون العقاب في ذلك اليوم، ولذلك تجرّؤوا على مثل هذا الطلب.

٥٤-٥٦- حقاً إِنَّ في القرآن ما يُغني عن ذلك وعن غيره، فهو كتاب الهداية، وفيه كثير من المواعظ والعبر التي تدعو الخلق إلى الإيمان بالله، وإلى العمل الصالح. ولا ينتفع بهذه الآيات إلا مَنْ استجاب لأمر الله، واهتدى بهداه، وهم الذين شاء الله هدايتهم، ونور قلوبهم؛ بسبب إقبالهم عليه وإيمانهم به، وهم يعلمون أنه - سبحانه - هو العظيم المستحق للعبادة والتقوى، وأنه هو الذي يغفر لهم ما سلف من كُفْرٍ وذنوب.

الفوائد والاستنباطات:

١- يبلغ العناد والغرور ببعض الناس مبلغاً عظيماً يُوصِلُهُم إلى طلب المستحيل، ومن ذلك طَلَبُ المشركين كتباً يخاطبهم الله بها بأعيانهم وأسمائهم، يدعوهم فيها إلى الإيمان به. وكان الرد على هذا الطلب المقرون بالعناد والغرور أنهم لا يستحقون ذلك.

٢- بيان أكبر الجرائم وهي: تَرْكُ الصلاة، وَمَنْعُ الزكاة، والخوض في الباطل، وإنكار الحساب. (أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري ٤/٥٨٥).

٣- تشبيه هيئة المشركين في هُرُوبِهِم من الهدى والرسول بالحُمُرِ الهاربة، فيه احتقارٌ لهم، وإظهار أنهم لا يستخدمون عقولهم، وأنهم يجتمعون على الباطل.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١- إثبات يوم القيامة وذكر بعض أحداثه.
- ٢- تسلية النبي ﷺ بحفظ القرآن في قلبه.
- ٣- إقامة الأدلة على عظمة قدرة الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۝٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ، ﴿٣﴾ بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ، ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ، ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُغُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ، ﴿١٥﴾ ﴿﴾

التفسير:

١-٢- يقسم الله تعالى بيوم القيامة وهو يوم البعث والجزاء، ويقسم بالنفس المؤمنة التي تلوم صاحبها على التقصير والإهمال.

٣-٤- ينكر الإنسان الكافر بالله البعث والحساب، ويميز بأنه لا يمكن أن يُعاد جُمع عظامه بعد أن تبلى وتفتت. والاستفهام في الآية للتوبيخ، ويردُّ الله تعالى عليه بأنه سبحانه قادر على أن يعيده كما كان، خلقاً سويتاً، وهو قادر على أن يُعيد أدق ما فيه كأطراف الأصابع، وما أشبهها في الدقة وبديع الصنع.

٥-٦- ينكر الكافر البعث؛ ليستمرَّ على ما هو فيه من ضلال وانغماس في الشهوات، دون رادع أو زاجر، ولذا يسأل هذا الكافر عن وقت حصول يوم القيامة استهزاءً، وتكديباً به.

٧-٩- يبلغ من تأثير أحداث يوم القيامة أن يزيغ بصر الإنسان، وينبهر من هول ما يرى. ومن ذلك أن يذهب نور القمر، فيصبح مظلماً، وأن يُضَمَّ إلى الشمس، فتغدو الشمس والقمر شيئاً واحداً.

١٠-١٢- يسأل الإنسان الكافر الفزع من هول ما يرى: أين أجد ملاذاً ومهرباً من هذه الأهوال العظام؟ ويأتيه الجواب مصحوباً بالردع والزجر عن السؤال، وعن طلب الفرار، بالألمة أو مهرب،

فهذا يوم البعث والرجوع إلى الله سبحانه للجزاء على الأعمال، حيث مستقر العباد في دار النعيم، أو في دار الجحيم.

١٣-١٥ - يُحَاط الإنسان في أثناء الحساب يوم القيامة بجميع أعماله، أولها وآخرها، عظيمها وحقيرتها، حسنها وسيئها، كما يُحَاط بما كان يريد عمله أو يجب عليه عمله ولم يعمل؛ بسبب التسويف والمماطلة أو العجز والكسل. يُعلم الإنسان بكل هذا مع أنه عالم بما كَسَبَتْ نفسه، ومع ذلك يحاول الإنكار والتنصّل من أعماله السيئة؛ ظناً منه أن ذلك ينفعه، ويختلق الأعذار الواهية ويجادل عن نفسه بالباطل، ولا ينفعه ذلك لأنه في قرارة نفسه عالم بكذبه، ولأن أعضاءه ستشهد عليه بما عمل، فلا تبقى له حجة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يفيد دخول (لا) النافية قبل فِعْلِ القسم تأكيداً، وهو من أساليب العرب، وفيه إشارة إلى أن الأمر واضح ولا يحتاج إلى قسم.
- ٢ - جمع سبحانه في القسم بين يوم القيامة والنفس اللوامة؛ لأنّ المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفس اللوامة، والحكم عليها إلى السعادة أو إلى الشقاء. (التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/١٩١).
- ٣ - استخدام صيغة المبالغة في وصف النفس باللوامة؛ لكثرة حصول هذا الأمر من الإنسان، وفي ذلك امتداح لِمَنْ يكثر من لوم نفسه على التقصير في حَقِّ الله والعزم على المسارعة إلى الخيرات. (التفسير الكبير للرازي ٣٠/١٩١).
- ٤ - نَصَّتِ الآية الكريمة على قدرة الله تعالى أن يعيد تسوية البنان كما كان، وفيه إشارة إلى ما اكتشفه العلماء أن البصمة التي على أطراف أصابع اليدين تميّز كل إنسان عن غيره، حتى في التوائم المتشابهة. وهذه من أعظم الدلائل على إتقان الخلق وإبداعه.
- ٥ - ينظر: صورة حَسَفِ القمر، كما في الملحق.
- ٦ - أعيد لفظ الإنسان في هذه الآيات خمس مرات؛ لأنّ المقام يقتضي توبيخه وتقريعه، وتسجيل الظلم والجحود عليه. (التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٥/٢٨١).
- ٧ - أعظم شاهد على الإنسان نفسه، وفي هذا أكبر واعظ له أن يستقيم على أمر الله، ويعمل بما يرضيه سبحانه؛ ليجعل من نفسه شاهداً له، لا عليه.

﴿لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعَجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ. ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴿﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفثيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعَجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. ﴿﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ﴿﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه. (رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف بدأ الوحي، ومسلم في كتاب باب الاستماع للقراءة، ومعنى قوله: «وكان مما يحرك شفثيه» أن من مظاهر هذه الشدة تحريكه شفثيه بكثرة وسرعة؛ خشية أن ينسى).

التفسير:

١٦-١٧- نهي الله تعالى رسوله ﷺ عن العجلة في ترديد الآيات في أثناء نزول جبريل عليه السلام بها عليه، وتلقيه إيها، تعجلاً منه ﷺ لحفظها، وحرصاً منه على تثبيتها في ذاكرته، فالله تعالى يتعهد له بتثبيت هذه الآيات في قلبه، وأن يحفظها فلا ينساها مطلقاً.

١٨- فإذا قرأ جبريل عليه السلام الآيات فأنصت أيها النبي الكريم إليه، واستمع لتلاوته حتى ينتهي منها، وتكون قد ثبتت في قلبك فاقراها، وقم بتبليغها كما أمرت بذلك.

١٩- تعهد سبحانه بحفظ الآيات في قلب نبيه ﷺ، وتعهد ببيان معناها، وتوضيح المراد منها.

٢٠-٢١- تبدأ الآيات بالردع والزجر عن إنكار البعث، مع وضوح دلائله، وكثرة حجاجه، ومما يحمل الناس على ذلك التعلق بالدنيا وملذاتها وشهواتها، مما يؤدي إلى نسيان الآخرة، وعدم العمل لها، والخطاب في الآيتين للكفار.

٢٢-٢٣- ثم بين سبحانه جانباً من حال السعداء والأشقياء يوم القيامة، فقال: وجوه أهل السعادة والنعيم مشرقة تظهر عليها النضارة والبهاء، وهي تنظر إلى ربها ذي الجلال والجمال والكمال، فتتعمم بذلك غاية النعيم، ورؤية الله تعالى في الجنة أعظم النعم.

٢٤-٢٥- وجوه أهل الشقاء مظلمة عابسة، مكفهرة، فهي تترقب قبل دخول النار عذاباً عظيماً يصيبها، وداهية كبرى تقصم فقار الظهر.

الفوائد والاستنباطات:

١- هذه الآيات الأربع لا صلة مباشرة لها بسياق الآيات، فهي جمل معترضة جيء بها في ثنايا كلام متصل للإشارة إلى أهمية الموضوع الذي نتحدث عنه، وأنه لا يحتمل التأخير حتى الانتهاء من الحديث، فأدخل التنبيه في وسط الكلام للإشعار بأهمية الأمر وخطره. (بيان إعجاز القرآن للخطابي، ٤٠-٥١).

٢- تدل هذه الآيات على عظيم حُرْصِ النبي ﷺ على حِفْظِ الآيات وتثبيتها في قلبه؛ ليقوم بتليغها على أحسن وجه وأتمه دونَ نَقْصٍ ولا تحريف، كما تدلُّ على إكرام الله تعالى له بإعفائه مِنْ بَدَلِ الجهد والوقت في حِفْظِ الآيات، فقد تَوَلَّى سبحانه تثبيتها له في قلبه دون حاجة إلى معالجةٍ وجهده منه ﷺ.

٣- جعل الله تعالى قراءة جبريل عليه السلام قراءته ﷻ، وفيه دلالة على عظيم شَرَفِ جبريل عليه السلام، وعُلُوِّ منزلته ومقامه.

٤- ورد في إثبات رؤية الله تعالى للمؤمنين في الجنة أحاديث عديدة، منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تُمَارُونَ في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تُمَارُونَ في الشمس ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك. (رواه البخاري في كتاب الأذان، باب فضل السجود، ومسلم في كتاب الإيمان باب رؤية المؤمنين ربهم سبحانه).

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٣١﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٣٨﴾ وَاللَّعْنَةُ السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴿٣٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّنَ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّنٍ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَعًا مِنْ مِمِّي يُمْتَنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٢٦-٢٩- تبدأ الآيات بالردع والزجر عن إثارة الدنيا على الآخرة، ثم تخبر بأن الروح إذا بلغت عظام الترقوة، وهي العظام المحيطة بثغرة النحر أي: أسفل الرقبة وأعلى الصدر، بدأ مَنْ حَوْلَ المحتَضِرِ يسألون عن طبيبٍ يعالجه وَيَشْفِيهِ؛ ظناً منهم بإمكان ذلك، وأنه لم يحضر أَجَلُهُ بعد، وتيقن هو مِنْ حصول الأجل ومفارقة الدنيا وما فيها، وظهرت عليه علامات الموت ومنها التواء إحدى ساقيه والتفافها على الأخرى، وعدم قدرته على تحريكهما؛ لأنَّ الموت دَبَّ فيها.

٣٠- يُسَاق الخلق جميعاً، وَيُحْشَرُونَ إلى الله تعالى يوم القيامة، فيحاسب كلُّاً منهم على عمله، ويقضي

بينهم بحكمه.

٣١-٣٣- في هذه الآيات دَمُّ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، فلم يصدق بالقرآن، ولم يستجب لأمر الله بأداء الطاعات ومنها الصلاة، واستمر في تكذيب الحق والإعراض عنه والتوَيُّبِ عن الاستجابة، وزاد على ذلك التكبر والغرور والتطاول على الآخرين.

٣٤-٣٥- سبب النزول:

أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل وقال له: ﴿أَوَلَيْكَ فَأْوَلُكَ﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تُهَدِّدني؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، وإني لأعزُّ أهل هذا الوادي، ثم أنسلَّ ذاهباً، فأنزل الله كما قال له رسول الله ﷺ. (رواه النسائي في كتاب التفسير، وقال محققه: إسناده صحيح، وينظر: الصحيح المسبور ٤/٥٦٩).

التفسير:

وعيد لهذا الكافر المتمرد المختال بعذاب شديد وعقاب أليم، يتنامى ويتضاعف جزاء كفره وعناده.

٣٦- يظن الكافر من بني الإنسان أنه خلق عبثاً، وأنه لا بعث ولا نشور بعد الموت، ولا حساب ولا جزاء على الأعمال، وهذا ظنُّ باطل، والدليل على البعث ما ذكر في الآيات التالية:

٣٧-٣٩- تُبَيِّنُ هذه الآيات أصلَ خَلْقِ الإنسان، حيث يبدأ تكوين الجنين من التقاء نطفة الرجل بيويضة المرأة، وتخصيبيها، فتتمو حتى تصبح علقة في جدار الرحم، ثم يتكامل خَلْقُ الإنسان، ويولَدُ سوياً خالياً من العيوب والآفات، واقتضت حكمة الله أن يجعل البشر من نوعين ذكرٍ وأنثى.

٤٠- إنَّ مَنْ خَلَقَ الإنسان من ماء حقير قليل يُرَاق في الرحم قادر بلا ريب على إعادة خَلْقِهِ بعد الموت، فَإِنَّ الإعادة في عرف الناس أهون من الإنشاء، فَمَنْ أَنشَأَ الخَلْقَ قَادِرٌ على إعادته من باب أولى.

الفوائد والاستنباطات:

١- في قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقَةَ﴾ دليل على أَنَّ الروحَ تخرج من الجسد بتدرُّج حتى يتكامل خروجها منه، وتحصل حينئذ الوفاة. (ينظر: التفسير الكبير للرازي ٣٠/٢٠٤).

٢- ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَنَّتْ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾ أنه كناية عن اجتماع شدة مفارقة الدنيا مع شدة الموت وكرهه. (جامع البيان للطبري، ٢٩/١٩٥).

٣- التَمْطِي: التبخر في المشي تكبراً، وقد ورد دَمُّهَا في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجرُّ إزاره من الخيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». (رواه أحمد في المسند برقم ٥٣٤٠ وقال محققه شعيب الأرناؤوط: صحيح).

٤- بدأت السورة، واختتمت بتأكيد حصول البعث، وردت على مُنكره عدة مرات، كل ذلك بأسلوب غاية في القوة والزجر.

٥- عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ ﴿الَيْسَ ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُونَ﴾ قال: سبحانك، فيكى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. (رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، وقال أبو داود بعد الحديث: قال أحمد: يعجبني في الفريضة أن يدعو بها في القرآن، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود).

٦- ورد حديث يفصل المدة التي يعرف بها جنس الجنين ذكراً أو أنثى، فعن حذيفة بن أسيد ؓ عن النبي ﷺ قوله: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً، فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها: ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء». وفي رواية: بضع وأربعين ليلة. (أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٤٥)، كتاب القدر باب كيفية خلق الأدمي برقم ٢٦٤٤-٢٦٤٥).

وقد ذكر هذا الحديث الدكتور محمد جميل الحبال، ثم ذكر موافقة الطب الحديث لذلك، فقال:

أ- تكون الغدد التناسلية للجنين (Gonads) غير متميزة من ناحية نوعية الجنس (مشتركة) حتى نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين (Sexually undifferentiated) وبعدها تبدأ بالتمييز، بأن تأخذ المسار الذكري أو الأنثوي!.

ب- لقد اكتُشِفَ حديثاً وفي السنوات الأخيرة فقط، وعند دراسة آلاف الحالات من الحمل في بداياته لمعرفة نوع جنس الجنين، وذلك بواسطة آلة التصوير بالأمواج فوق الصوتية المتطور، وبالذوبلر الملون ومتابعتها بعد الولادة، والتأكد من صحة النتائج اكتشف أن ظهور الجنين مع بدايات تكوين زغابات المشيمة وأوعيتها الدموية (Chorionic Villi) في نهاية الأسبوع السادس أو منتصف الأسبوع السابع (ما بين ٤٢-٤٥) يوماً تقريباً بالضبط وما بعدها.. كما ظهر من النتائج أن معظم حالات الحمل الذكورية كانت تظهر في انغراسها (التعشيش) (Implantation) في بطانة الرحم في الجهة اليمنى والأنثوية في الجهة اليسرى منه وذلك بنسبة ٩٧,٥٪ من الحالات.

وينظر: الملحق لبيان صورة الجنين في اليوم الثاني والأربعين.

النزول: مكية في قول جمهور العلماء، وهو الذي تعضده الروايات، ويناسبه موضوع السورة، وتوافق خصائص الآيات المكية فيها، وقيل: هي مدنية، وقيل: بعض آياتها مدني، وكلاهما لم يصح. (المكي والمدني من السور والآيات ٤٧٢-٤٧٨).

فضل السورة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴿الرَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴿[السجدة: ١-٢]﴾ وَ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾. (رواه البخاري في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، ومسلم في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في يوم الجمعة).

المقاصد:

- ١- تقرير توحيد الربوبية لله تعالى.
- ٢- تقرير البعث والحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ١ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ٢ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ٣ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا﴾ ٤ ﴿

التفسير:

- ١- قد مرَّ على الكون مُدَدٌ متطاولة من الأزمان، وهو خالٍ من وجود جنس الإنسان، وذلك قبل خَلْقِ هذا المخلوق، فلم يكن معلوماً ولا موجوداً، فالاستفهام بـ (هل) للتقرير.
- ٢- ثم خلق الله صلى الله عليه وسلم الإنسان، وجعل لهذا الخلق مراحل تبدأ من النطفة، وهي الماء القليل المحترق، إذا استقرت في الرحم، والتقت بالبويضة واختلطت بها، إلى أن يتكامل خَلْقُ الإنسان، فيولد مخلوقاً سَوِيًّا يسمع ويرى، والحكمة من الخلق هي الابتلاء والاختبار.
- ٣- بعد أن أعلم تعالى بالحكمة من الخلق وهي الابتلاء، أعلمهم بأنه يَسَّرَ لهم سبيل الهداية الموصلة إلى التوحيد والطاعة، يهتدي بها أناس، فيحمدون الله ويشكرونه، ويضل عنها آخرون، فيكفرون بالله سبحانه.

٤ - بعد أن ذكر الله تعالى انقسام الناس إلى مؤمن وكافر، ذكر جزاء كل فريق منهم، بإيجاز في جزاء الكافرين، وتوسّع في جزاء المؤمنين، فقد هياً الله سبحانه للكافرين به صوراً متعددة من العذاب، منها القيد في السلاسل، وتشد أيديهم إلى رقابهم؛ إمعاناً في تعذيبهم وإهانتهم، ويقاسون مع ذلك حرّ النار التي تحيط بهم من كل جانب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في إعلام الإنسان أنه مخلوق طارئ على الكون فوائده عديدة، منها: أن يعلم أن له خالقاً عظيماً يستحق العباد، وأن يعرف قدره بين سائر المخلوقات، فيتواضع، ويتعد عن الغرور.
- ٢ - ورد إعلام الإنسان بالحكمة من خلقه في ثنايا الحديث عن بدء الخلق؛ ليستشعر الإنسان أثره في الحياة، وليعلم رفعة منزلته عند مولاه، فيعمل بما يقوده إلى السعادة والنجاة.
- ٣ - من رحمة الله بعباده أقام لهم دلائل الهداية، وبيّن لهم سبيل التوحيد والطاعة، وهي ظاهرة في الأنفس والآفاق، وسائر المخلوقات.
- ٤ - ورد في الآية الكريمة ﴿كَفُورًا﴾ بصيغة المبالغة إنكاراً؛ لكثرة حصول الكفر من الإنسان مع أنّ دلائل الهداية تحيط به من كل جهة، ويشعر بها في كل وقت.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْإِنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامَ عَلَىٰ حَيْهٍ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّئْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَدِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِن فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾ وَرُئِسَقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِن فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

التفسير:

٥-٦- بدأ الحديث عن جزاء أهل الجنة بوصفهم بالأبرار، وفيه إشارة إلى السبب الذي استحقوا من أجله هذا النعيم. ومن صور النعيم في الجنة: أنهم يشربون الخمر المزوجة بالكافور، فيُضفي على الشراب طيب الطعم والرائحة، ويتدفق من عينٍ في الجنة كما يتدفق الماء، وهم يتلذذون بهذا الشراب، ويستمتعون به، ويمكنهم تحويل مجرى العين إلى حيث شاؤوا زيادةً في إمتاعهم.

٧- من الأعمال الصالحة التي كان الأبرار يعملونها في الدنيا واستحقوا بها دخول الجنة: الوفاء بالنذر، وهو ما يلزم الإنسان به نفسه من طاعة، زيادة على ما افترض عليه، والخوف من العذاب يوم القيامة، وهو اليوم الذي تعظم أهواله وتعمُّ جميع الخلائق.

٨- ومن أعمالهم الصالحة: إطعام المحتاجين ممَّا يأكلون وممَّا يرغبون من أنواع الطعام، والمحتاجون أصناف: فمنهم المسكين الذي لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله، واليتيم الذي فقد أباه، فحرم من عطفه وعطائه، والأسير الذي فقد حريته، ووقع في أيدي أعدائه.

٩-١٠- فقد جعل هؤلاء الأبرار غايتهم من الإطعام الذي يقدم للمحتاجين، وهو نيل رضا الله سبحانه، فلا يبتغون من ذلك ردًّا لهذا الجميل ممَّن يُقدِّمونه له، ولا يطلبون منهم شكرهم عليه، فهو عمل خالص لوجه الله تعالى، ابتغاء رضوانه وخوفاً من عقابه يوم القيامة، وهو يوم شديد عظيم الأهوال فظيع الأحداث، تعبس فيه الوجوه خوفًا من العقاب، وتأثراً بما ترى من أهوال.

١١-١٢- تَقَبَّلَ اللهُ تَعَالَى الْعَمَلَ الصَّالِحَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ، فَحَفِظَهُمْ مِنْ شِدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّنَهُمْ مِنْ الْفَزَعِ فِيهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِإِعْطَائِهِمْ نَضَارَةً وَحُسْنًا فِي وَجُوهِهِمْ، وَسَعَادَةً وَسُرورًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَدْخَلَهُمْ مِقَابِلَ صَبْرِهِمْ الْجَنَّةَ دَارَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ، يَلْبَسُونَ فِيهَا ثِيَابَ الْحَرِيرِ مَتْنَعِّمِينَ مَتْرَفِينَ.

١٣-١٤- وَمِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ جُلُوسُهُمْ عَلَى هَيْئَةِ الْإِتْكَاءِ، فَقَدْ هَيَّئَتْ لَهُمُ الْأَمَاكِنَ الْمُنَاسِبَةَ لِذَلِكَ مِنَ السَّرْرِ وَالْوَسَائِدِ، وَمِنْ زِيَادَةِ النِّعَمِ اعْتِدَالُ الْجَوِّ حَوْلَهُمْ، فَلَا يُعَانُونَ فِيهَا مِنْ إِزْعَاجِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَوْ شِدَّةِ الْبَرْدِ. وَمَعَ غِيَابِ شَمْسِ الْجَنَّةِ فَهِيَ مُضِيئَةٌ لِأَهْلِهَا عَلَى نَحْوِ دَائِمٍ، وَمِنْ زِيَادَةِ تَكْرِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِدْنَاءُ ظِلِّ الْأَشْجَارِ مِنْهُمْ، وَتَقْرِيبُ ثَمَارِهَا إِلَيْهِمْ حَتَّى لَا يَبْذُلُوا جَهْدًا فِي تَنَاوُلِهَا، وَلِيَكُونُوا فِي غَايَةِ التَّرْفِ وَالنِّعَمِ.

١٥-١٦- وَيَقُومُ الْحَدَمُ فِي الْجَنَّةِ بِالْمُرُورِ عَلَى أَهْلِهَا بِأَوَانِي الطَّعَامِ الْفِضْيَةِ، وَأَكْوَابِ الشَّرَابِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ نِقَاءِ الزَّجَاجِ وَصَفَائِهِ، وَبِيَاضِ الْفِضَّةِ وَلَمَعَانِهَا، وَمَا كَانَ فِي هَذِهِ الْأَكْوَابِ مِنَ الشَّرَابِ مُنَاسِبًا لِحَاجَةِ الشَّارِبِينَ، بِحَيْثُ لَا يَزِيدُ فِيهَا شَيْءٌ يَفْضَلُ وَيَبْقَى بَعْدَ شَرِبِهِمْ، وَلَا تَنْقُصُ عَنْ حَاجَتِهِمْ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى زِيَادَةٍ عَلَيْهَا. وَفِي الْمُرُورِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ تَكْرِيمٌ لَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُ أَحَدُهُمْ إِلَى الْإِتِّتِقَالِ إِلَيْهِ، إِذْ يَأْتِيهِ كُلُّ مَا يَرِيدُ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ.

١٧-١٨- وَيُسْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ خَمْرًا مَمْزُوجًا بِالزَّنْجَبِيلِ؛ لِتَصْبِحَ رَائِحَتُهُ أَطْيَبَ وَطَعْمُهُ أَلْذَّ، وَيُقَدَّمُ لَهُمْ فِي كُؤُوسٍ مَمْتَلِئَةٍ، وَيَشْرَبُ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ عَيْنٍ فِيهَا اسْمُهَا: سَلْسَبِيلٌ. وَتَدُلُّ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ عَلَى عَذُوبَةِ الْمَاءِ، وَسَهُولَةِ جَرِيَانِهِ فِي الْحَلْقِ.

١٩- فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَصَفُ حَدَمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَنَّهُمْ غُلَمَانٌ فِي مَقْتَبِلِ الْعَمْرِ، دَائِمُو النُّضَارَةِ، فَلَا يَهْرَمُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُ حَالُهُمْ، هَيْئَتُهُمْ فِي قِيَامَتِهِمْ وَحَرَكَتِهِمْ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُنْتَاثِرِ، مِنْ رُوعَةِ جَمَالِهِمْ، وَحَسَنِ حَالِهِمْ. وَشَبَّهُوا بِاللُّؤْلُؤِ الْمُنْتَوِرِ؛ لِأَنَّ اللَّؤْلُؤَ إِذَا تَفَرَّقَ انْعَكَسَتْ أَشْعَةُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ فَيَكُونُ أَجْمَلًا وَأَرْوَعًا، وَإِذَا كَانَ هَذَا حَالِ الْخَدَمِ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمَخْدُومِينَ؟

٢٠- كُلُّ مَا فِي الْجَنَّةِ نَعِيمٌ دَائِمٌ، وَمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَلِكٌ لَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ نَعِيمٍ تَبَيَّنَ لَكَ عَظَمَتُهُ وَكَثْرَتُهُ وَتَنَوُّعُهُ، وَمُلْكُ الْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ وَاسِعٌ، يَزِيدُ مُلْكُ أَقْلَهُمْ دَرَجَةً عَلَى عَشْرَةِ أَعْوَافِ مَسَاحَةِ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ بِأَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى؟

٢١- يَلْبَسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ثِيَابًا مِنَ الْحَرِيرِ الرَّقِيقِ أَخْضَرَ اللَّوْنِ، تَعْلُوهُ طَبَقَةٌ أَوْ طَبَقَاتٌ أُخْرَى مِنَ الْحَرِيرِ النَّخِينِ وَالْمَزْرَكَشِ، وَيُجَلَّى أَهْلُ الْجَنَّةِ بِأَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ لِتَكْمِيلِ زِينَتِهِمْ وَزِيَادَةِ جَمَالِهِمْ، وَيَمُنُّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِشَرَابٍ بَالِغِ الطَّهَارَةِ، يُطَهِّرُ أَجْسَامَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ.

٢٢- كل هذا النعيم لأهل الجنة جزاء إيمانهم وطاعتهم لله في المنشط والمكروه، ومكابدتهم في الدنيا وهم يستحقون الشكر على ما بذلوا وضحَّوا وتحَمَّلوا، وما أعظمه من جزاء، وما أروع من شكر!!
الفوائد والاستنباطات:

١- النَّذْرُ: هو التزام المرء القيامَ بطاعة زيادة على الفريضة، وهو نوعان: النوع الأول بلا شرط وهو مستحب، والنوع الثاني يكون فيه العمل الصالح في مقابل أمر كشفاء مريض، أو انفراج كرب، أو حصول مأمول. وهذا النوع مكروه؛ لِتَمَّا فيه من اشتراط حصول نعمة في مقابل القيام بعمل صالح؛ ولذا نهى عنه رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَسْتَخْرِجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ». (رواه البخاري في كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، ومسلم في كتاب النذر، باب النهي عن النذر).

٢- وَصِفَتْ أَحْدَاثُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي آيَتَيْنِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالشَّرِّ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ والمقصود بالشر فيهما الشدائد والأحوال التي تحصل فيه، وَسُمِّيَتْ شَرًّا مِنْ بَابِ التَّوَسُّعِ. (التفسير الكبير، الفخر الرازي ٣٠/٢٤٧).

٣- وَصِفَتْ أَسَاوِيرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِأَنَّهَا مِنْ فِضَّةٍ، وَوَصِفَتْ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ بِأَنَّهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَوَصِفَتْ فِي سُورَةِ فَاطِرٍ بِأَنَّهَا مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤٍ، وَيَجْمَعُ بَيْنَهَا بِأَنَّهَا يُجَلَّوْنَ بِصِنْفِ تَارَةٍ، وَبِصِنْفِ آخَرَ تَارَةٍ أُخْرَى، وَقَدْ يَجْمَعُونَ بَيْنَ صِنْفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

٤- لَمْ يَطْلُبِ الْأَبْرَارُ مِنَ الْخَلْقِ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ فَمَنْ أَلَّفَهُمْ جَزَاءً وَشُكْرًا مِقَابِلَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾.

٥- بَدَأَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِذِكْرِ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَخُحِّمَتْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ أَرْوَعٌ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ، وَلِشِدَّةِ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَيْهِ، وَكَثْرَةِ تَلَهُّفِهِ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَا يَصْبِرُ عَلَى فَقْدِهِ، كَمَا يَصْبِرُ عَلَى فَقْدَانِ الطَّعَامِ.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُحْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ نَذِيرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٣-٢٤- إننا - لما لنا من القدرة العظيمة - نزلنا عليك - أيها الرسول - القرآن الكريم مفرقاً حسب الحوادث والملابسات، فاصبر - أيها الرسول - على كفرهم، واحتمل أذاهم، ولا تستجب لما يدعوك إليه من ترك الدعوة أو التنازل عن بعض الثوابت من كان منهم غارقاً في الإثم، أو مؤغلاً في الكفر والعناد.

٢٥-٢٦- واملأ وقتك بذكر الله تعالى، والتقرب إليه بالأعمال الصالحات، وحُصَّ الليل بمزيد من الطاعة والتقرب، فأكثر فيه من التسبيح والسجود فإنه مَظَنَّةٌ حضور القلب والخشوع وإجابة الدعاء.

٢٧-٢٨- ولا تأبه بمن كذَّبك وكفر بك، فإنهم منغمسون بتفضيل الدنيا على الآخرة، غير مباليين ولا مؤمنين باليوم الآخر، وهو يومٌ ثَقِيلٌ لما فيه من أحداث عظام، وأهوال جسام، وهم غافلون عن خالقهم الذي أوجدهم من العدم بقدرته، وأحسن خَلَقَهُمْ، ومكَّنَهُمْ من مزاولة الأعمال، وهو القادر سبحانه على إهلاكهم وتبديلهم بخلق آخرين يطيعونه إن شاء ذلك، إلا أن حكيمته اقتضت أن يُمهّل خلقه، ولا يُعَجِّلَ بالعقوبة.

٢٩-٣٠- إن هذه الآيات المنزلة على الرسول الكريم فيها موعظة للخلق أجمعين، فمن أراد سلوك طريق الخير والهداية أخذ بالأسباب الموصلة إليه، وأطاع ربه، واستجاب لأمره. وهذه المشيئة لا يمكن أن تصدر من الإنسان إلا أن يشاء الله ذلك، فهو سبحانه الخالق ومقدر الأمور في هذا الكون، وكل مشيئة من الخلق تابعة لمشيئته المطلقة، وقد سبقت مشيئة الله سبحانه بدعوة عباده إلى طاعته والتقرب إليه. وهو سبحانه عليم بأحوال عباده حكيم في تقديره وأمره.

٣١- يُدْخِلُ سبحانه في رحمته وجنته من يستحق ذلك، وهم المؤمنون من عباده، أما الظالمون فقد أعدَّ لهم عذاباً أليماً يستحقونه جزاءً على فعلهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - لنزول القرآن الكريم مفرقاً منجماً حكماً عديدة منها: تثبيت قلب النبي ﷺ، والتدرج في تعليم القرآن، وتربية الصحابة، وموافقة الحوادث والوقائع.
- ٢ - مقاومة ما يحصل من أعداء هذا الدين من إلهاء وصد عن سبيل الله لا ينبغي أن يُشغِل المؤمن عن الذكر والعبادة.
- ٣ - في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِغْ بِتَنَمُّنِهِمْ إِنَّمَا اتَّكُفُّورًا﴾ جمع بين الآثم والكفور. والفرق بينهما أن الآثم هو المُقَدِّم على المعاصي أياً كانت، والكفور هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفوراً. (التفسير الكبير، الفخر الرازي ٣٠/٢٥٩).
- ٤ - النصُّ على تخصيص وقت الليل بالعبادة والسجود والتسبيح، دليلٌ على فضيلة العبادة في هذا الوقت؛ لما فيه من صفاء النفس وسمو الروح، واستحضار الخشوع، والقرب من الله تعالى.
- ٥ - وَصَفُ الدنيا بالعاجلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَمِجَالَةٌ﴾ تعريض بحماقة مَنْ يُؤَثِّرُهَا إذ رَضُوا بالدُّنُونِ لآثِهِ عَاجِلٍ، وليس ذلك من شيم أهل التبصر. (التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩/٤٠٨).
- ٦ - من الأدلة على أن القرآن كلام الله: كَشَفُهُ لِحَفَايَا النَفُوسِ، وما تُخْفِي القلوب، فهو سبحانه العالم بذات الصدور، ولا يُخْفِي عليه من أحوال خلقه شيء.
- ٧ - المشيئة المطلقة في هذا الكون لله سبحانه، وأيُّ مشيئة لأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ تابعة لها، ولا يمكن أن تقع إذا خَالَفَتْهَا ولم تُدْرُ في فلکها. والمقصود هنا المشيئة الكونية لا الشرعية.
- ٨ - تُعَدُّ سورة الإنسان مبيّنة لسورة القيامة، فسورة القيامة أكدت حصول اليوم الآخر، وسورة الإنسان بيّنت ما يكون في هذا اليوم، وما أعدَّ الله فيه لِصِنْفِي النَّاسِ: الكفار والأبرار، كما أنّها تذكر الطريق للنجاة يوم القيامة.

النزول: مكة.

فضل السورة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها أنها سمعته يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾، فقالت: يا بُنَيَّ لقد ذكّرْتَنِي بقراءتك هذه السورة إنّها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. (رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح).

المقاصد:

١ - إقامة الحجج والبراهين على إثبات وقوع يوم القيامة والحساب.

٢ - تربية النفس على الخوف والخشية من الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ١ ﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا﴾ ٢ ﴿وَالنَّشِيرَاتِ فَشْرًا﴾ ٣ ﴿فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا﴾ ٤ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ٥
عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ٦ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ٧ ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ٨ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ٩ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ ١٠
﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْقِذَتْ﴾ ١١ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ ١٢ ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ١٣ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ١٤ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ١٥ ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأُولَيْنِ﴾ ١٦ ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾ ١٧ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ١٨ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ١٩ ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ٢٠ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ٢١ ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ٢٢ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ٢٣
﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٢٤ ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ٢٥ ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ ٢٦ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِخَاتٍ﴾ ٢٧
﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فَرَاتًا﴾ ٢٨ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ٢٩ ﴿﴾

التفسير:

١-٢- يُقْسِمُ اللهُ سبحانه بالرياح التي تهبُّ متتابعةً بيُسْرٍ وسهولة، وينتفع بها الخلقُ جملةً من المنافع، ويُقسِمُ سبحانه بالرياح العاصفة التي تُهْلِكُ المكذِّبين، وتُوَدِّي إلى التدمير والتغيير.

٣-٧- ويُقسِمُ سبحانه بالملائكة التي تنشر أجنحتها وهي خاضعةٌ لأمر الله منقادة له، وتفرّق بين الحق والباطل، والخير والشر، وتُلقي الذِّكْرَ إلى الرسل، وتبلغه كما أمرت، وهذا الوحي فيه إعداؤٌ من الله لخلقهم؛ لئلاً يبقى لهم حجة، وفيه إنذار لهم من نقمة الله وعذابه، أقسم بما سبق على أن الذي توعدهم من حصول يوم القيامة حاصل بلا ريب.

٨-١٥- ثم يَبْرَسُ سُبْحَانَهُ بِعَظْمِ أَحْدَاثِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، إِذْ تَزُولُ النُّجُومُ وَيَذْهَبُ صَوْنُهَا، وَتَنْشَقُّ السَّمَاءُ وَتُفْتَحُ أَبْوَابُهَا، وَتَنْطَايِرُ الْجِبَالُ فَلَا يَبْقَى لَهَا وَجُودٌ وَلَا أَثَرٌ. وَيُفْصَلُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ فِي وَقْتٍ مُّحَدَّدٍ مِنْ أَوْقَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَتَمَّ تَأْجِيلُ الْفَصْلِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَمَّهْمُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ، وَيَحَاسِبُ اللَّهُ فِيهِ الْعِبَادَ، فَنَاسَبَ الْفَصْلَ فِيهِ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَمِنْهُ الْفَصْلُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَفِي ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ، فَإِنَّهُ يَوْمُ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلْقِ جَمِيعاً وَالْجِزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَفِيهِ عَذَابٌ شَدِيدٌ مُؤَلَّمٌ مَهِينٌ لِمَنْ كَذَّبَ بِاللَّهِ وَرَسَلَهُ.

١٦-١٩- يقرر سبحانه أنه أهلك الأمم السابقة كقوم نوح وعاد، وأهلك أقواماً أتت بعدهم تبعثهم بالكفر والتكذيب كقوم لوط وشعيب. ومثل هذا الإهلاك يُهْلِكُ اللَّهُ كُلَّ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَسَارَ فِي رِكَابِ الْمَجْرِمِينَ الْمَعَانِدِينَ لِلْحَقِّ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِزَاءَ كُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ. وَفِي هَذَا الْإِخْبَارِ وَعِيدٌ وَتَخْوِيفٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ، وَلَمْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ وَاهْتَدَى.

٢٠-٢٤- هذا تذكير بأصل الخلق؛ للاستدلال به على قدرة الله وعظمته، فإنه سبحانه خلق الإنسان من ماء مستقذر وهو النطفة، إذ يلتقي بالبويضة في الرحم، الذي جعله الله مُهَيَّأً لِحُصُولِ الْحَمْلِ، فَفِيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجَنِينَ مِنْ حِمَايَةٍ وَغِذَاءٍ وَرَاحَةٍ، إِلَى أَنْ تَتِمَّ مَدَّةُ الْحَمْلِ الْمَحْدَدَةِ فِي عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَقَدَّرَ أُمُورَ الْخَلْقِ بِقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يَعْجِزُهَا شَيْءٌ. وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ لِمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يَرَى آثَارَ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَتَكْوِينِهِ.

٢٥-٢٨- إن الله سبحانه جعل الأرض مُهَيَّأَةً مُدَلَّلَةً لِلْبَشَرِ، يَعِيشُونَ عَلَيْهَا، وَيُدْفَنُونَ فِي جُوفِهَا، فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ الْكَبْرَى لِجَمِيعِ بَنِي الْإِنْسَانِ، ظَاهِرُهَا لِأَحْيَائِهِمْ، وَبَاطِنُهَا لِأَمْوَاتِهِمْ، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهَا الْجِبَالَ الْعَالِيَةَ الَّتِي تَحْمِيهَا مِنْ أَنْ تَنْزَلِقَ أَوْ تَضْطَرِبَ، فَهِيَ الْأُوتَادُ لَهَا، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَوْجَدَ الْمَاءَ الْعَذْبَ لِشُرْبِ مَنْهُ الْإِنْسَانِ، وَيَسْقِي الْأَرْضَ، وَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَصَالِحِهِ. وَلَوْلَا الْمَاءُ لَهَلَكَ الْإِنْسَانُ، وَلَا تَنْتَهَتْ الْحَيَاةُ عَلَى الْأَرْضِ. وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ مَعَ تَوَافُرِ النَّعْمِ، وَرُؤْيِيَةِ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ.

الفوائد والاستنباطات:

١- تعدُّ سورة المرسلات مَبَيَّنَةً لِسُورَةِ الْإِنْسَانِ، الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْ جِزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَوْسِعٍ، وَعَنْ جِزَاءِ الْكَافِرِينَ بِإِيْجَازٍ، فَجَاءَ الْأَمْرُ مَفْصَلاً فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالتَّوَسُّعِ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جِزَاءِ الْكَافِرِينَ وَالْمُكْذِبِينَ، وَالِإِيْجَازِ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جِزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

٢- ينظر: صورة عصف الرياح، كما في الملحق.

- ٣- لما كان مدار هذه السورة على الوعيد والتهديد ناسب أن تُذكر فيها جملة ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، لما في ذلك من زيادة التخويف بالعذاب العظيم المُعَدِّ لِمَنْ كفر بالله وكذَّب بما أخبر به.
- ٤- ورد في هذه الآيات التذكير بأصل الخلق قبل التذكير بنعمة تذليل الأرض وتسخيرها؛ لأن النعم التي في الأنفس كالأصل للنعم التي في الآفاق، فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكناً. (التفسير الكبير، الفخر الرازي ٣٠/٢٤١).
- ٥- في ذِكْرِ مظاهر قدرة الله وإنعامه على خَلْقِهِ في هذه الآيات، دعوة للإيمان به، وشُكْرِهِ على نِعَمِهِ الكثيرة العظيمة.
- ٦- في القَسَمِ بالرياح دعوة إلى التأمل في هذا الخَلْقِ العجيب الذي يكون نعمة في حال ونقمة وهلاكاً في حال آخر، وهو من أعظم الأدلة على قدرة الله، وعظمته.
- ٧- وصفت الآية الكريمة الرحم بأنه قرار مكين، حيث هُمِّيَ هذا المكان لاستقبال الجنين من جميع الجوانب، ومن لحظة تكونه إلى لحظة ولادته، وهو محاطٌ بوسائل حماية عديدة منها عظام الحوض المحيطة به، وكونه في وسط الجسم تماماً. (الطب محراب للإيمان د. خالص جليبي ٢/٢٤١-٢٥١).
- ٨- ينظر: صورة الجبال، كما في الملحق.
- ٩- تقول الدكتورة حنان العوضي المتخصصة في علم البيولوجي: «إن الكائنات الحية الدقيقة وبخاصة البكتيريا تُلازمُ الجِثَّ الميتة ملازمة تامة، ممَّا يوضح بأن الذي يقوم بتحليل الجِثَّ هي كائنات حية تلازمها؛ لأنَّها هي التي أوكل إليها الله تحلُّلَ الجِثَّ للتخلص منها، وقد جاءت هذه الحقيقة كسابقة علمية، وَضَّحَ فيها سبحانه بأن هناك كائنات حية تُلازمُ الجِثَّ الميتة وتكفُّتُ - أي تضم - معها ضمًّا إلزامياً في باطن الأرض». (التحلل في علم الميكروبيولوجي: من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص ١٣).
- ١٠- ذُكِرَ في العلم الحديث أن الجبال تُسهم في تنقية الماء ممَّا علق به من فيروسات ومواد ملوثة في أثناء نزوله من الجو، وأن الماء النازل من السماء والعابر للصخور الموجودة في الجبال يمتزج ببعض المعادن والأملاح في تلك الصخور، ويكتسب الطعم المستساغ. وهذا ما عبَّرَ عنه البيان الإلهي بكلمة ﴿فَرَاتَا﴾.

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴿٣٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلَّةٍ شَعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِعْزَ ذُرُونٍ ﴿٣٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ أَفْصَلِ جَمْعُنَاكَ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهَ مَعَايِشَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوْا وَتَمَنَعُوا فَلَيْلًا إِنَّا نَحْمُرُونَ جَحْرُمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٩-٣١- انتقلت الآيات إلى الحديث عن بعض مشاهد يوم القيامة، إذ يوبخ الله تعالى المكذبين بيوم الدين: اذهبوا إلى جهنم، إذ يتشعب ظل دخانها إلى ثلاثة اتجاهات من كثرة وعظمتيه، وبسبب تفرقه لا يعود ظللاً يصلح للاحتواء به من لهب جهنم وحرها، فتسميته ظللاً من باب التهكم بهم.

٣٢-٣٤- ويتطير من جهنم قطع عظمة من النار بسبب شدة اتقادها وعظيم لهبها. هذه القطع من النار، بعضها يشبه القصر، وهو البناء العظيم في حجمها، وبعضها يشبه جبال السفن العظيمة، فإذا كان هذا حال الشرر المتطير من النار فكيف يكون حال النار؟ إِنَّ مَنْ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ مُسْتَحِقٌّ لِلْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ، وَأَشَدُّ الْعَذَابِ؟

٣٥-٣٧- يوم القيامة لا يتكلم الكفار، ولا يُسمح لهم بالاعتذار، وقد مضى وقت الإذن بذلك، وأعطي كل امرئ الفرصة للدفاع، والعذاب الشديد لمن لم ينفعه العذر، ومُنِعَ من الكلام؛ بسبب كفره في الدنيا.

٣٨-٤٠- يوم القيامة يفصل الله بين العباد، ويقضي بينهم بعذله، ويجمع الأولين والآخرين، فإن كان عند أحدٍ حيلة للخلاص والنجاة من العذاب فليفعل. وهذا الأمر من باب التعجيز والتوبيخ، إذ لا يمكنهم ذلك ولا يقدر عليهم، وهم مستحقون لأشد العذاب بما كفروا، وكذبوا.

٤١-٤٥- ثم انتقل الحديث إلى وصف حال أهل الجنة الذين اتقوا الله، والتزموا أمره في الدنيا، فهم في ظلال الأشجار الوارفة تحيط بهم عيون الماء الجارية، يتلذذون بأكل ما يشتهون من أصناف الفاكهة ونثار الجنة، ويقال لهم على سبيل التكريم: كُلُوا مَا شِئْتُمْ، واشربوا شراباً هنيئاً، فأنتم تستحقون ذلك؛

بسبب تقواكم لله، وخشيتكم من عذابه. فهذا الجزاء لكم مقابل حسن عملكم في الدنيا، أما الكافرون المكذَّبون فهم مستحقون للعذاب العظيم.

٤٦-٤٧ - تهديد ووعيد للكافرين، أن يأكلوا ما شاؤوا، ويتمتعوا قَدْرَ ما يستطيعون في حياتهم، فإنه زمن قليل إذ يوافيهم الأجل، فَيَقْطَعُ عنهم مُتَعَتَهُمْ، وهم لا يستحقون متعة أكثر من ذلك، فهم مجرمون معتدون، ولهم عذاب موجه في الآخرة.

٤٨-٤٩ - وكانوا في الدنيا إذا أمروا بطاعة الله والركوع له؛ تعظيماً لشأنه وتَدَلُّلاً له، يابون ذلك، ويرفضون الانقياد لأمر الله، فلهم عذاب شديد مقابل هذا الإباء والتكذيب.

٥٠ - إن لم يؤمن هؤلاء المكذَّبون بالقرآن، وما فيه من إثبات وجود الله وعظمته وقدرته، وإثبات البعث والحساب والجزاء، وما فيه من روعة البيان وجمال الأسلوب وجزارة المعاني ووجوه الإعجاز، فبأي شيء يؤمنون بعد ذلك؟ وهذا دليل على شِدَّةِ كفرهم وعنادهم، مع وضوح الحجة، وظهور البيِّنة، ودليل على عظمة هذا القرآن المعجز.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - في مقابل حرمان أهل النار من الظل يتمتع أهل الجنة بالظلال المتعددة، وكلُّ مَجْزِيٍّ بما يستحق.
- ٢ - يظهر التهكم في أمر أهل النار بالانطلاق إلى ظل غير ظليل لا يغني شيئاً ولا يمنع حرّاً، وهم مستحقون لهذا التهكم، فكم صدر منهم في الدنيا تَهْكُومٌ وسخرية، واستهزاء بالرسول وأتباعهم.
- ٣ - في تشبيه الشرر بالقصر تَهْكُومٌ بالكافرين؛ لأنَّ القَصْرَ موضع الأمن، وفيه إشارة إلى أن الكافر يُعَذَّبُ بما يَتَوَقَّعُ منه الأمن. (غرائب القرآن للنيسابوري ١٣٩/٢٩).
- ٤ - عَبَّرَتِ الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَعُونَ﴾ عن الصلاة بالركوع؛ لأنه من أهم أركان الصلاة، ولأن الركوع فيه تعظيم للرب حين ينحني العبد له.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير عقيدة البعث والحساب.
- ٢ - إقامة البراهين على قدرة الله تعالى.
- ٣ - بيان الفرق بين مصير المتقين ومصير الكافرين، وما يتحقق بذلك من الترغيب والترهيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

التفسير:

- ١-٣ - عن أي شيء يسأل المشركون؟ يتساءلون عن الخبر العظيم الشأن، وهو القرآن الكريم الذي يؤكّد وقوع البعث، وهم في ذلك يشكّون ويجادلون.
- ٤-٥ - ليس الأمر كما يُكذّب هؤلاء المُضِلُّون، سيعلمون عاقبة تكذيبهم، ثمّ سيتأكّدون ذلك يوم القيامة.

٦-١٦ - ألم تُقرّوا - أيها العباد - أنّنا جعلنا لكم الأرض منبسطة ومهيأة للسكن، والجبال ثوابت للأرض؟ وأنشأناكم وقدّرناكم - أيها الناس - أصنافاً ذكراً وأنثى؟ وجعلنا نومكم راحة لأبدانكم؟ وجعلنا الليل يغشاكم بظلامه، فيكون لكم كاللباس الذي يستركم؟ وجعلنا النهار المبصر وقتاً لطلب المعاش الذي تقوم به حياتكم؟ وبنيّنا فوقكم سبع سموات محكمة قوية البنيان، ليس فيها خلل؟ وجعلنا الشمس سراجاً مُضيئاً؟ وأنزلنا من السحاب مطراً غزيراً؟ لأجل أن نُخْرِجَ به الحبوب والثمار والبساتين ذات الأشجار الملتفة أغصانها بعضها على بعض.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان مظاهر القدرة والحكمة والرحمة الإلهية.
- ٢ - ثبت علمياً أنّ التغيّرات الأرضية تمّت بقدرة الله تعالى وأمره وأدّت إلى بناء القارات، ورفعها فوق مستوى البحار والمحيطات على هيئة مجموعات من منظومات وسلاسل، وأحزمة جبلية شاهقة، ظلّت يُضاف بعضها إلى بعض بانتظام وببطء؛ لتزيد من مساحة القارات التي كانت في بادئ الأمر جبلية وعرة، لا تسمح وعورتها بعمرانها، ثم بدأت عوامل التعرية في الأخذ من تلك الجبال الشاهقة بالتدريج حتى حوّلتها إلى السهول الواسعة، والهضاب والنُجود المنخفضة، والأودية المحفورة، والرواسخ الثابتة التي تُشكّل أواسط القارات اليوم حتى وصلت الأرض إلى صورتها المناسبة للعمران بواسطة الإنسان.
- ٣ - رحمته سبحانه بخَلْقِهِ في توقيت وقت معين لنومهم وراحتهم، ووقتٍ لطلب معاشهم.
- ٤ - يقول الخبراء: إنّ المعصرات هي مجموعة من السحب الطباقية والركامية التي تُشحن شحناً كبيراً ببخار الماء وقطراته، والتي تحدثها الأعاصير المدارية التي تتكون فوق مساحات شاسعة من الماء في البحار والمحيطات، أو الدوَّامات الهوائية التي تتكون فوق اليابسة على هيئة سحب طباقية، أو تساق ببطء حتى تتألف وتتجمع، ثم تُركمُ إلى أعلى لتُكوّنَ السحب الركامية التي ترتفع إلى ما يزيد على (١٥) كيلاً، المشبعة بالماء (المعصرات) مهياًة لإسقاط المطر الغزير (الثَّجَّاج)، والذي قد يستمر في السقوط عدة أيام دون انقطاع. (<http://www.ahram.org.eg/archive/2002/7/8/OPIN8.HTM>). وينظر: صورة هطول الماء الثَّجَّاج، كما في الملحق.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغِينِ مَقَابًا ﴿٢٢﴾ اللَّيثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

التفسير:

١٧-٢٠- إن يوم القيامة الذي يفصل فيه بين الظالم والمظلوم من الخلائق كان وقتاً محدداً للخلق أجمعين، يوم ينفخ الملك في القرن إيداناً بالبعث، فتجيئون أمماً وزُمرأً، وشققت السماء فكانت طرقات وأبواباً، وقلعت الجبال فصارت سراباً مثل كثران الرمل.

٢١-٢٦- إن نار جهنم تنتظر، وترقب نزلاءها الذين اقترفوا الجرائم حتى بلغوا الكفر، ماكين فيها دهوراً إلى الأبد، لا يذوقون ما يُبرّد شدة الحرّ عنهم، ولا شراباً يزوي عطشهم، إلا ماءً شديد الحرارة، وصديد أهل النار المُنتن، يُجازون بذلك جزاء عادلاً موافقاً لأعمالهم الخبيثة.

٢٧-٣٠- إنهم كانوا لا يتوقعون الحساب، وجحدوا بآياتنا المسموعة والمشاهدة جُحوداً عنيداً، وكلّ شيء علمناه وكتبناه عليهم، فذوقوا - أيها الطغاة - من عذاب النار، فلن نزيدكم إلا عذاباً فوق عذابكم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- من أمارات يوم القيامة ومظاهرها النفخ في الصور؛ لبعث من في القبور.
- ٢- التنديد بالطغيان، وبيان جزاء الظالمين.
- ٣- التنديد بالتكذيب بالبعث والمكذبين به.
- ٤- الجزاء في الآخرة عادل في تقدير الأعمال، فمن أحسن فله الجزاء الحسن، ومن أساء فله الجزاء السيئ.
- ٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر آثارها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسَادَ هَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣١-٣٧- إنَّ للذين يخافون الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، فوزاً عظيماً بدخولهم الجنة التي فيها حدائق حافلة بالأشجار والأعنان، ولهم زوجاتٌ حديثات السن قد استدار نُؤدِهِنَّ، ولهم كأس مملوءة خمرًا زكيةً، ولا يسمعون في الجنة قولاً باطلاً ولا آثماً. كلُّ ذلك الثواب يُقدِّره اللهُ للمتقين؛ فضلاً منه سبحانه، ومقابل أعمالهم الصالحة. إِنَّه رَبُّ السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما، الرحمن بعباده في الدنيا والآخرة لا يملكون أن يسألوه إلا فيما أذن لهم فيه.

٣٨-٣٩- يومَ القيامة يقوم جبريلُ عليه السلام والملائكةُ مُصطفَّين، لا يتكلمون ولا يشفعون إلا لمن أذن الله الرحمن له في الشفاعة، وقال صواباً من القول، وأصوبه: هو كلمة لا إله إلا الله. ذلك اليوم العظيم الحق الذي لا شك فيه، فمن أراد منكم - أيها العباد - النجاة في ذلك اليوم، فليتخذ إلى ربه مرجعاً بالمبادرة في الأعمال الصالحة.

٤٠- إننا - لما لنا من العظمة والقدرة - حدَّرتناكم عذاباً قد قرب منكم، يوم ينظر كلُّ عبد ما عمِلَ من خير أو شرٍّ، ويقول المكذِبُ بالله، ويتَحَسَّرُ الكافر يومئذٍ، ويتمنى أن يكون تراباً فلم يُبعث، ولكن هيهات.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- بيان فضل التقوى، وما للمتقين الأبرار من الكرامة عند الله.
- ٢- دَمُّ الكذبِ واللغو، وأهلها.
- ٣- للعبد فرصة في الدنيا ليتخذ طريقاً إلى الله، وذلك بعبادته وتوحيده وطاعته؛ ليكون له دُخْرًا في يوم الفصل بين الخلائق.
- ٤- الترغيب في العمل الصالح، واجتناب العمل السيِّء الفاسد.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تقرير عقيدة البعث والحساب.
- ٢ - الإيذان بأصناف الملائكة.
- ٣ - تسلية نبينا رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّزِعَاتِ غَرَقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّيِّحَاتِ سَبًا ۝٣ فَالسَّيِّغَاتِ سَبًا ۝٤ فَالْمُدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا مَخْرَجَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤ ﴾

التفسير:

١-٧- يُقَسِّمُ اللهُ تَعَالَى خَمْسَةَ أَقْسَامٍ عَظِيمَةٍ: بِالمَلَائِكَةِ الَّتِي تَنْزِعُ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ بَعْنَفٍ، وَبِالمَلَائِكَةِ الَّتِي تَقْبِضُ أَرْوَاحَ المُؤْمِنِينَ بِلُطْفٍ وَسَهُولَةٍ، وَبِالسَّابِحَاتِ مِنَ المَلَائِكَةِ، وَالنَّجُومِ وَالسُّفُنِ، وَغَيْرِهَا مِنَ المَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَسْبِغُ فِي الفِضَاءِ وَالمِياهِ، وَبِالمَلَائِكَةِ الَّتِي تَسْبِقُ غَيْرِهَا فِي مُهَيِّمَاتِهَا، وَبِالمَلَائِكَةِ المُدَبِّرَةِ الَّتِي أَمَرَتْ مِنَ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى، لِتُبْعَثَنَّ وَتَحَاسِبَنَّ يَوْمَ تَنْزَلُزِلُ الأَرْضُ، فَتَمُوتُ البَشَرِيَّةُ بِالنَّفْخَةِ الأُولَى، ثُمَّ تَتَّبِعُهَا نَفْخَةٌ أُخْرَى لِبَعْثِ المَوْتَى مِنَ قُبُورِهِمُ أَحْيَاءً.

٨-١٠- قُلُوبُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ خَائِفَةٌ وَهِيَ قَدْ خَرَجَتْ مِنَ القُبُورِ، وَأَبْصَارُهُمْ ذَلِيلَةٌ مِنَ ذَلِكَ المَوْقِفِ.

١١-١٢- يُنْكِرُ المُكذِّبُونَ بِالبَعْثِ حَيْثُ قَالُوا: أُنرْجِعُ إِلَى الحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ نَمُوتَ، وَنَدْفِنُ تَحْتَ التُّرَابِ؟ هَلْ نَرْجِعُ إِلَى الحَيَاةِ وَقَدْ صِرْنَا عِظْمًا مُفْتَتَةً؟ تِلْكَ الرِّجْعَةُ البَعِيدَةُ الوُقُوعِ لَا خَيْرَ فِيهَا.

١٣-١٤- لَا تَحْسَبُوا الرِّجْعَةَ بَعِيدَةً، فَإِنَّمَا هِيَ صَيِّحَةٌ وَاحِدَةٌ، فَإِذَا هُمْ فَجْأَةً أَحْيَاءٌ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يُقَسِّمُ اللهُ بِمَا يَشَاءُ مِنَ مَخْلُوقَاتِهِ، بِخِلَافِ العَبْدِ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقْسِمَ بِغَيْرِ رَبِّهِ تَعَالَى.
- ٢ - وَظَائِفُ المَلَائِكَةِ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْهَا: قَبْضُ الأَرْوَاحِ، وَتَنْفِيزُ أوَامِرِ اللهِ، وَتَدْبِيرُ الكَوْنِ بِإِذْنِ اللهِ.

- ٣- بيان أن روح المؤمن تُنزع عند الموت نزعاً سريعاً، لا يجد من الألم ما يجده الكافر.
 ٤- الإشارة إلى الاستعداد للموت، فسبحانه من قهر عباده بالموت وكفى بالموت واعظاً.
 ٥- جهل المشركين وسفاهتهم في إنكارهم للبعث.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ تَكَالُفِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير:

١٥-١٩- يُشَوِّقُ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: هَلْ أَتَاكَ خَبْرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ سَبْحَانَهُ فِي وَادِي

«طوى» المطهر؟

فقال لموسى: اذهب إلى فرعون مصر إنه قد تجاوز الحد في الفساد والتكبر، فقل له: هل ترغب أن تُطهر نفسك من رجس الكفر، وأرشدك إلى طاعة ربك فتخشاه؟

٢٠-٢٥- فأظهر موسى ﷺ لفرعون الحجة الكبرى بالعصا واليد الدالة على صدق رسالته، فكذب فرعون، وخالف أمر الله تعالى، ثم أعرض عن الإيمان، ومضى يسمي في الفساد، فجمع قومه وأتباعه، ونادى فيهم بغرور وكيد قائلاً: أنا ربكم الأعلى. فانتقم الله منه في الدنيا بالفرق، وفي الآخرة سيُعذب بالحرق.

٢٦- إن في ذلك العذاب العظيم لموعظة حقاً لمن يخاف عقاب الله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تسلية الله لرسوله محمد ﷺ بأن رسول الله موسى ﷺ قد عانى قبله من فرعون.
- ٢- منهج الله في الدعوة اللين في القول، واللطف في المعاملة؛ لتأليف القلوب.
- ٣- دعوة الله لرسوله ﷺ إلى الصبر على معاناة قومه حتى يحين الأجل الذي حدده الله لنصره عليهم.
- ٤- إثبات كلام الله لموسى ﷺ.
- ٥- إن الله عذب فرعون عذابين: عذاباً لادعائه الألوهية، وعذاباً لادعائه الربوبية.
- ٦- وجود المعجزات لا يستلزم الإيمان، فقد رأى فرعون أعظم الآيات كالعصا واليد، ولم يؤمن.
- ٧- التنديد والوعيد الشديد لمن يدعي الربوبية والألوهية، فيأمر الناس بعبادته.

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ حَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بِنَاهَا ﴿٣٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٣٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٤٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٤١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٤٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٤٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٤٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمَةُ لِمَنْ بَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٤٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٤٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٥٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٥١﴾ يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٥٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَاهَا ﴿٥٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَبَاهَا ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا ﴿٥٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّعْتَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٥٦﴾﴾

التفسير:

٢٧-٣٣- يُنكر الله تعالى على المكذبين بالبعث مُوَبِّحًا لهم: أنتم - أيها العباد - في تقدير كم أصعب إيجاداً، أم خَلَقُ السماء أشدُّ؟ إِنَّه بناها بإحكام: جعلها عالية البناء، معتدلة الأرجاء، وجعل ليلها مظلماً، ونهارها مضيئاً، والأرض بعد خلق السماء بسطها، أخرج من باطن الأرض ماءها، وأنبت فيها الكلا، وأنبت فيها الجبال لئلا تتحرَّك. وكلُّ هذه النعم منقعة لكم ولأنعامكم مدَّة من الزمن.

٣٤-٣٦- فإذا جاءت القيامة الكبرى التي تتضمن كلَّ هائلة من الأمور، فتغمر سواها بأهوالها، حينئذ يُعْرَضُ على الإنسان كلُّ عمله من خيرٍ وشرٍّ فيتذكَّره ويقرِّبه، وحيء بجَهَنَّمَ، فأظهرت ليراها العباد.
٣٧-٤١- يُذَكِّرُ الله بمصير الفريقين، فأما مَنْ تجاوز الحدَّ، فتكَبَّرَ حتى كفر، وقَدَّمَ متاع الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، فَإِنَّ نار الجحيم هي مستقرُّه، وأما مَنْ خاف القيام بين يدي ربِّه للحساب، وكفَّ نفسه عمَّا ترغب فيه من المعاصي، فَإِنَّ الجنة هي مُسْتَقَرُّه.

٤٢-٤٦- يسألك المشركون - أيها الرسول - ساخرين عن وقت قيام الساعة: متى وقوعها؟ ليس عِلْمُهَا إليك حتى تَذَكَّرَهَا لهم، إلى ربِّك مرجع علم وقوعها، ما واجِبُكَ إلا إنذار مَنْ يخاف القيامة، كأنهم يوم يُشاهدون القيامة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- فَضَّلَ الله على عباده بما هيأ لهم من المنافع والأسباب في حياتهم . وما بيَّنه من الأحكام والبراهين.
- ٢- أثبتت الدراسات الفلكية أن لمحور دوران الأرض عدداً من الحركات التي تستغرق أوقاتاً مختلفة يبلغ أقصرها عشرة أيام، ويبلغ أطولها ١٨.٦ سنة من سِنِينَا. (آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٢١٧-٢٣٠).

- ٣- ثبت أنّ كل الماء على سطح الأرض قد اندفع من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وتنقسم خزانات الماء تحت سطح الأرض إلى نوعين رئيسيين كما يلي:
- أ- خزانات ماء مالحة أو شديد الملوحة، وهذا الماء المالح عادة يكون في أعماق بعيدة من سطح الأرض، ومن أمثلته الماء المصاحب للنفط في مكانه.
- ب- خزانات ماء قليل الملوحة إلى متوسط الملوحة: وهو ماء متجمع من ماء المطر النازل من السماء.
- (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، الصفحات ٤٥١-٤٦٨).
- ٤- سوء عاقبة الطغاة الذين آثروا شهوات أنفسهم، ونسوا أمر ربهم.
- ٥- حسن عاقبة المؤمنين الذين منعوا أنفسهم من أهوائها وشهواتها.
- ٦- اختصَّ الله وحده بعلم الساعة.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - إقامة البراهين الدالة على قدرة الله تعالى.
- ٢ - الترهيب من أهوال يوم القيامة.
- ٣ - بيان اهتمام النبي ﷺ بدعوته لقريش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ، تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا نَذِيرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾ ﴾

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزل: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ويُقبل على الآخر ويقول: أترى بما تقول بأساً، فيقال لا، ففي هذا أنزل. (أخرجه الترمذي في السنن ٤٣٢/٥ - كتاب التفسير، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وأخرجه ابن حبان وصححه الأرنؤوط (الإحسان ٢/٢٩٣-٢٩٤ برقم ٥٣٥)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في المستدرک ٢/٥١٤).

التفسير:

١-٢- يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى العناية بالضعفاء، بعتابه النبي ﷺ حين جاءه الصحابي الأعمى عبدالله بن أم مكتوم ﷺ قبل إسلامه يقول: يا رسول الله، أرشدني. وكان الرسول ﷺ مُنْشَغَلًا بدعوة بعض زعماء قريش إلى الإسلام، فعبس رسول الله ﷺ، وأعرض عن ابن أم مكتوم.

٣-٤- وما يُعْلِمُكَ - أيها الرسول - لعلَّه يارشادك له يتطهر بهدى الإسلام، أو يتعظ بقولك، فتنفعه الموعظة؟

٥-٧- أَمَّا مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ غَنِيًّا عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ فَأَنْتَ تَعَرَّضَ لَهُ، وَأَيُّ شَيْءٍ سَيَلْحَقُكَ إِذَا لَمْ يُسَلِّمْ هَذَا

الكافر؟

٨-١٠- وأما هذا الأعمى الذي جاءك بحجْدٍ وعزيمة وهو يخشى الله، فأنت تشغل عنه.
 ١١-١٦- حقاً إنَّ هذه الآيات موعظة لِمَنْ أراد أن يتذكَّر، فمَنْ أراد من عباد الله أن يتعظ بآيات القرآن حصل له ذلك، وهذا مكتوب في صحف شريفة رفيعة القدر، مُطَهَّرة من كلِّ نقص وذنس، كُتِبَ بأيدي رسل الله من الملائكة الأخيار المطيعين لله.

١٧-٢٢- دعاء على الإنسان الكافر باللعن والطرْد من رحمة الله على شدَّة جحوده بِنِعْمِ الله، أَيْقُرُّ من أيِّ شيء خلقه الله؟ خَلَقَهُ من مَنِيٍّ، فَقَدَّرَهُ بعد ذلك أطواراً في الخلق، ثُمَّ سَهَّلَ الله له الخروج من بطن أمه، ثُمَّ بعد بلوغ رشده بَيَّنَّ له طريق الخير والشرِّ، ثُمَّ بعد الحياة حكم عليه بالموت، وأمر بدفنه في القبر، ثُمَّ إذا شاء أحياه وَبَعَثَهُ للحساب.

٢٣- ليرتدغ هذا الكافر، فَإِنَّهُ لم يُؤَدِّ أوامر الله التي أنزلها على رسوله ﷺ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- العظيم مَنْ كان في ميزان الله عظيماً، وليس العظيم مَنْ كان في موازين الناس عظيماً.
- ٢- عتاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عتاباً لطيفاً، تعليماً لأُمَّته في وجوب المساواة بين الناس، وأنَّ دين الإسلام دين العدل.
- ٣- بيان مقام النبي ﷺ وأَنَّهُ أشرف مقام وأسماء، دَلَّ على ذلك أسلوب عتاب الله تعالى له، فقد خاطبه في أسلوب شخص غائب حتى لا يواجهه بالخطاب فيؤلمه، فتلطف معه.
- ٤- أمانة رسول الله ﷺ حين بَيَّنَّ عتاب ربِّه له كما نزل عليه، دون زيادة أو نقصان.
- ٥- مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والتبليغ، وليست مهمته إجبار الناس على الإيمان.

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۚ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضْنَا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَجْهَهَا لِيُنَظَّرَ (٢٩) وَحَدَّيْنَاهَا حُدًّا (٣٠) وَنَحْنُ أَكْبَرُ (٣١) مَنْعًا لِّكُرِّهِمْ لِأَتَعْمِكُوا (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمْرٌ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُعْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ (٤٢) ۝﴾

التفسير:

٢٤-٣٢- فليتنامّل البشرُ شأن طعامهم كيف دَبَّرناه ويسرناه؟ إننا أنزلنا المطر الغزير من السماء، ثُمَّ شققنا الأرض بالنبات شقًّا، فأبنا في هذه الأرض الحبوب والأعشاب والأعلاف والزيتون والنخيل،

وبساتين ذات أشجار ضخمة بظلالها وأوراقها، كريمة بثمارها وخيراتها، تنتفعون بها أنتم وأنعامكم مدة من الزمن.

٣٣-٣٧- فإذا جاءت الصيحة الشديدة يوم القيامة التي تَصُكُّ الأذان، يوم يهرب المرء من إخوانه وأبويه وزوجته وأبنائه؛ لأنَّ لكلِّ واحد منهم همًّا وغمًّا يشغله عن غيره.

٣٨-٤٢- في هذا اليوم ينقسم العباد إلى فريقين: فريق قد أضاء وجهه، وضحك من فرحه بما سيلقاه من النعيم، وفريق قد اسودَّ وجهه وغشيتة الذلَّة والكآبة بما سيَصِلُاه من نار الجحيم. أولئك البعداء عن رحمة الله هم الذين جحدوا النعم والآيات، وارتكبوا الجرائم والسيئات.

الفوائد والاستنباطات:

١- طعامُ الإنسان نعمة من الله تعالى وآية عظيمة تدل عليه سبحانه ، فقد ذكرت الآيات أهم النباتات التي تُكوِّن الطعام الرئيس لكل من الإنسان وأنعامه:

أ- فكلمة ﴿جَبَّأً﴾ تشمل جميع أنواع الحبوب من ذوات الفلقة الواحدة، وتسمى (العائلة النجيلية)، وهي أهم عائلة نباتية بالنسبة لكل من الإنسان والحيوانات الآكلة الأعشاب كالأنعام.

ب- ﴿وَعَبَّأً﴾ يشير إلى رتبة كاملة من نباتات الثمار المهمة هي رتبة العنبايات.

ج- ﴿وَقَضْبًا﴾ إشارة إلى العائلة البقولية، وهي ثاني أكبر عائلة نباتية بذرية يعتمد عليها كل من الإنسان وأنعامه في طعامه.

د- ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾: يشير إلى عائلتين من أهم العائلات النباتية هما العائلة الزيتونية، والعائلة النخيلية.

هـ- ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾: تشمل الغالبية الباقية من أنواع النباتات، وبخاصة نباتات الظل، والزينة،

والأخشاب. (مقالات الدكتور زغلول النجار، ص ٦٨٠).

٢- الاستدلال بالصنعة على الصانع، وأن أثر الشيء يدل عليه.

٣- من نِعَمِ الله على خَلْقِهِ: تيسير سبل الحياة. ودعوته للنظر والتأمل في نعم الله عليه.

٤- بيان شدة الهول يوم القيامة.

٥- ثمرة الإيثار والتقوى تظهر في الموقف نوراً على الوجه وإشراقاً له وإضاءة، وعاقبة الكفر والفجور

تظهر ظلمة وسواداً على الوجه وغباراً.

النزول: مكية.

فضل السورة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا
الْشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾». (أخرجه الإمام أحمد، المسند ٣٦/٢، وأخرجه
الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤/٥٧٦) وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٣/٧٠ برقم ١٠٨١).

المقاصد:

- ١ - بيان أهوال يوم القيامة.
- ٢ - تقرير الوحي والرسالة.
- ٣ - دعوة المشركين وترهيبهم من أهوال يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤﴾
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ٨﴾
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ١٣﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ١٤﴾

التفسير:

١-٦- يعظ الله تعالى العبادَ بالأهوال التي تطرأ على المخلوقات العظيمة يوم القيامة؛ ليستعدوا إلى
الحساب لنيل العقاب أو الثواب، وذلك في الآيات الأربع عشرة التالية: إذا الشمس فقدت ضوءها، وإذا
النجوم تساقطت وتغيرت، وإذا الجبال نُسفت وتحوّلت إلى هباءٍ متناثر، وإذا النُّوق الحوامل التي بلغت
الشهر العاشر من حملها قد تركت، وإذا الحيوانات البرية التي تنفر من الإنسان قد خرجت من أوكارها
وجحورها وجمعت كلها، وإذا البحار أوقدت بالنيران فذهب ماؤها.

٧-١٤- وإذا النفوس قُرنتُ بأمثالها: المؤمن مع المؤمن، والمنافق مع المنافق، وإذا البنت البرينة المدفونة
وهي على قيد الحياة سُئلت: ما الجريمة التي فعلتها حتى يدفنك أهلك؟ - وفي ذلك جبرٌ لخطورها

وإنصاف لها وتقريع للذي دفنها -، وإذا صحف أعمال العباد فُتحت لتُقرأ، وإذا السماء تحوّلت من مكانها، وإذا نار الجحيم أُوقدت، وإذا الجنة قربت من أهلها، إذا وقعت هذه الأهوال عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - إن في قيعان المحيطات والبحار شبكة هائلة من الصدوع تتركز عند مرتفعات وسط المحيط حيث يندفع منها اللافا البازلتية في درجات حرارة عالية تصل إلى ألف درجة مئوية فتظهر كأنها كتل من النيران الهائلة تحت سطح الماء، حيث إن الماء لا يستطيع أن يطفى جذوتها ولا الحرارة على شدتها تستطيع أن تبخر الماء لكثرتة. ولولا هذه الصدوع لانفجرت الأرض منذ أول لحظة لتكوينها نتيجة لما يحدث في باطن الأرض من تفاعلات نووية وكيميائية هائلة. (ملاحح الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: في مجال علوم البحار، مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٧).

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشمس والقمر مُكَوَّران يوم القيامة». (صحيح البخاري، باب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر. برقم ٣٢٠٠).

٣ - تقرير الوقائع الكونية التي تحدث عند بداية وقوع القيامة.

٤ - يقترن كل إنسان بعمله كما تقترن الأرواح بالأجساد.

٥ - الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، إذ بهما المصير إلى الجنة.

٦ - الترهيب من الشرك والمعاصي، إذ بهما المصير إلى النار.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾

التفسير:

١٥-٢٢- قسماً مؤكداً بالنجوم التي تختفي في النهار، والتي تجري في فلكها مع الشمس والقمر، وتستتر وقت غروبها، وبالليل إذا أقبل، أو أدبر، وبالصبح إذا بزغ ضوءه. إن هذا القرآن حقاً تبليغ جبريل عليه السلام صاحب قوة عظيمة، وذو منزلة عالية عند الله تعالى، تُطيعه الملائكة التي أُمِر عليها، ومؤتمن على الوحي لا يخون، وما محمد صلى الله عليه وسلم بمجنون.

٢٣-٢٥- وقسماً لقد رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ ﷺ في أفق السماء الواضح، وما هو ببيخيل في تبليغ الوحي فلا يكتمه عنكم، وليس القرآن بقول شيطان ملعون مطرود من رحمة الله، ولكنه كلام الله تعالى.
٢٦-٢٩- فأَيَّ طريق تسلكونه في تكذيبكم للقرآن بعد هذا البيان؟ ما هذا القرآن إلا موعظة من الله لكم - أيها المكلفون - من الإنس والجان، وذلك لِمَنْ أراد أن يستقيم على طريق أتباع الحق، وما تشاؤون - أيها العباد - الاستقامة إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١- اكتشف علماء الفلك أن بعض النجوم العادية تصدر وإبلاً من الأشعة السينية، ولم يجدوا تفسيراً علمياً لذلك إلا وقوعها تحت تأثير أجرام سماوية غير مرئية ذات كثافات خارقة للعادة، ومجالات جاذبية عالية الشدة؛ وذلك لأن النجوم العادية ليس في مقدورها إصدار الأشعة السينية من ذاتها، وقد سُمِّيَتْ تلك النجوم الخفية باسم الثقوب السود (Black Holes) - التعبير الأبلغ الخنس الكنس - وقد سميت بالثقوب؛ لقدرتها الفائقة على ابتلاع كل ما تمر به أو يدخل في نطاق جاذبيتها من مختلف صور المادة والطاقة من مثل الغبار الكوني والغازات والأجرام السماوية المختلفة، ووصفت بالسواد لأنها معتمة تماماً لعدم قدرة الضوء على الإفلات من مجال جاذبيتها، وقد اعتبرت الثقوب السود مرحلة الشيخوخة في حياة النجوم. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٢١١-٢٣٢). وينظر: صورة توضح الثقب الأسود، كما في الملحق.

٢- تمكَّنت العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء، ومنها قوة الجاذبية، وهي تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٥٦٣-٥٧٤).

٣- ينظر: صورة انتهاء الليل ودخول الفجر، كما في الملحق.

٤- ثبوت حقيقة علمية وهي أن النهار أو الصبح ما هو إلا رثة كبيرة تنفّس تنفساً حقيقياً، وأن أنفاسه ما هي إلا حركة جزيئات الهواء بصورة دائمة صعوداً وهبوطاً؛ نظراً لارتفاع مستويات الطاقة نهاراً، وانخفاضها ليلاً. (الإعجاز العلمي في إثبات حقيقة تنفس الصبح. بحث مقدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ١٦).

٥- بيان صفات جبريل الكمالية: الأمانة، القوة، علو المكانة، الطاعة، الكرم.

٦- براءة الرسول مما اتهمه به المشركون.

٧- رؤية رسول الله ﷺ لجبريل على هيئته التي خَلَقَهُ الله عليها.

٨- بيان أن مشيئة الله سابقة لمشيئة العبد، فلا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد.

النزول: مكية.

فضل السورة: تقدّم ذكره في فضل سورة التكوير.

المقاصد:

١ - بيان أهوال يوم القيامة.

٢ - سبب الكفر هو إنكار يوم الحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾
 عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّفَكَ بَرِّيكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ
 ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾
 يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير:

١-٥ - يُؤكِّدُ اللهُ تعالى عظمته قدرته بمشاهد عجيبة ومخيفة من مخلوقاته يوم القيامة، ليؤمن العباد بالمعاد ويوم الحساب للثواب والعقاب: إذا السماء انشقت، وإذا النجوم تساقطت، وإذا البحارُ فُجِحَ بعضها على بعض، وإذا القبور أُثِرت، فخرج الموتى منها أحياء، حينئذ علمت كلُّ نفس الذي عمَلَتْه من خير، وما أَخَّرَتْه من عمل يلحقها ثوابه، أو سُنةٌ يُعمل بها بعد موتها.

٦-٨ - يُنكر اللهُ تعالى على مُنكر البعث: أي شيء خدعك برُبِّك الكريم حتى عصيته، وخالفت أمره؟ الذي أوجدك من العدم، فجعل خلقك حسناً بتقويمه وتناسبه بين أعضائه، في أيِّ هيئة شاءها خلقك.

٩-١٢ - ارتدعوا - أيها المخدوعون - بالشیطان، فأنتم لستم على حقٍّ، بل أنتم تُكذِّبون بيوم الحساب، وإنَّ عليكم حفظة من الملائكة يرقبون أعمالكم ويكتبونها، وهم شرفاء أمناء يكتبون أعمالكم، فهم يعلمون كلَّ ما تفعلون في السرِّ والعلن.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان تغير نظام الكون عند قيام الساعة، ومن ذلك تَشَقُّقُ السماء، وتفجير البحار.
- ٢ - ذمُّ الغرور والتنكر لنعم الله على العبد في خلقه من العدم.
- ٣ - كلُّ إنسان يلازمه ملائكة، يسجّلون عمله خيراً أو شراً.
- ٤ - التحذير من التكذيب بالبعث والجزاء، فإنه أكبر عامل من عوامل الشر والفساد.
- ٥ - تقرير عقيدة كتابة الأعمال حسناتها وسيئها والحساب بمقتضاها يوم القيامة، بواسطة مَلَائِكَةٍ كَرِيمِينَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ مَكْلُوفٍ. (أيسر التفاسير ٤/٣٧٤).

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير:

- ١٣ - إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ بِطَاعَةِ اللَّهِ لَفِي نَعِيمٍ الْجَنَّةِ حَقًّا.
- ١٤-١٦ - وَإِنَّ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ أَفْسَدُوا بِالْكَفْرِ وَالْكِبْرِ، لَفِي نَارِ الْجَحِيمِ قِطْعًا، يَدْخُلُونَهَا فَيَحْتَرِقُونَ بِلَهيبها يوم الحساب، ويمكنون فيها أبدًا.
- ١٧-١٩ - وما أعلمك - أيها الإنسان - ما شدائدُ يوم الحساب؟ ثمَّ ما أعلمك ما أهوال يوم الحساب؟ يوم الحساب والجزاء لا يستطيع أحدٌ أن ينفع غيره بأيِّ شيء، والأمر كلُّه لله تعالى وحده.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيانُ حُكْمِ اللَّهِ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ، إِذْ هُمْ مَا بَيْنَ بَارٍ صَادِقٍ فَهُوَ فِي نَعِيمٍ، وَفَاجِرٍ كَافِرٍ فَهُوَ فِي جَحِيمٍ.
- ٢ - وجوب تعظيم يوم الدين لما فيه من نشر الأعمال، وحساب العباد.
- ٣ - المسؤولية والتبعية فردية، فلا يملك أحدٌ لأحد شيئاً أو ينفعه بشيء يوم الحساب والجزاء.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - الوعيد من الظلم في الميزان.
- ٢ - بيان الفروق بين مصير المتقين ومصير الكافرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ بِبُيُوتِهِمْ ۝١١ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مَّعْتَدٍ أَثِيمٌ ۝١٢ إِذْ أَنشَأَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُورُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِدِهٍ تَكْذِبُونَ ۝١٧﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. (أخرجه ابن ماجه في السنن - التجارات، باب التوقي في الكيل والوزن - برقم ٢٢٢٣ وحسنه البوصيري (مصباح الزجاجة ١٨١/٢)، وحسنه الألباني (صحيح ابن ماجه ١٩/٢)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢٠٨/٧ برقم ٤٨٩٨). والحاكم في (المستدرک ٣٣/٢) قال الحاكم: حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وصحح إسناده الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/٦٩٥-٦٩٦)، وكذا (الحافظ السيوطي، باب النقول ص ٢٢٨).

التفسير:

١-٣- يُحَدِّثُ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ مِنَ الْخِيَانَةِ فِي حَقِّ الْوِزْنِ وَالْكَيْلِ، وَيَتَوَعَّدُ بِالْعِقَابِ وَالْهَلَاكِ الَّذِينَ يَبْخَسُونَ حَقَّ النَّاسِ، إِذَا أَخَذُوا كَيْلَهُمْ أَوْ وَزَنَهُمْ مِنَ النَّاسِ أَخَذُوا حَقَّهُمْ تَأَمَّماً غَيْرَ نَاقِصٍ، وَإِذَا كَالُوا لِلنَّاسِ، أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُنْقِصُونَ حَقَّ النَّاسِ، أَوْ يَزِيدُونَ الْكَيْلَ وَالْوِزْنَ لِأَنْفُسِهِمْ زِيَادَةً عَلَى حَقَّهُمْ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ.

٤-٦- يَذُمُّ اللهُ تَعَالَى مَنْكَرِي الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ مُنْكَرِياً عَلَيْهِمْ: أَلَا يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الْمُطَفِّفُونَ أَنَّ اللهَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْقُبُورِ أَحْيَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي عَظُمَ بِأَهْوَالِهِ؟ يَوْمَ يَقُومُ الْعِبَادُ أَمَامَ رَبِّ الْخَلَائِقِ لِلْحِسَابِ.

٧-٩- ليس الأمر كما يعتقدون من عدم وقوع البعث، وأنتهم لما يُحاسبوا على خيانتهم، بل إنَّ ما كُتِبَ من كبائر المجرمين في ضيق دركات الأرض السفلى لا يتغيَّر، وما أعلمك ما سيَجِّين؟ هو كتاب مكتوب مُثَبَّت فيه جميع ما اقترفه هؤلاء.

١٠-١٧- يُهَدِّدُ اللهُ تعالى المُكذِّبين بيوم الحساب، بالهلاك والعقاب، وما يتكسب في هذا التَكذِيب إلا كُلُّ معتدٍ على حَقِّ الله، وحقِّ العباد، مبالغٍ في الوقوع في الجرائم، إذا قُرئت عليه آيات القرآن قال: إنَّها أقاصيص من كذب السابقين، ليس الأمر كما يزعمون، ولكن غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يرتكبون من الخطايا، حقاً إنَّ هؤلاء المُكذِّبين ممنوعون قطعاً من رحمة الله تعالى يوم القيامة، ثمَّ إنَّهم سيدخلون النار يذوقون لهيبها، ثمَّ تُوبَّخهم الملائكة الموكَّلة بالعذاب: هذا العذاب الذي كنتم لا تُصدِّقون به.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- أهمية العدل في الوزن.
- ٢- تحريم التطفيف في الكيل أو الوزن، أو في كل عمل يتعامل به الناس مع بعضهم.
- ٣- الويل والهلاك لِمَن يُكذِّب بيوم البعث.
- ٤- الذنوب والخطايا تحجب القلوب عن قبول الحق.
- ٥- تقرير رؤية الله ﷻ يوم القيامة لأهل الجنة الأبرار، ويحرم منها أهل الشقاوة والعياذ بالله.
- ٦- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُورٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُ، مِسْكٌ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ أَمْرِهِ، مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير:

١٨-٢١- حقاً إنَّ كتاب المؤمنين العاملين بطاعة الله في مرتبة عالية في السماء السابعة، وأيُّ شيء أعلمك - أيها الرسول - ما هذه المكانة الراقية؟ فهو كتاب مثبتة فيه الأعمال الصالحة، يحضره ويحفظه المُقَرَّبُونَ من ملائكة كُلِّ سماء.

٢٢-٢٨- يُبَشِّرُ اللهُ تعالى هؤلاء الأبرار بما أعدَّ لهم في الجنة، فإنَّهم في مقام كريم ونعيم مقيم، على الأسرَّة المزيَّنة ينظرون إلى أنواع النعيم، وأعلاه رؤية الله تعالى، ترى في وجوههم البهاء والفرحة بالنعيم،

يسقيهم خدم الجنة من خمر طيبة مختوم غطاؤها بمسك تفوح منها رائحته. وفي ذلك المقام العالي الكريم يتسابق المتسابقون؛ لنيله، وهذا الشراب المطعم بالمسك من عين اسمها (تسنيم)، خاصة بالمقربين من أصحاب الدرجات العالية.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير ما أعد الله للأبرار، وهم أهل الطاعة والصدق والإخلاص.
- ٢ - تأكيد حقيقة البعث والجزاء والحساب.
- ٣ - التنافس يتبغى أن يكون على الآخرة، وصالح العمل.
- ٤ - الثناء على الأبرار، وبيان مقامهم في الجنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ نُؤِوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التفسير:

٢٩-٣٤- إن الذين اقترفوا جرائم الكفر والنفاق كانوا في الدنيا يسخرون من المؤمنين ويضحكون منهم، وإذا مروا بهم أشاروا إليهم بحركات السخرية، وإذا عادوا إلى أهلهم عادوا مُتَلَذِّذِينَ باستخفافهم بالمؤمنين، وإذا رأوا المؤمنين رَمَوْهُم بِالضَّلَالِ عن أتباع الحق، وما أرسل الله تعالى المجرمين ليحكموا على المؤمنين ويتابعوا أعمالهم، فيوم الجزاء يضحك المؤمنون من الكفار، جزاء ما ضحكوا منهم في الدنيا.

٣٥-٣٦- هؤلاء المؤمنون يجلسون على الأسرة والفرش الفاخرة ينظرون إلى ما أكرمهم الله به من النعيم والمقام الكريم، هل جُوزِي الكُفَّار بهذا العذاب بما كانوا يرتكبون من الجرائم؟ نعم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التنديد بالإجرام والمجرمين.
- ٢ - تقرير أن الجزاء من جنس العمل، فالمجرمون الذين يضحكون من المؤمنين في الدنيا سوف يضحك منهم المؤمنون في الآخرة.
- ٣ - ينظر المؤمنون يوم القيامة إلى ربهم، خلافاً للكافرين الذين يُحْجَبُونَ عنه.
- ٤ - بيان إكرام الله لأوليائه، وإهانتة تعالى لأعدائه.

النزول: مكية.

فضل السورة: تقدّم ذكره في فضل سورة التكوير.

المقاصد:

١ - بيان أهوال يوم القيامة.

٢ - إقامة البراهين التي تدل على عظمة قدرة الله تعالى.

٣ - وجوب تعظيم القرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كُنْبَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كُنْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١-٥-٥ - يبيّن الله تعالى عظمة قدرته في طاعة السماء والأرض له؛ ليعتبر العباد بهذه المخلوقات العظيمة، فيستعدّوا ليوم القيامة والحساب: إذا السماء تصدّعت، وأطاعت أمر ربّها، وحُقّ لها أن تطيع، وإذا الأرض بسطت، وأخرجت ما فيها من الموتى وتخلّت عنهم، وأطاعت أمر ربّها، وحُقّ لها أن تطيع، فإذا وقعت هذه الأمور رأى الإنسان ما قدّم من خير أو شرّ.

٦ - يا أيّها الإنسان إنك تعمل عملاً تلقى الله به، خيراً كان أم شراً.

٧-٩ - فأما المؤمن الذي أعطي صحيفة أعماله بيمينه فسوف يُحاسب حساباً سهلاً، ثمّ ينصرف بعد هذا الحساب إلى أهله في الجنّة فرحاً.

١٠-١٥ - وأما المكذّب بالله الذي أعطي صحيفة أعماله بشاله من وراء ظهره، فسوف يُنادي بالهلاك على نفسه، ويدخل نار جهنّم الموقدة، إنّه كان في أهله في الدنيا فرحاً بمعاصيه، وكان يعتقد أنّه لا يُبيعت ولا يُعاقب، بلى سيُبيعت ويُحاسب على كلّ أعماله التي كان الله مُطلعاً عليها.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان مقدماته في انقلاب الكون.
- ٢ - الله الذي يأمر الكون بالانتظام، هو الذي يأمره يوم القيامة بالانهدام.
- ٣ - الإنسان يقطع رحلة العمر في مكابدة ومعاناة حتى يلقي الله.
- ٤ - يُحَاسَبُ المؤمن حساباً يسيراً لا نقاش فيه.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝۱٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝۱٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝۱٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝۱٩ ﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝۲٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿ ۝۲١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿ ۝۲٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿ ۝۲٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿ ۝۲٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿ ۝۲٥ ﴾

التفسير:

١٦-١٩ - قسماً مؤكِّداً بالشفق - وهو الحمرة التي تظهر عند غروب الشمس -، وقسماً بالليل وما مُجِّع فيه من الخلق، وبالقمر إذا استدار وصار بدرًا، لتلاقنَّ - أيها العباد - حقاً طوراً بعد طور في الدنيا والآخرة.

٢٠-٢٥ - يُنكر الله تعالى على المُكذِّبين بالله مُؤبِّخاً لهم: فما لهم لا يُصدِّقون بالله ولا بالبعث؟ وإذا سمعوا قراءة القرآن لا يسجدون خضوعاً لله؟ ولكنَّ الذين جحدوا بالله من سجيتهم تكذيب ما جاء عن الله تعالى، والله أعلم بما يُضمرون في صدورهم من الكفر وعداوة الإسلام، فأخبرهم - أيها الرسول - بما سيلقونه من العذاب الموجه، لكن مَنْ تاب منهم وآمن، وعمل صالحاً بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه، فإنَّ لهم ثواباً من الله دائماً كاملاً.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يقسم الله بأشياء في الكون؛ ليلفتنا إلى بدائع قدرته.
- ٢ - مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية وهي: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾.
- ٣ - الكافرون مستكبرون على الله، وكلام الله. فلا يتأثرون بالقرآن.
- ٤ - يقول العلماء عن تفسير ظاهرة الشفق: عندما تسقط أشعة الشمس على الغلاف الجوي للأرض فإنها تحترق بلورات الثلج الصغيرة في هذا الغلاف وكأنه منشور زجاجي يتحلل الضوء من خلاله إلى ألوان الطيف الضوئي السبعة.

(<http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-20-06-04/448-2012-05-30-00-20-59>)

- ٥ - في الآيات (١٦-١٩) إخبار مستقبليٍّ أَنَّ النَّاسَ سِيرَكِبُونَ أَطْوَاراً مُتَعَدِّدَةً، وأحوالاً متباينة: من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، إلى الموت، إلى البعث والنشور.
- ٦ - في الآية (٢٢) إخبار مستقبليٍّ أَنَّ سَجِيَّةَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ التَّكْذِيبُ ومخالفة الحق.

النزول: مكية.

المقاصد:

١ - بيان منقبة الثبات على الإيمان.

٢ - عظمة قدرة الله تعالى في الانتقام من الطواغيت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قَبْلِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِي الْعَذَابِ الْخَرِيقِ ⑩﴾

التفسير:

٧-١- يلعن الله تعالى أصحاب الأخدود - في اليمن قبل البعثة النبوية - بطردهم من رحمته سبحانه، الذين حضروا في الأرض شقاً كبيراً وأضرموا فيه النيران الموقدة؛ لتحريق المؤمنين بالله، وهم قعود حول النار، وهم يُشاهدون تعذيب المؤمنين وتحريقهم، ويؤكد سبحانه هذا اللعن بأربعة أقسام: إذ أقسم بالسما صاحبة النجوم ومنازلها، ويوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، وأقسم بكل شاهد يرى أو يشهد على أحد، وبكل مُشاهدٍ أو مشهودٍ عليه.

٨-٩- وما انتقم هؤلاء المجرمون من المؤمنين لذنوب فعلوه؛ إلا بسبب تصديقهم بالله العزيز في انتقامه، المحمود على كل حال، الذي له ملك السموات السبع والأرضين السبع، وهو سبحانه على كل شيء من الأشياء مطلع.

١٠- إن الذين عذبوا أهل الإيمان، ثم لم يتوبوا إلى الله تعالى، فإن الله سيعذبهم بنار جهنم يحرقهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ - ينظر: مخطط موقع أصحاب الأخدود، كما في الملحق.

٢ - يقسم الله ببعض عجائب خلقه؛ ليلفت أنظارنا إلى إبداعه وقدرته سبحانه.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - الترهيب والترغيب في ذكر جزاء الكافرين والمؤمنين الصالحين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَوْلٌ مَنجُمٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

التفسير:

١١ - إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَشْجَارُهَا وَقُصُورُهَا الْأَنْهَارُ الْعَذْبَةُ. ذلك المقام العالي القدر هو الفلاح العظيم.

١٢-١٦ - إِنَّ أَنْتَقَامَ رَبِّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - مِنْ أَعْدَائِهِ لِشَدِيدٍ حَقًّا. إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ يُبْدِئُ الْعَذَابَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَيَعِيدُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَيُبْدِئُ الْخَلْقَ، وَيَعِيدُهُ قِطْعًا، وَهُوَ سَبْحَانَهُ الْغَفُورُ لِعِبَادِهِ التَّائِبِينَ، الْوَدُودُ الْمُحِبُّ لِأَوْلِيَائِهِ الْمُحِبِّينَ لَهُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَعَالٌ دَائِمًا لِكُلِّ مَا يُرِيدُ.

١٧-٢٢ - هَلْ أَتَاكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - خَبْرُ الْجُمُوعِ الَّتِي تَهَيَّأَتْ لِحَرْبِ رَسْلِ اللَّهِ وَدَعْوَتِهِمْ: فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُوسَى، وَقَبِيلَةَ ثَمُودَ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا؟ نَعَمْ قَدْ أَتَاكَ خَبْرُهُمْ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا رِسَالَتَكَ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ أَشَدَّ مِنْ تَكْذِيبِ مَنْ سَبَقَهُمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَكْرِهِمْ لَا يَفْلَتُونَ مِنْ عَذَابِهِ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ بِشَعْرٍ وَسِحْرٍ كَمَا يُكْذِّبُونَ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ شَرِيفٌ، وَهُوَ مَصُونٌ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ، مُبَيَّنٌّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير البعث والحساب والجزاء.
- ٢ - في قصص الماضين عبرة للمؤمنين، وتسلية لهم أمام ما يلاقونه من أعدائهم.
- ٣ - في الآية (١٢) إخبار مستقبلي ووصف لانتقام وعذاب الربِّ جلَّ وعلا من أعدائه، فإنَّ انتقام الله من أعدائه وعذابه لهم عظيمٌ شديدٌ.
- ٤ - الله قادر على الانتصار من الكافرين، لكنه يُمهّل ولا يهمل.
- ٥ - بيان إحاطة الله تعالى بعبادته وأنهم في قبضته وتحت سلطانه.

- ٦ - عظمة القرآن الكريم، وأنَّ الله قد أودعه عنده في اللوح المحفوظ، فلا تمسه ولا تقربه الشياطين.
- ٧ - في الآية (١٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ الإرادة المطلقة، فإنَّه فعَّال لما يريد سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، لا يمتنع عليه شيء يريد.
- ٨ - في الآيتين (١٩-٢٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الذين كفروا في تكذيب متواصل، كدأب مَنْ قبلهم، وأنَّ الله قد أحاط بهم علماً وقدرةً، لا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم شيء.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - بيان عظمة قدرة الله تعالى في إمكان البعث.
- ٢ - إقامة البراهين الكونية على بيان قدرة الله تعالى.
- ٣ - تقرير صدق الوحي بالقرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النُّجُومُ النَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ قَالَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجَمِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدَعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُمْ رُوبًا ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١-٤ - يُحذِّرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، أَنَّهُ مَا مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَعَلَيْهَا حَافِظٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُحْصِي الْأَعْمَالَ، وَيَكْتُبُهَا لِلْحِسَابِ عَلَيْهَا، وَأَكَّدَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ بِقَسَمَيْنِ، إِذْ أَقْسَمَ بِالسَّمَوَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَبِالنُّجُومِ الَّتِي تَطْرُقُ لَيْلًا، الْمُضِيئَةِ فِي رِحَابِ السَّمَاءِ الَّتِي لَا يَدْرِكُ حَقِيقَتَهَا الْبَشَرُ.

٥-١٠ - فَلْيَتَأَمَّلِ الْإِنْسَانُ الْمُكَذِّبُ بِالْبَعْثِ: مَا الْمَادَّةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا؟ خُلِقَ مِنْ مَنِيِّ يَقْدَفُ فِي الرَّحْمِ، يَخْرُجُ مِنَ الْعَمُودِ الْفَقْرِيِّ لِلرَّجْلِ، وَأَضْلَاعِ الصُّدْرِ لِلرَّأْسِ. إِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرُدَّ الْإِنْسَانَ حَيًّا بَعْدَ مَوْتِهِ، وَذَلِكَ كَائِنَ يَوْمٍ تَخْتَبِرُ ضَمَائِرَ النَّاسِ وَمَا يُخْفَوْنَ، فَمَا لِلْإِنْسَانِ مِنْ قُوَّةٍ يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ يَعِينُهُ.

١١-١٤ - قَسَمًا بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْمَطَرِ الْمُتَكَرِّرِ، وَبِالْأَرْضِ الَّتِي تَتَشَقَّقُ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْبَنَاتُ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَقَوْلٌ يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ لِعَبَا وَلَا لِهَوَا مِنْ الْقَوْلِ.

١٥-١٧ - إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ وَبِرِسَالَتِكَ يُدَبِّرُونَ الْمَكَائِدَ، وَاللَّهُ يَكِيدُ بِهِمْ كَيْدًا أَعْظَمَ يُدْمِرُهُمْ، فَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ وَأَنْظِرْهُمْ قَلِيلًا حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يقسم الله بالسماء والنجم؛ ليدلنا على عظمة هذه الآيات الكونية.
- ٢ - بيان مادة تكوين الإنسان، ومصدر تكوين تلك المادة.
- ٣ - وينظر: صورة توضح رجوع السماء، كما في الملحق.
- ٤ - أكّدت علوم الفلك في دراسة الغلاف الغازي أنّ كثيراً ممّا يرتفع من الأرض إليه من مختلف صور المادة والطاقة، يرتد ثانية إلى الأرض راجعاً إليها. كذلك فإنّ كثيراً ممّا يسقط على الغلاف الغازي للأرض من مختلف صور المادة والطاقة يرتد راجعاً عنها. (آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٢٩٣-٣٠٨).
- ٥ - وصف الله تعالى الأرض بأنّها ذات صدع؛ لأنّ هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ , ١٥٠ كيلاً، وتمتد عشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات يتصل بعضها ببعض وكأنّها صدع واحد. فعبّر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان. وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارَت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ٢٠٤-٢٠٥).
- ٦ - إنّ في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعداً لا يتعدى بضعة مليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعداً في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعداً ثالثاً في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ١٦٧-١٧٢). وينظر: صورة توضح صدع الأرض، كما في الملحق.
- ٧ - الحكم بأنّ القرآن حق منزل من عند الله.
- ٨ - الكافرون يُدبّرون المكاييد، والله يُدبّر تدبيرهم، وهو سبحانه مطلع عليهم.
- ٩ - في الآيات (١٥-١٧) إخبار مستقبليّ أنّ عاقبة المكذّبين للرسول ﷺ وللقرآن، والذين يكيدون ويدبّرون العذاب والنكال والهلاك.

النزول: مكة في قول الجمهور. وقال ابن عاشور: «وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكة».

(التحرير والتنوير ١٢/٢٧٢).

المقاصد:

- ١ - تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.
- ٢ - تثبيت النبي ﷺ على تلقي الوحي.
- ٣ - تقرير البعث والحساب للفريقين.
- ٤ - وحدة دعوة الرسل، ومضمونها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً
أَخْوَى (٥) سُنُقَرُوكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلبُّسْرِى (٨) فَذَكَرْنَا نَفَعَتِ
الذِّكْرَى (٩) سَيِّدَكَ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَنْجِنُهَا الْأَشْفَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)﴾

﴿١٣﴾

التفسير:

- ١-٣- يخاطب الله سبحانه نبيه ﷺ، ويأمره وأمره أن يُتَزَّهه سبحانه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه، فهو الأعلى الذي ليس فوقه شيء، الذي خلق المخلوقات، فأتقن خَلْقَهَا، ولم يأت بها متفاوتة غير ملتزمة، وَوَضَعَ في المخلوق ما يضبط وظيفته، وأبدع مقاديره على نحوٍ منتظم في تأليف أجزائه ودقائقه، فألهم كلَّ مُقَدَّرٍ ما قَدَّرَ له، وأودع فيه من مَلَكَاتٍ.
- ٤-٥- والله هو الذي أنبت العشب الأخضر من الأرض، ثم جعل الله هذا الكلاً بعد خُضْرَتِهِ هشيئاً يابساً يميل إلى السواد، بعد أن كان يانعاً.
- ٦- سوف نجعلك - يا رسول الله - قارئاً، بأن نُلهِمَكَ قراءة القرآن بتعليم جبريل عليه السلام، فلا تنسى ما تقرأه. وهذا وَعْدٌ من الله لنبيه بعونه على حِفْظِ ما يوحى إليه، وَعِصْمَتِهِ من نسيان ما يُقْرَأُ؛ لِأَنَّهُ متكفل بحِفْظِ هذا الوحي.

٧- ولكنك - أيها النبي - سوف تنسى الذي شاء الله لك أن تنساه، فقد ينسخ الله بعض ما أنزل، فلا يُتلى، ولا يُحكّم به. والله ﷻ يعلم ما يجهر به العباد، وما يُخفونه من أقوالهم وأفعالهم، ويدخل في الجهر ما يقرؤه الرسول ﷺ من القرآن، ويدخل في الخفي ما ينساه منه؛ لأنه لم يعد ينطق به.

٨- بعد تقرير حفظ القرآن وصيانه، تأتي تهيئة النبي ﷺ للنهوض بالشرعة، وتيسيرها على من يؤمن بها، وتيسير خيرها في الدنيا والآخرة، والله ﷻ يوفق نبيه للوفاء بالشرعة التي هي أيسر وأسهل، وهي الحنيفية السهلة. كما ورد في الحديث: أن رسول الله ﷺ ما حُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما. (أخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، المستدرک کتاب التواریخ برقم ٤٢٢٠، ٢/٦٧٠).

٩- يأمر الله نبيه ﷺ بتبليغ الرسالة، والدوام على ذلك، فيخطبه بتذكير الناس كافة. وما يعلمه الله من أحوال الناس في قبول الهدى والإعراض عنه أمرٌ استأثر بعلمه، وسوف يكون في القوم من لا تنفعه الذكرى، ففي هذا التذكير نفع للمؤمن، وحجة على الكافر، ولن يخلو جيل في أي أرض ممن يستمع ويتنفع بالذكرى، مهما فسد الناس، وقست القلوب.

١٠- بيان لمن يفيد من التذكير، ويتنفع بالذكرى. إنه الذي يخاف ربه، ويحسب له حساب الوقوف بين يديه. وهذا الخوف على مراتب، وفي درجات الخوف يتفاضل المؤمنون.

١١- ١٢- ويتباعد عن تذكري ما تستلزمه الدعوة، أهل الشقاء، وهم الكفرة الذين سيشقون في الآخرة لخلودهم في النار، إنهم كانوا سادرين في هواهم، فرحين بدنياهم، ولكنهم سيصطلون بالنار العظمى في دركات الجحيم.

١٣- ويتأكد هول هذه النار بذكر حقيقة من حقائقها، وهي أنه لا راحة من عذابها بموت، وليس ثمة مخلص من هذا العذاب ب حياة يُنتفع بها. فمن اصطل بهذه النار لم يزل عنه الإحساس بها؛ لأن الاحتراق لا يبلغ مبلغ الهلاك.

الفوائد والاستنباطات:

١- قال ابن عاشور: «وتعريف ﴿أَسْرَ﴾ بطريقة الإضافة إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دون تعريفه بال إضافة إلى علم الجلالة نحو: سبّح اسم الله، لما يُشعر به وصف (رب) من أنه الخالق المدبّر. وأما إضافة (رب) إلى ضمير الرسول ﷺ، فلتشريفه بهذه الإضافة، وأن يكون له حظٌّ زائد على التكليف بالتسبيح». (التحرير والتنوير ١٢/٢٧٤).

٢- في الآية (٧) إخبار مستقبلي بأن الله يعلم الجهر من القول والعمل، وما يخفى منها، سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

٣- في الآية (١٠) إخبار مستقبلي بأن من يخف الله فإنه سيتعظ بالذكرى.

- ٤ - قال الرازي في قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾: «للتنبية على أشرف الحاليين، وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى، كقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِذَا خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١] فإنَّ القصر جائز عند الخوف وعدمه، فهذا الشرط فيه فوائد، منها ما تقدّم، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأول فعام». (التفسير الكبير ٣١/١٤٤).
- ٥ - في الآية (١١) إخبار مستقبلي بأنَّ الأشقى الذي لا يخشى ربّه فإنّه سيبتعد عن الذكرى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) و﴿الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩) ﴿

التفسير:

- ١٤ - ١٥ - أما جزاء مَنْ انتفع بالذكرى، وطهر ظاهره وباطنه، فهو الفوز بما يطمح إليه؛ لأنّه طهر نفسه، وأفاد ممّا أنزل الله على رسوله، وبذلك الوُسْع والجهد في تزكية نفسه. وهذه النفس إذا تطهرت وتزكت اهتدت، فأقبلت على ما ينفعها، وذكرت اسم ربّها. وهذا الذّكر يشمل الذّكر باللسان تعظيماً لله، كما يشمل حضور الذّكر في النفس. ويحصل التقرب إلى الله بالصلاة التي هي خضوع وامتثال وثناء.
- ١٦ - ١٧ - ولكن الكفار لم يأبهوا بذلك الفوز، وحرصوا على الحياة الدنيا، فهم بعيدون عن التنافس في طلب الفلاح، ولا يتطلعون إلى الحياة الثانية الأبقى، وإذا ذكروا بالآخرة أضربوا صفحاً عنها. إنّ هؤلاء أعرضوا عمّا هو خير، وأطول بقاء.
- ١٨ - ١٩ - إنّ هذا الذي تقدّم في بيان فلاح مَنْ تزكّى، وإيثار الكافرين للحياة الدنيا، وأنّ الخير والبقاء للآخرة، هو من المواعظ البليغة الثابتة في الكتب المتقدمة عن القرآن، وهي الكتب التي نزلت على إبراهيم وموسى عليهما السلام؛ لأنّ هذا حقٌّ يرجع إلى أصل واحد من الله ﷻ الذي خلق فسوّى.
- الفوائد والاستنباطات:

- ١ - النجاح الحق هو التطهر من الآثام والمعاصي، والعمل وفق توجيه الله ﷻ.
- ٢ - في الآيتين (١٤-١٥) إخبار مستقبلي عن عاقبة مَنْ طهر نفسه من الأخلاق السيئة، وذكر الله، فوحده ودعاه، وعمل بما يرضيه، وأقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لشرعه، فإنّه سيكون من الفائزين.
- ٣ - في الآيتين (١٦-١٧) إخبار مستقبلي بأنّ النَّاس يُفَضِّلُونَ زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، والدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم خير من الدنيا وما فيها.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - تثبيت قلب النبي ﷺ على الدعوة.
- ٢ - تقرير البعث بجزء أصحاب النار، وثواب أصحاب الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وَجُوهُ يُومِذُ خَشِيعَةً ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ④ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَيْنَعَةٍ ⑤ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦ وَجُوهُ يُومِذُ نَاعِمَةٌ ⑧ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ⑨ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ⑩ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ⑪ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑬ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ⑭ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ⑮ وَزَرَائِقُ مُبْتُونَةٌ ⑯ ﴾

التفسير:

- ١-٢- هل وصلك - أيها الرسول - خبر الأهوال التي تغشى الناس ساعة القيامة؟ فثمة أناس يمثّلهم وجوهٌ يعترها الدلّ في هذا الموقف المهيّب. ويُطلّق الخشوع على المذلة نحو قوله تعالى: ﴿ وَرَنَّهُمْ يَمْرَضُونَ عَلَيَّهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ ﴾ [الشورى: ٤٥].
- ٣- وهؤلاء الأشقياء يَبْدُونَ في حالة من الجهد والتعب؛ لما أصابهم من المشاق في ساحات القيامة. إنهم تركوا الخشوع لله، وهجروا النَّصَب في الدنيا للقيام بطاعته، فجزاؤهم ذلٌّ ومشقة وإرهاق في القيامة.
- ٤- سوف يصطلي هؤلاء بنارٍ تجاوز إيقادها الشديد درجة ما عرفوه في الدنيا التي ينقطع حُميها.
- ٥- إنّ أصحاب هذه الوجوه وهم يحترقون بالنار المتوهجة يطلبون الشراب، فيكون شرابهم من عينٍ بَلَغَتْ أعلى درجات الحرارة.
- ٦-٧- وليس لهم من الطعام إلا تَبْتُ الضريع اليابس ذي الشوك وما يخرج منه. وهذا الطعام لا يعود على آكله بِسَمْنٍ يُصْلِحُ ما اشتملت عليه أجسادهم المحترقة، ولا يدفع الجوع الذي تشكو منه بطونهم.
- ٨-٩- وفي المقابل تبدو وجوه أخرى لأهل الإيمان، إنها الوجوه ذات اللين والبهجة والنعيم، لأناس نهضوا في الحياة الدنيا لصالح الأعمال، وهي حاملة لسعيها عندما امتثلت أمر الله ورسوله.

١٠-١١- إنَّهم في دارِ ثوابٍ محفوفةٍ بألوانِ الكرامةِ والبهجةِ. وتختصُّ الجنَّةُ بالعلوِّ الذي يعطيها موقعاً يزيد من منظرها الرائق. ويزيد من نعيمها هذه الجنة حُلُوها ممَّا كان فاشياً في مجامع الناس في الحياة الدنيا من الكلام الذي لا فائدة فيه من صروف الباطل، فليس في الجنة إلا السمو العقلي والخلقي، ولا ينطق أهلها إلا بما يزيد النفوس علواً وتزكية.

١٢- وفي هذه الجنة عين ماء متدفقة جارية، تهب متعة لناظرها وسامعها في حركتها وصوتها، فإذا كان هؤلاء المنعمون قد تَدَوَّقوا بهجة الماء الجاري في الحياة الدنيا، فكيف يكون هذا اللون من النعيم ضمن الجزء الأوفى في الحياة الآخرة؟

١٣-١٦- في هذه الجنة سُرُرٌ تستوعب من استلقى عليها، تتميز بارتفاعها عن الأرض زيادةً في نعيمها، وهم يشربون خمر الجنة من أكواب مهياة للشراب، لا تُرْفَعُ من بين أيديهم، فلا تنقطع لذة الشراب، وقد هُمى لهم وسائد يتكئون عليها، وجعل بعضها قريباً من بعض، فأينما أراد ذوو الحظ أن يجلسوا أو يستلقوا ظفروا بها، كما هُمى لهم بُسُطٌ منسوجة من الصوف الملون الناعم الذي يُفرش على الأرض للزينة، وتتصف هذه البُسُط بدقة الصنع ورقة الخمل، وهي متشرة على الأرض.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- تقرير واقعة البعث بالجزء والحساب يوم القيامة.
- ٢- من أسماها القيامة الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.
- ٣- قال ابن عاشور: «قُوبِلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة، فقُوبِلت صفات: ﴿خَشِيعَةً﴾، ﴿عَامِلَةً﴾، ﴿نَاصِبَةً﴾، بصفات: ﴿نَاعِمَةً﴾ (٨) ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةً﴾، وقُوبِل قوله: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَاطِيَةً﴾، بقوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، وقُوبِل: ﴿تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيرٍ﴾، بقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، وقُوبِل شقاء عيش أهل النار الذي أفاده قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ (٦) ﴿لَا يَسْتَمِنُّ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾، بمقاعد أهل الجنة المشعرة بالترف من شراب ومتاع». (التحرير والتنوير ١٢/٣٠٣).

٤- الذين سَعَوْا في الدنيا بالأعمال الصالحة يَرَضُونَ عن أنفسهم يوم القيامة، وَيَرَضُونَ بما أعطاهم ربهم من النعيم المقيم.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

التفسير:

١٧ - ٢٠ - يُنَكِّرُ سبحانه على المشركين إهمال النظر في دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته: كالتأمل والنظر إلى هيئة خلق الإبل التي يتعاش معها هؤلاء القوم صباحاً ومساءً، ففي الإبل أموالهم ورواحلهم ولباسهم ونسج بيوتهم، وقد خلقها الله خلقاً عجيباً، ورَكَّبها تركيباً متقناً، وأودع فيها ملكات عجيبة تجعلها تتناسب مع المفاز التي تقطعها، ومع شدتها تليق للحمل الثقيل. إن هذه الإبل لم يخلقها ولم تخلق نفسها. وهذه السماء التي يرونها ويرقبون أنواء المطر ولَمْع البرق فيها، إنهم لم يرفعوها ولم تُرفع بنفسها. وهذه الجبال التي هي منازل لبعض قبائل العرب، مَنْ الذي رفعها مع شموخها ورُسُوها؛ لئلا تتمد الأرض بأهلها؟ وها هي الأرض مرعاهم ومفرشهم، وقد خلقها الله ممهدة مبسوطة لِيُنتفع بها.

٢١ - ٢٢ - ويأمر الله رسوله بدوام تذكير القوم، فما ينبغي لك - أيها الرسول - أن تيأس من إعراضهم، وإنما أنت واعظ لهم، ولست بمُكْرِهٍ لهم لِتُجِرهم على الهداية، ولا تتحرَّج من ضلالهم، وليس عليك تبعة بسبب استمرارهم على الكفر، ولست تخلق الإيمان في قلوبهم وتُكرههم عليه، وإنما عليك البلاغ.

٢٣ - ٢٤ - لكن مَنْ أعرض عن التذُّكر، ودأب على كفره، فإنَّ الله يُجازيه بعذاب شديد يتجاوز الحدَّ المعتاد. وفي هذا إبطال مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ أصبح آمناً من المؤاخذة على غفلته.

٢٥ - ٢٦ - وإذا كان النبي ﷺ غير مُكَلَّفٍ بإجبارهم على التذُّكر، فسوف نحاسبهم عقب رجوعهم إلينا في الدار الآخرة، وقد يتأخر عقابهم، فليس هذا إمهالاً أو انفلاتاً من العقاب، وقد تكفَّل الله بحسابهم.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - من وسائل الدعوة تقريب الأمر إلى ذهن المدعو من خلال ما يعرفه وما يعيشه.
- ٢ - في الكون آيات دالة على قدرة الله على البعث منها: الإبل والسماء والجبال والأرض.
- ٣ - مهمة الرسول ﷺ التذكير، وليست إجبار الكفار على الإيمان.

النزول: مكة، إلا ما حكى ابن عطية عن أبي عمرو الداني أنها مدنية. (المحرر الوجيز ١٦ / ٢٩٢).

المقاصد:

- ١ - تقرير البعث والحساب.
- ٢ - بيان أصناف الناس عند الابتلاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ ٦ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ ٩ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ ﴿﴾

التفسير:

١-٤ - يُقْسِمُ سبحانه بالفجر، وهو اسم لوقت ابتداء الضياء، وهو مظهرٌ من مظاهر قدرة الله في إحكام الكون وجريانه بحسبان دقيق. والفجر وقت مبارك يبدأ بيقظة المؤمنين؛ لاستئناف الحياة بعد وفاة مؤقتة يعقبها صلاة. أما الليالي العشر فهي عشر ذي الحجة الأول وقت مناسك الحج، وهي أيام مباركة وَرَدَ فِي فَضْلِهَا آثَارٌ صحيحة يتوجه فيها المؤمنون للعبادة والطاعة. أما الشَّفْعُ فهو ما يكون زوجاً، وهو يوم النحر، والوتر ما يكون فرداً وهو يوم عرفة. وَيُقْسِمُ بالليل إذا مضى يسري، وَيَذْهَبُ في ظلامه، حتى ينقضي بالضياء في النهار، فهو يسير على المقادير المرتبة له من الله، وهو مظهر من مظاهر قدرة الله وبديع صنعه، وهو وقتٌ تَمَكَّنُ ظلمة الليل.

٥ - قد كان لصاحب عقلٍ وإدراكٍ قَسَمَ مقنع يصرفه عن المكابرة، فيعلم أَنَّ الْمُقْسِمَ بهذا القسم صادقٌ فيما أقسم عليه، وَمَنْ كَانَ ذَا لُبٍّ عَلِمَ أَنَّ مَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِيهِ دَلَالٌ عَلَى صَنِيعِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَن يُقْسِمَ بِهِ لدلالته على مُدْبِرِهِ.

٦ - ٨ - هذا دليل جواب القسم، والتقدير: لَيُرْسِلَنَّ رَبُّكَ عَلَى مُكَذِّبِكَ يَا مُحَمَّدُ الْعَذَابَ، كما صَبَّ عَلَى عاد وثمود وفرعون. ويخاطبُ سبحانه الرسول ﷺ لِيُثَبِّتَهُ، وَيُعَرِّضَ بِالْمَعَانِدِينَ، فَإِنَّ فِيهَا فَعَلَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَمَ موعظة وإنذاراً لهم: ألم تعلم أخبار هذه الأمم وما فعله ربُّك بقوم عاد قبيلة إرم ذات الأبنية المتناسكة، ولم يخلق الله مثل أفرادها في قوة أجسامهم وبسْطِهَا، وسعة تدبيرهم.

٩- ويأتي ذُكْرُ مصارع نهاج من الجبارين السابقين: أما ثمود فهم الذين قطعوا الصخر الضخم ونقبوه؛ لينحتوه، ويتخذوا منه بيوتاً بين الجبل في وادي القرى. وفي هذا دليل على تَمَكُّبِهِمْ وقدرتهم العظيمة على هذا العمل.

١٠-١٣- وانظر - يا أيها الرسول - إلى فرعون صاحب المملكة القوية، وكان له جنود منتشرون يُبَيِّنُونَ مُلْكَهُ، فكانوا بمنزلة أوتادٍ له، ولكن هؤلاء الطغاة تجاوزوا الحدَّ في المعاصي في ممالكهم، والخروج عن هدى الله، فأولغوا في الفساد، وتَجَبَّرُوا على أنبياء الله والمؤمنين، والتعدَّى على حقوق الآخرين، وكان هذا سبباً في غضب الله عليهم. لقد حَلَّ عذاب الله بهؤلاء الأقوم، وأفرغ عليهم شدة العذاب؛ لأنَّ السَّوْطَ عند العرب نهاية ما يُعَذَّبُ به.

الفوائد والاستنباطات:

١- الله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله.
٢- هناك أوقات مخصوصة من الزمن، هي من أعظم الأوقات، منها الفجر وأيام ذي الحجة العشر، فعلينا الإفادة منها .

٣- جاء في الآية (٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ بحذف الياء، اكتفاء بكسر الراء؛ لأنها فاصلة في موضع وقف، وفي الوقف تُغَيَّرُ الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان والرَّوم والحذف. (انظر: معاني القرآن للزجاج ٣٢١/٥، والبسيط للواحدى ٢٣/٤٩٦).

٤- في الآية (٥) استفهام تقريرى معترض بين القسم وجوابه.
٥- الشَّفْعُ والوتر تخصيص لهذين اليومين بالذكر للاهتمام بهما بعد أن شملتهما الليالي العشر المتقدمة. والشفع والوتر يومان مباركان، وَرَدَ فيهما فضائل وآثار، أو يكون القسم بكل شفع ووتر.

٦- قال الرازي بعد أن ذكر وجوهاً كثيرة في الشفع والوتر: «كُلُّ هذه الوجوه محتملة، والظاهر لا شعاع له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبرٌ عن الرسول ﷺ أو إجماع من أهل التأويل، حُكِمَ بأنَّه المراد، وإن لم يثبت وجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على القطع. ولقائل: إنِّي أحمل الكلام على الكلِّ؛ لأنَّ الألف واللام في الشفع والوتر يفيد العموم». (انظر: تفسير الفخر الرازي ٣١/١٤٩).

٧- صاحب العقل يَفْهَمُ كلام الله، ويعلم مراده ومرماه.
٨- بعد دراساتٍ علمية مستفيضة: اتضح وجود آثارٍ مِدَقَّاتٍ للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التي تملأ حوض الربع الخالي، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة، وبعد دراسة مستفيضة لمعرفة حقيقة تلك الآثار، أجمع الباحثون على أنها هي آثار عاصمة ملك عاد

التي ذكر القرآن الكريم أن إسمها (إِرْمَ)، وقدر عمرها بالفترة من (٣٠٠٠) ق.م إلى أن نزل بها عقاب ربه فظمرتها عاصفة رملية غير عادية، وقد وصف الباحثون حضارة عاد الأولى بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى على وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوتها. (آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ص ٦٠٣-٦١٦). وينظر: مخطط موقع قوم عاد، كما في الملحق.

٩- قال الفراء في قوله في الآية (١٣) ﴿سَوَّطَ عَذَابٍ﴾: «هذه كلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب تُدخِلُ فيه السوط، ونرى السوط من عذابهم الذي يُعذَّبون به، فجرى لكل عذاب، إذ كان فيه عندهم غاية العذاب». (معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتَحْبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئْنَا بِبُيُوتِهِمْ بِحِجَابٍ مُنْتَدِرًا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُ لَئِن لَّا يُعَذَّبُ اللَّهُ النَّاسَ كَذِبًا لَئِن لَّا يَذَّكَّرُ إِلَّا نَسْنُوهُمْ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُ بَلِّغْ لِي آيَاتِكَ فَتَكُونُ مِنْ أَجْلِ الْآيَاتِ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ نَذِيرًا وَلَا يَأْتِيهِمْ نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

التفسير:

١٤- إنَّ الله لا يفوته شيء من أعمال هؤلاء الطغاة المفسدين، ومنزل العذاب بهم هو ربك يا محمد، وهو قادر على أن يعذب الذين كذبوك، وقادر على أن يرصد كل طاغٍ مُفسِدٍ بعمله؛ ليجازيه على عدوانه.

١٥- تَوَهُّمُ المشركون أن إنذار الرسول ﷺ لهم بالعذاب غير صادق؛ لأنَّ هذا يُخالف ما هم فيه من النعمة والكرامة التي منحها الله لهم. وقد ردَّ اللهُ مقولتهم في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَنَبِينٍ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] فهم تَوَهُّمُوا دوام حالهم واستحقاقهم لذلك، فأعلم اللهُ رسوله بالحقيقة، ونبّه على خطأ اعتقاد الجاهلين، وأعلمهم أن أحوال الدنيا لا يُعْتَدُّ بها في تقويم الجزاء على العمل.

١٦- وفي الطرف المقابل ترى الإنسان الذي ابتلاه ربه بتقير رزقه، وتضييقه عليه، فيردُّ جازماً بأنَّ هذا دليل معاملته من قِبَلِ رَبِّهِ بالهوان والذل والفقير. وفي هذا تَدَمُّرٌ من الضيق والحاجة، فلم يشكر الله على ما وهب له من العافية؛ لأنَّ الكرامة والهوان عنده بكثرة الحظ في الدنيا وقلته.

١٧-١٨ - ويأتي زجر الإنسان عن اعتقاداته في أحواله وأقواله في السراء والضراء، ويشير السياق إلى موقف أهل الجاهلية تجاه الضعفاء، فهم لا يُحْسِنُونَ معاملته اليتيم - وهو مَنْ مات أبوه صغيراً - ويستولون على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائهم الصغار، وهم لا يكتفون بحرمان المحتاج من الطعام والبذل من أموالهم، وإنما يَحْتُونُ أولياء الأيتام على ذلك؛ لأنهم لا يكثرثون بهذه الفثرة.

١٩-٢٠ - وقد دأب طغاة المشركين على الاستيلاء على حقوق هؤلاء اليتامى والمساكين من ميراث آبائهم دأباً شديداً، فيكتسبون به الغضب والاختلاس. إنَّ هؤلاء الطغاة يهيمنون في اكتساب المال على نحوٍ واسع.

٢١-٢٢ - زجر وردع عن الجرائم السابقة التي سيحاسبون عليها يوم القيامة، ففي ذلك الوقت تُحْطَمُ الأرض حطماً حقيقياً، ويكسر بعضها بعضاً، وتُدْقُّ جبالها، ويتكرَّر عليها الدُّكُّ الرهيب، ويتفرَّق أجزاءها بما يُحدِثه الله فيها من زلازل، فتغدو هذه الأرض مستوية لا يبقى فيها أيُّ نتوء، ولا يبقى على ظهرها شيء. في هذا اليوم يجيء ربك سبحانه لفضِّلِ القضاء بين عباده، ومعه ملائكته صفوفًا صفوفًا.

٢٣-٢٤ - وفي هذا اليوم العصيب يجيء الملائكة بجحهم، وتُفتَحُ أبوابها، في هذا الموقف المهيب يتذكر الإنسان الجاحد الطاغية معاصيه، إنَّه يريد أن يعلن التوبة، فمن أين له ذلك؟ وهذا التذكُّر لا ينفعه في شيء. وتراه يُرَدِّدُ باللسان تحسُّراً وتندُّماً: يا ليتني قدَّمْتُ في حياتي الأولى قبل الموت الأعمال الصالحة؛ لأجل أن أحيَا في الحياة الكاملة السالمة من العذاب، التي لا موت فيها.

٢٥-٢٦ - وفي هذا الموقف الرهيب يتذكر فيه الإنسان ما سُجِّلَ في صفحته، لن يستطيع أحد أن يُعَدِّبَ مثل تعذيب الله للكافر الذي خالف أمره، ولن يستطيع أحد أن يُقَيِّدَ مثل تقييد قيوده؛ ليسوقهم إلى النار.

٢٧-٣٠ - يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين الذين اطمأنَّتْ نفوسهم بالإيمان إلى وعد الله ولقائه. هذه النفوس المنية المخيبة أيقنت بأنَّ الله ربُّها، ورَضِيَتْ بقضائه، فيقال لها: ارجعي إلى ربك وأنت راضية، بما نالته من كرامة وتكريم وثواب، إذ أُعْطِيَتْ كُلَّ ما تطمح إليه، وهي كذلك مرَضِيٌّ عنها، ممَّا يزيدُها ربُّها من العطايا فوق ما رَضِيَتْ به، وادخلي أيتها النفس في زمرة عبادي الصالحين المصطَفَيْنِ، وادخلي في جنة الله عند الملك المقدر.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (١٤) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ عاقبة مَنْ يعصي الله، فإنَّ الله جَلَّتْ قدرته له بالمرصاد، يمهلُه قليلاً، ثمَّ يأخذه أَخْذَ عزيزٍ مقتدر.

- ٢ - في الآية (١٥) إخبار مستقبليّ عن حال الإنسان مع ربّه فيما إذا اختبره ربّه بنعمة، وبسط له رزقه، وجعله في أطيب عيش، فإنّه يظنّ أنّ ذلك لكرامته عند ربّه، فيقول: ربّي أكرم من.
- ٣ - من طبع الإنسان الحرص على المال والبخل به وحُبّه، حتى إن الإنسان لحرصه على المال يتحرّم اليتيم والفقير.
- ٤ - في الآية (١٦) إخبار مستقبليّ عن حال الإنسان مع ربّه فيما إذا اختبره، فضيّق عليه رزقه، فيظنّ أنّ ذلك لهوانه على الله، فيقول: ربّي أهانن.
- ٥ - تحريم أكل أموال اليتامى من ميراث وغيره .
- ٦ - ذمّ التهاك على حُبّ المال، وبخاصة عندما يكون سبباً في الظلم وبخس الحقوق.
- ٧ - في الآيات (١٧-٢٠) إخبار مستقبليّ أنّ مَنْ أطاع الله فإنّ الله سيكرمه، وأنّ مَنْ عصى الله فإنّ الله سيهينه.
- ٨ - ذكر بعض المفسرين أن معنى التكرير في ﴿دَكَدَكَ﴾ أنه دَفَعَات على تقدير: دُكَّتِ الأرض دَكًّا بعد دَكِّ، ولو كان غير مكرر لاشتبه أن يكون دفعة واحدة، أو زلزلة بعد زلزلة. (البيضاوي ٢٣ / ٥١٦).

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - بيان عظمة البلد الحرام مكة، ومقام النبي ﷺ فيها.
- ٢ - بيان إبداع الله تعالى في خلق الإنسان.
- ٣ - تقرير البعث للحساب في تصنيف الناس إلى أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾
أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

١-٤ - يُعَظِّمُ اللهُ تَعَالَى مَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ، فَيُقَسِّمُ بِهَذَا الْبَلَدِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْتَ مُقِيمٌ فِيهِ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - تَشْرِيفًا لَكَ وَتَعْظِيمًا لِقَدْرِكَ، كَمَا يَقْسِمُ اللهُ بِآدَمَ، وَالَّذِي تَنَاسَلُ مِنْهُ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَالذَّرِيَّةِ. وَجَوَابُ الْقَسَمِ: لَقَدْ خَلَقْنَا جِنْسَ الْإِنْسَانَ يَكَابِدُ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَشِدَائِدِ الْآخِرَةِ، فَهُوَ لَا يَجْلُو: إِمَّا أَنْ يَكَابِدَ الشُّكْرَ عَلَى السَّرَّاءِ، أَوْ يَكَابِدَ الصَّبْرَ عَلَى الضَّرَّاءِ، فَهُوَ فِي نَصَبٍ وَشِدَّةٍ مُلَازِمِينَ لَهُ.

٥-٧ - أَيُظَنُّ ابْنُ آدَمَ بِمَا جَمَعَهُ مِنْ مَالٍ وَاسْتَجْمَعَ مِنْ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنْهُ أَحَدٌ؟ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَيْهِ. وَيُرَدِّدُ هَذَا الْإِنْسَانَ تَمَكُّحًا وَتَفَاخُرًا بِذَاتِهِ، فَيَذَكُرُ إِتْلَافَ أَمْوَالِهِ الْوَافِرَةِ الْعَرِيضَةِ فِي مِيَادِينِ التَّرَفِ وَالْفُسَادِ، وَيَعُدُّ هَذَا مَنْقِبَةً لَهُ. أَيُظَنُّ أَنَّهُ فِي رُعُونَتِهِ وَفُسَادِهِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَلَا يُجَاسِبُهُ عَلَى مَا تَقَرَّفَهُ يَدَاهُ، وَيَلُوكُ لِسَانَهُ؟

٨-٩ - إِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الْغَافِلَ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَنْ عِلْمِهِ الْمَحِيطِ بِالْكَائِنَاتِ، قَدْ خَلَقَ اللَّهُ لَهُ آلَاتِ النَّظَرِ

وهي العينان، والإبانة وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون من أنعم بهذا على الناس غير قادر عليهم؟

١٠ - وقد أوضح ربُّه له طريقي الخير والشر، يميز بينهما، وألهمه ما يدرك به الضارَّ والنافع.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تبدأ السورة بالقسم، فتكون (لا) مؤكدة لهذا القسم، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْبُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: أن تسجد.
 - ٢ - جيء بـ (ما) دون (مَنْ) التي تستعمل غالباً للعاقل؛ لإرادة التفخيم نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أي: مولوداً عجيب الشأن. قال ابن عاشور: «ولأن قوة الإبهام في (ما) أنسب بإرادة الجماعة دون واحد معين». (التحرير والتنوير ١٢ / ٣٥٠).
 - ٣ - في الآية (٥) إخبار مستقبلي بأنَّ الله ﷻ القدرة المطلقة، فإنَّ الله جَلَّتْ قدرته سيقدر على من جمع الأموال الطائلة، وعلى غيره من البشر.
 - ٤ - في الآية (٧) إخبار مستقبلي بأنَّ الله ﷻ يرى كلَّ أفعال عباده، ومن ضمنهم: الذي يقول متباهياً: قد انفتحت مالا كثيراً، ويظنُّ في فعله هذا أنَّ الله ﷻ لا يراه، وأنَّه سوف لا يحاسبه، والصحيح أنَّ الله ﷻ يراه، وسيحاسبه على الصغير والكبير.
 - ٥ - خَلَقَ اللهُ الإنسان، وزَوَّده بأدوات المعرفة، فالواجب عليه استخدامها فيما يرضي الله ﷻ.
 - ٦ - قوله في الآية (١٠) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ النَّجْدُ: الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل، وجُعباً نَجْدَيْنِ؛ لأنَّ طريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه.
- ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبٌ لَنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾
- التفسير:

١١-١٢ - هذا مثلٌ لمجاهدة النفس والهوى في سبيل تحقيق أعمال البر، فهلاً تقدَّم الإنسان إليها، وتجاوز المشقَّات التي تعترضه دونها، وسعى في الوصول إلى قُرَبات يكون بها النجاة من النار. وأطلق العقبة على العمل الموصل للخير؛ لأنَّ عقبة النجد المرتفع تكون في أعلى موضع فيه، وأيُّ شيء أعلمك: ما اقتحامُ العقبة، وتكلُّفُ سلوكيها؟ إنَّه أمر عزيز يحتاج إلى مَنْ يُعَلِّمُك به. شَبَّه تَكَلُّفَ الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدته على النفس ومشقته.

١٣-١٧- إنه السعي في أوجه الخير المتعددة، ومنها إعتاق رقبة مؤمنة، وتخليصها من إसार الرقِّ والعبودية، ومنها إطعام الطعام في يوم المجاعة، ونُدرة القوت. وفي هذا الوقت يظهر شحُّ الناس بالعطاء خشية الاحتياج، فيكون الإطعام في هذا الزمن له فَضْلُهُ، وهو من اجتياز العقبة، ودون العقبة مصاعد متفاوتة، ثم تيسير وصوله ليتيم ذي قرابة أو مسكين لا شيء لديه، وليس لديه ما يفترشه على الأرض. إضافة إلى ذلك فقد كان باغي الخير من الذين أخلصوا دينهم لله، ومَنَّ أوصى بعضهم بعضاً بفضيلة الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصيه، ومن الذين تواصوا بأن يرحم بعضهم بعضاً.

١٨- إنَّ هذه الأفعال المتقدمة من أفعال أهل الإيمان الذين يَتَسَلَّمُونَ كتابهم بأيانهم، ويقدمون إلى الجنان، فجهة اليمين جهة مكرمة.

١٩-٢٠- أمَّا الذين كفروا فهم الذين يُؤَخِّدُ بهم يوم القيامة نحو جهة الشمال إلى النار، وهي جهة الإهانة والذم، إنهم يُكَبِّبُونَ في النار، ويُسحبون إليها على وجوههم، وتُغْلِقُ عليهم أبوابها.

الفوائد والاستنباطات:

١- فضل عِتْقِ المأسور أو الرقيق؛ لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ». (صحيح البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أذكى؟ برقم ٦٧١٥. فتح الباري ١١/٦٠٧).

٢- فضل الإطعام في زمن الحاجة للأيتام والفقراء والمساكين والمحتاجين، وفيه قول رسول الله ﷺ: «أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ». (أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب ٤٢، برقم ٢٤٨٥ (سنن الترمذي ٤/٥٦٢). وابن ماجه في كتاب الإقامة، باب ما جاء في قيام الليل، برقم ١٣٣٤ (سنن ابن ماجه ١/٤٢٣)).

٣- شرطُ قَبُولِ الطاعات والقُرْبَاتِ الإيمان بالله؛ لأنَّ الكفر به مُحِبِّطٌ لِكُلِّ عَمَلٍ.

النزول: مكة.

المقاصد:

١ - بيان قدرة الله تعالى في الكون.

٢ - أهمية تزكية النفس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرُ إِذَا نَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ٣ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَدَنَهَا ٥ وَالْأَرْضُ وَمَا حَمَلَهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ٧ فَأَلَمَّهَا ثُجُورَهَا وَتَقْوَنَهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ١٥ ﴾

التفسير:

١-٨- تبدأ السورة بالأقسام المتتالية الستة لتأكيد الخبر الذي يُعقبها من الترغيب والترهيب. والقسم بمخلوقات كونية أبدعها الله وَفَّقَ حُسبان دقيق. ومن هذه المخلوقات الشمس، وهي أعظم النِّيرَات، والضحي هو وقت ارتفاع الشمس. ثم يُقسَّمُ بالقمر عندما يتلو الشمس في الطلوع والأفول، وهو مرتبط بها؛ لأنَّ نوره مستمد من نورها. ثم يقسم بالنهار إذا جَلَّى الشمس وقت ظهورها، وأعقب القسم بالنهار القسم بالليل الذي هو آية أخرى من آيات الله، فيُعْطَى الأرض، فيكون ما عليها مظلماً، ثم يُقسَّمُ بالسماء، وبنائها المتقن المحكم، فكانَ رَفَعَهَا بمنزلة بنائها. ثم يُقسَّمُ الله بالأرض وبسَطِهَا، وتسخير ما عليها للإنسان، ثم يقسم بالنفس الإنسانية وخالقها سوية، غير متفاوتة الخلق، فقد قَوَّماها الله أحسن تقويم. فعَرَفَهَا طريقي الخير والشر، وعَرَفَهَا بهما، وبيَّن لها ما ينفعها في الدارين. وهذا الإلهام ناشئ عن التسوية التي يظهر فيها إبداع الخالق، ومن هذا الإبداع هذا الإلهام، واختيار الإنسان لأحد الطريقتين، وقد أودع الله في النفوس من الإدراك ما يجعلها تفهم دعوة الرسل.

٩-١٠- ثم جاء الجواب على ذلك القسم المؤكد. فقد فاز مَنْ زَكَّى نفسه وطَهَّرَهَا، ووجَّهَهَا للاستزادة من الفضائل، ودفع عنها الرذائل، وقد خَسِرَ مَنْ اختار أن يُلج المعاصي والمفاسد، وحال بين نفسه وفِعْل الخيرات، فأرداها في المهالك.

١١-١٢ - ثم ذكر نماذج من الجاحدين كقبيلة ثمود التي كذبت رسولها صالحاً، فدمرها الله تعالى بسبب بلوغها الغاية في التجبر والعصيان، إذ توجه أشقى أفراد القبيلة - وهو قدار بن سالف - لعقر الناقة، وكان هذا عن إغراء من قومه، وهو آية على منتهى جرأتهم على الله.

١٣-١٤ - كذبت قبيلة ثمود برسولهم صالح، فعرض عليهم آية الناقة، وحذرهم من التعرض لها بسوء، ومن منعيها شربها في موعد سقيها؛ وذلك لأن الاتفاق بين نبيهم وقومه أن يكون للناقة موعد، ولإبل القوم موعد آخر، بيد أن القوم خالفوا نبيهم، وتغافلوا عن التحذير الذي صدر منه وما يترتب على ذلك من العذاب والاستئصال، وتمالؤوا على عقر الناقة، فما الذي حدث؟ لقد غضب عليهم ربهم، فأخذتهم صيحة العذاب والرجفة التي أهلكوا بها، فأطبق عليهم الأرض. وتفرع على الإطباق الشامل تسوية جميع الأفراد بهذا الاستئصال، فلم يفلت منهم أحد.

١٥ - إن الله هو الغالب الذي لا يقدر أحد أن يتعقب حكمه، وما حصل عقب إنزال العذاب بهؤلاء لا معقب لحكمه فيهم، ولا تبعة عليه منهم، وهو لا يحسب حساباً لأحد فيما يراه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله.
- ٢ - بَثَّ اللهُ ﷻ آياته في الكون، ولكنَّ إلفَ الناس لهذه الآيات يجعلهم غافلين عن صانعها.
- ٣ - تؤكد الدراسات العلمية أن فترة النهار التي تعترى نصف الأرض المواجهة للشمس بسمك لا يتعدى مئتي كيلاً فوق مستوى سطح البحر بما فيها من هباءات الغبار، والرطوبة، وكثافة الغازات، هي التي تعكس موجات الضوء المنظور من أشعة الشمس وتشتته، فيظهر لنا بهذا النور الأبيض المبهج، ويُجَلِّي لنا الشمس. (آيات الإعجاز العلمي: الساء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، ٤٦٧-٤٨٢).
- ٤ - تزكية النفس وتطهيرها من الرذائل هاجس المؤمن وسبيله للفلاح.
- ٥ - في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ طَهَّرَ نفسه وتَمَّها بالخير فإنَّ له الفوز.
- ٦ - في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ أخفى نفسه في المعاصي فإنَّ له الخسران.
- ٧ - يقال: دَمَمَ عليه القبر إذا أطبقه، و «دمدم» مكرر دَمَمَ للمبالغة.
- ٨ - تحريم الطغيان والفساد في الأرض؛ لأنَّ عاقبته الهلاك والعذاب كما حدث لقوم صالح.

النزول: مكة. وقيل: إنَّها مدنية. (انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ١٦/٣١٥). وقد رجَّح الدكتور محمد الفالح أنَّها مكة. (المكي والمدني، ص ٥٤٨-٥٤٩).

المقاصد:

- ١ - إقامة البراهين الكونية على القدرة الربانية.
- ٢ - تقرير البعث بالبشرى للمؤمنين والوعيد للمشركين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ يَخِلُّ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪﴾

التفسير:

١-٣- قسمًا بالليل إذا غطى البسيطة بظلامه، فأخفى ما عليها، وقسمًا بالنهار إذا أسفر بضيائه. وهما آيتان من آيات الله المبثوثة في الكون، تُدلان على الصانع المدبِّر، ثم يُقسم بمظهر من مظاهر قدرته، وهو خَلْقُ آية الزوجية فيما يدبُّ على الأرض، وما يتبعها من تناسل الكائنات.

٤-٧- وبعد هذا القسم المؤكَّد ثلاث مرات، يأتي جواب القسم لبيان ما يفيد أنَّ أعمال الإنسان وتصرفاته مختلفة بين عامل للنديا، منصرفٍ إليها، مقتنعٍ بزخارفها، وحريصٍ على الآخرة، فيُقدِّم الخير بين يدي كسبه، فالأعمال متخالفة، والمسالك شتى، ثم بيَّن بعض أوجه هذه المسالك، ووصف عمل فريقين: فريق مُيسِّرٍ لليسرى، وفريق مُيسِّرٍ للعسرى، فالأول فريقٌ بذلَّ حُرَّ ماله بدون عوض، وحسبَ حساباً للقاء ربه، فاتقى عذابه، وآمن بموجبات شهادة التوحيد. فهذا الفريق نُوفِّقه لعمل الخير والشرعية الميسرة، وسوف تكون عاقبته سعيدة سريعة في دخول الجنة.

٨-١١- وأما الفريق الثاني فقد ضنَّ بحرَّ ماله، وأظهر الشحَّ، واستغنى ملتبساً بشهوات الدنيا عن لقاء الله وجزائه، ورأى أنَّه في غنى عن رحمة ربه، وكذَّبَ بشهادة التوحيد، وكذَّبَ رسوله، فسوف نُوفِّقه في حياته للشقاء الذي يؤول إلى سرعة دخوله النار، وهل ينفع هذا الشقيَّ ماله العريض الذي جمعه، وضمَّن به في تفادي السقوط والكبكية في دركات الجحيم؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يقسم الله بآيات كونية ليلفتنا إلى مالها من أهمية.
- ٢ - الله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يقسموا إلا بالله.
- ٣ - في الآيات (٥-٧) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ بذل ماله وأتقى الله في ذلك، وصدَّق بالحساب والثواب على أعماله، فسيرشده الله إلى أسباب الخير والصلاح، وسيسرَّ له أمره.
- ٤ - في الآيات (٨-١٠) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ مَنْ بخل بماله، واستغنى عن جزاء ربِّه، وكذَّب بالحساب والثواب، فسيعيش في الشقاء، ولا ينفعه ماله الذي بخل به.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۗ﴾ (١٣) ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۚ﴾ (١٤) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ﴾ (١٥) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ﴾ (١٦) ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَىٰ ۖ﴾ (١٧) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۚ﴾ (١٨) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ﴾ (١٩) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۚ﴾ (٢٠) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۚ﴾ (٢١) ﴿

التفسير:

- ١٢ - يتكفل الله سبحانه ببيان طريق الهدى ولوازمه، وذلك من فضله وحكمته، فتولَّى إرشاد الناس إلى الخير قبل أن يؤاخذهم على فساد كسبهم، وهدى الإنسان إلى التمييز بين الصلاح والفساد.
- ١٣ - إنَّ الدار الآخرة التي سيجمع الله فيها الخلائق هي ملك لله، وكذلك الدار الأولى في الحياة الدنيا، فله التصرف فيهما كيف يشاء، فلا يظنُّ أحدٌ أنَّ له حقاً لازماً على الله.
- ١٤-١٦ - حذَّر الله سبحانه عباده نار جهنم التي تتوهج وتلتهب، لا يصطلي بحرَّها إلا الشقيُّ البائس الذي يُنبذ فيها نتيجة تكذيبه للرسول ﷺ، وإعراضه عن هدى ربِّه، وهذا الأشقى لم تُكتب له السعادة.
- ١٧-٢١ - وسوف يكون بعيداً عن نار الله الموقدة ذلك التقىُّ النقيُّ الذي عرَّفَ ربُّه حقَّ المعرفة، وبذل في سبيل الله ماله، ودفع زكاته؛ لتطهير نفسه من الشحِّ. إنَّ بَدَلَ المؤمن لماله لم يكن مكافأةً لمن أسدى إليه معروفاً، وإنَّما هو خالص لله ﷻ الأعلى ابتغاء وجهه الكريم. ووعدُّ أكيد من الله ﷻ بثوابٍ جليل يُرضي صاحبه، بما يجعله في سرور وحبور.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - لا يمكن للعقل البشري أن يَسْتَقِلَّ بمعرفة الهدى، ولذلك بيّن الله ﷻ الهدى للإنسان.
- ٢ - كون المؤمن مَرْضِيًّا عنه يعني أنه حاز راحة النفس وقرّة العين، بالإضافة إلى النعيم المحسوس المحاط به.
- ٣ - العاقل مَنْ يَتَعَطَّ بإنذار ربه، فلا يختار طريق الشقاء والهوى.
- ٤ - مَنْ تَوَلَّى عن الحق وأعرض عنه فسوف يلاقي جزاءه.
- ٥ - في الآيات (١٩-٢١) إخبار مستقبليّ أنّ الله ﷻ سوف يعطي شديد التقوى الذي يبذل ماله ابتغاء المزيد من الخير، والذي ينفق ماله ليس مكافأة لِمَنْ أسدى إليه معروفاً، ولكنه يتغني بذلك وجه ربّه الأعلى ورضاه، فإنّ الله سوف يعطيه في الجنة ما يرضى به.

النزول: مكة.

المقاصد:

بيان عظمة منزلة الرسول ﷺ عند ربه، وفضله عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ③ وَاللَّآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾

سبب النزول:

ما ثبت في صحيح البخاري أَنَّ رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قُرْبِكَ منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ③ ﴾. (صحيح البخاري برقم ٤٩٥٠، باب: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ③ ﴾ / ٨ / ٥٨٠).

التفسير:

١-٢- قسماً بوقت الضحى، وهو اسم لوقت ارتفاع الشمس، والمقصود به النهار كله؛ لأنه قابل الضحى بالليل في قوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② ﴾، ثم يؤكد هذا القسَمَ القَسَمُ بالليل وقت سكونه، وامتداد ظلامه.

٣- ثم جاء جواب القسم بأن الوحي لم ينقطع عنك أيها الرسول، ولم يُوقَفْ إنزال الآيات عليك، وربُّك ما أبغضك حين أبطأ الوحي عنك.

٤- إنَّ الجنة في الحياة الآخرة خير لك من الدنيا، مع أنَّ الله أعطاه في الدنيا شرف النبوة الذي يتضاءل عنده كلُّ شرف ومكرمة في الدنيا، ولما كانت الدنيا كظل زائل وطريق عابر لم تكن بالقياس إلى الآخرة شيئاً مذكوراً.

٥-٨- تَعَهَّدَ اللهُ ﷻ بأن يُكْرِمَ نبيَّه بعبء غير محدود، سوف يعطيه الفتح والتمكين في الدنيا، والمنزلة الرفيعة في الآخرة، فيرضيه بجزيل عطائه الواسع، من خير لنفسه ولأمته، ثم شرع في تعداد ما أفاضه الله عليه من النعم من مبدأ نشأته ولطفه في الشدائد، على طريقة الاستفهام التقريرية، فقد أفاك ربك يتيماً

- توفي أبوه وهو جنين - فجعل لك مأوى تأوي إليه، وهياً لك رعاية تناسبك، وبذلك تكون قد نشأت على تعهد لأحوالك، وكنت غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فلم تكن تدري شيئاً عن الوحي والشريعة، وكنت في حيرة عما تتبع من الحق، فعلمت ما لم تكن تعلم، ووجدك فقيراً ليس لديك مال، فأغناك بفضله وكرمه، وأرضاك بما منحك من الرزق.

٩- ثم يأتي التوجيه الرباني لرسوله الكريم ﷺ ولأُمَّته، إلى التعامل مع اليتيم الضعيف، فلا تقهره بالشدّة والغلظة والإذلال.

١٠- وأما مَنْ يسأل الناس العون والصدقات فلا تنهره، ولا تزجره بالقول، بل أعطه، أو رُدّه برقيق وعطف.

١١- يأمر الله سبحانه نبيه أن يُظهِر نِعَمَ الله عليه للناس، ويخبر بها، ونِعَمَ الله على نبيه كثيرة، منها شرف النبوة، وهو رسولٌ تجب طاعته، وواجبٌ شكرٌ مُسدي النعم. وهذه التوجيهات الربانية للنبي ﷺ وأُمَّته.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الله أن يُقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يُقسموا إلا بالله.
- ٢- أهمية الزمن، وقيمة الوقت.
- ٣- حذف مفعول ﴿قَلَى﴾ لدلالة ﴿وَدَعَكَ﴾ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالذِّكْرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وهو إيجاز لفظي لظهور المحذوف، ومثله قوله: ﴿فَتَأَوَى﴾، ﴿فَهَدَى﴾، ﴿فَأَغْنَى﴾.
- ٤- جيء بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَرَضَى﴾ لإفادة كون العطاء عاجل النفع، بحيث يحصل به رضا المعطي عند العطاء، فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد ترَبُّص. (انظر: التحرير والتنوير ١٢ / ٣٩٨).
- ٥- حذف المفعول الثاني لـ ﴿يُعْطِيكَ﴾ ليعمَّ كلَّ ما يرجوه من خير لنفسه ولأُمَّته.
- ٦- معرفة نِعَمِ الله وشكرها، والتحدُّث بها.

النزول: مكة.

المقاصد:

بيان منزلة النبي ﷺ عند ربه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - قد شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ أيها الرسول. وَخَصَّ الصَّدرَ لِأَنَّهُ محلُّ أحوال النفس من العلوم والإدراكات؛ لينهض بشأن الدعوة، وَيَحْمِلُ أعباء النبوة، ويكون خير أسوة للمؤمنين، وهذا إنعام عليه بكلِّ ما تطمح إليه نفسه.

١-٣ - وأزال عنك ما كنت تَتَحَرَّجُ منه من عادات أهل الجاهلية ممَّا لا يلائم سُموَّ فطرتك، ذلك الذي أثقل كاهلك، وكان شديداً عليك، فغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر، وهداك إلى الحق، وأزال حيرتك.

٤ - وَرَفَعَ اللهُ ذِكْرَكَ في الدنيا والآخرة بصفات الكمال، ويتناول رَفْعُ الذِّكْرِ جوانبَ متعددة، كبشارة الأنبياء به، وذكره في أعلى عليين، والثناء عليه.

٥ - ٦ - وَعَدُّ من الله مؤكداً بأن يكونَ مع الضيق سعة، ومع الكرب فرج، ومع الشدة لين.

٧ - فإذا أنهيت عملاً من أعمال التبليغ والعبادة فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، وجدِّ في العبادة، أي: إذا أتممت عملاً فأقبل على عمل آخر، فتكون أوقاتك معمورة بالأعمال النافعة.

٨ - وَتَوَجَّهْ دائماً إلى ربِّك، فلا يُعَوَّلُ في جميع الأمور إلا عليه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إذا وقعت الشدة كانت علامة على قرب الفرج.
- ٢ - جملة ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تأكيد لجملة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. ومن المقرر أنَّ المقصود في مثله هو تأكيد الحكم الذي تَضَمَّنَه الخبر، ولا شكَّ أنَّ الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله، فكان التأكيد مفيداً لترجيح أثر اليسر في أثر العسر.
- ٣ - قال ابن عاشور: «الفاء في قوله: ﴿فَازْغَبْ﴾ رابطة للفعل؛ لأنَّ تقديم المعمول لما أفاد الاختصاص نشأ منه الاشتراط نحو تقديم المجرور ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]». (التحرير والتنوير ١٢/٤١٧).
- ٤ - وقت الداعية معمور بالإنجازات، فإذا فرغ من إنجاز أمر، شرع في غيره.
- ٥ - قال الزمخشري: «فإن قلت إنَّ (مع) للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أنَّ الله تعالى يصيهم بيُسْرٍ بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقَرَّبَ اليسر المترقَّب حتى جعله كالمقارن للعسر؛ زيادةً في التسلية وتقوية للقلوب». (الكشاف ٤/٢٦٧).
- ٦ - في الآيتين (٥-٦) إخبار مستقبليٍّ وتأكيد بأنَّ الفَرَجَ من الله يأتي مع شدة الضيق.
- ٧ - تعدادُ هذه النُّعم يبعث النفوس الزكية على الشكر والاجتهاد في العبادة.

النزول: مكية، وروي عن ابن عباس وقتادة: أنها مدنية. (تفسير القرطبي ٢٢ / ٣٦٣).

المقاصد:

١ - بيان كرامة الإنسان في خلقه على أحسن هيئة.

٢ - تقرير البعث والحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ٦ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ ٧ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ٨ ﴿

التفسير:

١-٤ - قسماً بالتين الذي يأكله الناس، والزيتون الذي يعصرون منه الزيت، وهما طعامان نافعان للبدن، ثم يُقسِمُ بالجبل المبارك الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وهو في الأرض المقدسة، ويُقسم الله تعالى بالبلد الأمين مكة لمنزلته وحُرْمته، ثم يأتي جواب القسم: لقد خلق الإنسان في أحسن تسوية وتعديل، وخلقته على الفطرة السليمة، وكوّنه تكويناً متناسباً مع ما خُلِقَ لأجله. وقد اشتملت خِلقته على بديع الخلق، وعجيب الصنع.

٥-٦ - يبيد أن الإنسان سوف يصير إلى دركات الجحيم السفلى، إذا لم ينهج نهج الهدى، وقال ﴿سَافِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأنَّ الإنسان في معنى الجمع، وهم باعقادهم الضلالة قد غَيَّرُوا فطرتهم، واعتقدوا بإلهية الحجارة أو الدهر، ثم استثنى من الجمع السابق، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر واسع غير مقطوع، وثوابهم دائم على طاعتهم، فالإنسان يبقى على ما خَلَقَهُ اللهُ في فطرته السليمة، ولكنه ارتدَّ إلى أسفل سافلين بضلالة. أمَّا المؤمنون العاملون فهم مستثنون من ذلك؛ لأنَّهم رَجَعُوا إلى أصل الفطرة السليمة.

٧ - فإذا عرفت - أيها الإنسان الكافر - أن الله خَلَقَكَ في أحسن تقويم، وسَوَّاكَ فَعَدَلَك، وأنه يَرُدُّكَ أسفل سافلين، فما الذي يملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، ولقاء ربِّ العالمين، مع أنَّ الأدلة واضحة نيرة؟

٨- إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ هُوَ أَتَقَرُّنُ الْحَاكِمِينَ قَضَاءً وَتَدْبِيرًا فِي كُلِّ شَأْنٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- لله أن يقسم بمخلوقاته كيفما يشاء، وليس للعباد أن يُقْسِمُوا إِلَّا بِاللَّهِ.
- ٢- في السورة قسم بأماكن هي مهبط الوحي تعظيماً لها، وهي فلسطين وطور سينين ومكة.
- ٣- ينظر: فوائد تفسير سورة المؤمنون الآية (٢٠).
- ٤- ينظر: صورة التين وصورة الزيتون، كما في الملحق.
- ٥- خَلْقَةُ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ تَسْوِيَةٍ وَاعْتِدَالٍ دَلِيلٌ سَاطِعٌ عَلَى عِظَمَةِ الْخَالِقِ الْمُبْدِعِ.
- ٦- فطرة التدين هي أحسن هيئة خلق عليها الإنسان .
- ٧- يرتدُّ هذا الإنسان إلى دركات السافلين إذا تحوَّل إلى جاحد خصيم كنود.

النزول: مكية، وهي أول سورة نزلت من القرآن الكريم.

المقاصد:

- ١ - تقرير الرسالة الخالدة.
- ٢ - تقرير البعث ببيان مصير الطغاة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أقرأ وربك الأكرم ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ⑥ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفَى ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ هُدًى ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑭ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ⑯ فليدع ناديه ⑰ سَنَدَعُ الزَّابِنَةَ ⑱ كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدُ وَقَاتِبُ ⑲﴾

التفسير:

١-٢- هذا أول الوحي الذي نزل على النبي ﷺ وهو يتعبد في غار حراء. وفي الآية إيذان بأن هذا النبي الأمي سيكون تالياً لكتاب الله بعد أن لم يكن كذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أي: قبل نزول القرآن. والمقصود من طلب القراءة أن يتلو ما سيملى عليه، ويقرأ ما سيلقيه إليه من القرآن مبتدئاً مستعينا باسم الله الخالق، والإقبال على ذكر غيره مما ليس بخالقٍ إقبال باطل. ولما كان المقام مقام ابتداء دعوة التوحيد كان مقتضياً لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته. وفي قوله: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى ابتداء خلق الإنسان، وإلى بديع أطواره. والعلق قطعة صغيرة من الدم الغليظ الجامد، فقد اختلطت نطفة الذكر والأنثى، وبدأت أطوار تكوّن هذا الإنسان وفق تقدير خالقه.

٣-٥- ﴿أَقْرَأْ﴾ الثانية توكيد للأولى؛ للاهتمام بفعل القراءة، وربك يا محمد الكثير الإحسان والمتفضل بالنعمة، علم الكاتيب القراءة، وأزال بذلك ما خطر ببال النبي ﷺ من تعذر القراءة؛ لأنه لا يعلمها ولا يعلم الكتابة، فالذي علم الناس الكتابة بالقلم قادر على أن يعلمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة. وفي هذا تطمين لنفس النبي ﷺ بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته؛ لأن الله علم الإنسان ما لم يكن يعلم.

٦-٧- حقاً إنَّ مِنْ طَبَعِ هَذَا الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَجَاوَزَ حُدُودَ اللَّهِ، وَيَتَعَاطَمَ مُسْتَكْبِراً، إِذَا أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ وَاسِعُ الْغِنَى، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ دِينُهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النُّفُوسَ الضَّعِيفَةَ مُحَدِّثٌ صَاحِبُهَا بِأَنَّهُ غَيْرُ مَحْتَاجٍ إِلَى أَحَدٍ، فَيَطْفِئُ وَيَتَجَبَّرُ، وَلَا يُبَالِي بِشَيْءٍ.

٨- موعظة وتثبيت للنبي ﷺ، أي: فلا يمزقك طغيان هذا الطاغوي أبي جهل، فإنَّ مرجعه إليّ، وهو لا يدري ما يصير إليه من العواقب.

٩-١٤- أَعْلِمْتُمْ أَعْجَبَ مِنْ جَبْرُوتِ هَذَا الْآثِمِ الْمُسْتَكْبِرِ، الَّذِي هَدَّدَ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ رَأَاهُ يُصَلِّيَ فِي الْكَعْبَةِ فَمَنْعَهُ؟ أَعْلِمْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي يَنْهَاهُ عَنِ الصَّلَاةِ مَتَمَكِّناً مِنَ الْهُدَى، أَوْ آمِراً بِتَقْوَى اللَّهِ، أَيْنَاهَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟ أَعْلِمْتُمْ إِنْ جَحَدَ هَذَا الْمُسْتَكْبِرُ الْخَيْرَ الَّذِي دُعِيَ إِلَيْهِ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ غَيْرَ مُطَّلِعٍ عَلَى أَفْعَالِهِ؟

١٥-١٦- ليرتدغ هذا الطاغية عن جرائمه، ولئن لم يرتدع عن غيِّه، لَنَقْبِضَنَّ عَلَى مُقَدِّمِ شَعْرِ رَأْسِهِ قَبْضاً شَدِيداً، وَلَنَجْذِبَنَّه جَذْباً عَنِيفاً إِلَى النَّارِ، فَلَنْ يَفْلِتَ مِنْ قَبْضَتِنَا. وَهَذِهِ النَّاصِيَةُ تَابِعَةٌ لِهَذَا الْآثِمِ الْعَاصِي، فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِالْإِذْلَالِ؛ لَكَذِبِ صَاحِبِهَا وَخَطْئِهِ.

١٧-١٨- وَهَذَا الْآثِمُ أَغْرَى الْمُجْتَمِعِينَ فِي النَّادِي لِإِيْذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، وَدَعَاهُمْ لِيَسْطُوا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ دَعَا مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ الشَّدَادِ الْغَلَاظِ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ.

١٩- لا تترك - يا محمد - صلاتك في المسجد الحرام، ولا تخش منه، فإنه لا يضرك، وتابع سجودك واجتهد في القرب من مرضاة الله بالصلاة.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- هذا الدين علمٌ، يدل على ذلك أن أول كلمة نزلت منه: ﴿أَقْرَأ﴾.
- ٢- من كرم الله ورحمته بالإنسان تعليمه إياه.
- ٣- القلم أهم إبداع في حياة الإنسانية.
- ٤- على الإنسان أن يستذكر دائماً أصل خلقته، وينبغي أن يدعوه هذا إلى التواضع.
- ٥- لدى الإنسان استعداد للتجبر والطغيان إذا خلا من تطهير نفسه وتزكيتها.
- ٦- في الآية (٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الإنسان إذا أبطره الغنى فإنه سيتجاوز حدود الله.
- ٧- بيان عصمة الله نبيه من أذى الجاهلين الآثمين.
- ٨- ينظر: صورة الناصية في الملحق.
- ٩- مشروعية السجدة بعد نهاية قراءة هذه السورة.

النزول: مكية، وعن ابن عباس والضحاك أنّها مدنية، ونسبه القرطبي إلى أكثر المفسرين. (تفسير القرطبي ٣٩٠/٢٢). ويرجح هذا تَصَمُّنُهَا التَّغْيِبَ في ليلة القدر، ورمضان فُرِضَ بعد الهجرة.

المقاصد:

بيان فضل القرآن العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير:

١-٣- إنا - لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة - أنزلنا هذا القرآن العظيم في ليلة القدر العظيمة، وقد أنزله الله تعالى جملة واحدة في هذه الليلة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ. وليلة القدر: هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن، ولها الشرف والفضل بما تشتمل عليه من البركة، وهي في رمضان، لقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فأبي شيء يُعَرِّفُكَ ما ليلة القدر؟ إنها خيرٌ من ألف شهر بما اختصت من تنزيل القرآن الكريم، وما فيها من الأعمال الصالحة، ومضاعفة الحسنات.

٤- تكرر نزول الملائكة وجبريل عليهم السلام فيها، وفي هذا تعليم للمسلمين أن يُعَظِّمُوا أيام تكريمهم بالقرآن، وقد أخفى تعيينها ليكرر المسلمون عبادتهم في ليالٍ كثيرة تحريماً لموافقتها، ونزول الملائكة إلى الأرض لأجل ما يُحْفَظُهم من بركات، وكان هذا بسبب إذن ربهم لهم في النزول. وهذا الإذن منه في كل أمر يقضيه الله تعالى في تلك السنة.

٥- ييشر تعالى بأنَّ تَنَزَّلَ الملائكة ليلة القدر لنشر الخير للمسلمين، ويشمل السلامُ الغفرانَ والثواب وإجابة الدعاء وثناء الملائكة على أهل هذه الليلة. وليلة القدر المعمورة بالملائكة والسلامة، ولا ينقطع خيرها إلى وقت مطلع الفجر.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - اكتمل نزول القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة، بدءاً بليلة القدر من رمضان.
- ٢ - حَصَّ الله سبحانه بعض الليالي بالفضل، كما حَصَّ بعض بلاده وعباده وشهوره بالفضل.
- ٣ - يُنْدَبُ قِيَامُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَالِدُعَاءُ فِيهَا؛ ابْتِغَاءَ قَبُولِ الدَّعْوَةِ فِيهَا. وَقَدْ حَثَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّمَسُّكِ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ.
- ٤ - تَعْظِيمًا لِلَّيْلَةِ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ وَتَمَلَأُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَتُسَلِّمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِينَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.
- ٥ - قِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَغْفِرَةٌ لِلذَّنُوبِ.

النزول: ثمة خلاف بين كونها مكية، أو مدنية. قال ابن عاشور: «وكونها مدنية هو الأظهر لكثرة ما فيها من مخطئة أهل الكتاب». (التحرير والتنوير ١٢/٤٦٧، وانظر: تفسير القرطبي ٢٢/٤٠٥، والإتقان ١/٧٩).

المقاصد:

- ١ - تقرير الرسالة النبوية.
- ٢ - تقرير البعث بثواب المؤمنين وعقاب كفرة أهل الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ - ما كان الكفار من أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - وعبدة الأوثان، تاركين ما هم عليه من الاعتقادات المحرّفة والمناقضة لتوحيد الله الخالص، ومنتهين عنها، حتى يأتيهم ما يبيّن به الحقّ في كل شيء، فكانوا ينتظرون بعثة هذا النبي الكريم، ويقولون قبل مبعث النبي ﷺ: لا نترك ديننا حتى يُبعث النبي الموعود.

٢-٣ - إنّ هذه البيّنة هي بعثة رسول الله ﷺ، الذي يقرأ صحفاً منقّاة منزّهة عن الباطل وردائل الأخلاق. وفي هذه الصحف أحكام قيّمة أنزلها الله ﷻ، وتشتمل على التوحيد والأخلاق.

٤ - فإذا كان هؤلاء الكفار قرروا ألا يتركوا عقائدهم حتى تأتيهم البيّنة، فما هي البيّنة قد جاءتهم، ولكنهم اختلفوا وتفرّقوا، فمنهم من آمن، ومنهم من بقي على كفره. وما فرّقهم عن الحقّ إلا مجيء الرسول ﷺ. قال أبو السعود: «الآية مسوقة لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة، وتغليظ جناباتهم ببيان أنّ تفرّقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق، وتبيّن الحال، وانقطاع الأعدار بالكلية». (تفسير أبي السعود ٥/٢٧٧).

٥- إنَّ هؤلاء أمرهم ربُّهم أن يعبدوه، قاصدين بعبادتهم وجهه، مائلين عن الأديان كلها إلى الإسلام، مستقيمين على دين إبراهيم دين الحنيفية السمحة، ملتزمين بما اشتملت عليه شريعة التوحيد والإخلاص لله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وذلك هو دين الإسلام، دين الملة المستقيمة والبُعْدُ عن الزيغ.

٦- تبيَّنَ موقف هؤلاء المشركين، وإصرارهم على هواهم، على الرغم من تحقق ما كانوا ينتظرونه مما نصَّت عليه كتبهم، وما كانوا عليه من فساد عقائدهم. إنَّهم بهذا الموقف سيكون مصيرهم وقوداً نار جهنم خالدين في دَرَكَاتِهَا، وهم شرُّ الخلائق عند الله، ولن يكون منهم إلا كل شرٍ وأذى بالمؤمنين، وإنما كانوا كذلك؛ لأنَّهم ضَلُّوا بعد تَلَبُّسِهِمْ بأسباب الهدى، فأما أهل الكتاب فليعدُّوهم عن أصل كتبهم قبل تحريفها، وأما المشركون فلا تهمُّ ضَلُّوا عن الحنيفية، وأدخلوا الأصنام فيها.

٧-٨- وفي مقابل هذه الفئة الضالة، فئة أخرى آمنت بهذه البيِّنة الواضحة، وعملت الصالحات التي جاء بها في كتاب الله العزيز، فهذه الفئة هم خير خلق الله ﷺ. إنَّهم استحقَّوا ثواب الله العظيم وهو جنات إقامة دائمة، ينعمون فيها بنعيم متجدد يرضيهم، وسوف تجري من تحتهم الأنهار، من تحت قصور هذه الجنات وأشجارها، وهم في هذا النعيم لا يَمَسُّهُمْ نَصَبٌ ولا تعب، فيحلُّ عليهم رضوان الله، وهم قد رَضُوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والمكرامات. وذلك الجزاء يستحقه مَنْ خاف الله، وعظَّمه بما يليق به.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الديانات التي كانت قبل الإسلام تَعَرَّضَتْ للتحريف والتبديل من الذين تعاقبوا عليها، واتبعوا أهواءهم فيها، فكان من قضاء الله وقدره أن يختار الإسلام؛ ليكون الدين الخاتم للبشرية.
- ٢- قال الفخر الرازي: «فإن قيل: لم ذكر ﴿كَفَرُوا﴾ بلفظ الفعل، و﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ باسم الفاعل؟ فالجواب تنبيهاً على أنَّ أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر؛ لأنَّهم ماتوا مُصَدِّقِينَ بالتوراة والإنجيل، ومُقرِّين بمبعث محمد ﷺ، ثم إنَّهم كفروا بذلك بعد مَبْعَثِهِ ﷺ، بخلاف المشركين، فإنَّهم وُلِدُوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر». (التفسير الكبير للرازي ٤٩/٣١).
- ٣- معيار الخير والشر في منظور الإسلام هو الإيثار، والعمل الصالح الذي يحقق شريعته.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - بيان هول ما يحدث يوم القيامة.
- ٢ - تقرير البعث ودقة الحساب فيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ ﴾

التفسير:

- ١ - إذا تحركت الأرض تحريكاً شديداً وقت البعث، وذلك جزء من الاضطراب الكوني الكبير الذي يعقبه التوجه للوقوف بين يدي الله للحساب.
- ٢ - وإذا أخرجت الأرض ما في بطنها من طبقات ودفائن ومعادن؛ وذلك من تكرار الانفجارات الهائلة التي أذن الله بها، وكذلك تخرج ما في بطنها من أموات.
- ٣ - وترى هذا الإنسان لا يملك من أمره شيئاً: فيفزع ويصيبه الدهول؛ لأنه يرى ما ليس له به عهد، فيتساءل ماذا في الأمر؟
- ٤ - ٥ - في هذا الوقت العصيب الرهيب، إذ زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ، وَأَخْرَجَتْ أَثْقَالَهَا، وقال الناس: ما لها؟ يومئذ تُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَهْوَالِ أَخْبَارِهَا، ولماذا أخرجت أَثْقَالَهَا؟
- ٦ - يوم إذ يحدث هذا كله يخرج الناس إلى الحشر أصنافاً متفرقين، كل صنف إلى جهة بحسب أعمالهم ومنازلهم، تشبيهاً بانصراف الناس عن الماء بعد الوُزْدِ. إِنَّهُمْ يَصُدُّرُونَ لِيَتَلَقَّوْا جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، ويروها رَأْيَ الْعَيْنِ.
- ٧ - ٨ - فَمَنْ يَعْمَلْ أَيَّ عَمَلٍ - مهما كان صغيراً في وزنه أو حجمه - فسوف يلقاه، وهذا في جانب الخير والشر.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يُقَدَّرُ اللهُ يومَ البعث أحداثاً كونية كبرى تؤذن بانقلاب هائل في عالمي الأرض وسافلها.
- ٢ - ثبت علمياً أن البراكين الكبيرة تسبقها دائماً زلازل كثيرة في عددها، وهذا يؤكد ما قرره القرآن من أن الأرض تُخرج أثقالها بعد حدوث زلزالها. (مجلة الإعجاز العلمي: ص ١٠، العدد (٣٣)، جمادى الآخرة، ١٤٣٠هـ).
- ٣ - جرى الأسلوب في الآيتين (٧-٨) على الإطناب؛ لتكون كلُّ جملةٍ مستقلةً الدلالة على المراد؛ لتختصَّ كل جملة بغرضها من الترغيب والترهيب.

النزول: مكية.

المقاصد:

- ١ - فضل الخيل والفروسية.
- ٢ - إحصاء أعمال الإنسان، والحساب عليها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

١-٥ - يُقَسِّمُ اللهُ تَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: بِالْخَيْلِ الْمُسْرَعَةِ وَهِيَ تَحْمَحُمُ بِصَوْتِهَا مِنْ شِدَّةِ الْجَرِيِّ، فَالْخَيْلِ الَّتِي تُتْرَجُ شَرُّ النَّارِ بَوَاقٍ حَافِرًا عَلَى الْحِجَارَةِ، فَالْخَيْلِ الَّتِي تُغَيِّرُ عَلَى الْعَدُوِّ صَبَاحًا فَتُثِيرُ الْغُبَارَ مِنْ شِدَّةِ سُرْعَتِهَا فِي مَوَاقِعِ الْعَدُوِّ، فَتَتَوَسَّطُ بِفِرْسَانِهَا بَجَمْعِ الْأَعْدَاءِ، فَاصْبَحُوا وَسَطَ مِيدَانِ الْمَعْرَكَةِ.

٦-٨ - يُقَسِّمُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ جَحُودٌ بِنِعْمِ رَبِّهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَأَنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ الْجُحُودِ مُعْتَرِفٌ أَمَامَ نَفْسِهِ بِذُنُوبِهِ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْمَالِ لَحَرِيصٌ جَدًّا.

٩-١١ - أَجْهَلُ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ فَلَا يَدْرِي هَذَا الْإِنْسَانُ إِذَا أُثِيرَ مَا فِي الْقُبُورِ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا الْمَوْتَى لِلْحِسَابِ، وَأُحْصِيَ مَا فِي صُدُورِ الْخَلَائِقِ مِمَّا كَانُوا يُبَيِّرُونَهُ، أَفَلَا يَعْلَمُ هَذَا الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَهُ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ؟

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يُقَسِّمُ اللهُ بِالْخَيْلِ الْعَادِيَةِ إِعْلَاءً لِشَأْنِهَا، وَلَا سِيَّيَا إِذَا كَانَتْ لِلْجِهَادِ .
- ٢ - اللهُ أَنْ يَقَسِّمَ بِمَخْلُوقَاتِهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ أَنْ يَقْسُمُوا إِلَّا بِاللَّهِ.
- ٣ - قال الخبراء: إن الخيول تتمتع بنظام تشريحي غير عادي في قاع الجمجمة، يعمل على تبريد الدماء التي تصل إلى المخ. فالحيوانات الرياضية كالخيول يجب أن تظل درجة حرارة رؤوسها أقل من أربعين

درجة مئوية خلال التدريبات العنيفة، وإلا تعرضت إلى تَلَفٍ في المخ، ويؤكد العلماء أنه لولا هذا النظام للتبريد في رؤوس الخيول، لما استطاعت العدو السريع.

(<http://www.kaheel7.com/ar/index.php/2010-02-02-22-19-30/1169-2013-04-07-20-54-31>)

ومن هنا يتجلى التناسب العلمي العظيم بين هذه الآيات الكريمة.

٤ - في الآية (١٠) قال أهل اللغة: الحاصل من كلِّ شيء ما بقي وثبت، وذهب ما سواه. والتحصيل

تمييز ما يحصل، والاسم الحصيـلة. قال الشاعر:

وكلُّ امرئ يوماً سيعلم سَعْيِهِ إِذَا حُصِّلَتْ عِنْدَ إِلَهِ الْخِصَائِلِ

٥ - إذا انسلخ الإنسان من قيم الإيمان ارتكس في حماة الهوى والشح.

النزول: مكية بالاتفاق.

المقاصد:

إثبات وقوع البعث، وما يصاحبه من أهوال في الكون ثم الحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا هِيَ ⑩ نَارُ حَامِيَةٍ ⑪ ﴾

التفسير:

١-٣- القِيَامَةُ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا. وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْلَمَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ بِحَقِيقَةِ شِدَائِهَا؟

٤-٥- في هذا اليوم العصيب يكون الناس في موقف مهيب، فهم كالفرش المنتشر المتفرق على وجه الأرض، يخرجون من قبورهم المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك في ضعفهم وخيرتهم وسيرهم على غير هدى، وخروجهم في وقت واحد، أما الجبال العظيمة الراسية فسوف تكون كالصوف المبعثر المتفرق الأجزاء الذي يتطاير؛ وذلك لأن الجبال تندك بالزلازل ونحوها، فتتفرق أجزاءها.

٦-٧- ويكون الناس صنفين: الأول هو الذي رجحت حسناته على سيئاته، والثاني هو الذي رجحت سيئاته على حسناته، أو ليس له حسنة كالكافر، فالفريق الأول سوف يكون في حياة طيبة ليس فيها نكد وتعب.

٨-١١- وأما الفريق الآخر فهو الشقي السعي الحال، فليس له مأوى ومآل إلا النار، والأم عادة هي مأوى الولد ومفرغه، أتدري ما المصير الذي ينتظره؟ إن هذا لشيء عظيم، إنها نار دائمة الإيقاد الحامي، فهي بذلك تختلف عن نار الدنيا.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - الهاء في ﴿هَيْة﴾ في الآية (١٠) هاء السكت، تُجَلَّبُ لأجل تخفيف اللفظ عند الوقف عليه.
- ٢ - في الحديث عن الفريقين لون من المحسنات البديعية يسمى الاحتباك، وهو أن يُحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر، حذفت من الأول (فأمة الجنة)، وذكر فيها ﴿عَيْشَكُمْ رَاضِيَةً﴾، وحذف من الآية الثانية: فهو في عيشة شقية، وذكر ﴿فَأُمَّهُ هَكَوِيَةً﴾، فحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر.
- ٣ - أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أَلْفَارِعَةُ﴾ قال: «من أساء يوم القيامة، عَظَّمَهُ اللهُ، وَحَدَّرَهُ عِبَادَهُ». (تفسير الطبري ٢٤ / ٥٩٢، التفسير الصحيح ٤ / ٦٦٤).

النزول: مدنية. وقيل: إنَّها مكية. والراجح أنَّها مدنية؛ لما ثبت عن أبي بن كعب أنه قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾. (أخرجه البخاري، في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال ٧ / ١٧٥. فتح الباري ١١ / ٢٧٥). قال ابن العربي: «وهذا نص صحيح مليح»، أحكام القرآن ٤ / ٤٤٢، ورجحه السيوطي، الإتقان ١ / ٨٠).

المقاصد:

١- العبرة والموعظة من التهديد والوعيد بمصير الكفار وعقابهم على تفاخُرهم بكثرتهم، وكثرة أموالهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾

التفسير:

١-٢- يخاطب الله تعالى سادة المشركين: قد شغلكم عما يجب عليكم الاشتغال به، وهو التنافس والتباهي بالمال والجاه والقبيلة، وكثرة المناصب. فهذا التنافس والتباهي من خصال أهل الشرك، وينبغي أن يعلم المسلمون أن التلبس بهذا الخلق مذموم عند الله، وقد مَضَيْتُمْ على هذا التكاثر إلى أن زرتم المقابر، أي: إلى أن مِتُّم، فالإنسان مجبول على التكاثر إلى أن يموت.

٣-٤- يأتي الزجر والردع عمَّا هم عليه، وسوف تعلمون أمركم إذا رجعتُم إلى الآخرة، وأنَّ هذا التكاثر لا ينفعكم، والجملة الثانية زيادة في الزجر والتهديد، فهو وعيد إثر وعيد.

٥- حقاً لو تعلمون عِلْمَ اليقين لَعَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ في ضلال، ولَمَّا أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرَ بالدنيا عن طاعة الله؛ لأنَّكم غافلون.

٦-٧- قسماً مؤكداً أَنَّكُمْ ستشاهدون الجحيم عياناً. قال الألوسي: «هذا جواب قسم مضمرة أكدَّ به الوعيد، وشَدَّد به التهديد، وأوضح به ما أُتِدُّرُوه بعد إبهامه تفخيماً». (تفسير الألوسي ٣٠ / ٢٢٥).

٨- وفي ذلك الموقف العظيم والله لتُسألَنَّ عن النعيم، وهذا يشمل المؤمن والكافر، فالكافر يسأل سؤال توبيخ وتقريع، فلم يُؤدِّ حَقَّ النعمة، فقد أشركوا بالله، واستحقوا أن يُسألوا عمَّا أنعم عليهم توبيخاً لأنَّهم صَيَّعُوا النعمة. والمؤمن يُسأل إظهاراً للمنة عليه، وإذا كان قد قام بشكره فلا عُتِبَ عليه.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الجوع الذي أخرج أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم دخلوا بيت الأنصاري وقد ذبح لهم شاة، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العِدْق، وشربوا. فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». (صحيح مسلم، كتاب الأشربة برقم ٢٠٣٨، ٣ / ١٦٠٩)
- ٢ - يظل حال الناس على هذا الانشغال والتنافس فيما بينهم حتى يُلاقوا الموت.
- ٣ - العلم مراتب، أعلاها عين اليقين.
- ٤ - جديرٌ بالمسلم أن يكون تَنَعُّمُهُ في هذه الحياة وَفَقَّ الضوابط الشرعية.
- ٥ - ذمُّ التنافس والانشغال بالدنيا عن العمل للآخرة.

النزول: مكية. وقيل: إنها مدنية، والراجح أنها مكية.

المقاصد:

- ١ - بشرى للمؤمنين العاملين الصابرين.
- ٢ - دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

التفسير:

١-٣- أقسم الله تعالى بالوقت الذي هو ما بين آخر وقت الظهر واصفرار الشمس، ويعني الزمان لما يقع فيه من اختلاف الأحوال والمشاهدات، وهو الزمان الذي يعيشه الخلق، ثم يأتي جواب القسم: إنَّ الإنسان في خسارة بسوء العاقبة في الآخرة، ويُستثنى من ذلك كلُّ مَنْ آمَن، وعمل الأعمال الصالحة، وهي التي أمروا بعملها، وعطف على عمل الصالحات التواصي بالحق، وهذا من عمل الصالحات، وقد عطف الخاص على العام؛ للاهتمام به. فمن العمل المأمور به إرشادُ المسلم غيرَه إلى الحق، ويشمل التواصي بالحق تعليم حقائق الهدى. والصبر هو مَنْعُ المرءِ نفسه من تحصيل ما يشتهي، وهو ملاك فضائل الأخلاق.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - أهمية الزمان في فوز الإنسان .
- ٢ - أتى بقوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ليكون أبلغ من قوله: لخاسر؛ وذلك أنَّ «في» للظرفية، فكأنَّ الإنسان منغمسٌ في الخُسْر، والخُسْرانُ محيطةٌ به.
- ٣ - جاء الخبر مؤكِّداً بالقسم وحرف التوكيد؛ ليفيدَ الإنذار بالحالة المحيطة بالناس، وجاء ﴿خُسْرٍ﴾ مُنكِّراً؛ ليفيدَ تنويعَ خُسْرانِهِ وتعميمه وتهويله.
- ٤ - تضمنت هذه السورة الكريمة مع صغرها صفات النفس الناجية يوم القيامة وهي: الإيمان بالله، العمل الصالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر. فعلى المؤمن أن يتعاهد نفسه فيها. ذكر الشيخ محمد العثيمين قول الشافعي: «لو لم يُنزلِ اللهُ على عباده حُجَّةً إلا هذه السورة لكفتهم». وقال: «يعني كفتهم

موعظة، وحثاً على التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله والصبر على ذلك. وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كفتهم موعظة، فكل إنسان عاقل إذا عرف أنه في خسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنه سوف يحاول بقدر ما يستطيع أن يتصف بهذه الصفات الأربع، وإلى تخلص نفسه من الخسران». (تفسير جزء عم ص ٣١٧).

النزول: مكية.

المقاصد:

الوعيد لمن ينقص من كرامة الإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةً ﴿١﴾ الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. ﴿٣﴾ كَلَّا
لَيُبَدِّلَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا آدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾
إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

التفسير:

- ١ - يتوعد الله سبحانه بالهلاك لمن يقوم بإيذاء المسلمين بفعله وقوله، وذلك بأن يسخر منهم ويعييبهم، ويؤذيهم بلسانه. وقيل: إنَّ الهتَّاز هو المغتاب، واللتَّاز هو الذي ينال الآخرين بالحاجب والعين.
- ٢ - وهذا الذي دأب على هذا الأذى قام بجمع المال، وأكثر من هذا الجمع، ومضى يُعدُّد موارده منه، فصار أكبرُ همَّة أن يجد أمواله في نساء.
- ٣ - ويظن هذا الإنسان أنَّ ماله سيجعله خالداً باقياً في هذه الدنيا، ويُطيل عمره.
- ٤ - إنَّ هذا الإنسان لجدير أن يُردَّع عن عمله واعتقاده. إنَّه لم يقم بما أوجب الله عليه من البذل وتوجيه المال نحو الخير، إنَّه ليُطرَحَنَّ طَرَحاً في جهنم التي تُفْتَتُّ مَنْ يَقَعُ فِيهَا، وتُكْسَرُه.
- ٥ - وأيُّ شيء أعلمك عن حقيقة هذه النار العظيمة التي تُحَطَّمُ كُلُّ مَنْ وَقَعَ فِيهَا؟
- ٦ - إنَّها نار الله المسعرة التي لا تخمد أبداً، وأضافها سبحانه إلى نفسه؛ لأنَّه يُعَذَّبُ بها، ولا يُعَذَّبُ عذابه أحد، وهو عذاب عدل، وكان عذابهم على وزن فعلهم، فهم هُمْزَةٌ لُمَزَةٌ، وهي حُطْمَةٌ؛ ليكون الجزاء مطابقاً للعمل حتى في اللفظ.
- ٧ - وهذه النار يصل أثرها وإحراقها إلى القلوب من شدة حرارتها، مع أنَّ القلوب مكنونة في الصدور يفصلها عن الجلد طبقات.

٨-٩- ويصطلي بها هذا اللّماز، الجَماعُ للمال، المتّاع للخير، وهي مغلقة الأبواب مطبقة، لا يدخل إليهم روح ولا ريحان، ولا يُرجى لهم فرج؛ لأنّهم يركسون فيها، وهم موثوقون في سلاسل وأغلال مطولة؛ وقد أطبقت عليهم الأبواب ثم شدّت بأوتاد، فلا يُفتح عليهم باب.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - من أخلاق الكافرين الهمز واللمز، أما المؤمنون فلا يليق بهم ذلك.
- ٢ - تحريم الهمز واللمز واغتياب الناس، والتنقّص منهم أو إيدائهم.
- ٣ - ذمّ مَنْ يشتغل بجمع الثروة، ولا ينفقها في سبيل الله.
- ٤ - التفاضل بين الناس بقيم الإيمان لا يجمع الأموال وكثرتها.
- ٥ - قال الطبري في الآية (٢): «أي: أحصى عدده، ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يُؤدِّ حقَّ الله فيه، ولكنه جمعه، فأوعاه وحفظه». (تفسير الطبري ٣٠ / ١٨٩).
- ٦ - التهديد والوعيد لِمَنْ يَغْتَرَّ بهاله، فيصُدّه عن طاعة الله.

النزول: مكة.

المقاصد:

- ١ - بيان عظمة الكعبة وقدسيتها، وحماية الله تعالى لها.
- ٢ - تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد قريش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْفِيلُ تَرَكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

- ١ - يُذَكِّرُ اللهُ تعالى رسوله ﷺ وأُمَّته بقصة أصحاب الفيل المشهورة بقيادة أبرهة الحبشي وجيشه المعزز بالفيلة، حينما توجه من اليمن إلى مكة المكرمة لهدم الكعبة المشرفة: قد علمت - أيها الرسول الأمين عِلْمَ اليقين - ذلك الدمارَ الذي عاقب به الله تعالى ذلك الجيش.
- ٢ - أَلَمْ يُصَيِّرِ اللهُ ما دَبَّرُوهُ من شر ومكر في تضييع وإبطال وخسران.
- ٣ - وأرسل على جيش أبرهة طيراً في جماعات إثر بعض متتابعة.
- ٤ - تقذفهم الطير بحجارة من طين متحجر صلب، فأصبحوا كأوراق الشجر اليابسة التي رَعَتْهَا البهائم، ووَطِئَتْهُ بِأَقْدَامِهَا حتى تَفْتَتَتْ، فأهلكتهم. وأخرج الطبري عن قتادة: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ هو التَّبِينُ. (تفسير الطبري ٢٤ / ٦٤٤، التفسير الصحيح ٤ / ٦٧٠).

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إِذَا عَجَزَتْ أسباب البشر عن نصره دين الله فَإِنَّ أسباب الله لا تعجز عن ذلك.
- ٢ - كل مَنْ أراد شعائر الله بسوء فَإِنَّ الله تعالى يجعل كيده في نحره.
- ٣ - لم يستطع العرب أن يفعلوا شيئاً لنصرة البيت الحرام؛ لتفرُّقهم من ناحية، ولضخامة جيش الأحباش، ولوجود الفيلة معهم من ناحية أخرى.
- ٤ - الله تعالى غالب على أمره، ولا يُعجزه أحد.
- ٥ - إِنَّ لله جنوداً يُسَخِّرُهُم حيث أراد، ولا أحد يعلم حقيقتهم إلا هو سبحانه.

النزول: مكية.

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَلْفِ قَرِيشَ ① إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④﴾

التفسير:

١-٢- يَمْتَنُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَبِيلَةِ قَرِيشَ، وَمَا حَصَّهَا بِهِ مِنَ الْأَمْنِ وَالتَّجَارَةِ الَّتِي اعْتَادُوا عَلَيْهَا إِلَى الْيَمَنِ وَالشَّامِ، فَيَحْظُونَ بِخَيْرَاتِ الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا: اعْجَبُوا لِعَادَةِ قَرِيشَ الَّتِي اعْتَادُوهَا فِي رِحْلَةِ الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ وَرِحْلَةِ الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ النِّعَمِ وَالْإِكْرَامِ.
٣-٤- فَلْيُخْلِصُوا الْعِبَادَةَ لِرَبِّ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، الَّذِي رَزَقَهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَبِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ، وَآمَنَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالتَّعَدِّيِّ عَلَى مَمْلَكَاتِهِمْ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- اختيار الله ﷻ نعمتي الأمن الغذائي والأمن الفكري، وامتنانه على قريش بهما، دليل أهميتهما في أي مجتمع.
- ٢- إِنَّ مُسَدِّي النَّعْمِ عَلَى الْإِنْسَانِ هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَنْ يَبَّهَهَا لَهُ عَلَى نَحْوِ مَبَاشَرِ كَالغَيْثِ، أَوْ يُيسَّرَ لَهُ الْأَسْبَابُ لِتَغْدَوْ فِي مَتَنَاوِلِ يَدِهِ.
- ٣- البيت الحرام معظم قبل الإسلام، وزاد تعظيمه بعد الإسلام، وطهره الله.
- ٤- وجوب شكر الله على نعمه، ولا يكون هذا الشكر إلا بحمد المنعم، وعبادته وطاعته.

النزول: مكة في قول الأكثرين، وقيل: مدنية. وفي الإتيان من أولها إلى قوله: ﴿الْمَسْكِينِ﴾ مكة، والباقي مدنية. (١/ ١٠٥).

المقاصد:

- ١ - تقرير البعث والحساب.
- ٢ - تقرير العبودية لله تعالى وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

التفسير:

١-٣- يذمُّ الله تعالى الذين يُفَرِّطُونَ فِي حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ الْمُحْتَاجِينَ، فيخاطب رسوله الأمين وأُمَّته: أعرفت الذي يجحد بالحساب في الآخرة؟ فذلك المُكذِّبُ بالحساب يوم القيامة هو البعيد عن كلِّ حقِّ الذي يظلم ويزجر اليتيم - الذي مات أبوه ولم يبلغ سنَّ الرشدِ - زجراً عنيفاً، ولا يُحْتِثُّ غيره على إطعام المحتاجين الذين أسكتتهم الحاجة.

٤-٧- وبما أنَّ المحافظة على الصلاة تُعالج هذه الآفات المتقدمة لأنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فقد تَوَعَّدَ اللهُ تعالى بالهلاك والعقاب المُصَلِّينَ، الذين يتشاغلون عن أداء الصلاة في وقتها وبشروطها، الذين يتظاهرون بأعمالهم وصلاتهم ليراهم الناس، وهذا من خصال المنافقين. وتَوَعَّدَ أيضاً بالعقاب الذين لا يُعْطُونَ الزكاة مُسْتَحِقِّيَّهَا، ويمنعون إعارة الأشياء التي لا تُضَرُّ مُعِيرَهَا بِشَيْءٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - من علامات الذي يُكذِّبُ بالدين قسوة القلب على المستضعفين.
- ٢ - قد يسهو المصلي في صلاته، فيجبر السهو، ولكنه لا يسهو عنها، فلا يُؤَخَّرُهَا عن وقتها، ولا يتساهل في إقامة أركانها.
- ٣ - ذمُّ الله تعالى مَنْ يَمْنَعُ الْخَيْرَ عَنِ النَّاسِ، وَيُظْهِرُ شُحَّاً فِي بَدْلِهِ.

- ٤ - حرص الإسلام على رعاية الفئات الضعيفة كالأيتام والمحتاجين.
- ٥ - تأكيد أهمية المحافظة على الصلاة.
- ٦ - التحذير من الرياء.
- ٧ - التحذير من الوقوع في خصال الكفار المذكورين في السورة.

النزول: مكة عند الجمهور، وعن الحسن وآخرين أنها مدنية. (تفسير القرطبي ٢٢ / ٥١٩).

المقاصد:

رعاية الله تعالى لرسوله ﷺ وبشارته أنه أعطي الخير العميم في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

التفسير:

١-٣- إننا - لما لنا من العظمة الكاملة والقُدرة الشاملة - أَعَدَدْنَا عَلَيْكَ - أيها الرسول - الخير الكثير في الدارين، ونهراً في الجنة يَمَيِّزُ بِخِيَامِ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ، وعلى حافتيه العطر من المسك، فواظب على صلاتك، وأخلص العبادة لله تعالى، شكراً له، واذبح البهيمة مُسَمِّياً بالله سبحانه وحده، وشكراً له وحده. إِنَّ عَدُوَّكَ الَّذِي يَبْغُضُكَ هُوَ الْمُنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إضافة «رب» إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه.
- ٢ - عطاء الله للنبي ﷺ لا حد له.
- ٣ - شُكْرُ اللَّهِ عَلَى نِعْمِهِ بِالصَّلَاةِ.
- ٤ - ما انفك أعداء الدعوة في كل زمان يثيرون الأوصاف المناوئة للدعوة ورجاها.
- ٥ - في الحديث الذي رواه مسلم: «أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ، فيه خيرٌ كثير». (صحيح مسلم، كتاب الصلاة، برقم ٤٠٠، ١ / ٣٠٠).

النزول: مكة، وقيل: مدنية. (انظر: تفسير القرطبي ٢٢ / ٥٣٣).

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية لله تعالى وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتُ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۚ﴾

التفسير:

١-٢- يأمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول ويُعلن للكفار الذين يدعونهم إلى عبادة الأوثان: لا أعبد الذي تعبدون من دون الله.

٣- ولا أنتم - يا أيها المشركون - عابدون الله تعالى الذي أعبدته.

٤- ولا أنا عابد مثل عبادتكم في الحال والاستقبال.

٥- ولستم أنتم بعبادين الله تعالى الذي أعبدته.

٦- لكم دينكم وهو الشرك الذي أنتم عليه، ولي ديني الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لي.

الفوائد والاستنباطات:

١- جيء بـ(ما) الموصولة في قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ على كثرة استعمال (ما) لغير العاقل

لقصد الإبهام لتفديد التفخيم، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾. [الشمس: ٥].

٢- دين الله لا يقبل التنازل عن شيء مما جاء به.

٣- صلابة موقف الداعية إلى الله في مواجهة ما يمس عقائد الدين.

٤- نفى أن يعبد آلهتهم بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت، وتقدمت بالجملة الفعلية، لأنَّ المقام

يقتضي مزيد بيان وإطناب لتأييسهم مما راودوه عليه، وجيء بالفعل الماضي في قوله: ﴿مَّا عَبَدْتُمْ﴾ للدلالة

على رسوخهم في عبادة الأصنام من أزمان مضت.

٥- التكرار في هذه السورة لتأكيد نفى طلبهم عبادة رسول الله ﷺ لأصنامهم؛ لأنَّ من معاني التكرار

التأكيد.

النزول: مدنية بالاتفاق.

المقاصد:

الوعد بالنصر الكامل من عند الله، والبشارة بدخول الناس في الإسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾
 ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

التفسير:

- ١ - إِذَا حَصَلَتْ - يا محمد - الغلبة على العدو بنصر عزيز مبین، وأعانك الله على فتح مكة، وقد وعدك الله بذلك غير مرة، وكان المسلمون يرجونه، وَيَتَوَقَّعُونَهُ.
- ٢ - وَعَقِبَ هَذَا الْفَتْحِ الْمَبِينِ سَوْفَ يُعْلِنُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ دُخُولَهُمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ جَمَاعَاتٍ إِثْرَ جَمَاعَاتٍ، وَسَوْفَ تَرَى هَذَا بِأَمِّ عَيْنِكَ.
- ٣ - فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْبَشْرَى، وَحَصَلَ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ الْمَبِينِ، وَدُخُولُ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ، فَتَزَّهَّ اللَّهُ عَنِ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَاحْتَمَدَهُ يَا مُحَمَّدُ حَمْدَ إِقْرَارِ بَهَذَا الْاِمْتِنَانِ عَلَى هَذَا الْفَضْلِ، وَاسْتَعْفَرَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ تَقْصِيرٍ؛ لِتَنْهَائِهِ لِلْقَاءِ اللَّهِ، وَانْتِهَاءِ أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ الَّتِي تَزِيدُ مِنْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ التَّجَاوُزَ عَمَّا يَعْرِضُ لَهُ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ كَثِيرَ التَّوْبِ وَالْغُفْرَانِ لِعِبَادِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - النصر وعد الله لهذا الدين ولهذا الأمة.
- ٢ - الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه دليل ظاهر على صدق نبوته ﷺ؛ لأنَّ هذا من الإخبار بغييب المستقبل.

٣ - ينبغي أن يقابل النصر بالشكر.

٤ - استنبط بعض الصحابة من هذه السورة بأنها تَصَمَّنَتْ نَعْمَى النَّبِيِّ ﷺ، وَفُزَّ بِأَجَلِهِ.

النزول: مكية بالاتفاق.

المقاصد:

تسليية الله تعالى لرسوله ﷺ بوعيد أبي لهب وامرأته، وزجرهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكتنم مَصَدِّقِي؟ قالوا: ما جرَّبْنَا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تبَّأ لك، ما جمعنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾. (صحيح البخاري ٨/٦٠٩-٦١٠ - كتاب التفسير - سورة المسد برقم ٤٩٧١، وصحيح مسلم ١/١٩٣-١٩٤ برقم ٢٠٨ - كتاب الإبان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾).

التفسير:

- ١ - يَدُّمُ اللهُ تَعَالَى الْمُضِلَّ الَّذِي آذَى رَسُولَ اللهِ ﷺ: هلكت يدا أبي لهب (عبد العزَّى بن عبد المطلب)، وهلك أبو لهب معها بإيذائه رسول الله ﷺ.
- ٢ - ما أفاده ماله وما دفع عنه عذاب الله، وما نفعه جاهه ولا أولاده.
- ٣-٤ - سيدخل نار جهنم ذات التوقد المحرقة، هو وامرأته (أم جميل أخت أبي سفيان) التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس للإفساد، وكانت تحمل الشوك، فتنثره في طريق النبي ﷺ لإيذائه.
- ٥ - في عنق هذه المرأة حبل غليظ والليف الصُّلب تُرْبِطُ به، وتُعَدَّبُ به في النار.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - تقرير إهلاك الله للظلمة المكذبين لآياته ورسوله ﷺ.
- ٢ - يلقى الداعية من المعوقات وضروب الأذى القدر الكبير، وله في رسول الله أسوة حسنة في الصبر عليها ومواجهتها.
- ٣ - هذه السورة من الإخبار بغيب المستقبل، فقد مات أبو لهب وزوجته على الكفر، وهذا من إعجاز القرآن.
- ٤ - قوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ معطوف على الضمير المستتر في ﴿سَيَصِلُنَّ﴾، و﴿حَمَّالَةٌ﴾ مفعول به على الذم، أي: أخص بالذم حالة.
- ٥ - إن المال والولد لا يُغنيان عن العبد شيئاً يوم القيامة.
- ٦ - لم ينفع عمّ النبي ﷺ عمومته له، فقد كان أعدى الأعداء، وغداً سيكون في أشد العذاب.
- ٧ - بيان علو قدر النبي ﷺ.

٣- في السورة رَدُّ على المشركين الذين اعتقدوا أن الملائكة بنات الله، ورَدُّ على الذين قالوا: عيسى ابن الله. النزول: مكية، وقيل: مدنية. والراجح ما ثبت عن أبي بن كعب ؓ أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (الله الصَّمدُ) (أخرجه الترمذي في السنن ٥/٤٥١-٤٥٢ برقم ٣٣٦٤- كتاب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص، وابن خزيمة (التوحيد ١/٩٥ برقم ١١-٤٥)، والحاكم (المستدرک ٢/٥٤٠) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١٣/٣٥٦). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم ٢٦٨٠).

فضل السورة:

عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فثَقَّ عليهم ذلك، وقالوا: أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن». (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيه عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ، برقم ٥٠١٥).

المقاصد:

- ١- إثبات توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.
- ٢- الردُّ على كل مَنْ نسب إلى الله تعالى الولد والبنات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ اللهُ الصَّمدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

سبب النزول: تقدّم في نزولها المكّي.

التفسير:

١-٤- يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يقول قولاً جازماً حاسماً للمشركين الذين قالوا: انسب لنا ربك، فعَلَّمَهُ أن يردَّ عليهم: إِنَّ رَبِّي هُوَ اللَّهُ المستحق وحده أن يُعبَد، لا يشاركه في عبادته أحد، وهو سبحانه الذي كمل في سؤدده وشرفه، لم يلد، ولم يتخذ ولداً ولم يكن له مثيلاً ولا مساوياً لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١- الله واحد في صفاته وأفعاله ليس كمثل شئ.
- ٢- تأكيد تنزيه الله ﷻ، فهو جامعٌ لصفات الكمال، الغنيُّ عن كلِّ ما سواه.

النزول: هي في قول الأكثرين مكية، وقيل: مدنية. (انظر: القرطبي ٢٢ / ٥٦٧).

فضل السورة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلةً جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات». (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، برقم ٥٠١٧).

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١-٢- يخاطب الله ﷻ نبيه، وأُمَّته كذلك، بالاستعانة به: الجأ إلى فالقِ الصبح؛ منجاةً من شرور الليل، فالله هو الذي خلق الصبح الذي كشف الليل.

٣- الجأ إلى الله من شرِّ الليل إذا اشتدَّت ظلمته. وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ يُراد به العموم، وقوله: ﴿وَقَبَ﴾ أي: غمر، وتغلغل ظلامه في كلِّ شيء، وهو وقت يتَحَيَّنُه أصحاب الشر والغدر لتحصيل المكروه الذي ينشدونه.

٤- ألتجئ إلى الله من شرِّ الساحرات اللواتي ينفخن في الشيء مع تحريك اللسان، ويفعله السحرة إذا وضعوا سحرهم في شيء، وعقدوا عليه عُقَدًا، ثم نفثوا عليها. ويزعم السحرة أن السحر يستمرُّ ما دامت تلك العُقَدُ معقودة؛ ولذلك يخافون من حَلِّها، فيدفنونها في مكان لا يُهتدى إليه.

٥- ألتجئ إلى الله من شرِّ الحاسد إذا حسد، وهو أن يتمنى الحاسد زوال نعمة في الآخرين لأجل الغيرة، وهو خلاف الغبطة؛ إذ يتمنى المرء أن يكون له من الخير مثل من تروقه حاله.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - يَحْسُنُ بالمسلم أن يلتجئ إلى الله؛ ليحفظه من الشرور وأصحابها.
- ٢ - في الآية (٤) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ نتيجة ما تفعله السَّاحرات اللاتي ينفخنَ فيها يعقدنَ من عقد هو السحر.
- ٣ - في الآية (٥) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ نتيجة حسد الحاسد الميغض للناس على ما وهبهم الله من نِعَمٍ هو زوال النعم عنهم.
- ٤ - الحسد مرض خطير، ومعصية الله عظيمة.
- ٥ - السُّحْرُ مدخل من مداخل الكفر، وكبيرة من كبائر الذنوب.

النزول: مكية، وقيل: مدنية على حسب الخلاف في سورة الفلق. (انظر: القرطبي ٢٢ / ٥٦٦).

فضل السورة: تقدّم ذكره في فضل سورة الفلق.

المقاصد:

تقرير توحيد العبودية والربوبية لله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير:

١-٣- يخاطب الله النبي ﷺ وأُمَّته للالتجاء إلى الله والاعتصام به من شرِّ ما يلقيه الشيطان في قلوب الناس، فيُضِلُّون ويُضِلُّون، والله هو الملك الحق الغنيُّ عن الخلق، المستحقُّ للعبادة الذي لا معبود بحقِّ سواه.

٤- وهذا الالتجاء إلى الله حاصل من أذى الشيطان الذي يتحدَّث بالكلام الخفي عند الغفلة، وما يخطر بنفس المرء من الخواطر الشريرة والمتوهمة، ويشمل الوسواسُ كلَّ ما يتكلَّم كلاماً خفياً من الناس، وهم أصحاب المكاييد الذين يريدون إلحاق الأذى بالآخرين، ويُغرِّون الناس بذلك، وهذا الشيطان الذي يُتَعَوَّذُ منه يخفي ويتوارى عند ذكر الله.

٥- وهو الذي يبثُّ الأذى والشك في صدور الناس؛ ليُثْنِيَهُمْ عن عقائدهم الراسخة.

٦- وأنا أعتصم بالله من شرِّ الجنِّ، وشرِّ الناس.

الفوائد والاستنباطات:

١- لبيان فضل الناس، كررت السورة ذكْرَهُمْ خمس مرات، وُحِّتْ بِهِمْ كلمات الكتاب.

٢- لا يستغني الإنسان عن مصدر للقوة وللعزة يلجأ إليها دائماً، وليس له إلا الله تعالى.

٣- قال ابن كثير: «هذه ثلاث صفات من صفات الربِّ ﷻ: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو ربُّ كلِّ شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له ومملوكة، عبيد له، فأمر المستعيز أن يتعوَّذَ بالمتصف بهذه الصفات». (تفسير القرآن العظيم ٤ / ٧٤٩).

٤- في الآيتين (٥-٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ نتيجة أذى شياطين الجنِّ والإنس الذين يوسوسون في صدور النَّاسِ عند الغفلة أنَّهم يبيثون الشرَّ والشكوك.

أهم المراجع والمصادر

- القرآن الكريم - طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة.
- آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.
- آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.
- الآيات العلمية: عبد الرزاق نوفل، مكتبة الأنجلو المصرية.
- أبحاث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة الكويت ١٤٢٧هـ.
- أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة دبي ١٤٢٥هـ.
- أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا ١٤٣٢هـ.
- أبحاث مؤتمر كلية الشريعة السابع إعجاز القرآن الكريم - جامعة الزرقاء الأهلية - الأردن، ٢٠٠٥م.
- إنحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، تحقيق عبدالعزيز الرشودي - رسالة ماجستير كلية الحديث - الجامعة الإسلامية.
- الإنقان في علوم القرآن، للسيوطي ت ٩١١هـ، مطبعة الحلبي، القاهرة ط ٤، سنة ١٣٩٨هـ.
- أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعارف، بيروت.
- أحكام القرآن للجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الأسرار الطبية والأحكام الفقهية في تحريم الخنزير، د. محمد علي البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
- أسرار الكون بين العلم والقرآن: عبد الدائم الكحيل: ط ١، ٢٠٠٦م.
- أسماء سور القرآن الكريم، د. محمد الشايح، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ط الأولى، ١٤٣٢هـ.
- الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم: السيد عبد الستار المليجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان، للشيخ محمد الشنقيطي، طبع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: منهج التدريس الجامعي، الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح والدكتور عبد الجواد الصاوي، دار جياذ للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: نايف منير فارس، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٦م.
- إعجاز القرآن الكريم في العمارة والعمران: يحيى وزيري، عالم الكتب، ٢٠٠٨م.
- الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم د. سليمان عمر غوش، دار الثقافة، ١٩٩٥م.
- الأنوار الساطعات لآيات جامعات للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان رحمه الله، طبعة الرياض.
- أنوار التنزيل، البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
- إيجاز البيان في سور القرآن، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، مكة المكرمة.
- أسرار التفاسير، أبي بكر الجزائري، بدون ذكر الطبعة.

- بيان إعجاز القرآن للخطابي.
- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، طبعة مؤسسة التاريخ، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، دار الفكر، بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم الرازي ت ٣٣٧ هـ عشرة رسائل ماجستير ودكتوراه في جامعة أم القرى، مكتوبة على الآلة الكاتبة، وطبع منها مجلدان - مكتبة الدار - المدينة المنورة.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت.
- تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت.
- تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعه وعلق عليه: إباد القيسي، دار ابن الجوزي.
- التفسير الصحيح، موسوعة التفسير المسبور من التفسير بالمأثور، إعداد أ.د. حكمت بن بشير ياسين، دار ابن الجوزي.
- تفسير القاسمي، المسمى محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق حكمت بن بشير ياسين، دار ابن الجوزي - الدمام.
- تفسير القرآن الكريم لفضيلة الشيخ ابن عثيمين، دار النجاح للكتاب، القاهرة.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت.
- التفسير المنهجي، مجموعة من المفسرين، دار المنهل، ط الأولى، ٢٠٠٤ م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، بيروت.
- التفسير من سنن سعيد بن منصور.
- التفسير الموضوعي، سور القرآن الكريم، إعداد نخبة من المفسرين إشراف د. مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ط الأولى، ١٤٣١ هـ.
- التفسير الوجيز ومعجم معاني القرآن العزيز، د. وهبة الزحيلي، إحياء التراث العربي، بيروت.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للشيخ عبدالرحمن بن بن ناصر السعدي، طبع وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبعة الرياض.
- الجواب الصحيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ونسخة بتحقيق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر - ونسخة بتحقيق معالي الأستاذ الدكتور عبد الله التركي.
- جامع الرسائل لابن تيمية.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت ٦٧١ هـ طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- داء الإيدز والأمراض التناسلية، تأليف الفاضل العبيد عمر، ط دار التفائس سنة ١٩٩٣ م.
- درء تعارض العقل والنقل، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
- الدر المصون، السمين الحلبي، تحقيق: د. محمد أحمد الخراط، دار القلم، بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الزهد، لأحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١ هـ دار الكتب العلمية، لبنان سنة ١٣٩٨ هـ.
- السراج المنير للخطيب الشربيني.
- السلسلة الصحيحة، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ.
- سنن الدرامي، للإمام الدرامي، تحقيق وتخريج وفهرسة فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، نشر دار الريان للتراث القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
- السنن الكبرى، للإمام البيهقي ومعه الجوهر النقي، للعلامة المارديني، تحقيق عبد القادر عطا، طبعة دار الفكر.
- سنن الله الكونية: الدكتور محمد أحمد الغمراوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ١، ١٩٣٦ م.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق طه سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.
- شرح السنة، للإمام البغوي، تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي ١٣٩٠ هـ.
- شعب الإيمان للبيهقي، صورة عن الطبعة الهندية، دائرة المعارف.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١٤١٤، ٢ هـ.
- صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير - بيروت - ط ٣.
- صحيح الجامع الصغير، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي - دمشق - الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ.
- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند، للشيخ الألباني، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ.
- صحيح سنن أبي داود باختصار السند، للشيخ الألباني - نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- صحيح سنن الترمذي، باختصار السند - للشيخ الألباني - نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.
- صحيح سنن النسائي باختصار السند، للشيخ الألباني - نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بشير ياسين، دار المآثر، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط الرابعة، ١٤٣٠هـ.
- صور إعجازية في القرآن الكريم: الدكتور جمال محمد الزكي، الفا للنشر والتوزيع.
- الطب محراب للبايعان د. خالص جليبي.
- غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني - ت ٨٥٢ هـ طبعة دار الفكر - بيروت - نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، لصدّيق حسن خان، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤١٢هـ.
- فتح القدير للإمام الشوكاني، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء، ط الثالثة، ١٤٢٦هـ.
- فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، تأليف حمدي بن حمزة الصريصري، ط ٤، الرياض ١٤٣٠هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزنجشيري، دار المعرفة، بيروت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، لأبو الحسن علي بن محمد الخازن بحاشية البغوي، دار الفكر، بيروت.
- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل.
- لباب النقول في أسباب النزول، للإمام السيوطي ت ٩١١ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٩م.
- مباحث في إعجاز القرآن: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٨م.
- مجلة الإعجاز العلمي: الأعداد (٢١، ٢٥، ٢٧، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٣٨)، إصدار الهيئة العالمية لإعجاز القرآن الكريم - رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لنور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ت ٨٠٧ هـ بتحريه الحافظين العراقي وابن حجر، مطبعة دار الكتاب، بيروت، ط ٢ ١٩٦٧م.
- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطابع الرياض.
- المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥هـ.
- المختارة، للضياء المقدسي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهب، مكتبة النهضة، مكة المكرمة.
- مختصر الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- مدارك التنزيل للنسفي، دار الفكر، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين، للحافظ الحاكم، وبذيله التلخيص، للحافظ الذهبي صورة عن الطبعة الهندية.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق نخبة من العلماء، إشراف معالي د. عبدالله التركي.
- المسند، أبو داود الطيالسي، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند.
- المصنف في الأحاديث والآثار، للإمام ابن أبي شيبة، تحقيق مختار أحمد الندوي، مطبوعات الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لابن حجر العسقلاني - دار المعرفة - بيروت.
- معاني القرآن للزجاج - دار ابن الجوزي - الدمام.

- المعجم الأوسط، للمحافظ الطبراني، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- المعجم الكبير، للمحافظ الطبراني، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، دار المعرفة، بيروت.
- المقتطف من عيون التفاسير لمصطفى الحصن المنصوري، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٦هـ.
- المنظار الهندسي في القرآن: خالد فائق العبيدي، ط ١، دار المسيرة - عمان، ٢٠٠٩م.
- المكتفى في الوقف والإبتداء للإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، دار الفكر، بيروت.
- المكّي والمدني من السور والآيات، د. محمد الفالح، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.
- من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت لبنان، ٢٠٠٧م.
- من روائع الإعجاز في القرآن: الدكتور جمال الدين الفندي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ.
- منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- موسوعة التفسير الموضوعي.
- موطأ مالك مع شرحه تنوير الحوالك للسيوطي - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
- نظم الدرر، للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، وعمود طنّاحي، المكتبة الإسلامية بمصر.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب القيسي، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، ط الأولى، ١٤٢٩هـ.

المواقع الالكترونية:

- موقع الدكتور زغلول النجار <http://www.elnaggarzr.com/>
- موقع الدكتور محمد راتب النابلسي <http://nabulsi.com/>
- موقع الدكتور نظمي خليل أبو العطا <http://www.nazme.net/ar/?p=home>
- موقع المهندس عبد الدائم الكحيل <http://kaheel7.com/>
- موقع موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة <http://quran-m.com/>
- موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في الكتاب والسنة <http://www.cajaz.org/>
- موقع اليوتيوب <http://www.youtube.com>

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١	تفسير سورة الفاتحة
٦	تفسير سورة البقرة
١٣٩	تفسير سورة آل عمران
١٩٩	تفسير سورة النساء
٢٧٨	تفسير سورة المائدة
٣٣٥	تفسير سورة الأنعام
٣٩١	تفسير سورة الأعراف
٤٦١	تفسير سورة الأنفال
٤٩٧	تفسير سورة التوبة
٥٥١	تفسير سورة يونس
٥٨٠	تفسير سورة هود
٦١٧	تفسير سورة يوسف
٦٤٩	تفسير سورة الرعد
٦٦٥	تفسير سورة إبراهيم
٦٧٩	تفسير سورة الحجر
٦٩٤	تفسير سورة النحل
٧٢٥	تفسير سورة الإسراء
٣	تفسير سورة الكهف
٢٩	تفسير سورة مريم
٤٨	تفسير سورة طه
٧٠	تفسير سورة الأنبياء
٩١	تفسير سورة الحج
١١٢	تفسير سورة المؤمنون
١٣٤	تفسير سورة النور
١٦٠	تفسير سورة الفرقان
١٧٤	تفسير سورة الشعراء
١٩٤	تفسير سورة النمل
٢١٥	تفسير سورة القصص
٢٤٠	تفسير سورة العنكبوت
٢٦٠	تفسير سورة الروم

٢٧٦	تفسير سورة لقمان
٢٨٧	تفسير سورة السجدة
٢٩٥	تفسير سورة الأحزاب
٣٢١	تفسير سورة سبأ
٣٣٨	تفسير سورة فاطر
٣٥٢	تفسير سورة يس
٣٦٩	تفسير سورة الصافات
٣٩٢	تفسير سورة ص
٤٠٧	تفسير سورة الزمر
٤٢٦	تفسير سورة غافر
٤٤٤	تفسير سورة فصلت
٤٥٦	تفسير سورة الشورى
٤٧١	تفسير سورة الزخرف
٤٨٥	تفسير سورة الدخان
٤٩٢	تفسير سورة الجاثية
٥٠٠	تفسير سورة الاحقاف
٥١٢	تفسير سورة محمد
٥٢٢	تفسير سورة الفتح
٥٣٣	تفسير سورة الحجرات
٥٤٢	تفسير سورة ق
٤٤٩	تفسير سورة الذاريات
٥٥٨	تفسير سورة الطور
٥٦٤	تفسير سورة النجم
٥٧١	تفسير سورة القمر
٥٧٩	تفسير سورة الرحمن
٥٨٧	تفسير سورة الواقعة
٥٩٥	تفسير سورة الحديد
٦٠٤	تفسير سورة المجادلة
٦١٣	تفسير سورة الحشر
٦٢٣	تفسير سورة الممتحنة
٦٣٠	تفسير سورة الصف
٦٣٤	تفسير سورة الجمعة

٦٣٨	تفسير سورة المنافقون
٦٤٢	تفسير سورة التغابن
٦٤٧	تفسير سورة الطلاق
٦٥٣	تفسير سورة التحريم
٦٥٨	تفسير سورة الملك
٦٦٦	تفسير سورة القلم
٦٧٤	تفسير سورة الحاقة
٦٨١	تفسير سورة المعارج
٦٨٦	تفسير سورة نوح
٦٩٣	تفسير سورة الجن
٧٠٠	تفسير سورة المزمل
٧٠٦	تفسير سورة المدثر
٧١٣	تفسير سورة القيامة
٧١٩	تفسير سورة الإنسان
٧٢٦	تفسير سورة المرسلات
٧٣١	تفسير سورة النبأ
٧٣٥	تفسير سورة النازعات
٧٣٩	تفسير سورة عبس
٧٤٢	تفسير سورة التكويد
٧٤٥	تفسير سورة الانفطار
٧٤٧	تفسير سورة المطففين
٧٥٠	تفسير سورة الانشقاق
٧٥٣	تفسير سورة البروج
٧٥٦	تفسير سورة الطارق
٧٥٨	تفسير سورة الأعلى
٧٦١	تفسير سورة الغاشية
٧٦٤	تفسير سورة الفجر
٧٦٩	تفسير سورة البلد
٧٧٢	تفسير سورة الشمس
٧٧٤	تفسير سورة الليل
٧٧٧	تفسير سورة الضحى
٧٧٩	تفسير سورة الشرح

٧٨١	تفسير سورة التين
٧٨٣	تفسير سورة العلق
٧٨٥	تفسير سورة القدر
٧٨٧	تفسير سورة البينة
٧٨٩	تفسير سورة الزلزلة
٧٩١	تفسير سورة العاديات
٧٩٣	تفسير سورة القارعة
٧٩٥	تفسير سورة التكاثر
٧٩٧	تفسير سورة العصر
٧٩٩	تفسير سورة الهمزة
٨٠١	تفسير سورة الفيل
٨٠٢	تفسير سورة قريش
٨٠٣	تفسير سورة الماعون
٨٠٥	تفسير سورة الكوثر
٨٠٦	تفسير سورة الكافرون
٨٠٧	تفسير سورة النصر
٨٠٨	تفسير سورة المسد
٨١٠	تفسير سورة الإخلاص
٨١١	تفسير سورة الفلق
٨١٣	تفسير سورة الناس
٨١٤	فهرس المصادر والمراجع